الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
نيلسون ديميل
Nelson DeMille
المؤلف الذي تحتل كتبه المراتب الأولى على قوائم «نيويورك تايمز»
مؤلف «ابنة الجنرال» و«كارثة الليل»
العودة إلى الخائنة
The Gate House
رواية

ترجمة
تيا معوض

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Gate House

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Grand Central Publishing

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2008 by Nelson DeMille

All rights reserved

Arabic Copyright © 2009 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ – 2010 م

ردمك 978-614-421-002-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 1 00961

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 1 00961

الإهداء

هذا الكتاب مُهدى إلى جيمس نيلسون ديميل،
فصل جديد في حياتي.

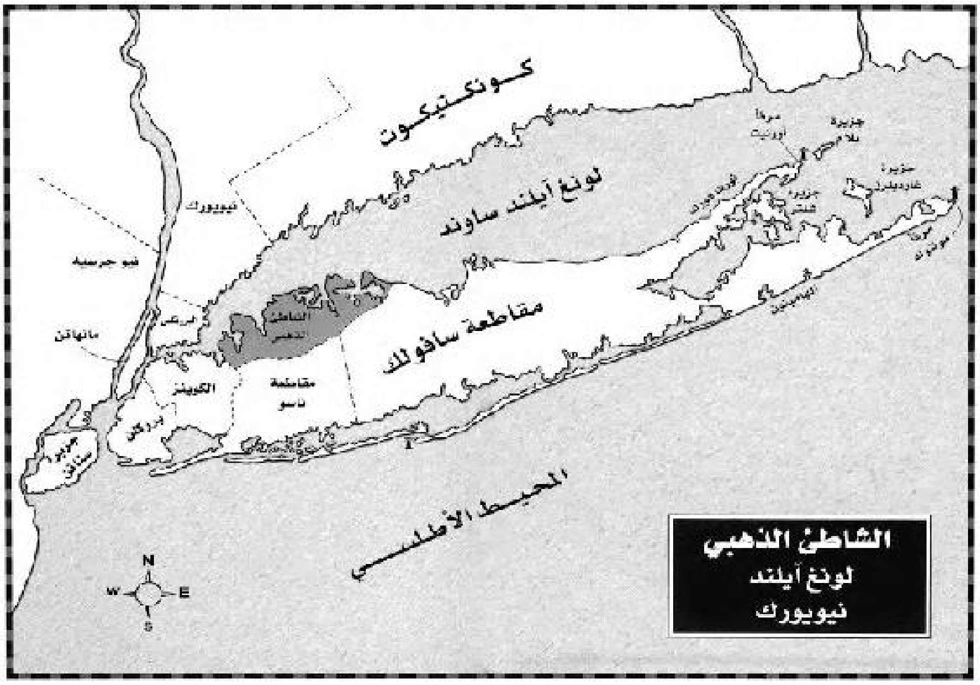

مقدمة

ما أجمل هذه الحديقة حيث تتنافس
أزهار الأرض مع نجوم السماء.

هل هناك من شيء يمكن مقارنته
بحوض النافورة الرخامية المليء بماء بلوري؟

لا شيء سوى القمر المكتمل بدراً،
الساطع في وسط السماء الخالية من الغيوم!

نقش على جدار قصر الحمرا، في غرناطة، إسبانيا

من واشنطن إيرفينغ، الحمرا

إنها أمسية صيفية دافئة، وتحت ضوء البدر الفضّي، كنت، أنا، جون ويتمان ساتر، أراقب زوجتي، سوزان ستانهوب ساتر، فيما تمتطي صهوة جوادها زنجبار في الأراضي الهادئة لستانهوب هال، ممتلكات أجدادها.

كان نور البدر الصاعد ساطعاً جداً، وأنار المشهد الطبيعي بوهج خارق للطبيعة، حوّل كل الألوان إلى ظلال فضية من الأزرق والأبيض.

عبرت سوزان صفاً من أشجار الصنوبر الطويلة، ودخلت إلى ملكية مجاورة اسمها الحمرا، وتساءلت عن سبب اجتيازها لهذه الملكية، وتمنيت أن تكون قد حصلت على الإذن من مالك الحمرا الجديد، سيد المافيا واسمه فرانك بيلاروزا.

عكست الأشجار الضخمة ظلالاً طويلة فوق الحقول العشبية، واستطعت من البعيد رؤية القصر العملاق، الذي كان مظلماً باستثناء ضوء واحد ساطع من الأبواب الزجاجية المغلقة لشرفة في الطابق الثاني. أعرف أن هذه الشرفة تؤدي إلى المكتبة حيث يجلس فرانك بيلاروزا على كرسيه الجلدي الكبير.

توقفت سوزان قرب المنزل، وترجلت عن الجواد، وربطت زنجبار بشجرة. ومشت إلى حافة حوض سباحة رخامي طويل موجود وسط حديقة كلاسيكية من الآثار الرومانية المقلدة.

عند الطرف البعيد للحوض، ثمة تمثال لنبتون يحمل رمحاً ثلاثي الشعب، وعند قدميه ثمة أسماك صخرية تقذف الماء من أفواهها المفتوحة في محارة رخامية كبيرة تسكب ماءها في الحوض.

في الطرف المقابل للحوض، الأقرب إليّ، هناك تمثال جديد، أعرف أن زوجة بيلاروزا وضعته هنا لإحداث توازن مع التمثال الآخر.

ثمة نسمة خفيفة وناعمة حرّكت أشجار السرو، وبدأت عصافير الليل تزقزق. إنها أمسية جميلة، وبدت سوزان مفتونة بضوء القمر والحديقة الساحرة. كنت أيضاً مذهولاً بهذه الأمسية.

عندما أعدت انتباهي مجدداً إلى سوزان، لاحظت أن سوزان عند حافة الحوض، فيما شعرها الأحمر يتطاير في الهواء، وراحت تحدّق إلى انعكاسها في الماء.

أردت الانضمام إليها، لكنني لاحظت أن الضوء في المكتبة اختفى، وأصبحت أبواب الشرفة الآن مفتوحة، بالرغم من عدم وجود أحد هناك، مما جعلني أرتاب، فبقيت حيث أنا في الظل.

بعدها شاهدت رجلاً يتكئ على الجدران البيضاء للحمرا، ثم تحرك في خطى طويلة وقوية باتجاه حوض السباحة. وبينما كان يقترب، لاحظت أنه بيلاروزا، وكان يرتدي ثوباً أسود. أصبح يقف الآن قرب تمثال نبتون، وبدا وجهه غير طبيعي في ضوء القمر. أردت مناداة سوزان، لكنني لم أستطع.

بدا أن سوزان لم ترَه، واستمرت في التحديق إلى انعكاسها، لكن بيلاروزا حدّق إلى سوزان. وشعرت بالإهانة لأن هذا الرجل ينظر إلى زوجتي.

بقي هذا المشهد جامداً، وكان فرانك وسوزان جامدين مثل التمثال خلفهما، كذلك كنت أنا أيضاً متجمداً، وعاجزاً عن التدخل، بالرغم من أنني أردت حماية سوزان.

من ثم لاحظت أنها أدركت وجود بيلاروزا، لكنها لم تتفاعل. لا أفهم هذا. لا يفترض بها الوقوف أمام هذا الرجل. غضبت منها، ومنه، وتسارع دفق من الغيظ في رأسي، لكنني لم أستطع التعبير عن هذا الغيظ بكلمات أو بأصوات.

فيما حدّقت إلى سوزان، أدارت ظهرها للحوض، ولبيلاروزا، وظننت أنها ستغادر. ثم وجهت رأسها نحوي، كما لو أنها سمعت صوتاً. تقدمت خطوة نحوها، لكنها رفعت ذراعيها فجأة، وقفزت في حوض السباحة، وعبرت بخطوات طويلة وقوية الماء المضاء بالقمر باتجاه فرانك بيلاروزا. نظرت إليه، ولاحظت أنه هو الآخر، أصبح يقف وهو يشبك ذراعيه أمام صدره. إنه رجل ضخم وقوي البنية، وبدا تحت ضوء القمر مهيباً مثل التمثال الصخري قربه.

أردت مناداة سوزان، لتحذيرها بضرورة العودة، لكن شيئاً ما طلب مني البقاء صامتاً؛ لرؤية ما سيحدث.

وصلت سوزان إلى الطرف البعيد للحوض، ورفعت نفسها للجلوس في المحارة المليئة بالماء، حيث وقفت قرب تمثال نبتون المهيب. كانت تنظر إلى بيلاروزا، الذي لم يتحرك أبداً عن حافة الحوض، إلا لينظر نحوها.

حدّقا إلى بعضهما بعضاً، بجمود غير طبيعي، ثم تقدم بيلاروزا نحو الماء الضحل في المحارة حيث وقف أمام سوزان.

إنهما يتحدثان، لكن كل ما استطعت سماعه هو صوت خرير الماء. غضبت من هذا المشهد، لكنني لا أزال عاجزاً عن التصديق أن سوزان تريد التواجد هناك، وانتظرتها حتى تغوص مجدداً في الحوض، وتسبح بعيداً عنه. لكن كلما بقيت واقفة أمامه، أدركت أكثر فأكثر أنها جاءت للقائه.

"سيد ساتر! سيد ساتر! سيدي، نحن نهبط. أرجوك، اربط حزامك".

"ماذا...؟".

قال صوت أنثوي: "نحن نهبط. عليك تثبيت حزامك، وجعل مقعدك في الوضعية الصحيحة".

"آه...". عدّلت وضعية مقعدي، وثبّتّ الحزام... ثم تذكرت حلمي.

لم أسأل سوزان أبداً كيف ومتى وأين بدأت علاقتها الغرامية مع فرانك بيلاروزا - ليس هذا نوع المعلومات الذي يحتاج المرء إلى سماعه بالتفصيل - لكنه أمر بقي ناقصاً مما أعرفه. لو كنت أتعامل مع طبيب نفسيّ لكان قال لي إن حلمي هو محاولة غير واعية لملء هذا النقص؛ الجزء الناقص من العلاقة. لم يعد هذا مهماً بعد مرور عقد كامل على طلاقي منها. على الصعيد القانوني، اتهمتها بالخيانة، واعترفت هي بها. لم تسأل المحكمة عن أي تفاصيل أخرى أو شهادات علنية، ولم أسأل أنا أيضاً.

عبرت رحلة الخطوط الجوية البريطانية الآتية من لندن إلى نيويورك ساوند لونغ آيلند، وهبطت في مطار جون أف. كنيدي الدولي. إنه يوم مشمس، وقد تجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر بقليل، من يوم الاثنين في 27 مايو، وتذكرت أن اليوم هو يوم الذكرى في أميركا. في الأسفل، على الشاطئ الشمالي للونغ آيلند، رأيت مكاناً اسمه الشاطئ الذهبي (غولد كوست)، حيث كنت أعيش قبل عشرة أعوام. وإذا نظرت جيداً كفاية، ربما أستطيع رؤية الممتلكات الكبيرة المجاورة المعروفة بستانهوب هال، والتي كانت تعرف قبلاً بالحمرا.

أعيش الآن في لندن، وسبب عودتي إلى أميركا هو رؤية سيدة عجوز تموت، أو ربما ماتت خلال رحلتي التي امتدت سبع ساعات. وفي حال ماتت، أكون قد وصلت في الوقت المناسب للدفن، حيث سأرى سوزان ستانهوب ساتر.

يفترض بوجود الميت في التابوت أن يذكرنا ببعض الأمور العميقة حول قِصَر الحياة، ويجعلنا نعيد النظر في العديد من خيبات الأمل والاستياءات والخيانات

التي لا نستطيع نسيانها. إلا أننا لسوء الحظ نأخذ معنا هذه الأمور إلى القبر عموماً، أو إلى قبر الشخص الذي لم نستطع مسامحته في الحياة.

سوزان.

لكن بين الحين والآخر، نجد في قلوبنا فسحة للمسامحة، علماً أن ذلك لا يكلف أي شيء، سوى خسارة بعض الكبرياء. وربما هذه هي المشكلة.

كنت جالساً في الجانب الأيمن من الطائرة في مقصورة الأعمال، واتجهت كل الرؤوس نحو النوافذ، للتركيز على سماء مانهاتن. إنه فعلاً مشهد مرعب عن ارتفاع ثلاثة أو أربعة آلاف قدم، لكن منذ تسعة أشهر تقريباً، أصبح الهاجس الرئيسي للأشخاص الذين يعرفون المدينة هو الجزء الناقص من المشهد. في المرة الأخيرة التي زرت فيها نيويورك، بعد أسابيع قليلة على أحداث 11 سبتمبر، كان الدخان لا يزال يتصاعد من الركام. هذه المرة، لا أريد النظر إلى المكان لكن الرجل الجالس قربي قال: "هنا كان البرجان. إلى اليسار". أشار أمام وجهي. "هناك".

أجبته: "أعرف" وفتحت مجلة. معظم الأشخاص الذين لا أزال أعرفهم هنا في نيويورك أخبروني أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر جعلتهم يعيدون النظر في حياتهم وينظرون إلى الأمور من منطلق مختلف. هذه خطة جيدة للمستقبل، لكنها لا تغير الماضي.

بدأت رحلة الخطوط الجوية البريطانية هبوطها الأخير إلى مطار كنيدي، ولمسنا الأرض بعد دقائق قليلة.

قال لي الرجل الجالس قربي: "من الجيد العودة إلى الديار". ثم سألني: "هل ديارك هنا؟".

"لا".

سأكون سريعاً في سيارة مستأجرة في طريقي إلى المكان الذي كنت أسميه قبلاً منزلاً، لكنه أصبح الآن مكاناً اختفى جزئياً من عقلي بفعل الوقت، ماحياً معه العديد من الذكريات الجميلة وتاركاً وراءه الحوافّ القاسية والمسننة لخيبات الأمل والاستياءات والخيانات.

خففت الطائرة سرعتها، ثم توجهت نحو المدرج المؤدي إلى المحطة.

بعد أن أصبحت هنا الآن، وسأبقى هنا حتى الدفن، ربما يجدر بي الاستفادة من الوقت لمحاولة التوفيق بين الماضي والحاضر؛ بحيث ربما أرى أحلاماً أفضل في رحلة العودة.

القسم الأول

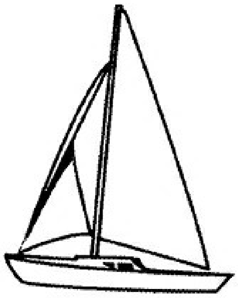

هكذا تقدمنا، في قوارب عكس التيار،
مدفوعين باستمرار إلى الماضي.

أف. سكوت فيتزجيرالد
"غاتسباي العظيم"

الفصل الأول

مضى أسبوع على عودتي من لندن، وكنت أجلس أمام الطاولة في غرفة الطعام في منزل الحراسة الصغير لستانهوب هال، الملكية السابقة لزوجتي السابقة، أتصفح الملفات القديمة، وصور العائلة، والرسائل التي خبأتها هنا خلال العقد الأخير.

بعد طلاقي من سوزان، حققت حلماً قديماً بأخذ مركبي الشراعي، وهو مركب طوله ستّ وأربعون قدماً اسمه **بومانوك 2**، في رحلة حول العالم استمرت ثلاث سنوات. يصادف أن بومانوك هو الاسم الهندي الأصلي للونغ آيلند، وحرص جدي الشهير، والت ويتمان، من أهل لونغ آيلند الأصليين، على استخدام هذه الكلمة في شعره؛ ولو امتلك الجد والت مركباً طوله ستّ وأربعون قدماً، من المؤكد أنه كان سيطلق عليه اسم بومانوك وليس **اسمع أميركا تغني**، العبارة الطويلة جداً لتدوينها على الجزء الخلفي من المركب، أو **أوراق العشب** التي لا تبدو متناسقة مع البحر.

على أي حال، كانت محطتي الأخيرة في بورنماوث في إنكلترا، التي أبحر منها أسلافي القدامى، آل ساتر، باتجاه أميركا قبل ثلاثة قرون.

مع اقتراب فصل الشتاء، وتغلغل تعب البحر في عظامي، وتضاؤل حسابي المصرفي، وإشباع رغبتي في الأسفار، بعت المركب بنصف سعره تقريباً، وانتقلت إلى لندن للبحث عن وظيفة، ووقّعت أخيراً عقداً مع شركة قانون بريطانية تحتاج إلى محامي ضرائب أميركي، وهذا ما كنت عليه في نيويورك قبل أن أصبح قبطان المركب **بومانوك 2**.

وزعت بعض صور سوزان على الطاولة، ونظرت إليها تحت ضوء الثريا. كانت سوزان، وربما لا تزال، امرأة جميلة ذات شعر أحمر طويل، وعينين خضراوين ملفتتين، وشفتين ممتلئتين، وجسم مثالي لخيّالة متمرسة.

انتقيت صورة تظهر سوزان على مركبي الشراعي الأول، **بومانوك الأصلي**، وكان طوله ستًّا وثلاثين قدماً، أحببته لكنني أغرقته في مرفأ أويستر باي بدلاً من السماح للحكومة بالاستيلاء عليه مقابل الضرائب. أظن أن هذه الصورة التقطت في صيف العام 1990 في مكان ما من ساوند لونغ آيلند. تظهر الصورة يوماً صيفياً ساطعاً، وكانت سوزان تقف على ظهر الجزء الخلفي من المركب، ويكشف وجهها عن تفاجؤ وإحراج زائفين.

لا تملك سوزان جسماً رائعاً فقط، وإنما أيضاً خيالاً مذهلاً وقوة رائعة تتماشى معها. وبالنسبة إلى هدفها وهو إبقاء النار الزوجية مشتعلة، فقد نجح الأمر طوال عقدين من الزمن لأن كل خياناتنا كانت مع بعضنا. كانت هذه البداية على الأقل إلى أن ظهر على الساحة ممثل جديد، سيد المافيا فرانك بيلاروزا.

اخترت قنينة من الشراب القديم وجدتها على رف جانبي، وملأت فنجان القهوة خاصتي.

سبب عودتي إلى أميركا له علاقة بالساكنَين السابقَين لمنزل الحراسة هذا، جورج وإيثيل ألارد، اللذين كانا الخادمين القديمين لعائلة ستانهوب. جورج، رجل طيب توفي قبل عقد من الزمن، وزوجته، إيثيل، غير اللطيفة كثيراً، موجودة في دار العجزة وعلى وشك الانضمام إلى زوجها على أي حال، أنا محامي ممتلكات إيثيل، ولذلك عليّ الاهتمام بذلك وحضور دفنها.

السبب الآخر وراء عودتي هو أن منزل الحراسة هذا هو عنواني الرسمي في الولايات المتحدة، لكن هذا المنزل سينتقل لسوء الحظ إلى ملكية أمير نسيم، رجل إيراني بات يملك الآن المقرّ الرئيسي، ستانهوب هال، ومعظم الأراضي المحيطة به، بما في ذلك منزل الحراسة هذا. لكن في الوقت الحاضر، تملك إيثيل ما يعرف بملكية الحياة لمنزل الحراسة، ممّا يعني أنها تملك حق الإقامة فيه مجاناً حتى موتها. في الحقيقة، إن هذا المنزل مجاني الإيجار أعطاها إياه جدّ سوزان، أوغسطس ستانهوب (لأن إيثيل كانت عشيقة أوغسطس آنذاك)، وكانت إيثيل لطيفة كفاية للسماح لي بتوضيب أغراضي هنا ومشاركتها الإقامة حين أكون في نيويورك. إيثيل تكرهني، لكن هذه قصة أخرى. على أي حال، ستنتهي إقامة إيثيل في هذا المنزل وفي هذا الكوكب قريباً، ولذلك عدت من لندن ليس لوداع إيثيل فقط وإنما أيضاً للعثور على مكان جديد لممتلكاتي، والعثور على عنوان أميركي شرعي آخر، علماً أن هذا ضروري للمواطنية وللدائنين.

إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى نيويورك بعد سبتمبر الماضي، حين عدت من لندن ما إن عاودت الطائرات رحلاتها. بقيت ثلاثة أيام في نادي يال حيث حافظت على عضويتي لأجل رحلات عملي غير المتواترة إلى نيويورك، وصدمت كيف أصبحت المدينة العظيمة هادئة وفارغة وحزينة.

لم أجرِ اتصالات هاتفية ولم أقابل أحداً. كنت أودّ رؤية ابنتي، كارولين، لكنها هربت من شقتها في بروكلين مباشرة بعد أحداث 11 سبتمبر للإقامة مع أمها في هيلتون هيد في كارولينا الجنوبية. أما ابني، إدوارد، فيعيش في لوس أنجلوس. هكذا، وطوال ثلاثة أيام، مشيت في الشوارع الهادئة للمدينة، وراقبت الدخان يتصاعد مما بات يعرف بالموقع صفر.

شعرت بالحزن والإرهاق، فركبت الطائرة وعدت إلى لندن، وأنا أشعر أنني فعلت الشيء الصحيح، مثلما يفعل الأشخاص الذين يعودون إلى الوطن بسبب موت في العائلة.

خلال الأشهر القليلة التالية، علمت أن أحد عشر شخصاً أعرفهم ماتوا في انهيار البرجين. كانوا بمعظمهم جيراناً سابقين وشركاء في العمل، ومعهم أيضاً صديق مقرّب ترك وراءه زوجة وثلاثة أولاد صغار.

الآن، بعد تسعة أشهر على أحداث 11 سبتمبر، عدت مجدداً. بدت الأمور، وكأنها عادت إلى سابق عهدها، ولكن ليس تماماً.

شربت القهوة والشراب، ونظرت حولي إلى أكوام الأوراق. هناك الكثير من الأوراق التي يتوجب عليّ تصفحها، وتمنيت لو أن إيثيل تصمد قليلاً أكثر، وألا ينوي السيد نسيم وضع يده على منزل الحراسة ما إن تنتهي مدة صلاحية حياة

إيثيل. أحتاج إلى التحدث مع السيد نسيم بشأن ذلك. فالتحدث مع إيثيل للصمود حتى أكون قد انتهيت من توضيب أغراضي قد يبدو غير منطقي وأنانياً.

بما أن الليل كان بارداً، وبما أنني لا أملك آلة لتمزيق الأوراق، أشعلت ناراً في موقد غرفة الطعام. وبين الحين والآخر، كنت أضرم النار بورقة أو صورة لا أريد أن يراها ولداي إذا توفيت فجأة.

في هذه الفئة، هناك صور لأمهما، سوزان كانت، ولا تزال، مجنونة قليلاً. لكن كي أكون صادقاً، لا أهتم لذلك على الإطلاق، ولم يكن هذا سبب خلافاتنا الزوجية. فمشكلتنا كانت بلا شك علاقة سوزان مع جارنا سيد المافيا. ولتعقيد الأمور أكثر، أطلقت عليه النار وقتلته. ثلاث طلقات.

جمعت الصور، وأدرت الكرسي باتجاه الموقد. نواجه جميعاً مشكلة في مشاركة مثل هذه الأمور، لكنني أستطيع أن أقول لكم، بصفتي محامياً ورجلاً، إنه لا جدوى أبداً من الاحتفاظ بأي شيء لا تريد أن تراه عائلتك أو أعداؤك. أو نصفك الآخر، لهذا الغرض. حدّقت إلى النار، وشاهدت ألسنة اللهب تتراقص، لكنني تشبثت بالصور.

إذاً، أطلقت النار على عشيقها، فرانك بيلاروزا، سيد كل الأسياد، وهربت من العقاب - قانونياً على الأقل - بسبب ظروف وجدتها وزارة العدل مخففة وملطفة للعقوبة.

في الحقيقة، إن وزارة العدل خففت من أهمية القضية لأنها ارتكبت خطأ السماح للسيدة ساتر بالنفاذ من دون حواجز إلى السيد بيلاروزا، الذي كان تحت الإقامة الجبرية في الفيلا الخاصة به، وكان أيضاً يسبب لهم المشاكل، ويحتاج بالتالي إلى البقاء سعيداً مع زوجة رجل آخر.

لا أزال مشككاً قليلاً في القضية كلها، مثلما ترون، لكنني تخطيتها من حيث المبدأ.

في غضون ذلك، أحتاج إلى التقرير ما إذا كانت هذه الرحلة لحضور وفاة أم أنها ربما شيء أكثر ديمومة. حافظت على تعليمي القانوني المستمر، ولا أزال عضواً في نقابة ولاية نيويورك، ولم أحرق بالتالي كل جسوري، وأستطيع نظرياً العمل هنا. في الفترة الأخيرة من حياتي، كنت شريكاً في شركة والدي لبركينز، بركينز، ساتر، ورينولدز التي لا تزال موجودة في وول ستريت 23، في مبنى أثري قصفه ذات مرة الثوار في بداية القرن الماضي، لكن الأمر يبدو غريباً مقارنة مع أحداث 11 سبتمبر.

خلال السنوات السبع الأخيرة في لندن، عملت في شركة محاماة بريطانية والتي ذكرتها قبلاً وكنت محامي الضرائب الأميركي الذي شرح أن الاحتيال على خدمة العائدات الداخلية هو تقليد أميركي. وكان هذا ثأراً بالنسبة إليّ لأن خدمة العائدات الداخلية أفسدت حياتي فيما كانت زوجتي تفسد حياة سيد المافيا. كانت المشكلتان المنفصلتان ظاهرياً مترابطتين فعلياً، مثلما تبيّن لي.

أظن أنني عشت فترة نحس في ذلك الحين، وعرفت القليل من العدائية في حياة ساحرة ومميزة ما عدا ذلك. لكن العدائية تقوّي الشخصية، وكي أكون صريحاً، لم تكن غلطة سوزان لوحدها، أو غلطة فرانك بيلاروزا، أو غلطة خدمة العائدات الداخلية، أو غلطة شركائي في القانون. كانت غلطتي أيضاً لأنني تورطت مع فرانك بيلاروزا. القليل من العمل القانوني. مثل تمثيله في تهمة قتل. ليس هذا من الأمور التي أفعلها عادة كمحام في وول ستريت، وليس طبعاً من القضايا التي توافق عليها شركة بركينز، برّكينز، ساتر، ورينولدز. لذا، عالجت هذه القضية من مكتبي في لوكوست فالي، في لونغ آيلند، لكن لم يكن هناك غطاء كبير حين اكتشفت الصحف الأمر.

عند التفكير في ذلك، أعرف تماماً أنني كنت أرتكب نوعاً من الانتحار المهني والاجتماعي حين قبلت بسيد مافيا زبوناً لي. لكنه كان تحدياً، وكنت ضجراً، وقالت سوزان، التي وافقت على شراكتي مع فرانك بيلاروزا وشجعتها، إنني أحتاج إلى تحدٍّ. أظن أن سوزان كانت ضجرة هي الأخرى، ومثلما تبيّن لي لاحقاً، كان لها جدولها الخاص في ما يتعلق بفرانك بيلاروزا.

بالحديث عن سوزان، اكتشفت عبر ابني، إدوارد، أن أمه اشترت منزلنا مجدداً.

إذا وضعنا أصول التعبير السيئة جانباً - بالرغم من أنني أرسلت هذا الولد إلى مدارس رائعة - كان يقصد إدوارد أن سوزان استعادت ملكية منزل الضيوف الكبير في ممتلكات ستانهوب. في الحقيقة، إن هذا المنزل - المشتمل على ست غرف نوم - كان مقرّنا الزوجي طوال عشرين عاماً تقريباً، ويقع على مسافة ربع ميل تقريباً من العقار الأساسي. بمعنى آخر، أصبحت وسوزان الآن جارين.

منزل الضيوف والأكرات العشرة من الممتلكات تم كسبها من الأكرات المئتين والستين لعقارات ستانهوب بفضل الجهد المتواصل لوالد سوزان، ويليام، الذي هو رجل لا يحتمل، وقد أهداها إلى سوزان بمناسبة الزفاف. كنت أنا العريس، واستغربت دائماً سبب عدم إدراج اسمي على صك الملكية. لكن عليك فهم المثال القديم للإجابة عن هذا. عليك أن تفهم أيضاً رجالاً أمثال ويليام. من دون أن ننسى طبعاً زوجته المزعجة شارلوت، والدة سوزان. لا يزال هذان الشخصان لسوء الحظ على قيد الحياة وبصحة جيدة، يعيشان ويلعبان الغولف في هيلتون هيد في كارولينا الجنوبية، حيث تعيش سوزان منذ هفوة إطلاق النار التي أودت بحياة عشيقها قبل عشرة أعوام.

قبل أن تغادر سوزان إلى كارولينا الجنوبية، باعت منزل الضيوف لثنائي شاب ومثقف من مكان ما في غرب هادسون. تعرف أن زواجك في ورطة حين تبيع زوجتك المنزل وتنتقل إلى ولاية أخرى. لكن في الحقيقة كنت أنا من أنهى الزواج. فقد أرادت سوزان أن نبقى معاً، موضحة أن عشيقها قد مات، ولا داعي بالتالي للقلق بشأن مصادفته في حفلة. في الحقيقة، زعمت بأنها قتلته لهذا السبب. لذا، يمكننا البقاء سوية.

لم يكن الأمر هكذا بالضبط، لكنه بدا مقبولاً. في المقابل، ربما كان في وسعنا البقاء سوية، لكنني كنت مستاء جداً من فكرة خيانة زوجتي لي، وأصيبت أنانيتي

الرجولية بصفعة قوية. أقصد بذلك أن الأصدقاء والعائلة والأولاد ليسوا هم فقط من عرفوا أن سوزان تقيم علاقة مع سيد المافيا، وإنما البلاد كلها عرفت ذلك حين وصل الخبر إلى الصحف: سيد المافيا الميت كان عشيق زوجة المحامي. أو شيء من هذا القبيل.

كان الأمر لينجح معنا لو أنني أنا قتلت عشيقها بنفسي، مثلما اقترحت سوزان. لكنني ما كنت لأنجو بسهولة مثلما نجت. فحتى لو كنت أملك الدافع للقتل - جريمة شرف – لتوجّب عليّ إعطاء بعض التفسيرات لأصدقاء السيد بيلاروزا وعائلته.

هكذا، باعت المنزل، وتركتني مشرداً، باستثناء نادي يال في مانهاتن، حيث لا أزال دائماً محط ترحيب. لكن سوزان اقترحت، وفي لحظة تفكير نادرة، أن إيثيل ألارد، التي ترمّلت حديثاً، يمكنها الاستمتاع ببعض الصحبة في منزل الحراسة. لم تكن هذه فكرة سيئة، وبما أن إيثيل تستطيع الاستفادة من بعض الدولارات كبدل إيجار، ويأتي رجل للحلول مكان زوجها المتوفى حديثاً، انتقلت إلى غرفة النوم الإضافية ووضبت أغراضي في الطابق السفلي حيث لا تزال هناك منذ عقد من الزمن.

في ربيع العام التالي، أنجزت تسوية مالية مع شركائي، واستخدمت المال لشراء المركب البالغ طوله ستًّا وأربعين قدماً وأسميته **بومانوك 2**. في ذلك الوقت، انتهت عضويتي في نادي سيوانهاكا كورينثي لليخوت بناء على اتفاق متبادل، ولذلك أبحرت من المرفأ حيث اشتريت المركب، وبدأت رحلتي التي امتدت ثلاث سنوات في البحار والمحيطات.

كان أوديسي يحاول العودة إلى المنزل، فيما حاولت أنا الابتعاد عن المنزل. أراد أوديسي رؤية زوجته، وربما أنا أردت ذلك أيضاً، لكن هذا لم يحصل. أخبرت سوزان أنني سأدخل الميناء في هيلتون هيد، وكدت أفعل ذلك، ولكن ما إن رأيت اليابسة حتى عدت إلى البحر بلمح البصر. لا ندم.

رميت صور سوزان على الطاولة، بدلاً من رميها في الموقد. فربما أرادت الحصول عليها.

سكبت المزيد من الشراب في فنجان القهوة وشربت القليل.

نظرت إلى صورة كبيرة ملونة باليد ومؤطرة بإطار مزخرف لإيثيل وجورج ألارد، كانت معلّقة فوق رف الموقد.

إنها صورة زفاف، تم التقاطها في الحرب العالمية الثانية، وكان جورج يرتدي زي البحرية الأبيض فيما ترتدي إيثيل فستان زفاف أبيض من تلك الحقبة. كانت إيثيل جميلة في أيامها، وأفهم السبب الذي جعل جدّ سوزان، أوغسطس، الذي كان آنذاك لورد ستانهوب هال، يتخطى حاجز الطبقية ويقيم علاقة مع إحدى خادماته. الأمر غير مبرر، طبعاً، على كل الأصعدة، خصوصاً وأن جورج، الذي كان موظفاً في ستانهوب، ذهب إلى الحرب لحماية أميركا من الوباء الأصفر في المحيط الهادئ. لكن مثلما وجدت حين كنت رجلاً شاباً في حرب فيتنام، وأكتشف

الآن مع هذه الحرب الجديدة، إن الحرب تمزق كل النسيج الاجتماعي للأمة، ويحصل المزيد من الخداع والعلاقات غير الشرعية.

حدقت إلى وجه إيثيل البريء في الصورة الفوتوغرافية. كانت فعلاً جميلة. ووحيدة. وكان جورج خارج البلاد لبعض الوقت. وكان أوغسطس غنياً وقوياً. لكنه لم يكن، حسب الروايات العائلية، رجلاً مسيطراً ومتواطئاً مثل ابنه، حَميّ السابق، ويليام. أظن أن أوغسطس كان فقط فظاً (هذا وراثي في عائلة ستانهوب)، وإذا نظرت إلى صورة زوجة أوغسطس، أي جدة سوزان، تفهم السبب الذي دفع أوغسطس للخيانة. أعتقد أن سوزان، ورثت طلتها الجميلة من أمها، شارلوت، التي لا تزال جذابة بالرغم من تفاهة تفكيرها.

في موضوع العقل والجمال، يملك ولداي الأمرين معاً، ولا يظهران أي علامات لميول ستانهوب. أودّ القول إن ولديّ ورثا الكثير من عائلتي، لكن والديّ ليسا مثلين جيدين على الصحة العقلية أيضاً. أعتقد أنني ولد بالتبني. أتمنى وأتضرّع أن أكون هكذا.

في الحقيقة، توفي والدي جوزيف فيما كنت في البحر، ولم أحضر الدفن. لم تسامحني أمي على ذلك. لكن هذا ليس أمراً جديداً.

بالنسبة إلى موضوع الأولاد، والأبوّة، والعوامل الوراثية، أنجب جورج وإيثيل ابنة واحدة، هي إليزابيت، امرأة لطيفة تعيش في المنطقة. ورثت إليزابيت جمال أمها، لكنها تشبه جورج كثيراً لأريح ضميري بشأن أي إرث لها من ستانهوب.

أنظر إلى المدى البعيد لهذا الموضوع لأعرف كم سيرث ولداي من ثروة ستانهوب. يستحقان بعض المال لتحمل الجدّ والجدّة طوال حياتهما. وأنا أيضاً، لكن المحكمة قد تجد طلبي بشأن ممتلكات ستانهوب - تعويضي عن السنوات التي تحملت فيها حماقة ويليام - أمراً سخيفاً.

على أي حال، ثمة تاريخ هنا - إذ تعود جذور عائلتي إلى ثلاثمئة عام في لونغ آيلند - وهذا التاريخ مشبوك مثل اللبلاب الإنكليزي الذي يغطي منزل الحراسة ومنزل الضيوف. من الجميل النظر إليه من بعيد، لكنه قاتم لناحية الشكل وبنية التركيب، وبات يأكل في النهاية القرميد والملاط.

أف. سكوت فيتزجيرالد، الراقد في مكان غير بعيد جداً عن مكاني أنا الآن، كان محقاً حين ختم **غاتسباي العظيم** بعبارة "هكذا تقدمنا، في قوارب عكس التيار، مدفوعين باستمرار إلى الماضي".

فيما مددت جسدي لأتناول الشراب، لاحظت كدسة من بطاقات المعايدة القديمة المربوطة ببعضها برباط مطاطي، وانتقيت منها بشكل عشوائي بطاقة. إنها بطاقة ميلاد قياسية ماركة هالمارك، وتحت كلمات الحب والفرح والإخلاص المطبوعة، كتبت سوزان: "جون، لا تعرف كم مرة أستيقظ في الصباح، وأحدق إليك وأنت مستلقٍ قربي. وسأفعل ذلك لبقية حياتي".

جمعت كدسة البطاقات، ورميتها في الموقد.

نهضت، ودخلت المطبخ، وسكبت المزيد من القهوة، ثم ذهبت إلى الباب الخلفي، ووقفت على المصطبة. استطعت رؤية أنوار منزل الضيوف، حيث كنت أعيش مع زوجتي وولديّ. وقفت هناك لوقت طويل، ثم عدت إلى الداخل، وجلست مجدداً أمام طاولة غرفة الطعام. لا أظن أن الأمر سيكون سهلاً، لكنني لم أتصور بلا شك أنه سيكون بهذه الصعوبة.

الفصل الثاني

حدّقت إلى النار المشتعلة لبعض الوقت، واحتسيت القهوة والشراب، وتنقلت أفكاري بين الماضي والحاضر.

فكرت في أنني في منزل الحراسة لممتلكات ستانهوب، لأن إيثيل ألارد أقامت علاقة غرامية مع أوغسطس ستانهوب خلال الحرب العالمية الثانية، ولأن زوجتي أقامت علاقة مع سيد المافيا. ومثلما كان السيد بيلاروزا نفسه ليقول، لو بقي على قيد الحياة تصوّر.

الآن، حسب إدوارد، وما أكدته ابنتي كارولين، جاءت سوزان، أي أمهما، إلى منزل الثنائي الشاب والمثقف، وقدّمت لهما عرضاً مذهلاً غير متوقع لمنزلهما، وأقنعتهما بأنهما سيكونان أكثر سعادة في مكان آخر، وأنها هي، أي سوزان ستانهوب ساتر، تحتاج إلى العودة إلى جذور أجدادها.

بما أنني أعرف سوزان، أنا واثق من أن هذين الزوجين شعرا وكأنهما يُطردان من منزلهما بسبب اختيارهما مهندس الديكور غير المناسب. أو ربما هما يعرفان أن السيدة ساتر قتلت سيد المافيا، ورأيا أنه لا يجدر بهما رفض مثل هذا العرض. على أي حال، تمت الصفقة، وعادت الآن زوجتي السابقة إلى منزلي السابق، ضمن جدران ممتلكات ستانهوب السابقة، وعلى مسافة خمس دقائق من مقرّ إقامتي المؤقت. بدا وكأن أحدهم أعاد عقارب الساعة عقداً من الزمن إلى الوراء، والتقط تلك الفترة الوجيزة من الوقت التي كنت أعيش فيها وسوزان على مسافة قريبة من بعضنا، وكل ما كنا نحتاج إليه لنكون مع بعضنا مجدَّدا هو اتصال هاتفي، أو طرقة على الباب، أو ملاحظة. لكن هذا الزمن مضى، وكتبنا نحن الاثنان فصلين جديدين في تاريخنا.

سوزان، على سبيل المثال، تزوجت مجدداً. الرجل المحظوظ كان، حسب إدوارد، "رجلاً عجوزاً"، والصبر يأتي مع العمر، علماً أن الصبر ضروري للزواج من سوزان ساتر.

وصف إدوارد الرجل أيضاً بأنه "صديق جدي، ومضجر فعلاً". اسم الرجل العجوز والمضجر هو دان هانون، وقد عاش في هيلتون هيد، وحسب إدوارد، كان يلعب الغولف طوال اليوم، وجنى بعض المال، ولكن ليس كثيراً، ومثلما قالت كارولين "كانت أمي تستلطفه لكنها لا تحبه". أضافت كارولين: "احتفظت باسم شهرتنا".

ظن ولداي أنني بحاجة إلى معرفة كل ذلك، في حال أردت الذهاب إلى هيلتون هيد، وضَربِ دان على رأسه بمضرب الغولف، والهروب مع سوزان إلى جزيرة.

حسناً، قبل أن أتمكن من فعل ذلك، أنجز دان جولته الأخيرة من الغولف وسقط ميتاً، قرب الثقب الثامن عشر تحديداً فيما كان يحاول عبثاً رمي الكرة من مسافة

ثماني أقدام. قال إدوارد إن شركاء السيد هانون في الغولف قتلوه، وأنجزوا اللعبة، ثم اتصلوا بسيارة الإسعاف. أظن أن إدوارد بالغ في بعض ذلك.

على أي حال، أصبحت سوزان أرملة منذ عام تقريباً، وحسب كارولين، عقدت سوزان مع زوجها بعض الاتفاقيات الصارمة قبل الزواج، ولذلك حصلت سوزان فقط على نصف مليون تقريباً، وهذا غير سيئ بعد خمسة أعوام من الزواج، سواء أكان الزوج مضجراً أم لا. اتفاقي قبل الزواج مع سوزان ستانهوب ترك لي ألبوم الزفاف. يجيد آل ستانهوب التفاوض مع الآخرين.

ها نحن مجدداً، نستطيع رؤية الأنوار المنبعثة من منزلينا، والدخان المنبعث من المدخنتين. رأيت سيارة سوزان تمرّ قرب منزل الحراسة، وتخرج عبر البوابات الحديدية الكبيرة. إنها تقود سيارة رباعية الدفع (ويبدو أن هذه السيارات تضاعفت مثل الجراد في غيابي)؛ أظن أنها لكزس. على أي حال، لا تزال السيارة تحمل لوحات كارولينا الجنوبية، وأعرف أن سوزان احتفظت بمنزلها في هيلتون هيد. ربما تنوي تمضية السنة بين هنا وهناك. أتمنى أن تمضي وقتاً هناك أكثر من هنا. لكن ما هو الفرق بالنسبة إليّ؟ فأنا عابر سبيل هنا.

سيارتي هي من نوع توروس مستأجرة، أركنها قرب منزل الحراسة، وهي تعرف بالتالي متى أكون في المنزل، لكنها لم تمرّ عليّ مع قطع البراونيز منزلية الصنع.

في الحقيقة، أنا لا أتتبع تحركاتها، ونادراً ما شاهدت سيارتها تمرّ في الأسبوع الماضي. والسيارة الوحيدة الأخرى التي لاحظتها هي سيارة مرسيدس تخص السيد نسيم، مالك العزبة. لا أعتقد أن سوزان تملك صديقاً. لكن لو كانت تملك، فلن أتفاجأ، ولن أهتم.

بالنسبة إلى حياتي العاطفية، كنت ممتنعاً تماماً خلال رحلتي البحرية حول العالم طوال السنوات الثلاث الماضية. إلا، طبعاً، حين أكون في المرفأ، أو عند وجود امرأة بين أفراد الطاقم على متن المركب. في الحقيقة، عندها أكون نهماً.

أفترض أن لديّ كلّ الأسباب النفسية المعقدة لدلالي المفرط، ولهذا علاقة بخيانة سوزان وغير ذلك. كما أن الهواء المالح يجعلني صلباً.

إلا أنني هدأت كثيراً في لندن، بسبب عملي نوعاً ما، الذي تطلّب بذلة رسمية، والقليل من الزخرفة، وبسبب تخلصي من المركب الشراعي وعدم القدرة على استعمال العبارات الذكية، مثل: "هل ترغبين في الإبحار معي على متن مركبي إلى مونتي كارلو؟".

على أي حال، خلال سنتي الأخيرة تقريباً في لندن، كانت لديّ صديقة. وأكثر من ذلك لاحقاً.

حرّكت النار، وأنعشت قهوتي بالشراب.

في ما يتعلق بالسيدة ساتر السابقة، ومثلما تبيّن حتى الآن، لم يتصل أيّ منا بالآخر، ولم نلتقِ ببعضنا في الملكية أو في القرية، لكنني أعرف أننا سنلتقي في

دفن إيثيل. وكي أكون صريحاً، توقعت جزئياً أن تأتي هي لتقول لي مرحباً. وربما كان لديها التوقع نفسه.

هذا المكان ثقيل على اللياقة والبروتوكول، وتساءلت كيف كانت إميلي بوست لتعالج هذه المسألة: "عزيزتي الآنسة بوست، كانت زوجتي تقيم علاقة مع سيّد المافيا، ثم أطلقت عليه النار وقتلته، وتطلقنا، وسافر كلانا خارج الولاية، والتقينا بأشخاص آخرين لا يقتلون. والآن، وجدنا أنفسنا جارين، ونحن وحيدان. هل يجدر بي خبز قطع البراونيز والترحيب بها في جواري؟ أم يجدر بها هي فعل ذلك؟ (التوقيع) مرتبك في لونغ آيلند".

قد تجيب الآنسة بوست: "عزيزي المرتبك. يجدر بالرجل النبيل أن يتصل دائماً بالسيدة، وإنما مع ضرورة الإبلاغ مسبقاً باتصال هاتفي أو رسالة، والتأكد من أنها تخلصت من تلك البندقية! أبقيا الحديث عامًّا، مثل التحدث عن الأفلام المفضلة (ولكن ليس فيلم العرّاب) أو الرياضات أو الهوايات (ولكن ليس رمي الأهداف)، ولا تُطيلا الزيارة إلا إذا أقمتما علاقة. (التوقيع) إميلي بوست".

حسناً، أظن أنني سخيف. على أي حال، يحمّسني ولداي للاتصال بها. "ألم ترَ أمي بعد؟". وأنا واثق من أنهما طرحا عليها السؤال نفسه.

في الحقيقة، شاهدت سوزان مرات قليلة خلال العقد الأخير بعدما غادر كلانا لونغ آيلند؛ يوم تخرُّجِ ولدينا من الجامعة، مثلاً، وفي دفن العمة كورنيليا، التي كانت مولعة بسوزان. وفي هذه المناسبات، كنت وسوزان مهذبين وودودين مع بعضنا. في الحقيقة كانت ودودة معي أكثر مما كنت ودوداً معها، وأحسَستُ أنها تخطتني، ومضت قدماً. أما أنا... حسناً، لا أعرف. ولا أنوي المعرفة.

بالنسبة إلى موضوع الدفن، حضرتُ دفن فرانك بيلاروزا لأنني... حسناً، كنت أحب فعلاً ذلك الرجل بالرغم من أنه مجرم، ومنافق، وكاذب اجتماعي، وعشيق زوجتي. باستثناء هذا، لم يكن رجلاً سيئاً. كان بالفعل صاحب سحر وجاذبية. اسألوا سوزان.

في موضوع الدفن أيضاً، فإن الدفن الوحيد الذي تحمست فعلاً لحضوره هو دفن ويليام ستانهوب. لكن حسبما سمعت من إدوارد مؤخراً، "جدي في صحة جيدة". هذا مؤسف جداً.

أمسكت بكدسة الصور مجدداً وقلّبتها. كانت فعلاً جميلة وجذابة. ذكية ومضحكة أيضاً. ومثلما قلت، مجنونة فعلاً.

فيما حدّقت إلى صورة جذابة جداً لسوزان تظهرها على صهوة جوادها الغبي، زنجبار، رنّ جرس الباب.

مثل معظم منازل الحراسة، تم تشييد هذا المنزل داخل جدران الملكية؛ العزبة، ولا يستطيع بالتالي أحد الوصول إلى بابي إلا إذا اجتاز البوابات الحديدية المواجهة للطريق. تبقى البوابات مغلقة في الليل، وهي تعمل آليًّا، بحيث تحتاج إلى رمز أو جهاز للتحكم عن بُعد لفتحها، وأستطيع في الحقيقة سماعها وهي تُفتح أو تُغلق أو رؤية مصابيح السيارات ليلاً، لكنني لم أفعل هذه المرة. هكذا، فإن

الشخص الواقف أمام بابي جاء سيراً على قدميه من أراضي العزبة، علماً أن السكان الوحيدين الحاليين للمكان هم أمير نسيم، وزوجته، وخدمهما، وسوزان وأنا.

إذاً، يمكن أن يكون السيد نسيم أمام بابي، لأداء تحية اجتماعية، أو لإبلاغي بأن إيثيل ماتت قبل دقيقتين وأمامي عشر دقائق لإخلاء المنزل. أو ربما هي سوزان.

وضعت الصور الفوتوغرافية مجدداً في المغلف، وتوجهت نحو المدخل الأمامي الصغير فيما رنّ جرس الباب مجدداً.

تحقّقت من مظهري في مرآة الرواق، ورتبتُ قميصي، ومشّطت شعري بأصابعي. ثم، ومن دون النظر عبر العين السحرية للباب، أو إشعال الضوء الخارجي، فتحت قفل الباب وشرّعته.

وقف هناك، يحدّق إليّ، شبح فرانك بيلاروزا.

الفصل الثالث

قال لي: "هل تذكرني؟".

لم يكن بالطبع شبح فرانك بيلاروزا، وإنما ابن فرانك، طوني، الذي شاهدته للمرة الأخيرة يوم دفن والده قبل عشرة أعوام.

أنزعج حين يسأل الناس: "هل تذكرني؟" بدلاً من التعريف عن أنفسهم بلباقة. لكنني أعتقد أن هذا ليس العيب الاجتماعي الأكثر إزعاجاً لدى طوني بيلاروزا، وهو ليس عيبه الوحيد. أجبته: "نعم، أذكرك". ثم أضفت، في حال ظن أنني أكذب، "طوني بيلاروزا".

ابتسم، ورأيت فرانك مجدداً. "أنطوني. أصبح طوني الآن". ثم سأل: "هل لديك دقيقة؟".

توافرت لديّ إجابات عدة، لم يشتمل أيّ منها على كلمة "نعم". فسألته: "ما الذي أستطيع فعله لك؟".

بدا منزعجاً قليلاً، ثم سأل: "هل أستطيع الدخول؟ آه...". بدا فجأة وكأنه فهم التفسير المنطقي الوحيد لجوابي البطيء على رنّ الجرس، وعدم تحمسي لرؤيته، وسأل: "هل يوجد أحد هنا؟".

أرفق عبارته بإيماءة رأس وغمزة عين، لكنني لم أجب.

"سيد ساتر؟".

حسناً، لا يفترض بك دعوة مصّاص الدماء لاجتياز عتبة بابك، وأظن أن الشيء نفسه ينطبق على ابن سيد المافيا الميت.

لكن لأسباب معقدة جداً، وغبية جداً للدخول فيها، قلت له: "ادخُل".

تراجعت جانباً، ودخل أنطوني بيلاروزا منزل الحراسة وحياتي. أغلقت الباب، وأدخلت أنطوني الشاب إلى غرفة الجلوس الصغيرة.

أشرت إلى كرسي هزاز - كرسي إيثيل - قرب الموقد المليء بالرماد، وجلست على كرسي جورج البالي مقابل ضيفي. لم أعرض عليه شراباً.

تفحّص أنطوني الغرفة بسرعة، ولاحظ الأثاث الرثّ، وورق الجدران الباهت، والسجادة العتيقة.

إنه ربما يقيّم بعض المسائل الأمنية الشخصية. اعتاد والده على فعل ذلك، نتيجة العادة أكثر من الخوف. كان فرانك بيلاروزا معتاداً أيضاً على مراقبة كل أنثى في الغرفة في أثناء تحققه من عدم وجود أحد يرغب في قتله. أنا معجب بالأشخاص الذين يستطيعون أداء مهام عدة في الوقت نفسه.

لكن في حالة سوزان ساتر، فوّت فرانك بعض الإشارات الأساسية وعلامات المشاكل. وإذا فكرت في تلك الدقائق الأخيرة من حياة فرانك بيلاروزا، أعتقد أن

الدم في دماغ فرانك الكبير تدفق كله جنوباً نحو دماغه الصغير في لحظة حاسمة. يحصل ذلك أحياناً. وحين يحصل، يمكن أن تنتهي بقية دمك مبعثرة حول الغرفة، مثلما حصل للمسكين فرانك.

قال أنطوني: "مكان صغير وجميل هنا".

"شكراً". في الحقيقة، تبدو منازل الحراسة القديمة هذه جذابة وساحرة من الخارج، لكن معظمها يوحي برهاب الاحتجاز. لا أعرف كيف نجحت في مشاركة هذا الكوخ مع إيثيل، ولو للوقت القصير الذي عشته هنا. أذكر أنني كنت أخرج كثيراً.

سألني أنطوني: "عشت هنا لفترة، صح؟".

"صح".

"وقد عُدتَ من لندن. صح؟".

تساءلت كيف عرف ذلك.

"لكنّ هذا العربيّ الذي يملك العزبة يملك هذا المكان أيضاً. صح؟".

"صح". ثم أعطيته المزيد من المعلومات. "إنه إيراني".

"صح. عربي".

"الإيرانيون ليسوا عرباً".

"وما هم؟".

"فارسيون".

بدا أن الأمر أربكه، فغيّر الحديث وسأل: "إذاً، أنت... ماذا؟ تشتريه؟ تستأجره؟".

"أنا ضيف السيدة ألارد".

"نعم؟ وكيف حال السيدة العجوز؟".

"تموت".

"صحيح. ليس هناك من تغيير".

بدا جلياً أنه يستفسر. لكن لماذا؟

"ماذا سيحصل بعد أن تموت؟".

قلت له: "تنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء".

ابتسم. "نعم. وأنت إلى أين تذهب؟".

"حيثما أريد". أفترض أنه يجدر بي معرفة مشاريع السيد نسيم لهذا المنزل. ربما يريد تأجيره شهرياً. لكن أسعار الإيجارات وأسعار البيع ارتفعت كثيراً في

الشاطئ الذهبي في لونغ آيلند، وهي في الحقيقة في صعود مستمر منذ أحداث 11 سبتمبر لأن آلاف الأشخاص يهجرون المدينة بسبب... حسناً، الخوف.

"سيد ساتر؟ أقول لِكَم من الوقت ستبقى هنا؟".

"إلى أن تموت". نظرت إليه في الضوء الخافت لمصباح الأرضية. أفترض أنه يمكنك القول إن أنطوني بيلاروزا وسيم بالطريقة التي تعتبرها النساء، ولكن ليس الرجال، وسامة. تماماً مثل والده، يملك قسمات ثقيلة قليلاً - تقول النساء عنها إنها مثيرة - مع شفتين ممتلئتين، وعينين داكنتين. بشرته، مثل بشرة والده أيضاً، زيتونية - علماً أن أمه آنا فاتحة اللون جداً - فيما شعره المصفّف، مثل شعر فرانك، داكن ومتموج، وإنما أطول قامة مما يسمح به والده، ربما. لا شك في أن أنطوني - تماماً مثل والده - يبلي بلاءً حسناً مع النساء.

كان يرتدي ثياباً عفوية أكثر مما يفعل والده. لطالما ارتدى فرانك سترة رياضية مع سروال رسمي، وقمصاناً مفصلة حسب الطلب. كل شيء في ذوقه كان سيئاً، طبعاً، لكنك تعرف على الأقل أن السيد بيلاروزا كان يرتدي ثياباً تعكس شخصيته. في المدينة، كان يرتدي بذلات حريرية مفصلة حسب الطلب، وكان اسمه المستعار في الصحف السيد الغندور قبل أن يصبح السيد المغدور.

"إذاً، حين تموت، ستغادر؟".

"ربما". كان أنطوني يرتدي سروال جينز ضيقاً، وقميصاً هاوايياً مربعاً يبدو مثل هدية سيئة، وينتعل حذاء رياضياً أسود. وكان يرتدي أيضاً معطفاً أسود، ربما لأن الليل بارد، أو لأنه يخفي مسدسه. لا شك في أن أصول اللباس في أميركا تغيرت كثيراً خلال غيابي.

قال: "لكنك لا تعرف إلى أين تذهب. إذاً، ربما ستبقى".

"ربما". نبرة أنطوني، مثل نبرة والده، لم تكن وضيعة تماماً، لكنني سمعت صدى شوارع بروكلين في صوته. لقد أمضى أنطوني، حسبما أظن، ست سنوات في أكاديمية لاسال العسكرية، وهي مدرسة كاثوليكية في لونغ آيلند، تضم لائحة خريجيها بعض الرجال المشهورين، وبعض الرجال سيِّئي السمعة، مثل السيد بيلاروزا. لا يخطئ أحد في التفريق بين لكنة مدرسة السيد بيلاروزا ولكنة مدرسة سان بول حيث ذهبت أنا، لكن السنوات الست في المدرسة الداخلية خففت من نبرة أنطوني.

"إذاً، أنت والسيدة العجوز مثل صديقين؟".

بدأت أنزعج قليلاً من هذه الأسئلة الشخصية، ولكن بصفتي محامياً أعرف أن الأسئلة تفضح أكثر من الأجوبة. أجبته: "نعم، نحن صديقان قديمان". في الحقيقة، إنها تكرهني، مثلما قلت قبلاً، لكن في هذا العالم المؤلف من الطبقة الأرستقراطية والخدم، والروابط والقيود العائلية القديمة، ووفقاً لأصول التركيبة الطبقية والنبل، لا يهم في نهاية النهار من هو السيد ومن هو الخادم، أو من يحب أو من يكره. فنحن متحدون جميعاً بتاريخ مشترك، وحنين عميق إلى زمن يموت، لكنه لم يمت

بعد، تماماً مثل إيثيل نفسها. تساءلت ما إذا كان يجدر بي شرح كل ذلك لأنطوني بيلاروزا، لكنني لم أعرف من أين أبدأ.

"إذاً، أنت تهتم بالمكان نيابة عنها؟".

"صحيح".

أومأ أنطوني برأسه باتجاه الفتحة المؤدية إلى غرفة الطعام ولاحظ كدسات الورق فقال: "يبدو أن لديك الكثير من العمل هناك". ابتسم وسأل: "هل هذه وصية السيدة العجوز؟".

في الحقيقة، عثرت على وصيتها وقلت له: "صح".

"لديها الملايين؟".

لم أجبه.

"هل تركت لك أي شيء؟".

"نعم، الكثير من العمل".

ضحك.

مثلما قلت قبلاً، أنا محامي إيثيل في ما يتعلق بالأمور العقارية، وستنتقل ممتلكاتها الدنيوية إلى ابنتها الوحيدة، إليزابيث. وصية إيثيل، التي عثرت عليها، لم تترك لي أي شيء، وهذا هو بالضبط ما تريده إيثيل لي.

"سيد ساتر، ماذا كنت تفعل في لندن؟".

كان يتأرجح في الكرسي، وانحنيت صوبه وسألته: "لِمَ تطرح عليّ كل هذه الأسئلة؟".

"آه... أجري فقط محادثة".

"حسناً، دعني أطرح عليك بعض الأسئلة للمحادثة. كيف عرفت أن السيدة ألارد تموت؟".

"أخبرني أحدهم".

"وكيف عرفت أنني أعيش في لندن، وأنني عدت الآن؟".

"أسمع الأشياء".

"هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً، سيد بيلاروزا؟".

"أنطوني. نادني أنطوني".

بدا هذا محدداً مثلما يريد أن يعرف.

نظرت إلى وجهه في الضوء الخافت. كان عمر أنطوني سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً - في الصف الثاني ثانوي أو الثالث ثانوي في لاسال - حين قتلت زوجتي والده. إذاً، لم يبلغ الآن الثلاثين من عمره، لكنني لاحظت في عينيه

وطريقة حديثه أنه على عكس معظم الرجال الأميركيين الذين يحتاجون إلى وقت طويل للنضوج، كان أنطوني بيلاروزا رجلاً، أو على الأقل أقرب إلى ذلك. أذكر أيضاً أن اسمه كان طوني، لكن اسم الدلال يفتقد إلى الجدية، ولذلك أصبح اسمه الآن أنطوني.

الأهم من ذلك، تساءلت ما إذا كان قد استلم أعمال والده.

فالمبدأ الأساسي في قانون الجرم الأميركي هو أن الشخص يبقى بريئاً حتى تثبُت إدانته. لكن في هذه الحالة، أذكر بوضوح ما قاله فرانك بيلاروزا عن أولاده الثلاثة: "ابني الكبير، فرانكي، لا يملك العقل الكافي لاستلام أعمال العائلة، فأرسلته إلى الجامعة وأسست له عملاً خاصاً به في جرسي. وطومي هو الأول في كورنيل. يريد إدارة فندق كبير في أتلانتيك سيتي أو فيغاس. سأجعله يستقر مع فرانكي في أتلانتيك سيتي. أما طوني، الموجود في لاسال، فهو قصة أخرى. يريد استلام الأعمال".

نظرت إلى أنطوني، الذي كنت أعرفه قبلاً باسم طوني، وتذكرت تباهي فرانك بابنه الأصغر حين ختم قائلاً: "يريد الولد الصغير عملي. وهل تعرف ماذا؟ إذا رغبه بشدة، سيحصل عليه".

أعتقد أن طوني حصل على العمل، وأصبح السيد أنطوني بيلاروزا. لكنني لست واثقاً من ذلك.

سألني أنطوني: "هل تمانع إذا ناديتك جون؟".

"أنا طوني الآن". من غير الجيد ربما التهكم من سيد مافيا محتمل، لكنني فعلت هذا مع والده، الذي قدّر افتقاري إلى الخبرة. على أيّ حال، أحتاج إلى تحديد تسلسل التوبيخ.

كشف أنطوني عن ابتسامة مصطنعة وقال: "أذكر أنني كنت أناديك السيد ساتر".

لم أجبه على هذا وسألته: "ما الذي أستطيع فعله لك، أنطوني؟".

"حسناً، جيد. أنا آسف لأنني مررت بك، لكنني كنت في الجوار، ورأيت الأنوار مضاءة، ومثلما قلت، سمعت أنك عدت، وكانت البوابة مغلقة، ودخلت عبر... ماذا تسمونها؟ بوابة الناس".

"البوابة الجانبية".

"نعم. كانت غير مقفلة. يجدر بكم إقفالها".

"لست المسؤول عن البوابة".

"صح. على أي حال، خطرت لي فكرة التوقف وإلقاء التحية".

أظن أن الأمر مخطط له أكثر من ذلك. قلت له: "أتمنى ألا تكون قطعت الطريق أمام البوابة".

"لا. أخذ سائقي السيارة إلى الطريق. هاي، هل تذكر طوني؟ سائق والدي".

"أذكر أن اسمه كان أنطوني".

ابتسم. "نعم. عقدنا اتفاقاً. أقل إرباكاً".

"صحيح". لا أظن أن سائق السيد الميت له رأي مهم في هذا الاتفاق. في ما يتعلق بأعمال العائلة، والموظفين الآخرين، وقوانين الإرث، أذكر بوضوح أن هناك فرداً آخر من العائلة أراد عمل فرانك بيلاروزا، ولذلك سألت، لرؤية ردّ فعل أنطوني: "كيف حال العم سال؟".

حدّق إليّ أنطوني بيلاروزا ولم يُجِب. حدقت إليه بدوري.

إن المرة الأخيرة التي رأيت فيها سالفاتور داليسيو، المعروف بسالي دادا، كانت في دفن فرانك. قبل أن تقتل زوجتي فرانك بيلاروزا، حاول أحدهم فعل الشيء نفسه أيضاً، وكان المشتبه الرئيسي العم سال. حصل ذلك في مطعم في ليتل إيتالي، وكنت أنا لسوء الحظ موجوداً هناك وقريباً كفاية من الغندور السيد بيلاروزا وفيني، حارسه الشخصي، لأتلطخ بدم فيني. لم تكن تلك إحدى أفضل الليالي.

على أي حال، لم يكن العم سال حاضراً في محاولة القتل الفاشلة، لكن توقيعه كان حاضراً على الأرجح في العقد. أكره حين تتشاجر العائلات، بالرغم من أنني معتاد شخصياً على المشكلة، لم يحاول أي فرد من آل ساتر أو ستانهوب، حسب علمي، القضاء على حياة فرد آخر من العائلة... بالرغم من أن هذه ليست فكرة سيئة. في الحقيقة، وجدت للتو بعض الفائدة في أنطوني بيلاروزا. أنا أمزح. فعلاً.

أجاب أنطوني أخيراً: "إنه بخير".

"جيد. بلّغ العم سال تحياتي حين تلتقي به".

"نعم".

هناك بعض الأمور في الحياة لا يمكن أن تنساها أبداً، وتلك الأشهر خلال الربيع والصيف التي أفضت إلى موت فرانك في أكتوبر، وانفصالي عن سوزان مليئة بالمشاهد والأصوات التي حُفِرت فعلاً في ذهني إلى الأبد. بالإضافة إلى رؤية رأس فيني يتطاير بطلقة نارية مباشرة أمام وجهي، ثمة مشهد آخر لن أنساه أبداً ويتعلق بالشاب أنطوني بيلاروزا عند قبر والده. كان الولد متماسكاً جيداً - أفضل من أمه، آنا، التي كانت تنوح ويغمى عليها كل بضع دقائق - ورأيت في عيني أنطوني شيئاً يتجاوز الحزن، إذ شاهدته يحدق إلى عمه سال بقوة كبيرة لدرجة أن الرجل الكبير لم يستطع تحمل النظر مباشرة في عيني ابن أخيه الصغير. بدا جلياً لي، وللجميع، أن الولد عرف أن عمه حاول قتل والده. وبدا جلياً أيضاً أن أنطوني بيلاروزا سيردّ الضربة يوماً ما. لذا، تفاجأت حين اكتشفت أن العم سال لا يزال على قيد الحياة وبصحة جيدة؛ أو أن العم سال لم يقتل أنطوني بعد.

إلا أن هؤلاء الرجال، مثلما أدركت من عملي الوجيز مع السيد بيلاروزا وعائلته، هم في غاية الصبر والحذر حين يتعلق الأمر بالشخص الواجب قتله، ومتى.

في هذا الموضوع، تساءلت عن شعور أنطوني حيال سوزان ساتر، التي نجحت حيث أخفق العم سال. والآن بعد أن عادت سوزان - على مسافة أربعمئة ياردة تقريباً من هنا - أتساءل... لكن يستحسن ربما ترك هذا الموضوع على حدة، ولذلك التزمت بالحديث العائلي، وسألت أنطوني: "كيف حال أمك؟".

"إنها بخير. عادت إلى بروكلين". ثم أضاف: "سأخبرها أنني رأيتك".

"بلغها تحياتي".

"نعم. كانت تستلطفك".

"كان الشعور متبادلاً". إلا أن الاستمرار في هذه المحادثة أمر غريب جداً لأن زوجتي آنذاك جعلت من آنا بيلاروزا أرملة، وجعلت من أنطوني وأخويه أيتام الأب. سألته: "وماذا عن أخويك؟ فرانكي وطومي، صح؟".

"صح. إنهما بخير". ثم سألني: "ماذا عن ولديك؟".

أجبته: "إنهما بخير".

"جيد. أذكرهما. إنهما ولدان ذكيان".

"شكراً". الطريق المؤدية إلى ستانهوب هال والحمرا، أي غرايس لاين، هي طريق خاصة وتنتهي عند لونغ آيلند ساوند، وبالتالي، فإن أنطوني بيلاروزا لم يكن ماراً من هنا بالصدفة. خطرت لي فكرة أنه يعيش في هذه المنطقة، وهذه ليست فكرة جيدة، لكنني أردت التأكد، فسألته: "أين تعيش؟".

أجابني: "في ممتلكات أبي القديمة". ثم أضاف: "هناك بعض المنازل المشيدة هناك الآن، واشتريت واحداً منها". وشرح قائلاً: "أطلق عليها اسم عقارات الحمرا. منطقة مساحتها خمسة أكرات".

لم أجبه، لكنني تذكرت أن هذا كان جزءاً من صفقة فرانك مع الحكومة للبقاء خارج السجن، إذ توجّب عليه التخلي عن الحمرا مقابل ضرائب غير مدفوعة على مكتسبات غير شرعية و/أو عقوبات جرمية. المرة الأخيرة التي زرت فيها المنطقة كانت بعد موت فرانك، وكانت الفيلا الرائعة قد أزيلت بجرافة وتم تقسيم المساحة إلى حصص بهدف زيادة مدخول الحكومة قدر الإمكان، وكذلك للإغاظة.

كما أنني مررت أمام هذا العقار بضع مرات بعد عودتي، وألقيت نظرة سريعة على المنازل الجديدة عبر البوابات الحديدية الضخمة، فلاحظت الحمرا مصغرة، مع سقوف قرميدية حمراء وجدران مزخرفة بالجصّ، كما لو أن ركام العزبة الأساسية تحول إلى نسخ مصغرة عما كان سابقاً. تساءلت إذا كان حوض السباحة وتمثال نبتون لا يزالان موجودين.

على أي حال، اكتشفت الآن أن أنطوني بيلاروزا اشترى واحدة من هذه الفيلات. لست واثقاً ما إذا كان هذا مثيراً للسخرية، أو رمزياً، أو أن أنطوني حصل ببساطة على صفقة جيدة من المتعهد، دومينيك، الذي كان أحد معارف فرانك.

بدا أنطوني حزيناً على إرثه الضائع وأبلغني: "الفدراليون الأشرار سرقوا الملكية".

يزعجني حين يعيد الأشخاص (مثل زوجتي السابقة) كتابة التاريخ، خصوصاً إذا كنت موجوداً في اللحظة التاريخية المعنية. إلا أن أنطوني ربما لم يعرف الظروف الحقيقية التي أحاطت بخسارته للملكية، لكنه يستطيع تخمين ما حصل إذا كان يملك نصف دماغ وإرادة لمواجهة الحقائق.

لكن يبدو أنه لا يملك أياً من هذين الأمرين، وتابع: "الفدراليون الأشرار سرقوا الملكية وتركوا عائلتي في الشارع".

إلا أنني أبلغت أنطوني: "والدك هو الذي أعطى الحمرا للحكومة".

"نعم. وضعوا المسدس في رأسه، وسلّمهم إيّاها".

كان يجدر بي إنهاء زيارته غير المعلنة، لكنه أراد توضيح المزيد من النقاط، وكنت... حسناً ربما قلقاً بشأن سوزان. أقصد لا تزال أم ولديّ. نظرت عن كثب إلى أنطوني. لا يبدو مثل قاتل، لكن والده لم يكن هكذا أيضاً. ولا سوزان أيضاً. أراهن أن فرانك تفاجأ حين سحبت البندقية، وأطلقت ثلاث طلقات.

أسهب أنطوني في الموضوع وقال: "استعملوا قانون ريكو اللعين، واستولوا على كل شيء يمكن أن يصل إلى أيديهم بعدما... مات". أعطاني أنطوني بعدها تشبيهاً تاريخياً. "مثلما كان يفعل الأباطرة الرومان حين يموت رجل نبيل. كانوا يتهمونه بشيء ما ويستولون على أرضه".

لم أفكر يوماً في أن فرانك بيلاروزا شبيه بنبيل روماني، لكنني أستطيع القول إن وزارة العدل وخدمة العائدات الداخلية أدّتا فعلاً دور الإمبراطور القوي والجشع. إلا أنني فقدت صبري وقلت له: "قانون المنظمات الفاسدة والمتأثرة بابتزاز المال صعب، ولا يتم تطبيقه دائماً بصورة عادلة، لكن...".

"هذا مقرف. ماذا حصل لعملية الاستحقاق؟".

"هل تحمل شهادة في القانون، سيد بيلاروزا؟".

"لا، لكن...".

"حسناً، أنا أفعل. لكن دعنا ننسى القانون هنا. أنا أعرف أولاً أن والدك وافق على تسليم بعض أصوله إلى وزارة العدل مقابل...". لاحظت أن أنطوني بيلاروزا فهم إلى أين سيقود الحديث، ولا يريد السماع أن والده خرق القانون الوحيد المهم؛ أي قانون الصمت.

لذا، ومن منطلق ذكر حسنات الموتى، قلت لأنطوني: "كان والدك يدين ببعض الضرائب... كنت أنا مستشاره للشؤون الضريبية... ووافق على تسليم بعض أصوله إلى وزارة العدل، بما في ذلك الحمرا لسوء الحظ". تخلى فرانك أيضاً عن ملكيته، ستانهوب هال، التي اشتراها، بناء على إلحاح سوزان حسبما أظن، من حَميّ الغبي ويليام. لكنني لست واثقاً من أن أنطوني يعرف ذلك، ولم أشأ منحه المزيد من التفاصيل، ولذلك قلت له: "لم تكن صفقة سيئة جداً".

"كانت سرقة".

في الحقيقة، كانت استسلاماً وصموداً. أذكر ما قاله فرانك بيلاروزا لي حين كان تحت الإقامة الجبرية، وهو يحاول تبرير تعاونه مع الفدراليين. "قانون الصمت القديم مات. لم يبقَ أي رجال حقيقيين، أي أبطال، أي شباب أقوياء، ظلّ القانون. نحن جميعاً رجال من ورق من الطبقة الوسطى، أي رجال الشرطة والسارقون، ونعقد الصفقات حين نضطر إلى ذلك، لحماية أنفسنا ومالنا وحياتنا. نخون الجميع، ونسعد لأنه أتيحت لنا الفرصة لفعل ذلك".

أنهى فرانك بيلاروزا استنتاجه لي بالقول: "كنت في السجن ذات مرة، أيها المستشار، وليس هذا مكاناً لأشخاص مثلنا. إنه للأشخاص السيئين، للأشخاص الأشرار، للرجال المشاكسين".

ألقى أنطوني نظرة سريعة عليّ، وتردد، ثم قال: "قال بعض الرجال... تعرف، كان لدى أبي أعداء... وقال بعض الرجال إنه... يبيع المعلومات للحكومة". ألقى نظرة سريعة عليّ مجدداً، وحين لم أُجِبه، تابع: "أفهم الآن أنها كانت فقط مشكلة ضرائب. ورّطوه في ذلك ذات مرة قبلاً".

"صح".

ابتسم، وأضاف: "مثل آل كابون. لم يستطيعوا النيل من كابون في التهريب غير الشرعي، فنالوا منه في الضرائب".

"صحيح".

"إذاً، الخلاصة، أيها المستشار، أنت من طلبت منه تسديد الثمن".

"صح. وهذا أفضل من مواجهة تهمة ضرائب جرمية". في الحقيقة، إن فرانك بيلاروزا هو الذي ساعدني على التغلب على تهمة ضرائب جزائية. فقد وجّه فرانك تهمة الضرائب ضدي، مثلما اكتشفت لاحقاً، وبالتالي، فإن أقل ما يمكنه فعله هو إنقاذي من الورطة. أصبحت أدين له بخدمة، سددتها له بمساعدته في تهمة القتل. ليس هذا مستغرباً خصوصاً وأن المثال لفرانك كان نيكولا مكيافيللي، وكان في وسعه تلاوة مقاطع كاملة من **الأمير** وربما كتابة التتمة.

سألني أنطوني: "إذاً، الفدراليون الذين استولوا على ممتلكاته ليس لهم علاقة بتهمة القتل التي وجهت ضده؟".

"لا". وكان هذا صحيحاً جزئياً. فالمثير للسخرية أن فرانك بيلاروزا، أكبر مجرم غير حكومي في أميركا، ربما، لم يرتكب الجرم الذي عوقب عليه. لا شك

في أن هناك القليل من الأمور الأخرى التي لم يفعلها خلال السنوات العشرين أو الثلاثين التي أمضاها في النشاطات الإجرامية المنظمة، لكن هذه التهمة بقتل لورد مخدرات كولومبيّ أعدّها له المدعي العام الأميركي، السيد ألفونس فيراغامو، الذي كان لديه ثأر شخصيّ ضد السيد فرانك بيلاروزا.

قال لي أنطوني: "كنت أحد محاميه في تلك القضية الجزائية، صح؟".

"صح". في الحقيقة، كنت محاميه الوحيد. فقد بقي المحامون الآخرون بعيدين عن الأنظار فيما تولى جون ويتمان ساتر من بركينز، بركينز، ساتر، ورينولدز المثول أمام المحكمة الجزائية الفدرالية وهو يحاول تصوّر طريقة لإطلاق سراح سيّد المافيا بكفالة. فرانك لم يكن يحبّ السجن فعلاً.

سألني أنطوني: "هل تعرف أن الأف بي آي عثروا على الرجال الذين قتلوا الكولومبيّ؟".

"أعرف ذلك". سمعت ذلك قبل أعوام عدة من ابنتي، التي هي مساعدة محامٍ في بروكلين، وكانت مسرورة بإخباري أنني دافعت عن رجل بريء. لا تُستخدمُ كلمتا بريء وفرانك بيلاروزا في العبارة نفسها عموماً، لكن ضمن الحدود الضيقة لهذه القضية، فعلت الشيء الصحيح، ولذلك كنت ممتناً. نوعاً ما.

أبلغني أنطوني: "ذلك اللعين فيراغامو كان ظالماً مع والدي".

"صحيح". والحقيقة أن السيد فيراغامو، المدعي العام الأميركي في المقاطعة الجنوبية لنيويورك، أراد الحصول على أكبر جائزة في غابته؛ فرانك بيلاروزا. ولم يكترث للطريقة التي يفعل بها ذلك. كانت تهمة القتل زائفة، لكن ألفونس فيراغامو، مثل الثعلب المنقض على ثور كبير، نجح أخيراً في اصطياد فريسته.

تابع أنطوني كلامه: "لم يكن أي حكم أصدره ذلك اللعين عادلاً. كان كله هراء. كان الأمر شخصياً. كان ثأراً".

"صحيح". وكان عملاً أيضاً. عمل فرانك وعمل ألفونس. فالسيد بيلاروزا كان مصدر إحراج للمدعي العام الأميركي. وبعضه قصة إيطالية؛ ربما أكثر مما أدرك. لكن على الصعيد المهني، لم يستطع ألفونس فيراغامو السماح لأكبر سيد مافيا في الأمة بالتجول بحرية، والعيش في عزبة، والركوب في سيارات باهظة الثمن، وتناول الطعام في مطاعم لا يستطيع ألفونس فيراغامو نفسه دفع تكاليفها. في الحقيقة، أظن أن الأمر كان شخصياً.

هكذا، انقضّ فيراغامو، عبر وسائل عدة، قانونية وغير قانونية، على الثور الكبير، وسقط فرانك بيلاروزا وطلب الرحمة.

من الملفت أنّ تدليل الخارج على القانون جزء من ثقافتنا - بيلي الصغير، جيسي جايمس، آل كابون المذكور قبلاً، وما إلى ذلك - ونشعر ببعض التناقض حين يقع الخارج على القانون في قبضة القانون والنظام. الغندور السيد بيلاروزا، أي سيد الأسياد، كان مدللاً في الإعلام، ومصدراً لتسلية شعبية لامتناهية، وشخصية مشهورة. لذا، حين انتشر الخبر أنه تحت الإقامة الجبرية في عزبته في لونغ آيلند، ويتعاون مِع وزارة العدل، لم يصدّق العديد من الأشخاص الخبر أو

شعروا بالخيانة نوعاً ما. لا شك في أن شركاءه المقربين شعروا بالخيانة والعصبية.

لكن قبل أن يتم أخذ فرانك بيلاروزا إلى المحكمة بصفته شاهداً حكومياً، أنقذت سوزان ساتر سمعته فقتلته. وبعد موته على يد صديقته المتزوجة، سيدة المجتمع الجميلة ذات الشعر الأحمر، ازدادت أسطورته وسمعته كرجل سيئ.

أما زوج صديقة سيد المافيا (أنا) فقد حظي بالكثير من الكلام في الصحافة أيضاً. لكن الكلام لم يكن جيداً كفاية لجعله جديراً بالذكر.

من الملفت أن سوزان لم تُذكر كثيراً في الصحافة الصفراء، وحصل احتجاج عنيف على القانون حين أسقطت ولاية نيويورك والمدعي العام الأميركي كل التهم الموجهة ضدها، والتي كانت جريمة مخططة مسبقاً وقتل شاهد فدرالي وما شابه.

فوّتُّ على نفسي الكثير من هذه الأخبار عندما أبحرت بعيداً، وفوّتت سوزان أيضاً بعضاً منها بانتقالها إلى هيلتون هيد. فصحافة نيويورك تفقد سريعاً الاهتمام بالأشخاص غير القاطنين مباشرة في المدينة أو في الضواحي المجاورة.

على أي حال، وكي أكون صادقاً وموضوعياً وعادلاً، فإن أكثر الأشخاص الذين عانوا من هذه القصة - بالإضافة إلى فرانك - كانوا أفراد عائلة فرانك. كانوا جميعاً مدنيين أبرياء عندما حصلت تلك الجريمة. صحيح أن أنطوني كَبُر منذ ذلك الحين، لكن عندما خسر والده كان تلميذاً شاباً في مدرسة ثانوية.

لذا، قلت له: "عرفت والدك جيداً لأؤكد أنه قام بما كان يلزم... لإبعاد الفدراليين عنه بحيث يبقى موجوداً مع زوجته وأولاده".

لم يجب أنطوني، واستفدت من هذا الصمت لتغيير الموضوع. كان يضع خاتم زواج، فقلت له: "أنت متزوج".

"نعم. ولدي ولدان".

"جيد. يجدر بالرجل الزواج. فهذا يبعده عن المشاكل".

رأى الأمر مضحكاً لسبب ما.

بدلاً من التركيز على الموضوع، سألته: "في أي مجال تعمل؟".

أجاب من دون تردّد: "استلمت شركة والدي. شركة بيل للمقاولات. نهتم بالنقل والتخزين، وجمع النفايات، وتوفير سيارات الليموزين، وخدمة الأمن... وعلى هذا النحو".

"ومن استلم الأعمال الأخرى لوالدك؟".

"لم تكن هناك أعمال أخرى، سيد ساتر".

"صحيح". ألقيت نظرة سريعة على ساعتي.

لم يكن أنطوني مستعجلاً على ما يبدو للنهوض والمغادرة وقال لي: "قال لي والدي ذات مرة إنك أفضل شخص عرفه لناحية الجمع بين الذكاء والنجاح". وأضاف: "بالنسبة إلى شخص غير إيطالي".

لم أجبه على ذلك، ولم أكن واثقاً من شعوري حيال سماع ذلك. فعدا عن كون ذلك إطراء مميزاً (بالنسبة إلى غير إيطالي)، توجّب عليّ التفكير في المصدر.

بدا جلياً أن لزيارة أنطوني هدفاً يتعدى تذكر الماضي والترحيب بي في الجوار. في الحقيقة، أظن أنني أحسست بوجود عرض عمل. لكن في المرة الأخيرة التي عملت فيها مع بيلاروزا، تحطمت حياتي. لذا، لم أكن متحمساً للتجربة مجدداً.

همَمتُ بالوقوف، عندها قال أنطوني: "أحتاج أيضاً إلى بضع دقائق إضافية من وقتك".

جلست مجدداً في الكرسي الهزاز وقلت له: "تحدث من فضلك عن هدف زيارتك".

بدا أنطوني بيلاروزا تائهاً في أفكاره، وراقبته. لم يكن يملك أي شيء من الحضور المهيمن لوالده، لكنه لم يكن أيضاً قزماً يحاول الحلول مكان عملاق. كان أنطوني الشيء الحقيقي، وإنما لا يزال منتجاً غير جاهز لبيئته. أحسست أيضاً أنه يخفف غيظه الداخلي لصالحي. ويعني ذلك أنه يريد شيئاً ما.

قال أخيراً: "استفسرت كثيراً عن والدي، من أصدقائه والعائلة، وقالوا جميعاً تلك الأشياء الرائعة عنه، ولكن، بما أنه كان يحترمك كثيراً... يمكنك إعطائي ربما بعض... مثل، معلومات عنه لم يكن يفهمها معارفه. هل فهمت؟".

أعرف أن الأشخاص يرغبون في سماع الأشياء الجيدة عن أعزائهم الذين رحلوا من أشخاص عرفوهم، وبدا جلياً أن هذا الصبي معجب كثيراً بوالده، ولذلك فإن الهدف المزعوم لزيارة أنطوني هو سماع جون ويتمان ساتر يقول شيئاً لطيفاً وجميلاً للذكرى. إذاً، لِمَ ظننت أنني كنت في مقابلة عمل؟ أجبته: "عرفته فقط لمدة... ستة أشهر".

"نعم، لكن...".

"سأفكر في الأمر".

"حسناً. وفكّر ربما في كيف أستطيع أن أسدد لك مقابل ما فعلته".

"ماذا فعلت؟".

"أنقذت حياته".

لم أجب.

"السهرة في مطعم جوليو. حين أطلق أحدهم النار عليه. أوقفت النزيف".

ما الذي كنت أفكر فيه حين فعلت ذلك؟ أقصد، في ذلك الوقت، كنت واثقاً من أنه يغازل زوجتي. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن فكرة جيدة عرقلة هدف مافيا. أقصد أن أحداً - وفي هذه الحالة سالفاتور داليسيو - دفع مالاً كثيراً للقضاء على فرانك بيلاروزا، وأنا أفسدت الأمر. هكذا، ووفقاً لشعار عمل الخير لا يبقى من دون استحسان، لمّح لي فرانك، بعد تعافيه، أن ابن حميه، السيد داليسيو، لم يكن سعيداً مني. تساءلت ما إذا كان العم سال لا يزال منزعجاً. أو ربما، بما أن زوجتي قتلت فرانك بعد ذلك، اختفى كل شيء. ربما يجدر بي الطلب من أنطوني سؤال عمه عن ذلك. أو ربما لا.

"سيد ساتر؟ أنقذت حياته".

أجبته: "فعلت ما كان ليفعله أي شخص مدرّب على الإسعافات الأولية". ثم أضفت: "أنت لا تدين لي بأي شيء".

"أشعر بالارتياح إذا استطعت تسديد هذه الخدمة لك".

تذكرت بوضوح خدمات فرانك لي، التي لم تكن مفيدة، وكنت واثقاً من أن خدمات أنطوني ستأتي مع بعض القيود. لذا، وكي أكون واضحاً تماماً، قلت له: "مثلما تبين، إنّ كل ما فعلته هو إنقاذ حياة والدك لتتمكن زوجتي من قتله لاحقاً".

تفاجأ أنطوني بهذه الفكرة. ربما ظن أنني لن أتطرق إلى السبب الحقيقي لموت والده. أقصد أن فرانك بيلاروزا لم يمت لأسباب طبيعية، وإنما تعرض لإطلاق نار من صديقة غاضبة وهذا سبب طبيعي في عالمه.

وكي أوضح قصدي أكثر، قلت له: "كان والدك يقيم علاقة مع زوجتي. لكنني أظن أنك تعرف هذا".

لم يجب لثوانٍ قليلة، ثم قال: "نعم... أقصد، ذُكر الأمر في الصحف".

"وهل تعرف أنها عادت؟".

"نعم، أعرف".

"ما هو شعورك حيال هذا؟".

نظر إليّ مباشرة في العينين، وقال: "أظن أنه كان يجدر بها البقاء بعيدة".

"وأنا أيضاً. لكنها لم تفعل". حدقنا إلى عيني أحدنا الآخر ثم قلت له: "أفترض أنه لن تكون هناك مشكلة، أنطوني".

حافظ على التواصل بيننا عبر تحديقه إلى عينيّ وقال: "إذا كنا سنواجه هذا النوع من المشاكل، سيد ساتر، لن يهم إذا كانت زوجتك تعيش على القمر. واضح؟".

أصبحت واثقاً الآن من أنني أتحدث إلى سيد المافيا الصغير وقلت له: "هذه هي الخدمة التي تستطيع تأديتها لي".

فكّر لبرهة، ثم قال: "لا أعرف ماذا حصل بينهما، لكن الأمر كان شخصياً. لذا، حين يكون الأمر شخصياً بين رجل وامرأة... ننسى الموضوع". وأضاف: "لا توجد مشكلة".

تذكرت حين قال فرانك بيلاروزا لا توجد مشكلة، كانت هناك مشكلة. لكنني تجاهلت المسألة الآن، وسجّلت في عقلي ضرورة متابعة الموضوع مع أنطوني بيلاروزا لعدم إزعاج زوجتي السابقة. صحيح أنها لم تقدم إليّ أي خدمة في الآونة الأخيرة، لكنها، كما قلت، أم ولديّ. أشرت إلى ذلك أمام أنطوني، لكنه ذكّرني أن سوزان تركته من دون أب. من المذهل فعلاً مقدار المشاكل التي يمكن أن تحصل عند وضع الإشارة أ في الخانة **ب**.

على أي حال، اكتفيت فعلاً من استرجاع الذكريات، وعبّرت عن رأيي، فوقفت وقلت: "شكراً على زيارتك".

وقف هو أيضاً، وانتقلنا إلى المدخل، فوضعت يدي على مقبض الباب لكنه وقف بعيداً عن الباب. سألني: "ألم ترَ زوجتك بعد؟".

"زوجتي السابقة. لا، لم أرها".

"حسناً، ستفعل. يمكنك إخبارها أن كل شيء على ما يرام".

لم أجبه، لكنني ظننت أن سوزان ستانهوب ساتر لم يخطر في بالها أبداً أنها انتقلت إلى جوار المنطقة التي قتلت فيها سيد المافيا. ولا بد من أنها سمعت الآن بأن أنطوني يعيش في عقار الحمرا القديم. ربما تنوي تقديم واجب عزاء متأخر إلى أنطوني لأنها لم تحضر دفن عشيقها. لا أبالغ أبداً في ذلك. فسوزان تملك اعتقاد الطبقة الراقية وما مفاده أنه إذا قتلت رجلاً، لا يعني ذلك أنه لا يجدر بك التصرف بلياقة مع أصدقائه وعائلته.

اقترح أنطوني: "ربما نستطيع تناول العشاء ذات ليلة".

"من؟".

"نحن".

"لماذا؟".

"لنتحدث".

"عمّاذا؟".

"عن والدي. كان يحترمك فعلاً".

لم أكن واثقاً من أنني أشعر بالشيء نفسه حيال السيد بيلاروزا. أقصد أنه لم يكن شريراً كثيراً. في الحقيقة، كان زوجاً جيداً ووالداً جيداً، باستثناء العلاقات العاطفية خارج الزواج وإدخال ابنه الصغير إلى الجريمة المنظمة. كان صديقاً جيداً، باستثناء الكذب والمراوغة، من دون ذكر علاقته مع زوجتي. كان أيضاً صاحب نكتة، ويضحك على نكاتي التي تنمّ عن ذكاء. لكن هل كنت أحترمه؟ لا، لكنني كنت أستظلفه.

قال أنطوني: "كان والدي يثق بك".

أنا واثق من أن أنطوني يريد معرفة المزيد عن والده، لكنه يريد أيضاً معرفة المزيد عني، وعن سبب احترام والده لي. ثم... حسناً، مثل والده، قدّم إليّ عرضاً يجدر بي رفضه. أو كنت أنا أنانياً أو مشككاً بإفراط في زيارة أنطوني؟

لاحظ أنطوني أنني متردد، فقال: "سأعتبرها خدمة".

تذكرت أن هؤلاء الأشخاص يشدّدون كثيراً على أهمية الخدمات، سواء أكانت معروضة أو متلقاة، ولذلك لا يجدر بي الاستخفاف بالكلمة. من جهة أخرى، لا بدّ من تسديد الخدمة بخدمة أخرى، مثلما اكتشفت قبل عشرة أعوام. لذا، لا يمكن أن أستفيد أبداً من إقامة أي علاقة مع أنطوني بيلاروزا.

لكن... من غير الجيد أيضاً صدّه نظراً إلى قلقي على سوزان. وإذا كنت خائفاً جداً، عليّ التفكير أيضاً في قلقي من سالفاتور داليسيو، ومثلما شرح لي فرانك ذات مرة: "الألزهايمر الإيطالي هو حين تنسى كل شيء باستثناء من خذلك".

على أي حال، لا تزال هناك بعض الرواسب من الماضي التي ربما تحتاج إلى مناقشة، وفيما خطرت هذه الأفكار في بالي، ارتكبت الخطأ الثاني هذه الليلة وقلت: "حسناً. نتناول العشاء".

"جيد". ابتسم وسأل: "ماذا عن مطعم جوليو؟".

لم أشأ فعلاً العودة إلى المطعم في ليتل إيتالي حيث تلقى فرانك ثلاث طلقات نارية. وإذا وضعنا الذكريات السيئة جانباً، لا أظن أن مالك المطعم أو الموظفين سيسعدون برؤيتي مع السيد الصغير. قلت له: "فلنجرب الطعام الصيني".

"حسناً. ماذا عن مساء الغد؟".

إنه الاثنين، وأحتاج إلى ثمانٍ وأربعين ساعة لأعود إلى رشدي فقلت له: "الأربعاء. ثمة مكان في غلين كوف اسمه وونغ لي. لنقل الساعة الثامنة".

"أستطيع اصطحابك".

"سألاقيك هناك".

"حسناً. سنكون لوحدنا"، ذكّرني أنطوني. "لا حاجة إلى ذكر الزمان والمكان أمام أيّ كان".

نظرت إليه، والتقت عيوننا. أومأت برأسي وقال لي: "جيد".

بدأت أفتح الباب، لكن أنطوني قال: "لحظة". أخرج هاتفه الخلوي، وطلب رقماً واحداً وقال: "نعم، جاهز". أقفل الخط وسألني: "هل تريد الخروج معي وإلقاء التحية على طوني؟".

لا أمانع في استنشاق بعض الهواء النظيف، لكن مثلما تعلمت في مطعم جوليو، من الأفضل عدم الاقتراب كثيراً من أي شخص يحتاج إلى حارس شخصي، ولذلك قلت له: "ربما في مرة أخرى".

ربما أحتاج إلى دقيقة للتأكد من عدم وقوفه وحيداً على طريق مظلمة، ولذلك سألني لتضييع الوقت: "كيف حصل أنك لم ترها بعد؟".

"أنا مشغول".

"حقاً؟ وهي مشغولة؟ هل لديها صديق؟".

"لا أعرف".

نظر إليّ وفاجأني بنظرة فلسفية عميقة بالقول: "هذا غريب فعلاً، أليس كذلك؟".

لم أجبه.

رنّ هاتفه الخلوي، وألقى نظرة سريعة على الرقم لكنه لم يجب. قال لي: "شكراً على وقتك".

فتحت الباب وقلت له: "شكراً على زيارتك".

ابتسم وقال: "هاي، بدا وكأنك رأيت شبحاً".

"تملك عيني والدك".

"حقاً؟". مدّ يده وتصافحنا. قال: "أراك الأربعاء".

خرج إلى الهواء البارد، وراقبته يخرج عبر البوابة الصغيرة وصولاً إلى الطريق حيث وقف طوني قرب سيارة سوداء كبيرة رباعية الدفع من نوع ما. ماذا حصل لسيارات الكاديلاك؟ كانت السيارة رباعية الدفع تعمل، لكن مصابيحها كانت مطفأة، وترك طوني يده اليسرى على مقبض الباب فيما وضع يده اليمنى تحت سترته.

أحسست بدرامية هذا المشهد قليلاً، لكن عليك أيضاً المضي قدماً. لا تعرف أبداً. ثم خطرت في بالي فكرة أن أنطوني بيلاروزا قد يكون مشروعاً مفتوحاً. وأنا سأتناول العشاء مع هذا الرجل؟

قبل أن ينطلق الرجلان، أغلقت الباب، وعدت إلى غرفة الطعام حيث سكبت لنفسي كأساً من الشراب.

"حسناً. اللعنة".

الفصل الرابع

في اليوم التالي، أخذت سيارة التوروس إلى جادة **شانكيز ميزري**، واحدة من الجادات الموجودة هنا مع أسماء غير جميلة - والتي تظن أن السكان أو المالكين قد يرغبون في تغييرها - لكنها أسماء تاريخية، يعود بعضها إلى القرن السابع عشر، فضلاً عن أن الأشخاص الذين يملكون المليارات لا يكترثون إذا كان عقارهم في جادة اسمها طريق الدجاج اللعينة. لا بل إن هذا يزيد من سحر المكان.

الشاطئ الذهبي هو مجموعة من القرى والتجمعات على الشاطئ الشمالي لمنطقة ناسو في لونغ آيلند، على مسافة خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلاً شرق مانهاتن. وفي هذه القرى مراكز جذابة، وبعضها، مثل لاتنيغتاون، حيث يقع ستانهوب هال، هي مناطق سكنية بامتياز، وعبارة عن مجموعة من العقارات الكبيرة، والعقارات الصغيرة الطموحة، وأراضي مامانشون مشيدة على عقارات سابقة.

في تلك الأيام - بين العصر الذهبي وحقبة العشرينيات التي انتهت في الثلاثاء الأسود في 29 أكتوبر 1929 - احتوى الشاطئ الذهبي في لونغ آيلند على أكبر نسبة من القوة والثروة في العالم. فلم يكن بالإمكان رمي حجر من دون إصابة مليونير. منذ ذلك الحين، سبّب الاكتئاب والحرب وضرائب الدخل وانتشار الضواحي ضربات قاضية لهذه المنطقة والمال القديم، والعائلات القديمة، والعادات القديمة. لكن المكان صمد، وبقي ظلاً لذاته القديمة، بالرغم من أنني أشعر الآن بإعادة انبعاث للشكل، ولكن ليس للمادة، في هذا العالم المختفي مع كل تلك الثروات الجديدة المجنية في وول ستريت.

قرية لوكوست فالي هي القرية الأساسية في الشاطئ الذهبي وكانت هي مقصدي. وهدفي المتواضع هو شطيرة، وبالتحديد شطيرة لحم بلاك فوريست مع جبن ميونستر وخردل على خبز الأرز. كنت أفكر في هذه الشطيرة منذ أسبوع تقريباً، وقد حان الوقت الآن. يمكن الحصول على هذه الشطيرة من متجر رولف للحلويات الألمانية، الذي أتمنى ألا يكون قد استسلم للأطعمة الدهنية أو للعادات الصحية السليمة.

كان يوماً مثالياً من شهر يونيو، في منتصف السبعينيات، مشمساً بمعظمه مع بعض الغيوم الخفيفة في سماء زرقاء صافية. وكانت الأزهار متفتحة، والأشجار الكبيرة مثقلة بالأوراق وتتمايل مع النسيم العليل. خارج السيارة، كانت العصافير تزقزق والنحل ينقل الرحيق من الأزهار الرائعة فيما الفراشات تغطّ على الأنوف الصغيرة للأولاد المثاليين، ما يدفعهم للضحك أمام المربيات. "آه ماريا. أليس رائعاً أن يكون الإنسان غنياً؟".

العودة إلى هنا ذكّرتني بسبب توبيخي بعد عقد كامل من الزمن. أقصد أن المضي قدماً في حياتي، والإبحار في مركبي طوال ثلاث سنوات، مع بعض المراحل الخطيرة جداً، كانت كافية لإلهائي وصرف انتباهي بحيث لم أركز على

الماضي. والسنوات السبع التي أمضيتها في لندن لم تكن أبداً مثل منفى أو مكان ذهبت إليه للهروب من الماضي. لكن بعد أن عدت الآن، أشعر وكأن الماضي ينتظرني بصبر.

وفي ملاحظة إيجابية أخرى، أعادت لي هذه المشاهد المألوفة بعض الذكريات الجيدة. فأنا ولدت هنا، وترعرعت هنا، وتزوجت وأنجبت ولديّ هنا، وما زلت أملك عائلة وأصدقاء هنا. ثم غادرت. لهذا السبب ربما لا أزال غاضباً. لم يكن يجدر بالأمور أن تنتهي هكذا؛ وما كانت لتنتهي هكذا لو أن فرانك بيلاروزا لم يكن يغازل زوجتي، أو بالعكس.

تابعت رحلتي في طريق الذكريات، التي باتت تعرف الآن بطريق الحصان الأجوف، ومررت أمام النادي الريفي الذي كنت سابقاً عضواً فيه، أي الكريك. أعاد لي ذلك أيضاً الكثير من الذكريات، مثل الليلة التي رافقنا فيها أنا وسوزان السيد بيلاروزا وزوجته الأنيقة، آنا، إلى النادي لتناول العشاء. لم يكن الأعضاء مسرورين، وعند التفكير مجدداً في الأمر، لم أكن أعرض النية الحسنة. لكن الأمر كان ممتعاً فعلاً.

على أي حال، إنه يوم الثلاثاء، قرابة الظهر، واليوم الذي تلا زيارة أنطوني بيلاروزا لي والتي تبين أنها زيارة استكشافية. لا أصدق أنني ضربت أخيراً موعد عشاء مع هذا الرجل. مثلما قال لي أحد معارفي ذات مرة، "إذا كنت ستتناول العشاء مع شريرة ريجيم، أحضر معك ملعقة طويلة". في هذه الحالة، عليّ إحضار عيدان خشبية طويلة جداً. والأفضل، إلغاء هذا العشاء.

إنها رحلتي الأولى إلى القرية منذ عودتي، وفيما اقتربت لاحظت المعالم المألوفة. لقد أنشئت هذه المنطقة في العام 1667 على يد الإنكليز، بمن فيهم أجدادي، وكان السكان يقاومون التغيير منذ ذلك الحين، ولذلك لا توجد الكثير من الأمور الغريبة. إنها فقط المنطقة.

انتقلت إلى طريق بيرش هيل، الشارع الرئيسي القديم، ودخلت عبر محطة البلازا حيث كنت أستقل قطار لونغ آيلند لأعبر رحلتي الممتدة خمسين دقيقة وصولاً إلى مانهاتن. في البلازا، كان يوجد ملهى ماكغلايد حيث كانت سوزان تلتقي بي أحياناً حين أصل بالقطار. وعند التفكير مجدداً في الأمر، أتساءل عن عدد المرات التي أقامت فيها علاقة مع فرانك بيلاروزا بعد الظهر قبل أن تأتي لشرب الشراب معي.

أبطأت سرعتي فيما اقتربت من مكتبي القديم للمحاماة حيث كنت أعمل ليوم أو يومين من كل أسبوع لكسر روتين التنقل في المدينة. كان فرع لوكوست فالي لمكتب بركينز، بركينز، ساتر، ورينولدز يقع في عزبة فيكتورية في أطراف المدينة. لا تزال العزبة موجودة، ولا يزال هناك مكتب محاماة، لكن اللافتة على الحائط الرئيسي تحمل عبارة: جوزيف بي. بيتت وجاستين دبليو. غرين، محاميان بالاستئناف.

لم أتعرف إلى هذين الاسمين، وكانت عدم رؤية اسمي بمثابة صدمة، بالرغم من أنه لا يفترض ذلك.

لو كانت هذه حقبة الانحطاط، لكنت دخلت الآن إلى المبنى ولاحظت أن الأثاث مختلف، وكنت لأقول لموظفة الاستقبال "أين كاتي؟"، فتنظر إليّ تلك السيدة، مذهولة، وتجيبني "من؟".

"موظفة الاستقبال".

"سيدي؟ كيف أستطيع مساعدتك؟".

"أنا جون ساتر. هذا مكتبي. لماذا اسمي غير مكتوب على اللافتة؟".

وتقول السيدة: "لحظة من فضلك سيدي"، ثم تختفي وتطلب الشرطة التي تأتي وتأخذني بعيداً فيما أنا أتبجح بالقول إن هذا كان مكتبي، وأطلب منهم العثور على سكرتيرتي، أو الاتصال بزوجتي لتسوية الموضوع. ثم يقول صوت رود سرلينغ: "جون ويتمان ساتر ظن أنه عاد للتوّ إلى مكتبه بعد فرصة الغداء؛ لكنه غاب فترة أطول من ذلك... في حقبة الانحطاط".

عدت إلى مركز المدينة. يفترض بأي شخص من غرب هادسون وصل إلى هذه المدينة الصغيرة ألا يحسب طريق بيرش هيل بأنها الشارع الرئيسي للولايات المتحدة. أولاً، هناك عدد غير طبيعي من السيارات الفخمة المستوردة في الشارع، ولاحظت أن المتاجر لا تزال بمعظمها عبارة عن متاجر تحف قديمة وبوتيكات ومعارض فنية ومطاعم، من دون أثر لستاربكس.

تجنبت لوكوست فالي، حيث لا أزال أعرف ربما الكثير من الأشخاص، لكن بعد أن عدت الآن إلى هنا، أتخيل فرصة اللقاء بصديق أو جار قديم. "مرحباً جون. أين كنت يا رجل؟".

"حول العالم في مركبي، ومن ثم في لندن. غادرت قبل عشرة أعوام".

"هل مضى كل هذا الوقت؟ كيف حال سوزان؟".

"تطلقنا بعدما قتلت عشيقها سيد المافيا".

"هذا صحيح. أمر مؤسف. أقصد الطلاق. لِمَ لا نتناول الغداء في النادي؟".

"إنني ممنوع من الدخول إلى الكريك أو سيوانهاكا لبقية حياتي".

"هل أنت جاد؟ حسناً، تبدو رائعاً جون. أبلغني متى تكون غير مرتبط بمواعيد".

"سأرسل إليك رجلي مع بعض المواعيد. إلى اللقاء".

على أي حال، توجهت إلى جادة فورست، وعثرت على مكان لرَكنِ السيارة قرب متاجر رولف للحلويات الألمانية، حيث كنت آتي كلما حاولت التخلص من الروث العضوي الذي تحضره سوزان.

سررت حين لاحظت أن المتجر لا يزال هنا، لكنني اكتشفت في الداخل أنه حصل اجتياح مكسيكي، ولم تعد اللغة الإنكليزية موجودة على اللائحة.

إلا أنني طلبت بلغتي النيويوركية العادية "لحم بلاك فورست مع ميونستر وخردل في خبز أرز".

"سيدي؟".

"لا، ميونستر".

"ماستر".

"لا، أيها الرجل. أنا أطلب شطيرةً. أي جزء من الطلب لم تفهمه؟".

"لحاكست. نعم؟".

سمعت صوتاً من حقبة الانحطاط في رأسي وهمست: "أين رولف؟ ماذا فعلتم برولف؟".

سخر مني وقال: "لقد ذهب، صديقي".

"حسناً". على أي حال لم أكن أريد شطيرة ألمانيةً محضَّرة في المكسيك ولذلك قلت: "أعطني فقط قهوة مع الحليب. حليب. حسناً؟".

"حسناً".

أخذت قهوتي وغادرت.

بعد أمتار قليلة، كان هناك مطعم جديد، وفيما ارتشفت قهوتي، توجهت نحو نافذة المطعم للنظر إلى اللائحة. فجأة، فُتح الباب ودخلت سوزان ستانهوب ساتر. توقفت جامداً في مكاني، وشعرت بثقل في صدري.

كان يمكن أن تراني، لأنني كنت بعيداً مسافة عشرين قدماً فقط، لو لم تكن تتحدث عبر هاتفها الخلوي.

ترددت. لكن بما أنني فكرت في ذلك قبلاً، قررت التوجه إليها لإلقاء التحية.

جلست سوزان أمام طاولة صغيرة في واجهة المطعم، وفيما كانت لا تزال تتحدث عبر هاتفها الخلوي، أفرغت حقيبة غدائها. بسطت اللايدي ستانهوب فوطتها الورقية ولوزام المائدة البلاستيكية، وقنينة المياه المستوردة، وطبق السلطة تماماً كما لو أنها في وليمة حقيقية.

مضت أربعة أعوام على آخر مرة رأيتها فيها، في دفن العمة كورنيليا، وكان شعرها الأحمر أقصر قليلاً مما أتذكره، واسمرارها أكثر مما عرفته في حياتي. وضعت ملمعاً وردياً جليدياً على شفتيها الناتئتين، ولا تزال تلك العينان الخضراوان تبدوان مثل حبتيّ الزمرد في ضوء الشمس. وجدت نفسي أفكر في صورها على متن المركب.

تخلصت من تلك الصورة ولاحظت أنها كانت ترتدي أحد التصاميم القياسية في لوكوست فالي؛ وهو عبارة عن سروال بني وقميص بولو أخضر علقت نظارتها الشمسية على الياقة. كانت تضع ساعة رياضية، ولكن من دون أي مجوهرات أخرى، ولا حتى خاتم زفاف الأرملة، ووضعت على الطاولة ما أظن أنه حقيبة

ماركة كواتش لتكملة الطلة. طلة بسيطة وغير أنيقة كثيراً لفترة بعد الظهر في البلدة. وفي الإجمال، أوحت الطلة بأنها أرستقراطية وليست قروية.

على أي حال، أخذت نفساً عميقاً وتقدمت خطوة نحوها، لكن قبل أن أنطلق جيداً، فُتح باب المطعم، ودخلت امرأة أخرى، ألقت نظرة سريعة عليّ، ثم التفتت نحو سوزان وجلست قبالتها.

أنهت سوزان اتصالها الهاتفي، وبدأت تثرثر مع رفيقتها على الغداء.

لا أعرف السيدة، لكنني أعرف النوع. إنها أكبر نوعاً ما من سوزان، لكنها لا تزال ترتدي ثياباً أنيقة، واسمها على الأرجح بافي أو سوكي أو تافي، وتعتقد بشدة أنك لا تستطيع أن تكون أبداً غنياً كفاية أو نحيلاً كفاية.

لم أستطع سماع ما تقولانه، لكنني لاحظت أن تافي (أو مهما كان اسمها) تتحدث باللهجة المحلية المعروفة بلهجة لوكوست فالي. حسناً. سأقول لكم. إنها حالة تصيب النساء، في أغلب الأحيان، لكن الرجال أيضاً يصابون بها أحياناً، وهي تحصل عادة في الأوضاع الاجتماعية التي تكون فيها أسنان المتكلم مطبقة على بعضها، ويحصل اللفظ عبر تحريك الشفتين فقط. يؤدي ذلك إلى نبرة أنفية مفهومة وقابلة للفهم، إلا إذا كان المتحدث يملك حجاباً منزاحاً.

على أي حال، تألف غداء تافي من قنينة مياه ولبن مع خمس حبات عنب أخرجتها من حقيبة يد تساوي ألف دولار. بدت هي وسوزان مرتاحتين مع بعضهما، ولم أعرف ما إذا كانتا تتحدثان عن شيء غير مهم، مثل الرجال، أو شيء مهم، مثل التسوق.

أحسست فجأة برغبة ملحة في التقدم نحوهما وقول شيء غريب لتافي، مثل: "مرحباً، أنا جون ساتر، الزوج السابق لسوزان. طلقتها لأنها كانت تقيم علاقة مع سيّد المافيا، أطلقت عليه النار وقتلته".

لكن تافي تعرف هذا على الأرجح، لأن هذا الخبر ليس من نوع الأخبار المحلية التي يستطيع المرء إخفاءها أو نسيانها. فهذا المكان يعيش على الفضائح والإشاعات، ولو كان يتم نبذ كل شخص ارتكب فضيحة، لفرغت حينها النوادي الريفية ولخلت الحفلات المنزلية.

إلا أنه توجد بعض الحدود للسلوك السيئ، ومن الأمثلة على ذلك اصطحاب آل ساتر لآل بيلاروزا إلى العشاء في الكريك. من جهة أخرى، لم تكن علاقة السيدة ساتر مع السيد بيلاروزا كافية لشطبها عن لائحة سيدات المجتمع. فحضورها مرغوب فيه في الحفلات الخيرية، وحفلات الكوكتيل، ومآدب غداء السيدات. كما أنه من غير المستغرب كثيراً إطلاق النار على العشيق، ومع القليل من التحريف، يمكن إعادة توضيب الجريمة العاطفية على أنها مسألة شرف. الخلاصة في ذلك أن سوزان ساتر هي من آل ستانهوب، الاسم الموجود دائماً في الكتاب الأزرق. استبدل الاسم باسم أي عائلة محلية أخرى - فاندربيلت، روزفلت، برات، ويتني، غرايس، بوست، هاتون، مورغان أو أي اسم آخر - وتبدأ بفهم القواعد والمزايا غير المكتوبة.

راقبت سوزان وتافي تتناولان الغداء وتتحدثان، وألقيت نظرة أخيرة على سوزان. ثم استدرت وتوجهت نحو سيارتي.

الفصل الخامس

اليوم التالي، الأربعاء، كان معتماً، ولذلك لم أبالِ إن أمضيت النهار في غرفة الطعام في منزل الحراسة، فيما ركّز عقلي أحياناً على الأوراق بين يديّ، وهام أحياناً أخرى في الماضي المنشور أمامي.

لم أحرق بعد صور سوزان وفكرت مجدداً في إعطائها إياها. فهي ليست ملكي حصرياً، وقد ترغب في استعادتها. ماذا تقول إميلي بوست؟ "عزيزي المرتبك في لونغ آيلند، الصور العائدة لزوجة أو عشيقة سابقة يجب إعادتها، سراً، عبر البريد المضمون والكتابة عليها بوضوح صور الرجاء عدم الطيّ. أما إرفاق شرح مع الصور فهو غير ضروري أو لائق عادة، بالرغم من أن المرسل في السنوات الأخيرة يشير غالباً في ملاحظة قصيرة أنه لم يتم نشر الصور على الإنترنت. يفترض بالمستلم إرسال ملاحظة شكر خلال عشرة أيام. (التوقيع) إميلي بوست".

في موضوع الاتصال بين الأزواج السابقين، حرص إدوارد وكارولين في اتصالاتهما الهاتفية معي على إعطائي الرقم الجديد لمنزل أمهما وأخبراني أنها لا تزال تحتفظ برقم هاتفها الخلوي في كارولينا الجنوبية. بالإضافة إلى ذلك، أملك بريدها الإلكتروني، بالرغم من أنني لا أملك حاسوباً. أما سوزان فهي تعرف طبعاً رقم هاتف إيثيل هنا، الذي لم يتغير منذ أن كان فرانكلين روزفلت رئيساً. إذاً... يجدر بأحدهم الاتصال بأحدهم.

عدت إلى أوراقي. عثرت على وثيقة زواجي وعثرت أيضاً على وثيقة طلاقي، ولذلك جمعتهما مع بعضهما. وما حصل بين الوثيقتين هو قصة أخرى مختلفة.

في ما يتعلق بوثيقة طلاقي، قد أحتاج إليها في حال قررت الزواج مرّة ثانية. في الحقيقة، إن السيدة في لندن، سامنتا، قالت لي: "لماذا لا نتزوج؟" لكنني أجبتها: "فكرة رائعة. لكن من سيأوينا؟".

تحدثت إلى سامنتا مرات قليلة منذ أن غادرت لندن، وأرادت المجيء إلى نيويورك، لكن بما أن علاقتنا كانت من غير أساس، لم تحلق سامنتا في الجو.

سحبت مغلفاً أسمر في اتجاهي كُتب عليه، بخط سوزان، "صور للألبوم". لم تجد طريقاً لها في أي ألبوم، ولا يحتمل أن يحصل ذلك. بعثرت الصور ولاحظت أنها تخص بمعظمها آل ساتر، وستانهوب، وألارد، وتم التقاطها على مدى سنوات عدة، في عطلات المناسبات؛ مثل الميلاد، والفصح، والشكر، وحفلات ذكرى الميلاد وكل ذلك.

كانت الفرقة كلها هنا؛ ويليام وشارلوت ستانهوب وابنهما الضخم، شقيق سوزان، بيتر، وكذلك سوزان نفسها، تبدو دائماً وكأن عمرها خمسة وعشرون عاماً.

كنت هناك بالطبع، مع إدوارد وكارولين، ووالديّ، جوزيف وهارييت، وفي إحدى الصور كانت هناك شقيقتي إميلي مع زوجها السابق، كيث. هناك صورة

جميلة لعمتي كورنيليا وزوجها، آرثر، وقد توفيا كلاهما الآن.

يصعب التصديق أنه مرّ وقت كان فيه الجميع على قيد الحياة وسعداء. حسناً، ليس سعداء كثيراً ربما، وإنما كانوا متحمسين على الأقل للابتسام أمام الكاميرا، بمساعدة بعض حفلات الكوكتيل.

فيما نظرت إلى الصور، لم أصدق أن العديد من هؤلاء الأشخاص قد ماتوا، أو تطلقوا، أو أسوأ من هذا، يعيشون في فلوريدا.

لاحظت صورة قديمة لإليزابيت ألارد، وتذكرت المناسبة، التي كانت حفلة تخرج إليزابيت من الجامعة، تم التقاطها على المرج الكبير في ستانهوب هال، وهذا مثل آخر على ضرورات النُبل، مثلما يقول المثل الفرنسي: "طبعاً يمكنك استعمال عزبتنا، وليس هذا غريباً على أي واحد منا". لاحظت أن إليزابيت كانت أكثر جمالاً مما أذكرها. في الحقيقة، عليّ الاتصال بها لأنها منفّذة وصية أمها.

أزحت الصور جانباً، باستثناء صورة لجورج وإيثيل. يصبح خدم العائلة لفترة طويلة أكثر من موظفين، وكان آل ألارد آخر من تبقّوا من الموظفين، مما ذكرني بضرورة الذهاب لرؤية إيثيل. أحتاج إلى القيام بذلك لأنني محاميها، ولأنه، بالرغم من فروقاتنا، تشاركنا بعض الحياة معاً، وكانت جزءاً من تاريخي مثلما كنت أنا جزءاً من تاريخها، وشاركنا جميعاً في الدراما نفسها - آل ألارد، آل ساتر، وآل ستانهوب – وأدينا أدوارنا على خشبة مسرح عقار شبه مهجور في عالم من الخدر السرمدي.

قررت أن الليلة هي وقت مناسب جداً لقول وداعاً؛ في الحقيقة، ربما لم يبقَ الكثير من الوقت.

لكن هذا ذكّرني أيضاً بأنه لديّ موعد آخر مع القدر هذه الليلة: السيد أنطوني بيلاروزا. فكّرت في إلغاء هذا العشاء، لكنني لم أعرف كيف أتصل به، ومواجهته لن تنفع في إبعاده.

في موضوع الاتصال بالأشخاص، كان الهاتف الوردي لإيثيل، من طراز السبعينيات، وسيلة الاتصال الوحيدة لي، واستخدمته قليلاً جداً، للاتصال في معظم الأحيان بسامنتا، وإدوارد، وكارولين، وشقيقتي إميلي في تكساس، التي أحبها كثيراً، وأمي التي هي... حسناً، هي أمي. وبالنسبة إلى الاتصالات الواردة، اتصل عدد قليل جداً من أصدقاء إيثيل، وأبلغتهم الخبر السيئ بوجود إيثيل في دار العجزة. في هذا العمر، ليس الخبر مولداً لصدمة أو مزعجاً جداً. في الحقيقة، إن سيدة عجوز اتصلت من دار العجزة نفسها، وكانت مسرورة لمعرفة أن صديقتها كانت مباشرة فوقها، ممدّدة على سرير مثل سريرها.

لا تملك إيثيل جهازاً لكشف رقم المتصل، ولذلك كلما رنّ الهاتف، توجب عليّ التساؤل ما إذا كان الاتصال وارداً من دار العجزة، أو من السيد نسيم، أو من سوزان، أو من سامنتا لتخبرني أنها في مطار جون كنيدي. تملك إيثيل مجيباً صوتياً، لكنه لا يعمل على ما يبدو، ولذلك لا أعرف أبداً ما إذا تلقيت اتصالات حين أكون خارج المنزل.

أشارت الساعة الغبية في المطبخ إلى الرابعة، وأخذت ذلك إشارة إلى الانسحاب والخروج من الباب الخلفي للمطبخ لتنشق بعض الهواء.

كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم، وتنشّقت رائحة المطر ووقفت على المصطبة وراقبت هذه الزاوية للعقار القديم.

يوظّف أمير نسيم بستانيين يهتمون بالأراضي المتقلصة، بما في ذلك الأشجار والعشب حول منزل الحراسة. وعلى طول جدار العقار، هناك ثلاث أشجار من التفاح البري تم تشذيبها، لكن لن يكون هناك هلام تفاح بري من إيثيل هذه السنة، أو بعد الآن.

وراء المصطبة هناك حديقة مطبخ صغيرة، زرعت فيها إيثيل مجموعة من الخضار قبل أن تمرض. لقد كبرت الحديقة وباتت تحتوي الآن على أعشاب ضارة وأزهار برية.

ووسط الحديقة المهملة، هناك إشارة خشبية مدهونة باليد، قديمة جداً وباهتة جداً بحيث لا يمكنك قراءة ما كتب عليها أبداً. لكن ثمة إشارة جديدة، عمرها ستون عاماً تقريباً، كُتب عليها **حديقة النصر.**

عليّ التذكر لإعطاء هذا لابنة إيثيل، إليزابيت.

سمعت هاتف الجدار يرنّ في المطبخ. أكره فعلاً تلقي الاتصالات. نادراً ما يكون ذلك لعرض الجنس أو المال أو العطلة المجانية. وحين يكون ذلك، تظهر دائماً قيود معينة.

استمرّ الهاتف في الرنين، ومن دون وجود مجيب صوتي، ظل يرنّ كما لو أن أحدهم يعرف أنني في المنزل. سوزان؟

أخيراً، توقف.

ألقيت نظرة أخيرة حولي، واستدرت، ودخلت للاستعداد لرؤية المرأة العجوز التي ستحظى بمكافأتها الأخيرة، ورجل شاب سيحذو حذو والده إلى قبر مبكر، إذا لم ينتبه جيداً.

الفصل السادس

عند الساعة الخامسة بعد الظهر، خرجت عبر البوابات الحديدية الضخمة لعقاري الكبير وتوجهت نحو غرايس لاين في سيارة اللامبورغيني. توضيح مهم: ليس عقاري، وليست سيارة لامبورغيني.

غرايس لاين - لم يطلق الاسم تيمناً بامرأة أو بالحالة الروحية التي يظن السكان أنهم يعيشونها، وإنما تيمناً بعائلة غرايس ذات الشهرة الكبيرة - كانت، وربما لا تزال، طريقاً خاصةً، ممّا يعني أن السكان يملكونها ويفترض بهم المحافظة عليها. المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا، كان جيراني يحاولون تحميل هذه النفقة للحكومة المحلية المختلفة، التي لم تكن مستعجلة على ما يبدو لمساعدة الأثرياء في غرايس لاين، بالرغم من أن بعضهم لم يعودوا من الأثرياء. لكن يبدو أن المسألة حُلّت في غيابي لأن غرايس لاين باتت مرصوفة جيداً الآن.

استمررت في التقدم نحو قرية لوكوست فالي حيث أحتاج إلى التوقف لشراء شيء لإيثيل. لا يجدر بالشخص أبداً الوصول فارغ اليدين حين يقوم بزيارة، لكنني لا أعرف أبداً إحضار شيء غير الشراب الفرنسي، وهذا ليس ملائماً لهذه المناسبة. كما أن الأزهار تبدو مبكرة قليلاً في توقيتها.

تحب إيثيل القراءة، ولذلك أستطيع التوقف أمام المكتبة، لكن لا يجدر بي شراء كتاب طويل مثل الحرب والسلام. تحب أيضاً الفاكهة، لكن لا يجدر بي شراء الموز الأخضر. حسناً، لست لطيفاً جداً، لكن حين أواجه شبح الموت، يساعد القليل من المزاح (وحتى المزاح السيئ) الأحياء والأموات على تقبله. صح؟ إذاً، ربما تحتاج إلى شيك هدية من برنامج Weight Watchers.

"عزيزتي السيدة بوست. أحتاج إلى زيارة سيدة عجوز في دار العجزة، علماً أن الوقت الذي بقي لها على هذه الأرض يمكن قياسه بساعة توقيت. لِمَ يجدر بي شراء شيء لها؟ (التوقيع). كولي. ملاحظة: أنا لا أحبها".

"عزيزي كولي. العادات الجيدة لا تتوقف عند باب الموت. الهدية الملائمة تكون علبة شوكولاته؛ إذا كانت لا تستطيع أكلها، يأكلها زوارها. وإذا ماتت قبل أن تصل إلى هناك، اترك الشوكولاته وبطاقتك مع موظفة الاستقبال. الفكرة هي المهمة. (التوقيع). إميلي بوست. ملاحظة: حاول إجراء تعديلات إذا كانت لا تزال واعية".

انعطفت نحو جادة بؤس الظربان، وبعد دقائق قليلة وجدت نفسي مجدداً في قرية لوكوست فالي. أكره شراء أي شيء، بما في ذلك البطاقات والهدايا السخيفة، ولذلك تعكّر مزاجي فيما عبرت جادة فورست وطريق بيرش هيل، بحثاً عن مكان ما يبيع الشوكولاته. شاهدت على الأقل عشر سيارات رباعية الدفع يمكن أن تكون إحداها سيارة سوزان، وخطر في بالي أنها جيدة في هذا النوع من الأمور، فإذا صادفتها - صورياً وليس فعلياً - سأطلب منها النصيحة. آخر نصيحة هدية أعطتني إياها - في حفل تخرج كارولين من كلية القانون في هارفارد -

كانت القميص القطني الذي اشتريته لكارولين في لندن، والذي كان، مثلما يقول شكسبير: "أول شيء نفعله هو الذهاب لقتل كل المحامين"، هدية غير مناسبة للتخرج من كلية الحقوق. لا بد من أنها كانت محقة.

على أي حال، تخليت عن فكرة الشوكولاته، وركنت السيارة، وتوجهت إلى متجر أزهار.

سألتني سيدة شابة لطيفة المظهر كانت تقف خلف المكتب عن كيفية مساعدتي، وأجبتها بعفوية: "أحتاج إلى شيء لسيدة عجوز في دار العجزة، ولم يبقَ لها الكثير من الوقت في هذا العالم". ألقيت نظرة على ساعتي للتشديد على هذه النقطة.

"إذاً، أفهم...".

"لست مولعاً بها كثيراً".

"حسناً...".

"أقصد. ربما الصّبّير ملائم، لكنها ستستقبل زواراً آخرين ولذلك أحتاج إلى شيء جميل المظهر. ليس ضرورياً أن يعيش فترة طويلة".

"أفهم".

"لا يمكن أن يبدو مثل باقة للمأتم. صح؟".

"صح. تريدنا أن... لِمَ لا تتجنب الأزهار وتختار نبتة حية جميلة؟".

"ماذا عن الشوكران؟".

"لا. كنت أفكر في شجرة الصنوبر الصغيرة المعروضة هناك". ثم شرحت: "الأشجار دائمة الاخضرار هي رمز الحياة الأبدية".

"حقاً؟".

"نعم، حسناً، مثل شجرة الميلاد".

"أشجار الميلاد تصبح بنية".

"لأننا نقطعها". وقالت لي: "نحن نرسل الكثير من الأشجار دائمة الاخضرار إلى دور العجزة".

"حقاً؟".

"نعم. رائحتها جميلة. وتستطيع العائلة أخذها معها إلى المنزل كذكرى بعد ذلك".

"بعد ماذا؟".

"بعد... أن... الشخص...". بدّلت الحديث وسألت: "في أي دار عجزة ترقد السيدة؟".

“فير هافن”.

“يمكننا إرسالها إليك”.

“في الحقيقة، أنا الآن في طريقي إلى هناك، وهذه كبيرة جداً، لذا...”. نظرت حولي، ورأيت في زاوية المتجر رفاً مليئاً بالحيوانات المحشوة، وبينها بعض الدببة الصغيرة التي تبدو كبيرة جداً هنا لأن الشخص الذي استوحى الدب، تيدي روزفلت، عاش في منطقة أويستر باي المجاورة. أخذت أجمل دب معروض على الرف، ووضعته على المكتب وقلت: “سآخذ هذا”.

“هذا جميل جداً”. وضعت شريطاً وردياً حول عنق الدب وأقحمت عوداً من الخزامى في الشريط.

دفعت الثمن نقداً، وقالت لي السيدة الشابة: “ستحب هذا. حظاً سعيداً”.

بعد أن عدت إلى السيارة، توجهت غرباً نحو دار العجزة في غلين كوف. ألقيت نظرة على الدب الصغير الجالس قربي، وشعرت فجأة بدفق من العاطفة يغمرني. خطر في بالي أن إيثيل ألارد تموت، وأن العديد من الأشخاص الذين عرفتهم قبلاً ماتوا، وتذكرتهم جميعاً في برهة ورأيت وجوههم، يبتسمون، في مناسبة اجتماعية، وهم يحملون الكؤوس، كما في الصور التي رأيتها.

تساءلت في نفسي أين ذهبت تلك السنوات؟ ولماذا لم أقدّر تلك اللحظات حين كان عالمي آمناً ومألوفاً وغير ممسوس.

حسناً، لا يمكنك العودة إلى الوراء، وحتى لو استطعت، لست واثقاً من أنني أستطيع تغيير أي شيء أفضى إلى نهاية حياتي مثلما أعرفها، أو إلى نهاية حياة فرانك بيلاروزا مثلما عرفها.

فرانك بيلاروزا، في يوم شتوي بارد قبل عقد من الزمن، كان آتياً من بروكلين ومتوجهاً إلى مطعم في غلين كوف مع بعض شركاء العمل لعقد اجتماع. ذهبوا جميعاً على الطريق السريعة للونغ آيلند، وتاهوا عن الطريق، وانتهوا بطريقة ما في غرايس لاين.

رأوا العقار المهجور المعروف بالحمرا، ومثلما أخبرني فرانك لاحقاً، ذكّرته أشجار الحور المحيطة بالرواق والفيلا المسقوفة بالقرميد الأحمر، بجذوره الإيطالية. استفسر عن المكان واشترى العقار. ثم انتقل إليه. ثم التقيت به. ثم قبلنا أنا وسوزان دعوته لشرب القهوة. ثم حصلت الكثير من الأمور، انتهاء بقتل زوجتي لجارها وعشيقها الجديد.

الآن، بعد عشر سنوات، اجتمعت الشخصيات الأساسية في هذه المأساة - بما في ذلك الميت والتي تموت - لإتمام المشهد الأخير والنهائي.

الفصل السابع

توجهت غرباً نحو طريق بركة البط، مروراً بأكاديمية الأصدقاء، وهي مدرسة ثانوية أسسها الكوايكرز المحليون. ذهبت سوزان إلى أكاديمية الأصدقاء، وقالت لي إنها كانت تصل إلى الصف في سيارة لينكولن كبيرة يقودها جورج ألارد، الذي كان يعتمر العديد من القبعات، ومنها قبعة السائق، بصفته أحد آخر الخدم عند آل ستانهوب.

الشاطئ الذهبي في حقبة الخمسينيات، وبداية الستينيات، مثلما أذكر، كان في مرحلة انتقال بين العالم القديم السابق لحرب عائلات الطبقة الراقية أصحاب الثروات الهائلة، وبين الثورات الاجتماعية التي أطاحت بمعظم ما بقي من ذلك العالم القديم.

كانت معظم هذه التغيرات للأفضل. جورج، على سبيل المثال، لم يعد خادماً وأصبح موظفاً. أنا واثق من أن هذا لم يحسّن من مهاراته في القيادة لكنه أعطاه إجازات في عطلات نهاية الأسبوع.

بالنسبة إلى إيثيل الحمراء، مثلما كنت أناديها سراً لأنها كانت اشتراكية، فلم تعتبر نفسها أبداً خادمة (خصوصاً بعد علاقتها مع أوغسطس ستانهوب)، وعاشت وقتاً طويلاً بشكل كافٍ لترى العديد من أحلامها المثالية وقد تحققت.

عرفت من خلال لافتة طرقية أنني دخلت إلى مدينة غلين كوف، وهي مدينة متوسطة الحجم مبدئياً تضم عشرين ألف نسمة؛ أو أكثر، إذا حسبنا المهاجرين الجدد الواصلين ولا يزعجون مستلزمات المواطنية.

تقع غلين كوف في مرفأ هامبستيد ولونغ آيلند ساوند، ومثل العديد من المجتمعات على الشاطئ الشمالي للونغ آيلند، أسسها المستوطنون الإنكليز في القرن السابع عشر، بمن فيهم أسلافي، الذين، حين وصلوا، لم يزعجوا أنفسهم في سؤال الهنود المحليين عن شروط المواطنية أو عن إذن السماح بالعمل.

على أي حال، عاش البيض والحمر في سلام وتناغم نسبيين طوال قرن من الزمن، ونتيجة موت الهنود من الأمراض الأوروبية في أغلب الأحيان. احتلّ البريطانيون لونغ آيلند طوال فترة الثورة، وبقي العديد من السكان المحليين أوفياء للتاج الملكي، بمن فيهم آل ساتر، الذين ما زالوا يملكون هذا الطابع المحافظ؛ باستثناء المرحوم والدي الذي كان ديمقراطياً ليبرالياً واعتاد على المشاركة في مناقشات سياسية في الاجتماعات العائلية التي تطغى عليها السياسة الجمهورية. أمي المجنونة، هارييت، كانت هي أيضاً تقدّمية، ولطالما كانت هي وإيثيل حليفتين ضدّ أغلبية الرجال القمعيين الذين سيطروا ذات مرة على مجتمع الشاطئ الذهبي.

لكن حتى هذا تغير، وحين غادرت قبل عشرة أعوام، إذا كان لديك صديق أو جار ديمقراطي، يمكنك التحدث عن الأمر صراحة من دون القلق بشأن ارتفاع أسعار العقارات.

وفي موضوع الحرب والسياسة، كنت أصغي جزئياً إلى برنامج إذاعي محافظ، ورفعت الصوت للاستماع إلى متصل يقول: "علينا النيل منهم قبل أن ينالوا منا".

أجابه المذيع، وهو يحاول أن يبدو منطقياً قليلاً: "حسناً، لكننا سننال ممّن؟".

أجاب المتصل: "جميعهم. ننال من بغداد أولاً كي لا نضطر إلى إرسال أولادنا إلى هناك ليُقتَلوا".

"حسناً، لكن ربما يجدر بنا النيل أولاً من مخيمات تدريب القاعدة. فهموا جميعاً الرسالة".

"نعم. النيل من المخيمات أيضاً".

قطع المذيع الاتصال لبثّ إعلان تجاري سبقته الموسيقى الوطنية الحماسية لجون فيليب سوسا، الذي سكن قبلاً في لونغ آيلند وبدا أنه يعود الآن.

حصل تحول مذهل في السياسة والثقافة الاجتماعية بعد أحداث 11 سبتمبر، وكان نوعاً من الصدمة لو أنك لم تكن موجوداً لرؤية الأمر يتطور. بات كل منزل تقريباً يرفع علماً أميركياً، بما في ذلك المتاجر والمنازل هنا في غلين كوف، التي ليست موطناً للمحافظة عادة. وباتت كل سيارة ترفع علماً على الهوائي، أو تضع شعاراً على النافذة، أو لصائق كُتب عليها: "11 سبتمبر - لا تنسوا أبداً" أو "بن لادن، يمكنك الهروب لكن لا يمكنك الاختباء"، وما إلى ذلك. كان جميع الأشخاص تقريباً الذين رأيتهم في لوكوست فالي يضعون دبوس علم أميركي. عند التفكير في ذلك، أحسست أن الأشخاص كانوا يفتشون سيارتي بحثاً عن إشارات تدل على أنني أميركي مخلص.

على أي حال، وبالعودة إلى القرن الماضي، أصبحت غلين كوف موطناً لعدد كبير من الإيطاليين المهاجرين الذين وجدوا عملاً في البناء وصيانة الملكيات الكبيرة والعقارات. هذا العمل اليدوي للأغنياء تحول مع الأجيال ليصبح شركات بناء وشركات مسح أراضٍ وأعمالاً مماثلة يملكها إيطاليون - أميركيون.

إنها قصة نجاح أميركية رائعة، لكن لسوء الحظ ثمة تأثير جانبي كبير للعدد الكبير للإيطاليين في غلين كوف ألا وهو وجود مجموعة صغيرة، وإنما مثابرة، لرجال يعملون في شيء غير مسح الأراضي. لهذا السبب، كان السيد فرانك بيلاروزا من بروكلين في طريقه إلى غلين كوف، في لونغ آيلند، قبل عقد من الزمن للقاء بعض شركاء العمل في مطعم إيطالي. المثير للسخرية، أنه اليوم ومع وجود نظام جي بي أس GPS، ما كان هو وسائقه - الذي كان اسمه أنطوني وأصبح الآن طوني – ليضيعا وينتهيا في غرين لاين، وكان القدر ليتغير بفعل تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية. تصور.

توجهت شمالاً نحو دوسوريس لاين، وهي طريق من القرن السابع عشر تؤدي إلى ساوند لونغ آيلند، وعاش فيها بعض من آل ساتر خلال القرون الماضية.

لم تُتَح لي أبداً فرصة زيارة دار العجزة فير هافن من قبل، لكن السيدة اللطيفة عبر الهاتف أعطتني التوجيهات وأكدت لي أن السيدة ألارد تستطيع استقبال الزوار؛ بالرغم من أنها حذرتني من أن الوضع قد يتغير حين أصل.

تمرّ دوسوريس لاين عبر ما كان قبلاً ثمانية عقارات رائعة تمتلكها كلها عائلة برات، وشيدها السيد تشارلز برات من ستاندارد أويل لنفسه ولسبعة من أولاده الثمانية. لماذا لم يحصل الرقم ثمانية على عقار، بقي أمراً غامضاً بالنسبة إليّ، لكنني واثق من أن تشارلز برات له أسبابه، تماماً مثلما كان لويليام بيكرهيد من هيلتون هيد أسبابه الخاصة لتوريث سوزان منزل ستانهوب الريفي وعشرة أكرات، بصفتها المالكة الوحيدة. لا شك في أنه كان في استطاعة سوزان تغيير صك الملكية، لكنها كانت ستثير غضب ويليام، ولا نريد أن يغضب البابا.

في موضوع العقارات، تساءلت دائماً عن رأي ويليام ستانهوب في حق إيثيل ألارد بالعيش في منزل الحراسة طوال حياتها. لا أعرف أبداً ما إذا أدرك ويليام أن والده، أوغسطس، كان يغازل الخادمة، أو أياً كان منصب إيثيل في ذلك الحين. لكن لا بد من أنه يعرف، إذا أخبرته سوزان بالقصة، مثلما أخبرتني. وبالرغم من ذلك، لم يشاركني ويليام هذا السرّ العائلي. ربما كان محرجاً؛ ليس من حماقة والده وإنما من حقيقة امتلاك الخادمة الصغيرة عقاراً حقيقياً من آل ستانهوب. وكما قلت قبلاً، لا يمكن وضع الإشارة **أ** في الخانة **ب**؛ اتبع التعليمات.

مررت أمام إحدى الممتلكات السابقة لآل برات، كيلينورث، التي كانت تستخدم كمعتزل في عطلة نهاية الأسبوع للبعثة الروسية في الأمم المتحدة. فحين كان الاشتراكيون هنا، كان هناك رجال كيه جي بي KGB مع أسلحة وكلاب كبيرة عند البوابات الحديدية. أما الآن فيبدو المكان مسالماً ومن دون حراسة.

حين كنت ولداً ترعرع في لوكوست فالي، كان طقس العبور الأساسي للصبيان - وحتى للبنات - عبور الحدود إلى العقار السوفياتي ولعب الغميضة الخطيرة مع الحراس الروس وكلابهم. والسرّ كان إلقاء لحم البقر النيء المفروم؛ لأن الكلاب تحبه.

أظن أننا كنا مجانين أكثر مما كنا بُسلاء، ولدينا جميعاً قصة عن ولد ما اختفى إلى الأبد وراء البوابات الحديدية. لا أظن أن أياً من هذه القصص كان حقيقياً، ومعظم الأولاد الذين اختفوا من الجوار تبين لاحقاً أنهم انتقلوا مع عائلاتهم إلى مكان آخر أو ذهبوا إلى مدرسة داخلية.

أنا واثق من أن الحراس الروس اعتبرونا في غاية الجرأة والحيلة والشجاعة، وأنا واثق من أنه تم إيصال هذا الخبر إلى موسكو وأدى مباشرة إلى انهيار الإمبراطورية السوفياتية ونهاية الحرب الباردة. لكن مثل معظم أبطال الحرب الباردة، بقينا أنا وأصدقائي الأغبياء مجهولي الهوية وغير معروفين. سيعرف العالم يوماً ما ربما ما فعلنا هنا، لكن حتى ذلك الحين، ستستمر شرطة غلين كوف في ذكرنا في تقارير الأحداث على أننا منتهكون مجهولون وشبابٌ منحرفون. لا بأس. نحن نعرف.

في أعلى الطريق هناك عقار جي. بي. مورغان وعقار في. دبليو. وولورث، اللذان باتا الآن مهجورين ومهملين، ومثلما أشارت اللافتات، انعطفت يساراً نحو طريق خاصة، تمرّ بين بعض الأشجار. نظرت إلى الأعلى ورأيت بناء كبيراً

وقديماً من الحجر الأبيض مع سقف مائل. واستطعت العثور على مرأب الزوار من خلال لافتة أشارت إليه.

دخلت إلى المرأب الفارغ تقريباً، وأمسكت بالدب الصغير، وخرجت من السيارة.

أصبحت السماء صافية، وتوجهت الغيوم البيضاء المبعثرة نحو ساوند، فيما انزلقت الغيوم الكبيرة في الأفق. بعد ثلاث سنوات في البحر، أصبحت أفهم الطقس والطبيعة، وأحسست أن ساوند قريبة. في الحقيقة، شممت رائحة الهواء المالح الذي ولّد فيّ الحنين للمحيط المفتوح.

توجهت نحو المبنى وأنا أفكر "ليس هذا مكاناً سيئاً لتمضي فيه آخر أيامك على الأرض، إيثيل... قبل أن تفتح لك الأبواب اللؤلؤية للترحيب بك في العقار الكبير في مكان مجاني إلى الأبد ولست بحاجة إلى علاقة مع المدير".

الفصل الثامن

دخلت المبنى الأبيض، الذي كان في ما مضى منزلاً خاصاً حسبما لاحظت. من الجيد أن تتم إعادة تدوير المنازل القديمة واستعمالها لأغراض أخرى، مثل مدرسة أو متحف أو، في هذه الحالة، مأوى ودار عجزة. فهذا أفضل من هدم المباني والتقسيم العشوائي لإيواء عدد لامتناهٍ من رجال وول ستريت الذين تتخطى مداخيلهم معدل ذكائهم.

ثمة سيدة لطيفة وراء المكتب ألقت التحية، وإجابة عن سؤالي، أبلغتني أن إيثيل ألارد "بخير مثلما تتوقع"، وهذا جيد ربما حتى الآن. أما الإجابات الأخرى المحتملة فكانت "غير جيدة، ممنوع الزوار"، و"ماتت". لا أظن أن عبارة "في النادي" هي من الإجابات المحتملة في فير هافن.

أرشدتني السيدة إلى مصعد صغير في الردهة. "الطابق الثاني، الغرفة السادسة".

كنت وحدي في المصعد الذي احتاج إلى وقت طويل لصعود طابق واحد، استمعت خلاله إلى قسم من مقطوعة فيفالدي المواسم الأربعة؛ الصيف إذا كنت مهتماً بذلك. تخيلت الأبواب تفتح أمام مشهد من الغيوم البيضاء والسماء الزرقاء مع أبواب لؤلؤية في البعيد. احتجت فعلاً إلى شرب كأس.

بالفعل، فُتحت الأبواب على رواق مغطى بورق جدران مزركش بالأزهار، وقفت فيه سيدة ترتدي الأبيض. ألقت عليّ التحية بالاسم، وعرّفتني عن نفسها بأنها السيدة نايت، ثم قالت: "نادني ديان".

"مرحباً ديان".

"اتبعني من فضلك".

لحقت بها في الرواق الطويل. بدت السيدة نايت مثل واحدة من اختصاصيي الرعاية الصحية الصارمين واللطيفين نتيجة الحاجة إلى التعامل مع كل العواطف البشرية الممكن تخيلها في منزل الموت.

قالت لي فيما كنا نسير: "السيدة ألارد تناولت دواء للألم، ولذلك قد لا تجدها يقظة مثلما تذكرها".

"أفهم".

"لكنها صافية التفكير الآن، وكل قدراتها العقلية بخير".

"جيد".

"ألمُها مقبول وخاضع للسيطرة".

"هذا جيد". أحسست أنه يفترض بي أنا طرح الأسئلة لتوضيح هذه الأمور فقلت: "كيف حال معنوياتها؟".

"جيدة جداً".

"العديد من الزوار؟".

"القليل. بمن فيهم أمك وزوجتك".

صحّحت لها: "زوجتي السابقة. ليستا هنا الآن، أليس كذلك؟".

"لا". ألقت نظرة سريعة على هديتي وقالت: "ستحب هذا الدب".

توقفت السيدة نايت أمام باب وقالت لي: "سأدخل وأخبرها أنك هنا". ثم أضافت: "لطف منك أنك قطعت كل هذه المسافة من لندن إلى هنا لرؤيتها".

"نعم، حسناً... إنها سيدة رائعة".

"في الحقيقة إنها كذلك".

تساءلت ما إذا كانت هناك إيثيل ألارد أخرى.

كانت السيدة نايت على وشك فتح الباب، لكنني سألتها: "كم من الوقت...؟ أقصد".

"آه، أقول نصف ساعة على الأكثر".

"نصف ساعة؟".

"نعم، ثم تشعر بالتعب".

"آه. لا. قصدت...".

"سأدخل للتأكد كل عشر دقائق".

"حسناً. ما قصدته... سأبقى في المدينة لبضعة أسابيع إضافية فقط وتساءلت ما إذا كانت ستتاح لي فرصة رؤيتها مجدداً". لم تكن السيدة نايت تركز معي أو إنها لم تشأ التطرق إلى الموضوع، ولذلك سألت بفظاظة: "لكم من الوقت ستبقى على قيد الحياة؟".

"آه... حسناً، لا نعرف ذلك أبداً، لكنني أقول إن النهاية قريبة".

"كم قريبة؟ أسبوعان؟".

أبلغتني: "ربما أطول. إيثيل مناضلة".

"ثلاثة؟".

"سيد ساتر. لا أستطيع...".

"صحيح. لديّ عمة...".

"ليس لديك فكرة عما أراه هنا. الموت هو الغموض العظيم للحياة، ويرتبط كثيراً بالموقف والإيمان".

"صحيح. أصدق ذلك. كنت أتلو الأدعية من أجلها". أحتاج إلى منزلها.

نظرت إليّ السيدة نايت وأعطتني ما أظنه جزءاً مهماً من الحكمة: "من الطبيعي أن نتشبث بأحبابنا لأطول وقت ممكن. لكن هذه أنانية. لقد عقدت إيثيل الصلح مع حالتها، وباتت مستعدة للرحيل".

بدا ذلك مثل أسبوع واحد، وقد أحتاج إلى أسبوعين إضافيين في منزل الحراسة. شجعني تأكيد السيدة نايت بأن إيثيل مناضلة، لكن هذا بدا متناقضاً الآن مع قولها إن إيثيل باتت مستعدة للرحيل. وبدلاً من سؤالها عن توضيح، انتقلت إلى موضوع جديد، وقلت لها: "أنا أيضاً محاميها - فضلاً عن كوني صديقاً - وهناك بعض الأوراق الواجب تحضيرها وتوقيعها، ولذلك يجدر بي ربما التحدث إلى طبيبها عن... الوقت المتبقي لها".

أومأت برأسها وقالت: "طبيبها هنا هو الدكتور جايك واترال".

"شكراً". قد يكون سرّ استمرار إقامتي في منزل الحراسة بين يديّ القدر والدكتور واترال قليلاً وإنما أكثر بين يديّ السيد أمير نسيم الذي كان يجدر بي الاتصال به حين وصلت إلى هنا. وحثني ذلك على سؤال السيدة نايت: "هل زار السيد أمير نسيم السيدة ألارد؟ أو اتصل بها هاتفياً؟".

هزّت رأسها وأجابت: "لا أعرف هذا الاسم". بدت السيدة نايت على عجلة من أمرها فقالت: "سأبلغها أنك هنا".

"شكراً".

اختفت داخل الغرفة لوقت طويل بشكل كافٍ لأشعر بالذنب لرغبتي في استمرار إيثيل في النضال. أقصد، أنه إذا وضعت مشكلة سكني جانباً، كان ألم إيثيل تحت السيطرة، وهي صافية التفكير، وتستقبل الزوار، ولديها بعض الأوراق لتوقعها؛ فلماذا لا تبقى صامدة هنا؟ هذا ما تريده منها ابنتها إليزابيت.

ظهرت السيدة نايت مجدداً وقالت لي: "إنها تنتظرك".

توجهت نحو الباب ثم استدرت نحو ديان نايت وقلت لها: "أنت من الصالحين لعملك هنا".

عبّرت بابتسامة عذبة وخجولة على شفتيها الصارمتين، واستدارت ومشت بعيداً.

دخلت إلى غرفة إيثيل وأغلقت الباب برفق ورائي.

كم أكره أسرّة الموت.

الفصل التاسع

إنها غرفة مطلة على الغرب، وتدخل الشمس إليها عبر النافذة الوحيدة فتلقي بشعاع ضوئي عبر الشراشف البيضاء لسرير إيثيل.

الغرفة صغيرة، وربما كانت في ما مضى غرفة زوار أو غرفة خادمة، وتحتوي على منضدتين، وضع على إحداهما جهاز مراقبة. ثمة كرسيان من الجلد الصناعي وصينية جرارة قرب السرير. ومن محمل حديدي تدلت ثلاثة أكياس متصلة بإيثيل عبر أنابيب.

على الحائط الأزرق الفاتح المواجه للسرير، هناك تلفزيون، وعلى الأرض، قرب النافذة، وضعت بعض الأزهار وشجيرة صنوبر في وعاء.

في الإجمال، ليست غرفة سيئة قبل الرحيل الأبدي.

كانت إيثيل جالسة على السرير، تحدّق إلى الجدار المقابل، ويبدو أنها لم تنتبه إليّ. اقتربت من سريرها وقلت لها: "مرحباً إيثيل".

أدارت رأسها نحوي، وأجابت من دون ابتسامة: "مرحباً سيد ساتر". تذكرت أن إيثيل تحتفظ بابتساماتها إلى أن تتاح لها فرصة تصحيح شيء لك.

قلت لها: "ناديني جون من فضلك".

لم تجب على ذلك، وقالت بصوت واضح: "شكراً على مجيئك"، ثم سألت: "هل تعتني بمنزلي؟".

"نعم". ثم سألتها: "كيف تشعرين؟".

"بخير اليوم".

"جيد... تبدين جيدة". في الحقيقة، وبفعل ضوء الشمس المتدفق عليها، بدت شاحبة جداً، لكن لا يزال هناك بريق في عينيها. لاحظت أيضاً القليل من اللون الأحمر على وجنتيها الرماديتين.

لم أرها منذ أعوام، لكننا تواصلنا عبر الرسائل عند الضرورة، وكانت جيدة في الإجابة عن بريدي العرضي مرة كل بضعة أشهر. وتبادلنا بلا شك بطاقات الميلاد.

سألتني: "هل اعتنيت بحديقتي؟".

"طبعاً". كذبت.

ذكّرتني: "لم أكن أسمح أبداً لك أو لجورج بالمساس بحديقتي. فأنتما لا تعرفان ماذا تفعلان".

"صحيح. لكنني تعلمت الاعتناء بالحديقة في إنكلترا".

"هراء".

"حسناَ... صح".

قالت لي: "لقد عدت منذ أكثر من أسبوع".

شرحت لها: "صح... كان يجدر بي الحضور قبلاً، لكنني ظننت أنك قد تعودين إلى المنزل".

"لن أذهب إلى المنزل".

"لا...".

"لماذا لا تجلس؟ تثير عصبيتي بوقوفك هناك".

جلست على الكرسي الكبير قرب سريرها وأعطيتها الدب الصغير. "أحضرت لك هذا".

أخذته ونظرت إليه، وأومأت برأسها، ثم وضعته قربها. أظن أنها لم تحبه في النهاية.

الأهداف هي صفر مقابل ثلاثة أو ما شابه، ولذلك اخترت موضوعاً آخر وسألتها: "كيف يعاملونك هنا؟".

"جيد".

"هل من شيء أستطيع فعله لك؟".

"لا".

"حسناً، إذا فكرت في أي شيء".

"ما هو هدف عودتك من لندن، سيد ساتر؟".

"جون".

"سيد ساتر، لماذا عدت؟".

حسناً إيثيل. عليّ إحضار أغراضي من منزلك قبل أن تموتي ويقوم الإيراني بتغيير المفاتيح.

"سيد ساتر؟".

"حسناً، جئت لأراك طبعاً". بدا هذا غير صادق كثيراً ولذلك أضفت: "لدي أيضاً بعض الأعمال في نيويورك ورأيت أن الفرصة مناسبة ربما لاستعادة بعض أغراضي الشخصية من منزل الحراسة".

"من الأفضل أن تستعجل. فالرجل الإيراني لن يسمح لك بالبقاء. هل رأيته؟".

"لا".

"يجدر بك التحدث إليه. صمودي في الحياة يسمح بجزءٍ منطقي من الوقت لإزالة أغراضك". ثم سألت: "لكن من يعرف ما هو المنطقي برأيه".

"دعيني أفكر في هذا، إذا حان الوقت".

"كان يجدر بأوغسطس أن يكون أكثر تحديداً".

حسناً، ليس تحديداً جداً إيثيل. لقد اطلعت على هذا المستند، وهو يسمي جورج وإيثيل، طبعاً، ويذكر خدماتهما المخلصة والوفية على مرّ السنوات. كان جورج بلا شك مخلصاً ووفياً، وإيثيل كانت... حسناً مطيعة جيدة. لطالما تساءلت ما إذا فهم جورج سبب كرم أوغسطس. على أي حال، قلت لإيثيل: "لا يزال الوقت مبكراً لـ...".

قاطعتني: "هل رأيت زوجتك؟".

"زوجتي السابقة. لا، لم أرها. هل فعلت أنت؟".

"مرّت بي البارحة".

"إذاً، تعرفين أنني لم أرها".

"إنها امرأة رائعة".

أدرت عينيّ.

"تبدو جميلة جداً".

بدأت أنزعج قليلاً ولذلك أجبتها: "يبدو أن العديد من الرجال يظنون ذلك".

تجاهلت هذا وقالت: "أظن أنها ترغب في رؤيتك".

لم أستفسر عن سبب رأي إيثيل. غيّرت الموضوع وقلت لها: "فتحت علبة من هلام التفاح البرّي خاصتك، وكانت النكهة رائعة. هل تريدين أن أحضر لك علبة؟".

"لا، شكراً. لكن احرص على أن تأخذها إليزابيت".

"ستحتاجين إلى بعضها حين تعودين إلى المنزل".

"وأعطها كل الخضار التي علّبتها خلال الخريف الماضي".

أومأت برأسي، لكنها كانت تحدق أمامها، مثلما يفعل الأشخاص الذين يحتضرون. ثم قالت، كما لو أنها تتحدث إلى نفسها: "ماذا سيحصل لحصادي؟".

تركت بضع ثوانٍ تمرّ، ثم سألتها: "كيف حال إليزابيت؟".

عادت إيثيل إلى الأرض وأجابت: "إنها بخير".

"جيد". سمعت أيضاً أنها تطلقت، لكن سيدات جيل السيدة ألارد لا يذكرن ذلك. قلت لها: "أريد الاتصال بها". كنت على وشك الشرح أن إليزابيت تحتاج إلى إجراء جردة لممتلكاتها الشخصية والاطلاع على الأوراق، لكن هذا قد يؤكد لإيثيل أنها تضع قدماً في القبر فيما القدم الأخرى على قشرة موز، ولذلك تداركت الأمر وقلت لها: "أريد التنسيق معها بشأن رعايتك الصحية في المنزل".

بدأت تنزعج من ادعائي أنها ستعود إلى المنزل، في الحقيقة، إنني انزعجت أنا أيضاً. قالت: "أنا أموت، سيد ساتر. ألم يخبروك؟".

"حسناً، أنا...".

"لهذا السبب أنا في دار العجزة، ولست في المستشفى".

"صح".

"ما أريده منك هو أن تهتم بشؤوني بعدما أرحل".

"لهذا السبب أنا هنا".

"شكراً". ثم أضافت: "لن أبقيك هنا لفترة طويلة".

أردت القول: خذي وقتك، لكنني قلت لها بدلاً من ذلك: "سأبقى هنا طالما تدعو الحاجة". وأضفت: "وشكراً لك على الاستضافة".

ذكّرتني: "كنت، وأفترض أنك لا تزال، ضيفاً يدفع ثمن الإقامة".

"صح". الشيك موجود في البريد، إيثيل. أقصد تحدثي عن العالم الذي ينقلب رأساً على عقب. التحرك إلى الأعلى في أميركا قد يكون سريعاً، لكن التحرك إلى الأسفل هو دائماً سقوط حر.

على أي حال، ولإراحتها، قلت لها: "إذا قلت قيمة الإيجار، سأضع المبلغ في حسابك".

أجابتني: "الإيجار نفسه الذي كنت تدفعه قبل عشرة أعوام".

"هذا كرم منك".

"يمكنك حسم هذا المبلغ من فاتورتك".

"لا أريد مالاً مقابل أي عمل قانوني أنجزه نيابة عنك".

"شكراً". ثم سألتني: "كم من الوقت ستبقى هنا سيد ساتر؟".

حتى لو كنت أعرف الجواب عن هذا السؤال، فلن أخبره لأي شخص له علاقة بسوزان.

"سيد ساتر؟ هل ستعود إلى لندن؟ أو ستبقى هنا؟".

"لست أكيداً".

"هل يعني ذلك أنك قد تبقى؟".

"يعني أنني لست أكيداً".

لاحظت نبرة انزعاج في صوتي فغيرت الموضوع وسألتني: "هل لا تزال وصيتي نافذة؟".

“أعتقد ذلك”. ثم أضفت: “أحتاج إلى إحضار بعض المستندات لك لتراجعيها وتجدّديها، وربما لتوقّعي على بعض الأوراق”.

“لا تنتظر أسبوعاً”.

“سآتي نهار السبت أو الأحد”.

“الأحد هو يوم عطلة”.

“صحيح. السبت أو الاثنين”.

لا أفهم أبداً هؤلاء الاشتراكيين المسيحيين القدامى. أقصد أنه لا يوجد تناقض صرف في المبادئ، ويمكن للاشتراكيين طبعاً أن يكونوا مسيحيين، لكن إيثيل كانت، نوعاً ما، من آخر ما تبقى من سلالة منقرضة.

رأيت بعض المجلات على طاولتها، ولاحظت أن أياً منها ليست من المجلات اليسارية القديمة التي كانت تقرأها. إنها بمعظمها مجلات شهرية حول المنازل والحدائق وبعض المنشورات المحلية في الشاطئ الذهبي التي، حسبما أذكر، تروي نشاطات الأثرياء والمشاهير، والحفلات الخيرية، وعمليات ترميم المنازل الكبرى، وبعض المناسبات التي تقام في مانهاتن. كانت إيثيل تجمع ربما أسماء أصحاب الملايين لمخيمات إعادة التثقيف حين اندلعت الثورة.

أو أنها ربما أدركت الآن، مع اقتراب الموت، ومثل أي شخص آخر، أن كل التغيير في أميركا سطحي؛ لأن البنية تبقى هي نفسها.

أقحمت السيدة نايت رأسها في الغرفة، مثلما وعدت، وسألت: “كيف حالنا؟”.

لِمَ يستخدم أهل المستشفيات صيغة الجمع في الكلام؟ أردت القول: أنا بخير. مريضتك لا تزال على شفير الموت. لكن قبل أن أتمكن من قول ذلك، أجابت إيثيل: “نحن بخير، ديان. شكراً لك”.

“اضغطي على الجرس إذا احتجت إلى أي شيء”.

أحتاج إلى شراب اسكتلندي وصودا. رنّ!

عادت إيثيل إلى موضوع العمل وأبلغتني: “أعطيت إليزابيت تعليمات مكتوبة بخصوص دفني. احرص على أن تتقيد بها”.

“أنا واثق من أنها ستفعل”.

“تأكد”.

“صحيح”.

“إنها قوية الإرادة وتريد كل شيء على طريقتها الخاصة”.

أتساءل من أين اكتسبت هذه الميزة؟

“اخترت فستاني. اطلب منها العثور عليه”.

"حسناً". يبدو أن هناك الكثير من الأمور الواجب التفكير فيها حين تكون على فراش الموت، ولست واثقاً من أنني سأكون هادئاً أو منظماً مثل إيثيل. أتمنى أن أموت نتيجة نوبة قلبية، أو أن تصدمني حاملة، بحيث يهتم الأشخاص الآخرون بالتفاصيل.

"تأكد أيضاً من أن تتحدث إليزابيت مع الأب هانينغس".

"سأفعل". الأب جايمس هانينغس كان، وأظن أنه لا يزال، رجل دين الرعية. لا أحبه أبداً، وإذا كان صادقاً، فإنه يبادلني الشعور نفسه. مررت أمام مقر الرعية ولاحظت أن اسم الأب هانينغس لا يزال موجوداً على اللافتة، الأمر الذي لم يفاجئني. إنه معتوه جيد في رعية غنية، وبالرغم من أن رجال الدين يجب أن تُدوّن أسماؤهم على لائحة الأنواع المهددة بالانقراض، لا تزال هناك أعداد كافية منهم حولنا لإبقاء الأب هانينغس على الأسلوب نفسه الذي أصبح معتاداً عليه.

سألت إيثيل: "هل تحدثت إلى الأب هانينغس؟".

أجابت: "طبعاً. إنه يأتي كل يوم تقريباً". ثم أضافت: "إنه رجل رائع".

لن يقول الشيء نفسه عن إيثيل بعدما أخبره أن السيدة ألارد تركت للرعية خمسمئة دولار فقط. قد أكون شكاكاً لكنني أتطلع إلى هذا الاتصال الهاتفي. والأفضل من ذلك، سأدعوه لحضور قراءة الوصية. وبالنسبة إلى مقر الرعية، أترك... وقفة لبث الحماسة، ابتسامة ثم أتابع؛ خمسمئة دولار. لا تنفقها كلها على شيء واحد جيم.

"سيد ساتر؟ ما الذي يجعلك تبتسم؟".

"آه... كنت... كيف حال السيدة هانينغس؟ إنها امرأة رائعة".

"إنها بخير. هل ذهبت إلى دار العبادة؟".

"لا".

"يجدر بك الذهاب. زوجتك تفعل ذلك".

"زوجتي السابقة".

"ناقشت خدمة دفني مع الأب هانينغس".

"جيد. هذا عمل جيد".

"لم أحب خدمة دفن جورج".

ولا أنا أيضاً، لكن كي أكون عادلاً مع الأب هانينغس، لم يعطه جورج إنذاراً ولم يترك له أي تعليمات.

قالت إيثيل: "اخترت التراتيل".

تساءلت ما إذا اختارت اليوم أيضاً. إذا فعلت، أود معرفته.

أبلغتني: "سيتم دفني في مدافن آل ستانهوب".

أومأت برأسي. آل ستانهوب الذين، كما قلت ذات مرة، احتاجوا إلى كثير من الأراضي في حياتهم باتوا الآن محشورين جميعاً في بضعة أكرات من مقبرة عائلية خاصة. وكما في الطقوس الفرعونية، أعدوا الترتيبات كي ينضم إليهم موظفوهم. أقصد أنهم لم يقتلوهم، وإنما وفروا لهم مساحات للدفن، وهي مجانية، فلِمَ الرفض؟ في الحقيقة، إن العديد من خدم العائلة دفنوا في ما أسميه بستان عظام ستانهوب بمن فيهم جورج ألارد. أظن أنه كان لديّ مكان هناك أنا أيضاً، لكنني خسرته بعد الطلاق.

قالت إيثيل: "سأكون قرب جورج".

"طبعاً". مسكين جورج.

تذكرت دفن جورج قبل عشرة أعوام. أذكر أن إيثيل اختفت بعد الدفن مباشرة، فذهبت للبحث عنها ووجدت إيثيل ألارد أمام قبر أوغسطس ستانهوب، مديرها وعشيقها الذي مات قبل زمن. كانت تبكي. التفتت إليّ وقالت: "أحببته كثيراً... لكن الأمر كان مستحيلاً. ليس في تلك الأيام". ثم أضافت: "ما زلت أشتاق إليه".

نظرت إلى إيثيل الآن، وهي مستلقية هناك، فيما حياتها تخرج من جسمها المنهك، ثم فكرت فيها مثلما رأيتها في الصور القديمة؛ فتاة شابة وأنيقة ولدت في عالم فيه الكثير من الأمور المستحيلة.

الآن، باتت كل الأمور ممكنة - أو هكذا تبدو - لكن معدّل السعادة لم يرتفع بالرغم من - أو ربما بسبب - حريتنا في القيام بمعظم ما نريده.

كانت إيثيل تنظر إليّ وقالت: "سأراه مجدداً".

لم أكن واثقاً ما إذا كانت تشير بذلك إلى جورج أو أوغسطس. قلت لها: "نعم، ستفعلين".

قالت لي إيثيل، أو لنفسها: "أنا أتطلع إلى رؤية كل أصدقائي وعائلتي الذين رحلوا قبلي".

لم أجبها.

في موضوع اللقاءات، أبلغتني إيثيل: "ترغب السيدة ساتر في رؤيتك".

تظاهرت بالارتباك وأجبت: "بالكاد نتحدث أنا وأمي سيدة ألارد".

"أنا أتحدث عن زوجتك".

"زوجتي السابقة".

"خاب أملها كثيراً لأنك لم تتصل بها".

فاجأني ذلك، ولم أعرف كيف أشعر حيال ذلك. في الحقيقة، أشعر بالحقارة لكنني قلت لإيثيل: "يعمل الهاتف في كلا الاتجاهين".

"سيد ساتر، إذا كان في وسعي التدخل، أظن أنه يجدر بك المسامحة والنسيان".

عدت إلى نبرة صوت السيد/الخادم القديمة وقلت: "سيدة ألارد، لقد سامحت ونسيت، ولا أرغب في متابعة هذا الموضوع".

لكن إيثيل تريد لأنها في موقع فريد يتيح لها قول ما تريده من دون عواقب وقالت لي: "أنت تؤذيها وتؤذي نفسك".

يا الله، العجوز إيثيل ألارد تقدّم نوعاً من الخدمات الإنسانية، وهي مصممة على فعل شيء جيد قبل أن تنقضي أيامها في هذه الدنيا.

على الصعيد الدنيوي، تعرف إيثيل أيضاً أمراً أو أمرين عن الزنى، ولذلك سامحت سوزان على ذلك. بمعنى آخر، تملك هي وسوزان شيئاً مشتركاً، إذ تجاوزتا كلتاهما خطّ عدم التجاوز. إنهما حالتان مختلفتان تماماً من دون شك، مع نتائج مختلفة، لكن الخلاصة هي زوجان من أحذية الرجال تحت سريرَيهما.

انزعجت قليلاً وقلت لها بطريقة افتراضية: "هل كان جورج ليسامحك لو...؟".

"لقد سامحني".

"آه...". لم أظن أبداً أن جورج عرف بأمر أوغسطس. حسناً، يملك جورج روحاً مسامحة، أما أنا فلا. بالإضافة إلى ذلك، ذكرتها أن جورج حصل على مسكن مجاني انتهى الموضوع. نظرت إلى ساعتي وقلت: "ربما من الأفضل لي أن أذهب".

"مثلما تريد".

وقفت، لكنني لم أغادر. توجهت بدلاً من ذلك إلى النافذة، وحدّقت خارجاً إلى الشمس الغارقة في الأفق. من هنا، استطعت رؤية القليل من ساوند بين الأشجار، وتلألأ نور الشمس فوق الماء.

"ماذا ترى؟".

ألقيت نظرة على إيثيل.

"قل لي ماذا ترى".

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "أرى نور الشمس يتلألأ فوق الماء. أرى الأشجار، والأوراق تتلألأ من قطرات المطر. أرى السماء صافية، والغيوم البيضاء تعبر الأفق. أرى رأس مرفأ همبستيد، والمراكب، وأرى اليابسة في ساوند، وهناك مجموعات من طيور النورس تحلق فوق الماء".

"هذا جميل جداً، أليس كذلك؟".

"نعم".

"كان يجدر بي الانتباه إليه أكثر".

"جميعنا يجدر بنا ذلك".

لم يتحدث أي منا طوال دقيقة كاملة، ثم انتقلت إلى جانب سريرها.

كانت تمسك بالدب الصغير، وشاهدت الدموع في عينيها.

أخذت منديلا من العلبة، ومسحت وجنتيها. ثم أمسكت بيدي وقالت لي: "شكراً على مجيئك، جون".

كانت يدها باردة جداً وخشنة، جعلني ذلك أدرك، أكثر من مظهرها، أنها أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

ضغطت على يدي وقالت: "لم أحبك أبداً. تعرف ذلك".

ابتسمت وأجبت: "أعرف".

"لكنني احترمتك".

الاعترافات على سرير الموت هي بمثابة أدلة، ويجب الوثوق بها، ولذلك قلت: "شكراً".

ثم اعترفت لي: "أنت رجل طيب. لم يبقَ الكثير من أمثالك".

أوافقها على ذلك وقلت: "أنت سيدة نبيلة".

"أنت تائه، جون. اعثُر على طريقك".

"أحاول".

"اتصل بها. واتصل بأمك. وولديك. اتصل بالذين تحبهم أو الذين أحببتهم ذات مرة".

"سأفعل".

ضغطت على يدي مجدداً، وقالت: "وداعاً".

ضغطت على يدها، ثم أفلتها وابتعدت عن السرير. ثم عدت مجدداً وانحنيت صوبها وقبّلتها على وجنتها.

غادرت الغرفة بهدوء وتوجهت نحو المصعد.

الفصل العاشر

غادرت دار عجزة فير هافن تحت نور الشمس الساطع، وأخذت نفساً عميقاً من الهواء المنعش، وشعرت بالسرور لأنني خرجت من هناك لكنني كنت سعيداً أيضاً لأنني دخلت.

بالرغم من أننا لم نهتم أنا وإيثيل أبداً لبعضنا، فإنها واحدة من آخر روابطي بالماضي البعيد، وصلة وصل بجورج الذي أحببته كثيراً. لذا، وكي أكون صريحاً، شعرت ببعض الحزن.

انزعجت أيضاً من ذكر إيثيل لسوزان. كنت راضياً تماماً عن ضغينتي، ولم أشأ السماع أن سوزان... حسناً، أياً كان.

في هذا الموضوع، خطر في بالي أن سوزان قد تأتي إلى هنا للزيارة، ولم أشأ الاصطدام بها، ولذلك كنت حذراً وأنا في طريقي إلى مرأب السيارات.

تخيلت أيضاً أن أمي قد تأتي لزيارة زميلتها الاشتراكية القديمة. في أميركا، تتجاوز السياسة كل الحدود؛ الطبقة والعِرق والجنس ومستوى الذكاء.

في ما يتعلق بهارييت ساتر، يجدر بي الشرح أنني لست ابناً سيئاً. إنها أم سيئة، مهتمة لإنقاذ العالم أكثر مما هي مهتمة لتربية ولديها. كان والدي رجلاً محترماً أو متحفظاً، لكن زوجته هي التي أدارت حياته، وخصصت هارييت القليل من الوقت لي ولإميلي أو لولديّ. لكن الغريب أن هارييت كانت ولا تزال مقرّبة جداً من المجنونة سوزان، ولم تفلح خيانة سوزان لي في تغيير رأيها المؤيّد لسوزان. في الحقيقة، اقترحت أمي أنه يجدر بي تفهم سبب انحراف سوزان، مثلما قالت (فيما أقول أنا إنها علاقة برجل آخر)، واقترحت أيضاً استشارة طبيب نفسي لأتفهم أكثر إخفاقاتي التي ربما أفضت إلى عدم رضى سوزان.

أقصد أن هذا هراء صرف. أكاد أسمع إيثيل ألارد وهارييت ساتر تتحدثان في أثناء شرب الشاي، وتتساءلان لماذا جُنّ جنون السخيف جون على هفوة ارتكبتها المسكينة والحلوة سوزان. قد أستطيع مسامحة إيثيل. لكن أمي، أبداً.

على أي حال، الشخص الآخر الذي لا أريد مصادفته هنا هو رجل الدين جايمس هانينغس، الذي يتودد بطريقة مزعجة إليّ وإلى كل شخص لا يحبه. يتحدث هانينغس دائماً وكأنه على خشبة المسرح، ولا توجد ذرّة من الصراحة في صوته أو قلبه.

وصلت إلى مرأب السيارات من دون أن أصادف أياً كان، وكنت على وشك الدخول إلى سيارتي حين سمعت صوت باب سيارة يغلق فيما صوت أنثوي يقول: "جون ساتر".

إنه أنا، ولذلك التفتّ وشاهدت إليزابيت ألارد تتقدم نحوي، وهي تحمل علبة حلوى صغيرة.

مشيت نحوها وقلت: "إليزابيت. كيف حالك؟".

تصافحنا، ثم عانقنا بعضنا بعد موافقة متبادلة.

قالت لي: "تبدو رائعاً جون".

"وأنت أيضاً". في الحقيقة، كانت، مثلما قلت، امرأة جذابة، وحين كانت أصغر سناً، كانت تبدو مثل أمها في صورة الزفاف تلك الموضوعة فوق الموقد. ومثلما قلت أيضاً، كانت تشبه جورج كثيراً بحيث لا يجدر بي القلق من أنها قد تكون... ماذا؟ الابنة غير الشرعية لجدّ زوجتي السابقة، ما يجعلها قريبة بالدم من ولديّ نوعاً ما، وربما وريثة لآل ستانهوب.

أدركت في الحقيقة، أن عمر إليزابيت لا يتطابق مع تاريخ علاقة أمها الغرامية خلال الحرب العالمية الثانية. لكن ماذا لو تابع أوغسطس العلاقة بعد الحرب؟ هل هذا أنف لآل ستانهوب؟

سألتني: "هل أنت قادم أو ذاهب؟".

"آه... حسناً، لن أعرف أبداً".

ابتسمت.

فم لآل ستانهوب؟

قلت لها: "خرجت للتو من غرفة أمك. تبدو بخير".

"لطف منك أن تزورها".

"حسناً... عرفت أمك منذ وقت طويل جداً". ابتسمت ثم أضفت: "عشنا معاً لفترة".

بادلتني إليزابيت الابتسامة ثم قالت: "جون، أنا آسفة بشأن والدك. كان يجدر بي إرسال بطاقة تعزية إليك".

أجبتها: "كنت في البحر".

"أعرف... لا بد من أن الأمر كان صعباً جداً عليك".

"كان كذلك". وجعلته أمي أكثر صعوبة. أتساءل ما إذا فهمت يوماً سخرية مناداتي بابن الساقطة.

قالت إليزابيت: "أردت الكتابة إليك حين ذهبت إلى لندن. حصلت على عنوانك من أمك".

"حقاً؟". تساءلت ما إذا كانت إليزابيت هي التي طلبت عنواني، أو أنه تم عرضه عليها. لكن بما أنني أعرف هارييت، أعتقد أنه الاحتمال الأول. على أي حال، لم تكتب إليزابيت رسالة التعزية، لكن لو فعلت، ماذا كانت لتقول؟ عزيزي جون، آسفة لأنك لم تتمكن من حضور دفن والدك. كان الجميع يسأل عنك.

ما زلت أشعر ببعض الذنب بعد ثمانية أعوام، ولذلك قلت: "عرفت بموت والدي بعد شهر من حصوله".

أومأت برأسها.

تابعت: "سأزور قبره قبل أن أعود".

أومأت برأسها مجدداً وبدلت الموضوع بالسؤال: "إذاً، كيف لندن؟".

"جيدة".

"كم من الوقت ستبقى؟".

"لست أكيداً". لم أكن واثقاً أيضاً من علاقتي مع إليزابيت. هل نحن صديقان عائليان لأنني أعرف والدها وأمها منذ عقود؟ أم أننا نعرف بعضنا لأنني بالكاد رأيتها، باستثناء بعض المرات بين الحين والآخر في البلدة، وفي بعض المناسبات الاجتماعية والعائلية؟ قلت لها: "آسف لأنني سمعت خبر طلاقك".

هزّت كتفها وأجابت: "كان هذا للأفضل".

إليزابيت ألارد، ابنة عامل في الأرض، تزوجت زوجاً جيداً. كان اسمه طوم كوربيت، وهو متحدر من عائلة جيدة. إنه متخرج من جامعة يال، مثلي أنا، ويعمل في وول ستريت، مثلي أنا، كنت ألتقيه في الماضي في القطار بين الحين والآخر. أذكر أن إليزابيت كانت تستعمل اسم عائلتها في العمل، لكنها على الصعيد الاجتماعي كانت السيدة كوربيت. أنجب السيد والسيدة كوربيت ولدين، فتاة وصبيًّا، ولا بد من أنهما أصبحا في الجامعة الآن أو تخرجا. بالمناسبة، كان طوم كوربيت مضجراً جداً، والشيء الوحيد المثير فيه كان تحوله إلى شاذ قبل أعوام عدة، ولذلك، نعم، كان الطلاق هو الحل الأفضل.

أضافت إليزابيت، في حال لم أكن أعرف، "لدى طوم صديق".

"صحيح. حسناً...". لا بد من أن الأمر كان صعباً جداً عليها حين جلس طوم أمامها وأخبرها. غيّرت الموضوع وقالت لي: "آسفة بشأنك أنت وسوزان".

"آه، هل سمعت بهذا؟".

أصدرت ضحكة وذكّرتني: "كانت الأخبار وطنية".

"هذا صحيح. واستمرت لفترة طويلة". تملك إليزابيت ثلاثة أو أربعة متاجر للألبسة في البلدات المجاورة، ولذلك سألتها: "كيف العمل؟".

أجابتني: "ليس سيئاً جداً إذا أخذنا في الاعتبار الهبوط القوي في سوق البورصة، ووضع الناس أموالهم في بذلات مصفحة، والأموال المجمدة بعد أحداث 11 سبتمبر والجمرة الخبيثة". ابتسمت وتابعت: "ربما يجدر بي بيع أقنعة واقية من الغاز".

ابتسمت لها. لا أنتبه عادة إلى ثياب النساء، إلا إذا كانت فاضحة جداً، لكنني أذكر أن إليزابيت كانت ترتدي ثياباً محافظة، بالرغم من بعض الأشياء الغريبة

التي رأيتها في متاجرها قبل أعوام عدة حين اصطحبتني سوزان معها. إلا أن إليزابيت اليوم تركت بذلات الأعمال الرسمية في الخزانة - أو ربما أخذها طوم - وكانت ترتدي قميصاً وردياً يبرز اسمرار بشرتها، وتنورة من الحرير الأسود لا تصل إلى ركبتيها. ربما شعرت أن ثيابها الرجولية السابقة كانت السبب الذي دفع طوم إلى... حسناً، لا يجدر تخمين السبب، لكن...

قاطعت حبل أفكاري وقالت، بشأن حديثها عن البذلات المصفحة وأقنعة الغاز: "الناس ضعفاء جداً". وسألت: "ما الخطب في هذه البلاد؟".

"لا أعرف. وصلت للتو إلى هنا".

يجدر بي الإشارة أيضاً إلى أن إليزابيت ناشطة جمهورية مخلصة.

على أي حال، أعتقد أن سياستها، مثل عضويتها في نادي الكريك الريفي وغرفة لوكوست للتجارة، سببها الأعمال أكثر منها القناعة. إلا أن مآسي إليزابيت سببت الكثير من الحزن والحيرة لإيثيل، وأستطيع تخيل إيثيل وهي تبكي أمام جورج: "كيف يمكن لابنتي أن تكون جمهورية؟"، ثم تضيف: "هذه غلطتك جورج!".

سألتني إليزابيت: "ماذا يقولون في لندن؟".

"يقولون إن دورهم هو التالي".

أومأت برأسها.

بالمناسبة، إليزابيت ألارد كوربيت ذات شعر كستنائي متماوج يصل إلى كتفيها، وذات عينين بنيتين كبيرتين، وأنف له منخرين واسعين قليلاً (مثل جورج)، وشفتين ممتلئتين تكشفان بين الحين والآخر عن ابتسامة جذابة. الخلاصة، كانت امرأة جميلة ذات صوت مهذب وأسلوب مثقف.

يجدها الرجال من دون شك جذابة، بالرغم من أنها لم تلفت نظري أبداً (ولا نظر طوم على ما يبدو)، ويبدو أن النساء يستلطفنها أيضاً. أذكر أن سوزان كانت تستلطفها.

في هذا الموضوع، وعلى عكس قناعاتي، قلت: "أفترض أنك تعرفين بعودة سوزان".

أجابت، من دون أي ادعاء كاذب بالتجاهل: "نعم، رأيتها هنا مرات قليلة. في الحقيقة، تناولنا الغداء معاً ذات مرة". سألتني: "هل رأيتها؟".

"لا".

"هل تنوي فعل ذلك؟".

"لا، لكنني ربما قد أفعل".

هناك الكثير من الأمور الأخرى حول هذا الموضوع، لو أردت التحدث بشأنها، وكنت واثقاً من أن إليزابيت، مثل أمها، تريد إخباري الكثير من الأمور عن

سوزان. لكن آخر ما أريده هو أن ينقل الناس رسائل ومعلومات بين طرفين متخاصمين. لذا، تجاهلت الموضوع وقلت لها: “كيف حال ولديك؟”.

“بخير. طوم جونيور في السنة الأخيرة في جامعة براون. وبيتسي تخرجت من جامعة سميث وتحضّر حالياً للماجستير في جامعة بين”.

“لا بد من أنك فخورة بهما”.

“نعم”. ابتسمت ثم أضافت: “باستثناء سياستيهما. أعتقد أن الليبرالية تفوّت جيلاً. لكن أمي مسرورة”.

ابتسمت لها.

أبلغتني: “أخبرتني سوزان عن إدوارد وكارولين”.

“جيد”.

في موضوع الجينات والبيئة، يمكن أن تكون إليزابيت صارمة وقوية الإرادة أحياناً، مثل أمها، لكنها في أغلب الأوقات لطيفة وصريحة، مثل والدها، مع أخلاق والدها في العمل. وهل ذكرت أنها ذهبت إلى برين ماور، ودفعت كل النفقات عرابها السري أوغسطس ستانهوب؟ لا شك في أن لعب أوغسطس مع إيثيل في الحظيرة كلفه دولارات أكثر مما تصور، وربما بعض الليالي الخالية من النوم.

لا شك في أن الأمور كانت مختلفة آنذاك، في ما يتعلق بقواعد السلوك الاجتماعية والجنسية، لكن حتى اليوم لا يعتبر الزنى مقبولاً، ويترافق مع دفع ثمن باهظ. اسألوا سوزان ساتر. أو جون. أو فرانك بيلاروزا... حسناً، إنه لا يتكلم.

قالت لي إليزابيت: “الآن بعد أن أصبحت أمي... قرب النهاية... أفكر أكثر في أبي. أشتاق إليه فعلاً”.

“وأنا أيضاً”.

كان يمكن أن نكون أنا وجورج ألارد صديقين، لولا الحاجز الطبقي الاصطناعي الذي كان يطبقه جورج أكثر مما كنت أفعل أنا. فجورج كان، مثل العديد من الخدم القدامى، ملكياً أكثر من الملك، واعتقد فعلاً بأن السكان المحليين هم أسياده الاجتماعيين. لكن حين كانوا يخطئون أو يتصرفون بطريقة سيئة (وكان ذلك كثيراً)، كان جورج يذكّرهم بأهمية احترام واجباتهم كرجال نبلاء، ويقترح بلطافة وإنما بصرامة بعض التعديلات على سلوكهم وتصرفاتهم. أظن أنني كنت بمثابة تحدٍّ له، ولم نصبح مقربين إلا بعد أن تخلى عني.

اقترحت إليزابيت: “إذا كان لديك بعض الوقت، لِمَ لا تأتي معي؟ أو تنتظرني؟ سأمكث فقط خمس عشرة دقيقة الليلة. يمكننا بعدها، إذا شئت، الذهاب لاحتساء شراب ما”. أضافت، في حال أسأت فهم العرض: “أودّ التحدث إليك بشأن وصية أمي، وكل الأشياء الأخرى التي أريد قولها لك”.

أجبتها: "أنا أيضاً أريد التحدث إليك. فأنت كما تعرفين منفذة وصية أمك، ووريثتها الوحيدة، باستثناء بعض التوريثات البسيطة. لكن لديّ مشاريعي هذه الليلة لسوء الحظ".

"آه... حسناً...".

في الحقيقة، أملك الوقت لأرافقها إلى الباب الأمامي على الأقل، لكنني بقيت أفكّر في أن سوزان أو أمي أو هانينغس قد يظهر في أي لحظة.

من جهة أخرى، قد لا يكون هذا أمراً سيئاً. تخيلت بعض ردود الفعل المثيرة من زوجتي السابقة وأمي السابقة ورجل الدين السابق إذا رأوني أتكلم مع مطلقة جذابة.

ولتسريب إشاعة أخرى، كان يجدر بي القول: "لديّ موعد عشاء مع سيد المافيا"، لكنني في غلطة فرويدية، قلت: "سأتناول العشاء مع شريك محتمل في العمل".

"آه. هل يعني ذلك أنك ستبقى هنا؟".

"لست أكيداً"، واقترحت عليها: "ماذا عن مساء غد؟ هل أنت حرة؟".

"لا... سأتناول العشاء مع أصدقاء". ابتسمت. "ليلة الخميس هي ليلة خروج السيدات. لكن يمكنك الانضمام إلينا".

"آه... ربما لا". فكرت في سؤالها عن إمكانية تناول العشاء ليلة الجمعة، لكن هذا قد يبدو مثل موعد عاطفي في عطلة نهاية الأسبوع وليس عشاء عمل خلال أيام الأسبوع، ولذلك قلت: "أريد منك أن تجري جردة سريعة للممتلكات الشخصية - أي ممتلكات البابا والماما - ومراجعة بعض الأوراق. وتريد منك أمك أيضاً أن... تعثري لها على الفستان الذي تريد أن ترتديه... إذاً، لماذا لا تأتين إلى المنزل يوم السبت أو الأحد؟".

"بعد ظهر يوم السبت سيكون جيداً. هل تلائمك الساعة الرابعة بعد الظهر؟".

"نعم. وسأحرص على إبقاء البوابة مفتوحة".

ابتسمت وقالت: "أعرف الرمز". ثم أبلغتني: "أنت تنام في غرفتي".

"أعرف".

"أودّ رؤيتها، لمرة أخيرة. هل هذا ممكن؟".

"هل أحتاج إلى تنظيفها؟".

"لا. إذا كانت نظيفة، لن أتعرف إليها".

ابتسمتُ فابتسمت هي.

اقترحت عليها: "إذا كنت تملكين سيارة كبيرة أو شاحنة صغيرة، يمكننا نقل بعض الأغراض الشخصية".

أجابت: "أملك هذا". أشارت نحو سيارة كبيرة رباعية الدفع من نوع ما. لقد التهمت هذه الموديلات السيارات الأخرى ربما. سألتني: "هل هذه تكفي؟".

"يفترض ذلك. أو ربما نستطيع القيام بجولات عدة". ثم أضفت: "يجدر بك التكلم مع اختصاصي في نقل المفروشات".

"حسناً". ثم سألتني فجأة: "جون. هل تظن أنه يجدر بي شراء منزل الحراسة؟ هل هو معروض للبيع؟".

"لا أعرف. سأسأل السيد نسيم. لماذا تريدين شراءه؟".

هزّت بكتفها. "حنين. ربما قد أعيش هناك. لا أحتاج إلى المنزل الكبير في ميل نيك. لقد رحل الولدان. حصلت على المنزل خلال الطلاق. حصل طوم على أحذيتي وجزاديني". ابتسمت وقالت: "أو ربما أستطيع استئجار منزل الحراسة لك، إذا بقيت".

ابتسمتُ لها.

نظرت إلى ساعتها وقالت: "يجدر بي الذهاب. أراك يوم السبت عند الساعة الرابعة".

"جيد. إذا طرأ أي تغيير، تعرفين رقم الهاتف".

"هل لديك هاتف خلوي؟".

"ليس في الولايات المتحدة".

"حسناً...". حملتني علبة الحلويات، ثم فتشت في حقيبة يدها، وعثرت على بطاقة عمل، وكتبت على البطاقة وهي تقول: "رقم هاتف منزلي ورقم هاتفي الخلوي".

استبدلت علبة الحلويات بالبطاقة وقلت لها: "أراك يوم السبت".

"شكراً، جون، على كل ما تفعله لأمي".

"هذا لا شيء".

"وما فعلته لبابا. لم أشكرك أبداً كما يجب".

"كان رجلاً جيداً".

"كان يحبك كثيراً". ثم أضافت: "وكان والدك رجلاً طيباً و... وفهم ما كنت تعانيه".

لم أجبها، وتبادلنا عناقاً سريعاً وقبلة في الهواء. استدارت وتقدمت خطوات قليلة، ثم استدارت وقالت: "آه، لديّ رسالة لك من أمي. سأحضرها يوم السبت".

"حسناً".

راقبتها تمشي بسرعة في اتجاه دار العجزة، ثم استدرت وصعدت إلى سيارتي المستأجرة.

وفيما تقدمت في الممر المؤدي إلى الطريق، استرجعت الحديث، مثلما يفعل الأشخاص الذين يحاولون استخراج معنى من وراء الكلمات الملفوظة. حلّلت أيضاً لغة جسدها وتصرفها، لكن إليزابيت لم تكن سهلة القراءة، أو إنني ربما أفتقد إلى التفاصيل، مثلما قالت لي نساء عدة. فإذا قالت امرأة: "دعنا نحتسي شراباً ونتحدث عن العمل"، أظن فعلاً أن الأمر يتعلق بالعمل. من الغريب كيف صمدت حتى الآن.

على أي حال، انطلقت إلى مغامرتي التالية: تناول العشاء مع السيد أنطوني بيلاروزا.

إيثيل، إليزابيت، أنطوني. وأخيراً سوزان.

تشهد الحياة الفردية تسلسلاً للزمان والمكان، لكنك تدخل بين الحين والآخر في متاهة تعيدك إلى الماضي. تفهم ما يجري لأنك عشت ذلك قبلاً. لكن هذا لا يضمن لك القيام بما هو صحيح هذه المرة. في الحقيقة، التجربة هي مرادف لكلمة أمتعة. والذاكرة تحمل الحقائب.

الأهم من ذلك؛ نودلز بيض أم ونتون؟ عيدان خشبية أم شوكة؟

أوقفت السيارة على نحو مائل أمام مطعم وونغ لي الصيني.

الفصل الحادي عشر

لاحظت علماً أميركياً كبيراً معلقاً على النافذة الأمامية لمطعم وونغ لي، قرب شعارات بطاقات الاعتماد. لاحظت أيضاً طوني (الذي كان معروفاً بأنطوني) جالساً في مقعد السائق في السيارة السوداء الكبيرة رباعية الدفع التي رأيتها قبل بضع ليالٍ في غرايس لاين. كانت نافذة السائق مفتوحة، ولم أرَ أنطوني بيلاروزا (المعروف قبلاً بطوني) داخل السيارة.

لمحني طوني وناداني: "هاي! سيد ساتر! هاي! هذا أنا! طوني. كيف حالك؟".

كان من الصعب عليّ، أو على أي شخص آخر ضمن مسافة نصف ميل أن يتجاهله، ولذلك توجهت نحو السيارة رباعية الدفع وقلت، بأفضل لكنة عندي، "أنا بخير. شكراً على سؤالك".

"هاي. تبدو رائعاً". مدّ يده عبر النافذة وتصافحنا، ثم فتح الباب وترجّل من السيارة. أراد مصافحتي مجدداً، ففعلنا، وقال: "المعلم في الداخل. إنه في انتظارك".

ألقيت نظرة على ساعتي، ولاحظت أنني وصلت قبل خمس عشرة دقيقة. فرانك بيلاروزا، الذي تخرج من أكاديمية لاسال العسكرية، نصحني ذات مرة بشأن الاجتماعات والمعارك: "مثلما قال الجنرال ناتهان بيدفورد فوريست، أيها المستشار، كن أول الواصلين". ربما علّم فرانك هذا الشعار لابنه، مما جعلني أتساءل كم تعلّم أنطوني من والده قبل أن تنتهي حياة فرانك ويتوقف تعليم أنطوني. وتساءلت كم أن الأمر وراثي؟

استفسر طوني: "إذاً. ماذا تعمل؟".

"في الهراء القديم نفسه".

"حقاً؟ تبدو رائعاً".

أظن أننا تناولنا هذا، وتمنيت لو أنني أستطيع قول الشيء نفسه لطوني، لكن الشيخوخة طغت عليه مع مرور السنوات، ربما بسبب توتر العمل. إلا أنني قلت له: "تبدو رائعاً أنطوني. حسناً...".

"طوني".

"صحيح".

أخرج علبة سجائر من سترته الرياضية السوداء، وقدّم إليّ سيجارة لكنني رفضتها.

أشعل سيجارة وقال: "يمنعني المعلم من التدخين في السيارة".

"قاعدة جيدة". لاحظت الآن أن السيارة رباعية الدفع الكبيرة تحمل شعار الكاديلاك على المصابيح الأمامية مع كلمة Escalade على الباب الأمامي. ثمة

علم أميركي على النافذة الجانبية. ولو استطعت رؤية الجانب الخلفي، لكنت واثقاً من وجود عبارة مافيا الضواحي ويستطيع ابني قتل تلميذك المتفوق.

سحب طوني الدخان من سيجارته، ثم عاد إلى الموضوع وقال: "لم يعد بإمكانك التدخين في أي مكان".

مضى زمن على سماعي مثل هذه اللهجة والعبارات، ولذلك ابتسمت.

بالمناسبة، كان طوني ينتعل حذاء رياضياً ويرتدي بذلة رياضية سوداء. لو كان فرانك بيلاروزا حياً لطرده على الفور. أو أطلق النار عليه.

اللافت أن طوني وضع دبوس علم أميركي على سترته الرياضية، الأمر الذي فاجأني في البداية، ولكن ليس لاحقاً. فرجال المافيا يعتبرون أنفسهم دوماً أميركيين مخلصين وأوفياء.

استفسر طوني: "إذاً. كيف حال السيدة ساتر؟".

"لا أعرف".

عليّ الإشارة إلى أن سوزان كانت محببة لدى رجال المرحوم، وكانت هي تجدهم بدورها رائعين أو ما شابه، بما في ذلك صديقاتهم الساقطات. لم أشاركها إعجابها بهذه الشخصيات، وكانت تناديني بالمتعجرف. أنا واثق من أن طوني بدّل رأيه بالسيدة ساتر بعدما قتلت السيد.

"ألن تراها؟".

لم أحب استفساره عنها، ولذلك أجبت: "لا. حسناً، سررت برؤيتك...".

"هاي. كانت تلك أياماً جميلة. صحيح؟".

"صحيح".

"أنت، وأنا، وسيد المافيا، ليرحمه الله، وذلك اللعين ليني، ليذهب إلى الجحيم، وفيني، ليرحمه الله".

تُظهر بطاقة الأهداف وجود ثلاثة موتى واثنين على قيد الحياة. سيد المافيا، ليرحمه الله، قُتل على يد تعرفون مَن، وفيني، ليرحمه الله، طار رأسه بطلق ناري، واللعين ليني، ليذهب إلى الجحيم، كان سائق فرانك، وهو الرجل الذي وشى به، مما أفضى إلى إطلاق النار ليلة السبت في مطعم جوليو الصغير في إيطاليا. هرب ليني مع الرجلين المصابين في سيارة الكاديلاك الخاصة بفرانك، لكن الشرطة عثرت عليه لاحقاً داخل السيارة في مطار نيوارك مع مشنقة حول عنقه؛ مما ذكّرني، إذا كنت أحتاج إلى التذكير، بأن هؤلاء الأشخاص يؤدون أدوار الدمى، ولا يمكن الوثوق بهم.

قلت لطوني: "كانت أياماً جميلة".

"نعم. هل تذكر ذلك الصباح حين جاء الفدراليون إلى المعلم؟ ذلك الحقير الصغير، مانوسكو. هل تذكر ذلك؟".

الرجل الذي تحدث عنه هو فيليكس مانوسكو، العميل الخاص في الأف بي آي، الذي أجريت معه بعض المحادثات السابقة بشأن عملي مع فرانك بيلاروزا، والذي أحبني بالرغم من ذلك. جاء السيد مانوسكو إلى الحمرا لاعتقال السيد فرانك بيلاروزا بتهمة قتل لورد المخدرات الكولومبي، وعرف فرانك أنه آتٍ، ولذلك كنت حاضراً بصفتي محاميه، وكان ليني وفيني حاضرين لإظهار القوة. وأذكر أن طوني كان في الحمرا. جاء فيليكس مانوسكو وحيداً، من دون جيش من العملاء، ليظهر لفرانك بيلاروزا أن قوته تضاهي قوة فرانك على الأقل. لكن قبل أن يكبّل مانوسكو يديّ فرانك، أخذني جانباً وحاول إنقاذ روحي، ناصحاً إياي بضرورة إنقاذ نفسي والابتعاد عن بيلاروزا قبل أن يفوت الأوان. نصيحة جيدة، لكن الوقت قد فات.

ها أنا أقف الآن، على عتبة ارتكاب حماقة أخرى، وأدركت أنني أستطيع اختيار عدم الدخول إلى مطعم وونغ لي الصيني.

قال طوني: "هاي، أنا أؤخرك. اذهب. الطاولة الثالثة إلى اليمين".

استدرت ومشيت نحو المطعم.

الفصل الثاني عشر

الطاولة الثالثة إلى اليمين.

لم يتغير مطعم وونغ لي كثيراً خلال عشرة أعوام، أو في الثلاثين عاماً الماضية، ويمكن وصف الديكور بأنه ديكور مطعم صيني من طراز السبعينيات.

كان أنطوني يجلس أمام الباب، وهذا أمر اعتيادي بالنسبة إلى رجال في مهنته. أمامه مساحات جيدة للرؤية وإطلاق النار، باستثناء المساحة التي خلفه وقد بدت غير آمنة إلا في حال وجود مرافق آخر له في مكان ما هناك.

كان يتحدث عبر هاتفه الخلوي، ويحمله بيده اليسرى، بحيث كانت اليد اليمنى طليقة للعبث بالونتون المقلي، أو إطلاق النار من المسدس.

حسناً، ربما أفرط في تحليل اختياره لمكان جلوسه. أقصد أنه مطعم صيني في بلدة من الضواحي. هل رأيتم يوماً عنواناً في الصحيفة مفاده: سيد المافيا مقتول في مطعم صيني؟

من جهة أخرى، واستناداً إلى سلوك أنطوني الحذر أمام منزل الحراسة، ثمة احتمال كبير أنه يعرف بوجوده على لائحة القتل لشخص ما. وأنا أتناول العشاء مع هذا الرجل؟ أنت تظن أنه كان يجدر بي تعلم الدرس في مطعم جوليو.

رآني أنطوني ما إن فتحت الباب، وكان يبتسم ويلوّح بيده الفارغة من المسدس فيما تابع حديثه عبر الهاتف. كان يرتدي موديلاً شبيهاً بذلك القميص المريع الذي كان يرتديه الليلة الفائتة، لكنه ارتدى هذه المرة سترة رياضية زرقاء فوقه.

لاحظت المضيفة أننا نعرف بعضنا، فرافقتني إلى الطاولة وهي تقول: "تجلس مع صديقك".

ثم لماذا أجلس أنا هنا؟

كان أنطوني لا يزال يتحدث، لكنه مدّ يده وتصافحنا. قال عبر الهاتف: "حسناً... حسناً... أنا آسف... نعم... حسناً...".

الزوجة أو الأم.

تابع: "نعم... إنه هنا، ماما. يريد أن يلقي عليك التحية... نعم... هنا... ماما... ماما...". غطى السماعة وقال لي: "هل تعرف لماذا تجيد الأمهات الإيطاليات الكلام؟ لأنهن لا يسمحن لأي كان بإنهاء عبارته". أعطاني الهاتف وقال لي: "تريد أمي أن تلقي عليك التحية".

أكره حين يعطيني الأشخاص هاتفاً لإلقاء التحية على شخص لا أريد أن ألقي عليه التحية، لكنني أستلطف آنا بيلاروزا، ولذلك وضعت الهاتف على أذني وسمعتها تقول: "كل المطاعم الإيطالية في غلين كوف، وتأخذه إلى مطعم صيني؟ ألا تفكر، طوني. والدك كان يعرف كيف يفكر. أنت...".

"آنا، مرحباَ. هذا أنا".

"من هذا؟".

"جون ساتر. كيف حالك؟".

"جون! يا الله. لا أصدق أن هذا أنت. يا الله، جون، كيف حالك؟".

"أنا...".

"يقول طوني إنك تبدو رائعاً".

"أنطوني؟".

"من؟".

"ابنك...".

"طوني. يقول طوني إنه رآك الليلة الماضية، وإنك تعيش هنا الآن".

"حسناً، أنا...".

"لِمَ لا تذهبان إلى مطعم ستانكو؟ لماذا تأكلان في مطعم صيني؟".

"الأكل الصيني كان فكرتي أنا. إذاً، لقد عدت إلى بروكلين".

"نعم. في الجوار القديم. ويليامسبورغ. بعد موت فرانك... أوه، يا الله، جون. هل تصدق أنه ميت؟".

في الواقع نعم.

"مضت عشر سنوات جون. عشر سنوات على موت فرانك...". أصدرت تنهيدة، وبعدها بكت قليلاً، ثم التقطت أنفاسها وتابعت: "لم يعد هناك شيء على حاله بعد فرانك".

هذا خبر جيد.

رَثَت باختصار زوجها المرحوم، بطريقة بدت مدروسة جيداً، وشدّدت على مزاياه كوالد وقالت: "يشتاق إليه الأولاد. ستأتي ذكرى الأب بعد أسابيع قليلة، جون. يأخذني الأولاد إلى المقبرة يوم ذكرى الأب. يبكون أمام قبره".

"لا بد من أن هذا محزن جداً بالنسبة إليهم".

أبلغتني كم أن الأمر محزن. لم تقل أي شيء محدّد عن فرانك كزوج مثالي، لكنها لم تقل أي شيء سلبي أيضاً، ولن تفعل ذلك حتماً.

المرة الأخيرة التي رأيتها فيها كانت في دفن فرانك، ولم تكن جيدة في الأسود مع الماسكارا السائلة على وجهها. إلا أنها امرأة جذابة في مفهوم الأنوثة؛ صاحبة جسم ممتلئ، وصدر كبير، وبشرة جيدة تحت الماكياج، وعينين كبيرتين، وفم ممتلئ. تساءلت ما الذي فعلته بها سنوات الترمل العشر.

فيما تابعت آنا الثرثرة، نظرت إلى أنطوني، الذي بدا أنه شارد الذهن وهو يحتسي الشراب الاسكوتلندي مع الثلج. لفتّ انتباهه، وأشرت إلى كأسه. أومأ برأسه واستدعى النادلة.

تابعت آنا بيلاروزا حديثها عن حياتها من دون زوجها الصالح، متفادية أي إشارة إلى زوجتي السابقة، وكيف أطلقت ثلاثة عيارات نارية على العزيز فرانك.

حصل ذلك، عن طريق الصدفة، في الشرفة التي تطلّ على بستان النخيل في الحمرا. كان فرانك يرتدي ثوب استحمام، وحين انحنى فوق القضبان ووصل إلى الأرضية المرصوفة بالقرميد الأحمر، فُتح ثوب الاستحمام، وحين رأيته، لم يكن يرتدي شيئاً تحته، وخطر في بالي الآن أن صورته تلك انتقلت نوعاً ما إلى حلمي بشكل آخر.

كانت آنا تقول: "كان يحبك، جون. فعلاً".

إذاً، لماذا كان يقيم علاقة مع زوجتي؟

"لطالما أخبرني عن ذكائك. وكيف ساعدته حين حاولوا إلصاق التهم به".

المثير للسخرية أن فرانك بيلاروزا كان في أمان أكثر لو دخل إلى السجن. "حسناً، كنت أفعل فقط ما طلب مني فعله". ولا يزال يدين لي بخمسين ألف دولار.

"لا. فعلتَ ذلك لأنك أحببته".

"صحيح". أو هل أشطب الخمسين ألف دولار وأعتبرها بدل خبرة؟ ما زلت أذكر أن الفدراليين استولوا على كل أصول ممتلكاته ودفاتر شيكاته.

كانت آنا مستمرة في الثرثرة. جاءت النادلة، وهي شابة صينية صغيرة، ونقرت على كأس أنطوني وأشرت إلى نفسي، فوضعت كأس أنطوني أمامي.

لم يُسرّ أنطوني بذلك، وأعاد كأسه بعنف، ثم صرخ في وجهها لإحضار كأسيّ شراب وقال لها بالإيطالية ستوناتا التي ما زلت أذكر أنها تعني شيئاً مثل دماغ فارغ.

فجأة، سألت آنا: "لماذا فعَلت ذلك، جون؟".

"آه...".

"جون. لماذا؟".

"آه... حسناً...". حسناً، لأنهما تشاجرا كعاشقين. لكن لا أظن أن آنا تريد سماع ذلك. أقصد، لقد عرفت بلا شك، لأن الخبر ذُكر في كل الصحف، مثلما أذكر، إضافة إلى الراديو والتلفزيون وصحف السوبرماركت؛ لذا، كان السؤال سخيفاً.

"لم يكن يجدر بها فعل ذلك، جون".

"أعرف". لكن فرانك وعدها بأمور، ثم نكث بوعوده، فأطلقت النار عليه لأنها غير معتادة على الهزيمة.

حين رأيته، كان الدم حول فتحات الطلقات النارية الثلاث قد تجمّد مثل الهلام الأحمر، ارتطمت جمجمته بالأرض الصلبة بقوة كبيرة لدرجة أن الدم تبعثر من رأسه مثل الهالة. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، فأغلقتهما، الأمر الذي أثار غيظ رجال الشرطة ومصوريّ ساحة الجريمة.

"جون؟ هل قالت لك لماذا فعلت ذلك؟".

"لا". في الواقع، فعلت لكنها كانت تكذب.

سألتني آنا: "لماذا عادت؟".

"لا أعرف".

"هل رأيتها؟".

"لا".

"يجدر بها الاحتراق في جهنم بسبب ما فعلته".

بدأت أنزعج قليلاً من اقتراح آنا بأن زوجها الصالح، فرانك بيلاروزا، كان الضحية البريئة لمجرمة قاتلة صاحبة دم بارد. أقصد، هيا آنا. كان زوجك سيد مافيا مشهوراً، وربما مجرماً هو الآخر، وبلا شك كان زير نساء أقام علاقات مع نساء أكثر مما تناول عشاء السباغيتي في المنزل. هكذا، وكي أستعمل عبارة تفهمها، كان يجدر بي القول: ما يُزرع، يُحصد. وإذا كان من شخص يجب أن يحترق في الجحيم، آنا، فإنه زوجك. لكنني قلت لها بدلاً من ذلك: "حسناً آنا. يريد طوني التحدث إليك...".

"لا يجدر بكما تناول الطعام هناك. فأنتما لا تعرفان ماذا يضعان في الطعام".

"صحيح. حسناً...".

"أراك المرة المقبلة في بروكلين. مرّ إلى منزلي لنرتشف القهوة أو تعال إلى منزل طوني لتناول العشاء. الأحد المقبل. سأحضّر أنا الطعام".

"شكراً لك. اعتني بنفسك". ثم أضفت: "إلى اللقاء" وأعطيت الهاتف الخلوي لأنطوني الذي سيبقى دائماً طوني بالنسبة إلى الماما.

قال: "نعم، ماما. فهمت... حسناً، حسناً. مطعم ستانكو". ثم أصغى وقال: "سأطلب منها أن تتصل بك. إنها مشغولة مع الولدين، ماما. يمكنك الاتصال بها".

مسكين طوني. بدأت تبدو هارييت ساتر جيدة.

أخيراً، أقفل الخط، ورمى الهاتف على الطاولة، واحتسى ما تبقى من الشراب في الكأس وقال: "ما الفرق بين أم إيطالية وروتويلر".

"ما هو؟".

"في النهاية، يستسلم الروتويلر".

ابتسمت.

أشعل أنطوني سيجارة وبقي صامتاً لبرهة، ثم سألني: "ماذا كانت تقول؟".

"عن والدك".

أومأ برأسه، وبدّلنا الموضوع، أو بالأحرى، أنا واثق من أننا أجّلناه لوقت لاحق.

أحضرت النادلة كأسي شراب، ووضعت كأساً واحدة أمام كل واحد منا، ثم سألت: "تريدان طلب الطعام الآن؟".

قال لها أنطوني: "لا نملك لائحة". ثم أضاف: "غبية".

ربما كان يجدر بي اقتراح مطعم ستانكو.

رفع أنطوني كأسه، ورفعت كأسي. غمزنا بعضنا وقال: "نخبك" فأجبته: "نخبك".

ثم قال عن أمه: "هي وميغان - أي زوجتي - لا تتفقان".

"قد يكون ذلك صعباً".

"نعم، صعب. تعرف أن ميغان إيرلندية، هي وأمي على اختلاف في... ماذا تسمونه؟".

"التقاليد العرقية؟ الممارسات الثقافية؟".

"نعم. على أي حال لم أتزوج باذنجانة أو ما شابه".

"صحيح". يعني ذلك رأس الباذنجان، الذي لا يمكن الزواج منه عادة، وهي أيضاً الكلمة الإيطالية للإشارة إلى شخص أسود. بدأت الذكريات تعود إليّ.

في موضوع زواجه وعيشه في الضواحي، سألته لأنني كنت فضولياً: "كيف تحب العيش في عقارات الحمرا؟".

هزّ بكتفه وقال: "لا بأس... لكنني أفضل العودة مجدداً إلى المدينة". ثم أخبرني أمراً مهماً جداً وقال: "هناك مليون امرأة جميلة في نيويورك".

"لا يفترض بذلك أن يثير اهتمام رجل متزوج".

ظن أن هذا مضحك وقال: "كدت أقنعها بالانتقال إلى المدينة، لكن بعد أحداث 11 سبتمبر، انسَ الأمر".

قلت له: "إنه مكان جيد لتربية الأولاد".

"نعم، لديّ ولدان. صبي، اسمه فرانك، وعمره خمسة أعوام، وفتاة اسمها كيلي آن؛ آن نسبة إلى أمي وكيلي هو اسم والدة ميغان". ثم تابع: "تقول أمي - تعرف كيف هنّ النساء" - حاول تقليد صوت أمه - "طوني، ما هذا اسم كيلي؟ آل كيلي

الوحيدون الذين أعرفهم في ويليامسبورغ هم من السكيرين". ضحك، ثم أدرك أنه خرق القاعدة بكشف أمر سلبي عن العائلة فقال: "انسَ ذلك".

بالعودة إلى موضوع العيش في الأرياف، قال لي: "هل تعرف أن الطريق التي تقود إلى العقارات هي طريق خاصة؟ غرايس لاين طريق خاصة".

"أعرف ذلك".

"حسناً، بدأت تتصدع وأولئك الحقيرون القاطنون على طول الطريق لا يريدون تعبيدها. لذا، طلبت من إحدى شركاتي فعل ذلك كخدمة للجميع".

هذا مثير، ويكشف شيئاً عن أنطوني. لم يكن والده يهتم لرأي الآخرين فيه، طالما أنهم يحترمونه ويخافون منه. بدا أن أنطوني يسعى إلى الحصول على رضى الآخرين. لكن يصعب فعلاً على سكان الضواحي أصحاب العقول الضيقة أن يتقبلوا سيد المافيا جاراً لهم. واجهت أنا مثل هذه المشكلة. قلت له: "هذا لطف كبير منك".

"نعم. هل تظن أنني حصلت على كلمة شكراً؟ ولا حتى كلمة شكر لعينة واحدة".

"حسناً. أنا أشكرك. تبدو الطريق جيدة".

"اللعنة عليهم. كان يجدر بي تحطيمها".

"لا تستعجل. ربما يخططون لإقامة حفلة مفاجئة لك".

"حقاً؟ قد أحضّر أنا أيضاً مفاجأة لهم".

لا تزعج جيرانك أنطوني. لدى ولداك ما يكفي من المشاكل مع والدٍ هو سيدٌ للمافيا. تردّدت، ثم سألته: "هل احتفظ المقاول بحوض السباحة وتمثال نبتون؟".

"هوه...؟ آه نعم، أذكر ذلك حين كنت صغيراً. كان هناك ما يشبه الأطلال الرومانية وحدائق وتوابعها. كان مكاناً جميلاً. هل تذكر ذلك؟".

"نعم. هل لا يزال موجوداً؟".

"لا. لقد اختفى كل شيء. فقط منازل. لماذا تسأل؟".

"أتساءل فقط".

"نعم. أحببت ذلك المكان". ثم أبلغني: "ذهبت ذات مرة عارياً إلى حوض السباحة". ابتسم وأضاف:"مع الفتاة الجامعية التي وظفها والدي لتكون مدرّستي".

"في أي موضوع".

ضحك، ثم بدا تائهاً في تلك الذكريات، فاغتنمت الفرصة للتفكير في طريقة للخروج من هنا. نظرت أيضاً من حولي لأرى ما إذا كان هناك شخص أعرفه في مطعم وونغ لي. أو ربما شخص يبدو مثل الأف بي آي.

كان المطعم فارغاً تقريباً، باستثناء بعض العائلات بصحبة أولادهم، وأشخاص ينتظرون الحصول على طلبات خارجية. ثم لاحظت رجلاً يجلس وحيداً إلى طاولة في الجانب الآخر، مقابل الجهة الخلفية للمطعم.

لاحظ أنطوني اهتمامي بالرجل وقال لي: "إنه معي".

"جيد". إذاً، لدينا حقول متشابكة من النيران إذا تطوّر الوضع. جعلني ذلك أشعر بتحسن كبير. والأهم من ذلك أن السيد بيلاروزا أخذ كل احتياطات الأمن. نظرت إليه مجدداً، واتضح لي الآن أنه تحت القميص الهاوايي الفضفاض هناك على الأرجح سترة واقية من الرصاص. هذا ما أنقذ حياة والده في مطعم جوليو. ربما يجدر بي سؤاله إذا كان لديه سترة إضافية.

إذا أردت التفكير في الشيء أو الشخص الذي يجعل أنطوني خائفاً، أظن أنه سالي دادا. بالرغم من أن حصول ذلك الآن، بعد عشر سنوات، يبدو أمراً غامضاً. قد يكون شخصاً آخر. الطريقة الوحيدة التي أتأكد فيها من ذلك هي ظهور الرجلين نفسيهما اللذين كانا في مطعم جوليو مع مسدّسيهما وإطلاق النار على رأس أنطوني. ربما يجدر بي طلب وجبة طعام لتناولها في الخارج.

أحضرت النادلة لائحتي طعام، ونظرنا إليهما. سألني: "أتحبّ الأكل الصيني؟".

"أحياناً".

"واعدت فتاة صينية ذات مرة، وبعد مرور ساعة على أكلها، كنت جائعاً مجدداً". ضحك. "هل فهمت؟".

"فهمت". تمعنت أكثر في اللائحة وشربت من كأس الشراب الاسكتلندي.

تابع القول: "إذاً، كنت أواعد تلك الفتاة الصينية، وذات ليلة كنا... فقلت لها: "أريد 69"، فقالت: "آه، تريد الآن لحم العجل والبروكولي؟". ضحك مجدداً. "هل فهمت؟".

"فهمت".

"هل لديك نكتة؟".

"لم يخطر أي شيء في بالي".

"سمعت ذات مرة والدي يقول لأحدهم إنك شخص مرح".

في الحقيقة، كان فرانك يحب سخريتي، وتهكمي، ومرحي، حتى لو كان متعكر المزاج. لم أكن واثقاً من أن ابنه لديه الروح نفسها، لكنني أصبحت متأكداً من قوة تفكير أنطوني. قلت له: "كان والدك يخرج أفضل ما لديّ من روح مرحة".

عادت النادلة، وطلبت حساء الونتون مع طبق لحم العجل والبروكولي، مما جعل أنطوني يضحك. طلب هو 69، ولم يكن هذا مسجًّلا على اللائحة، ثم طلب ما طلبته. طلب أيضاً كأس شراب أخرى، ومنفضة نظيفة، وطلبت أنا عيداناً خشبية.

قال لي: "هل تعرف لماذا تحب الزوجات الأكل الصيني؟".

"لا. لماذا؟".

"لأنه إذا لفظنا أحرف الونتون بالمقلوب في الإنكليزية، نحصل على عبارة تعني ليس الآن".

أملت في أن يكون قد استنفد كل نكاته.

لاحظت أن أنطوني، مثل طوني، يضع دبوس علم أميركي على طية سترته الرياضية، وأذكر أن فرانك وأصدقاءه كانوا يُظهرون نوعاً من الوطنية البدائية المغالى فيها، مرتكزة بمعظمها على رُهاب الأجانب، والعرقية، وثقافة المهاجرين التي مفادها: "أميركا بلد رائع".

إنها بالفعل بلد رائع، وبالرغم من بعض المشاكل الجدّية، أصبحت أرى الأمر الآن بوضوح أكثر بعدما أمضيت ثلاث سنوات وأنا أسافر حول العالم، وسبع سنوات في لندن. أقصد أن إنكلترا هي مكان جيد للأميركيين المنعزلين، لكنها ليست وطناً ثانياً، ثم أدركت فجأة أنني الآن في وطني. إذاً، يجدر بي التوقف عن تأدية دور الغريب الآتي في زيارة قصيرة إلى الولايات المتحدة.

بدا وكأن أنطوني يقرأ أفكاري فسألني: "إذاً، لكم من الوقت ستبقى هنا؟".

أظن أن هذا هو السؤال الأساسي الذي ستتحدّد إجابته ما إن تناقشنا حول العمل. لذا، أحتاج إلى التفكير ملياً في جوابي.

سألني: "لم تحسم بعد أمرك في هذا؟".

"أميل... إلى البقاء هنا".

"جيد. لا سبب للعودة". ثم أضاف: "هنا توجد الحماسة الحقيقية".

في الحقيقة، هذا سبب وجيه للعودة إلى لندن.

مدّ أنطوني فجأة يده إلى جيبه، وظننت أنه سيسحب مسدّسه، لكنه أخرج بدلاً من ذلك دبوس علم أميركي ووضعه أمامي: "إذا كنت ستبقى هنا، عليك أن تضع هذا".

تركته على الطاولة وقلت: "شكراً".

شرح لي أنطوني: "ضعه على طية السترة". ربّت على العلم الموضوع على طية سترته، وحين لم أتبع تعليماته، انحنى إلى الأمام، وثبّت العلم على الطية اليسرى لسترتي الكحلية. قال لي: "ها أنت الآن قد أصبحت أميركياً مجدداً".

أبلغته: "عائلتي موجودة في أميركا منذ أكثر من ثلاثمئة عام".

"أليس هذا غريباً؟". ثم سأل: "لماذا انتظروا كل هذا الوقت بعدما اكتشف كولومبوس أميركا؟".

وفي موضوع التاريخ أيضاً، قال لي أنطوني: "درست التاريخ في الجامعة". ثم أضاف: "ذهبت إلى الجامعة سنة واحدة. جامعة نيويورك. انفجر دماغي".

ألاحظ ذلك.

"قرأت الكثير عن الرومان. هذا يثير اهتمامي. ماذا عنك؟".

قلت له: "تعلمت اللغة اللاتينية لثماني سنوات، وأستطيع قراءة شيشرون، وسينيكا وأوفيد باللغة اللاتينية الكلاسيكية".

"أليس هذا صعباً؟".

"في سنتي الجامعية الأخيرة تلقيت ضربة على رأسي بمضرب البايسبول، وأستطيع الآن قراءة الإيطالية فقط".

رأى أن هذا مضحك، ثم عاد جدياً وقال: "ما توصلت إليه هو أنّ هذه البلاد مثل روما، حين كانت الإمبراطورية تواجه مشاكل خطيرة. هل تفهم؟".

لم أجبه.

"كما حين انتهت أيام الجمهوريين. نحن الآن مثل قوة عظمى ولذلك يريد كل لعين أن يطلق النار علينا. صح؟ مثل أولئك الحقيرين في 11 سبتمبر. بالإضافة إلى ذلك، لا نستطيع السيطرة على حدودنا، مثلما عجز الرومان عن القيام بذلك بالأمس البعيد، ولذلك يتعايش معنا عشرة ملايين لاجئ غير شرعيين لا يتحدثون أي لغة مفهومة ولا يكترثون أبداً لوطننا. يريدون فقط جزءاً منه. وأولئك المجانين في واشنطن يجلسون ويتناقشون، كما في المجلس الروماني، وتذهب البلاد إلى الجحيم على أيدي غرباء يطالبون بحقوقهم".

"في أي كتاب ذُكر هذا؟".

تجاهلني وتابع خطابه. "أولئك البيروقراطيون الحقيرون ينتهزوننا، ويتصرف الرجال في هذه البلاد كما لو أنهم نساء، وتتصرف النساء كما لو أنهن رجال، ويهتم الجميع للخبز والسيرك فقط. هل تفهم ماذا أقول؟".

"أعرف رأيك، أنطوني". أضفت بعض الأخبار الجيدة وقلت: "على الأقل، تم استئصال الجريمة المنظمة تقريباً".

أطفأ سيجارته وقال: "هل تظن ذلك؟".

كان أنطوني مثلاً ممتازاً عمّا يسمّى صاحب المعرفة الصغيرة الذي يشكل شيئاً خطيراً. وفي ما يتعلق بهدف هذا العشاء، سألته: "إذاً، ما الذي تريد معرفته عن والدك؟".

أشعل سيجارة أخرى، وتراجع إلى الخلف، ثم قال: "أريدك فقط أن تخبرني... كيف التقيتما. ولماذا قررتما العمل معاً. أقصد... لِمَ يجدر برجل مثلك... تعرف، أن يتورط في قضية جرمية؟".

"هل تقصد الجريمة المنظمة؟".

لن يتحدث عن هذا. أقصد أنه لا توجد مافيا. لا كوستا نوسترا. عمّ يتحدثون؟

ذكَرني أنطوني: "لقد دافعت عنه في تهمة قتل، أعرف أيها المستشار أنها كانت ملفقة". ثم سألني مجدداً: "إذاً، كيف حصل أن تعارفتما أنت ووالدي وعملتما معاً؟".

أجبته: "كانت بمعظمها علاقة شخصية". ثم أضفت: "تعارفنا وكان يحتاج إلى بعض المساعدة".

"حقاً؟ لكن لماذا أقحمت نفسك؟".

كان أنطوني يختبرني لمعرفة الحافز الذي دفعني؛ أي لماذا علقت في الوحل إذا صحّ القول، وما الذي يدفعني الآن لتكرار التجربة مجدداً. في عالمه، قد يكون الجواب المال والقوة، لكنه فهم ربما أن الأمر أكثر تعقيداً في عالمي.

أجبته: "أخبرتك الليلة الماضية؛ أنجز لي خدمة وكنت أردّها له". الحقيقة الكاملة هي أن فرانك بيلاروزا، الذي تعاون مع زوجتي، لعب البطاقة الرابحة، أي أن فرانك كان يملك مسدساً ومجموعة من الرصاصات، وثمة رجل لطيف اسمه جون يملك قلماً وفكراً جيداً. كانا بارعين جداً في هذا، لكن هذا التحدي جاء لصالحي. بالإضافة إلى ذلك، كنت أشعر بالضجر، وعرفت سوزان ذلك. لكن ما لم تعرفه هو أن فرانك بيلاروزا أعجب أيضاً بالجانب الشرير لديّ. الشيطان ساحر جداً، وهذا ما اكتشفته سوزان لاحقاً.

قلت لأنطوني: "كان والدك رجلاً ذا جاذبية كبيرة وقوة إقناع مهمة". بالإضافة إلى ذلك، كان يغازل زوجتي ليتمكن من الوصول إليّ عَبرها، بالرغم من أنني لم أدرك هذا آنذاك.

ولا أظن أن سوزان أدركت هذا أيضاً. ربما ظنت أن فرانك مهتم فقط بها. في الحقيقة، كان فرانك متحمساً لأهمية وشوشة الوسادة مع زوجة محاميه، من دون أن ننسى طبعاً إثارة علاقة مع ساقطة من المجتمع الراقي. لكن على صعيد آخر، وعلى عكس إرادته ربما، شعر فرانك بشيء ما حيال سوزان ساتر.

قال أنطوني مع بعض الحكمة: "كان لوالدي طريقة في اختيار الأشخاص المناسبين. وكان يعرف ماذا يريدون، ويظهر لهم كيف السبيل إلى تحقيق ذلك".

بالنسبة إلى السبب المفترض لهذا العشاء، طرح عليّ أنطوني بعض الأسئلة المتعلقة بذكرياتي الشخصية عن والده.

أجبته ببعض النكات ذات الصلة، التي ظننت أنها تضفي نكهة خاصة على الحديث.

ثم ذكرت زيارتي الأولى أنا وسوزان إلى الحمرا، بناء على دعوة من فرانك لارتشاف القهوة، وكيف استمتعتُ بضيافة آنا ودفء استقبالها. لم أخبر أنطوني أنني انزعجت فعلاً من سوزان لقبولها الدعوة، أو أن انطباعي عن آل بيلاروزا كجيراني الجدد في الشاطئ الذهبي لم يكن انطباعاً جيداً. في الحقيقة، كنت مذعوراً ومحتاراً قليلاً، مثلما كانت سوزان.

على أي حال، أبقيت الحديث عادياً وإيجابياً، ولم أذكر افتتاني اللاحق بفرانك بيلاروزا، أو افتتان فرانك بزوجتي (أو العكس)، وهبوطنا الأخير إلى قعر المشاكل. قد يكون هذا معقداً قليلاً بالنسبة إلى أنطوني، وليس هذا من شأنه.

احتاج كل ذلك إلى خمس عشرة دقيقة، وصل خلالها حساء الونتون خاصتي وقبع على الطاولة، فيما ارتشفت الشراب الاسكتلندي، ودخّن أنطوني، ورمى برماد السيجارة على الأرض، وتفوّه بقليل من الكلمات.

وحين أنهيت، قلت: "هذه هي القصة". ثم أضفت: "آسف لما حصل، وأريدك أن تعرف أنني أشاطرك حزنك أنت وأمك وأخويك وكل عائلتك".

أومأ أنطوني برأسه.

قلت له: "لست جائعاً فعلاً، ولديّ الكثير من العمل الواجب إنجازه في المنزل، ولذلك شكراً على الشراب". أخرجت محفظتي وقلت: "دعني أدفع الفاتورة".

بدا متفاجئاً لأنني أريد فعلاً التخلي عن رفقته، فسألني: "ما سبب استعجالك؟".

"قلت لك".

"تناول كأساً أخرى". نادى النادلة. "كأسين إضافيين!"، ثم سألني: "هل تريد سيجارة؟".

"لا، شكراً".

حسم هذا، ثم عاد إلى الموضوع الأول وسأل: "هاي، كيف سمحت للفدراليين بالاستيلاء على الحمرا؟ أقصد، تفعل ذلك من أجل كسب لقمة العيش. صح؟".

"صح. تكسب القليل وتخسر القليل".

ذكّرته: "كنت على وشك إبطال تهمة القتل".

"نعم، حسناً، لكن إذا لم يرتكب والدي أي جرم، فلِمَ الاستيلاء على ممتلكاته؟".

"أخبرتك. للهروب من الضرائب".

"هذا هراء".

"لا. هذا جرميّ".

الحقيقة كانت، مثلما قلت، ومثلما يعرف أنطوني طبعاً، أن وزارة العدل وخدمة العائدات الداخلية كان لديهما ما يكفي من الأدلة ضدّ فرانك بيلاروزا لتحويل حياته إلى جحيم. بالإضافة إلى ذلك، حاول نسيب فرانك، سالي دادا - زوج أخت آنا - القضاء على فرانك، وكانت قوة فرانك بدأت تخبو. لذا، سلك الطريق السهلة للهروب، وقبل بصفقة الحكومة. وهي باختصار، أخبرنا عن كل جريمة ارتكبتها، فرانك، وأعطِنا أسماء أصدقائك. ثم تخلَّ عن لقبك، وأعطنا كل المال، ويمكنك الذهاب إلى المنفى كرجل حرّ. ليست هذه صفقة سيئة، وأفضل من السجن. كما أن النفي إلى إيطاليا كان يلائم تماماً مشاريع فرانك وسوزان بالهروب معاً، لكنني لا أظن أن أنطوني يريد معرفة كل ذلك. في الحقيقة، هو يريد الهراء.

"ولم يكن في وسعك فعل أي شيء للحفاظ على الحمرا؟".

"لا".

"حسناً... هاي، سمعت أن والدي يملك أيضاً منزلك. اشترى ذلك أيضاً".

"اشترى ستانهوب هال من حَميّ". أردت أن أقول له أظن أنه كان بحاجة إلى مساحة أكبر لدفن الجثث، لكنني قلت له: "أراد السيطرة على نموّ الأراضي حول ممتلكاته". بالفعل، ومثلما قلت، قد تكون سوزان هي التي أقنعت عشيقها بشراء ستانهوب هال. أراد حموي، ويليام الجشع، التخلص من هذا الفيل الأبيض الباهظ، وهو مستعد لبيعه مقابل الحصول على السعر المناسب. وهذا ما فعله بالضبط.

انزعجت سوزان من فكرة انتقال منزل العائلة إلى أيدي غريب أو مقاول ما، وأعتقد أنها اعتبرت السيد بيلاروزا بمثابة الفارس الأبيض القادر على إنقاذ هذا العقار لها. لا أعرف أبداً نوع الصفقة التي تمت بينها وبين عشيقها، لكنني أعتقد أنها كانت تفكر على الأقل في العيش هناك مع فرانك. إلا أن فرانك سلّم المكان إلى الفدراليين، وخضع لبرنامج حماية الشهود، وأصبحت إيطاليا، حسبما أظن، الخطة **ب**.

كان يجدر بي الإصرار فعلاً على ضرورة ذهابي، لكن أنطوني بدا مهووساً باستيلاء الحكومة الفدرالية على ثروة كبيرة من الممتلكات والكثير من المال النقدي العائدة لوالده، ولذلك تابع وسألني: "هاي، هل تظن أنني أفكر في استرداد ذلك؟".

"إن فرصتك باسترداد الأصول التي استولى عليها القانون موازية لفرصة حصولي على جائزة رجل العالم من أبناء إيطاليا".

لكنه أصرّ. "ماذا عن تلك الملايين من أموال السندات التي حوّلتها إلى والدي؟ صح؟ مات قبل المحاكمة، ولم يرتكب الجريمة. فلِمَ لا تستطيع استرداد هذا المال؟".

فهمت طبعاً إلى أين يقود الحديث، ولا أريد طبعاً الوصول إلى هناك. قلت له: "حسبما أفهم، تمت إعادة هذه الأصول، بما في ذلك ستانهوب هال، إلى ممتلكات والدك، ثم تم الاستيلاء عليها كجزء من تسوية الضرائب مع خدمة العائدات الداخلية".

"نعم، لكن...".

"ما من لكن، أنطوني. بذلت ما في وسعي في ذلك الوقت. كان والدك راضياً عن عملي، ولا مجال للتصحيح الآن".

الخلاصة، كان هوسه بالثروة الضائعة أشبه بدخان. إنه يسعى ورائي أنا، ولذلك جاء انتقاده المبطّن لكيفية معالجتي للقضية قبل عشرة أعوام، وسيمنحني الآن الفرصة لتصحيح المسألة. للتأكد من إحقاق العدل. المحطة التالية بعد ذلك هي الانزلاق في عالمه الوسخ. شكراً، ولكن لا شكراً. ذهبت إلى هناك قبلاً أنطوني. العرض جيد، لكنّ الثمن باهظ جداً.

قال لي: "إذا قبلت بهذه القضية، أعطيك مئتين مسبقاَ، وثلث ما تسترده من الفدراليين". ثم أضاف، في حال لم أفهم الحسابات، "يمكن أن يكون ذلك ثلاثة أو أربعة أو ربما خمسة ملايين دولار لك".

في الحقيقة، لم يكن غبياً مثلما اعتقدت، وظنّ أيضاً أنني قد أحتاج إلى المال، الذي يجعل معظم الرجال ضعفاء أمام إغوائه. أجبته: "في الواقع، يوجد صفر".

"لا، تحصل على الأقل على مئتين مسبقاً، ويكون هذا لك".

"لا، إنه لك أنت".

بدا منزعجاً قليلاً، وحاول اعتماد طريقة جديدة. "هاي، أيها المستشار، أظن أنك تدين لي ولعائلتي بشيء ما في هذه القضية".

"أنطوني. أنا لا أدين لكم بأي شيء". في الواقع، أيها الصغير، يدين لي والدك بخمسين ألف دولار. تابعت: "في النهاية، لم أكن أعمل مع والدك حين عقد صفقته مع الحكومة. الممثل الوحيد عنه، حسبما أعلم، كان محاميه الشخصي، جاك واينشتاين" - الذي هو في الواقع محامي قذارات - "ولذلك يجدر بك التحدث معه إذا لم تفعل بعد".

"لقد تقاعد جاك".

"وأنا أيضاً".

بالنسبة إليّ، انتهى هذا الاجتماع. أنهينا الجولة على طريق الذكريات، ورفضت عرض التوظيف الغريب، وما لم يكن جونيور يرغب في سماعه أن والده كان دمية في يدِ الحكومة، أو يريد أن يسمع رأيي في موضوع فرض والده بعض القيود عليّ للتمعن في عائداتي الضريبية، أو إغواء زوجتي، لم يعد هناك الكثير من الأمور الممكن التحدث بشأنها؛ إلا إذا أراد التحدث عن الليلة التي قُتل فيها والده. وحول هذا الموضوع، ذكّرته: "لا تنسَ ما ناقشناه في ما يتعلق بزوجتي السابقة".

أومأ برأسه، ثم سألني: "أقصد هل تهتم لأمرها؟".

"ولداي يهتمان".

أومأ برأسه مجدداً، ثم قال: "لا تقلق بشأن ذلك".

"جيد". كنت على وشك إعلاني مجدداً رحيلي الباكر، لكنه قال: "لم أفهم أبداً كيف هربت من ذلك".

"لديها محامون جيدون".

"حقاً؟ لا أعتقد أنك كنت بينهم".

"أنطوني، اذهب إلى الجحيم".

تماماً مثل والده، الذي نادراً ما سمع إهانة شخصية، لم يعرف كيف يردّ على هذا. بدا متأرجحاً بين الغضب الشديد أو اعتبار الأمر بمثابة نكتة. فضّل الخيار

الثاني وأصدر ضحكة رغماً عنه وقال: "عليك تعلم الشتائم بالإيطالية؟ تقول vaffanculo ويعني ذلك اذهب إلى الجحيم. الشيء نفسه".

"مثير. حسناً...".

"لكن أقصد هل ترى أنه من العدل أن تفلت من عقاب جريمة حصلت عن سابق تصوّر وتصميم؟ حصلت على نوع مختلف من العدالة بسبب هويتها. صح؟ أقصد، ما هذا؟ موسم مفتوح على الإيطاليين؟".

"انتهى هذا الموضوع. أو عالجه مع وزارة العدل".

"نعم، صحيح".

"ولا تفكر حتى في ما تفكر فيه الآن".

حدّق إليّ، لكنه لم يقل أي شيء.

بدأت أبتعد قليلاً عن الطاولة، لكن النادلة جاءت بطبقين مغطيين، وسألتنا الشابة الجميلة عديمة الخبرة: "أتريدان تشارك الطعام؟".

أنطوني، الذي تعكر مزاجه نوعاً ما، ذكّرها: "لقد طلبنا الشيء اللعين نفسه". نظر إليّ وسأل: "هل تصدق هذه الغبية؟". ثم التفت نحوها وسألها: "هل تمازحيننا؟ أنبدو غبيين لك؟".

بدا وكأن النادلة لم تفهم فسألت: "ألم تحبا الحساء؟".

صرخ أنطوني في وجهها: "أبعدي الحساء من هنا، وأحضري لنا كأسي شراب شعير. بسرعة بسرعة".

أخذت الحساء وغادرت.

كان فرانك بيلاروزا يخفي فظاظته جيداً، بالرغم من أنني رأيتها بضع مرات، وسمعت عنها من عميل الأف بي آي مانوسكو. إلا أن ابنه لم يتعلم على ما يبدو أن الشخص الاجتماعي الجيد يعرف كيف ومتى يتصرف بتهذيب ولباقة. كان أنطوني جيداً في منزل الحراسة - في الواقع، أظن أنه كان سخيفاً قليلاً - لكن إذا راقبت كيف يعامل الرجال الأقوياء الأشخاص الضعفاء، تعرف كيف سيعاملونك حين لا تعطيهم ما يريدون.

قال أنطوني: "نسيت العيدان الخشبية اللعينة. ألم تطلبها؟". رفع يده وكان على وشك الصراخ في القاعة، لكنني قلت له: "انسَ الأمر".

"لا. سوف...".

"قلت، انسَ". انحنيت نحوه، ونظر إليّ. قلت له: "حين تعود، ستعتذر منها على سوء تصرفك".

"ماذا؟".

"سمعتني، أنطوني. وهذه نصيحة أخرى في اللباقة لك - إذا أردت العيدان الخشبية، أنا أطلبها بنفسي - وليس أنت. وإذا أردت شراب شعير، أنا أطلبه. هل

فهمت؟".

فهم، لكنه لم يكن مسروراً من الدرس. اللافت أنه لم يقل شيئاً.

ابتعدت عن الطاولة.

سألني: "إلى أين تذهب؟".

"إلى المنزل".

نهض ولحق بي وقال: "هاي، أيها المستشار، لا تهرب. لم ننتهِ بعد".

التفتُّ نحوه، وأصبحنا وجهاً لوجه. قلت له: "لم يعد لدينا أي شيء لنتكلم عنه في هذا الموضوع".

"تعرف أن هذا ليس صحيحاً. لدينا معاً بعض الأمور الواجب تسويتها".

"ربما. لكن ليس معاً، أنطوني".

كنا نلفت الانتباه، ولذلك قال: "سأخرج معك".

"لا. أنت تعود إلى مقعدك، وتعتذر من النادلة، ثم تفعل أي شيء تريده في بقية حياتك".

بدا فجأة أن فكرة خطرت في باله، فقال: "نعم، أرى الرصاصات لكنني لا أرى الأدمغة أيها المستشار".

لاحظت بطرف عيني أن مرافق أنطوني وقف وتقدم بضع خطوات نحونا. أصبح المطعم هادئاً جداً الآن، وقلت لابن فرانك بيلاروزا: "تملك عينيّ والدك، ولكن ليس أي شيء آخر".

استدرت، ومشيت نحو الباب، وأنا أجهل ماذا أتوقع.

خرجت إلى هواء الليل البارد. كان طوني في إجازة التدخين، متكئاً على سيارة الكاديلاك رباعية الدفع، وناداني: "هاي، هل أنهيتما اجتماعكما؟".

تجاهلته، وصعدت إلى سيارتي، وشغلت المحرك. شاهدت المرافق يخرج من المطعم، وفيما أخرجت السيارة من المرأب، رأيته يتحدث مع طوني، ونظر إليّ الرجلان فيما قدت السيارة، من دون استعجال، في الشارع.

لم أشأ افتعال مواجهة، لكنه بدأ يزعجني، ورأيت أنه يتصرف بفظاظة. حسناً، لقد فهمته ربما بطريقة غير مناسبة. أو ربما كنت أرى فرانك على الطاولة، وربما عادت إليّ صورة فرانك بيلاروزا وهو يقيم علاقة مع زوجتي سوزان - ذلك الحلم اللعين - أو فرانك يقنعني بالعمل معه، أو فرانك يدمر حياتي بابتسامة على وجهه.

على أي حال، ومهما كانت دوافعي، شعرت بالارتياح، خصوصاً وأنني أخرجت جونيور من حياتي.

نظرت في مرآة الرؤية الخلفية، لكنني لم أشاهد سيارة الكاديلاك رباعية الدفع. غادرت غلين كوف وعدت مجدداً نحو لاتينغتاون على طريق ريفية مظلمة.

لفتّ أيضاً انتباه أنطوني مجدداً للبقاء بعيداً عن سوزان. طبعاً، لو كنت أعمل معه، فلن تقلق سوزان بشأن أي شيء، على افتراض أنها قلقة، لكنني واثق من أنها ليست كذلك. القلق كان من اختصاصي أنا، ويبدو أنه لا يزال.

الشيء الثاني الذي يجدر بي تذكره هو أن أنطوني، الذي لم يرث ثروة والده، ورث على الأرجح أعداء والده؛ أولئك الموجودين في الحلقة المباشرة للأصدقاء والعائلة، مثل العم سال، وأولئك الموجودين خارج العائلة، مثل بعض الرجال الذين التقيت بهم في اجتماع في فندق البلازا ذات ليلة، وأخيراً، أولئك الذين، مثل ألفونس فيراغامو، قضت مهمتهم بوضع الصغير أنطوني في الحبس لوقت طويل. لذا، قد يكون لقب أنطوني كسيد المافيا قصير الأمد، والتواجد حوله قد يكون خطيراً.

بطريقة ما، ظن أنطوني أنني قد أستطيع مساعدته على حلّ هذه المشاكل، مثلما ساعدت والده. هل يفترض بي الشعور بالإطراء؟

لا شك في أن التاريخ يستطيع تكرار نفسه إذا ركّز الجميع جيداً على ابتكار الأخطاء الغبية نفسها.

وبالرغم من ذلك، ثمة شيء يقودنا مجدداً إلى المألوف، لأنه حتى لو كان المألوف شيئاً غير جيد، فإنه مألوف.

في غضون خمس عشرة دقيقة، أصبحت في غرايس لاين - هدية أنطوني بيلاروزا لجيرانه - وأنارت مصابيح سيارتي الإسفلت الأسود الجديد اللامع الممتد أمامي. خطر في بالي عريضة هي البوابة، وواسعة هي الطريق التي تؤدي إلى الخراب.

الفصل الثالث عشر

اليوم التالي، الخميس، كان عاصفاً بشدة مما ولّد خلفية جيدة لفرز الملفات وإحراقها، وفي أواخر بعد الظهر كنت قد أنجزت قسماً كبيراً من هذه المهمة الشاقة، والحزينة بين الحين والآخر.

عند الساعة السادسة مساء، كافأت نفسي بقنينة بانفي برونيلو دي مونتالسينو وسندويش بانيني بولونيز، ثم جلست على كرسي جورج، وقرأت النيويورك تايمز. جون غوتي، الرئيس الأسبق لعائلة غامبينو المجرمة، كان على سرير الموت في المستشفى تحت الرقابة الفدرالية المكثفة في سبرينغفيلد، ميسوري، حيث يمضي حكماً بالسجن المؤبد من دون تعهد بعدم الهروب.

تساءلت كيف يمكن لهذا أن يؤثر في السيد أنطوني بيلاروزا، وتساءلت عن سبب تساؤلي هذا.

بالإضافة إلى الربح أو الخسارة المهنية لأنطوني بعد موت السيد غوتي، تساءلت عن سبب انخراط رجال هذا الجيل في هذا العمل، وهم يعرفون أن مهن كل أسلافهم انتهت بالموت المبكّر أو بالسَّجن. حسناً، قد يكون هذا أفضل من التقاعد في فلوريدا. على أي حال، ليست هذه مشكلتي.

فكرت لبرهة في عرض أنطوني، في المئتي ألف دولار مقابل إنجاز عمل قانوني بسيط، وفكرت أيضاً في حصتي إذا استطعت استرداد بعض أصول بيلاروزا التي استولى عليها الفدراليون. ومثلما قال أنطوني، ستكون المئتا ألف دولار في جيبي، لكنني أُعرف أن هذا هو الشرك لجذبي - أي السمكة - إلى الملايين المحتملة - أي الطُعم - التي قد تخفي صنارة مؤلمة.

ما من شيء غير قانوني أو حتى غير أخلاقي في هذا. فالمحامون يحتاجون إلى الأكل كما السمك. المشكلة هي في الصنارة المؤلمة. يحتاج المرء إلى توخي الحذر.

في الحقيقة، يحتاج المرء إلى التوقف عن التفكير في هذا.

يوم الجمعة كان أيضاً ماطراً، عند الظهر كنت قد انتهيت من تنظيم وتوضيب أوراقي التي أصبحت جاهزة للشحن إلى مكان ما بعد توضيب أغراض إيثيل وشحنها. مهمتي التالية هي جمع أغراضي الشخصية وتوضيبها؛ أي البذلات العسكرية القديمة، وجوائز الإبحار، والكتب، والأغراض المكتبية وما إلى ذلك. كيف عشت طوال عشر سنوات من دون هذه الأغراض؟

على أي حال، وجدت بعض المستندات والأوراق المرتبطة أو الخاصة بسوزان، وكذلك بعض الصور الفوتوغرافية لعائلتها، وبما أنني لا أريد تذكر آل ستانهوب - خصوصاً ويليام وشارلوت وابنهما غير النافع، بيتر - وضعت هذه الصور في مغلف كبير مع أوراق سوزان. عليّ تحديد طريقة التسليم.

تحسّن الطقس بعد الظهر، واغتنمت الفرصة للذهاب والقيام بجولة في ساوند لونغ آيلند. ثمة مركب شراعي كبير في الماء، وقفت على صخرة في فوكس بوينت، وراقبت المركب يتجه شرقاً، ويبحر من دون أي جهد مخترقاً الأمواج البيضاء.

استطعت رؤية ربّان المركب في المقدمة، وبالرغم من أنني لم أستطع رؤية وجهه بوضوح في البعيد، فقد عرفت أنه كان يبتسم.

شككت في أن أعود يوماً إلى البحر، بالرغم من أن البحر يغريني بين الحين والآخر، كما هي الحال مع أي بحّار. لكن مثلما يعرف كل بحّار أحبّ البحر كثيراً، أن عناقه يكون في الغالب مميتاً.

قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، عدت إلى منزل الحراسة، وصودف أن رأيت سيارة مرسيدس رمادية تدخل عبر البوابات الكبيرة، ويقودها رجل يبدو وكأنه مطابق لمواصفات شخص اسمه أمير نسيم.

العيش في لندن جعلني أتعرف عن كثب إلى رجال ونساء يعتنقون الإسلام ديناً، بمن فيهم بعض الزملاء، وافترضت أن السيد نسيم مسلم، كونه إيرانياً.

لقد أردت التحدث إلى السيد نسيم منذ وقت طويل، ولذلك ارتديت سروالاً داكن اللون، وسترة زرقاء، وقميصاً رياضياً، وانتعلت حذاء مريحاً مع جوارب.

عثرت على علبة من بطاقاتي التي كتب عليها ببساطة جون ويتمان ساتر، ستانهوب هال، ووضعت بعضها في جيبي.

أعطتني سوزان هذه البطاقات عديمة الجدوى، ولم أستخدم سوى ست بطاقات منها طوال الاثني عشر عاماً الماضية، علماً أن البطاقة الأخيرة تم إرسالها - بهدف إرضاء الذات - إلى السيد فرانك بيلاروزا، عبر مقاول البناء، مع تعليمات مفادها أنه يجدر بالسيد بيلاروزا الاتصال بالسيد ساتر في ما يتعلق بمشروع إسطبل الأحصنة للسيدة ساتر، الذي عرض جارنا الجديد مساعدتنا فيه. لا بل إنه أصرّ في الواقع.

أنا أمشي عادة مسافة النصف ميل المؤدية إلى المدخل الأساسي لستانهوب هال، لكنني لم أشأ المرور أمام منزل سوزان - أي مقرنا الزوجي السابق - سيراً. لذا، أخذت سيارة الفورد توروس، وتوجهت نحو المنزل الكبير.

مررت بالقرب من الطريق الجانبية المؤدية إلى منزلها، والممتدة مسافة مئات الأقدام إلى يساري، ولاحظت الأضواء ساطعة في الغرفة الأمامية، التي كانت مكتبي في ما مضى. سيارة سوزان رباعية الدفع كانت أمام المنزل.

على مسافة من منزل الضيوف، رأيت إسطبل سوزان؛ وهو بناء جميل من القرميد كان في ما مضى أقرب إلى المنزل الرئيسي، لكن سوزان نقلته، حجراً وراء حجر، من ملكية والدها إلى ملكيتها الخاصة استباقاً لبيع ستانهوب هال. كان هذا مشروعاً رائعاً ومكلفاً، لكن كما قلت، كان السيد بيلاروزا سعيداً ومتشوقاً لجعل متعهده، دومينيك، ينجز المهمة على الفور، ومقابل لا شيء. أنا رفضت، لكن سوزان قبلت. الدرس هنا هو أنه إذا كان من أمر جميل جداً لدرجة يصعب

تصديقه، يكون هكذا. لكنني كنت أعرف هذا. وما لم أكن أعلمه هو أن فرانك بيلاروزا كان مهتماً بسوزان بقدر ما كان مهتماً بي.

على أي حال، رأيت أمامي ستانهوب هال، مشيّدة على تلة وسط حدائق مرتبة.

لتَصَوُّر هذا المكان، فكروا في البيت الأبيض في واشنطن، أو في أي قصر كلاسيكي جديد رأيتموه، ثم تخيلوا عالماً خالياً من الضرائب (وبالتالي لا وجود لمحامي ضرائب مثلي)، وفكروا في عمل المهاجرين الرخيص، في ستين ساعة من العمل كل أسبوع من دون أي فوائد، وفي أغنياء القارة الجديدة وهم يضعون المال في جيوب بضع مئات من الرجال في نيويورك. هذا العصر الذهبي تلته حقبة العشرينيات الصاخبة، حين أصبحت الأمور أفضل حالاً، واستمرت المنازل في الازدياد أكثر فأكثر لناحية المساحة والعدد، بحيث أصبحت مثل الفطر الذهبي النابت في فيفث أفنيو، وبار هاربور، ونيوبورت، وهامبتون، وهنا على الشاطئ الذهبي. ثم الثلاثاء الأسود، وحين انهار كل شيء في يوم واحد. اللعنة تحصل.

عليّ الإشارة إلى أن مساحة الستين أكراً الخلفية من عقار ستانهوب، حيث كانت سوزان تمتطي صهوة جوادها في معظم الأوقات، تم تقسيمها إلى أجزاء مثل الحمرا، كجزء من صفقة استيلاء الفدراليين على الأرض، لتشييد اثني عشر قصراً صغيراً ضمن مساحة الأكرات الخمسة المسموح بها. إلا أنه تم لحسن الحظ تشييد سور عالٍ لفصل هذه المنازل الفظيعة عن المساحة الأمامية، وثمة طريق جديدة منها تؤدي إلى طريق رئيسية أخرى بحيث لا يضطر أحد من سكان العقار السابق إلى رؤية أو سماع سكان هذا المجمّع المخصّص للأغنياء الجدد. حسناً، قد يبدو هذا غروراً نوعاً ما، وهذه ليست مشكلتي على أي حال.

بقي ضمن مساحة ستانهوب الأصلية معبد حب كلاسيكي على شكل دائري، يحتوي على تمثال عارٍ لفينوس، وبريابوس الرومانيين. أدّينا أنا وسوزان بعض الطقوس الكلاسيكية فيَ هذا المعبد، وكما هي حال كل قصصنا الخيالية، كانت النهاية سعيدة. إلا أن الزواج الحقيقي لم يكن سعيداً لسوء الحظ.

فيما اقتربت من المنزل الكبير، تساءلت عن رأي أمير نسيم في هذا المعبد، وتساءلت ما إذا غطى التمثالين أو أزالهما أو دمرهما. نتحدث هنا عن تصادم الحضارات.

ركنت سيارة التوروس تحت الرواق المعمّد لستانهوب هال، وجلست هناك أفكر أنه في العالم المختفي تقريباً للبروتوكولات والأعراف - الذي بات يعرف الآن بالتراتبية - لا يجدر بجون ويتمان ساتر أن ينتقل من منزل الحراسة إلى المنزل الرئيسي للقاء أمير نسيم. ولهذا السبب، ربما يجدر بي تأجيل الموضوع.

جلست في السيارة وأنا أفكر في ضرورة الرحيل. لكنني ارتحت لفكرة عدم الإعلان مسبقاً عن زيارتي، وأنا أؤكد بالتالي حقوقي ومكانتي، أو ما بقي منهما.

في موضوع الحفاظ على الكرامة في أثناء طلب خدمة من البرابرة الذين وصلوا حديثاً ويعيشون الآن في الفيلا، أذكر العبارة المفضلة لدى سوزان: "العالم الروماني يسقط، لكننا نُبقي رؤوسنا مرفوعة...".

خرجت من السيارة، وصعدت درج الغرانيت بين الأعمدة الكلاسيكية، وضغطت على الجرس.

الفصل الرابع عشر

ثمة امرأة شابة - إيرانية ربما - ترتدي ثوباً أسود فتحت لي الباب، وعرّفت عن نفسي بالقول: "السيد جون ساتر يريد رؤية السيد أمير نسيم".

في هذه المرحلة، تسأل خادمة المنزل عادة: "هل يتوقع زيارتك سيدي؟".

وأجيب أنا: "لا، لكن إذا كان الأمر ممكناً، أودّ رؤيته في مسألة شخصية". ثم أعطيها بطاقتي الشخصية، وتقودني إلى قاعة الاستقبال، وتختفي، ثم تعود بعد دقائق قليلة مع الحُكم.

لكن في هذه الحالة، بدا أن المرأة الشابة تتكلّم بلغة إنكليزية محدودة وكذلك بدا تدريبها محدوداً، فأجابت: "أنت انتظر". وأغلقت الباب في وجهي. ضغطت على الجرس مجدداً، ففتحت الباب وأعطيتها بطاقتي وقلت لها بحدّة: "أعطيه هذه. أفهمتِ؟".

أغلقت الباب مجدداً، ووقفت هناك. إنه ثالث لقاء لي مع شخص مُتَحدٍّ للإنكليزية في أيام قليلة، وبدأت أنزعج. في الواقع، كدت أفهم أنطوني وهو يفقد صبره من النادلة الصينية، وحزنه على انحدار وانهيار الإمبراطورية الرومانية. أقصد أن الغوث والهان والفاندال تعلموا ربما اللغة اللاتينية في أثناء حكمهم للإمبراطورية. فيني فيدي فيتشي. ليس الأمر صعباً كثيراً.

انتظرت خمس دقائق تقريباً، ثم فُتح الباب مجدداً، وظهر رجل طويل ونحيل مع قسمات داكنة مرتدياً بذلة رمادية، حاملاً بطاقتي في يده. قال: "سيد ساتر. لطف منك أن تأتي للزيارة". مدّ يده وتصافحنا، وطلب مني الدخول.

قال لي: "كنت على وشك تناول الشاي. هل تودّ الانضمام إليّ؟".

لا أريد الشاي، لكنني أريد بعضاً من وقته، ولذلك أعتقد أنه وقت الشاي. أجبته: "شكراً، سأفعل".

"ممتاز".

لحقت به إلى الردهة السفلية العملاقة المغطاة بالغرانيت، والتي كانت بمثابة نوع من مساحة انتقال للضيوف الواصلين. هنا يأخذ خدم المنزل قبعات الضيوف، ومعاطفهم، وعصيّ المشي وما شابه، ويتم اصطحاب الضيوف على أحد الأدراج العملاقة المؤدية إلى الطابق العلوي. هذه الطريقة رسمية قليلاً أكثر من طريقة ترحيبنا بالضيوف اليوم، مثل: "هاي جون، كيف حالك؟ ارمِ معطفك هنا في أي مكان. هل أنت جاهز لاحتساء شراب الشعير؟".

على أي حال، اصطحبني السيد نسيم إلى الدرج الأيمن، الذي لا يزال مضاء بتماثيل زنوج حديدية أصلية تضع عمامات وتحمل مصابيح كهربائية.

بفضل أنطوني، كان انهيار الإمبراطورية الرومانية لا يزال عالقاً فِي رأسي، وتذكرت شيئاً قرأته بشأن آتيلا هان الذي دخل القصر الملكي عند أسرِ مدينة

ميديولانوم الرومانية وعثر على فسيفساء كبيرة تَظهر إمبراطوراً رومانياً متوجاً مع سيكثيين مهزومين تحت قدميه. إلا أن آتيلا ظن خطأً لسوء الحظ أن السيكثيين هم من الهان، وكان مغتاظاً جداً بحيث جعل الحاكم الروماني يزحف إليه على يديه وركبتيه.

أظن أنني معنيّ بسوء تفاهم ثقافي مماثل هنا في ما يتعلق بالزنوج، ورأيت أنه يجدر بي قول شيء مثل: "كان آل ستانهوب متعصبين جداً بالنسبة إلى العرق والدين، ولطالما أهانتني هذه التماثيل".

حسناً، قد تكون هذه فكرة سخيفة، ولا أكترث بصراحة لرأي أمير نسيم. لديه الوقت الكافي للتخلص من هذه التماثيل إذا أراد ذلك.

على أي حال، تحدثنا عن حالة الطقس إلى أن وصلنا إلى أعلى الدرج، وانتقلنا إلى الطابق العلوي، حيث كان السيد وزوجته في الأيام الغابرة يرحبان بضيوفهما الذين خلعوا معاطفهم وقبعاتهم.

في الطابق العلوي، لحقت بالسيد نسيم إلى اليمين، عبر ممر طويل وعريض، عرفت أنه يقود إلى المكتبة.

سألني السيد نسيم: "كم مضى من الوقت على آخر زيارة لك إلى هنا؟".

يبدو جلياً أنه يعرف شيئاً عن تاريخي الشخصي. أجبته: "عشر سنوات".

"آه نعم، اشتريت هذا المنزل قبل تسع سنوات".

تذكرت أن الحكومة، التي استولت على ممتلكات فرانك بيلاروزا، باعت ستانهوب هال ومعظم الأراضي لشركة يابانية لاستخدامها بمثابة ملاذ للمدراء اليابانيين، لكن الصفقة فشلت، وسمعت من إدوارد أن إيرانياً اشترى المكان بعد سنة واحدة على مغادرتي. يجدر بي إخبار السيد نسيم أن أنطوني بيلاروزا يريد استرجاع ممتلكات والده.

سألني: "هل لديك ذكريات جميلة هنا؟".

ليس تماماً. لكنني أجبت: "نعم". في الواقع، تزوجت وسوزان في ستانهوب هال، فيما كان ويليام وشارلوت لا يزالان يعيشان هنا، وأقام لنا الحقير ويلي - أو بالأحرى أقام لابنته - حفل استقبال في الهواء الطلق دعا إليه أكثر من ثلاثمئة شخص من أصدقائه المقربين والأعزاء، وأفراد العائلة، وشركاء العمل، وكذلك بعض الأشخاص الذين أعرفهم. وبما أن ويليام قد عصر الفاتورة، فقد نفد الطعام والشراب باكراً، ووضَّبت الأوركسترا آلاتها في تمام العاشرة مساء، وعند الساعة العاشرة والنصف كان بقية الضيوف يلتهمون ما تبقى من الجبن ويحتسون الشراب الفرنسي.

ليس هذا تلميحي الأول عن كون حموي بارعاً في الصفقات، ولن يكون الأخير. في النهاية، استعاد الشيء الوحيد الذي أعطاني إياه، أي ابنته.

أبلغني السيد نسيم: "ما زلنا في مرحلة الديكور".

“يستغرق ذلك بعض الوقت”.

“نعم”. ثم أضاف: “زوجتي... تأخذ النساء وقتهنّ في اتخاذ القرارات”.

“حقاً؟”. أقصد تسع سنوات ليست بالوقت الطويل جداً، أمير. أنت متزوج. تعلّم أن تكون صبوراً.

في الواقع، كان الممرّ العريض والغرف المحاذية له خالية تقريباً من أي أثاث، وخالية تماماً من اللوحات أو الزخرفات. إلا أنه كانت هناك بعض السجادات المبعثرة على الأرض - فارسية بلا شك - والمثير للسخرية أن هذا ما غطى معظم أرضيات ستانهوب هال حين عاش ويليام وشارلوت هنا.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها هذا المكان، كان خالياً من الأثاث باستثناء بعض الأغراض هنا وهناك، وكانت هناك بعض الغرف التي استخدمناها أنا وسوزان لتوضيب المعدات الرياضية، والهدايا المريعة، ومفروشات طفولة سوزان. أذكر أيضاً أنه كانت توجد علب كبيرة مليئة بملابس لأشخاص من كلا الجنسين من آل ستانهوب. تروي هذه الملابس تاريخ عقود من القرن العشرين، وكنت وسوزان نرتدي أحياناً بعض البذلات في حفلات التنكر - كنا نفضل حقبة العشرينيات المزدهرة - ونتصرف بحماقة.

قال لي السيد نسيم: “أفترض أنك تعرف تاريخ هذا المنزل”.

كانت إنكليزيته جيدة، ويبدو أنه تعلمها من شخص يتحدث بلكنة بريطانية. أجبته: “نعم”.

“جيد. عليك إخباري بهذا التاريخ”.

“إذا أردت”.

وصلنا إلى المكتبة، ووقف السيد نسيم جانباً وطلب مني الدخول عبر الأبواب المزدوجة.

كانت الألواح الخشبية الزيتية ورفوف الكتب مثلما أذكرها، من خشب الجوز الغني، لكنّ الأثاث الجديد كان لسوء الحظ من الطراز الفرنسي السيئ، باللونين الأبيض والذهبي، أي مثل ذلك الذي ترونه في إعلانات مجلات الأحد مع حسم مئة دولار ودفعات شهرية منخفضة.

أشار السيد نسيم إلى كرسيين مغطيين بالساتان الأزرق الفاتح قرب الموقد، وبينهما طاولة صغيرة بيضاء مع قوائم مقوّسة. جلست على أحد الكرسيين غير المريحين، وجلس السيد نسيم قبالتي. لاحظت أن رفوف الكتب كانت فارغة تقريباً، ولا يوجد سوى كتب فنية كبيرة الحجم من النوع الذي يبيعه مهندسو الديكور.

لاحظت أيضاً أن السيد نسيم لا يستخدم مكيفات الهواء، وتولت مروحة أرضية تحريك الهواء الساخن والرطب في المكتبة الكبيرة.

على الطاولة، ثمة صينية فضية مليئة بالحلويات دبقة المظهر. قال لي مضيفي: "أستمتع بالشاي الإنكليزي، لكنني أفضل الحلويات الفارسية على سندويشات الخيار".

انتبهت إلى استخدامه كلمة فارسي بدلاً منه كلمة إيراني، التي باتت تنطوي على بعض الدلالات السلبية منذ أزمة الرهائن سنة 79، وسوء التفاهم الذي تلا ذلك بين بلدينا.

أخرج السيد نسيم هاتفه الخلوي، وطلب رقماً سريعاً، وقال بضع كلمات بالفارسية، ثم أقفل الخط وقال لي مع ابتسامة: "الأسلوب التكنولوجي لزرّ مناداة الخدم". ثم أبلغني: "سيصل الشاي بعد برهة".

ارتاح مجدداً في كرسي الساتان خاصته وسألني: "ما هو سرّ هذه الزيارة، سيد ساتر؟".

أجبته، من دون الاعتذار على زيارتي غير المعلنة مسبقاً: "أولاً، أردتك أن تعرف - شخصياً ورسمياً - أنني أقيم في منزل الحراسة".

"شكراً لك"، قال بتهذيب. "ربما كان يجدر بي زيارتك".

تجربتي المحدودة مع العرب والباكستانيين والإيرانيين في لندن علمتني أنهم يصنّفون ضمن فئتين: أولئك الذين حاولوا تقليد البريطانيين، وأولئك الذين قرروا عدم فعل ذلك. يبدو السيد نسيم حتّى الآن أنه ينتمي إلى الفئة الأولى من هل ترى كم أنا غربي؟ هل أتصرف بشكل صحيح؟

أبلغته: "أنا من يعيش في ممتلكاتك، ولذلك أنا من يجدر به زيارتك. وهذا هو سبب زيارتي. رأيت السيدة ألارد قبل بضعة أيام في دار العجزة، وأعتقد أنه لم يبقَ أمامها الكثير من الوقت".

بدا متفاجئاً فعلاً وأجاب: "حقاً؟ لم أكن أعرف ذلك. ظننت... حسناً، أنا آسف لسماع هذه الأخبار السيئة".

"حين تموت، مثلما تعلم، ينتهي حق إقامتها في المنزل".

"نعم، أعرف ذلك".

لم يكن متحمساً ظاهرياً لمعرفة أنه على وشك استرداد ممتلكاته، لكنه عرف من دون شك أن هذا اليوم سيحلّ عاجلاً أم آجلاً، وقد أعدّ المشاريع لذلك، وأنا واثق من أن هذه المشاريع لا تشملني. إلا أنني قلت له: "لذا، أودّ سؤالك إذا كنت أستطيع استئجار - أو شراء - منزل الحراسة".

"نعم؟ تريد العيش هناك؟".

"إنه خيار".

أومأ برأسه، وفكّر لدقيقة، ثم قال: "أفهم...".

"إذا استأجرته، سيكون ذلك لشهر واحد فقط أو لشهرين".

“أفهم. إذاَ، أنت تحتاج إلى مكان لتمكث فيه حين لا تكون في لندن”.

“وكيف عرفت أنني أعيش في لندن؟”.

“أخبرتني السيدة ساتر”.

“أفترض أنك تقصد زوجتي السابقة”.

“هذا صحيح”.

“وماذا قالت لك أيضاً؟ كي لا آخذ من وقتك بتكرار ما تعرفه أصلاً”.

هزّ كتفه وأجاب: “حين اشترت المنزل - منزل الضيوف السابق - اتصلت بنا لياقة. كان يوم أحد، وكنت هنا مع زوجتي، وشربنا الشاي وتحدثت عموماً عن وضعها”.

“أفهم. وأخبرتك حينها أن زوجها السابق عاد من لندن”.

“صحيح”. ثم أضاف: “ليس لي في الواقع. أخبرت سهيلة. زوجتي. لقد تحدثتا”.

أردت تحذيره من أن السيدة ساتر زانية، وليست رفيقة جيدة لسهيلة. لكن لِمَ التسبّب بالمشاكل؟ عدتُ إلى موضوعي وقلت: “هكذا، إذا كنت لا تعارض، أودّ استئجار منزل الحراسة لشهر أو اثنين؛ مع خيار الشراء”.

“ليس معروضاً للبيع، لكن...”.

وقبل أن يتمكن من المتابعة، ظهرت المرأة التي فتحت الباب وهي تحمل صينية شاي، وضعتها على الطاولة مع انحناءة من رأسها.

صرفها السيد نسيم، وانسحبت سريعاً من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها. حسناً، قد لا يكون تدريبها سيئاً جداً، لكنها تحتاج فقط إلى درس في لياقة فتح الباب الرئيسي. أو أن السيد نسيم يخيفها كثيراً. أستطيع ربما فهم بعض الأمور منه حول العلاقات بين الجنسين.

على أي حال، قام السيد نسيم بالتشريفات، وفتح علبة خشبية تحتوي على أنواع مختلفة من الشاي، وقال لي:“هل تفضل نوعاً معيناً؟”.

... قلت له: “شاي إيرل غراي جيد”.

“ممتاز”. وضع أوراق الشاي في إبريقين من الخزف الصيني، وصبّ فوقهما الماء الساخن من إبريق حراري، مع متابعة حديث الشاي، مثل “أتركه منقوعاً عادة لمدة أربع دقائق...”. غطى الإبريقين، ثم قلب ساعة رملية وقال: “لكن يمكنك توقيت شايك مثلما تريد”.

ألقيت نظرة على ساعتي، الأمر الذي قد يفسّره وكأنني أحدّد الوقت للشاي، أو أنني بدأت أفقد صبري. على أي حال، أظن أن الشاي هو ما يفعله أهل السيد نسيم بدلاً من كوكتيلات الساعة السادسة.

وفيما انتظرنا نفاد وقت الساعة الرملية، تابع الحديث وقال: “عشت في لندن عشر سنوات. مدينة رائعة”.

“نعم هي كذلك”.

“أعتقد أنك عشت هناك سبع سنوات”.

“صحيح”.

“وقبل ذلك، أبحرت في المركب حول العالم”.

“صح”.

“إذاً، أنت رجل مغامر. رجل يحب المخاطرة ربما”.

“ذهبت للإبحار. لم أهاجم أي سفينة حربية”.

ابتسم، ثم قال: “لكن الوضع خطير هناك، سيد ساتر. بالإضافة إلى الطقس، هناك القراصنة والألغام المتفجرة. هل أبحرت في الخليج العربي؟”.

“نعم”.

“هذا خطير جداً. هل زرت إيران؟”.

“نعم. بوشهر”.

“وكيف تم استقبالك هناك؟”.

“جيد جداً”.

“جيد. أحبّذ النظرية التي مفادها أن الأشخاص الذين يعيشون في المرافئ البحرية هم أكثر سعادة ولطافة مع الغرباء من أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية من اليابسة. ما رأيك؟”.

“أظن أن هذا صحيح إلى أن تصل إلى نيويورك”.

ابتسم مجدداً، ثم بدّل الموضوع وقال: “إذاً، ستعود إلى لندن بعد شهر أو شهرين”.

“ربما”.

“وأين كنت تعيش هناك؟”.

أخبرته عن عنوان الشارع في نايتسبريدج، من دون إعطائه رقم منزلي، أو رقم الشقة، أو رقم الهاتف.

أومأ برأسه مجدداً وقال: “منطقة جميلة جداً”. ثم أبلغني: “أنا عشت في مايفاير”.

“منطقة جميلة”.

“الكثير من العرب”.

تجاهلت الموضوع ونظرت إلى الرمل وهو ينزل. أدرك تماماً أن الثقافات الأخرى تركز على الكثير من الحديث السطحي قبل الدخول في العمل، وأعرف

أن هذه ليست مجرد لباقة، بل يحاول الرجل الآخر الحصول على مقياس منك لاستعماله لاحقاً. لكن في هذه الحالة، كان العمل بسيطاً جداً ويفترض أن يستغرق وقتاً أقل من سلق البيض لمدة ثلاث دقائق. حسناً، قد يكون أمير نسيم مهذباً فقط مع أرستقراطي سابق مشرد.

قال لي: "إذاً، أنت محامٍ".

"هذا صحيح".

"وهذا ما عملت به في لندن".

"قانون الضرائب الأميركي لزبائن بريطانيين وأجانب".

"آه. مثير. نعم، ثمة حاجة إلى ذلك. في الواقع، لديّ شركة في لندن، ولذلك يمكننا اللقاء هناك ربما في يوم ما...". انتهى الوقت، وأمسك بإبريق الشاي خاصته وسكب منه الشاي عبر مصفاة فوق كوب أنيق، وقال لي: "تفضل أرجوك، إلا إذا كنت تحبه أن يتخمّر أكثر".

سكبت الشاي فيما أضاف السيد نسيم عدة ملاعق من السكر إلى فنجانه. سألني: "سكر؟ كريما؟ ليمون؟".

"أشربه سادة".

"جيد. هذه هي الطريقة الصحيحة. لكنني أحب السكر". ارتشف الشاي وقال: "جيد جداً. أستعمل المياه المكررة".

"وأنا أيضاً". ثم قلت له: "بشأن منزل الحراسة...".

"تذوّق قطعة حلوى. هل أستطيع أن أنصحك بهذه القطعة؟". أشار إلى كتلة لزجة من شيء ما وقال: "هذه اسمها رانجيناك". ثم سمّى لي أنواع الحلويات الخمسة الأخرى.

لغتي الفارسية، التي لم تكن يوماً جيدة، باتت صدئة قليلاً ولذلك قلت له: "سأجرّب الرقم واحد".

"نعم ممتاز". التقط حشوةٍ مما يبدو مثل التمر مع لسان فضي ثم وضعها في طبقي. "إذا وجدتها حلوة جداً، أنصحك بهذه، المصنوعة من عجينة السمسم".

"حسناً. إذاً، بالنسبة إلى موضوع زيارتي، يناسبني، وأتمنى ألا يزعجك الأمر، أن أبقى لشهر أو لشهرين في منزل الحراسة".

وضع قطعة من كل نوع من الحلويات في طبقه وأجاب: "نعم، طبعاً".

فاجأني ذلك ولذلك قلت له: "حسناً... هذا لطف منك". ثم أضفت: "أستطيع توقيع عقد إيجار قصير الأمد لشهر واحد، بدءاً من يوم وفاة السيدة ألارد، إضافة إلى شهر آخر اختياري. إذاً، نستطيع الاتفاق على بدل إيجار...".

"ما من كلفة سيد ساتر".

فاجأني هذا أيضاً، وقلت له: "أصرّ...".

“لا كلفة”. ثم مازحني: “هل تريد تعقيد ضرائبي الأميركية؟”.

في الحقيقة، أجني المال بهذه الطريقة لكنني قلت له: “حسناً... هذا لطف كبير منك، لكن...”.

“على الإطلاق. أطلب منك فقط المغادرة في الأول من سبتمبر”. ثم أضاف: “طبعاً، إذا كانت السيدة ألارد لا تزال على قيد الحياة حتى ذلك الوقت، تبقى ضيفها. وإلا، في الأول من سبتمبر”.

“ليست هذه مشكلة”.

“جيد”.

“لكن لمَ لا نوقّع على اتفاق بهذا الخصوص؟ من الناحية القانونية، يفيدنا نحن الاثنين أن يكون الاتفاق مكتوباً”.

“لدينا كلمة رجال، سيد ساتر”.

“مثلما تريد”. والآن، يجدر بي طبعاً مدّ يدي؛ أو نقطع عروقنا ونتبادل الدم ونرقص حول الطاولة؟ بعد بضع ثوانٍ غريبة، مددت يدي وتصافحنا.

سكب السيد نسيم المزيد من الشاي لنفسه، وارتشفتُ القليل من كوبي.

قال لي: “خطرت في بالي فكرة”.

تأهبتُ.

تابع: “أودّ طلب خدمة منك”.

تذكرت فجأة تلك الليلة حين دعانا فرانك بيلاروزا أنا وسوزان إلى الحمرا لارتشاف القهوة وتناول الحلويات الإيطالية، واختلينا بعد ذلك أنا والسيد بيلاروزا في مكتبه لتدخين السيجار، وطلب مني حينها خدمة انتهت بتدمير حياتي. لا يدخّن السيد نسيم التبغ، لكنني واثق من أنه يملك الكثير من الأمور المشتركة مع السيد الميت.

استفسر السيد نسيم: “هل أستطيع طلب خدمة؟”.

“طبعاً”.

“جيد”. وضع قطعة حلوى كبيرة في فمه، ثم غمس أصابعه في وعاء صغير جداً ومسحها بفوطة قطنية. مضغ قطعة الحلوى جيداً، ثم ابتلعها، وقال: “مع وجود السيدة ألارد في منزل الحراسة، والسيدة ساتر في منزل الضيوف، أشعر بأنني أفتقد إلى الخصوصية. هل تفهم؟”.

ذكّرته: “لديك تقريباً مئتا أكر من الأراضي المسيّجة هنا، سيد نسيم. ما هو مقدار الخصوصية التي تحتاج إليها؟”.

“أستمتع بخصوصيتي”. ثم قال لي: “أستطيع أيضاً الاستفادة من منزل الحراسة للموظفين عندي، وأودّ أن يكون منزل الضيوف لي أيضاً”.

لم أجبه.

تابع: "كنت على وشك تقديم عرض إلى مالكي منزل الضيوف لشراء المنزل والأكرات العشرة حين اكتشفت فجأة أن السيدة ساتر اشترت العقار. لذا، قدّمت إليها عرضاً مغرياً جداً لشراء العقار، لكنها رفضت. بطريقة مهذبة جداً، رفضت".

"قدّم إليها عرضاً أفضل".

"أنا مستعد، لكنني فهمت منها أن العقار غير معروض للبيع بأي ثمن". ثم أضاف: "طبعاً، هناك ثمن، لكن...". نظر إليّ وقال: "أخبرتني أن هذا منزلها، مع الكثير من الذكريات، وأنه المكان الذي ترعرع فيه ولداك، وأيضاً مكان يستطيعان زيارته، و... حسناً، مكان يذكرها بفترة جيدة من حياتها...". تابع: "وطبعاً، إنه جزء من ملكيتها؛ ستانهوب هال، حيث ترعرعت هي. ولذا، تنوي البقاء هنا إلى أن تموت، مثلما قالت".

لم أجبه، لكنني فكرت في أن شخصين على الأقل في الجوار لن يمانعا موت سوزان. أخيراً، قلت له: "يبدو هذا مثل رفضٍ قطعيّ".

هزّ السيد نسيم كتفه وقال: "الأشخاص، حين يكبرون في السن؛ لا يعني ذلك أن السيدة ساتر كبيرة جداً في السن، بل تبدو شابة جداً، يصبحون أكثر حنيناً إلى الماضي مع مرور السنوات، ويشعرون بالتالي بحاجة إلى زيارة أماكن شبابهم، أو يصبحون متشبثين بغرض ما أو بمكان ما. تفهمني. وقد يؤدي ذلك إلى درجة من العناد وربما إلى اتخاذ قرارات غير عقلانية".

"ماذا تريد سيد نسيم؟".

"حسناً، كنت أتساءل إذا كنت تستطيع إقناعها".

أبلغته: "لم أستطع إقناعها حين كنا متزوجين".

ابتسم بتهذيب.

تابعت: "نحن لا نتكلم مع بعضنا. ولا أنوي التحدث معها بشأن هذا الموضوع".

بدا خائب الأمل، لكنه قال: "حسناً، ظننت أن هذه فكرة جيدة، لكنني أرى الآن أنها ليست جيدة كثيراً".

"لا يضرّ السؤال".

"لا". انتقل إلى موضوع أكثر أهمية، وقال: "لم تتناول قطعة الرانجيناك".

لأكون مهذباً، وضعت واحدة من قطع التمر في فمي، ثم غسلت أصابعي بماء الورد وجفّفتها وقلت له: "حسناً، لن أجبرك على الإيجار المجاني، لكنني أحتاج إلى المكان حتى ذلك الوقت".

لوّح بيده وقال: "أنا ألتزم بكلمتي. لا قيود".

هذا ما كان يقوله فرانك.

انتهى عملي، ولذلك كنت على وشك المغادرة، لكنه قال: "عرضي للسيدة ساتر كان أربعة ملايين دولار. أكثر بكثير مما يستحقه العقار، وأكثر من ضعف الثمن الذي دفعته قبل بضعة أشهر فقط. أنا مستعد لدفع سمسرة بنسبة 10 بالمئة إذا استطاع شخص ما تسهيل عملية الشراء".

وقفت وقلت له: "لست هذا الشخص. شكراً لك...".

وقف هو الآخر وأجاب: "حسناً، لكن لا تعرف أبداً. إذا تحدثت معها، تذكر هذا الموضوع".

بدأت أنزعج قليلاً وقلت بفظاظة: "سيد نسيم، ما الذي يجعلك تظن أنني أستطيع التأثير في زوجتي السابقة؟".

تردد، ثم أجاب: "تحدَّثت بالخير عنك، ولذلك افترضت...". ثم بدّل الموضوع وقال: "سأرافقك إلى الباب".

"أستطيع الخروج بمفردي. أعرف المكان جيداً".

"نعم. وستخبرني قصة المنزل".

"ربما في وقت آخر. أو ربما تستطيع السيدة ساتر أن تعطيك تاريخاً أكثر تفصيلاً". مددت يدي وقلت: "شكراً على الشاي، وعلى استخدام منزل الحراسة". ثم أضفت: "إذا بدّلت رأيك، أفهم".

صافح يدي ووضع يده الأخرى على كتفي ورافقني نحو الباب وهو يقول: "أصرّ على الخروج معك".

ربما ظن أنني سأطوي سجادة فارسية وآخذها معي ولذلك قلت له: "مثلما تريد".

فيما مشينا في الرواق، أعطاني بطاقته. "هذه بطاقتي الشخصية مع رقم هاتفي الخاص. اتصل بي إذا احتجت إلى مساعدتي".

فكرت في طلب المساعدة منه لتحميل الأغراض إلى سيارة إليزابيت رباعية الدفع غداً، لكن لا أظن أن هذا ما يقصده.

سحب بطاقتي من جيبه، ونظر إليها وقرأ: "ستانهوب هال. أفترض أنها بطاقة قديمة". ثم مازح وتابع: "أو أنك طبعت للتو هذه البطاقات استباقاً لموافقتي على طلبك؟".

أجبته: "إنها بطاقات قديمة. لكن بدلاً من رميها، أقدم إليك عرضاً للعقار كله".

ضحك. "قدم أفضل عرض عندك. لكل شيء ثمنه".

هذا صحيح.

سألني: "هل تملك هاتفاً خلوياً؟".

"ليس بعد". انتابني الفضول فسألته: "ما هو نوع عملك سيد نسيم؟".

"استيراد وتصدير".

"جيد".

قال لي: "أرجوك، استخدم المكان بحرية". ثم أضاف: "تركض السيدة ساتر أو تمشي مسافات طويلة في العقار".

سبب جيد لعدم استخدام العقار.

أضاف: "حافظت على متاهة الممرات الإنكليزية". ثمّ ابتسم وقال: "يمكن أن يتوه الشخص هنا".

"هذا هو الهدف".

"نعم". ثم سأل: "هل لعب ولداك هنا؟".

"نعم". فتح موضوع أراضي العقار، ولذلك سألته بفظاظة: "هل أزلت التماثيل من معبد الحب؟".

"أخشى أنني فعلت سيد ساتر".

لم يقدّم أي معلومات إضافية، ولم أشأ أن أكون فظاً جداً بسؤاله عما حلّ بالتماثيل.

لكنه قال: "أنا شخصياً لم أجدها مهينة؛ إنها مجرد أمثلة على الفن الغربي الكلاسيكي في ذلك العصر".

كان في وسعي اقتراح أثواب حمام للتماثيل، أو إقفال باب المعبد، لكنني تجاهلت الموضوع.

إلا أنه لم يتجاهل الموضوع وقال لي: "تفهمت السيدة ساتر الأمر".

يبدو أنها أصبحت أكثر تفهماً للثقافات الأخرى في العقد الأخير. قلت له: "إنها ملكيتك".

"نعم. على أي حال، ومثلما قلت لك، يمكنك استخدام الأراضي بحرية، بما في ذلك ملاعب التنس. أطلب منك فقط أن ترتدي ثياباً محتشمة في ممتلكاتي. يمكنك ارتداء الثياب التي تريدها في منزلك، طبعاً".

"شكراً لك".

أعاد إليّ هذا الموضوع ذكرى السيد فرانك بيلاروزا والسيدة ساتر، حين قام السيد بيلاروزا بأول زيارة غير معلنة إلى ستانهوب هال، فيما كنت وسوزان نلعب مباراة مزدوجة في ملعب التنس مع جيم وسالي روزفلت. أحضر لنا جيراننا الجدد هدية عبارة عن شجرة صغيرة، وبالإضافة إلى مقاطعة مباراتنا، الأمر الذي كان مزعجاً كفاية، استمر بيلاروزا في النظر إلى ساقي سوزان العاريتين.

حسناً، لو كان السيد نسيم يملك العقار حينها، لكانت سوزان لعبت التنس بالثوب الأسود الطويل، ولكان فرانك بيلاروزا أوصل فقط الشجرة الصغيرة وغادر من دون التفكير في مغازلة سوزان. لذا، يملك أمير نسيم ربما وجهة نظر بشأن اللباس المحتشم.

على أي حال، لا أريد طبعاً مصادفة سوزان في أراضي ستانهوب - بالرغم من أنها قد ترغب في ذلك هي والسيد ونسيم - لكن، كي أكون مهذباً قلت له: "شكراً على عرضك". وصلنا إلى الدرج وقلت له: "أعرف طريقي من هنا".

"أحتاج إلى التمرن".

نزلنا الدرج العريض الملتوي معاً، وقال لي، بشأن إنارة الدرج: "شاهدت هذه التماثيل في اللوحات الفنية وفي المتاحف والقصور في كل أرجاء أوروبا. لكنني لا أعرف كثيراً معناها".

"ليس لديّ فكرة".

"أفترض أنه مرّت حقبة في أوروبا كان فيها هؤلاء الأشخاص عبيداً أو خدماً".

"حسناً، لا يبدو أنهم يملكون المكان".

"لا، لا يفعلون". توقف فجأة في منتصف الدرج، فتوقفت أنا أيضاً. قال لي: "سيد ساتر، أفهم تماماً".

"تفهم ماذا، سيد نسيم؟".

"مشاعرك سيدي".

لم أجبه.

تابع: "مشاعرك حيالي، بشأن وجودي في هذا المنزل، وبشأن ثقافتي، ومالي، وديني، وبلدي. وبشأن موقعك من كل هذا".

فكرت في أجوبة عدة في رأسي، ثم اخترت الجواب الأفضل وقلت له: "إذاً، نحن نفهم بعضنا بعضاً تماماً. وعليّ القول إنني لا ألومك أبداً على مشاعرك".

"طبعاً. أفهم ذلك أيضاً. لكنني أريد أن أقول لك إن سبب وجودي هنا، وسبب وجودي في إنكلترا، هو أنني منفيّ سيد ساتر. لست منفياً طوعياً، مثلما كنت أنت، وإنما منفيّ سياسيّ سيتم اعتقالي وإعدامي إذا عدت إلى بلدي، الذي بات الآن في أيدي الملالي. كنت متحمساً وداعماً جداً للشاه الراحل، ولذلك أصبحت رجلاً مشبوهاً. ليس لدي وطن، سيد ساتر، ولذلك لا أستطيع العودة إلى منزلي مثلما فعلت أنت. وعلى عكس زوجتك التي عادت إلى منزلها. لا أستطيع ببساطة السفر إلى إيران واسترداد منزلي القديم. في الواقع، لن أرى أبداً وطني مجدداً. لذا، سيد ساتر، نملك أنا وأنت شيئاً مشتركاً؛ نريد نحن الاثنان أن أعود أنا إلى حيث جئت، لكن هذا لن يحصل لا في حياتي، ولا في حياتك".

أحسست أنه تدرّب على هذا الخطاب، ويلقيه في الأوقات المناسبة، لكنني أحسست أيضاً أن الأمر ربما يكون صحيحاً. أو صحيحاً جزئياً. أفترض أنني

أصبحت أشعر الآن بعدائية أقل تجاه السيد أمير نسيم، لكن هذا لا يغير وضعه أو وضعي.

قلت له: "شكراً على وقتك".

تابعت نزول الدرج وحيداً، لكنني أحسست أنه لا يزال موجوداً.

مشيت على الأرض الصخرية، وأحدثت خطواتي صدىً في الردهة الفارغة. كان الباب الأمامي مغلقاً ففتحته.

ناداني: "سيد ساتر".

استدرت، ونظرت إليه على الدرج.

قال لي: "يجدر بي إخبارك أن هناك بعض الإجراءات الأمنية التي بدأ اعتمادها ويجدر بك إدراكها".

لم أجبه.

تابع: "لهذا السبب أحتاج إلى منزل الحراسة ومنزل الضيوف؛ لوضع رجالي فيهما. هل تفهم؟".

أفهم أن هذه كذبة ملائمة ربما؛ حيلة لجعلي أخبر سوزان أن ستانهوب هال معرضة لخطر اعتداء من قبل جماعة ما. في الواقع، لا أظن أن سوزان تهتم طالما أن المجرمين لا يدوسون الأزهار.

تابع السيد نسيم، بعد عدم تلقيه أي رد فعل مني: "إذا شاهدت أي شيء غريب أو مشكوك في أمره، اتصل بي".

"سأفعل حتماً. وأنت افعل الشيء نفسه. يوماً جميلاً".

غادرت، وأغلقت الباب خلفي.

نزلت الدرج تحت الرواق المعمّد، ودخلت سيارتي، وابتعدت فيها.

فيما قدت السيارة ببطء في الممر المغطى بالأشجار في اتجاه منزل الحراسة، فكرت في ما قاله أمير نسيم بشأن الإجراءات الأمنية. أقصد ما هو عدد المنفيين السياسيين الموزعين هنا؟ لا أحد، حين قمت بالإحصاء آخر مرة. هناك بلا شك قوانين محلية تمنع الاغتيال السياسي.

من جهة أخرى، تغير العالم بعد أحداث 11 سبتمبر. هناك عشرات السكان المحليين الذين قتلوا في انهيار البرجين، وهناك أشخاص مثل السيد أمير نسيم يشعرون ببعض الغضب من بلدهم الأصلي، أو من شعب غاضب ومصاب أكثر فأكثر برهاب الأجانب؛ أو من السلطات. أو أنهم يشعرون فقط بالخوف، وهذه هي الحال ربما مع السيد أمير نسيم.

هناك السيد أنطوني بيلاروزا عند أسفل الطريق. فكرت كم هو غريب أن يكون لدى السيد بيلاروزا والسيد نسيم، وهما من طرفين متقابلين في العالم، المشكلة

نفسها: سيقتلهما أعداء قدامى. لكن هذه ليست مصادفة ربما. إنه خطر وظيفي حين تقضي وظيفتك بالعيش في خطر ومصادفة الأشخاص غير المناسبين.

أدخلوا جون ساتر، الذي وصل للتو إلى المدينة للاهتمام ببعض الأعمال، وحصل على عرضين لجني الربح السريع. أقصد إنه فعلاً أسبوع حظي؛ إلا إذا علقت في تقاطع النيران.

اقتربت من منزل الضيوف، وفكرت في التوقف والضغط على الجرس. "مرحباً، سوزان. توقفت فقط لأقول لك إنه إذا رأيت مجموعة من الرجال المسلحين يضعون أقنعة تزلج سوداء يعبرون أرضك، فلا تخافي. إنهم هنا لقتل السيد نسيم". ويجدر بي الإضافة: "إذا مرّ السيد أنطوني بيلاروزا، لا تنسي أنك قتلت والده. بالمناسبة، لديّ بعض الصور لك، وصور لعائلتك المعتوهة".

أبطأت من سرعة السيارة عندما وصلت أمام منزلها، واستطعت فعلاً رؤيتها عبر النافذة الأمامية لما كان قبلاً مكتبي. إنها تجلس حيث كان مكتبي، وبدا وكأنها تنجز مهامَّ عدة عبر الهاتف والكمبيوتر، وربما تتناول اللبن، وتقلم أظافرها في الوقت نفسه.

فكرت في الاستفادة من اللحظة والتوقف. أريد التحدث معها بشأن ما قاله السيد نسيم، وبشأن أنطوني، وبعض المسائل الأقل إلحاحاً. لكنني أستطيع فعل ذلك عبر الهاتف... فتابعت طريقي إلى منزل الحراسة.

إنه يوم كئيب، مع طقس متقلب، لكنني استطعت رؤية بعض الانفراجات بين الغيوم ويفترض أن يكون يوم غد مشمساً. بالإضافة إلى ذلك، رتبت مسألة إقامتي - إذا كنت لا أمانع تسلق الكومندوس الجدران - وأنهيت عملي المكتبي، وعقدت الصلح مع إيثيل، وضربت موعداً تقريباً مع إليزابيت، ورفضت عرض أنطوني بيلاروزا، وهذا ما كان يجدر بي فعله مع والده قبل عشرة أعوام.

في الإجمال، كانت الأمور على السكة الصحيحة، ولديّ على الأرجح مستقبل رائع وساطع أمامي.

بالرغم من ذلك انتابني شعور باقتراب مصيبة، شعورٌ بأن هناك قوىً تعمل وفهمتها على مستوى واحد لكنني تجاهلت المستوى الآخر، مثل غيوم العاصفة السوداء في البحر التي كانت تطوّق الأفق حول مركبي فيما كنت أجلس هنا هادئاً تحت رقعة سماء مشمسة.

ذهبت إلى منزل الحراسة، وسكبت لنفسي شراب الشعير، ثم خرجت عبر المطبخ، وجلست على مقعد في حديقة نصر إيثيل.

فكرت في التغيرات التي شهدتها طوال حياتها؛ ربيعها، وصيفها، وخريفها، والآن شتائها البارد والداكن.

عرفت أنها نادمة على أمور كثيرة، بما في ذلك الحب الضائع، وهذا ما جعلني أفكر في سوزان.

ومثلما قال لي المرحوم والدي ذات مرة: "لقد فات الأوان لتغيير الماضي، لكن الوقت لم يفت أبداً لتغيير المستقبل".

ما لم أرده في نهاية اليوم هو حالات ندم قديمة. ما أحتاج إليه فعلاً الآن هو بعض حالات الندم الجديدة.

الفصل الخامس عشر

كان صباح السبت مشمساً وبارداً. طقس جيد لممارسة رياضة الركض.

ارتديت بذلتي الرياضية، وبدأت أركض في غرايس لاين، متوجهاً جنوباً نحو بايلي أربورتوم، وهو عبارة عن عقار سابق مساحته أربعين أكراً تحول الآن إلى حديقة عامة، وأذكر أنه مكان جيد للركض.

فكرت في بعض الأمور خلال الركض، والموضوع الأول اليوم هو لقائي مع إليزابيت. أحتاج إلى تنظيف منزل الحراسة، ومن ثم الذهاب إلى البلدة لشراء الشراب الفرنسي وبعض الأغراض. من ثم فكرت في جدول أعمالي معها لفترة بعد الظهر: المسائل القانونية أولاً، تليها جردة حساب لكل شيء في المنزل. بعد ذلك، ربما كأس من الشراب الفرنسي. أو ربما عدة كؤوس. يجدر بي التوقف ربما عن التفكير في هذا.

بدّلت محور أفكاري وفكرت قليلاً في مشاريعي طويلة الأمد. وفيما كنت أراجع وفرة من الخيارات السيئة، مرّت قربي سيارة كاديلاك إسكالاد سوداء اللون. خفّفت السيارة من سرعتها، واستدارت في مكانها، ثم اتجهت نحوي. فيما اقتربت مني، استطعت رؤية طوني وراء المقود.

أبطأت من سرعتي فيما أبطأت سيارة الكاديلاك من سرعتها أمامي، ثم توقف كلانا، وفُتِحت النافذة الخلفية السوداء. أحد خياراتي السيئة، أنطوني، سألني: "هل أستطيع أن أقلك إلى مكان ما؟".

عبرت الطريق متجهاً نحو النافذة المفتوحة، ولاحظت أن أنطوني كان وحيداً في المقعد الخلفي. كان يرتدي سروالاً أسود وسترة رياضية جميلة، ولم أشاهد علبة كمان، فافترضت أنه في جولة قانونية. سألني مجدداً: "أتريد أن أوصلك؟".

أجبته: "لا. أنا أركض".

خرج طوني من السيارة، لكنه تجاوزني وفتح الباب فيما انزاح أنطوني. قال طوني: "هيا".

أظن أنني رأيت هذا في الأفلام، وتساءلت دائماً عن سبب دخول الغبي إلى السيارة بدلاً من إحداث بلبلة، والركض والصراخ طلباً للشرطة.

ألقيت نظرة سريعة على غرايس لاين التي كانت، كالمعتاد، مقفرة تقريباً.

ربّت أنطوني على المقعد الجلدي قربه وكرر دعوته: "هيا. أريد التحدث إليك".

فكرت في أنني أوضحت له جيداً عدم وجود أي شيء بيننا لنناقشه، لكنني لم أشأ أن يظن أنني خائف، لأنني لم أكن كذلك، أو أنني فظ، علماً أنني أكون هكذا مع زملائي، ولكن ليس مع الحمقى الاجتماعيين، مثل أنطوني. وهناك أيضاً مشكلة سوزان، التي أبالغ فيها ربما، لكنني لا أريد ارتكاب خطأ في هذا. لذا،

صعدت إلى المقعد الخلفي، وأغلق طوني الباب، ثم عاد وجلس وراء المقود، وانعطف بالسيارة مرة جديدة وانطلق بنا.

قال لي أنطوني: "هاي، لست مستاء من الليلة الماضية، أليس كذلك؟".

"ماذا حصل الليلة الماضية؟".

"انظر، أفهم من أين تأتي. حسناً؟ لكن ما حصل في الماضي يجب أن يبقى في الماضي".

"منذ متى؟".

"أقصد أنه لا علاقة لي به. لذا...".

"ليس لك علاقة بمغازلة والدك لزوجتي؛ لكن قتل زوجتي لوالدك له علاقة بك وبها".

"ربما. لكنني أتحدث عنك وعني".

"ما من عنك وعني".

"ربما".

"أبداً".

"هل فكرت في عرضي؟".

"أي عرض؟".

"سأجعله مئة وخمسين".

"كان مئتين".

"هل رأيت؟ لقد فكرت فيه".

"نلت مني"، اعترفت له. "وترى الآن أنني لست ذكياً كثيراً".

"أنت ذكي جداً".

"اجعله مئة، ويمكننا التحدث".

ضحك.

هل نمزح، أم ماذا؟

أومأ أنطوني برأسه باتجاه طوني، ثم قال لي: "دعنا نؤجل هذا الموضوع إلى وقت لاحق". ثم سألني: "إذاً، ما رأيك في تحمّلي نفقات تعبيد الطريق؟".

"أفتقد إلى الحُفَر".

"حقاً؟ سأحفرها مجدداً".

غادرنا غرايس لاين وكنا نمرّ أمام بايلي أربورتوم، فقلت له: "يمكنك تركي هنا".

“أريد أن أريك شيئاَ أولاَ. في أويستر باي. قد يهمك ذلك. كنت سأثير الموضوع تلك الليلة، لكنك هربت”. ثم أضاف: “سأنزلك هنا في طريق العودة”.

نهاية المناقشة. كان يجدر بي الحذر مما يفضي إلى الاختطاف، لكنه اختطاف ودّي، وإذا أردت أن أكون صادقاً مع نفسي، أقول إنني شريك فيه.

في موضوع انخراطي الطوعي السابق مع العصابة الإجرامية، بدأ أنطوني يذكّرني بوالده. لم يكن فرانك يقبل أبداً بالجواب لا، خصوصاً إذا ظن أنه يُسدي إليك خدمة عظيمة لكنك غبي جداً لتفهمها. ولم يكن فرانك ينسى طبعاً إسداء خدمة إلى نفسه في الوقت نفسه. أو على الأقل، يذكّرك بالخدمة التي قدّمها إليك ويطالب بثمن لها. لقد عشت هذه التجربة، حرفياً وصورياً، ولذلك فإن أنطوني لا يغوي عذراء. الحيل والدروس التي تعلمتها من الوالد لم تكن تفيد الابن على الإطلاق.

استدرنا نحو أويستر باي. كان أنطوني ينتبه كثيراً إلى مرآة الرؤية الخلفية، بصفته سائقاً جيداً وحارساً شخصياً ممتازاً. لم أكفّ عن التفكير في مشهد من فيلم العراب - الذي حدث فعلاً في مكان غير بعيد جداً من هنا - وقلت لنفسي يجدر بك الانتباه إلى السيارة التي أمامك، أيها الغبي.

على أي حال، أراد أنطوني إبقاء الحديث بعيداً عن العمل، وإلهائي عن فكرة ذهابي في رحلة أحادية الاتجاه، فقال: “هاي، تحدثت مع أمي هذا الصباح. تريد أن تراك”.

“حين أزور بروكلين في المرة المقبلة”.

“ثمة حل أفضل. ستأتي لتناول العشاء يوم الأحد. أنت مدعو”.

“شكراً، لكن...”.

“تأتي باكراً؛ بعد حضور الاحتفال الديني يوم الأحد. أرسل سيارة إليها”.

“هذا لطيف”.

“ثم تطهو طوال اليوم. تُحضر طعامها الخاص من بروكلين، وتستولي على المطبخ، وتقول ميغان: هل أحتاج إلى هذا الهراء؟. يا الله! ما القصة مع هؤلاء النساء؟”.

“إذا عرفت يوم الأحد، أخبرني”.

“نعم. صحيح. لكن إذا كان هناك ضيوف، تسير الأمور بخير عادة. هاي، ذات مرة، أرادت ميغان تحضير وجبة إيرلندية، وجاءت أمي وقالت لي: تبدو الرائحة وكأنها تسلق ماعزاً هناك. ضحك على الذكرى العائلية السعيدة، ثم تابع: “وتشرب ميغان الكثير من الشراب الفرنسي فيما لا تأكل سوى القليل، والأولاد غير معتادين على الطعام الإيطالي الحقيقي - يظنون أن السباغيتي المعلبة والبيتزا الجاهزة هما فقط الطعام الإيطالي. لكنها تطهو وجبة مهمة. أمي. تذكرني الرائحة بأيام الآحاد حين كنت ولداً في بروكلين... الأمر شبيه وكأنني في المنزل مجدداً”.

لم أعرف لماذا يخبرني هذا، إلا ليظهر لي، حسبما أفترض، أنه رجل عادي، مع مشاكل عادية، وأن لديه أمًّا.

بشأن ذلك، سألني: "هل تناولت يوماً الطعام في المنزل؟".

أجبته: "لم أفعل". لكن سوزان فعلت. ثم أضفت: "كانت أمك ترسل إلينا دائماً الطعام".

قال طوني، وهو يصغي إلى حديثنا: "نعم. كنا أنا وليني أو فيني نأخذ دائماً الطعام إلى منزلك".

لم أجب، لكن هذا وقت جيد لتذكير طوني بأن مديره المرحوم لم يكن في وسعه مغازلة زوجتي من دون المعرفة، والمساعدة، والتغطية منه ومن المعتوهين اللذين ذكرهما. حسناً، لا أستطيع لومهم، وقد مات الاثنان الآخران على أي حال. الثلاثة، إذا حسبنا فرانك. الأربعة، إذا ماتت سوزان، والخمسة إذا انحنيت إلى الأمام وأطبقت قبضتي على عنق طوني.

نظرت من النافذة الجانبية. كنا نعبر أمام مجموعة من العقارات القديمة، والتي كانت بمعظمها مخبأة خلف جدران قديمة أو أشجار كثيفة، لكنني كنت أرى بين الحين والآخر قصراً مألوفاً أو ممراً مغطى بالأشجار خلف مجموعة من البوابات الحديدية.

كان السكان المحليون يتنقلون في سيارات رياضية قديمة، وهذا ما يحبون القيام به في عطلات نهاية الأسبوع، ومررنا أيضاً أمام مجموعة منهم يمتطون الأحصنة. إذا أغمضت عينيك واستثنيت بعض الحقائق العصرية، يمكنك أن تتخيّل أنك في العصر الذهبي، أو في حقبة العشرينيات الذهبية، أو حتى في الريف الإنكليزي.

أنطوني، وهو حقيقة عصرية، تطفل على أفكاري وسألني: "هاي، هل رأيت ذلك الحصان؟".

أفترض أنه لا يبدي إعجابه بالحصان، لكن بدلاً من السؤال عن توضيح لغوي، تجاهلته. ضحايا الاختطاف غير ملزمين بإجراء المحادثات.

عدت إلى اجترار أفكاري وتساءلت ما إذا عثرت سوزان على ما كانت تبحث عنه حين عادت إلى هنا. استناداً إلى ما أخبرني به أمير نسيم، ربما قد عثرت. وتساءلت عن رأيها في عودتي. لقد رأت، أو تخيلت، أن في هذا الظرف على الأرجح فرصة لاستئناف حياتنا معاً.

لكن ليس سهلاً استئناف العلاقة من حيث انقطعت، خصوصاً بعد مرور عقد من الزمن. يتغير الأشخاص، ويأتي عشاق جدد ويرحلون، أو لا يرحلون، ويتعامل كل واحد منهما مع الماضي بطرائق مختلفة.

سألني أنطوني: "فيمَ تفكر؟".

"في لازانيا أمك".

ضحك. "حقاً؟ فهمت".

العشاء في منزل آل بيلاروزا ليس مهماً في جدول مواعيدي الاجتماعية، ولذلك قلت: "أنا مشغول يوم الأحد. ولكن شكراً".

"حاول المرور. نتناول الطعام عند الساعة الرابعة". أضاف التعليمات، وقال: "سأعطي حارس المدخل اسمك وهو يعطيك التوجيهات".

لم أجب.

مررنا بالسيارة بمحاذاة الشاطئ، ثم دخلنا بلدة أويستر باي، وتوجه طوني إلى وسط البلدة التي كانت مزدحمة بأهالي يوم السبت وهم يؤدون مهام مختلفة.

أيام السبت كانت محمومة، حين كنت أصغر سناً والأولاد أصغر. لطالما كان لدى كارولين وإدوارد مشاريع رياضية، أو دروس في الغولف أو التنس، أو حفلات ميلاد، أو أي شيء آخر تحضره لهما سوزان والأمهات الأخريات، ولا بد من إيصالهما، مع الأصدقاء عادة، وفق جدول مواعيد صارم يتنافس على الثانية مع توقيت "فلاينغ والنداس".

كان هذا قبل اختراع الهواتف الخلوية، طبعاً، وأذكر أنني أضعت بعض الأولاد، ونسيت إحضارهم بضع مرات، وأوصلت إدوارد ورفاقه ذات مرة إلى مباراة كرة القدم غير المناسبة.

"ما المضحك؟".

ألقيت نظرة سريعة على أنطوني وأجبت: "هذا مثير. لم يتم اختطافي أبداً من قبل".

ضحك بقوة وأجاب: "هاي، لستَ مخطوفاً. أنت تسدي إليّ خدمة. وسأعيدك إلى المنزل".

"حتى لو لم أسدِ إليك الخدمة؟".

"حسناً، نقرر حينها". ظن أن الأمر مضحك، وكذلك فعل طوني. أما أنا فلا.

عثر طوني على مساحة غير شرعية قرب وسط البلدة ليركن فيها السيارة، وبقي هو في داخلها فيما خرجت وأنطوني.

مشى أنطوني في الشارع الرئيسي، ومشيت معه. خطر في بالي أنني لا أريد أن يعرف أحد أنني أمشي مع سيد المافيا، لكنني أدركت بعدها أن الأمر غير مهم. والأفضل من ذلك، قد يكون الأمر مضحكاً.

توقف أنطوني قرب الزاوية التي يتقاطع عندها الشارع الرئيسي مع شارع تسوّق آخر، وأشار إلى مبنى قرميديّ من ثلاثة طوابق في الزاوية المقابلة وقال لي: "إنه مبنى تاريخي".

"حقاً؟". أعرف المبنى طبعاً لأنني عشت هنا معظم حياتي، لكن أنطوني، مثل والده، لا يتخيل أن أحداً يعرف أي شيء إلا إذا سمعه منه.

ثم أخبرني أنطوني: "كان هذا المكتب الصيفي لتيدي روزفلت". نظر إليّ ليرى إن كنت أقدّر تماماً معرفته المذهلة. أشار وقال: "في الطابق الثاني".

"لا مزاح؟".

سألني: "هل تصدق أن رئيس الولايات المتحدة حكم البلاد من هذا المكان القذر؟".

"يصعب تصديق ذلك". لم يكن المكان قذراً، وإنما كان عبارة عن مبنى جميل من بداية القرن، مع سقف سنديّ، يضم مكتبة ومقهى في الطابق الأرضي، وشققاً في الطوابق العلوية، يمكن الدخول إليها عبر باب إلى يمين المكتبة.

تابع أنطوني: "عليك تصوّر ذلك؛ الرئيس يأتي إلى البلدة من مقرّه في ساغامور هيل"، أشار شرقاً إلى حيث لا يزال البيت الأبيض الصيفي لتيدي روزفلت، على مسافة ثلاثة أميال تقريباً. "وربما يصطحب معه رجل مخابرات واحداً وسائقاً. ثم يخرج من السيارة، ويحيّي بعض الأشخاص بقبعة القش خاصته، ثم يدخل عبر هذا الباب ويصعد الدرج. صح؟".

لتوضيح الصورة أكثر، اقترحت: "لكنه يتوقف أولاً ربما لشرب القهوة وتناول الفطائر".

"نعم... لا، لا فطائر. على أي حال، هناك مكاتب في الأعلى، ولديه سكرتير - رجل - وربما رجل آخر يرسل رسائل التلغراف، ويذهب إلى مكتب البريد لإحضار البريد. هناك هاتف واحد في المتجر في أسفل المبنى". نظر إليّ وسألني: "هل تصدق ذلك؟".

أعتقد أنني قلت قبلاً إنه يصعب تصديق ذلك، لكن للإجابة عن سؤاله، قلت مجدداً: "يصعب التصديق". في الواقع، كان روزفلت ينجز معظم عمله في ساغامور هيل، ونادراً ما كان يأتي إلى هذا المكتب، لكن أنطوني بدا متحمساً، ويريد إثبات أمر ما، ولذلك تركته يتابع.

تابع: "وحلّ الصيف، ولا توجد مكيفات هواء، وكل أولئك الرجال يرتدون بذلات رسمية ويضعون ربطات عنق، وربما يرتدون ثياباً داخلية صوفية أو ما شابه. صح؟".

"صح".

"كان لديهم ربما ثلاجة هناك".

"ربما".

استفسر: "هل كانوا يملكون مراوح كهربائية حينها؟".

"سؤال جيد"، وذكّرني بسؤال آخر جيد فسألته: "ما الهدف؟".

"حسناً، هناك هدفان. ربما ثلاثة".

"هل أستطيع معرفة واحد؟".

“نعم. الهدف الأول هو أن المبنى معروض للبيع. ثلاثة ملايين. ما رأيك؟”.

“اشترِه”.

“حقاً؟ لماذا؟”.

“لأنك تريده”.

“صحيح. وهو أثر من التاريخ”.

“لا يقدّر ذلك بثمن”. ألقيت نظرة على ساعتي وقلت له: “عليّ الذهاب. سأطلب سيارة أجرة”.

“أنت تهرب دائماً. تظهر أولاً، ثم تهرب”.

هذا صحيح ودقيق. أظن أنني أمتلك طريقة في الاقتراب/التفادي من آل بيلاروزا. قلت له: “لم أظهر أنا هذه المرة. تم اختطافي. لكنني سأمنحك عشر دقائق”.

“اجعلها اثنتي عشرة. ما أفكر فيه هو أنني سأتخلص من المكتبة في الطابق الأرضي وأحولها إلى مكان مناسبٍ لتجارة مربحة - نوع من سلسلة متاجر راقية - أو ربما مكان لبيع الطعام. بوظة باسكين روبينز أو مقهى ستاربكس. صح؟”.

“عليك التحدث مع آباء البلدة بشأن ذلك”.

“نعم، أعرف ذلك”. ثم أضاف: “وهنا يأتي دورك”.

“وهنا أنا أغادر”.

“هيا جون. ليس الأمر صعباً. أنا أشتري المبنى، وأنت تهتم بالشؤون المالية، ثم نرى ما الذي سيسمح لنا أولئك المتخلفون بالقيام به”. حرك إصبعه صعوداً ونزولاً في الشارع المزدحم وقال: “انظر إلى هذا المكان. مال. أستطيع طلب خمسة أضعاف الإيجار إذا روّجت له على أنه موقع تاريخي. صح؟”.

“حسناً...”.

“يصحّ الشيء نفسه على المساحات العلوية. شركة محاماة ربما. مثل استأجر مكتب تيدي روزفلت. سيحب الزبائن ذلك. أحضر مهندس ديكور ليجعل المكان يبدو وكأن عمره مئة عام. باستثناء الحمام ومكيف الهواء”. ثم سألني: “هل أنا محق في ذلك؟”.

“أنطوني. لقد غبت لعشرة أعوام. اطلب من شخص آخر إجراء الحسابات لك”.

“اللعنة على الحسابات. أنا أشتري التاريخ”.

“جيد. حظاً موفقاً”.

“وإليك هدفي الثاني. لا علاقة له أبداً بالعمل. وهنا السؤال؛ ماذا حصل لهذا البلد؟”.

حسناً، أولاً، لا تزال المافيا موجودة. لكن الأشخاص الذين هم جزء من المشكلة لا يعتبرون أنفسهم أبداً جزءاً من المشكلة. المشكلة هي دائماً في شخص آخر. أجبته: "المشكلة، مثلما أراها، هي سلسلة المطاعم السريعة والمحامون. هناك الكثير من الاثنين".

"نعم، لكن المشكلة أكبر من ذلك. هل تظن أن رئيساً يستطيع يوماً ما التجوّل في هذا الشارع مع حارس شخصي واحد؟".

"أنت تفعل. ويكون هو في السيارة".

"أنا لست الرئيس اللعين، جون".

لاحظت أنه لم يقل: "لا يحاول أحد قتلي، جون". علماً أن هذا ما كان ليقوله معظم الأشخاص.

تابع: "خرج يوليوس قيصر من مبنى مجلس الشيوخ من دون حراس شخصيين، أو رجال أمن، لأن الأمور كانت هكذا آنذاك. لكنهم طعنوه حتى الموت. وكانت هذه نهاية الجمهورية، وبداية اعتقاد الأباطرة أنهم أعلى من سائر الخلق. هل تفهم؟".

"فهمت رأيك. لكن لا عودة إلى زمن أكثر بساطة. أو إلى زمن أكثر أماناً".

"صحيح... لكن، عند الوقوف هنا، أفكر... لا أعرف. ربما... وكأننا أضعنا شيئاً ما".

لم يُكمل الأفكار التي كانت تجول في رأسه، وتفاجأت صراحة بأنّ لديه مثل هذه الأفكار. إلا أنني أذكر أن والده كانت لديه أيضاً بعض الآراء العالمية التي جعلته غير سعيد. وأفترض أنه بعد 11 سبتمبر، فهم أنطوني، مثل الكثير من الأشخاص، أن هناك أموراً أهم من حياته الذاتية مع زوجة صعبة، وتاريخ عائلي معقد، وأمّ متشبثة، ومهنة متعبة. ربما يفكر هو الآخر في موته.

أشعل أنطوني سيجارة وتابع النظر إلى المبنى عبر الطريق. قال أخيراً: "حين كنت يافعاً أعيش في لاسال، قال لنا أحد الإخوة: يمكن لأي شخص في هذه الغرفة أن يكون رئيس الولايات المتحدة". سحب أنطوني الدخان من سيجارته وختم بالقول: "كان أحمق".

المضحك أنهم أخبرونا الشيء نفسه في المدرسة الإعدادية، لكنّ هذا كان احتمالاً في مدرسة سان بول. قلت له: "نحن نرسم قدرنا، أنطوني. لدينا أحلامٌ وطموحات، ونتخذ خيارات. أنا مثلاً اخترت الذهاب إلى المنزل".

ظن فعلاً أن الأمر مضحك، لكنه لم يظن أنه أحد خياراتي. قال: "إليك وجهة نظري الأخرى؛ فكرتي". تبدّلت إشارة المرور فأخذني من ذراعي وعبرنا الشارع المزدحم. أنا مستعد لفعل أي شيء للهروب إلى جايمس هانينغس لأقول له: أبتي، هل أستطيع تعريفك إلى صديقي وشريكي في العمل، السيد أنطوني بيلاروزا؟ تذكر والده فرانك. آه، وهذه أمي. هارييت، هذا الابن الأصغر لفرانك بيلاروزا، طوني، الذي كبر الآن وأصبح اسمه أنطوني. أوه، يا الله، هناك

سوزان. سوزان، تعالي إلى هنا وتعرفي إلى ابن الرجل الذي قتلته. ألا يشبه والده؟

حسناً. هذا يكفي. وصلنا إلى الرصيف المقابل من دون الالتقاء بأي شخص أعرفه، أو من دون التوقف كي يوقع السيد بيلاروزا على دفاتر المعجبين.

قال لي أنطوني: "قال والدي ذات مرة إنّ هناك نوعين من الرجال في هذا العالم. الرجال الذين يعملون للأشخاص الآخرين، والرجال الذين يعملون لأنفسهم".

لم أجبه، لأنني عرفت إلى أين سيقود الحديث.

تابع: "إذاً، أنا أعمل لنفسي. أنت تعمل لأشخاص آخرين".

لم أجبه مجدداً.

تابع: "إذاً، ما أفكر فيه هو أن أعطيك المال الذي تحتاج إليه لفتح مكتب هنا، وتعلق لافتتك الخاصة. ما رأيك في هذا؟".

"المسافة بعيدة من لندن".

"هاي، اللعنة على لندن. أنت تنتمي إلى هنا. يمكنك أن تكون في المكتب القديم لتيدي روزفلت، وتُنجز عملك في قانون الضرائب هنا. استخدم قلة من السكرتيرات، وقبل أن تدرك ذلك، ستحقق أموالاً طائلة".

"وأتساءل من سيكون زبوني الأول".

"خطأ. أرأيت؟ أنت مخطئ في هذا. ما من رابط بيني وبينك".

"باستثناء المال الذي تقرضني إياه".

"أنا لا أقرضك المال. أنا أهبك إياه. أنا أستثمر فيك. وإذا لم ينجح الأمر معك، أكون قد خسرت استثماري، وأخرجك من المكتب. لن تخسر أنت أي شيء".

"ألن تكسر رجليّ أو ما شابه؟".

"عمّ تتحدث؟".

"وماذا فعلت لأستحق هذه الفرصة؟".

"تعرف. من أجل كل ما فعلته لوالدي. لإنقاذ حياته. لكونك الرجل الوحيد الذي لم ينتظر أبداً أي شيء منه، ولم يرد أن يلحق به أي أذى".

في الواقع، أردت شيئاً منه؛ القليل من الإثارة في حياتي، وحصلت على ذلك. وبالنسبة إلى الأمر الآخر، بعدما أدركت أنه يقيم علاقة مع زوجتي، تمنيت له الأذى الكبير، وحصلت على ذلك أيضاً. لكنني لن أخبر أنطوني أننا كنا أنا ووالده متعادلين في هذه المسألة. قلت له بدلاً من ذلك مع عدم صبر واضح في صوتي: "أخبرني تماماً ماذا تريد مني. ولا شيء عن استثمارك في مستقبلي من دون أي قيود".

بدأنا نلفت بعض الانتباه، وألقى أنطوني نظرة من حوله، وقال بصوت هادئ: "فلنصعد إلى الأعلى لنتحدث عن ذلك". ثم أضاف: "الشقة فارغة. سيأتي السمسار بعد نصف ساعة. لقد حصلت على المفتاح".

"أخبرني الآن وهنا".

تجاهلني، واستدار نحو الباب، وفتحه للكشف عن غرفة صغيرة ودرج طويل وشاهق. قال: "أنا في الأعلى".

"لن أصعد".

دخل إلى الغرفة، ونظر إليّ وقال: "تريد أن تسمع ما أريد قوله".

استدار وصعد الدرج.

استدرت، وسرت بعيداً.

فيما كنت أتجوّل في الشارع الرئيسي، وأفكر في سيارة أجرة، أو ركض مسافة الخمسة أو الستة أميال إلى المنزل، خطرت في بالي فكرة أخرى كنت أتفاداها.

إذا فكرت فعلاً في هذا، وجعلت عقلي يتوصل إلى استنتاج محتّم، أعرف أن أنطوني بيلاروزا بالرغم مما أخبرني به، لن يسمح لسوزان، قاتلة والده، بالعيش هانئة في الشارع. أو العيش أساساً. لا يمكنه فعل ذلك. ولا شك في أن هناك أشخاصاً ينتظرونه للاهتمام بذلك. وإذا لم يهتم بذلك، سيتساءل رفاقه - بمن في ذلك أخواه - عن أي نوع من الرجال هو.

وأرادني أنطوني أن أعمل لديه، علماً أنه إذا فعلت ذلك، فستكون سوزان في أمان؛ على الأقل في الوقت الراهن.

لذا... أحتاج على الأقل إلى حلّ المسألة إلى أن أتمكن من الحديث مع سوزان. الأمر قائم على إبقاء أصدقائك قريبين وأعدائك أقرب.

استدرت وعدت مجدداً إلى المبنى.

الفصل السادس عشر

كان الباب لا يزال مفتوحاً، فصعدت الدرج.

ثمة منبسط للدرج في الأعلى، وفتحت الباب الوحيد، الذي كشف عن غرفة الجلوس في شقة فارغة. السجادة بالية، والطلاء البيج قذر، وبدا السقف العالي وكأنه آيلٌ للسقوط. في الإجمال، هو مكان مسبب للاكتئاب، باستثناء احتوائه على نوافذ كبيرة تتيح دخول أشعة الشمس إليه.

ثمة ميزة أخرى جيدة وهي أن سيد المافيا غادر على ما يبدو. من ثم سمعت صوت مياه صندوق الطرد في الحمام، وفُتح باب في الطرف البعيد للغرفة، وقال أنطوني، كما لو أنه موجود هناك طوال الوقت، "تبدو أنابيب المياه جيدة". نظر حوله وقال: "يجب التخلص من كل هذه القذارة. لكنني أملك شركة بناء؛ هاي، هل تذكر دومينيك؟ هو الذي رتب إسطبل الأحصنة عندك". ثم أبلغني: "في مرحلة ما من الثلاثينيات، حوّلوا هذه المكاتب إلى شقق. إذاً، أتخلص من المستأجرين وأستطيع مضاعفة الإيجار كمساحة لمكتب. صح؟".

لم أجبه.

"أرى قوالب معمارية كبيرة، وسجادات سميكة وأبواباً من خشب الماهوغاني. وهل تعرف ماذا أرى على ذلك الباب؟ أرى عبارة كُتبت بأحرف ذهبية مفادها: جون ويتمان ساتر، محامٍ بالاستئناف. هل ترى ذلك؟".

"ربما".

بدا وكأنه لم يتفاعل مع هذا التلميح، متصوراً أنه إذا صعدت الدرج، فسأكون جاهزاً للإصغاء.

قال: "دعنا نلقي نظرة على الغرف الأخرى". دخل عبر باب، ولحقت به إلى غرفة نوم كبيرة أستطيع من خلالها رؤية الشوارع في الأسفل. كانت الجدران مدهونة بالأبيض فوق ورق جدران متقشر، وبدت السجادة رثة. قال لي أنطوني: "قال السمسار إن هذه الغرفة كانت مكتب روزفلت".

في الواقع، كان السمسار مخطئاً، أو على الأرجح، كاذباً لأن روزفلت، مثلما قلت قبلاً، شغل مكتبه في ساغامور هيل، وكان هذا ربما مكتب سكرتيره. يتم بيع أنطوني مجموعة من البضاعة على يد سمسار ذكي أراد زيادة قيمة العقار. المثير أن أنطوني كان يشتريه، مثلما يفعل الأشخاص المتحمسون لا الأذكياء. لو كان فرانك هنا، لضرب ابنه على رأسه وقال: "لديّ جسر في بروكلين سأبيعه لك".

تابع أنطوني قائلاً: "استطاع روزفلت النظر عبر هذه النوافذ والتحقق من اللافتات". ضحك، ثم قال: "هاي، هل تظن أنه كان لديه كوماري؟".

أذكر أن فرانك استخدم هذه الكلمة، وحين سألت سوزان، التي تتحدث لغة إيطالية مقبولة، عن معناها، قالت عرابة، لكن لا يبدو هذا المعنى صحيحاً في

السياق الذي استخدمه فرانك. لذا، سألت جاك واينشتاين، صديق فرانك اليهودي، ومترجمي مع المافيا، فقال جاك مبتسماً إن الكلمة تعني حرفياً عرّابة لكنها الكلمة التي يستخدمها الرجال المتزوجون للإشارة إلى صديقاتهم أو عشيقاتهم. مثل سأرى عرابتي الليلة. هذا مضحك.

هذيان. ثمة مثل آخر على كيفية استخدام الكلمة في عبارة: فرانك لديه عرابة اسمها سوزان.

سأل أنطوني: "ما رأيك؟ هل تظن أنه أنجز أعمالاً مهمة في مكتبه هنا؟".

"أظن أن كتب التاريخ كانت صامتة بشأن هذا".

"مؤسف جداً. على أي حال، سأطلب من شخص ما أن يتحقق من الجمعية التاريخية المحلية بشأن صور عن شكل هذا المكان حين كان روزفلت هنا. سنعيد نسخ المشهد".

سواء أأردت العمل أم لا في متحف، أقصد، سيكون هذا مكتباً على أي حال؟ في جميع الأحوال، سيكتشف أنطوني بعد مراجعة الجمعية التاريخية في أويستر باي أن روزفلت لم يعمل فعلاً هنا. بعد ذلك، ستكشف مراجعة سجلات الموتى في أويستر باي وجود سمسار ميت.

اقترح: "نحتاج إلى رأس موظ في هذا الحائط". ضحك، ثم أدخلني إلى غرفة أصغر حجماً، بدت مشابهة تماماً لغرفة النوم، إلا أنها بالية أكثر.

قال: "هنا ستجلس سكرتيرتك الخاصة". ثم شارك تصوّره معي وقال: "تضع أريكة كبيرة هنا وتحصل على بعض المتعة. جميل؟". ضحك.

كيف يمكن الحصول على صفقة أفضل؟ حميمية، ومال، وقوة، وحتى تاريخ.

ثمة مكتب وخزانة ملفات في هذه الغرفة، وسألت أنطوني: "من عاش هنا؟".

"وكيل أدبي". ثم أضاف: "تم طرده، لكن المستأجرين الآخرين يملكون عقود إيجار، وأحتاج إلى إخراجهم".

"قدّم إليهم عرضاً مناسباً". مثل، غادر أو تَمُت.

"صحيح. عرض جيد". قادني إلى المطبخ الصغير في آخر الشقة، وقال: "إذاً، نزيل هذا ونحوله إلى غرفة قهوة مع مشرب. ما رأيك؟".

"أظن أن إعادة التّرميم هذه ستجذب الكثير من الصحافة المحلية. هل تريد ذلك؟".

"صحافة جيدة لك. أنا شريك صامت".

"ليس لوقت طويل".

"أعرف كيف أفعل هذا كي لا يظهر اسمي أبداً إلى العلن. لا داعي للقلق بشأن ذلك".

"هل تحدثت مع السمسار، أنطوني؟".

"لا. أنطوني ستيفانو تحدث معه عبر الهاتف. وحين يأتي السمسار إلى هنا، اسمي أنطوني ستيفانو. أفهمت؟".

"يعرف الناس وجهك".

"ليس مثلما عرفوا وجه والدي. لست مشهوراً كثيراً. المشكلة هي الاسم، ولذلك لا نستخدم هذا الاسم. وإذا ظنّ أحد ما أن اسمي ليس ستيفانو، فلن يذيع ذلك. صح؟".

اقترحت عليه: "إذا استخدمت اسمك الحقيقي، فقد يخفض البائع السعر إلى مليونين".

ابتسم. "حقاً؟ لماذا جون؟".

"لا أعرف". ثم خطرت في بالي فكرة ذكية وقلت: "قد يشعر بالتوتر".

ابتسم مجدداً. يستمتع بوضوح بالقوة والمجد الناجمين عن كونه السيد بيلاروزا، وبفكرة ارتجاف الرجال خلال إنجاز العمل معه.

من جهة أخرى، لاحظت، أو تخيلت، حصول تبدل طفيف في ممارسات العمل في هذه المنظمة خلال العقد الأخير؛ أو أن أسلوب أنطوني يبدو مختلفاً جداً عما أذكره حين كنت عضوَ شرفٍ في العصابة.

على أي حال، مَن بقي على حاله هو أنا. هؤلاء الأشخاص لا يخيفونني. في النهاية، أنا جون ويتمان ساتر، وحتى أكثر الأشخاص غباءً يعرف أن هناك فئة من الأشخاص لا يفترض المساس بهم، ولهذا السبب، مثلاً، لا يزال المدّعي العام الأميركي ألفونس فيراغامو على قيد الحياة. المافيا لديها قواعد، ولا تحب الصحافة السيئة، أو أي صحافة على الإطلاق.

لكن حتى لو لم يكن هناك خطر الهزيمة، هناك دائماً خطر الإغراء أو الفساد أو الوقوع في الفخ. أظن أنني موجود هنا الآن. لكنني ذكّرت نفسي أنني هنا ليس بسبب أي إخفاق معنوي من جهتي، أو أي حاجة إضافية لإفساد حياتي؛ لأنني فعلت ذلك قبلاً. السبب هو سوزان.

هذه السيدة، طبعاً، تكون عادة على رأس لائحة عدم المساس، لكنها قتلت سيد المافيا.

لذا، ما أحتاج إلى فعله هو... ماذا؟

عاد أنطوني إلى الموضوع وقال: "أنا رجل أعمال شرعي. شركة بيل للمقاولات. ما حصل ربما في الماضي انتهى الآن. لكن إذا أراد الأشخاص الظن...".

"أنطوني. أرجوك. أنت تهين ذكائي".

بدا غير سعيد بمقاطعتي لهرائه، لكنه قال: "أقول لك ما تريد سماعه".

"لا أريد سماع هراء. أفضل شيء أستطيع سماعه منك حول هذا الموضوع هو لا شيء".

أشعل سيجارة، ثم قال لي: "حسناً".

"ماذا تريد مني؟ ولماذا؟".

جلس على عتبة النافذة، وسحب الدخان من السيجارة، وقال: "حسناً، هذه هي الصفقة الحقيقية؛ تحدثت مع جاك واينشتاين، محامي والدي القديم. تذكُرُه. إنه يحبك. قال لي إنه يجدر بي التحدث معك، وهذا ما فعلته. يقول إنك أذكى، وأصدق، وأنزه رجل تعامل معه في حياته. وهذه الشهادة من رجل يهودي ذكي ساعد والدي حين لزم الأمر. وإنما دائماً لمصلحة والدي. وقال لي جاك إنني أحتاج إلى رجل مثلك. للتحدث معه فقط. للحصول على بعض النصائح. مثلما فعل جاك مع والدي. شخص لا يكون زميلاً. هل تفهمني؟".

"تقصد، مثل مستشار؟".

"نعم. ويعني ذلك مستشاراً فقط. يظن الأشخاص أن هذا يعني... مثل شيء له علاقة بـ... الأشخاص في الجريمة المنظمة. إنها الكلمة الإيطالية لمستشار. المحامي اسمه مستشار. صح؟".

"إذاً، كانت هذه الوظيفة القديمة لجاك واينشتاين".

"نعم. ويقول جاك إنني أحتاج أيضاً إلى شخص مثل الرجال الذين كانوا يتبعون القياصرة ويهمسون في آذانهم: أنت مجرد رجل معرض للموت".

"هل هذه وظيفة بدوام كامل؟".

أجبر نفسه على الابتسام وقال: "هكذا كانت حينها. يذكّر ذلك الرجل قيصر بأنه رجل، وليس أكثر من ذلك. بمعنى آخر، حتى قيصر يجب أن يرتكب خطأ مثل أي شخص آخر".

"وتشعر أنك بحاجة إلى من يذكرك بهذا؟".

أجبر نفسه مجدداً على الابتسام وقال: "هذه هي حال الجميع. كل شخص ناجح. ويظن جاك أنني بحاجة ربما إلى هذا. هاي، يجدر بكل شخص في واشنطن أن يكون لديه مثل هؤلاء الرجال خلفه. صحيح؟".

"قد يفيد ذلك".

أتصور أن جاك واينشتاين، الرجل الذكي، فهم بسهولة أن الشاب أنطوني مغرور بنفسه. لكن جاك رأى الاحتمال الكامن في داخله، وإذا استطاع إبقاء أنطوني حياً لوقت كافٍ، يكبر النمر الصغير ويصبح قوياً، وربما ذكياً كفاية للحكم والقتل وإخافة أعدائه. رأى جاك، الرجل القوي البصيرة، أنه يجدر بجون ساتر استلام الوظيفة التي أداها هو في السابق مع فرانك، وربما الحلول أيضاً مكان والد أنطوني الميت. أقصد، هل يجدر بي الشعور بالإطراء للتفكير بأنني بديل أب محتمل لرجل شاب يتمثل طموحه في أن يكبر ليصبح خطيراً ومخيفاً مثل والده

الحقيقي؟ وإذا نجحت في هذا، قد يرغب أنطوني يوماً ما في إقامة علاقة مع زوجتي، إذا كان لديّ واحدة.

ثمة شيء من السخرية، وربما المهزلة، في الوضع كله؛ لكنه ليس مضحكاً. كان الوضع مضحكاً لو أن سوزان ليست في هذه الغرفة، لكنها هنا، ونعلم أنا وأنطوني ذلك.

قلت له: "إذاً، هذا ما يظن جاك أنك بحاجة إليه. مستشار وشخص يقول لك متى يكبر رأسك كثيراً. ماذا تظن أنك تحتاج مني؟".

"أحتاج إلى شخص أستطيع الوثوق به، شخص ليس له روابط مع عملي. شخص لا يستطيع الربح من خسارتي. أحتاج إلى دماغك ونصيحتك".

تأثر والده أيضاً بأصلي، ودرجة احترامي، وشركتي القانونية نظيفة السمعة. لا يزال أصلي موجوداً، لكن أنطوني غير مهتم في ذلك. إنه يشتري الدماغ والأكرات اليوم. سألته: "نصيحة في ماذا؟".

"في أي شيء أحتاج إلى نصيحة بشأنه".

"لكنني سأسمع حينها أشياء لا أريد سماعها".

"لن يحدث ذلك". ثم أضاف: "وحتى لو حصل، لدينا علاقة محامٍ وزبون".

"حقاً؟".

"يعود هذا إليك أيها المستشار".

"ما السعر؟".

"مئتان كل سنة. هذه أتعاب سنوية. ويمكنك فعل أي شيء آخر تريده لجني المال. مثل العمل على استرداد أصول والدي. أو قانون الضرائب. في الواقع، أحتاج إلى محامي ضرائب".

فكرت في أنه يحتاج إلى رجل دين، وضربة على مؤخرته من أمه أكثر مما يحتاج إلى مستشار، أو إلى شخص يخبره أنه أصبح مغروراً بنفسه. وقد تكون هذه أول نصيحة مني له. في غضون ذلك، سألته: "هذا فقط؟".

"هذا كثير. تحصل على هذا المكتب أيضاً".

"هل أستطيع رفض رأس الموظ؟".

ابتسم ووقف، ورمى سيجارته في المغسلة. "طبعاً. إذاً؟".

"حسناً... دعني أفكر في الأمر".

"هذا كل ما أريده منك". ثم أضاف: "أعرف أنك ستتخذ القرار الصحيح".

"يمكنك التأكد من ذلك".

"واتصل بجاك واينشتاين. يريد أن يسلّم عليك. إنه في فلوريدا. قد ترغب في الذهاب إلى هناك لزيارته".

لم أجبه على ذلك وقلت: "يومي مشغول جداَ. شكراَ على النزهة".

"نعم. اذهب واعثر على طوني. سيعيدك إلى المنزل".

"أحتاج إلى التمارين الرياضية".

دخلنا إلى غرفة الجلوس، وتوجهت نحو المدخل. قلت له: "إذا أخذت هذا المكتب، تبقى المكتبة في الأسفل. بالإيجار نفسه".

لم يجب.

سألته: "هل اعتذرت من تلك النادلة؟".

"لا".

"هل أنت قادر على تقبل أي نصيحة؟".

"نعم. حين أثق وأحترم الشخص الذي يعطيها".

"أتمنى أن تجد هذا الشخص".

"وجدته. جاك واينشتاين. ووالدي. الأول يموت والثاني مات. أحالاني إليك".

"حسناً. ولا تبدو قلقاً جداً مع السمسار. يشعر بك الأشخاص، حين ترغب بقوة في أمر ما لدرجة أنك مستعد لدفع أي شيء للحصول عليه. تأكد من أن هذا ما تريده. واسأله عن قصته بشأن المبنى. فهمت؟".

"فهمت".

غادرت.

الفصل السابع عشر

حسناً، إذا كانت حساباتي صحيحة، أستطيع أن أصبح مليونيراً إذا رتّبت صفقة المنزل بين سوزان وأمير نسيم، ثم استرددت أصول البيلاروزا التي استولت عليها الحكومة.

لا يبدو أي من هذين الهدفين سهل المنال، لكنني أملك عرض وظيفة مهم بين يديّ؛ مستشار للسيد أنطوني بيلاروزا. كيف يبدو ذلك في سيرتي الذاتية؟ هل سيتأثر رفاقي في كلية القانون باجتماعي التالي؟

لقد عرفت أشخاصاً - مثلي - التزموا بالقوانين معظم حياتهم، ثم حصل شيء مريع لهم جعلهم يفقدون ثقتهم بالقانون أو بالوطن. ينفتح هؤلاء الأشخاص بعدها على الإغراءات، وقد يصبحون مرشحين بارزين للسقوط.

حسناً، أستطيع تبرير أي سلوك أو أي قرار سيئ، لكن في نهاية اليوم، أحتاج لأن أقرر من يكون جون ساتر.

في البداية، أحتاج إلى تنظيف الحمام. ستصل إليزابيت ألارد قريباً إلى هنا.

لم أعتد على تنظيف أي شيء؛ ولا حتى عندما كنت في الجيش، حيث كنت ضابطاً. إلا أنني نظفت مركبي، ولذلك لست غريباً على السيد تنظيف.

انتهيت من تنظيف الحمام في الطابق العلوي، ثم رتبت غرفة نومي في حال أرادت إليزابيت فعلاً رؤية غرفتها القديمة.

على افتراض أننا سنُخرج بعض الأغراض، ارتديت سروال جينز وقميص بولو، وانتعلت حذاءً رياضياً.

دقّت الساعة في المطبخ معلنة أنها الرابعة تماماً، ثم الرابعة والربع. شغلت نفسي بمراجعة الأوراق في غرفة الطعام، مما أبقى عقلي بعيداً عن... حسناً، إليزابيت.

بعد دقائق قليلة، رنّ جرس الباب. إذا عاد حظي السيئ، تكون هذه سوزان. وإلا، تكون إليزابيت. الحظ السيئ فعلاً يكون ظهورهما معاً.

توجهت إلى الباب لكنني لم أنظر عبر العين السحرية لرؤية من أحضر القدر إلى عتبة بابي.

فتحت الباب... لإليزابيت. ابتسمت وقالت: "فلندخل إلى صلب الموضوع ونقيم علاقة حميمة".

أو بالأحرى قالت: "آسفة لأنني تأخرت. زحمة سير".

على افتراض أنها قالت العبارة الثانية، أجبتها: "زحمة سير يوم السبت مزعجة دائماً"، ثم تعانقنا وتبادلنا القبلات ودخلت.

كانت ترتدي سروال جينز وقميصاً قطنياً أزرق اللون كتب عليه سميث، ولا أعتقد أنه اسمها المستعار، وإنما على الأرجح اسم الكلية التي تخرجت منها ابنتها وتنتعل حذاءً رياضيًّا. قالت: "ارتديت ثياباً للعمل".

"جيد. وأنا أيضاً".

ثم قالت: "لكنني أحضرت معي ثياباً أخرى في حال سمحت لي بتناول العشاء معك لاحقاً".

تسابقت مجموعة من الصور في عقلي؛ ثياب على الأرض، الحمام، المغطس، غرفة النوم، السرير...

"إلا إذا كنت منشغلاً".

"منشغل؟ لا. أنا حرّ". ذكّرتها: "عدت للتو إلى هنا".

ابتسمت، ثم ألقت نظرة حولها وقالت: "لم يتغير أي شيء هنا".

قلت لها: "لا. لكنني سررت برؤية هذا. حضرت القهوة".

"جيد".

وضعت حقيبتها القماشية الكبيرة على الأرض، واصطحبتها إلى المطبخ. سألتني: "كيف تتدبر أمورك هنا".

"بخير. كان لطفاً من أمك أن تمدد لي دعوة مفتوحة".

"إنها تحبك".

"لست واثقاً من ذلك".

ابتسمت إليزابيت مجدداً وقالت: "لا تظهر دائماً مشاعرها".

"لديّ أم مثلها".

سكبت القهوة في فنجانين وسألتها: "كريما؟ سكر؟".

"سوداء". ثم سألت: "كيف حال أمك؟".

"تحدثنا مرتين منذ عودتي، لكنني في الحقيقة لم أرها بعد".

"حقاً؟ لا أتخيل عدم رؤية ولديّ لحظة عودتهما من رحلة".

فكرت في ذلك وأجبتها: "لم أرَ كارولين بعد أيضاً، وهي على مسافة خمسين دقيقة بالقطار في بروكلين".

"حسناً، لقد عدت فقط منذ... كم من الوقت؟".

"أسبوعين تقريباً. لمَ لا نجلس على المصطبة؟".

خرجنا عبر الباب الخلفي وجلسنا على كرسيين حديديين كانت الطاولة من الحديد القديم نفسه، وتذكرت أن جورج كان يكشط المفروشات ويدهنها كل ربيع.

قالت إليزابيت: "كان أبي وأمي يتناولان قهوة الصباح هنا كل يوم تقريباً".

"هذا جميل جداً. كيف حالها؟".

"بدت جيدة هذا الصباح. أفضل من المعتاد".

حسب خبرتي، هناك دائماً علامة جيدة مع المرض المميت، لكنني قلت لها: "أنا مسرور لسماع ذلك. كنت سأمرّ لرؤيتها اليوم، لكن... كان لديّ موعد في أويستر باي".

أومأت إليزابيت برأسها ونظرت حولها وقالت: "المكان هادئ جداً هنا. أحببت الترعرع هنا. كان أشبه... بمكان منعزل مع جدار حوله... يبقي العالم الخارجي بعيداً".

"أظن أن هذا هو الهدف".

سألتني: "هل أحببت العيش في منزل الضيوف؟".

"فعلت ذلك بعد انتقال آل ستانهوب إلى كارولينا الجنوبية".

ابتسمت، لكنها لم تقل شيئاً مثل "كم كانوا حقيرين". أفترض أنه بعد سنوات من العيش هنا بصفتها ابنة عمال الأرض، تعلمت عدم قول أي شيء مهين بشأن سيد وسيدة القصر. إلا أنني تابعت: "لو لم يحقق ويليام ضربة الحظ، لكان ينظف الحمامات في محطة بين".

"اهدأ، اهدأ، جون".

"آسف. هل كان هذا بغيضاً؟".

"أنت أكبر من هذا".

"صحيح. ولكانت شارلوت تبتدع الحيل في الجادة الثامنة".

قمعت ابتسامة، ثم بدّلت الموضوع وقالت: "تبدو أشجار التفاح البري جيدة".

"أظن أن نسيم طعّمها ورشها بالمبيدات وخصّبها".

"أذكر أنني كنت أقطف التفاح البري طوال أسابيع لتتمكن أمي من تحضير الهلام".

أذكر في الواقع إليزابيت وهي مراهقة شابة تتسلق الأشجار في ذلك الصيف الذي تزوجنا فيه أنا وسوزان وانتقلنا للعيش في منزل الضيوف. أذكر أيضاً أن إليزابيت ذهبت إلى مدرسة داخلية، ولم أعد أراها كثيراً. وبالنسبة إلى قسط إليزابيت في المدرسة الداخلية - وكذلك قسطها الجامعي - فكانت إيثيل تؤمّنه بوساطة علاقتها الخاصة مع أوغسطس حتى بعد مرور وقت طويل على انتهاء العلاقة.

على أي حال، قلت لها: "يذكّرني ذلك أن هناك علباً من هلام التفاح البري في الطابق الأرضي لك".

“أعرف. لكنني لا أحبه”. ضحكت وتابعت: “بعد سنوات من القطاف والغسل والسلق والتعليب... حسناً، لكنني سآخذها”.

“أخذت مرطباناً”.

“خذ آخر. خذ علبة”.

ابتسمت.

جلسنا هناك لدقيقة نراقب المنطقة، ثم قالت إليزابيت “وعدت أمي بحصاد الحديقة. لكن... قد ترحل قبل أن تصبح جاهزة للحصاد”. ثم سألتني: “هل تحدثت إلى... ما اسمه؟”.

“أمير نسيم. نعم، فعلت. يبدو رجلاً محترماً كفاية، وليس لديه مشكلة في بقائي طوال الصيف، لكن... يريد استرداد أملاكه في الأول من سبتمبر، إلا إذا كانت إيثيل لا تزال... معنا”.

أومأت برأسها، ثم سألتني: “هل سألته إذا كان يريد بيع منزل الحراسة؟”.

“فعلت. يريد إبقاءه لنفسه”.

“حسناً، هذا مؤسف. أقصد أنه عند الجلوس هنا أسترجع الماضي... أحببت فعلاً هذا المكان. هل تظن أنه قد يبدّل رأيه؟”.

لم أر سبباً لإبقاء مخاوف نسيم سراً، ولذلك أجبتها: “لديه بعض الإجراءات الأمنية”.

“ماذا يعني ذلك؟”.

“أظن أنه يعتقد أن أشخاصاً من دولته القديمة قد يأتون لإيذائه”.

“يا الله... من أين هو؟ من إيران؟”.

“نعم. قد يكون مصاباً بجنون الارتياب. وإذا كان محقاً، قد يصبح منزل الحراسة متوافراً بعد اغتياله وتسوية أمور ممتلكاته”. ابتسمت لطريقة مزاحي.

فكرت إليزابيت في كل ذلك، ثم قالت: “هذا لا يصدق...”.

“أظن ذلك أيضاً. لكن على أي حال، أظن أنه يريد إسكان رجال أمنه في منزل الحراسة”. فكرت في إخبارها عن رغبة نسيم في شراء منزل سوزان، لكنني قررت عدم التطرق إلى اسم سوزان أساساً. أبقيت الحديث بدلاً من ذلك خفيفاً وسألتها: “ألا يوجد قانون محلي ضد الاغتيال السياسي؟”.

أجبرت نفسها على الابتسام، لكنها انزعجت بوضوح من الخبر، وخاب أملها لأن منزل الحراسة ليس للبيع.

وقفت وقلت: “انتظري هنا”. ذهبت إلى حديقة المطبخ وعدت أحمل اللافتة الخشبية من أسفل عصا نصف مهترئة. سألتها: “هل تذكرين هذا؟”.

ابتسمت وقالت: “نعم. هل أستطيع الحصول عليها؟”.

“طبعاً”. وضعت اللافتة على الطاولة، ونظرنا كلانا إلى الطلاء الباهت والمتقشر. لقد اختفت الأحرف السوداء تقريباً، لكنها تركت حدودها على الخلفية البيضاء ويمكن لفظ الكلمتين حديقة النصر.

سألتني إليزابيت: “هل تظن أنه يجدر بي وضع هذه على قبر أمي؟”.

“ولمَ لا؟”.

أومأت برأسها وقالت: “سيرحل قريباً كل جيل الحرب العالمية الثانية”.

“صحيح”. كنت متحمساً خصوصاً لرحيل ويليام ستانهوب. أقصد، لا أتمنى له أي أذى، لكن الحقير العجوز في أواخر السبعينيات، ولم تعد له أي فائدة.

في هذا الموضوع، شارك ويليام فعلاً في الحرب العالمية الثانية، ما يجعله فرداً من الجيل العظيم، ولكن بالكاد. لم يتحدث كثيراً عن تجاربه في الحرب، لكن ليس لأنه تعرض للصدمة من الحرب. في الواقع، عرفت من إيثيل ألارد أن ويليام ستانهوب خاض فعلياً حرباً سهلة.

ومثلما سردت لي إيثيل القصة ذات يوم، كان مديرها والمحسن إليها أوغسطس ستانهوب قد باع يخته البالغ طوله خمساً وسبعين قدماً، قنفذ البحر، إلى الحكومة بدولار واحد، مثلما فعل العديد من الأغنياء على طول الشاطئ الشرقي خلال هذه المرحلة الوطنية الطارئة - لا يمكنك توفير الوقود له على أي حال - وتم تحويل قنفذ البحر من قبل حرس الشواطئ ليصبح مركباً لمراقبة الغواصات المعادية. بعدها، انضم ابن أوغسطس، ويليام، إلى حرس الشواطئ، وفي ما يمكن اعتباره مصادفة مذهلة، تم تعيين الملازم ويليام ستانهوب للعمل على متن اليخت السابق لآل ستانهوب. في ضربة حظ أخرى، تم إرساء قنفذ البحر في نادي يخوت سيوانهاكا الكورينثي، وبما أن ويليام لم يشأ استعمال المساكن الحكومية الهزيلة، استقر فعلياً في ستانهوب هال. كان ويليام يذهب في جولات على اليخت لمراقبة الغواصات المعادية، وحسب الشخص الذي تتحدث إليه - ويليام الذي لا يخاف شيئاً أو إيثيل الحمراء - صادف أو لم يصادف بواخر ألمانية. لم يصادفها على الأرجح، وقد أمضى قسماً كبيراً من وقته في كرمة مارثا أو في الهامبتون.

في غضون ذلك، كان جورج يخوض الحرب الأكثر خطورة في المحيط الهادئ، واستفاد والد ويليام، أوغسطس، من الظرف لمغازلة إيثيل التي ساعدت الحرب بزرع نباتاتها في حديقة النصر.

وها نحن الآن.

نحن نصل نوعاً ما إلى نهاية حقبة، لكن هذه المآسي القديمة لم تصل فعلياً إلى نهاية، لأنه مثلما قال أحدهم، الماضي هو مقدمة للمستقبل، واختصار لضربة نيزك وانقراض جماعي، المآسي التي ينقلها كل جيل إلى الجيل التالي.

سألتني إليزابيت: “بماذا تفكر؟”.

“في... الأجيال التي عاشت هنا، في الحرب والسلام”.

أومأت برأسها وقالت: "من كان ليظن أننا في العام 1945 سنصبح محاطين بالتقسيمات، وأن رجلاً إيرانياً سيعيش في ستانهوب هال؟".

لم أجبها.

سألتني: "هل رأيت ماذا حصل للحمرا؟".

"لمحت ذلك".

"هذا مريع. هل تذكر العقار...؟ أوه، نسيت... آسفة".

"لا يزعجني ذلك فعلاً".

"جيد". نظرت إليّ، وترددت، ثم قالت: "ظننت أنه يزعجك".

"ربما لأنني عدت".

"هل ستبقى؟".

مجدداً، السؤال الأساسي، وكما هي الحال مع أنطوني بيلاروزا، يمكن للجواب أن يحدد جزئياً ما إذا كنا سنناقش أنا وإليزابيت أموراً مهمة. أجبتها: "سأعطي نفسي مهلة بضعة أشهر، ثم أتخذ قراراً أكثر اطلاعاً".

"وماذا سيحلّ برأيك خلال أشهر قليلة لمساعدتك على اتخاذ هذا القرار المطلع؟".

"هل تسخرين مني؟".

ابتسمت. "لا، لكن هذا رجولي بحت؟ قرار مطلع. كيف تشعر؟ الآن".

"أريد الذهاب إلى الحمام".

ضحكت. "حسناً. لم أشأ التطفل".

"جيد". وقفت وسألتها: "هل أنت مستعدة للشروع في عمل الأوراق؟".

وقفت أيضاً، وفيما توجهنا نحو باب المطبخ، سألتني: "كم سيستغرق ذلك؟".

"أقل من ساعة. ومن ثم ساعة ربما لتحميل سيارتك بالأغراض الشخصية التي قد ترغبين في أخذها الآن".

ألقت نظرة على ساعتها وقالت: "أودّ شرب شيء ما عند الساعة السادسة".

"هذا جزء من خدمتي".

فتحت الباب لها ودخلت.

فيما لحقتها، تذكرت أننا نملك نحن الاثنان العديد من الذكريات في ستانهوب هال - جيدة وسيئة - بحيث مهما حصل اليوم - سواء أكان جيداً أم سيئاً - سيكون عاطفياً ومتأثراً بالأشخاص الآخرين، الأحياء والموتى، الذين لا يزالون هنا بشكل أو بآخر.

الفصل الثامن عشر

جلسنا جنباً إلى جنب على طاولة غرفة الطعام، وأنا، بطريقتي المنظمة والمهنية، عرّفت بالوثائق، وقدمتها إلى إليزابيت لتقرأها، وشرحت الكلمات عند الضرورة. كانت تضع عطراً لطيفاً برائحة الليلك.

قالت لي: "أنا سعيدة لأنك أنت من تقوم بهذه المهمة جون".

"وأنا مسرور لأنني قادر على فعل ذلك".

"هل عدت فقط من أجل هذا؟".

"حسناً، جئت لرؤية أمك طبعاً". ثم أضفت: "وأحتاج إلى إخراج أغراضي من هنا".

قالت لي من دون أي تردد: "يمكنك نقل أغراضك إلى منزلي. لديّ مساحة كبيرة".

"شكراً. قد أستفيد من هذا".

ترددت ثم قالت: "أستطيع إعطاءك غرفة؛ لكن حكم طلاقي يجعل نفقتي الزوجية مرتبطة بعدم مساكنتي لأي كان".

مازحتها قائلاً: "دعيني أرى حكم الطلاق هذا".

ابتسمت ثم أوضحت: "أقصد أننا لن نتساكن؛ لكنني أمنحك غرفة فقط... مثلما فعلت أمي. لكن طوم سينتهز الفرصة ما إن يكتشف الأمر".

"يمكنك إخبار طوم أنني من فريقه".

ضحكت وقالت: "لديك سمعة، كونك زير نساء مشهوراً".

ابتسمتُ.

بقيت صامتة لفترة قبل أن تفكر في صوت عال: "حسناً... إنه حكم طلاق تافه لبضع سنوات فقط...". ثم قالت لي: "إذا كنت تحتاج فعلاً إلى مكان، يمكنك استعمال غرفة الضيوف عندي".

"شكراً. وأصرّ حينها على دفع إيجار لك مواز لنفقتك الزوجية التافهة". ثم ذكّرتها: "سأستخدم هذا المكان لفترة، وعليّ بعدها العودة إلى لندن لترتيب الأمور هناك".

أومأت برأسها، ثم عدنا إلى العمل بالأوراق.

صادفتُ صك ملكية مؤرخ في 23 أغسطس 1943 يتحدث عن تفريغ لمدى الحياة من السيد أوغسطس فيليب ستانهوب، صاحب الملكية، إلى السيدة إيثيل هوب ألارد، خادمة المنزل، وزوجها، السيد جورج هنري ألارد، الذي كان يخدم حينها ما وراء البحار مع القوى المسلحة للولايات المتحدة.

أستطيع إذاً الافتراض أن السيد ستانهوب والسيدة ألارد بدأا قبل هذا التاريخ علاقتهما الحميمة التي أفضت إلى هذا التفريغ الكريم. من الناحية القانونية، يعتبر هذا التفريغ مدعوماً جلياً بالحصول المتكرر على خدمات كافية بالرغم من أن هذه الخدمة الخاصة من السيدة ألارد إلى السيد ستانهوب لا يمكن وصفها بصراحة في هذا المستند.

في هذا الموضوع، هل تساءل أحد عن كرم أوغسطس ستانهوب في ذلك الوقت؟ فحتى اليوم، تدق الأجراس ناقوس الخطر. إلا إذا تم إبقاء الأمر سراً إلى حين موت أوغسطس، وإيضاح إيثيل للموضوع أمام ويليام ستانهوب قبل أن يفكر في التخلص من آل ألارد، أو قبل أن يطلب حسم إيجار من راتبها الضئيل.

تساءلت أيضاً متى علم جورج ألارد أنه يعيش لمدى الحياة في منزل الحراسة لآل ستانهوب من دون أي إيجار؟ وكيف شرحت إيثيل الأمر لزوجها الجديد حين عاد من الحرب؟ "جورج، لديّ أخبار جيدة، وبعض الأخبار السيئة".

على أي حال، عرف ويليام، في مرحلة ما، بشأن حق السكن لمدى الحياة في ملكيته الموروثة حديثاً، وكان هذا بمثابة طعنة مستمرة في خاصرته، خصوصاً حين عرض العقار للبيع وتوجب عليه الكشف عن هذه المدة غير المعروفة. أذكر أن فرانك بيلاروزا، حين اشترى ستانهوب هال، لم يكن متحمساً لوجود إيثيل على أرضه، كان جورج قد توفي حينها. لكن فرانك قال لي بطريقة فلسفية: "ربما إنها محظوظة. ولكم من الوقت ستعيش؟". الجواب: عشر سنوات أكثر منك، فرانك.

على أي حال، لم يكن هذا المستند على علاقة بالعمل الذي ننجزه، ولذلك أعدته إلى مغلفه. لكن إليزابيت سألتني: "ما هذا؟".

"آه، حق سكن أهلك لمدى الحياة في هذا المنزل. يجب أن يبقى هنا إلى أن يصبح غير صالح عملياً".

"هل أستطيع رؤيته؟".

"حسناً... طبعاً". وضعته أمامها، وقرأت المستند المؤلف من صفحة واحدة، ثم أعادته إليّ. قلت لها: "ثانياً، علينا...".

"لماذا أعطى أوغسطس ستانهوب برأيك أهلي حق السكن لمدى الحياة في هذا المنزل؟".

"مثلما يقول، للخدمة المخلصة والمتفانية".

"كانا في العشرينيات آنذاك".

"صحيح. لم يقل خدمات طويلة".

"ما الذي لا أفهمه؟".

آه، لا تريدين معرفة ذلك إليزابيت. اقترحت عليها: "عليك سؤال أمك". تصفّحت بعض الأوراق وقلت لها: "حسناً، هذه هي آخر ثلاث عائدات ضريبية

فدرالية تعود إلى أمك...".

"قالت أمي إن هذا كان مكافأة على خدمة طويلة".

توجب عليّ الإجابة بالحقيقة البسيطة أو بكذبة خفيفة، فلم أختر أياً من الأمرين وتابعت قائلاً: "عليك الاتصال بمحاسب أمك...". ألقيت نظرة عليها ورأيتها تنظر إلى حافة الموقد، إلى الصورة الكبيرة المؤطرة لوالديها يوم زفافهما.

تابعت: "تملك أمك بوليصة تأمين على الحياة تستحق قيمتها عند الوفاة بمبلغ عشرة آلاف دولار. هذه هي البوليصة، وعليك حفظها في مكان آمن".

نظرت إليزابيت بعيداً عن الصورة وقالت: "كانت جميلة جداً".

"في الواقع نعم. ولا تزال".

"بدا والدي وسيماً جداً في تلك البذلة البيضاء".

نظرت إلى الصورة ووافقت معها: "كانا ثنائياً جميلاً".

لم تجب، وحين ألقيت نظرة عليها مجدداً، رأيت الدموع في عينيها. جون ويتمان ساتر، الذي أنجز هذا النوع من العمل قبلاً، كان مستعداً، وأخرجت منديلاً نظيفاً من جيبي ووضعته في يدها.

مسحت عينيها وقالت: "آسفة".

"لا بأس. دعيني أحضر لك بعض الماء". وقفت ودخلت إلى المطبخ.

مثلما قلت، لقد فعلت هذا لكسب المال ذات مرة. في معظم الأوقات، كنت محامي ضرائب وول ستريت في المدينة، لكن في مكتبي في لوكوست فالي، عملت في الوصايا، والودائع، ووكالات الرعاية الصحية، وهذا النوع من الأمور. كان نصف زبائني من الأرامل العجوزات الثريات والرجال العجائز النكدين الذين يمضون الكثير من الوقت وهم يفكرون في الأشخاص الواجب ذكرهم في وصاياهم قبل حرمانهم من الميراث بعد أسبوع واحد.

كما أن الوصية الأخيرة، بالترافق مع الأوراق المرتبطة بها، كانت تكشف أحياناً سراً عائلياً أو اثنين؛ أخاً معوَّقا، ولداً غير شرعي، عشيقتين في مانهاتن، وما إلى ذلك. تعلمت كيفية التعامل مع هذه الأمور بحكمة مهنية، بالرغم من أنه بين الحين والآخر، كنت أصدم، وأتفاجأ، وأحزن، وأحياناً أضحك.

لم يكن زنى إيثيل ألارد مهماً كثيراً في المخطط الإجمالي للأمور، خصوصاً بعد مرور نصف قرن من الزمن. لكنها دائماً صدمة كبيرة للولد الكبير حين يكتشف أن أمه كان لديها عشيقاً، فيما البابا يغوص في مستنقع نتن.

على أي حال، إليزابيت، المطلقة، مع ولدين كبيرين، ووالدٍ متوفٍ، وأم على فراش الموت، كانت ربما وحيدة، ومرهقة حتماً عاطفياً، وبالتالي هشة.

لذا... ملأت كأساً من ماء الصنبور. لذا، لا يفترض أن يحصل أي شيء الليلة نندم عليه لاحقاً، أو نشعر بالذنب بسببه في الصباح. صح؟

عدت إلى غرفة الطعام ولاحظت أن إليزابيت استعادت رباطة جأشها. أعطيتها الماء واقترحت عليها: "فلنأخذ استراحة. هل تودّين القيام بنزهة؟".

"أريد إنهاء هذا. سأكون بخير".

"حسناً".

انتهينا من الأوراق السطحية، وفتحت المغلف الذي كان يحتوي على وصية إيثيل الأخيرة. قلت لها: "أعددت هذه الوصية بعد موت والدك، وأرى أنه تم حفظها جيداً خلال الأعوام الماضية". سألتها، وأنا مستمر في نبرتي المهنية: "هل قرأت هذه الوصية؟".

"نعم".

"هل تريدين مراجعة الوصية معها؟".

"لا أريد قراءة وصيتها أمامها وهي على سرير الموت".

"أفهم". ولا أريد أن تزيد إيثيل حصة الخمسمئة دولار للرعية. قلت: "سأحتفظ بهذه النسخة هنا إلى أن يحين الوقت".

أومأت إليزابيت برأسها ثم قالت: "لم تترك لك أي شيء".

"ولمَ تفعل ذلك؟".

"لكل ما فعلته لها ولأبي".

أجبتها: "الأشياء القليلة التي فعلتها كانت بحكم الصداقة. وردّت لي أمك الخدمة بالسماح لي باستخدام هذا المنزل لتوضيب أغراضي". بالرغم من أنها فرضت عليّ إيجاراً حين عشت هنا قبل عشرة أعوام، وأعادت للتو فرض الإيجار.

قالت إليزابيت: "أفهم. لكنني أشعر بتحسن إذا... أنا منفذة الوصية... دفعت لك أتعاباً".

تساءلت ما إذا كانت إليزابيت تظن أنني بحاجة إلى المال. أنا بحاجة إليه، لكنني لست معوزاً. في الواقع، جنيت مالاً كثيراً في لندن، لكنني حملت معي إلى لندن العادة الأميركية السيئة وهي الإنفاق أكثر من اللازم. وأنا الآن في إجازة ممددة غير مدفوعة.

إلا أن الأمور تتبلور. تلقيت عرضاً من شركة إيطالية - أميركية قديمة. لا كوسا نوسترا.

قالت إليزابيت مجدداً: "أشعر فعلاً بالتحسن إذا دفعت لك ثمن خدماتك المهنية".

أجبتها:"حسناً، لكنني سأحسم ثمن هلام التفاح البري".

ابتسمت وقالت: "والعشاء على حسابي الليلة".

"اتفقنا". كدّست عشرة ملفات أمامها وقلت لها: "خذي هذه معك وضعيها في مكان آمن. سأحاول زيارة إيثيل غداً أو يوم الاثنين".

سألتني: "هل انتهينا؟".

"بالنسبة إلى الأوراق، باستثناء الجردة التي أجريتها للممتلكات الشخصية، بما في ذلك ممتلكات والدك". أعطيتها ثلاث أوراق كتبت عليها بخط اليد جردة الحساب، ثم سألتها: "هل تريدين مراجعة هذا؟".

"ليس تماماً".

"حسناً. انظري إليها لاحقاً. في غضون ذلك، البند الرابع هو اثنان وستون دولاراً نقداً وجدتها في علبة السكاكر حين كنت أبحث عن سكاكر". وضعت مغلفاً أمامها وقلت لها: "إذا حسبت هذا والبند الرابع، يمكنك الحصول على المال النقدي الآن".

وضعت المغلف في حقيبتها القماشية من دون عدّ المال، وقالت: "سيشتري هذا قنينة شراب فرنسي جيدة".

"لا تشربي كل إرثك".

"ولمَ لا؟". ثم سألت مجدداً: "هل انتهينا؟".

"أوشكنا على ذلك".

أعطيتها مغلفاً آخر وقلت لها: "هذه هي تعليمات دفن أمك".

قالت لي إليزابيت: "لديّ أصلاً نسخة عن هذه مع تغييرات حديثة".

أحسست أن صبر إليزابيت بدأ ينفد قليلاً من استعدادات أمها الدقيقة للحدث الكبير. قلت لها: "حسناً، خذيها على أي حال".

رمت المغلف في حقيبتها القماشية وقالت: "أحبها، لكنها تصيبني بالجنون؛ حتى النهاية".

أجبتها: "أنا واثق من أن أولادنا يقولون الشيء نفسه عنا".

ابتسمت ثم قالت: "تذكرت - هذا هو المغلف الذي تريد مني أمي أن أعطيك إياه - تحدثت إليها ويبدو أنها تريدني أن أنتظر حتى ترحل".

أومأت برأسي، وأنا أفكر في أنها على الأرجح فاتورة الإيجار. أو تعليمات لما يجب ارتداؤه يوم دفنها.

وقفت وقلت: "انتهينا هنا. لكن عليك العثور على الفستان الذي تريد أن ترتديه أمك. في غضون ذلك، سأضع لافتة الحديقة في سيارتك، وأودّ منك أن تأخذي صورة والديك، وكل شيء آخر تودين أخذه معك الليلة".

وقفت هي الأخرى، ونظرنا إلى بعضنا، ثم سألتني: "هل ستصعد معي؟".

"لا. يجدر بك الدخول إلى غرفتها لوحدك. ويمكنك إلقاء نظرة على غرفتك القديمة".

أومأت برأسها، ثم قالت: "السيارة غير مقفلة". تركت غرفة الطعام واستطعت سماعها وهي تشق طريقها عبر الدرج الضيق والشاهق المؤدي إلى غرفتيّ النوم فوق.

لا أتفادى العلاقات الحميمية عادة، لكن هناك زمان ومكان لكل شيء. بما في ذلك العلاقات الحميمية. أنا أقرأ إليزابيت ربما بطريقة غير مناسبة، وهي ليست في مزاج للحميمية مع غريب وسيم آتٍ من وراء البحار.

"عزيزتي الآنسة بوست، أنا محامي سيدة عجوز على وشك الموت - كتبت لك عنها - وابنتها الجميلة هي منفذة وصيتها، ولذلك نحن نعمل عن كثب على ذلك. سؤالي هو: هل يجدر بي إقامة علاقة حميمية معها؟ (التوقيع) مرتبك في لونغ آيلند (مجدداً)".

أظن أنني أعرف ما ستقوله الآنسة بوست: "عزيزي المرتبك. لا. ملاحظة: ماذا حصل لزوجتك السابقة؟ ملاحظة أخرى: أنت متجه إلى المشاكل عزيزي".

على أي حال، نزعت الصورة المؤطرة عن الحائط من فوق حافة الموقد، ولاحظت كم كان ورق الجدران بالياً. مشروع ديكور جديد للسيدة نسيم.

حملت الصورة إلى الخارج حيث ركنت إليزابيت سيارتها رباعية الدفع قرب سيارتي التوروس، ولاحظت أنها من نوع بي أم دبليو، مما يوحي بدرجة معينة من النجاح المهني، أو بمحامي طلاق جيد. لاحظت أيضاً كيس ثياب معلق في الجهة الخلفية، وأعتقد أنه فستان عشاء إليزابيت لهذه الليلة.

فتحت الصندوق ووضعت الصورة على وجهها، ولاحظت وجود بعض الكتابة بخط اليد على الجهة الخلفية لها. سحبت الصورة نحوي، وقرأت الكلمات المكتوبة بقلم حبر سائل، بخط إيثيل على ما يبدو: "جورج هنري ألارد وإيثيل هوب بورفيس، تزوجا في 13 يونيو 1942 في لوكوست فالي، لوغ آيلند".

تحت هذا، وبالخط الأنثوي نفسه، "عد إلى المنزل بأمان، حبيبي".

تحت هذا، وبخط جورج، الذي تعرفت إليه أيضاً، "زوجتي الحبيبة، سأعدّ الأيام حتى نجتمع مجدداً".

دفعت الصورة إلى الأمام، وأغلقت باب الصندوق. حسناً، أتمنى أن يكونا معاً مجدداً عما قريب.

فكرت أيضاً، ربما بتشاؤم في أن كل الزيجات تبدأ بالأمل والتفاؤل والحب، لكن السنوات تلقي بثقلها. وفي هذه الحال، بحلول شهر أغسطس 1943، بعد أربعة عشر شهراً على كتابة كلمات الحب والإخلاص، استسلمت إيثيل للوحدة، أو الشوق، وأغراها المال والقوة - أذكر ذلك المشهد قبل عشرة أعوام في المدافن حين اختفت إيثيل عن قبر جورج، وعثرت عليها أمام قبر أوغسطس - ووقعت ربما في غرام أوغسطس ستانهوب. أو كل الاحتمالات الآنفة.

على أي حال، جعل جورج وإيثيل الزواج ناجحاً وبقيا معاً خلال نصف قرن، بسعادة، حسبما أظن، وعاشا في هذا المنزل الصغير معاً، وربيا ابنتهما وعملا

قليلاً في العقار الكبير الذي أبقت جدرانه ومساحاته الموحشة العالم الخارجي بعيداً، وأبقتهما، بطريقة غامضة، ثنائياً شاباً إلى الأبد، التقيا هنا، وقعا في الغرام، تزوجا، ولم يغادرا المنزل أبداً.

فيما كنت أمشي نحو ممر الحديقة الفاصل بين منزل الحراسة والحائط، سمعت سيارة تسير خلفي. استدرت لأرى سيارة لكزس بيضاء رباعية الدفع متوجهة نحو البوابات المفتوحة وتقودها سوزان ستانهوب ساتر.

أبطأت سيارة اللكزس سرعتها، ونظرنا إلى بعضنا. لقد شاهدت سيارة البي أم دبليو، طبعاً، وتعرف ربما إلى من تعود، لكن حتى لو لم تكن تعرف، فإنها أدركت أنني بصحبة شخص ما.

من الغريب النظر إلى الحبيب السابق في حياتك، إلى تلك العينين اللتين لم تعد ترغب في النظر إليهما، ولم أعرف ماذا أفعل. ألوّح؟ أرسل لها قبلة؟ آنسة بوست؟ ساعدوني.

كانت سوزان هي من لوّح، بطريقة غير مبالية تقريباً، ثم توجهت مسرعة نحو البوابات، وانعطفت يميناً نحو غرايس لاين.

لاحظت أن مزاجي تعكّر. لماذا لا تزال سوزان ساتر تؤثر في عقلي؟

أحتاج إلى الإجابة عن هذا السؤال بصراحة، قبل أن أمضي قدماً.

الفصل التاسع عشر

ملأت سيارة البي أم دبليو بالأغراض الشخصية العائدة إلى والديها التي أرادت أخذها هذه الليلة، مثل ألبومات الصور، وأشياء أخرى لا تقدّر بثمن ولا يمكن استبدالها. كدّسنا بقية الأغراض الشخصية، بما في ذلك بذلات جورج البحرية وثوب زفاف إيثيل، في الردهة لنقلها في يوم آخر.

كان الأمر محزناً جداً لإليزابيت، طبعاً، ووجدت نفسي أنا الآخر أفكر في الحياة والموت، وفي الأشياء التي نتركها وراءنا.

في إحدى رحلاتنا إلى سيارتها، أخرجت كيس فستانها وحقيبة ماكياجها وأخذتهما إلى غرفة أمها.

وحين دقت الساعة معلنة السادسة، كانت إليزابيت تجلس على كرسي أمها الهزاز في غرفة الجلوس، فيما أنا أجلس على كرسي جورج قبالتها. وعلى الطاولة الصغيرة، هناك لائحة جردة من ثلاث صفحات، علماً أنه تم التحقق الآن من معظم الأغراض. وعلى الطاولة أيضاً كان هناك كأسان من الشراب الفرنسي ملأتهما من قنينة بانفي برونيلو، واحدة من قناني الشراب الثلاث التي اشتريتها من لوكوست فالي بعد مغامرتي في أويستر باي مع أنطوني. اشتريت أيضاً قليلاً من الجبن والمكسرات المالحة من محل للأطعمة، وصينية بلاستيكية من خضار جاهزة ومقطعة. التزمت بجبن بري.

تناولت إليزابيت جزرة وقالت لي: "يجدر بك تناول الخضار".

"الخضار قد تسبب الاختناق".

ابتسمت، وأكلت الجزرة، ثم احتست شرابها.

كنا متعبين نحن الاثنان، مع القليل من العرق والغبار نتيجة التنقلات بين الطابق الأرضي والعلية، وكنا بحاجة إلى الاستحمام.

قالت لي: "حجزت طاولة في الساعة السابعة والنصف في الكريك. هل يناسبك هذا؟".

قلت لها: "أظن أنني شخص غير مرحب به هناك".

"حقاً؟ لماذا...؟ آه...؟ أظن أنه حين سوزان...".

أنهيت عبارتها: "... قتلت عشيقها سيد المافيا". ابتسمتُ وأضفت: "إنهم محدودو التفكير هناك".

أجبرت إليزابيت نفسها على الابتسام، ثم أبلغتني: "في الواقع، انضمت سوزان مجدداً إلى النادي. تناولنا الغداء هناك. لذا، قد لا تكون هذه مشكلة. لكننا نستطيع الذهاب إلى مطعم".

أنهيت شرابي، وسكبتُ آخر. فلأوضح الأمر، لقد تم الاستياء مني في الكريك لأنني أحضرت السيد فرانك بيلاروزا، سيد المافيا، وزوجته فائقة الأناقة، آنا، إلى النادي لتناول العشاء. لكن قتل سوزان لسيد المافيا ذاك هو الذي لم يلقَ الترحيب على الإطلاق. والآن، سوزان ستانهوب ساتر - علماً أن ستانهوب هي الكلمة المهمة هنا - تجرأت على التقدم لعضوية النادي وأعيد قبولها مجدداً. في غضون ذلك، إذا تقدمت أنا بطلب جديد، أنا واثق من أنه سيتم رفض طلبي.

إلا أنني قلت: "لا بأس في الكريك إذا كنت لا تمانعين تلقيك رسالة من مجلس الإدارة".

فكرت في ذلك وابتسمت وأجابت: "قد يكون ذلك ممتعاً".

فيما أعدت ملء كأسها، فكرت أيضاً في مصادفة جميع الأشخاص الذين كنت أعرفهم هناك، بما في ذلك سوزان. لكن ما الهم؟ قد يكون الأمر ممتعاً.

اقترحت إليزابيت: "أو يمكننا البقاء هنا".

نظرت إليها في الضوء الخافت، ومثلما قلت، لست جيداً في قراءة إشارات النساء، لكن إشارة إليزابيت كانت عالية وصريحة. أجبتها: "لنفكر في هذا".

"التفكير ليس ما نريد فعله".

أومأتُ برأسي، ثم بدّلت الموضوع. "لديّ شيء لك". وقفت، وذهبت إلى غرفة الطعام، وعثرت على صور سوزان لآل ألارد.

ركعت قرب كرسي إليزابيت وقلت: "التقطت سوزان معظم هذه الصور، وأريدك أن تأخذيها، بالرغم من أنني أودّ الاحتفاظ بنسخة منها".

أخذت كدسة الصور ونظرت إليها، مع ملاحظات ملائمة حول كل منها، مثل "لا أصدق كم كنا معاً في كثير من الأوقات... بالكاد أذكر هذه... آه، انظر، هذا تخرجي من الجامعة... وهذا أنت، جون، وذراعك حولي أنا وبابا... أوه، يا الله، هل كنت حمقاء أم ماذا؟".

"لا لم تكوني. سآخذ نسخة عن هذه الصورة".

"لا، لا".

"تبدين رائعة مع الشعر الأسود الأملس".

"آه يا الله... بماذا كنت أفكر؟".

صادفنا صورة تم التقاطها على المصطبة الخلفية لستانهوب هال، في مناسبة مجهولة أو منسية. وقفت في الصورة إيثيل، التي كانت لا تزال جذابة في أواخر خريف العمر، وجورج، الذي لا يزال شعره بُنيّ اللون، وأوغسطس ستانهوب، في أواخر أيامه، جالساً على كرسي هزاز مع بطانية على حضنه. وعلى حضنه أيضاً كانت هناك فتاة عمرها ست أو سبع سنوات، وأدركت أنها إليزابيت.

مازحتني: "هذه ليست أنا".

"إنها تشبهك".

حدّقت إلى الصورة ثم قالت: "اهتمت أمي به قبل أن يضطروا إلى استخدام ممرضات على مدار الساعة". وضعت إليزابيت الصورة على الطاولة مع بقية الصور وأضافت: "كانت أمي مولعة كثيراً فيه".

أجبتها: "كان رجلاً نبيلاً". ثم أضفت طبعاً: "على عكس ابنه".

أهملنا هذا الموضوع، وتابعنا النظر إلى كدسة الصور.

قالت إليزابيت في مرحلة ما: "لا أصدق، كم شخصاً مات من هؤلاء الأشخاص".

أومأت برأسي.

سألتني: "هل كنت سعيداً حينها؟".

"نعم. لكنني لم أعرف ذلك. ماذا عنك أنت؟".

"أظن أنني كنت سعيدة". ثم بدّلت الموضوع: "آه، هنا إدوارد وكارولين. إنهما ظريفان جداً".

وفيما تابعنا رحلة النظر إلى الصور الفوتوغرافية، فكرت في كم أن حياتنا تقاطعت نحن الاثنان لكننا ما زلنا نعرف القليل عن بعضنا.

بما أن سوزان التقطت معظم هذه الصور، لم تظهر في العديد منها، لكننا صادفنا صورة لسوزان وإليزابيت معاً، تم التقاطها في حفلة الميلاد السنوية في ستانهوب في القصر. حدّقت إليزابيت إليها وقالت: "إنها امرأة جميلة".

لم أعلّق.

تابعت إليزابيت: "كانت لطيفة جداً على الغداء".

لم أكن أنوي السؤال عن الغداء، ولذلك وقفت، وسكبت بقية الشراب في كأسينا.

انتهت إليزابيت من الصور وقالت: "سأنسخها لك".

"شكراً لك".

جلست صامتة لبرهة، وشربت شرابها، ثم قالت لي: "سمعت أن... ابن بيلاروزا انتقل إلى أحد منازل الحمرا".

أومأت برأسي.

بقيت صامتة مجدداً، ثم سألتني: "هل تظن...؟ أقصد، هل يمكن أن تكون هناك مشكلة لسوزان؟".

سألتها: "ما رأي سوزان؟".

ألقت إليزابيت نظرة خاطفة عليّ ثم قالت: "لا تظن ذلك". ثم أضافت: "لا تبدو مهتمة على الإطلاق".

“جيد”.

“لكن... حسناً، أنا قلقة”.

لم أجبها وفتحت قنينة الشراب الفرنسي الأحمر الثانية، من نوع كابريو إيل بورغو، وجلسنا بصمت، نشرب.

بدا أننا استنفدنا جميع الموضوعات الممكن التحدث فيها، أو لشرح الأمر بطريقة أخرى، توجب على أحدنا إثارة موضوع الحميمية أو العشاء. تطرقت إليزابيت قبلاً إلى هذا الموضوع، وأنا تجاهلته، لكنها حاولت بطريقة أخرى وأعلنت: “أنا في حالة يرثى لها لأقود السيارة”. سألتني: “هل تستطيع القيادة؟”.

“لا”.

“إذاً، فلنبقَ هنا”.

أستطيع طبعاً طلب سيارة أجرة لها، وهذا ما يفعله أي رجل شهم؛ أو رجل يحتاج إلى عذر بسيط. لذا، قلت لها: “فلنبق هنا”.

“هذه فكرة جيدة”. أنهت شرابها، ووقفت وقالت: “أحتاج إلى الاستحمام”.

وقفت أنا أيضاً وشاهدتها تتجه إلى الردهة، بتعثر قليلاً.

لم أكن واثقاً ما إذا كان يجدر بي اللحاق بها. “عزيزتي الآنسة بوست...”.

“عزيزي المرتبك. قم بما يفترض بالرجل أن يفعله”.

“صحيح”. توجهت إلى الردهة، ثم ترددت. بدا وكأنني تذكرت أنني قررت قبلاً أن إليزابيت مرهقة عاطفياً وهشة، ولا يجدر بي الاستفادة من ذلك. وعلى صعيد أكثر أنانية، لا أريد تعقيد حياتي في هذا الوقت. ويمكن أن تكون إليزابيت ألارد كوربر مصدر تعقيد أساسياً.

من جهة أخرى... أقصد، كانت هذه فكرتها هي.

قال عقلي لا، وقال قلبي ربما، وكانت عواطفي تقودني نحو الدرج. والعواطف تربح دائماً.

لكن أولاً، فتحت قنينة الشراب الثالثة، وأخذت الكأسين، وتوجهت نحو الدرج حيث سمعت باباً يغلق في الطابق الثاني.

شققت طريقي إلى الردهة الصغيرة. كان الحمام مباشرة أمامي، وغرفة أمها إلى اليسار، وغرفتي أنا - أي غرفتها القديمة - إلى اليمين. كانت كل الأبواب مغلقة، وفتحت بابي ولاحظت أنها ليست هنا. وضعت القنينة والكأسين على المنضدة. استطعت سماع صوت الدشّ في الحمام.

عشت هذه التجربة قبلاً، خارج باب حمام مغلق فيما السيدة في الداخل تستحم، ولا أملك دعوة شفوية واضحة لمشاركتها الاستحمام. “عزيزتي الآنسة بوست...”.

“هاي، أيها الغبي، انظر إذا كان الباب مقفلاً”.

“صحيح”. عدت إلى باب الحمام، وحاولت فتح الباب برفق. مقفل.

عدت إلى غرفتي، وتركت الباب مفتوحاً، وسكبت كأسين من الشراب، وجلست على الكرسي الكبير.

توقف الدشّ. فتحت نسخة من مجلة التايم، وارتشفت شرابي وقرأت.

بعد دقائق قليلة، فيما كنت أقرأ مقالاً مذهلاً حول شيء ما، سمعت باب الحمام يفتح، وأطلت إليزابيت برأسها عبر بابي، وهي تلف نفسها بمنشفة حمام كبيرة، وتجفف شعرها بمنشفة أخرى. قالت لي: “الحمام مجاني”.

“جيد”. وقفت وسألتها: “هل تشعرين بالتحسن؟”.

“مذهلة”. ثم استدارت ودخلت إلى غرفة أمها وأغلقت الباب. استطعت سماع صوت المجفف الكهربائي.

الحميمية للمرة الأولى هي أشبه بالرقصة الأولى. من يقود من؟ هل أرقص قريباً جداً أو بعيداً جداً؟ هل أحتاج إلى حمام؟ نعم.

ذهبت إلى الحمام، وتركت الباب غير مقفل، وخلعت ثيابي ورميتها في الزاوية فوق ثيابها، ثم دخلت إلى المغطس وأنا ما زلت غير واثق إلى أين سيقود ذلك.

بعدما انتهيت، جففت نفسي بآخر منشفة، ولففتها حول خصري، وخرجت إلى الممر. كان باب غرفتها لا يزال مغلقاً، لكن الجو أصبح هادئاً هناك. دخلت إلى غرفتي ووجدتها جالسة على كرسيّ، وهي تشبك ساقيها، وتشرب الشراب وتقرأ مجلتي، وترتدي قميصي القطني من فريق يال، ولا تضع أي شيء آخر، باستثناء القليل من الماكياج.

قلت لها: “تبدو هذه القميص جيدة عليك”.

“أتمنى ألا تمانع”.

أظن أنني عرفت إلى أين ستصل الأمور.

أخذت شرابي، وجلست على السرير مقابل كرسيها، وشربنا نخب بعضنا ثم ارتشفنا الشراب من دون كلام.

نظرت من حولها إلى الغرفة الصغيرة، والأثاث القديم، وورق الجدران الباهت، والسجادة البالية، والشراشف المصفرة بفعل الشمس، ثم قالت: “أمضيت أول واحد وعشرين سنة من عمري هنا”.

لم أجبها.

تابعت: “كنت آتي دائماً إلى المنزل خلال العطلات المدرسية”. ولاحظت أن صوتها كان متعباً قليلاً وغير واضح. “شعرت دائماً أنه منزلي... لطالما كان هنا... والآن، حان الوقت للانتقال”.

أومأت برأسي.

أعلنتِ: “أودّ النوم هنا الليلة”.

"طبعاَ".

مدّت ساقيها، ووضعت قدميها على حضني. قالت: "قدماي متقرحتان نتيجة كل هذه التنقلات".

وضعت شرابي جانباً، وفركت قدميها.

أرجعت رأسها إلى الخلف، وأغمضت عينيها وتمتمت: "واو... هذا رائع فعلاً".

مال قميصها القطني - أو بالأحرى قميصي القطني - شمالاً، ولاحظت أن السجادة متناسقة مع الشراشف.

أعطتني كأسها الفارغة، وملأتها مجدداً.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً، ولا يزال الضوء في الخارج، فيما أدخلت النافذة المفتوحة نسمة لطيفة وزقزقة العصافير. بين الحين والآخر، استطعت سماع سيارة تمرّ في غرايس لاين، لكن أياً منها لم يدخل إلى الممر المرصوف بالحصى.

أنهت شرابها، ووضعت قدميها على الأرض، ورفعت جسدها عن الكرسي.

وقفت أنا أيضاً، ووضعت ذراعيها حول كتفيّ، ودفنت رأسها في صدري العاري.

وضعت ذراعيّ حولها، وشعرت أنها مترنحة، وبالكاد هي واقفة، رفعتها ومدّدتها على الشراشف وألقيت برأسها على الوسادة.

حدّقت إلى السقف، ثم تلألأت الدموع في عينيها.

أخذت بعض المناديل من علبة على المنضدة ووضعتها في يدها، واقترح جون الطيب: "لمَ لا تنامين قليلاً؟".

أومأت برأسها، وسحبت البطانية من آخر السرير ووضعتها فوقها.

قالت: "أنا آسفة جداً".

"لا تكوني".

"أريد أن... لكن هذا... كثير. كل شيء. أنا حزينة جداً".

"أفهم". فهمت أيضاً أن إليزابيت تفكّر ربما في علاقتها مع سوزان، وعلاقتنا نحن الاثنين.

قالت "ربما في وقت لاحق".

لم أجبها.

"أنت تعجبني".

"أنت تعجبينني".

فتحت الخزانة الصغيرة، وعثرت على سروال، وقميص غولف، وأخرجت سروالاً داخلياً من الجارور. نزعت منشفتي، ولاحظت أنها كانت تراقبني. سألتني: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"إلى الأسفل". ارتديت سروالي الداخلي، وسروالي، وقميصي وسألتها: "هل تحتاجين إلى أي شيء؟".

هزّت رأسها.

"أراك لاحقاً". توجهت نحو الباب.

قالت: "قبّلني قبلة النوم".

عدت إلى السرير، وقبلتها على وجنتها، ثم على شفتيها، ومسحت عينيها بمنديل، ثم غادرت الغرفة، وأغلقت الباب.

نزلت إلى الأسفل، وأخرجت شراب شعير من البراد، وجلست على المصطبة الخلفية.

أصبح الليل بارداً، وألقت الشمس التي تغيب بظلال طويلة على العشب. في البعيد، إذا تجرأت على النظر، هناك منزل سوزان، وأعرف أن قُرب سوزان وحضورها الفعلي والصوري يسببان لي الصراع نفسه الذي ربما شعرت به إليزابيت.

كانت صراعاتي وحيرتي تتخطى مسألة النساء. تعاملي مع أنطوني بيلاروزا، مثلاً، تأثر بحضور سوزان، تماماً مثل عدم حسمي لفكرة بقائي هنا أو العودة إلى لندن، أو الذهاب إلى مكان جديد.

لذا، أحتاج إلى التحدث مع سوزان لإيضاح هذه المسائل، ولمعرفة كم تهمني؛ قليلاً أو كثيراً.

أنهيت احتساء شرابي، ووضعت قدميّ على الطاولة، ونظرت إلى السماء المظلمة. التلوث الخفيف نتيجة الأبنية المجاورة ألقى بوهج اصطناعي في الأفق. لكن المنظر فوقي كان مثلما أذكره، أزرق مائياً جميلاً مع وميضٍ ورديّ، وفي الشرق بدأت النجوم تومض في السماء الأرجوانية.

إلا أن صوت إطارات سيارة على الحصى قطع تحديقي إلى النجوم، والتفتّ فيما مرّت السيارة أمام منزل الحراسة ورأيت أنها سيارة لكزس بيضاء رباعية الدفع. توقفت، ثم تحركت ببطء نحو منزل الضيوف.

فصلت بيننا، طوال عشرة أعوام، محيطات وقارات، وها نحن الآن على مسافة دقائق قليلة عن بعضنا، لكننا لا نزال مفصولين بالغضب، والكبرياء، والتاريخ، الذي يصعب تخطيه أكثر من القارات والمحيطات.

شعرت دائماً أننا انفصلنا على عجل، من دون إجراء حساب كامل لسبب سلوكنا طريقين منفصلتين، ونتيجة ذلك، أظن أن أياً منا لم يتمكن فعلاً من المضي

قدماَ. نحتاج إلى إعادة تذكر الماضي، مهما كان ذلك مؤلماَ. والآن هذا هو الوقت لفعل ذلك.

الفصل العشرون

فيما عبرت أشعة الشمس جدار العقار، ودخلت عبر نافذة المطبخ، حضّرت إبريقاً من القهوة وأخذت فنجاناً إلى المصطبة حيث رأيت أربع قناني فارغة من شراب الشعير على الطاولة.

نمت في ثيابي على الأريكة، ورحلتي الوحيدة إلى الأعلى كانت لاستخدام الحمام. حسبما أعلم، لم تنزل إليزابيت أبداً إلى الأسفل.

ارتشفت القهوة من فنجاني الساخن جداً وراقبت ضباب الصباح يرتفع من المرج والحديقة.

ومثلما كنا نقول في الجامعة: "التيام بالأفعال الحميمية ليست أمراً مهماً، لكن عدم القيام بها هو أمر مهم جداً".

على صعيد أكثر إيجابية، كانت هذه الخطوة الصحيحة. لا تورّط، لا تعقيدات.

من جهة أخرى، مع أو من دون حميمية، تواصلنا أنا وإليزابيت على مستوى معين. إنها تروق لي، وهي جزء من ماضيّ، وبالتالي جزء محتمل من مستقبلي. أمضيت عشر سنوات وأنا أقيم علاقات مع الغرباء؛ لذا، من اللطيف ربما إقامة علاقة مع امرأة أعرفها. على الأقل، لديّ الآن مكان لأحفظ فيه أغراضي، وغرفة ضيوف إذا احتجت إلى واحدة. ولديّ صديقة، حسبما آمل.

سمعت الباب الخلفي يُفتح، واستدرت لأرى إليزابيت تمشي حافية القدمين على المصطبة الرطبة، وهي تلف جسدها بثوب استحمامي القديم وتحمل فنجان قهوة.

وخزتني على وجنتي وقالت لي: "صباح الخير".

"صباح الخير".

سألتني: "هل نمت جيداً؟".

"نعم. ماذا عنك؟".

"أنا... كان غريباً النوم في غرفتي القديمة". ثم أضافت: "رأيت أحلاماً محزنة... أنني فتاة شابة مجدداً... وأمي وأبي... واستيقظت بضع مرات وأنا أبكي".

أومأت برأسي ونظرت إليها، ثم أمسكنا بأيدي بعضنا. لا تزال تبدو حزينة جداً، ثم بدت أنها تريد تغيير الموضوع فقالت: "هل تعرف هذه القصيدة: إلى الخلف، استدر إلى الخلف؟ أوه الوقت في رحلتك. اجعلني طفلة مجدداً لليلة فقط؟".

"لقد سمعتها".

"هذا ما كنت أفكّر فيه الليلة الماضية".

أومأت برأسي وضغطت على يدها.

قالت لي: "ظننت أنك ستصعد إليّ".

"صدقيني، فكرت في ذلك".

ابتسمت ثم قالت: "حسناً، لا أظن أنني كنت في مزاج رومنسي".

"لا. أردت أن تكوني طفلة مجدداً، لليلة واحدة فقط".

نظرت إليّ، وأومأت برأسها، ثم قالت: "لكن... أردت صحبتك. لذا، نزلت إلى الأسفل. كنت تشخر على الأريكة".

"هل أشخر؟".

"ظننت أنك كنت تدير المكنسة الكهربائية".

ابتسمت وقلت: "الشراب الفرنسي الأحمر يجعلني أشخر".

"لا مزيد من الشراب الفرنسي الأحمر لك". نظرت إلى قناني شراب الشعير الفارغة وسألت: "هل جاء إليك زوار؟".

ابتسمت مجدداً وأجبتها: "كنت أقتل حلازين الحديقة".

جلسنا على الطاولة، ونحن لا نزال نمسك بأيدي بعضنا، ونرتشف القهوة. أصبحت الشمس فوق الجدار الآن، وتغلغل نور الشمس عبر الأشجار وصولاً إلى الحديقة والمصطبة، خارقاً الضباب الأرضي. كان الجو هادئاً باستثناء زقزقة عصافير الصباح، ومرور سيارة بين الحين والآخر في غرايس لاين خلف الحائط.

قالت إليزابيت: "أحب هذا الوقت من النهار".

"وأنا أيضاً".

بقينا صامتين لبرهة، ونحن نتأمّل فجر يوم صيفي جميل.

وأخيراً، سألتني: "هل أستطيع إخبارك بسرّ؟".

"طبعاً".

"حسناً... قد تظن أن هذا سخيف... وأنا محرجة تقريباً... لكن حين كنت.... في السادسة عشرة ربما... أغرمت بك كثيراً".

ابتسمت. "حقاً؟".

ضحكت، ثم تابعت: "رغم أنك كنت متزوجاً... فكرت فيك أحياناً حين كنت في الجامعة، وكلما كنت أعود إلى المنزل وأراك... لكن كبرت بعدها، وانتهى الأمر".

"هذا جيد. لم يكن لديّ فكرة".

"طبعاً لم يكن لديك فكرة. لم أغازلك أبداً، أليس كذلك؟".

فكرت في ذلك، ثم أجبتها: "لا، لم تفعلي".

"كنت فتاة جيدة".

"ولا تزالين".

"حسناً... دعنا لا نتكلم عن هذا".

ابتسمت.

تابعت إليزابيت: "ثم، حين حصل كل ذلك مع سوزان وفرانك بيلاروزا، لم أصدق ما سمعته من أمي حين انتقلت للعيش هنا... ثم، بعدما قتلته سوزان... أردت الاتصال بك أو المرور. في الواقع، جئت لرؤية أمي مرات قليلة، لكنك لم تكن هنا... وقالت لي أمي إنك ستغادر".

لم أعرف بماذا أجيب، لكنني قلت: "هذا لطيف جداً. كان بوسعي الاستفادة من أحدهم للتحدث إليك".

"أعرف. قالت أمي إنك... كنت منطوياً على نفسك. لكنني كنت متزوجة، ولم أكن واثقة ما إذا كنت مهتمة بك كصديق أو... كشيء آخر".

"فهمت. أشعر بالكثير من الإطراء".

"حقاً؟ حسناً، أنت متواضع كثيراً جون. أظن أنك تركت المكان هنا، لأن النساء هجمن عليك ما إن انفصلت، وهربت بحياتك".

"هذا صحيح".

ابتسمت ثم تابعت: "هذا هو سرّي؛ حين سمعت أنك على وشك البدء برحلة بحرية حول العالم، تمنيت لو أنك تستطيع اصطحابي معك".

نظرت إليها والتقت أعيننا. قلت لها: "أتمنى لو عرفت ذلك".

"هذا لطف منك".

"حسناً، أنا لا أقول ذلك فقط".

"أعرف. على أي حال، كان هذا مجرد وهم سخيف. كان لدي زوج وولدان. وحتى لو طلبت مني، كنت سأقول لا. بسبب الولدين. من دون ذكر أمي طبعاً. أظن أنها كانت مستاءة مني، وغير سعيدة".

فكرت في كل ذلك، وفي كيفية تغيّر مسار حياتنا بسرعة كبيرة في حال قول شيء ما أو عدم قوله. نشعر بشيء ما، ونقول شيئاً آخر، لأننا هكذا تربينا. لدينا أحلامنا وأوهامنا، رغم أننا نادراً ما نلحق بها. أظن أننا جميعاً خائفون أكثر مما نحن متفائلون، ونضحي أكثر فأكثر بأنفسنا - الأولاد، الزوج، المهنة، المجتمع – بدلاً من أن نكون أنانيين. وأعتقد أن هذا جيد في المعنى الكبير للحفاظ على مجتمع متمدّن. أقصد أنه إذا تصرف الجميع مثل سوزان ساتر، سنقتل جميعاً عشاقنا أو أزواجنا، أو الاثنين، أو نهرب للعثور على السعادة والحب والحياة الخالية من المسؤوليات.

بطريقة غريبة، وبقدر غضبي على سوزان بسبب سلوكها، حسدتها دائماً على شغفها، وقدرتها على تخطي طريقة تربيتها الصارمة وعدم الاكتراث لطبقتها الاجتماعية. أو أنها كانت مجنونة.

وفيما كانت تكسر القواعد، خرقت القانون أيضاً. جريمة. حصلت على بطاقة خروج من السجن، لكن السيد أنطوني بيلاروزا يحتفظ بفاتورة قديمة قد يقرر تحصيلها.

سألتني إليزابيت: "بمَ تفكر؟".

"في عدم اتباع القوانين. والمجازفة. واستعمال القلب أكثر من الدماغ".

أومأت برأسها وقالت، بطريقة ذكية نوعاً ما، "فعلت سوزان ذلك. وكذلك طوم. أنا لم أفعل أبداً، لكنك أنت فعلت ذلك حين أبحرت حول العالم".

"حسناً، تم إقحامي في ذلك الوضع الذي لا أحسد عليه. ولم يبقَ لي شيء أخسره. الخطوة غير المناسبة الوحيدة التي كنت سأقدم عليها هي بقائي هنا والذهاب إلى محامي طلاق".

ابتسمت، ثم أشارت ببعض الذكاء: "يجدر بك تصوّر كيف وصل زواجك إلى تلك المرحلة. وعليك التأكد من عدم ارتكاب الخطأ نفسه مجدداً. إذا افترضنا أنك تزوجت مجدداً".

كلمة "الزواج"، وكل مشتقاتها ومفرداتها، تزعج معدتي، ولذلك غيّرت الموضوع وسألت: "هل أحضر لك المزيد من القهوة؟".

"لا، شكراً. لكن دعني أحضر لك الفطور".

"لا بأس".

"أصرّ. للتعويض عن الليلة الماضية".

لم أعرف ما إذا كانت تقصد تعويضاً عن عدم شراء العشاء لي، أو عن شيء آخر. قلت لها: "حسناً، لا يوجد الكثير في البراد".

"لاحظت ذلك. لكننا نستطيع تقاسم قطعة المافن الإنكليزية، وهناك هلام التفاح البري، وصودا، وقنينتان باقيتان من شراب الشعير".

"كيف وصل المافن الإنكليزي إلى هناك؟".

وقفت وقالت: "لاحظت أنك لم تكن تخطط لبقائي خلال الليل".

"لا...". في الواقع، تصوّرت ذلك، لكنني لم أخطط له. قلت لها: "يمكننا الذهاب إلى مقهى".

"لا. استرخِ. سأعود".

"شكراً". هكذا، جلست، وأنا أفكر في محادثتنا.

الخلاصة في ذلك هو أنني أستلطف إليزابيت فعلاً، وأردت فعلاً القيام بأمرٍ ما معها، لكنني الآن مسرور لأنني لم أفعل، وأود الحرص على عدم حصول ذلك، وبقائنا فقط صديقين.

ربما يجدر بي محاولة ذلك مجدداً.

ظهرت مجدداً مع إبريق القهوة، فملأت فنجاني وقالت: "سيتم تقديم الفطور بعد برهة، سيد ساتر".

"شكراً، إليزابيت. أحب أن يكون المافن ناضجاً تماماً، وهلام التفاح البري على جانب الطبق".

"ممتاز سيدي". انحنت، وداعبت شعري، وقبّلت شفتيّ، ثم دخلت.

ارتشفت قهوتي وحاولت التفكير في أشياء أخرى.

عادت إليزابيت تحمل صينية عليها المافن الإنكليزي المحمّص المشطور إلى نصفين، وعلبة مفتوحة من الهلام، وقنينة "هيلدون" من المياه الفوّارة، وإبريق القهوة، وما تبقى من الجبنة والمكسرات والخضار من الليلة الماضية. وضعت الصينية على الطاولة وقالت: "الفطور جاهز".

"شكراً. هل تودّين الانضمام إليّ؟".

"أوه، سيدي. هذا غير مسموح. لكن إذا أصرّيت". جلست وسكبت الماء في كوبين وقالت: "شراب الشعير الخاص بالفطور في البراد حتى يبرد، سيدي".

"شكراً". كان هذا مضحكاً قليلاً، لكن التعامل بمرح هو الماضي غير البعيد حين خدم آل ألارد آل ستانهوب. نادراً ما كنت أشترك في ذلك، لكن حصلت بعض المرات، قبل أعوام عدة، التي تناولت فيها العشاء مع آل ستانهوب في المنزل الكبير، فيما تولى كل من إيثيل وجورج وبعض الخدم الآخرين طهي الطعام وتقديم العشاء الرسمي إلى عائلة ستانهوب وضيوفهم. أتذكر الآن مناسبة واحدة على الأقل حين عادت إليزابيت إلى المنزل من المدرسة الداخلية أو الجامعة، وقامت بتنظيف الطاولة. تساءلت ما إذا دفع لها اللورد ويليام الخسيس أجرتها. على أي حال، نعم، كانت إليزابيت مرحة، وكان هذا مثيراً للسخرية، لكنه جعلني أشعر بالقليل من الانزعاج.

سكبت إليزابيت ملعقة من الهلام فوق قطعة المافن خاصتي وقالت: "نحضّر هذا هنا".

لم أجبها بأي شيء.

وضعت قليلاً من الجبنة في طبقي وقالت: "تم تخميرها على الطاولة لمدة اثنتي عشرة ساعة".

ابتسمت.

هكذا، تناولنا الفطور وتحدثنا قليلاً عن متاجر الثياب خاصتها، وعن التغيرات التي حصلت في الشاطئ الذهبي خلال العقد الماضي. علّقت على الموضوع:

"الأمر دقيق أكثر مما هو دراماتيكي. وليس سيئاً جداً. يبدو الأغنياء الجدد سعداء كفاية بالأكرات الخمسة وبيوتهم المبنية حسب الطلب تقريباً". ثم ابتسمت وقالت: "حتى إن بعض النساء يرتدين ثياباً جميلة".

ابتسمت لها.

تابعت: "حسناً، أصغ إليّ؛ ابنة خادمين. لكن تعرف... ترعرعت بين أهل الطبقة الأرستقراطية، وتلقيت تعليماً جيداً، وأشعر كأنني جزء من العالم القديم المختفي".

"أنت هكذا".

"نعم، لكنني من الجزء الآخر من ذلك العالم، وأنا الآن بائعة في متجر".

"صاحبة متجر".

"شكراً لك سيدي. في الواقع، ثلاثة متاجر ناجحة. وتزوجت من رجل جيد. أعني على الصعيد الاجتماعي. في المرة التالية، سأتزوج بدافع الحب".

"لا تفعلي أي شيء سخيف".

ابتسمت ثم قالت: "حسناً، ولداي على الأقل هما من عائلة كوربيت وحصلا على تعليم جيد".

قلت لها: "تعرفين، عشت في إنكلترا سبعة أعوام، ورأيت أفضل وأسوأ ما في النظام الطبقي القديم. في النهاية، المهم هو الشخصية".

"يبدو هذا تفاهة سيد ساتر".

ابتسمت. "حسناً، إنه كذلك. لكنه يبدو جيداً".

"ويسهل عليك قوله".

قلت لها: "لم أولد غنياً".

"لكنك ولدت لعائلتين قديمتين مشهورتين. آل ويتمان وآل ساتر. معظم أفراد العائلتين تعلموا في الجامعات، ولم يكن أي منهم بواباً أو بائعاً أو خادماً".

هذا صحيح، لكن حسب علمي، لم يكن أي منهم غنياً كثيراً مثل آل ستانهوب. العم والت كان مشهوراً، لكن الشعر لم يدرّ عليه الكثير من المال.

وبالنسبة إلى آل ساتر، فقد أتوا بالباخرة بعد مايفلاور، وفاتهم القطار منذ ذلك الحين، على الأقل في ما يتعلق بالمال.

في ما يتعلق بآل ستانهوب، حقق جدّ جدّ سوزان، سيروس، ثروة العائلة من مناجم الفحم، وبنى ستانهوب هال في بداية القرن الماضي. لكن آل ويتمان وساتر يعتبرون أن آل ستانهوب مولعين بالتباهي، ومرتزقين، وربما غير مثقفين كثيراً. ومثلما كانت تحب أمي القول، يفتقد آل ستانهوب تماماً إلى الوعي الاجتماعي.

قال بلزاك: "وراء كل ثروة عظيمة جريمة". لكن في حالة آل ستانهوب، ما كان وراء ثروتهم هو الحظ المغفل. وقد حافظوا على معظم ثروتهم عبر الجشع والبخل والتهرب من دفع الضرائب. وفي هذا الموضوع، بالرغم من أنني أنجزت الكثير من العمل القانوني المجاني للخسيس ويلي، فإنني لم أنجز له أبداً عملاً يتعلق بالتهرب الضريبي، وإلا لربما كنت الآن في السجن.

لكن برأي إليزابيت، نحن جميعاً ننتمي إلى طبقة اجتماعية واحدة، وولدنا جميعاً في عائلات راقية، ونحن محظوظون بالقدر والثروة.

لمحاولة تسوية الأمور، قلت لها: "عرفت أن أجدادي القدامى كانوا مزارعين وصيادين، وتم شنق واحد منهم، إيليا ساتر، بسبب سرقة حصان".

"لن أخبر أحداً بذلك".

قلت لها أيضاً: "بالمناسبة، أنا مفلس".

قالت: "حسناً، سررت بالتعرف إليك".

ابتسمت ثم اقترحت: "هل نستطيع تغيير الموضوع؟".

"فكرة جيدة. لكن دعني أقول لك جون إنك كنت ستستمر سعيداً لو بقيت هنا".

"أستطيع أن أكون سعيداً في أي مكان يوجد فيه نادٍ ريفي، وحقل بولو، ونادي يخوت، ومساحة من مئتي أكر".

ابتسمت ولاحظت: "يمكنك إخراج الصبي من الشاطئ الذهبي، لكنك لا تستطيع إخراج الشاطئ الذهبي من الصبي".

"أحسنت قولاً". جرّبت قطعة من جبنة الغودا. "طعمها أطيب هذا الصباح".

قالت لي: "أخبرني عن إبحارك حول العالم".

"هناك الكثير من الأمور الممكن قولها".

"هل كانت لديك امرأة في كل مرفأ؟".

"لا. فقط في أوروبا الغربية، وجنوب شرق آسيا، وجزر الكاريبي وبولينسيا الفرنسية".

"مضحك جداً. حسناً، أخبرني مرة أخرى".

"ماذا عنك؟".

"أنا؟ حسناً... كنت أواعد رجلاً خلال العامين الماضيين. لا شيء جدّي. ولا أواعد أحداً في الوقت الحاضر".

مواعدة. مشاهدة. نساء. اكتشفت أن النساء يملكن مفردات عن الأمور الحميمية أكثر مما يملك الأسكيمو مفردات للثلج. ونادراً ما يستخدمن اسماً ذكورياً في أثناء وصف حياتهن العاطفية. أنا أواعد شخصاً. أنا أرى شخصاً. التقيت بشخص. أنا على علاقة بشخص. أنا جدية مع شخص. لست جدية مع الشخص الذي أراه،

وأواعد أشخاصاً آخرين، وما إلى ذلك. أما الرجل فيسأل الرجل الآخر: "هل تقيم علاقة مع امرأة؟".

قاطعت إليزابيت حبل أفكاري وسألتني: "هل يفترض بنا إجراء هذا الحديث قبل القيام بعلاقة حميمية أو بعدها؟".

"قبلها جيد. كي لا يكون هناك سوء تفاهم". ثم أضفت: "أنا... أواعد امرأة في لندن".

لم تقل أي شيء لبرهة، ثم سألت:"هل العلاقة جدية؟".

الجدّي بالنسبة إليّ يصف حالة طبية، مثل ورم في الدماغ، لكنني أظن أنني أعرف ما تعنيه كلمة جدّي في هذا السياق، ولذلك أجبتها بصراحة: "هي تظن ذلك. أما أنا فلا".

"حسناً".

هكذا، توقفنا هنا.

لكي أكون صريحاً، لم يكن حديث الفطور يدور جيداً مثلما توقعته، وفيما بدأت تراودني أفكار أخرى بشأن إليزابيت، كشفت عن الدهاء الذي لاحظته قبلاً وقالت: "الآن، أنت تحسم النقاط. في البداية، أثرت مسألة الطبقية، وأنت تظن أنني ورثت الجينة الحمراء من أمي. انتقلت من ثم إلى حياتك العاطفية، ولم نقم علاقة حميمية، و... ماذا أيضاً؟".

"الفطور مقرف".

"هذه غلطتك وليست غلطتي".

"صحيح. انظري...".

"هل تعرف كيف تتسوق الطعام؟".

"طبعاً. فقد موّنت مركبي بالطعام من كل أنحاء العالم".

"ماذا فعلت في لندن؟".

"في لندن، كنت أتصل بـ"كاري بسرعة"، أو أتناول الطعام خارجاً".

"سأتسوق لك بعض الطعام".

"سأذهب معك".

"سيكون هذا جميلاً". بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت لي: "أظن أن سوزان تريد استعادتك".

لم أجبها.

لكن إليزابيت تابعت: "أظن أنها أرادتني أن أقول لك هذا. لذا، ها أنا أقول لك".

"شكراً".

“هل تودّ سماع رأيي في هذا؟”.

“لا. لديّ رأيي الخاص”.

“حسناً”. وقفت وقالت: “سأذهب إلى المنزل، ثم إلى دار العبادة، وبعدها لزيارة أمي. موعد زيارة دار العبادة عند الحادية عشرة، إذا أردت موافاتي إلى هناك. أو يمكنك لقائي في فير هافن. وإذا لم تكن مشغولاً بعد الظهر، سأشتري لك وجبة طعام خفيفة”.

وقفت وقلت: “أودّ قضاء اليوم معك، لكن... لا أريد مصادفة سوزان في دار العبادة، أو في فير هافن”.

“أفهمك”.

وبالنسبة إلى دعوة العشاء، تفاجأت حين قلت لها: “لديّ موعد يوم الأحد في الساعة الرابعة”. رأيت أنني أدين لإليزابيت بشرح وقلت لها: “رجل الأعمال نفسه الذي تناولت معه العشاء الأسبوع الماضي، وعائلته”.

“حسناً... أتمنى أن ينجح الأمر”.

“هل أستطيع الالتقاء بك قرابة السابعة؟”.

“اتصل بي”.

“سأفعل”. ثم ابتسمت وقلت لها: “هل أستطيع مساعدتك على ارتداء ثيابك؟”.

ابتسمت بدورها وقالت: “لم تساعدني حتى في خلعها. أريدك أن تبقى هنا، ولا تغويني الآن. سأخرج وحيدةً”.

“هل أنت أكيدة؟”.

“نعم”. تعانقنا وتبادلنا القبلات، وأفضى شيء إلى شيء آخر، وبطريقة ما، خلعت ثوب الاستحمام، وكنا على مسافة ثانيتين من فعلها على الطاولة، لكنها تراجعت، وأخذت نفساً، وقالت: “لاحقاً. الليلة”.

“حسناً... الليلة”.

ربطت ثوبها، واستدارت واتجهت نحو الباب، ثم نظرت إليّ وقالت: “عليك تسوية الأمور مع سوزان، عاجلاً أم آجلاً”.

“أعرف ذلك”.

خرجت عبر الباب، ووقفت هناك، راغباً في اللحاق بها، لكنني عرفت أنه لا يجدر بي ذلك.

سكبت لنفسي فنجاناً آخر من القهوة وقمت بنزهة في حديقة إيثيل، التي أصبحت مليئة بالأعشاب الضارة التي خنقت النباتات. لماذا لا تخنق النباتات الأعشاب الضارة؟

على أي حال، استجمعت أفكاري. في البداية، أستلطف إليزابيت ألارد. ثانياً، عليّ السيطرة على الأحداث قبل أن تسيطر عليّ. ويعني ذلك رؤية سوزان؛ ليس غداً أو في اليوم التالي، وإنما هذا الصباح. ومن ثم الزيارة إلى منزل بيلاروزا سيكون لها غرض ما، وقرار ما.

والليلة، أستطيع النوم مع إليزابيت؛ أو النوم وحيداً، وإنما بطريقة سليمة للمرة الأولى منذ أسبوعين.

القسم الثاني

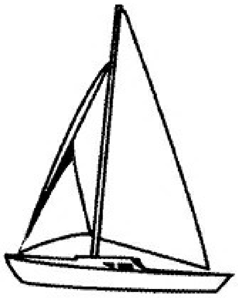

في أسفل الممر الذي لم نسلكه

نحو الباب الذي لم نفتحه أبداً

في حديقة الورود.

تي. أس. إليوت

"نورنتون المحترق" من الرباعية

الفصل الحادي والعشرون

ثمة راديو عتيق فوق البراد، وكانت باتي باج تغني "أولد كاب كود"، مما ذكّرني ببعض الرحلات البحرية التي قمت بها مع عائلتي إلى هناك. كانت المحطة الإذاعية تبث مجموعة من الأغاني المستوحاة من الجغرافيا الأميركية، والأغنية التالية كانت "ضوء القمر في فيرمونت". أنا واثق من أن إيثيل لم تبدّل المحطة منذ عقدين من الزمن.

بقي الوقت متوقفاً هنا في منزل الحراسة فيما التهم العالم المتغير جدران ستانهوب هال. في الواقع، تغيرت الحياة داخل الجدران أيضاً، وكان الوقت على وشك اللحاق بهذا المكان، وبالأشخاص الذين عاشوا هنا، ماضياً وحاضراً.

لم تكن الساعة قد أصبحت بعد التاسعة صباحاً، لكنني استحممت، وبدلت ثيابي، وارتديت سروالاً داكن اللون وآخر قميص نظيف عندي. ثمة سترة زرقاء مصنوعة حسب الطلب معلقة فوق ظهر كرسي المطبخ. ارتديت ثيابي للاتصال بسوزان، أو ارتديت ثيابي لعدم الذهاب إلى أي مكان حتى حلول موعد الغداء مع سيّد المافيا عند الرابعة.

لكن قبل الاتصال بسوزان، يجدر بي أولاً إجراء اتصالي الاعتيادي ليوم الأحد بكارولين وإدوارد. إلا أن كارولين تنام حتى وقت متأخر يوم الأحد، ولا تزال الساعة السادسة صباحاً في لوس أنجلوس، ولذلك يجدر بي ربما الاتصال بأمي. لكنني أحمل عادة كأساً من الشراب الذي يذهب بالعقل في يدي حين أتحدث إلى هارييت، ولا يزال الوقت مبكراً قليلاً لهذا.

في التاسعة والربع، كان راي تشارلز يغني "جورجيا" وكنت لا أزال واقفاً في المطبخ وفنجان القهوة في يدي.

رأيت أنه من الغريب أن أقول لسيد المافيا أن يذهب إلى الجحيم، لكنني لا أملك الشجاعة لإجراء الاتصال الهاتفي بسوزان.

خفتت آخر النغمات الحزينة لأغنية "جورجيا" وقال المذيع بصوت خافت: "كان هذا جميلاً. أنتم تستمعون إلى WLIG، التي تبث موجاتها في أرض الأحرار والشجعان".

حسناً، وبعد هذه العبارة الموحية، أوقفت عمل الراديو، وحملت هاتف المطبخ، وطلبت رقم هاتف منزل الضيوف الذي أعطتني إياه كارولين. استمعت إلى صوت الهاتف يرنّ ثلاث مرات، وأملت في سماع صوت المجيب الآلي.

تملك سوزان بلا شك كاشفاً لأرقام الهواتف، يظهر رقم هاتف إيثيل، لأنها أجابت "مرحباً جون".

شعرت بقلبي يقفز من مكانه عند سماع صوتها يناديني باسمي، وكدت أقفل السماعة، لكنني لم أستطع؛ رغم أنه كان باستطاعتي تقليد صوت إيثيل، ربما،

والقول: "مرحباً سيدة ساتر. أردت فقط إبلاغك أنني عدت من دار العجزة. إلى اللقاء"، ثم أقفل السماعة.

"جون؟".

"مرحباً سوزان".

صمت.

سألتها: "كيف حالك؟".

"أنا بخير. كيف حالك أنت؟".

"بخير. جيد. كيف الأمور؟".

"لا تزال جيدة".

"حسناً... وأنا أيضاً".

لاحظت: "لم تتمرن جيداً على هذا الاتصال الهاتفي".

انزعجت قليلاً من ذلك وقلت لها: "فكرت للتو في الاتصال بك، ولم يكن لديّ الوقت لتدوين الملاحظات".

"وما هو سبب هذا الاتصال الجميل؟".

لم أتوقع أن تكون سعيدة أو عاطفية لسماع صوتي، لكنها كانت باردة بوضوح. توجب عليّ تذكير نفسي بأن إيثيل وإليزابيت قد أشارتا إلى أن سوزان ترحب باتصالي. وقال السيد نسيم إن سوزان تحدثت بالخير عني. حتى إدوارد وكارولين لمّحا لي أن أمهما تريد سماع صوتي. إذاً ماذا يحصل؟

والجواب هو أن سألتني سوزان: "هل غادر ضيفك في منزل الحراسة؟".

آه. قبل أن أستطيع الإجابة، قالت لي: "كانت هذه سيارة إليزابيت ألارد الواقفة طوال الليل، أليس كذلك؟".

"نعم، كانت هي...". لكنني لم أقم بأي عمل معها بالفعل.

"وكيف حال إليزابيت؟".

لا أدين فعلاً لسوزان بأي شرح، لكن لإيضاح الأمور، فكرت أنه يجدر بي قول شيء ما؛ لكن هذا أثار حفيظتي وقلت لها: "توجب عليها استيعاب الكثير من الأمور، وأرادت رؤية غرفتها القديمة، وكان هناك الكثير من الأمور العقارية الواجب حلها، وأنا المحامي، ولذلك بقيت هنا و...".

وقبل أن تصبح عباراتي غير مفهومة، قاطعتني سوزان وقالت: "حسناً، لا أهتم. ما الذي أستطيع فعله لك؟".

"لم أقم بأي عمل معها".

صمت ثم: "لا أهتم فعلاً، جون". وأبلغتني: "أريد الاستعداد لزيارة دار العبادة".

حسناً، بما أنني أخذت المبادرة لإجراء هذا الاتصال، لن تستطيع هزمي بسهولة، ولذلك قلت لها: "سأمرّ عليك الآن ومعي مغلفٌ. أضغط على الجرس. إذا لم تجيبي. أترك المغلف أمام الباب".

صمت.

قلت لها: "إلى اللقاء"، وأنهيت الاتصال.

ارتديت سترتي، وأمسكت بالمغلف الأسمر عن طاولة الطعام، وتوجهت نحو الباب.

إنه يوم جميل ومشمس، والعصافير تزقزق، والنحل يطنّ، وقلبي يخفق فيما مشيت في الممر الأساسي المؤدي إلى منزل الضيوف.

لا أفهم لماذا أشعر بهذا التوتر. فإذا كان هناك من شخص سيشعر بالتوتر أو الغرابة - أو الذنب - يفترض أن يكون سوزان. لست أنا من أقام علاقة غرامية، ثم أطلقت النار على عشيقي.

في الوقت الذي مشيت فيه مسافة الثلاث مئة ياردة المؤدية إلى منزل الضيوف، أصبحت مسيطراً أكثر على نفسي.

فيما اقتربت من المنزل، لاحظت أن المالكين السابقين، الذين باعت إليهم سوزان المنزل، حدّدوا ملكيتهم بزرع صفوف من الشجيرات حول العقار الممتد على مساحة عشرة أكرات. حين عاش ويليام وشارلوت في المنزل الكبير، اقترحت على سوزان تشييد حائط صخري من عشرين قدماً مع أبراج حراسة، لوضع حدّ لزيارات أهلها غير المتوقعة، لكن سوزان لم تشأ حجب الرؤية، وتساءلتُ الآن ما إذا كانت ستقتلع هذه الشجيرات. أنا واثق من أن أمير نسيم مهتم لأمر هذه الشجيرات الكثيفة لأنها توفر الغطاء والحماية من القناصين الإيرانيين.

لكن عودة إلى الهموم الأكثر إلحاحاً، من جهة، أردت ألا تفتح سوزان الباب؛ هكذا، أستطيع متابعة حياتي من دون التفكير أكثر في سوزان ستانهوب ساتر. من جهة أخرى، شعرت بحاجة إلى إخبارها عن مخاوف أمير نسيم وكذلك عن مخاوفي من أنطوني بيلاروزا. طبعاً، يمكن فعل ذلك عبر اتصال هاتفي أو إرسال رسالة، وإذا لم تفتح الباب، هذا ما سأفعله.

لكن من جهة ثالثة، وكي أكون صريحاً، أردتها أن تفتح الباب وتدعوني إلى الدخول. أردت أن أشرح لها على الأقل سبب نوم إليزابيت في المنزل؛ ليس لأن الأمر يهمني، لكنه قد يهم إليزابيت، وأردت إيضاح أي سوء تفاهم كي ننتقل أنا وسوزان إلى أشكال أخرى من سوء التفاهم.

اتجهت نحو الرواق المؤدي إلى منزل الضيوف الحجري الكبير، ولاحظت أنه لم يتم قطع اللبلاب بحيث بات يلامس عتبات النوافذ. كما أن الرواق المرصوف بالحصى والمصطبة الأمامية للمنزل يحتاجان أيضاً إلى الصيانة. كانت هذه من مهامي، بحيث أنجزها بنفسي أو أستأجر أحداً. لاحظت أن أحواض الأزهار، التي كانت من مسؤولية سوزان، مثالية ورائعة. لماذا ألاحظ هذا؟

وقفت أمام الباب الرئيسي، ومن دون تردد، ضغطت على الجرس.

أتيح لي الوقت للتفكير في مسألة ما قبل أن يفتح الباب، أو قبل أن أغادر، ففكرت مجدداً في سوزان وفرانك وهما يستمتعان طوال الصيف فيما أنا أعمل بكدّ في المدينة، وأحاول أيضاً محاربة تهمة التهرب من الضرائب، وفي وقت فراغي، أحاول الدفاع عن عشيق زوجتي في تهمة قتل. كل تلك الذكريات السعيدة وضعتني في إطار التفكير الصحيح.

انتظرت عشر ثوانٍ تقريباً، ثم وضعت المغلف أمام الباب، واستدرت ومشيت.

بعد خمس ثوانٍ تقريباً، سمعت الباب يفتح، وصوت سوزان يقول: "شكراً".

التفتّ خلفي ورأيتها تقف عند الباب وتمسك بالمغلف، وهي ترتدي سروال جينز وقميصاً وردياً. قلت لها: "على الرحب والسعة"، وتابعت المشي.

"جون".

توقفت واستدرت. "نعم؟".

"هل تودّ الدخول لدقيقة؟ لديّ شيء لك".

ألقيت نظرة على ساعتي، ثم قلت لها، مع إظهاري لامتعاض شديد، "حسناً...".

عدت إلى المنزل، واختفت هي في الداخل تاركة الباب مفتوحاً. دخلت وأغلقت الباب.

كانت تقف في الطرف الآخر للردهة الكبيرة، قرب المطبخ، وسألتني: "هل تريد ارتشاف بعض القهوة؟".

"شكراً".

اختفت في المطبخ ولحقت بها. المنزل، مثلما لاحظت، لا يزال شبيهاً كثيراً بما كان عليه قبل عشر سنوات، وفي معظمه مفروشات قديمة لعائلة ستانهوب، أسميها أنا تفاهة، وقد أخذتها معها بلا شك إلى هيلتون هيد أو وضعتها في مخزن.

المطبخ الريفي الكبير بدا أيضاً على حاله، بما في ذلك الساعة الكبيرة على الحائط، وأحسست أنني غادرت للتو لإحضار صحف يوم الأحد، ثم عدت لأكتشف أنني تطلقت قبل عشرة أعوام.

سألتني سوزان، التي كانت تقف حاملة إبريق القهوة وتدير لي ظهرها: "ألا تزال تحبها سادة؟".

"نعم".

سكبت القهوة في فنجانين، واستدارت، ولاقيتها في منتصف المسافة. أعطتني الفنجان ونظرنا إلى بعضنا. لا تبدو عليها علامات التقدم في العمر، مثلما لاحظت حين رأيتها من مسافة بعيدة قبل أيام قليلة، ولم يزدد وزنها أبداً خلال الأعوام

العشرة الأخيرة، ولا أنا أيضاً. يبدو أن الأفكار نفسها كانت تراودنا فقلنا لبعضنا في الوقت نفسه: "تبدو...". ابتسمنا بطريقة لاإرادية، ثم قلنا: "بخير".

انتهى المزاح، وقلت لها: "أريد التحدث إليك".

أجابت: "إذا جئت إلى هنا لأنك تشعر بالذنب...".

"لست مذنباً في أي شيء".

"يمكنك القيام بأي عمل مع أي امرأة تريد، لكن حاول البقاء بعيداً عن صديقاتي، أرجوك".

"حسناً، أعطيني لائحة بأسماء صديقاتك".

"وأنت افعل الشيء نفسه، إذا كان لديك أصدقاء".

حقيرة. وضعت فنجان القهوة على الطاولة وقلت لها: "قبل أن أذهب، عليك أن تفهمي أنني لم أقم علاقة حميمية مع إليزابيت ألارد".

"لا أبالي سواء أفعلت أم لم تفعل".

"لكنك قلت للتو...".

"هل تلعب معي دور المحامي؟".

بعض الأمور لا تتغير أبداً. سوزان ذكية جداً، لكن لم يتهمها أحد أبداً بأنها منطقية أو عقلانية. أقصد، يمكنها أن تكون كذلك، لكن حين تكون متوترة، تلجأ إلى القسم المجنون من دماغها. إنه الشعر الأحمر. قلت لها: "انظري إليّ في عيني".

"أي واحدة؟".

"انظري إليّ".

نظرت إليّ وقلتُ لها: "لم أقم علاقة حميمية مع إليزابيت".

بقيت تحدّق إليّ، واستمررنا في النظر إلى بعضنا. اقترحت عليها: "تحدثي إلى إليزابيت".

أومأت برأسها ثم قالت: "حسناً. أصدقك".

هكذا، وقفنا هناك، فيما تكتكت الساعة على الحائط، مثلما فعلت مرات عدة حين كنا أنا وسوزان نقضي تلك الدقائق الصامتة المميتة في المطبخ بعد الشجار. كانت تلك المشاجرات مسببة للإسهال عادة، وهذه علامة جيدة بأننا ما زلنا نهتم كفاية للقيام ببعض الجولات، وفي أغلب الأحيان، كنا نقبل بعضنا ونتصالح ثم نصعد إلى الأعلى إلى غرفة النوم. أنا واثق من أنها تتذكر ذلك هي أيضاً، لكننا لن نذهب إلى غرفة النوم هذه المرة. قلتُ لها: "أستطيع العودة في مرة أخرى".

سألتني: "ماذا يوجد في المغلف؟".

أجبتها: "بعض الصور، وبعض الأوراق التي يجدر بك الاحتفاظ بها، مثل سجلات ولادة كارولين وإدوارد، التي عثرت عليها بين أغراضي".

أومأت برأسها، ثم قالت لي: "إذا كان لديك بضع دقائق، أريد مناقشة بعض الأمور معك، وأريد أن أعطيك بعض الأشياء".

"حسناً".

اقترحت: "لماذا لا نجلس في حديقة الورود؟".

"حسناً".

"سآتي فوراً".

حملت قهوتي وخرجت عبر الباب الخلفي للمطبخ إلى حديقة الورود الإنكليزية، التي كانت محاطة بجدار حجري منخفض، وتبدو مبدئياً مثلما أذكرها، باستثناء المفروشات الحديدية التي تم استبدالها بأخرى مصنوعة من الأماليد المجدولة، والتي لا تبدو مريحة كثيراً. تستطيع النساء الجلوس على أي شيء.

بدأت الورود تتفتح، ولا أذكر ما إذا كان الوقت مبكراً أو متأخراً على التفتح؛ إنه يرتبط حسبما أعتقد بفصل الربيع الذي سيطر على لونغ آيلند.

وها أنا في المنزل ولكن ليس في المنزل. يبدو كل شيء مألوفاً، لكن التغيرات القليلة تربكني. ويصح الشيء نفسه على الأشخاص. أشعر بالارتياح أكثر في كوخ قديم فوق جزيرة في المحيط الهادئ، حيث لا يذكرني أي شيء بحياتي الماضية.

تذكرت شيئاً قاله لي والدي حين كنت في الجيش وعلى وشك الذهاب في مهمة إلى ألمانيا. قال لي عن سنواته الأربع التي قضاها بعيداً في الحرب: "حين عدت، شعرت أنني غريب عن المكان لدرجة أنني تمنيت أن أعود مع رفاقي إلى الخندق". وإذا أخذنا في الاعتبار أنه التقى لاحقاً بأمي وتزوجها، أنا واثق من أن هذه الأمنية تكررت لديه. أفهم الآن تماماً ما كان يقصده.

على أي حال، جلست على كرسي حول طاولة من الأماليد، وراقبت النافورة تبقبق في الجهة الخلفية للحديقة المرتبة والمنظمة مع قرص الشمس في الوسط.

هناك بعض التماثيل المبعثرة حول أحواض الورود، وهي كلاسيكية بمعظمها، ذكّرني ذلك بالحدائق الكلاسيكية للحمرا، وحوض السباحة، وطبعاً، حلمي. ربما لن أسألها أبداً كيف ومتى وأين بدأت علاقتها الغرامية مع فرانك بيلاروزا، لكن إذا سألتها كيف حصل ذلك، ستقول: "كيف حصل ماذا؟ أوه، هذا. كان هذا قبل زمن بعيد، جون. لماذا تثير الموضوع الآن؟"، وما إلى ذلك. إنها بارعة في ادعائها فقدان الذاكرة، وأنا واثق من أنها لم تعد تذكر شيئاً عن فرانك بيلاروزا باستثناء قتله. حسناً، إنها تذكر من دون شك، لكن فقط إذا كان الشخص مثلي فظاً كفاية لذكر الأمر.

أذكر آخر مرة رأيتها فيها، قبل ست أعوام تقريباً في دفن العمة كورنيليا. لا أعرف لماذا كانت هناك، لكن بسبب ولدينا، لا تزال جزءاً من العائلة بطريقة ما.

تركت زوجها الجديد في هيلتون هيد، ولذلك لم تتح لي فرصة التعرف إلى الرجل المحظوظ، أو فرصة التعليق على مدى شيخوخته أو بدانته أو أي شيء. لو تزوجت رجلاً شاباً، أنا واثق من أنه كان ليأتي إلى هنا ببذلة أرماني سوداء.

على أي حال، تحدثنا أنا وسوزان حينها، لكن الحديث كان مختصراً وتناول العمة كورنيليا، والزوج المتوفي لكورنيليا، آرثر، وولديهما الأبلهين. تحدثنا أيضاً عن والدي، الذي كانت سوزان مولعة به، لكنها لم تذكر دفنه الذي لم أحضره. أذكر أنني هنأت سوزان على زواجها، وتمنيت لها السعادة. أظن أنني كنت أقصد ذلك فعلاً.

أخبرتني أن زوجها رجل طيب جداً، ما يعني حسبما أظن، أنه ليس حب حياتها.

لم تسألني أي شيء شخصي، ولم أعطِها أي معلومات عن حياتي العاطفية.

لم يكن أيضاً على الجدول ذكر للكلمات الأخيرة التي تبادلناها قبل أن ننفصل منذ ستة أعوام. حضرت محاكمتها في المحكمة الفدرالية في مانهاتن للإدلاء بشهادتي كشاهد على موت فرانك بيلاروزا. وبصفتي زوجها ومحامياً سابقاً، لم أتخذ موقف الشاهد، وإنما أردت تقديم بعض الظروف الملطفة والمخففة نيابة عنها، ومعظمها لها علاقة بحالتها العقلية ليلة الجريمة، مثل "سيدي، زوجتي مجنونة. انظر إلى شعرها الأحمر". أبلغت المحكمة أيضاً أنني أريد التحدث عن محاولة الأف بي آي إقناع زوجتي بمغازلة سيد المافيا فيما هو تحت الإقامة الجبرية في قصره، وأردت أن أقول حتماً بعض الكلمات عن التصرفات المشبوهة للمدعي العام الأميركي، ألفونس فيراغامو.

لكن تبين أن القاضي والسيد فيراغامو لا يريدان سماع أي شيء مني، وانتهت الجلسة المغلقة بإعلان وزارة العدل أن هذه القضية لن تقدّم أمام هيئة كبار المحلفين. نصر كامل لسوزان، وإعادة تأكيد على حق الحكومة في حماية نفسها. بالنسبة إليّ، كانت هذه المرة الوحيدة التي أؤثر فيها في نتيجة أي قضية عبر الجلوس في القاعة وفمي مغلق.

ارتحت طبعاً لإطلاق سراح سوزان، لكن لكي أكون صريحاً، كنت خائب الأمل قليلاً - كمحامٍ وكمواطن - لأن وزارة العدل أخلت سبيلها بسهولة، من دون تكبيل معصميها. وبصفتي زوجاً مخدوعاً، تمنيت لو أنه تم الحكم على سوزان على الأقل بوضع حرف "أ" أحمر كبير على فستانها، لكن هذا سيفضي حسبما أظن إلى وضع لافتة على ظهري كُتب عليها: "أحمق".

على أي حال، وبعد المحاكمة، أصررت على اللحاق بها إلى قاعة المحكمة في فولي سكوير، حيث كانت محاطة بأهلها السعداء، ومحاميها الثلاثة المرتاحين، والطبيبين النفسيين اللذين بالكاد يكفيان أي فرد من عائلة ستانهوب.

فصلتُ سوزان عن حاشيتها، وتحدثنا بإيجاز، وهنأتها على نتيجة المحاكمة، بالرغم من أنني لم أكن سعيداً تماماً بهذه النتيجة. إلا أنني قلت لها: "ما زلت أحبك وأنت تعرفين ذلك".

وأجابتني: "هذا أفضل لك. إلى الأبد".

وآخر كلماتي لها كانت: "نعم إلى الأبد".

وآخر كلماتها لي كانت: "وأنا أيضاً".

هكذا، انفصلنا على درج المحكمة، ولم نرَ بعضنا البعض طوال أربعة أعوام تقريباً، إلى حين تخرّج إدوارد من ساره لورانس.

المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها كانت في دفن كورنيليا، والشيء الأخير الذي قالته لي كان: "أتمنى لك السعادة جون، لكن قبل ذلك، أتمنى لك السلام".

لم أعرف لماذا ظنت أنني لست في سلام - فهذا سرّي - لكنني أجبتها: "شكراً. أتمنى لك الشيء نفسه".

انفصلنا عند المقبرة وعدت إلى لندن. والآن، بعد أربع سنوات، نحن على وشك دفن سيدة أخرى من ماضينا، ولو كنت في مزاج هزلي لقلت لها: "علينا التوقف عن لقاء بعضنا بهذه الطريقة". لكنني فكرت ربما أن أحد ولدينا أو كليهما قد يقرران الزواج في النهاية، وسنلتقي أنا وسوزان في مناسبات أكثر سعادة، مثل الولادات وحفلات ميلاد الأحفاد.

حتى ذلك الحين، يقتصر الأمر على الجنازات مما ذكّرني بالقول: فليدفن الماضي الميت موتاه.

نعم، بالفعل.

الفصل الثاني والعشرون

خرجت سوزان إلى حديقة الورود، وكنت مراقباً كفاية حتى ألاحظ أنها مشطت شعرها، وربما عززت ملمع الشفاه.

وبصفتي رجلاً محترماً، وقفتُ، فسألتني، مسترجعة فكاهة قديمة بيننا: "هل يعزف أحد النشيد الوطني؟".

ابتسمنا كلانا ووضعت علبة قرطاسية على الطاولة مع المغلف الذي أحضرته، ثم جلست قبالتي.

بالنسبة إلى المغلف، لم أشأ أن تفتحه الآن وترى صورها. قد يكون ذلك غريباً، أو محرجاً، أو يعطي ربما الرسالة غير الصحيحة. أو هل نظرت قبلاً إلى محتويات الظرف؟ على أي حال، تركته على الطاولة.

جلسنا بصمت لبضع ثوانٍ، ثم تذكرت القول: "أنا آسف لزوجك".

"شكراً".

بدا هذا كافياً لتغطية الموضوع فسألت الأرملة المفجوعة: "ماذا أردت أن تقولي لي؟".

"باشر أنت أولاً".

"السيدات أولاً".

"حسناً. هذه العلبة لك، وهي تحتوي على نسخ من بعض الصور التي ظننت أنك قد تريد الاحتفاظ بها. عثرتُ أيضاً على كدسة من الرسائل الموجهة إلينا من إدوارد وكارولين حين كانا في المدرسة، ونسختها لك".

"شكراً. هل تملكين أيضاً نسخاً عن الشيكات التي أرسلناها إليهما؟".

ابتسمت وأجابت: "لا، لكنني أحتفظ برسائل الشكر". ثم قالت: "يستخدمون الآن البريد الإلكتروني، لكنهما يعرفان كيف يكتبان كتابة عادية من دون اختزال".

ابتسمنا كلانا.

سألتني: "ماذا يوجد في المغلف؟".

"الشيء نفسه. صور، وبعض الرسائل من الأولاد. وبعض المستندات التي قد ترغبين في الاحتفاظ بها".

"شكراً". ثم قالت لي: "أخبرني إدوارد وكارولين أنهما سيأتيان إلى دفن إيثيل. يحتاج إدوارد إلى إبلاغ مسبق. إنه مشغول جداً في العمل. وكذلك هي كارولين، لكنها تستطيع القدوم إلى هنا بسرعة من بروكلين".

أجبتها: "لطالما أردت أن أعيش كفاية لأرى ولديّ مشغولين في العمل وتحمل المسؤوليات العائلية. أتحرق شوقاً لزواجهما وإنجابهما الأولاد".

"جون، تجعل العمل والعائلة والزواج والأولاد مثل عقاب على شيء ما، وحتّى الأولاد أيضاً".

"آسف. فهمتني خطأ. على أي حال، يجدر بك إبلاغهما بموت إيثيل في الوقت المناسب. أنا لا أملك بريداً إلكترونياً أو هاتفاً خلوياً".

"هل تنوي ذلك؟".

"إذا بقيت".

لم تتابع الموضوع وسألتني: "متى تحدثت إليهما آخر مرة؟".

"الأحد الماضي. كانا بخير".

"أظن أنهما كذلك. إنهما سعيدان بعودتك". ثم انتهزت الفرصة لسؤالي: "لكم من الوقت ستبقى؟".

"على الأقل حتى موعد الدفن".

أومأت برأسها، لكنها لم تطرح سؤالاً إضافياً. الموضوع عائلي ولذلك نصحتني: "يجدر بك رؤية أمك قبل الدفن".

"هل تقصدين دفنها هي أم دفن إيثيل؟".

"أرجوك كن جدياً. يجدر بك التصرف مع أمك مثلما تريد أن يتصرف ولداك معك. عليك أن تكون مثلاً جيداً لهما. إنها جدتهما. وأنت ابنها".

"أظن أنني فهمت".

"عليك أن تكون أكثر نضجاً".

"أنا ابن أمي، وأتصرف مثلما تتم معاملتي".

"هذا مضحك". ثم تابعت الموضوع وقالت: "بُعدك عن أمك يؤثر في ولدينا. أنا أفكر فيهما".

إنهما الولدان دائماً، لكنهما في الواقع نادراً ما يهتمان. على أي حال، ليست المسألة عن هارييت وعني، أو عن الولدين وعني. إنها عن سوزان وعني.

انتقلت إلى النقطة **ب** وقالت: "إدوارد وكارولين منزعجان أيضاً من موقفك حيال أهلي". وذكّرتني في حال لم أفهم ما تقصده: "إنهما جدّا الولدين".

"لكم من الوقت ستستمر هذه المحاضرة برأيك؟".

"ليست هذه محاضرة. إنها مسائل مهمة يجب معالجتها من أجل ولدينا".

أردت القول: "لم يعودا ولدين صغيرين، وكان يجدر بك التفكير فيهما قبل عشرة أعوام حين قررت إقامة علاقة مع فرانك بيلاروزا". لكنني قلت لها بدلاً من ذلك: "حسناً، بما أنني لم أعد أتدخل في حياة أي شخص هنا، سأحاول أن أكون ابناً أفضل، ووالداً أفضل، وزوجاً سابقاً أفضل".

"وأتمنى أن تكون أقل تهكماً".

"وللتاريخ، لم أقل أبداً أي شيء غير لطيف عن أهلك أمام كارولين وإدوارد".

"ربما لا... لكنهما يشعران بالعدائية".

"إنهما حادّا الملاحظة". ثم أضفت: "لم أفكر حتى في أهلك".

انتهزت الفرصة لإطلاعي على بعض الأخبار الجيدة. "أصبحا أكثر لطفاً على مرّ السنوات".

الطريقة الوحيدة التي يصبح فيها هذان الشخصان لطيفين، هي خضوعهما لعمليتي زرع دماغ. فقلت لها: "يبدو إذاً أنني كنت أنا من أخرج السيئ منهما".

تجاهلت هذا وتوصلت إلى خلاصة المحاضرة، قائلة: "ما حصل بيننا أثّر في الكثير من الأشخاص حولنا الذين نهتم بهم ويهتمون بنا، ولذلك أظن أنه يجدر بنا أن نكون أكثر تمدّنًا مع بعضنا ونجعل الحياة أسهل وأقل غرابة على الجميع".

"ربما لقد فات الأوان على ذلك".

"لا، لم يفت".

لم أجبها.

سألتني: "متى ستباشر في ذلك؟".

"لقد فعلت هذا".

"لا، لم تفعل".

"وأنتِ؟".

"لم أغضب منك أبداً جون".

"صحيح. ولمَ تفعلين ذلك؟ ماذا فعلتُ أنا؟".

"يجدر بك التفكير في دورك في ما حصل".

"أرجوك".

"فكر من ثم في ما فعلته خلال الأعوام العشرة الماضية".

"لم أفعل أي شيء".

"هذه هي النقطة. لقد هربت".

لم أجبها، وإنما ألقيت نظرة سريعة على ساعتي، فلاحظت ذلك وقالت: "لن تغادر قبل أن أنهي ما أريد قوله".

"انهِ إذاً".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت بصوت أكثر نعومة: "جون، لا يمكننا محو ما حصل...".

"جربي ذلك مجدداً بصيغة المفرد فقط".

أخذت نفساً عميقاً وقالت: "حسناً... لا أستطيع محو ما حصل... ما فعلت. لكنني أودّ... أودّ أن تسامحني".

لم أتوقع ذلك وأصبحت فجأة عاجزاً عن الكلام. فكرت في ما يجب قوله، وكدت أقول: "سامحتك"، لكنني نظرت إليها بدلاً من ذلك وذكّرتها: "لم تعتذري حتى. لم تقولي أبداً إنك آسفة".

نظرت إليّ مباشرة في العينين، وقالت: "جون... ما فعلته كان خطيئة كبيرة لأعتذر عنها. ماذا أقول؟ أنا آسفة لأنني دمّرت كل حياتنا؟ أنا آسفة لأنني أقمت علاقة غرامية؟ أنا آسفة لأنني قتلته؟ أنا آسفة لأنني لم أذهب إلى السجن عقاباً على ما فعلته؟ أنا آسفة بشأن زوجته وأولاده؟ أنا آسفة لأن ولديّ عانيا بسبب غلطتي، وغلطتي لأنك لم تكن موجوداً معهما خلال الأعوام العشرة الماضية؟ أنا آسفة لأنها غلطتي لأنك لم تكن هنا حين مات والدك؟ كيف أعتذر عن كل ذلك؟".

لم أعرف ماذا أقول، ولم أستطع النظر إليها أكثر فاستدرت وسمعتها تقول: "اعذرني".

نظرت إليها مجدداً، لكنها وقفت وكانت تسير بسرعة عائدة إلى داخل المنزل.

جلست هناك لدقيقة، أشعر بيأس كبير، وإنما أشعر أيضاً أننا توصلنا أخيراً إلى نهاية ما.

ثمة بوابة في جدار الحديقة، نظرت إليها، وتخيلت نفسي أمشي عبرها. أستطيع الاتصال بها لاحقاً بعد أن نهدأ كلانا. أو هل تريدني أن أنتظر هنا؟ أو أتبعها إلى الداخل؟

يصعب دائماً فهم النساء، خصوصاً حين يكنّ غاضبات، لا أحاول حتى. أفضل شيء أستطيع فعله الآن هو أن أقوم بما أردت القيام به، المغادرة. لذا، وقفت وأخذت العلبة التي أعطتني إياها ومشيت نحو البوابة. لكنني ترددت حينها ونظرت مجدداً نحو المنزل لكنني لم أرَ أي أثر لها. يبدو أن المحادثة انتهت. وهذا جيد أيضاً.

فتحت البوابة، ثم ضعِفتُ مجدداً وفكّرت في خروجها واكتشافها أنني رحلت. كنت حائراً فعلاً، وكان الجانب القوي فيّ يقول: "غادر"، فيما الجانب الضعيف فيّ يقول: "إنها تتألم".

في مثل هذه اللحظات، أتضرع إلى الله، ففعلتُ ذلك، لكن باب المطبخ بقي مغلقاً.

الكبرياء قبل السقوط.

"شكراً على البقشيش".

قوليها مع أزهار.

"ماذا...؟". تذكرت فجأة أنني كنت هنا قبلاً، فعلياً وصورياً، وتذكرت كيف أننا نعقد الصلح أحياناً من دون خسارة الكثير من الكبرياء.

عدت إلى الحديقة ووجدت مقصّ الورود على حوض أزهار، فقطفت عشر ورود ووضعتها على الطاولة المستديرة ثم مشيت نحو البوابة وفتحتها.

"جون".

استدرت ورأيتها أمام الباب. نادتني: "هل تغادر؟".

"أنا... كنت...".

"كيف يمكنك...؟". شاهدت الورود المقطوفة وتوجهت نحو الطاولة. أخذت وردة ونظرت إليها، ثم نظرت إليّ. حدّقنا إلى بعضنا عبر الحديقة، ثم مشيت ببطء نحو المنزل.

راقبتني فيما أنا أقترب، وتوقفتُ عند النقطة الوسطية التي يكون فيها الأزواج السابقون غير قريبين وغير بعيدين، وإنما في المكان المناسب والمريح.

سألتني: "لماذا كنت مغادراً؟".

"ظننت أنك تريدين مني المغادرة. وقفتِ وغادرتِ".

"قلت لك اعذرني وليس وداعاً".

"صحيح. حسناً، لم أكن واثقاً... في الواقع، لكي أكون صريحاً، أردت المغادرة".

"لماذا؟".

"هذا مؤلم".

أومأت برأسها.

هكذا وقفنا هناك، من دون أن يعرف أيّ منا ما يقوله. طلبت مني أن أسامحها، وبعد عشر سنوات، يجدر بي فقط القول "أسامحك" والمضي قدماً. لكن إذا قلت ذلك، يجب أن أعنيها فعلاً، وإذا كنت لا أعنيها، ستعرف ذلك.

ترعرعنا أنا وسوزان في عالم وطبقة اجتماعية تلاحقنا فيها أمور كثيرة مثل الخطيئة، وأفعال التخلص من الخطيئة والندم والغفران إلى دار العبادة، إلى أكاديمية الأصدقاء، وحتى إلى المنزل. لربما اختفى هذا العالم، وربما انحرفنا نحن الاثنان عن المسار، لكننا لا نزال منتجين من العصر القديم لذلك العالم. لذا، وبما أنني مدرك بأنها ستفهم ما أقصده، قلت لها: "سوزان، أستطيع أن أقبل اعتذارك على كل شيء. فعلاً. لكن مسامحتك ليست في قلبي أو في قدرتي".

أومأت برأسها وقالت: "أفهمك. لكن لا تكرهني".

"لا أكرهك".

"فعلت ذلك".

"أبداً. قلت لك... على درج المحكمة... هل تذكرين؟".

"أذكر". ثم قالت لي: "أخبرت شقيقتك أنك ستبحر إلى هيلتون هيد. انتظرتك".

أصبح الأمر مؤلماً مجدداً، لكن يجب أن يكون مؤلماً قبل أن يتوقف أخيراً عن الإيلام ولذلك قلت: "أبحرت إلى هناك... لكنني ابتعدت".

"وأبحرت لرؤية العالم".

"هذا صحيح".

"كان يمكن أن تضيع في البحر".

"لم تكن هذه خطتي، إذا كان هذا ما تقترحينه".

"أنت قلت ذلك، ولست أنا".

قلت لها: "انتهى الموضوع".

"كان الجميع قلقاً. أهلك، ولداك...".

"لم يكن هذا جزءاً من الخطة أيضاً. كان فقط تصرفاً ينم عن اللامسؤولية وتدليل الذات. لا شيء أكثر". ثم أضفت: "كنت أستحق ذلك". وذكّرتها: "انتهى الموضوع".

"حسناً". اختارت موضوعاً أسهل وقالت: "شكراً على الورود".

أوضحت لها: "إنها في الواقع ورودك".

"أعرف ذلك. لكن شكراً على تصرفك".

"أهلاً بك".

"تأثرتُ لأنك تذكرت".

ما زلت منزعجاً من اقتراحها بأنني أبحرت حول العالم لأنني كنت يائساً، ومحطم القلب، وباحثاً عن الشفقة، ورجلاً محطماً يحاول الانتحار. لا تفهم النساء السلوك غير المسؤول، ولذلك عدت إلى الموضوع المغلق وقلت لها: "كان هذا تحدياً".

"ماذا؟".

"إبحاري حول العالم في مركب صغير".

"أوه... ظننت أنك قلت إن الموضوع...".

"يستمتع الرجال بالخطر".

"حسناً... لا أظن أن الأشخاص المنتظرين في المنزل يستمتعون بذلك، لكنك أنت فعلت، وأتمنى أن تكون نسيت الأمر الآن".

"ربما". بعد هذه الملاحظة، قررت المغادرة فيما كنا لا نزال نتحدث، ولذلك قلت لها:"لا أريد أن تتأخري على زيارة دار العبادة بسببي. لِمَ لا نلتقي غداً؟".

"لا أظن أنني في مزاج للقاء الأشخاص في دار العبادة".

لا أظن أن هدف زيارة دار العبادة هو لقاء الأشخاص، ولا أعرف أي نوع من المزاج يحتاج إليه الشخص للالتقاء بهم هناك، لكنني قلت: "قد تشعرين بالتحسن إذا ذهبتِ إلى دار العبادة".

تجاهلت هذا وسألتني: "لماذا لا نقوم بنزهة؟".

فكرت في ذلك ثم قلت: "حسناً".

خلعت سترتي وعلّقتها على الكرسي ثم توجهنا خارج بوابة الحديقة. حملت سوزان وردة.

كان هذا شبيهاً بالأوقات القديمة، لكنه ليس واحداً منها. ولن يكون أبداً مجدداً. لن نعود إلى بعضنا مجدداً، لكن حين نقول هذه المرة "وداعاً"، يمكننا القول أيضاً "فلنبقَ على اتصال". سيكون هناك المزيد من الجنازات وحفلات الزفاف والولادات والميلاد، وسيكون هناك أشخاص جدد في حياتنا، وسيكون ذلك جيداً، ونستطيع التواجد في الغرفة نفسها مع بعضنا، ونبتسم لبعضنا. سيحب أصدقاؤنا وعائلتنا ذلك.

كانت الأمور جيدة حتى الآن، وبعد عشرة أعوام، مع الأخذ في الاعتبار كل ما حصل وما يمكن أن يحصل في حياتنا، يمكن القول إنها أعجوبة صغيرة لأننا نقف هنا ونتحدث ونتشارك في نزهة معاً.

الفصل الثالث والعشرون

مشينا على المرج الممتد نحو الشجيرات في البعيد.

كانت سوزان حافية القدمين، علماً أنها تحب المشي هكذا حول العقار، وتساءلتُ ما إذا كان أمير نسيم يوافق على القدمين الحافيتين. لكننا لا نزال في ملكية سوزان، ولذلك يبقى الأمر مسموحاً إلى حين دخولنا إلى الملكية الإيرانية.

تحدثت سوزان قليلاً عن العقار فيما مشينا وقالت: "آل غانز... كانا الزوجين اللذين بعت لهما المنزل... ديان وباري غانز؛ هل التقيت بهما؟".

"قليلاً، بعدما غادرت. كانا يتصلان مرة في الأسبوع تقريباً لسؤالي عن كيفية سير الأمور، أو عن سبب عدم سير بعض الأمور".

"آسفة".

"حاولت المساعدة، لكنني ذكّرتهما بأنني لست أنا من باع لهما المنزل".

لم تجب عن ذلك، ثم قالت: "كان هذا تصرفاً متهوراً. بيع المنزل. لكنني كنت... محطمة. وكان أهلي يلحّان عليّ للانضمام إليهما في هيلتون هيد".

مع ويليام وشارلوت، الإلحاح يعني الضغط، وتساءلتُ ما إذا أدركت سوزان الفرق خلال الأعوام العشرة الماضية.

كما أن بيعها المنزل وانتقالها بعيداً يقضي على أي احتمال لتصالحنا مجدداً، وهذا سبب رئيسي وراء إلحاح آل ستانهوب عليها للانتقال.

بالإضافة إلى ذلك، قتلت سوزان سيد المافيا، ومن الأفضل دائماً مغادرة المنطقة عند فعل شيء كهذا.

إلا أن سوزان قدّمت لي شرحاً مختلفاً وتابعت القول: "استولت الحكومة على ستانهوب هال من... حسناً، أنت تعرف ذلك. ولم أكن واثقة ما إذا كنت سأصبح محاطة بتقسيمات فرعية، مثلما كان يحصل... في الجوار... ولذلك بعت المنزل".

لم أجبها، لكنني لاحظتُ أنها تتفادى لفظ اسم فرانك بيلاروزا أو الحمرا. ربما لا تستطيع ذكر اسم عشيقها، أو أين عاش. أو على الأرجح، تظن سوزان أنني لا أريد سماع اسم فرانك بيلاروزا أو الحمرا. لكن هذا ليس آخر حقل ألغام نصادفه في نزهتنا، ولكي أظهر لها أنني لم أعد أتأثر إطلاقاً، قلتُ لها: "شاهدت المنازل في الحمرا"، وأضفت مع اختيار سيئ للكلمات: "لا بد من أن فرانك بيلاروزا يتململ في قبره". ثم أضفت: "آسفٌ".

بقيت سوزان صامتة لبرهة، ثم عادت إلى موضوع الزوجين غانز وقالت: "لقد اعتنيا جيداً بالعقار، لكنهما زرعا هذه الشجيرات بحثاً عن الخصوصية وحجبا الرؤية. لكن مع وجود أناس الآن في ستانهوب هال، يمنحني ذلك بعض الخصوصية. لذا، لا أعرف ما إذا كان يجدر بي نزعها. ما رأيك؟".

"تعايشي معها لمدة سنة، ثم قرري".

"فكرة جيدة. آخذ حمامات شمس على المرج، وقد تكون هذه مشكلة بالنسبة إلى المالك الجديد".

"أعرف ذلك".

"أوه، هل التقيت به؟".

"نعم".

سألتني: "وماذا قال؟".

"ارتداء ثياب محتشمة".

"نعم، أعرف. عمَّ تحدثتما أيضاً؟".

"حسناً، رتّبت معه مسألة بقائي في منزل الحراسة بعد موت إيثيل".

"حقاً؟ لكم من الوقت؟".

"حتى الأول من سبتمبر. إذا بقيتُ هنا حتى ذلك الوقت. ثم يريد استرداد ملكيته". أضفت: "يريد نسيم إسكان... أحد موظفيه في منزل الحراسة". سألتها: "هل أخبرك هذا؟".

"لا. لم نتحدث أبداً عن هذا". ثم أبلغتني: "أراد شراء منزل الضيوف مني. هل ذكر الأمر أمامك؟".

"نعم".

تابعنا نزهتنا على المرج المشمس، وقالت لي: "قدّم لي عرضاً كريماً جداً لشراء منزل الضيوف والأرض. بدا منزعجاً حين رفضتُ عرضه".

لم أجبها، ولم ألحّ عليها أيضاً لقبول العرض. قررت أيضاً عدم التطرق إلى مسألة مخاوف أمير نسيم الأمنية في الوقت الحاضر. يجب مناقشة هذا بالترافق مع مخاوفي من أنطوني بيلاروزا، لكنني أريد الاحتفاظ بهذا حتى النهاية.

لقد تغيرت سوزان بلا شك، مثلما تغيّرنا جميعاً خلال السنوات العشر الماضية، لكنني أعرف هذه المرأة، وأنا واثق تماماً من أنها تعتبر مخاوف أمير نسيم سخيفة أو مجنونة، أو أسوأ، حقيقية؛ لكنها لا تهمها. وبالنسبة إلى الخطر المحتمل من السيد أنطوني بيلاروزا... حسناً، قد تفهم ذلك على صعيد ما، لكنها تتجاهله على صعيد آخر. ترعرعت سوزان في بيئة محمية ومحظية، وأنا واثق من أنها لم تتغير كثيراً في هيلتون هيد. كنت أظن أنها مصابة بتناذر "ماري أنطوانيت"؛ لكن ليس لدرجة "فليأكلوا البسكويت"، وإنما لدرجة عدم تفهم رغبة أي شخص في القضاء عليها، من دون ذكر الطرائق الملائمة للاعتذار من منفذ إعدامها حين اقتربت من المقصلة.

حسناً، ربما تغيرت خلال السنوات الماضية، لكنني لا أرى الكثير من ذلك. إلا أنني لاحظتُ أنها تبدو أقل جنوناً. أو ربما تحتفظ بذلك لمناسبة خاصة لاحقاً،

بعدما نعتاد على بعضنا.

سألتها: "لماذا عدتِ؟".

أجابت: "اشتقت إلى المنزل". ثم سألتني: "هل اشتقت أنت إلى المنزل؟".

فكرت في ذلك ثم أجبتها: "المنزل ليس مكاناً".

"ما هو إذاً؟".

"إنه... ناس: عائلة، أصدقاء... ذكريات... هذا النوع من الأمور".

"حسناً؟ ولم تشتق إلى هذا؟".

"فعلتُ ذلك في البداية. لكن... الوقت يشفي والذكريات تخبو". أضفت: "قد يسبب المنزل الاختناق أيضاً. احتجت إلى التغيير".

"وأنا أيضاً، لكنني شعرت بالإحباط هناك". ثم أضافت: "لم أشأ الموت في هيلتون هيد".

"لا، سيكون ذلك فائضاً عن الحاجة".

كادت تضحك، ثم قالت: "إنه مكان جميل. أظن أنك تحبّه".

"لا أظن أنني سأزوره يوماً".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت: "احتفظت بمكاني هناك... فإذا أردتَ يوماً ما استخدامه، فأهلاً بك".

"حسناً... شكراً".

"إنه قرب الشاطئ، وقرب ملعبين للغولف. مكان مريح جداً".

"يبدو... مريحاً". هكذا، انتقلنا من مجرد التحدث، إلى عرضها لي لزيارة منزل الشاطئ للاسترخاء. إنها تحاول، وأنا لا. فكرت ربما، مثلما اقترح نسيم، أنها في رحلة حنين، ولهذا السبب انتقلت إلى هنا، وأنا أدخل نوعاً ما ضمن ذكريات الماضي السعيدة. على أي حال، كانت حياتي منسيّة أو ما شابه، فيما حياتها هي تعود إلى ماضٍ لم يعد موجوداً ولا يمكن إحياؤه أبداً.

عادت إلى موضوع منزلها في هيلتون هيد وقالت: "أعدت تأثيثه بالكامل، ونقلت كل أغراضي إلى هنا".

"لاحظتُ ذلك". ثم سألتها: "إذاً، أنتِ سعيدة بالعودة؟".

"نعم. تعرف، تشعر أحياناً في صميم قلبك أنك قمت بالخطوة الصحيحة".

"جيد". لم أستطع مقاومة الانخراط في الحديث فقلتُ لها: "أنا واثق من أنّ والديك يشتاقان إليك، لكنهما سعيدان لأجلك".

ألقت نظرة عليّ، وهي تعرف من تجربة طويلة أن كل ما أقوله عن والديها هو للسخرية أو التهكم، أو مجرد كلام مزعج. قالت لي: "لكي أكون صريحة، احتجت

إلى تمضية وقت أقل معهما”.

“لا أتخيل السبب”.

تجاهلت هذا، وتابعت: “بعدما مات دان... أدركتُ أنه ما من سبب لبقائي هناك... أقصد، كارولين هنا. إدوارد يأتي إلى نيويورك أكثر مما يذهب إلى هيلتون هيد، وما زلت أملك عائلة وأصدقاء هنا”.

وعدو في العقار المجاور. ألاحظ الآن أن سوزان لا تفكر في مغادرة المكان بسبب وجود أنطوني بيلاروزا في الجوار. أفضل ما أستطيع تمنيه هو إبلاغها عن المشكلة والوضع الذي وضعت نفسها فيه. وإذا كنت سأعمل مع أنطوني بيلاروزا، فقد يلهيه ذلك عن انتقامه. لكن في النهاية، لا يهم فعلاً إذا كنت أعمل مع السيد بيلاروزا أم لا، ولا يهم أين تعيش سوزان. يشمّ أنطوني بيلاروزا رائحة الدم، وعندما يحين الوقت، يتبع رائحة الدم إلى نهاية العالم.

قبل أيام قليلة، كانت حماية سوزان مجرد فكرة. والآن، أصبحت حقيقة فيما هي برفقتي.

الشيء الجلي الممكن فعله هو إبلاغ الشرطة المحلية، وكذلك الأف بي آي. إذا وضع القانون يده على قضية أنطوني في ما يتعلق بسوزان ساتر، وأخبره بضرورة عدم التفكير في تصفية حساباته، يكون ذلك كافياً لحماية سوزان.

من جهة أخرى، قتلت سوزان والد أنطوني، وأفلتت من العقاب، ولا أظن أن أنطوني بيلاروزا سينسى الموضوع. حسناً... ما كان والده ليبدّل رأيه عن الانتقام لقتل أحد أفراد العائلة، لكن أنطوني مصنوع ربما من طينة مختلفة عن والده. وأتمنى أن يقدّر أنطوني على الأرجح حريّته أكثر مما يقدّر مفهوم شرف العائلة والانتقام. لا أملك ببساطة الجواب على هذا السؤال، ولا أريد التخمين بصورة غير صحيحة، أو اختبار أي من الافتراضين. هذه مشكلة كبيرة، وتتفوق على كل مشاكلي الصغيرة.

سألتني سوزان: “فيم تفكر؟”.

“أوه... في... عمَّ كنا نتحدث؟”.

“عن والدَيّ. ويجعلك ذلك عادة في مزاج سيئ”.

“على الإطلاق. كيف حالهما؟”.

“بخير”.

“لا بد أنك تشتاقين إليهما”.

صمت، ومن ثم: “لأقول لك الحقيقة، يدفعانني إلى الجنون أحياناً”.

إنها رحلة قصيرة، لكنني ذكّرتها: “قلت إنهما أصبحا أكثر لطفاً”.

“حسناً، صحيح، لكن... يحبان الاهتمام بي”.

“أذكر ذلك”. في الواقع، ومثلما قلت قبلاً، يعتبر ويليام وشارلوت ستانهوب غريبيّ الأطوار ومراوغين. هو ليس خسيساً وحسب، وإنما أيضاً ثعبان عديم الضمير. شارلوت، النصف الآخر من هذا الثنائي المصاب دينامياً بخلل وظيفي، هي صانعة مشاكل بوجهين. باستثناء ذلك، فإنهما شخصان ممتعان.

فكّرت في أن سوزان تحاول جزئياً إعادة صياغة ماما وبابا على أنهما مواطنان صالحان - لطيفان وكل ذلك - ولن تبقى هذه مشكلة بيننا، إذا عدنا إلى بعضنا بطريقة ما. حسناً، الطريقة الوحيدة التي يتوقف فيها ويليام وشارلوت عن إزعاجي هي حين يموتان ويدفنان. وفيما فكرت في ذلك، سألتها: “كيف حالهما؟ هل من مشاكل صحية؟”.

فكّرت في هذا السؤال ثم أجابت: “ليس حسب علمي”. ثم أضافت: “سيأتيان لحضور دفن إيثيل”.

كنت أخشى ذلك. تمنّيت ألا يحضرا دفن خادمة قديمة، لكن مثلما قلت، هذا هو شعور النبل الذي يسيطر على العائلات القديمة، وسيبقى ويليام وشارلوت وفيَّين لذلك، حتى لو لم يكن هذا سهلاً، من دون ذكر نفقات السفر. سألتها: “هل سيقيمان في الكريك؟”.

“لقد تخليا عن عضويتيهما فيه”.

“فهمت. حسناً، عضوية النادي مكلفة”.

“لا يأتيان إلى هنا كثيراً لزيارة النادي”.

“صحيح. ومع ارتفاع سعر تذاكر الطيران، اعذريني...”.

“ليس المال هو المشكلة، جون. إنه... يملكان أسباباً أقل للقدوم إلى نيويورك”.

“حسناً، أنت هنا الآن. لم تغادر كارولين أبداً. ولديهما هنا أصدقاء يحبّونهما، وأنا واثق من أنك سترين الكثير منهم أكثر مما توقعت”. كنت لطيفاً، وكان الجو جيداً، ولذلك تابعت: “ولا أريدهما أن ينفقا كل ذلك المال على الإقامة في فندق، ولذلك يمكنهما استخدام غرفة إيثيل في منزل الحراسة. سأحب...”.

“جون. توقف”.

“آسف. كنت أحاول فقط”.

“لست من النوع المسامح، أليس كذلك؟”.

“ما كان تلميحك الأول؟”.

فكّرت في ذلك، ثم قالت: “إذا كنت لن تسامح، ولن تنسى، يمكنك الشعور على الأقل بالارتياح لأنك ربحت”.

“ربحت؟ ماذا؟”.

“ربحت كل شيء”.

“ظننت أنني خسرت كل شيء”.

“صحيح، لكنك ربحت بهذه الطريقة”.

“يبدو هذا غريباً”.

“أنت تعرف عمّا أتحدث، ولذلك انسَ الموضوع”.

“حسناً”.

عادت إلى الموضوع الأول وقالت: “سيقيم والداي معي”.

كنت أخشى ذلك أيضاً. لا أريدهما فعلاً الإقامة في العقار. لم يكن عرضي لاستقبالهما صادقاً.

تابعت سوزان: “وكذلك إدوارد وكارولين. من الجميل عودتهما إلى غرفتيهما القديمتين”.

أومأت برأسي.

تابعت: “أودّ دعوتك لتناول العشاء أو الكوكتيل... مثلما تشاء”.

لم أجبها.

قالت: “سيكون أقل غرابة، مع وجودك هنا في العقار، إذا لم تشعر أنك مضطر إلى تفادي رؤية والديّ... أو أنا. سيقدّر الولدان ذلك كثيراً”.

“أعرف ذلك سوزان”.

“إذاً؟”.

فكّرت في هذا الاجتماع العائلي، وفي إطراءات إيثيل. أنا أتطلّع إلى رؤية ولديّ، لكنني أستطيع رؤيتهما من دون أهل زوجتي السابقة. الشيء الآخر... حسناً، إذلالي العام لتعرضي للخيانة من قِبَل زوجتي الجميلة، وطلاقي منها، وعدم التحدث إليها طوال عشرة أعوام. أشعر أنني انتقمت، ولم يُمسّ كبريائي. أنا مستعد، نظرياً، مثلما قلت، للتواجد معها في الغرفة نفسها، والابتسام والتحدث معها. لكن حقيقة تواجدي في منزل زوجتي السابقة الخائنة، والجلوس على الطاولة مع ولدينا وأهلنا... سوزان، حبيبتي، هل تمرّرين لي البازيلاء؟ ويليام، هل أسكب لك المزيد من الشراب الفرنسي؟ حسناً، لا أظن أنني مستعد لذلك.

“جون؟”.

“حسناً... لا أظن أن والديك يرغبان في الجلوس معي...”.

“لا أهتم بما يريدانه. يمكنهما تناول العشاء خارجاً إذا لم يحبا ذلك. أنا أسألك أنت إذا كنت تحب تناول العشاء في المنزل معي أنا وإدوارد وكارولين”.

“نعم، أريد”.

“جيد. سيكونان سعيدين جداً حين أخبرهما”.

“هل أستطيع إحضار صديقة معي؟”.

نظرت إليّ، ولاحظت أنني أمزح، فقمعت ابتسامة، ثم وخزتني على الذراع وقالت "غير مضحك".

تابعنا المشي حول الأكرات العشرة، وكانت تشير بين الحين والآخر إلى أشياء فعلها آل غانز، أو إلى شيء جديد قامت به خلال الأشهر القليلة التي مضت منذ عودتها، وكانت تلاحظ أيضاً كم أن العقار لم يتغير كثيراً. قالت: "أصبحت الأشجار أكبر، وبقيت كلها على قيد الحياة، باستثناء شجرة الزان التي كانت هناك. أودّ استبدالها، لكن هذا يكلّفني ثلاثين ألف دولار تقريباً".

أردت الاقتراح عليها أن يدفع والداها الثمن كهدية استضافة، وقد أذكر لهما الأمر إذا جاءا إلى العشاء. ستختنق شارلوت حتى الموت وهي تتناول حبة الزيتون، وسيصاب ويليام بنوبة قلبية قاتلة. ربح مئة بالمئة.

في الواقع، قد تكون هذه فرصتي لإجراء مصالحة مع ويليام بالاعتذار له عن مناداته: "أحمق من دون مبادئ، ولعين شكاك، وخسيس ضخم، وحقير متآمر". أعتقد أن هذا حصل في المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها. لذا، ربما حان الوقت لأعتذر عن استخدامي لغة سيئة، وأعيد تركيب الجملة بلغة مرتبة، وأسأله إذا تخطى هذه المشاكل.

ذكّرتني سوزان: "هنا كان الولدان ينصبان الخيَم خلال الصيف. هل تصدّق أننا كنا نسمح لهما بالنوم خارجاً وحيدَين؟".

"كانا مع أصدقائهما عادة. والمكان آمن جداً داخل الجدران". أو هكذا كان.

قالت سوزان: "منزلي في هيلتون هيد محاط بسور كبير".

"حقاً؟". طبعاً.

"يصعب التصديق أن كارولين وإدوارد يعيشان في شقة صغيرة من دون بوّاب أو شوارع مدينية مزدحمة، وهما يحبان ذلك".

"إنهما شابان ويحبان المغامرة".

"ولا يخافان. أنا مسرورة لأننا لم نفرط في حمايتهما أو تدليلهما".

"حسناً، ثمة فاصل صغير بين الحماية والحماية المفرطة، وبين التوقير والتدليل". من دون أن نذكر طبعاً قلة الحماية وقلة الاهتمام، وهذا ما حصل في تربيتي، لكنني أفضل هذا على التربية التي حظيت بها سوزان.

الخلاصة في هذه المحادثة هي تذكير سوزان لي بأننا فعلنا الشيء الصحيح. كنا والدَين صالحَين، ويبقى ذلك مصدر فخر، ورابطاً يجمعنا. أفسدنا الأمر طبعاً في النهاية، لكن حين انفصلنا، كان إدوارد وكارولين في طريقهما إلى العالم الحقيقي.

قالت لي سوزان: "لو أستطيع إعادة الساعة إلى الوراء، لفعلت ذلك".

بدا وكأنها نادمة على ما فعلته، أو مثلنا جميعاً، بما في ذلك أنا، نادمة على الإمساك بها. لا بد أن العلاقة الغرامية نفسها كانت محفزة عاطفياً... أقصد، لم

تكن تقيم علاقة مع مدرّب تنس في النادي، وإنما كان سيد المافيا. لذا، لا أعرف ما إذا كانت نادمة على العلاقة، أو عواقبها. يعتمد ذلك على مدى رغبتها في إعادة تلك الساعة إلى الوراء.

ولكي أكون صريحاً هنا، خلال الوقت الذي كنا فيه أنا وسوزان غريبين، وننام في غرفتين منفصلتين، أقمت علاقة قصيرة مع مراسلة أخبار تلفزيونية اسمها جيني ألفاريز، وكانت مشهورة محلياً في ذلك الوقت. التقيت بها لأنها كانت تغطي تهمة القتل ضد فرانك بيلاروزا، وكنت أنا طبعاً محامي سيد المافيا. لم أندم أبداً على علاقتي بجيني ألفاريز، لأنه ربما لا توجد أي عواقب كريهة، ولأنني طبعاً شعرت بالعدل لأن زوجتي كانت تقيم علاقة مع زبوني الشهير. حسناً، سواء أكان ذلك مبرراً أم لا، كنت ألعب بالنار في وقت لم نكن نحتاج فيه أنا وسوزان إلى المزيد من النار. لطالما شعرت أنه يجدر بي إخبار سوزان عن هذه العلاقة الحميمية الوجيزة - مثلما أسميها لأميزها عن علاقتها الغرامية - لكنني لست واثقاً ما إذا كانت دوافعي للاعتراف هي الدوافع الصحيحة للحقيقة والصراحة وتخفيف العبء عن روحي. أو أنني أكون متباهياً، محاولاً إيذاءها، أو محاولاً جعلها تغار؟ لذا، وبما أنني لم أستطع حسم قراري، أبقيت الأمر سراً في داخلي.

لكن ربما حان الوقت لإخبار سوزان بأنها لم تكن الوحيدة في ارتكاب خطيئة الزنى. قلت لها: "سوزان...".

"نعم؟".

"حسناً... هل تذكرين مراسلة الأخبار التلفزيونية جيني ألفاريز، التي كانت في إحدى محطات الشبكة؟".

"لا... لا أظن ذلك".

وصفت لها الآنسة ألفاريز، لكنها لم تستطع تذكر السيدة، وسألتني: "لماذا تسأل؟".

"حسناً... كنت أتساءل فقط ما إذا كانت تبث الأخبار على الهواء".

"لا أشاهد كثيراً أخبار التلفزيون".

"صحيح. إذاً، قال لي السيد نسيم إنك أنت وزوجته... سهيلة، صح؟".

"نعم...".

"أصبحتما صديقتين".

"حسناً، أفترض... لكن...". بدت مرتبكة وسألتني: "لماذا كنت تسأل عن مراسلة التلفزيون تلك؟".

عدت إلى رشدي وقلت لها: "كنت أحب تقاريرها، ولا أستطيع العثور عليها في أي من المحطات".

هزّت سوزان كتفها وقالت: "ظهرت عشرات المحطات الجديدة بالكابل منذ أن غادرت".

"صحيح. إذاَ، يبدو إدوارد سعيداً بالعمل مع ستوديو مهم للأفلام".

سُرّت سوزان بالعودة إلى موضوع ولديها وأجابت: "إنه يحب ما يفعله؛ مكتب التطوير، أو ما شابه. وأنا متفاجئة أيضاً لأنه يحب لوس أنجلوس".

"وأنا أيضاً. أين أخفقنا؟".

ابتسمت وقالت: "لكنني أظن أنه يشتاق إلى الساحل الشرقي".

"ربما".

"جون، هل تظن أنه سيبقى هناك؟".

"ربما. عليك تقبّل ذلك".

أومأت برأسها، ثم قالت: "حسناً... تستغرق الرحلة ست ساعات فقط".

"صحيح".

أضافت: "ترعرعت في عائلة متماسكة... ظننت أن هذا طبيعي".

"لم يعد كذلك".

أومأت برأسها مجدداً، ثم قالت: "على الأقل لا تزال كارولين قريبة. لكنني لم أعد أراها كثيراً. إنها منشغلة جداً".

"العمل كمساعدة محامٍ يستغرق الكثير من الساعات، وهو عمل مسبب للتوتر".

"أعرف. تقول لي ذلك". نظرت إليّ سوزان وقالت: "ألست فخوراً بأنها حذت حذوك؟".

لم تكن كارولين تحذو حذوي تماماً. فأنا كنت محامياً في وول ستريت وجنيت الكثير من المال. أما كارولين فتعمل مقابل شيء زهيد، مثلما يفعل العديد من الأولاد، وهي تعاقب المجرمين، مما فاجأني نوعاً ما؛ لأنها كانت تتخذ في ما مضى وجهة نظر مثالية عن حقوق الدفاع عن المجرمين. لكن ثلاث سنوات في النظام القضائي الإجرامي فتح عينيها قليلاً ربما. قد تعمل يوماً ما مع فريق الادعاء في قضية الدولة مقابل أنطوني بيلاروزا. قلت لها: "أنا فخور بها".

"هل تظن أن هناك احتمال لانضمامها إلى شركتك القديمة؟".

لا يوجد احتمال لانضمامي أنا إلى شركتي القديمة، ولا أظن أن الشركاء الآخرين من بركينز، بركينز، ساتر ورينولدز يريدون أن يحلّ ساتر جديد مكان ساتر الميت أو المطرود. لقد احتفظوا بلا شك بالاسم، لعدم دفع تكاليف تغييره، ولأن والدي أيضاً كان أسطورياً في وول ستريت. وبالنسبة إليّ، حسناً... بدأ هبوطي من النعمة مع السيدة التي تسألني الآن عن كيفية الحصول على وظيفة لابنتها. هذا مثير للسخرية. وسخيف أيضاً. الانتقال التالي لكارولين لن يكون إلى شركة قانونية قديمة في وول ستريت، وإنما إلى نوع من جمعية الحريات المدنية، أو شركة إحسان من نوع ما. وهذا جيد. لا بد أن يمتلك شخص ما في هذه العائلة

قلباً طيباً. بالإضافة إلى ذلك، سينزعج ويليام. لكن للإجابة عن سؤال سوزان، قلت: "سأستفسر".

"شكراً". الموضوع هو التوظيف والقانون، ولذلك سألتني: "كيف حالك في لندن؟".

"جيدة".

"هل يمكنك التغيّب عن وظيفتك حتى سبتمبر؟".

"أنا في إجازة".

"إذاً ستعود".

بدا لي أن مشاريعي المستقبلية تهمّ الكثير من الأشخاص أكثر مما تهمني أنا. إلا أن الوقت قد حان ربما للتعبير علناً عن أفكاري، ولكي أكون صريحاً وغير غامض، قلت لها: "حين غادرت لندن، ظننت فعلاً أنني سأعود. لكن الآن، مع وجودي هنا، قررت البقاء في الولايات المتحدة. عدا ذلك، لا أملك مشاريع محددة. لكنني تلقيت عرض عمل".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت: "أنا مسرورة لسماع ذلك". ثم سألت: "أي نوع من العروض؟".

وبدلاً من القول: "مستشار للسيد بيلاروزا الجديد"، قلت لها: "من الشؤم التحدث عنه قبل أن يحصل".

ألقت نظرة سريعة عليّ، متسائلة ربما متى أصبحت أعتقد بالخرافات. قالت لي: "أبلغني إذا حصل ذلك".

"سأفعل".

نصحتني: "لكن يجدر بك أخذ إجازة في الصيف".

سوزان، مثل معظم الأشخاص الذين ولدوا في عالم المال القديم، كانت واثقة تماماً من هذا الموضوع، إذ لم يخطر في بالها أبداً أنني قد لا أتمكن من توفير المال اللازم للعمل ثلاثة أشهر على اسمراري. أقصد، إذا كنت تفتقد إلى بعض المال النقدي، تصرّف في دخلك السنوي. ما المشكلة؟

في ما يتعلق أيضاً بموضوع آل ستانهوب وأخلاقيات العمل، يتلقى إدوارد وكارولين اعتمادات مالية سنوية ولا يحتاجان فعلاً إلى العمل، لكنهما يعملان لإعطاء معنى لحياتهما، ولفعل شيء مثير أو شيء مفيد للمجتمع.

إلا أن شقيق سوزان، بيتر، هو إنسان عديم الفائدة، أمضى حياته واعتماداته المالية على تحسين فنّ الكسل والتراخي، باستثناء لعب التنس والغولف وركوب الأمواج، مما أبقى جسمه على الأقل في حال جيدة فيما أصيب دماغه بالضمور. لم يكن بيتر نموذجاً جيداً لولديّ أخته، لكنهما يعرفان ذلك لحسن الحظ.

هناك أيضاً ويليام، الذي نجح في الوصول إلى سنّ التقاعد من دون العمل ولو ليوم واحد في حياته، باستثناء إدارة مال العائلة. حسناً، ولكي أكون عادلاً، كانت هناك خدمته لمدة سنتين في خفر السواحل، والتي كانت إلزامية بسبب تلك الحرب العالمية المزعجة.

ولا ننسى شارلوت، التي كانت من نخبة المجتمع قبل الزواج من ويليام، وأصبحت سيدة مجتمع بدوام كامل. أفترض أن هذا قد يتطلب الكثير من العمل، لكن شارلوت لم تكن تتحمس كثيراً لملء خانة "المهنة" في استمارة ضرائب العائدات إلا إذا كتبت "مشغولة مع موظفي المنزل الكسولين".

بالنسبة إلى سوزان، حذت تقريباً حذو شقيقها؛ لكنها عادت واعتمدت المفهوم الجديد بضرورة الحصول على وظيفة، وحين التقيت بها، كانت تعمل بصفة السكرتيرة الاجتماعية الخاصة لوريثة دار نشر غنية ومشهورة في مانهاتن. إنها مهنة محترمة جداً بالنسبة إلى سيدة شابة من الطبقة الاجتماعية، وهي أشبه بسيدة في انتظار الطبقة النخبة.

التقينا عن طريق الصدفة، في حفل زفاف صيفي أقيم تحت النجوم في نادي يخوت سيوانهاكا الكورنثي. العروس كانت ضيفة، أو مثلما قلت لسوزان تلك الليلة، ضيفة في زفافها. أضحكها الأمر قليلاً ورقصنا. أما البقية، مثلما يقولون، فهي من التاريخ.

قبل بي آل ستانهوب في البداية بسبب أصلي، رغم أن المخاوف ساورتهم بشأن ثروتي الصافية. لكن في عالمهم، المهم من يكون أهلك، وأيّ مدرسة ارتدت، وما هي لكنتك، وما هي مهاراتك الاجتماعية. المال جيد، والمال من دون النَسَب شائع كثيراً في أميركا، وإذا كنت ويليام وشارلوت ستانهوب، وتحاول تزويج ابنتك، ابحث عن النسب وانسَ أمر المال، ولهذا السبب منحنا السيد والسيدة ستانهوب، وأمي وأبي، موافقتهم على زواجنا. إلا أنهما اكتشفا سريعاً أنهما لا يحبانني. كان الشعور متبادلاً، لكن الوقت كان قد فات. كنا أنا وسوزان مجنونين في حب بعضنا.

كان الزواج جيداً جداً، وفق كل المعايير، وإذا سألني أحدهم عن سبب المشكلة، لا أستطيع سوى القول "كانت تقيم علاقة حميمية مع سيد المافيا". لا شك في أنها كانت مجنونة أيضاً قليلاً، وأعترف أنني أستطيع أن أكون تهكمياً قليلاً أحياناً، لكننا كنا في معظم الأوقات سعيدين بحياتنا، وبولدينا، وببعضنا بعضاً.

إلا أنني أعتقد أن فرانك بيلاروزا كان مثل قوة حاقدة دخلت إلى الجنة، ولم يكن أحد مستعداً لذلك. لمتابعة موضوع العهد القديم، وإنما بطريقة مختلفة، قتلت حواء الأفعى، وإنما بقي آدم مفتوناً بسحرها وطلب الطلاق.

مشينا بصمت لبرهة، وكنت واثقاً من أنها تفكر هي أيضاً في الماضي، وتمنيت لو أنني أستطيع قراءة أفكارها، لرؤية ما إذا كانت توجد تشابهات بين ذكرياتها وذكرياتي. ربما لا. ما زلت أفكر في السلبيات، وأنا واثق من أنها تفكر في أمور أكثر سعادة.

قلت لها: "هل تودّين العودة إلى المنزل؟".

أجابت: "لا. أنا أستمتع بهذه النزهة". ثم أضافت: "مثل الأيام القديمة، جون".

في الواقع، إذا استطعنا محو أو نسيان نصف السنة التي دمّرت كل السنوات التي سبقتها والسنوات العشر التي تلتها، يكون الوضع أفضل من الأيام القديمة. إنه يوم أحد صيفي آخر نمضيه معاً.

هكذا، مشينا، مثل الأيام القديمة، لكننا لم نعد نمشي يداً بيد.

الفصل الرابع والعشرون

مشينا في معظم أكراتها العشرة، باستثناء المساحة المشجرة حول إسطبلها، وظننت أنها تتفادى ذلك ربما. لماذا؟ لأن الإسطبل يعيد إليها ذكريات السيد بيلاروزا، جارنا الجديد، الذي أصرّ أن تقوم شركة البناء خاصته بإزالة إسطبلات ستانهوب القديمة من أرض ويليام، التي كانت معروضة للبيع، إلى ملكية سوزان. كانت هذه مهمة شاقة فعلاً، إذ توجب هدم البناء الذي كان عمره مئة عام، حجراً حجراً، ومن ثم إعادة إعماره قرب منزل الضيوف. بالإضافة إلى ذلك، احتجنا إلى رخصة، لأن الإسطبل سيستتبع قريباً بعقار الحمرا، وتوجب على فرانك بيلاروزا التوقيع على تلك الرخصة، وكان سعيداً بفعل ذلك من أجلنا – أو من أجل سوزان. ثم أعطانا رجل بيلاروزا، دومينيك، تقديراً بدا وكأن السيد بيلاروزا نفسه تحمّل معظم الكلفة.

أقصد، هل حزرت يومها أن فرانك كان معجباً بسوزان؟ حسناً، نعم. هل كنت منزعجاً؟ لا. هل رأيت أن الأمر مسلّ؟ نعم. هل ظننت أن سوزان ستانهوب ستذهب في النهاية إلى السرير مع سيد المافيا؟ ليس في مليون سنة. هل كان يجدر بي الانتباه أكثر إلى ما يجري؟ يبدو ذلك. هل أنا غبي؟ لا، لكنني كنت منشغلاً في مشاكلي الضرائبية الخاصة، وكنت واثقاً جداً من أفكاري. كنت مغروراً جداً للتفكير حتى في مثل هذا الشيء.

ولم أشك كثيراً في أن صديقي، فرانك بيلاروزا، أصرّ على إصدار تهمة التهرب من الضرائب المدمّرة لي بحيث يفرض بعض القيود ويجعلني أتقيد، فيرميني في ديونه، بدلاً من أن يرميني في ديون خدمة عائدات الضرائب. ومن السيئ جداً أن يواجه محامي ضرائب مشكلة ضريبية، لكن حلّ المشكلة بمساعدة سيّد المافيا لم تكن إحدى خطواتي الذكية. من جهة أخرى، نجح الأمر.

حسناً، تعلمت بلا شك درساً أو اثنين عن الحياة، وعني، وعن سحري وصمودي. أقصد من كان ليظن أنّ السيد بيلاروزا، رئيس عائلة مافيا، وسوزان ستانهوب، من عائلة أكثر شهرة نوعاً ما، سيكون لديهما الكثير للتحدث بشأنه؟ في الواقع، لم يكن هناك الكثير. كان الأمر أشبه بأنت جاين وأنا طرزان.

رأيت الإسطبلات الآن وسألتها: "هل ما زلت تمارسين الفروسية؟". نظرت إلى حيث كنت أنظر وأجابت: "نعم، لكنني لا أملك جواداً. أمتطي قليلاً صهوة جواد مزرعة في بروكفيل القديمة".

أومأت برأسي وتذكرت الليلة التي قتلت فيها فرانك بيلاروزا. سرجت حصانها، وهو فحل عربيّ اسمه زنجبار، وقالت لي إنها ذاهبة في نزهة ليلية، فقلت لها إن الأمر خطير، لكنها أشارت إلى أن القمر بدر، والليلة ساطعة، وانطلقت.

بعد ساعتين تقريباً، ضغط السيد فيليكس مانوسكو من الأف بي آي جرس بابي، وطلب مني بتهذيب الذهاب معه إلى الحمرا. عرفت في قرارة نفسي أن سوزان

قتلت عشيقها.

كان زملاء مانوسكو يسكنون أصلاً في منزل فرانك بيلاروزا منذ أن أصبح شاهداً حكومياً، وأنجزوا عملاً رائعاً جداً في إبقائه آمناً بعيداً عن أصدقائه السابقين. إلا أن الأف بي آي لم تدرج، لسوء الحظ، السيدة ساتر على لائحة الأشخاص الذين لا يسمح لهم بالنفاذ إلى السيد بيلاروزا. في الواقع، كانت سوزان تتصدّر لائحة الأشخاص الذين يملكون حق النفاذ غير المشروط إلى فرانك، لأنه جرى إبلاغهم: "يحتاج فرانك إلى بعض المرح ليبقى سعيداً ويتحدث". لكن كان يجدر بأحدهم التذكر أن: (أ) المرأة من هذا النوع أكثر خطورة من الرجل، (ب) لا شيء أسوأ من المرأة الغاضبة.

حسناً، ينسى الرجال هذا أحياناً، حتى رجال الأف بي آي، ولكي أكون عادلاً، لم يكونوا على علم، ربما، بالأمر (ب) حتى سمعوا الطلقات النارية.

سوزان، التي تمشي الآن قربي، كانت تفكر على ما يبدو في الأحصنة وليس في فرانك بيلاروزا أو الجريمة؛ لأنها قالت لي: "تضاءل كثيراً عدد الأماكن التي يستطيع المرء ركوب الخيل فيها الآن. تم إغلاق الكثير من نوادي الفروسية، وتحول العديد من الحقول المفتوحة والعقارات القديمة إلى أراضٍ مجزأة".

مثل الحمرا. قلت، بصراحة مكرهة: "هذا مؤسف جداً". تذكرت أن أحد مخاوف سوزان، بعدما أطلقت النار على عشيقها وقتلته، هو استمرار وجود زنجبار خلف منزل فرانك. وعدتها بأن أعيده إلى المنزل تلك الليلة، وهذا ما فعلته. لم أكن مولعاً كثيراً بحيوانها القوي، وإنما فككت سرجه وقدّمت له الماء، لكنني لم أمشطه، ولو عرفت ذلك، لكانت قتلتني. حسناً... اختيار سيئ للكلمات مرة أخرى.

قالت: "حوّل ثنائي آل غانز منزل الأغراض إلى كاراج، واستخدما الإسطبلات لتخزين معدات المرج والاعتناء بالحديقة، وهذا ما أفعله".

"فكرة جيدة".

"أشتاق فعلاً إلى زنجبار. أشتاق إلى امتلاكي جواداً خاصاً بي. هل تشتاق إلى يانكي؟".

يانكي كان جوادي، وكنت أكرهه أقل قليلاً مما كنت أكره زنجبار، لكنني أجبتها: "أفكر فيه غالباً".

رمقتني بنظرة ثم قالت: "حسناً، عثرت على أماكن جيدة لهما".

كنت مسروراً لأن الجوادين، على الأقل، حظيا بمكان جيد بعدما غادرت.

كان صباحاً مثالياً، مع طقس جيد على الأقل، ونسيت كم كانت هذه الأراضي الشبيهة بالحدائق العامة رائعة. فقد تم زرع كل الثلاثمئة أكر من عقار ستانهوب الأصلي بعينات أشجار باهظة وغريبة جيء بها من كل أنحاء العالم، وكان عمر العديد من هذه الأشجار يتخطى المئة عام. تم إهمال العقار خلال العقود القليلة

الماضية، لكن سوزان - وآل غانز - حافظت على هذه الأرض الممتدة على عشرة أكرات، ولاحظت أن أمير نسيم يعتني أيضاً بعقاره.

بالعودة إلى هنا، بعد العديد من السنوات، صعقت لأنه لا تزال هناك الكثير من العقارات الضخمة الباقية في الشاطئ الذهبي، على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من مانهاتن، محاطة بضاحية تضم أكثر من مليون شخص. ثمة ضغط كبير لتطوير الأرض المتبقية بهدف بناء قصور صغيرة لأصحاب الملايين الجدد، لكن سلالة جديدة من أصحاب الملايين الكثيرة، بمن فيهم الأجانب مثل أمير نسيم، والأشخاص الذين يشكك في مصدر ثرواتهم مثل فرانك بيلاروزا، وصلوا مع موارد مالية كافية لشراء العقارات القديمة من العائلات القديمة، وضخّ حياة جديدة فيها.

لكن قبل حصول ذلك، هناك قرابة مئة عقار رائع أو أكثر تم إهمال قصورها بسبب الضرائب، أو تقلب الثروات، أو كلفة الصيانة، وحين كنت شاباً، كانت هذه الأطلال تزين المنظر الطبيعي وتجعل المشهد، مثلما يوافقني أنطوني بيلاروزا، يبدو وكأن جيشاً من الفاندال مرّ عبر مساحة واسعة من الإمبراطورية. وحين كنت شاباً أيضاً، كانت هذه القصور العملاقة المكان المثالي لممارسة ألعاب التظاهر الزائف. وحين أصبحت أكبر سناً، لعبت لعبة من نوع مختلف، اسمها الحب بين الأطلال؛ بعض الشموع، قنينة شراب فرنسي، راديو صغير، فراش، وسيدة شابة متحررة حديثاً وتتناول حبوب منع الحمل.

ذكّرني كل ذلك بأن أحد مواهب سوزان المتعددة كان رسم اللوحات الزيتية، وكانت تحب خصوصاً رسم هذه القصور المهجورة. كانت مشهورة محلياً بتجسيداتها الرومنسية لهذه الأطلال المغطاة بالنباتات، التي رسمتها بروح، إن لم يكن بأسلوب، نقوش بيرانيسي في الأطلال الرومانية. إلا أن التنوع الهندسي في قصور الشاطئ الذهبي، وكذلك تنوع حالات تلفها المراوحة من، الممكن إنقاذه إلى الضائع تماماً، سمح لها بحرية عمل أكثر من بيرانيسي، طبعاً، وعملت في اللوحات الزيتية والأكريليك. إذا بدا وكأنني أعرف ما أتكلم عنه، ليس هذا صحيحاً. حصلت على هذا مباشرة من الفنان. على أي حال، كنت فضولياً، ولذلك سألتها: "هل ما زلت ترسمين؟".

ابتسمت، ثم بدت حزينة، برأيي، وأجابت: "لا. لكنني قد أفعل مجدداً".

"لماذا توقفت؟".

فكرت في ذلك ثم أجابت: "حاولت الرسم في هيلتون هيد... رسمت بعض المناظر البحرية، والكثير من أشجار النخيل تلك... لكنني نوعاً ما، فقدت... الموهبة، حسبما أظن".

"لا أظن أنه يمكنك فقدان الموهبة".

"حسناً... لم تهمني الموضوعات ربما. تعرف، كما حين ينتقل فنان من حيث كان يستلهم أفكاره إلى مكان آخر".

“صحيح”. فكرت أيضاً أن حالتها العقلية تغيرت ربما. إذا كان الفنانون الجيدون مجانين - وهي كانت فنانة جيدة، ومجنونة - فإن العودة إلى درجة معينة من الصحة العقلية قد يقتل شرارة العبقرية المجنونة. هذا جيد وسيئ. لكنه جيد بمعظمه حسبما أظن. أقصد أنني أستطيع العيش مع رسامة سيئة، لكن لا يسهل العيش مع زوجة مجنونة.

على أي حال، تساءلت إذا كانت هذه الشخصية الجديدة، الهادئة والمحسنة التي أشاهدها الآن هي النتيجة السعيدة لعلاج ناجح أو لأدوية ممتازة.

قالت لي سوزان: “والآن بعدما عدت... عليّ التحقق من عودة إلهامي”.

“صحيح”. لكن لا توقفي تلك الأدوية.

المثير للسخرية أن إحدى أفضل اللوحات التي رسمتها، وربما الأخيرة، كانت للحمرا. السيدة ساتر، لمناسبة أول زيارة لنا إلى الحمرا لارتشاف القهوة وتناول المعجنات، عرضت بكرم رسم فناء النخيل في الحمرا كهدية ترحيب بجيراننا الجدد. امتلكت سوزان صوراً فوتوغرافية لذلك الفناء الرائع لأشجار النخيل، إذ كان موجوداً قبل أن يعيد آل بيلاروزا ترميم القصر، وشرحت لهم أنها سترسمه على أنه من الأطلال. فاجأ ذلك السيدة بيلاروزا التي تساءلت عن سبب رغبة أي كان في رسم ما أسمته “حطاماً”. لكن السيد بيلاروزا، متذكراً بعض الفن الذي شاهده في روما، رأى أنها فكرة رائعة. تفاجأت أنا أيضاً بهذا العرض لأنه لم يكن مشروعاً بسيطاً، ونادراً ما تعطي سوزان أياً من لوحاتها، رغم أنها كانت تهبها أحياناً للمزادات الخيرية. أبلغت سوزان آل بيلاروزا بأنها تستطيع إنجاز معظم العمل من الصور الفوتوغرافية التي تمتلكها ومن الذاكرة، لكنها ستحتاج أيضاً إلى وضع مرسمها في فناء النخيل لتتمكن من الحصول على المشهد الصحيح، والاستفادة من انعكاس نور الشمس على القبة الزجاجية، وما إلى ذلك. أكّد لها فرانك أن الباب سيكون مفتوحاً دائماً لها.

عند تذكر تلك الأمسية، مثلما فعلت عشرات المرات، أرى أن ما جرى كان أكثر من هدية ترحيب، أو ارتشاف قهوة أو تناول معجنات.

يصعب تصديق ذلك، لكن سوزان ستانهوب ساتر وفرانك بيلاروزا تواصلا مثل القابس والمقبس، وكان يجدر بي رؤية الأنوار تتلألأ في عيونهما. لكنني لم أفعل، ولا آنا، وبقينا كلانا غارقين في الظلمة.

على أي حال، أدّى نقل موقع الإسطبل إلى عقار سوزان، ورسم لوحة فناء النخيل في الحمرا، إلى تواصل مستمر بين السيدة ساتر والسيد بيلاروزا.

في غضون ذلك، كنت أتواجد في المدينة كثيراً، وتمضي آنا الكثير من وقتها وهي تتنقل جيئة وذهاباً في سيارة الكاديلاك السوداء إلى بروكلين حيث تزور عائلتها وتخزّن المعجنات وزيت الزيتون.

ما زلت لا أعرف من قام بالخطوة الأولى بينهما، أو أين وكيف حصل ذلك، لكنني واثق من أن السيد الإيطالي ظنّ أنه هو المعتدي.

تابعت سوزان فكرتها الأخيرة وقالت: "معظم المنازل المهجورة يتم ترميمها أو تدميرها الآن، لكنني ما زلت أملك الكثير من الصور الفوتوغرافية القديمة التي أستطيع الاستيحاء منها".

"أو ربما يجدر بك رسم والديك وتسمية اللوحة "فن الغرتسك الأميركي". حسناً، لم أقل هذا، وإنما فكرت فيه. قلت لها: "ارسمي منزل الحراسة قبل أن يضع نسيم ألواح الألمنيوم عليه". كانت هذه غلطة فرويدية ربما؛ أقصد دعوتها إلى وضع مرسمها خارج منزلي. من المذهل كيف يعمل العقل الباطني.

أجابتني: "هذه فكرة جيدة... مع البوابات الحديدية".

بدا أن موضوع مواهب سوزان الفنية، الماضية والحاضرة، انتهى لكننا تابعنا نزهتنا في طريق الذكريات. ثم بدّلت الموضوع تماماً وسألتني: "جون، ماذا يقولون في لندن عن أحداث 11 سبتمبر؟".

تذكرت جوابي لإليزابيت عن هذا السؤال وأجبتها: "يقولون إنهم الهدف التالي".

فكرت في ذلك وقالت: "أصبح العالم مكاناً مخيفاً".

أجبتها: "العالم مكان جيد، ومعظم الأشخاص فيه هم من الأشخاص الطيبين. لاحظت ذلك خلال رحلتي البحرية".

"حقاً؟ هذا جيد". لكنها قالت بعدها: "لكن ما حصل هنا... غيّر كل شيء لكثير من الأشخاص".

"أعرف".

"قُتل عدد من الأشخاص الذين نعرفهم".

"أعرف ذلك".

"لم يبقَ أي شيء على حاله بالنسبة إلى تلك العائلات".

"لا".

"ما حصل... جعل الكثير من الأشخاص الذين أعرفهم يعيدون النظر في حياتهم".

"أفهم ذلك".

"جعلني أقدّر الأشياء... أصبت بالجنون ذلك اليوم لأن كارولين كانت في وسط المدينة، ولم أستطع الاتصال بها".

"أعرف. ولا أنا أيضاً".

التفتت نحوي فيما كنا نمشي وقالت: "ظننت أنك ستتصل بي في ذلك اليوم".

"كدت أفعل... تحدثت إلى إدوارد، وقال لي إنه اتصل بكارولين عبر هاتفها الخلوي، وهي على ما يرام، وقال إنه اتصل بك وأخبرك بهذا".

"صحيح... لكنني ظننت أنني سأسمع صوتك".

“كدت أتصل”. ثم أضفت: “ظننت أنك ستتصلين بي”.

“فعلت، لكن حين اتصلت، أدركت أنها الساعة الثالثة فجراً في لندن، ولذلك أقفلت الخط، وفي اليوم التالي... كنت مرهقة جداً و... كنت أبكي كثيراً... فأرسلت لك بريداً إلكترونياً... لكنني لم أسمع جواباً منك”.

“آسف”.

“لا بأس... لكن هذا... هذا الرعب جعلني أفكر... أن هناك أشياء مريعة يمكن أن تحصل لنا فجأة... من دون سبب. فقط لأننا هناك، ولأن شيطاناً ما صادف طريقنا. جعلني ذلك أعيد النظر في الكثير من الأمور، وكان ذلك بمثابة نداء استيقاظ... وبدأت حينها أفكر في العودة إلى هنا، والتواجد قرب الأشخاص الذين كبرت معهم و... حسناً، بدأت أفكر فيك”.

لم أجبها لبرهة، ثم قلت لها بصدق: “راودتني أفكار مماثلة”. أقصد، لكم من الوقت يمكننا حفظ الضغينة؟ حسناً، في حالتي، لوقت طويل. لكن أحداث 11 سبتمبر جعلتني أعيد النظر، ونقلتني ربما إلى الطريق الذي أفضى بي إلى هنا، مثلما أفضى بسوزان إلى هنا.

تابعت سوزان فكرتها وسألت: “لكم من الوقت يمكننا أن نبقى غاضبين على الأشخاص الذين أحببناهم قبلاً في وجه مثل... هذا الشرّ الحقيقي؟”.

بدا ذلك مثل سؤال بلاغي، لكنه لم يكن كذلك، ولذلك أجبتها: “اختفى الغضب. حتى شعور الخيانة اختفى. لكن ما بقي هو... حسناً... غرور مجروح بقوة وإحساس... بالإحراج لأن هذا حصل لي. أمام الناس”.

“ولم تتخطَ هذا؟”.

“لا”.

“ألن تفعل ذلك أبداً؟”.

“لا”.

“هل من شيء أستطيع القيام به؟”.

“لا”.

أخذت نفساً عميقاً وقالت: “لقد مات جون. قتلته. من أجلنا”.

لقد حان الوقت لمواجهة هذا فأجبتها: “هذا ما قلتِه”.

توقفت عن المشي، وهذا ما فعلته أنا أيضاً. نظرنا إلى بعضنا، وقالت لي: “كنت مستعدة للذهاب إلى السجن لبقية حياتي لأعيد لك كبرياءك وشرفك. كان هذا التكفير العلني عن خطيئتي، وهذا ما فعلته، على أمل أن تستعيدني”.

بالكاد عرفتُ ما أقول، لكنني حاولت وقلت: “سوزان... قتل إنسان ليس...”.

“كان حقيراً”.

في الواقع، كان كذلك. لكنني لا أظن أنها أدركت ذلك إلى أن وبخها. وحتى ذلك الوقت، أظن أنها كانت مستعدة للهروب معه إلى إيطاليا، حيث سترسله الحكومة ضمن برنامج حماية الشهود. قلت لها: "عليك إخباري لماذا قتلته".

"أخبرتك للتو".

بدأت أشاهد القليل من سوزان القديمة مجدداً، تلك العينين الخضراوين الساطعتين، العينين المجنونتين، والشفتين الممتلئتين اللتين تحولتا إلى فم رقيق ومضغوط، مع ذقن مائل إلى الأمام كما لو أنه يريد القول: "تجرأ على تكذيبِي".

حسناً، احتجتُ إلى فعل ذلك وقلت: "هذا ما تعتقدينه ربما، بعد عشر سنوات. لكن ليس هذا هو السبب الذي دفعك إلى قتله. ليس من أجلي، وليس من أجلنا".

حدّقت إليّ وحدُّقت إليها. لقد واجهتها بذلك قبلاً، في فناء النخيل في الحمرا، فيما فرانك بيلاروزا مستلقٍ ميتاً على الأرض، وعشرات العملاء من الأف بي آي والتحريين يقفون جانباً لتتمكن السيدة ساتر، المشتبه بارتكابها الجريمة، وزوجها، الذي هو أيضاً محاميها، من التحدث بخصوصية. وحين سألتها لماذا قتلته، أعطتني الجواب الذي سمعته للتو. كان بإمكاني تقبّل ذلك، ومن هناك نعيد ربما بناء حياتنا.

لكن هذا لم يكن الجواب الصحيح، ولا يمكنك البناء على الأكاذيب.

الجواب الصحيح، الحقيقة، هي في الواقع شيء مختلف تماماً عن دوافع سوزان المعلنة لقتل عشيقها. بالفعل، عليّ تحمل بعض اللوم على ذلك، أو بعض الرصيد، عند النظر إلى الأمر بطريقة مختلفة.

تابعنا التحديق إلى بعضنا البعض، وتذكرت زيارتي إلى فرانك بيلاروزا في الحمرا، حيث كان مستلقياً في السرير، مريضاً بالإنفلونزا، فضلاً عن تعافيه من التأثيرات الارتدادية لمحاولة القتل بالرصاص التي تعرض لها قبل أشهر عدة في مطعم جوليو.

لم تكن هذه زيارتي الأولى، لكنها كانت الأخيرة، وبعد أيام قليلة، مات. قال لي حينها، بخصوص عرضه تقديم أي خدمة أريدها مقابل إنقاذي حياته في مطعم جوليو، "حسناً، تجعلني أتساءل عن الخدمة التي تدين لي بها".

فكّرت مطولاً وكثيراً في تلك الخدمة، ثم قلت له: "حسناً، فرانك، أودّ منك أن تخبر زوجتي أن العلاقة انتهت بينكما وأنك لن تصطحبها إلى إيطاليا، وهذا ما أعتقد أنها تظنه، وأريدك أن تقول لها إنك استخدمتها للوصول إليّ".

فكّر في ذلك، ثم قال: "اتفقنا". لكنه أضاف: "سأقول لها إنني استخدمتها، إذا أردت، لكن هذا ليس صحيحاً. عليك أن تعرف ذلك".

كنت أعرف هذا. على الرغم من صعوبة تصديق ذلك، عرفت أن فرانك وسوزان كانا مغرمين، وكانت مستعدة للتخلّي عنّي من أجله. أعتقد أنها رغبة قوية في تجربة مباشرة. لكن المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي، سوزان ستانهوب ساتر، والتي لا تزال تحبني فعلاً، كانت مجنونة في غرام فرانك

بيلاروزا - ويبدو أن فرانك كان مغرماً أيضاً بها. لهذا السبب، سلم أغراضه للفدراليين - ليتمكن هو وسوزان من التواجد معاً في إيطاليا، أو أي مكان آخر، وبدء حياة جديدة معاً. كانت العلاقة لتستمر ربما سنة أو سنتين، لكن الأشخاص المهووسين والمغرمين لا يفكرون في المستقبل البعيد.

على أي حال، وفى فرانك بوعده، وأخبرها على ما يبدو بما طلبتُ منه أن يقوله لها، عبر الهاتف، أو شخصياً قبل تلك الليلة، وانهارت سوزان على ما يبدو. غضب شديد وما شابه. المثير للسخرية، أنه قبل بضعة أسابيع، أعطاها البندقية التي قتلته بواسطتها، لمنع الأف بي آي من العثور عليه. البقية تاريخ، ومأساة، وربما القليل من الكوميديا، إذا لم يكن المرء متورطاً شخصياً.

السؤال طبعاً هو الآتي: لماذا طلبتُ من فرانك بيلاروزا أن يقول لسوزان إن العلاقة قد انتهت، وإنه لن يصطحبها معه إلى إيطاليا، وإنه استخدمها لتوظيفي كمحام له؟ فعلت ذلك طبعاً لأستردّ سوزان، أو لأعود إلى سوزان. وطبعاً، لم يكن لديّ فكّرة عن أنها ستقتله. أو هل كان لديّ فكرة؟

ظننتُ دائماً أن فرانك بيلاروزا، الذي كان معجباً كثيراً بنيكولو مكيافيللي، يقدّر... حسناً، حلّ المكيافيللية لمشكلته. وما زلت أتساءل إذا كان فرانك قد استوعب ما فعله بنفسه خلال تلك الثواني الأخيرة بين إخباره سوزان بأن العلاقة انتهت وبين سحبها البندقية. إذا كان ليلفظ أي كلمة أخيرة، أو أي فكرة، أتمنى أنها كانت: "جون، يا ابن الساقطة!".

استمررنا أنا وسوزان في النظر إلى بعضنا، وعدتُ إلى الحاضر ونظرت إلى عينيها. حدّقت إليّ، ثم أخفضت عينيها وقالت لي: "رأيته في وقت سابق من ذلك اليوم، وأخبرني أنه كان يلعب بي، وأنه لم يحبني أبداً، وأن اهتمامه الوحيد بي كان... إقامة علاقة مع عاهرة مجتمع... و... دفعي لإقناعك بالعمل معه". أخذت نفساً عميقاً وتابعت: "طلب مني بعدها المغادرة وعدم العودة والاتصال به. لكنني عدت تلك الليلة... أقمنا علاقة حميمة... وظننت أن الأمور عادت إلى طبيعتها مجدداً... لكن بعد ذلك، طلب مني الرحيل، وقلت له إنني لن أفعل، فقال لي إنه سيتصل بالأف بي آي ليخرجوني. لم... أصدق ذلك، و... أصبحت غاضبة".

لم أقل أي شيء، ولم أبعد عينيّ عنها. بدت هادئة جداً، مثلما تكون حين تصبح على شفير انهيار أو انفجار عاطفي. لم أعرف أبداً طبيعة شعورها. ويبدو أن فرانك لم يفعل ذلك أيضاً، وإلا لكان أخذ حذره. كان يجدر به تذكر البندقية على الأقل.

تابعت بصوت بالكاد كان مسموعاً: "أخبرته أنني أحببته، وأنني تخليت عن حياتي من أجله. وقال لي... قال: عودي إلى جون؛ إنه يحبك، وأنا لا أحبك. قال إنني سأكون محظوظة إذا استعدتني مجدداً، ويجدر بي شكر الله إذا فعلتَ ذلك. وناداني... بأسماء مقيتة... وطلب مني الخروج...".

وقفتُ هناك، عاجزاً عن قول أي شيء. إلا أنني فكرت في فرانك بيلاروزا، وتساءلتُ كم أحبها فعلاً، وكم كان صعباً عليه أن يقول لها ما قاله، والذي اكتشفته للتو أنه قال أكثر مما طلبته منه. لكنه يدين لي بخدمة كبيرة جداً نظراً لإنقاذي

حياته في مطعم جوليو، وأراد أن يتمكن من القول لي: "أصبحنا متعادلين أيها المستشار. لا يدين أحد منا لأي كان بأي شيء الآن". لكنه لم يعش كفاية ليخبرني حتى بذلك.

تقدمت سوزان خطوة نحوي، وكنا على مسافة بضعة إنشات فقط من بعضنا. قالت: "ولهذا السبب قتلته". سألتني: "حسناً؟".

توقعت جزئياً أن أرى الدموع تنهمر على وجنتيها، لكن سوزان لم تكن كثيرة البكاء، بالرغم من أنني رأيت شفتها السفلى ترتجف. قلتُ لها: "حسناً. لقد مات".

استدرنا كلانا وهَممنا بالعودة إلى المنزل. كان بإمكان أحدنا أن يقول شيئاً، لكن لم يبقَ أي شيء لقوله.

الفصل الخامس والعشرون

مشينا عبر حديقة الورود وصولاً إلى الردهة. في مكان ما في طريق العودة، رمت سوزان الوردة، لكن بقية الورود لا تزال على الطاولة وحدّقت إليها.

كنت واثقاً من أنه بعد اعترافها، توقعت مني أن أغادر، وهذا ما أردتُ فعله، لكنني ما زلت بحاجة إلى التحدث معها عن أمير نسيم وأنطوني بيلاروزا، وأردت فعل ذلك الآن شخصياً، ولذلك قلت لها: "لديّ شيء مهم لأقوله لك".

نظرت إليّ، لكنها لم تجب.

تابعت: "أنا واثق من أنك تفضلين البقاء وحيدة الآن، لكن إذا كان في وسعك الجلوس والإصغاء إليّ لعشر دقائق إضافية...".

أجابت: "إذا كان هذا مهماً".

"نعم". اقترحت عليها: "لِمَ لا نجلس؟".

"أحتاج إلى بضع دقائق. هل تريد شيئاً ما؟".

"ماء".

دخلَت إلى المنزل ووقفتُ أمام الطاولة وفتحت العلبة التي أعطتني إياها. في الداخل، مثلما قالت، هناك نسخ عن رسائل من إدوارد وكارولين، وكذلك كدسة من الصور العائلية. قلّبتها ولاحظتُ بعض الصور التي تشمل أهلي وأهلها.

تذكرتُ إعلاناً رأيته ذات مرة لشركة تهتم بتنقيح الصور. تستطيع مبدئياً هذه الشركة إخفاء الأشخاص غير المرغوب فيهم من الصور الفوتوغرافية، ومن ثم ملء الخلفية التي كانوا فيها. فكّرت في ضرورة الاتصال بهؤلاء الأشخاص الأذكياء لإخفاء ويليام وشارلوت. إلا أن تعديل صورة فوتوغرافية لسوء الحظ لا يعدل في ذاكرة أو تاريخ.

قلّبت بقية الصور، ولاحظتُ أنها لم تضع أي صور غير محتشمة لنا. جعلني ذلك أفكر في أنه على الرغم من نصيحة إميلي بوست، لم يكن يجدر بي وضع تلك الصور لنا في مغلفها. نظرتُ إلى المغلف على الطاولة وكنت على وشك إخراج تلك الصور ووضعها في سترتي، لكن الباب فُتح وخرجت إلى الردهة وهي تحمل صينية فوقها ليتر من المياه الفوّارة وكأسين.

بدت سوزان أكثر رصانة الآن - ومرتاحة ربما - لكون اعترافها بأن زناها لم يكن فقط بسبب رغبتها بإقامة تلك العلاقة، وإنما أيضاً بسبب الحب، والذي لم يدفعني إلى المغادرة. أومأت برأسها في اتجاه الصور التي أعطتني إياها وقالت: "إنها لقطات رائعة". ثم أضافت: "أملك كدسات منها إذا كنت تحب النظر إليها في يوم ما".

"شكراً".

وضعت الصينية على الطاولة، وجلست، وجلستُ أنا قبالتها. سكبت لي الماء وقالت: "أدخل من فضلك مباشرة في صلب الموضوع".

"سأفعل". شربت الماء وبدأت: "أولاً، تناولت الشاي مع أمير نسيم، وأخبرني أن السبب الذي يدفعه إلى شراء منزلك هو لأنه يريد خصوصية كاملة. أعتقد أنه يملك مخاوف بشأن مفهوم التنوع الثقافي، أي أنه لا يريد من امرأة جذابة وغير متزوجة أن تعيش وسط ملكيته". توقفتُ، ثم تابعت: "لكنه أخبرني بعدها أنه يملك بعض المخاوف الأمنية".

تركتها تستوعب الأمر، وبعد ثوان قليلة قالت لي سوزان: "لمّحت لي زوجته بالشيء نفسه".

فاجأني ذلك، لكنني أدركتُ بعدها أن نسيم استخدم زوجته لنقل هذه المعلومات إلى سوزان. عرضتُ رأيي وقلت: "أظن أنه خائف جداً من مرحلة ما بعد 11 سبتمبر أو أنه يختلق ذلك لكي تبيعيه هذه الأرض".

فكّرت في ذلك وسألتني: "ماذا لو كانت مخاوفه الأمنية حقيقية؟".

"يجدر به حينها التوجه إلى السلطات. وقد فعل ذلك ربما، رغم أنه لم يذكر الأمر أبداً أمامي. لكن لو ذهب إلى السلطات، لكان أحد من الأف بي آي أو الشرطة المحلية اتصل بك". سألتها: "هل فعلوا؟".

"لا".

"ولم أسمع شيئاً منهم أيضاً. لذا، عليّ الاستنتاج أن نسيم لم يتصل بالسلطات، مما يجعلني أتساءل عن مخاوفه الأمنية".

فكّرت في ذلك، ثم أجابت: "حسناً، أنت محامٍ، وتفكر مثل محامٍ. لكنه من ثقافة مختلفة، ولديه رأي مختلف بشأن الشرطة".

"هذه نقطة مهمة. لكنه عاش هنا، وفي لندن لوقت طويل كفاية ليعرف أنه إذا ذهب إلى الشرطة، لن يكبّلوه أو يضربوه بسبب إزعاجه لهم".

أومأت برأسها، ثم قالت: "حسناً، حتى لو كانت مخاوفه حقيقية، تبقى هذه مشكلته، وليست مشكلتي".

أبلغتها: "طلب مني نسيم الاتصال به إذا لاحظتُ أي شيء مشتبه به".

أومأت برأسها وقالت: "قالت لي سهيلة الشيء نفسه".

عرضت عليها: "أو اتصلي بي".

نظرت إليّ وابتسمت لكنها لم تجب.

خطر في بالي طبعاً أن مخاوف أمير نسيم من وجوده على لائحة المستهدفين، سواء أكانت حقيقية أو وهمية، لها أثر إيجابي في رفع مستوى اليقظة عند الجميع في هذا العقار، وهذا أمر جيد مقارنة مع الخطر الأكثر احتمالاً من أنطوني بيلاروزا.

بخصوص ذلك، وبعد تذكر نصيحة الآنسة بوست لي، أردت سؤال سوزان إذا ما كانت تملك سلاحاً. لكن نظراً لما فعلته في المرة الأخيرة التي حملت فيها بندقية، قد يكون هذا الموضوع حساساً لديها، خصوصاً إذا سألتها أيضاً إذا ما كانت تعرف كيف تستخدم السلاح. لذا، أجّلت هذا السؤال.

كنت أفكر في أنطوني بيلاروزا أكثر مما كنت أفكر في أمير نسيم حين قلت لسوزان: "على أي حال، وللحفاظ على السلامة، سأذهب إلى الشرطة، وأقترح عليهم الاتصال بالأف بي آي. يجدر بك فعل الشيء نفسه".

لم تجب على هذا، ثم نظرت إليّ وقالت: "هذا لا يصدق... أنه يجدر بنا التفكير في أمور مثل... الإرهابيين الأجانب".

أبلغتها، في حال نسيت، "العالم، بما في ذلك العالم الذي هنا، تغير. لذا، علينا التفكير في مثل هذه الأمور".

استسلمت إلى صمت عميق، متذكرة، أنا واثق، العالم الذي ترعرعت فيه، حين كان الخطر الخارجي الأكبر متمثلاً في أرماغيدون النووي، وكان الأمر مستبعداً جداً لدرجة أن أحداً لم يفكر فيه بشكل يومي. التطفل الغريب الآخر على عالمنا الآمن كان الاجتياح السوفياتي السنوي للشواطئ المحلية كل صيف، انطلاقاً من العقار الذي يملكه الروسيون في غلين كوف. أنا واثق من أن سوزان وجميع الأشخاص هنا يشعرون بالحنين إلى تلك الأيام حين كان اتصالنا الوحيد مع أعداء أجانب مقتصراً على مجموعة من الروسيين الذين يتركون قناني الشراب الروسي فارغة على الشاطئ العمومي. أما الآن فنحن نفكّر جميعاً لسوء الحظ في أحداث 11 سبتمبر، وننتظر السقوط التالي.

قلت أيضاً لسوزان: "قال نسيم إنه سيدفع لي عمولة عشرة في المئة إذا استطعت إقناعك بالبيع".

أيقظها ذلك من أفكارها، وأجابت: "هذا غير أخلاقي".

"في الواقع، إنه عمل جيد".

سألتني: "ماذا قلتَ له؟".

"طلبت منه أن يجعلها 15 بالمئة، وأقول لك إنني شاهدت إيرانيين يختبئون بين شجيراتك".

ابتسمت، ثم طمأنتني: "لا يمكن الضغط عليّ أو تخويفي. هذه أرضي، وكانت ملكاً لعائلتي منذ أكثر من مئة عام. إذا كان نسيم خائفاً من شيء هنا، يمكنه الرحيل".

"أفهم". فهمت أيضاً أنها لن توضّب أغراضها وترحل بسبب أنطوني بيلاروزا. إلا أنني قلت لها: "ثمة مسألة مهمة أخرى أريد مناقشتها معك".

نظرت إليّ وقالت: "أنطوني بيلاروزا".

تفاجأت في البداية، قد تكون سوزان مجنونة، لكنها ليست غبية. أجبتها: "نعم، أنطوني بيلاروزا".

أبلغتني: "سمعت أنه عاش في عقار الحمرا قبل أن أقدّم عرضي لشراء منزلي مجدداً. لم يكن يعرف خططي حينها، ولا يعرفها الآن أيضاً".

"حسناً، لكن...". خطرت في بالي عبارة تولكيان الشهيرة حول هذا الموضوع وقلت لها: "من غير المفيد ترك تنين حيّ خارج حساباتك، إذا كنت تعيشين قربه".

هزّت كتفها وقالت لي: "ما لم يكن لديك شيءٌ محددٌ لمناقشته بشأن التنين، لا أريد التحدث عن هذا الموضوع". ثم أضافت: "أشكرك على قلقك". ثم ابتسمت وقالت: "حسناً، أفترض أنك تعبّر عن قلق، وليس عن سعادة سرية".

أردتها أن تفهم أن الأمر جدّي، ولذلك لم أبادلها الابتسامة وقلت لها: "أنا قلق جداً".

بدا أنها فهمت الموضوع فسألت: "كيف عرفت أنه يعيش في مكان مجاور؟".

"زار منزل الحراسة يوم الاثنين الماضي".

هذا الخبر، فضلاً عن قدوم أنطوني بيلاروزا فعلياً إلى العقار، لفتا انتباهها فسألت: "لماذا؟".

أجبتها: "كانت زيارة اجتماعية غير معلنة. رحّب بعودتي إلى الجوار".

كانت سوزان تتأرجح بين عدم الرغبة في مناقشة الموضوع، وبين الإدراك من أنها تحتاج ربما إلى سماع ما أريد قوله. إنها تحاول أن تحسم قرارها، ولذلك تابعت: "أراد التحدث معي بشأن والده".

لم تقل شيئاً.

تابعت: "سأل عنك".

نظرت سوزان إليّ، ثم اعتمدت أسلوبها الخاص بالليدي ستانهوب وقالت: "إذا كان يريد معرفة أي شيء عني، فيجدر به سؤالي أنا، وليس أنت".

تملك سوزان بعضاً من الشجاعة، ناجمة، مثلما أشرت، عن ترعرعها وسط طبقة راقية يمكن وصفها بأنها مزيج من اللامبالاة المتغطرسة تجاه الخطر الجسدي، والأفكار الساذجة القريبة من التضليل بأنها ليست عضواً في طبقة الضحايا. ثمة طريقة أخرى لفهم ذلك عبر تصوّر سوزان وهي تطلب من السارق مسح قدميه قبل الدخول. على أي حال، لإنزال قدميها على الأرض وجعلها أكثر واقعية، قلت لها: "إنه يشبه والده، لا يناقش المسائل المهمة مع النساء".

أزعجتها هذه العبارة، وذكّرتها أيضاً كيف ولّدت هي هذه المشكلة. قالت لي في هذا الصدد: "جون، ليست هذه مشكلتك؛ إنها مشكلتي. أنا أقدّر قلقك، وأنا فعلاً متأثرة، لكن ما لم يقل لك صراحة شيئاً يجدر بي معرفته، لست بحاجة إلى توريط نفسك في...".

“سوزان. انزلي من قصرك العالي”.

تراجعت إلى الخلف في كرسيها، وشبكت ساقيها، وحدّقت إلى الحديقة.

قلت لها: “لتذكيرك، قتلتِ والده. لن يناقش الأمر معك؛ لكنه ناقشه معي”. لم أذكر محادثاتي التالية مع أنطوني أثناء العشاء أو في أويستر باي، لكنني قلت لها: “صحيح أنه لم يصدر تهديدات محددة، ولن يفعل ذلك أبداً، لكنني توصلت إلى الانطباع بأنه يبحث عن الانتقام”.

بقيت تحدّق إلى بقعة معينة من الحديقة، وهي تفكر ربما في آفات الورد. هكذا تتعاطى مع المشاكل الكبيرة التي لا تستطيع مواجهتها. تتسامى أخلاقياً وتفكر في المشاكل الصغيرة. وهذا ما فعلته بعدما قتلت فرانك بيلاروزا؛ فيما كانت جثته ملقاة على الأرض وستة من رجال المباحث ينتظرونها لاصطحابها إلى السجن، كانت قلقة بشأن جوادها، وبشأن آنا ربما، وكيفية إزالتها لبقع الدم عن الأرض.

قررتُ إنهاء هذه المحادثة، وأنا مدرك بأنني فعلت ما كان يجب فعله، ومدرك أيضاً بأن أي شيء أقوله بعد تحذيري سيكون حدساً، رأياً، ونصيحة لا تريد سماعها. إلا أنني قلت لها: “يجدر بك الذهاب إلى الشرطة والتقدم ببلاغ...”. في حال حصل شيء ما. لكنني لم أقل هذا.

لم تجب، وجلسنا هناك، ثم سألتني أخيراً: “هل هذا كل شيء؟”.

“نعم”.

“شكراً”.

ألقيت نظرة على ساعتي وقلت: “يجدر بي الذهاب”.

يبدو أنها لم تسمعني.

وقفت، لكنها لم تفعل، فقلتُ لها: “أستطيع الخروج وحيداً”.

لا جواب أيضاً.

فهمتُ أنه كان صباحاً مرهقاً عاطفياً بالنسبة إليها؛ وإليّ. اعترافها لي بدافعها الحقيقي لقتل الرجل الذي أحبته كان صدمة عقلية كافية ليوم واحد، لكنني تطرقت إلى موضوع أمير نسيم والمهاجمين الإيرانيين، ثم ذكّرتها أن ابن فرانك بيلاروزا في الجوار ويسأل عنها. أتخيل الأفكار التي تراودها الآن.

ساعدتني في فهم قلقها العقلي بسؤالي: “هل أصبحت تحب لحم الغنم في إنكلترا؟”.

“عفواً؟”.

“كنت أفكر في تحضير لحم الغنم للعشاء، لكن إذا كنت لا تزال ممتنعاً عن تناوله، قد أحضّر لحم العجل”.

نحنحت حنجرتي وأجبتها: “لا بأس في لحم الغنم”.

“جيد”. نظرت إليّ، وبدت متفاجئة لرؤيتي واقفاً فسألت: “إلى أين أنت ذاهب؟”.

"عليّ... عليّ إنجاز بعض الأمور. أردت إجراء اتصالات يوم الأحد بالولدين".

فكّرت لبرهة، ثم اقترحت: "لمَ لا نتصل بهما معاً؟".

"حسناً...".

"سيحبان ذلك".

"ربما لا يجدر بنا... مفاجأتهما. وتحتاجين ربما إلى بعض الوقت لنفسك".

تجاهلت هذا، وسكبت لي ما تبقى من الماء ثم سألتني: "هل تأتي معي لزيارة إيثيل؟".

افترضتُ أنه يجدر بي الجلوس، فجلست وأجبتها: "لديّ فعلاً الكثير من الأمور الواجب إنجازها". ولا أريد مصادفة إليزابيت في فير هافن وأنا بصحبة سوزان، تماماً مثلما لم أشأ مصادفة سوزان في فير هافن وأنا بصحبة إليزابيت. ولديّ أيضاً غداء عند الساعة الرابعة مع آل بيلاروزا إذا كان لا يزال السيّد يريدني. فكّرت في ذلك، وتساءلتُ ما إذا كان الذهاب إلى هناك هو فكرة جيدة. دع أعداءك بالقرب منك وكل ذلك.

نظرتُ إلى سوزان ولاحظت الآن أنها فتحت المغلف وبدأت تقلّب الصور التي أعطيتها إياها. كانت في معظمها صوراً عائلية، ولم تصادف على ما يبدو الصور المخصصة للراشدين فقط؛ لأنها قالت: "أحب هذه الصور لنا نحن الأربعة على متن المركب في سيوانهاكا. من التقطها؟".

"لا أذكر". ثم اقترحت عليها: "يمكنك النظر إليها لاحقاً. أظنّ أنه يجدر بي الذهاب".

توقفت عن تقليب الصور، وركّزت على صورة فوتوغرافية واحدة، ثم قلّبت ببطء بعض الصور الأخرى، وابتسمت وقالت: "تساءلتُ ما حصل لها".

لم أجبها.

بدت مستمتعة برؤية الصور، وارتسمت ابتسامة عريضة مزعجة على وجهها، ثم قالت: "أوه..."، ودفعت بصورة فوتوغرافية في اتجاهي.

نظرتُ إليها ولاحظت أنها صورة لي ولسوزان، تم التقاطها بواسطة المرجل وآلة التوقيت على المصطبة الخلفية في ستانهوب هال. فآل ستانهوب، حين انتقلوا، تركوا وراءهم بعض المفروشات الخارجية على المصطبة، وأتذكر أننا كنا أنا وسوزان نذهب أحياناً إلى هناك لتناول المشروب عند مغيب الشمس، وللتمتع برؤية المنظر، ولهذا السبب أحضرنا معنا الكاميرا والمرجل ثلاثي القوائم.

حسناً، كان يوماً صيفياً دافئاً، وبعد تناول بضع كؤوس من المشروبات، اقترحت سوزان لعبة المقص والورق والصخر على أن ينفّذ الخاسر شروطاً

تعجيزية. بدا ذلك مثل اقتراح منطقي، ولعبة من دون خاسر، ولذلك بدأنا، ومنيت سوزان بالحظ السيئ.

تظهرني الصورة الفوتوغرافية وأنا أقف على عمود...

قالت سوزان: "لم يعد بوسعنا فعل ذلك بعد الآن".

ابتسمتُ وأجبتها: "لا. لا أظن أن السيد نسيم يوافق على تناول المشروبات على مصطبته".

ابتسمت أيضاً وأضافت: "أو إقامة علاقة".

أدركت أن سوزان أصبحت في إطار تفكير مختلف عما كانت فيه قبل خمس دقائق، وأنا لم أنتبه.

وجّهت نحوي بعض الصور الإضافية، فطمأنتها: "لقد رأيتها".

"هل احتفظت بنسخة منها؟".

"لم أفعل".

"أستطيع نسخها لك". أعادت انتباهها إلى الصور الفوتوغرافية وقالت: "لم يزدد وزني غراماً واحداً". ألقت نظرة عليّ وقالت: "ويبدو الشيء نفسه معك أيضاً".

كان فمي جافاً، فشربت الماء وألقيت نظرة على ساعتي، لكن سوزان كانت تحدق إلى ست أو سبع صور وزعتها على الطاولة. نظرت إليّ وقالت: "يعيد إليّ هذا بعض الذكريات الجميلة، جون".

أومأت برأسي.

وقفت بعدها، وحدّقت إليّ، وبنبرة صوت لا تترك أي شك في معناها، قالت لي: "أريد أن أريك ماذا فعلت بالمنزل".

حسناً... لمَ لا؟ أقصد، لمَ لا؟ وقبل أن أستطيع التفكير في سبب اللا، وقفت، وعبرنا الطاولة وأمسكنا بأيدينا، ثم دخلنا معاً إلى المنزل.

بدأت الجولة وانتهت في غرفة نومنا القديمة.

الفصل السادس والعشرون

كانت غرفة النوم الرئيسية في الطابق العلوي دافئة، واستلقت سوزان على الشراشف؛ كانت مستيقظة وإنما أغمضت عينيها.

كانت النافذة والستائر مفتوحة، وغمر ضوء النهار الغرفة. ثمة مروحة أرضية تتحرك فوق السرير، ويبرّد النسيم عرق جسدينا ويحرّك شعرها الأحمر الطويل.

جلستُ ونظرتُ إليها مستلقية قربي. كشفت بشرتها عن اسمرار صيفي مبكر جميل، لكنها كانت بيضاء ناصعة حيث ارتدت سروال بيكيني صغيراً...

سألتني فيما لا تزال مغمضة عينيها: "هل تنظر إليّ؟".

"نعم".

"كيف أبدو؟".

"مثلما كنتِ في أول يوم أقمنا علاقة حميمية معاً". وهذا صحيح.

"شكراً. أملك جينات جيدة".

بالفعل، كان ويليام وشارلوت ثنائياً جميلاً، لكن دماغيهما فاسدان لسوء الحظ.

فتحت سوزان عينيها، والتفتت نحوي وقالت: "لم أدعُ أي رجل إلى هنا".

أجبتها: "هذا من شأنك".

قالت فيما لا تزال تنظر إلي: "أردتك أن تعرف". ابتسمت وأضافت: "مضى وقت طويل جداً على إقامتي علاقة حميمية ونسيت من يجذب من".

ابتسمتُ أنا أيضاً لكنني لم أقدم لها أي مساعدة في هذا الموضوع، فسألتني: "وأنت؟".

"حسناً...".

"لا بأس. لا أريد أن أعرف".

لا شك في أنها تريد، ولإيضاح الأمور، قلت لها: "ثمة امرأة في لندن". ثم تذكرت أن أضيف: "لكن العلاقة غير جدية".

"ما اسمها؟".

"سامنتا".

"اسم جميل". ثم اقترحت: "تخلص منها".

"حسناً... جيد. لكن...".

جلست سوزان وأخذت يدي ونظرت إليّ وقالت: "لقد بددنا عشر سنوات جون. لا أريد تبديد دقيقة واحدة إضافية".

“أعرف... لكن...”.

“هل الأمر سريع جداً بالنسبة إليك؟”.

“حسناً إنه بالأحرى مفاجئ”.

“هل تحبني؟”.

“نعم. ولطالما فعلتُ ذلك”.

“وأنا أيضاً. إلى الأبد. إذاً؟”.

سألتها: “هل أنت واثقة من هذا؟”.

“نعم. وأنت أيضاً”.

أنجزت الصفقة ظاهرياً. لكن، كي أكون صريحاً، أظن أنني عرفتُ هذا بعد دقيقتين من دخولي إلى هذا المنزل. أقصد، إذا وضعتُ جانباً كل آرائي السلبية فيها، ورغم كل ما حصل هذا الصباح، شعرت لحظة نظرنا إلى بعضنِا بتلك الطاقة الاستثنائية التي كانت بيننا، وعرفت أنها تبادلني الشعور نفسه أيضاً. إقامة علاقة حميمية ليست حباً طبعاً، ولكن في هذه الحالة الحب موجود أصلاً، ولطالما كان، وبالتالي فإن كل ما نحتاج إليه هو ما فعلناه.

كان يمكن أن يكون الأمر غريباً بعد عشر سنوات، لكنه لم يكن كذلك. كنا مرتاحين مع بعضنا، وهذا هو الجزء الجيد من التواجد مع شريك لا تقيم علاقة حميمية معه كثيراً. وكان هناك طبعاً عنصر جديد بعد كل هذه السنوات، وربما إحساس بسيط بأن الأمر محظور نوعاً ما. لا يمكن التغلب على ذلك.

قلتُ لسوزان: “فكرتُ في هذا”.

“وأنا أيضاً. غالباً”. ثم سألتني: “لمَ احتجتَ إلى كل هذا الوقت للاتصال بي؟”.

“كنتُ... حسناً، خائفاً”.

“مِمّن؟”.

“من... حسناً، كنت خائفاً من أن يحصل ذلك، وخائفاً من ألا يحصل”.

“وأنا أيضاً. لكن لا داعي للخوف الآن”.

“لا”. ثم قلتُ لها: “ظننتُ أنك ستتصلين بي”.

“كنت ألعب الرهان الصعب”. ثم أضافت: “كنت سأعطيك ثماني وأربعين ساعة إضافية أخرى قبل أن أتصل بك. ثم رأيتُ سيارة إليزابيت تلك الليلة، وكنتُ... ما هي الكلمة الجيدة؟”.

“محطمة؟ منهارة؟ مخذولة؟”.

“هذه هي. لكنني كنتُ مستعدة لمسامحتك”.

“ما من شيء لتسامحيني عليه”.

“هل تستلطفها؟”.

“نعم”.

لم تجب لبضع ثوانٍ، ثم قالت: “إنها تستلطفك. أخبرتني هذا حين تناولنا الغداء. حسناً، كانت خجولة عند قول ذلك، نظراً للظروف، لكنني عرفت”.

“إنها سيدة لطيفة”.

“أظن ذلك أيضاً. لذا، يمكننا أن نكون جميعاً أصدقاء”.

“رائع”. بدا أنه تم تقرير الكثير من الأمور خلال الثلاثين دقيقة الأخيرة التي لم أكن مدركاً لها، لكن هذا ما يحصل أحياناً بعد إقامة علاقة حميمية مع شخصٍ ما. أقصد، تنتقل من “مرحباً” مهذبة إلى الاستلقاء في السرير، منخرطاً في التصرفات الأكثر حميمية مع شخص قد تعرفه أو لا تعرفه جيداً، ثم - إذا كان لديك الوقت - تنتقل إلى أحاديث الوسادة. والحديث يفضي عادة إلى المشاكل، من دون أن يعرف الشخص ذلك عادة.

لكن في هذه الحال، مع سوزان، قرر القدر منذ زمن طويل أن أكون هنا، ولذلك قد أتماشى جيداً مع البرنامج. قلتُ لها: “لم أظن أبداً أننا سنبقى منفصلين لبقية حياتنا”.

“عرفتُ أننا لن نكون كذلك”.

اعترفتُ لها: “رأيتك يوم الثلاثاء في لوكوست فالي”.

“حقاً؟ أين؟”.

“في ذلك المطعم، على مسافة أمتار قليلة من مطعم رولف”.

“أوه، صحيح. تناولت الغداء مع تشارلي فريك”.

“بدا مثل امرأة”.

“تشارلين. تشارلي فريك. إنها واحدة من آل فريك”.

“هذا ما يبدو، إذا كان هذا اسمها”.

“جون، لقد قمت بأمر ما معي للتو. هل يمكنك تخفيف سخريتك؟”.

لم أرَ الرابط بين الأمرين، لكنني كنت واثقاً من أنه سيكون هناك المزيد من هذه التعليقات التالية لإقامة علاقة حميمية. قلتُ لها: “آسف”.

سألتني: “أين كنت؟ أتمنى أنك لم تكن تحضر إحدى سندويشاتك المريعة من مطعم رولف”.

هناك أيضاً الانتقاد لحياتي بعد إقامة العلاقة. أجبتها: “في الواقع، شربت قهوة عند رولف، وخرجت ورأيتكما أنتِ وميتزي”.

“تشارلي. لماذا لم تلقِ التحية علينا؟”.

"لأنه لم أشأ أن ألتقي بك بهذه الطريقة للمرة الأولى بعد أربع سنوات".

شدّت على يدي وقالت: "ولا أنا أيضاً". ثم سألتني: "كيف شعرت؟ فيمَ كنت تفكر؟".

"شعرت... أظن، بالحزن. وفكرت أنك لم تكوني قبلاً بهذا الجمال".

قفزت عليّ ووضعت ذراعيها حولي. قالت: "أحبك، ولن ننفصل أبداً مجدداً، ولن نكون حزينين أبداً مجدداً". قبّلتني وقالت: "هل تصدق هذا؟ هل تصدق أننا معاً مجدداً؟".

"يصعب تصديق ذلك".

"هل تتزوجني مجدداً؟".

كنت في الواقع مستعداً لهذا السؤال، ولذلك أجبتها من دون تردد: "إذا كان هذا ما تريدينه".

لم يكن هذا الجواب الصحيح على ما يبدو لأنها ابتعدت عني وسألتني: "ماذا تريد أنت؟".

حاولت مجدداً وسألتها: "هل تتزوجين بي؟".

"دعني أفكر في الأمر. حسناً، سأتزوج بك".

"جعلتني أسعد رجل في العالم".

"أعرف ذلك. لكن دعنا نعيش سوياً لمدة سنة، للتأكد".

"حسناً. لا، أقصد، فلنتزوج بأسرع ما يمكن".

"إذا كان هذا ما تريده. ماذا تفعل غداً؟".

كانت سوزان سعيدة بوضوح، وحين تكون سعيدة، تصبح مرحة. كنت سعيداً أنا أيضاً، لكن الأمر كان مفاجئاً قليلاً ولم أستوعبه بالسرعة الذي حصل فيها، وأردت فعلاً عشر دقائق على الأقل للتفكير في تغيير حياتي كلياً. لكنني تذكرتُ حينها ما قلته لإليزابيت عن استخدام القلب أكثر والدماغ أقل، وعن المجازفة. في هذه المرحلة من حياتي، ليس لديّ الكثير لأخسره من الزواج بزوجتي السابقة. أفترض أنني أستطيع فعل شيء أسوأ. ومن الناحية الإيجابية، أنا مغرم بها، ويتم منحي الآن فرصة جديدة لأكون سعيداً.

سألتني سوزان التي تعرفني جيداً: "هل تقنع نفسك بالزواج بي؟".

أجبتها: "لا أودّ شيئاً أكثر من أن نتزوج من جديد ونعود عائلة مجدداً".

جلست على رأس السرير، ورأيتُ الدموع تتلألأ في عينيها. "أنا آسفة جداً، جون، على ما حصل".

"أعرف. أنا أيضاً".

جلسنا هناك لبرهة، وشاهدت المروحة تدور في الغرفة وأحسست بالهواء يلفح جسمي. التواجد هنا، في غرفة نومنا القديمة، مع مفروشاتنا القديمة، أعادت لي ذكريات جميلة، وذكريات الصباحات الكسولة يوم الأحد، والولدين حين كانا صغيرين ويهرعان لالتماس الدفء بيننا، وفطور يوم الأب ويوم الأم في السرير، والسهر والتحدث إلى وقت متأخر من الليل. تذكرتُ بطاقة الميلاد التي كتبتها لي: جون، لا تعرف كم مرّة أستيقظ في الصباح وأحدّق إليك وأنت مستلقٍ قربي، وسأفعل ذلك لبقية حياتي.

أستطيع الإمعان في تذكر الماضي، وفي فترة السنوات العشر الفاصلة بين الآن والمرة الأخيرة التي أقمنا فيها علاقة حميمية هنا، لكنني فعلت ذلك، ولم أتوصل إلى أي شيء سوى الغضب والاستياء والاضطراب في الروح. لذا، أمسكت بيدها ونظرت إليها وقلت لها: "أسامحك".

أومأت برأسها وقالت: "عرفتُ أنك ستفعل".

وأنا أيضاً.

اقتربت مني ووضعت رأسها على كتفي، وجلسنا هناك، نستمتع باللحظة ونفكر في المستقبل.

لقد حان الوقت للتقدم إلى الأمام.

لم يكن الماضي ميتاً ومدفوناً لسوء الحظ. إنه حي، وعاش في الحمرا، وهو على وشك اللحاق بنا.

الفصل السابع والعشرون

إقامة علاقة حميمية في أثناء الاستحمام هو أسلوبي في إنجاز مهام عدة في الوقت نفسه.

بعد ذلك، ارتدينا ثيابنا، ونزلنا إلى الأسفل إلى المطبخ، وسألتني سوزان: "هل أنت جائع؟".

نظرتُ إلى الساعة ورأيت أنها تجاوزت الواحدة ظهراً بقليل، وتذكرت غداء السباغيتي وكرات اللحم ليوم الأحد عند آل بيلاروزا.

تذكرتُ أيضاً أنه يفترض بي الاتصال بإليزابيت للقاء محتمل عند السابعة مساء. تم تحديد الكثير من الأمور قبل هذا التحول المفاجئ في الأحداث، وتمنيت الآن لو أنني اتصلت بسوزان الأسبوع الماضي. لكن من يعرف ماذا كان ليحصل الأسبوع الماضي لو التقينا؟ لم أكن مستعداً حينها لما حصل للتو، في الواقع، إنني لست واثقاً من أنني مستعد الآن لما حصل. لكن الأشخاص الأذكياء، مثلي، يستطيعون تغيير الخطط مع تبدل الظروف. بالنسبة إلى خططي مع إليزابيت، مثلاً، يجدر بالأشخاص الذين هم على وشك الزواج أن يلغوا مواعيدهم الغرامية. لكن بالنسبة إلى العشاء مع عائلة بيلاروزا، لم يكن القرار بسيطاً هكذا.

"جون؟ مرحباً؟".

نظرتُ إلى سوزان وقلت لها: "تعرفين، أستطيع شرب كأس شراب".

"لا أظن أنني أملك عصير البندورة".

"ثمة خيار أفضل. شراب روسي مثلج".

فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة شراب وسكبت محتواها في كأس، ثم أضافت مكعبات الثلج وملأت الكأس بعصير البرتقال وهي تقول: "لا يمكنك احتساء الشراب الروسي وحيداً في هذا الوقت المبكر من النهار".

ظننت أنني أستطيع. بدأت أتذكر أشياء من زواجي الأول، الذي كان أيضاً زواجي الأخير.

سكبت سوزان لنفسها عصير برتقال وناولتني مشروبي. طرقنا كأسينا وقلت لها: "نخبنا".

"نخبنا".

احتسيت شرابي ولم أستطع تذوق الشراب الروسي.

سألت مجدداً: "هل تودّ أكل شيء ما؟".

"لا، هذا يكفي".

"ماذا تناولت خلال الفطور؟".

"أوه... دعيني أفكر...". كدت أحصل على إليزابيت على طاولة المصطبة، لكن لا يجدر بي ذكر ذلك فقلتُ لها: "مافن إنكليزي".

"هذا فقط؟".

"وهلام تفاح بري. وقهوة".

"وتناولت الفطور لوحدك؟".

"لا".

استفسرت: "كيف حصل أن نمتَ أنت وهي في المنزل نفسه طوال الليل، ولم يحصل شيء بينكما؟".

بدأ ينفد صبري من الأسئلة المتعلقة بإليزابيت وقلت: "لا يهم كيف أو لماذا لم يحصل أي شيء. المهم هو أنه لم يحصل أي شيء".

شعرت بأنني منزعج فقالت: "أنا آسفة. لا أصدق كم أغار عليك. لن أذكر الأمر مجدداً".

"شكراً".

"أنت تفقد ذوقك ربما".

"سوزان...".

"أو كنت مخلصاً لسامنتا؟".

بدا هذا سؤالاً مبطناً، فشرحتُ لها: "إليزابيت، مثلما تتخيلين، منزعجة جداً بشأن أمها. أمضينا النهار كله ونحن نتصفح أوراق إيثيل وأغراضها الشخصية، وفي نهاية اليوم، كانت مرهقة عاطفياً، واحتست الكثير من الشراب الفرنسي وخلدت إلى النوم باكراً. نمتُ على الأريكة. نهاية القصة".

"حسناً. أنا آسفة". ثم استفسرت: "هل من شهود آخرين على هذه الأحداث؟".

كنت على وشك فقدان صبري، لكن حين نظرت إليها، لاحظت أنها كانت تبتسم. فابتسمت أنا أيضاً، ووضعت هي كأسها وعانقتني. قالت لي: "لا أريد أن أكون غيورة".

وضعت كأسي على رف المطبخ وتعانقنا وتبادلنا القبلات.

قالت: "فلنتصل بإدوارد وكارولين".

بدت متحمسة لذلك، وأدركت أنني كنت متحمساً أيضاً. قلت لها: "باشري في الاتصال".

ذهبت إلى هاتف الحائط، وطلبت الرقم، وقالت: "أطلب كارولين على هاتفها الخلوي أولاً".

أجابت كارولين، وتحدثتا لبضع ثوانٍ، وحسبما فهمت، كانت كارولين تتناول غداء يوم الأحد مع أصدقائها. قالت لها سوزان: "أودّ التحدث معك على انفراد

للحظة".

"نعم، حسناً". غطت سوزان الهاتف بيدها وقالت لي: "أريد إخبارها". عادت كارولين إلى الخط، وقالت سوزان: "يريد والدك التحدث إليك".

لا بد من أن الأمر أربك كارولين؛ لأن سوزان أضافت: "لا، إنه هنا". أعطتني الهاتف وقلت لابنتي: "كيف حالك حبيبتي؟".

أجابت: "رائعة. إذاً... كيف حالكما؟".

"بخير أيضاً". استطعت سماع ضجيج الشارع عبر الهاتف، فسألتها: "أين أنتِ؟".

"أمام بيتروسيان. أنا برفقة أصدقائي هنا".

لا أظن أن مساعدة المحامي تجني الكثير من المال، ولذلك فإن آل ستانهوب يدفعون ربما ثمن الشراب الخفيف والكافيار. مازحتها قائلاً: "أتمنى أن يكون الغداء على نفقة أحد ما".

"أنا على موعد غرامي، أبي".

"أوه...". ما زلت عاجزاً عن التفكير في أن تكون ابنتي الصغيرة بصحبة رجل، وخاصة رجل يغدق عليها بالكافيار والشراب الخفيف، فمازحتها مجدداً: "اذهبا بعدها إلى البيلوغا".

تجاهلت ذلك وقالت: "إذاً... ماذا يجري؟".

سؤال جيد. ألقيت نظرة على سوزان، التي قررت الضغط على زرّ سماعة الهاتف وقلتُ: "حسناً... أنا هنا في منزل أمك...".

"أعرف".

"و... حسناً، كاري، قررنا أن نعود إلى بعضنا مجدداً...". سمعتها تصرخ، فظننت أنها اصطدمت بحاملة أو بشيء ما، ثم صرخت مجدداً وقالت: "أوه، يا إلهي! أوه، بابا، هذا رائع! أوه، أنا سعيدة جداً. أمي! أمي!".

أخذت سوزان الهاتف مني، وأطفأت زرّ السماعة، وأجرت محادثة سريعة مع ابنتها، متقطعة بصرخات وصيحات غير مفهومة.

تصوّرت أن دوري في الكلام قد انتهى، فتراجعت إلى الخلف وأضفت الشراب الروسي إلى عصير البرتقال في كأسي. سمعت سوزان تقول: "جون، هذا يكفي"، ثم أعادت انتباهها إلى كارولين.

وبعد دقائق قليلة على حديث نساء، ضغطت سوزان مجدداً على زرّ سماعة الهاتف وقالت: "سنتركك تعودين إلى أصدقائك. اتصلي بي حين تتاح لك الفرصة. يريد والدك أن يودعك".

ناديت عبر المطبخ: "وداعاً كاري! أحبك".

"وداعاً بابا! أحبك!".

أغلقت سوزان السماعة وقالت لي: "إنها سعيدة كثيراً لأجلنا، جون. أليس هذا رائعاً؟".

"بلى. إنها في موعد غرامي".

"أخبرتها أننا سنتصل بإدوارد الآن، وقالت إنها ستتصل به الليلة".

"من هو هذا الرجل؟".

"إنه ابننا، إدوارد".

"لا، أقصد موعدها الغرامي".

"أوه... لا أعرف. انفصلت عن كليف، وهي الآن تواعد رجلاً جديداً. لكنها ليست جدية مع أي كان".

"يبدو مطعم بيتروسيان وتناول غداء بقيمة مئتي دولار أمرين جيدين". ثم قلت: "قد يكون لهذا علاقة بمخاوفها من المجاعة العالمية".

تجاهلتني سوزان وقالت: " اتصل أنت بإدوارد".

ألقيت نظرة على الساعة وقلت لها: "إنها العاشرة صباحاً في لوس أنجلوس. إنه نائم على الأرجح".

حملت الهاتف وطلبت الرقم وقالت: "أنا أجرب رقم هاتف شقته". وبعد رنات قليلة، أجاب أحدهم عبر الهاتف، وقالت سوزان: "مرحباً، أنا السيدة ساتر، والدة إدوارد. هل هو موجود؟". أصغت مجدداً، ثم قالت: "أخبريه أن الأمر مهم. سأبقى على الخط. شكراً". قالت لي: "إنه يستحم".

"ومن هذه؟".

"سيدة شابة لا تملك اللياقة الكافية لتعطيني اسمها، ولا المهارات الاجتماعية للقول إن إدوارد منشغل".

"ربما هذا ما قالته: منشغل. وأنت سمعت أنه في الحمام".

"مضحك جداً".

أذكر أن سوزان انتقدت دائماً اختيار ابنها لصديقاته أكثر مما انتقدت اختيار كارولين لأصدقائها. أما أنا فتكون لي عادة ردة فعل معاكسة. أنا واثق من أن فرويد يستطيع شرح ذلك إذا كتبتُ له: "عزيزي سيغموند...".

قالت لي سوزان: "أتمنى ألا أخيفه".

أجبتها: "أرسلت تلك الفتاة على الأرجح وهي تبكي إلى الحمام".

"جون، أرجوك". وضعت سوزان الهاتف قرب أذنها وقالت: "صباح الخير حبيبي. لا، كل شيء بخير. أردت فقط أن أطلعك على خبر جيد. توقف. ثمة شخص يريد أن يقول لك مرحباً".

أعطتني الهاتف، واستخدمت أنا اسمه المستعار القديم، فقلت له: “مرحباً سكيبر”.

“بابا!”.

“آسف لإخراجك من الحمام...”.

“لا مشكلة. ما الأمر؟”.

“من أجاب على الهاتف؟”.

“أوه... إنها ستايسي. إنها... سنذهب إلى الشاطئ”.

“رائع. أي شاطئ؟”.

“ماليبو ربما. هاي، بابا، عليك أن تأتي إلى هنا”.

“أنوي ذلك. لكنني أعتقد أنني سأراك هنا في مناسبة أقل سعادة”.

“نعم... كيف حالها؟”.

“ليست بخير. رأيتها قبل أيام قليلة، وأظن أن الموعد قد أصبح قريباً”.

“هذا محزن فعلاً”. ثم سألني: “إذاً، كيف حالك في نيويورك؟”.

“رائع. من الجيد العودة إلى هنا”.

“كيف حال الطقس هناك؟”.

“رائع”. يبدو أنه لم يخطر في بال إدوارد أن ثمة أمراً غير اعتيادي في اتصالنا به أنا وأمه سوية، وبدا أنه نسي، أنه كان على وشك سماع شيء مهم. يملك إدوارد معدل ذكاء عبقري، رغم أن معظم الأشخاص لا يدركون ذلك، وكان غريباً جداً مثلما أذكره، ولذلك لا ألوم كاليفورنيا كثيراً على ذلك.

لاحظت أن سوزان بدأت تفقد صبرها قليلاً، فقلت لإدوارد: “حسناً، سكيبر، أنت تتساءل ربما عن سبب اتصالنا”.

“نعم... هل كل شيء بخير؟”.

ضغطت سوزان على زرّ سماعة الهاتف وقالت: “أنا على الخط حبيبي. لدينا أنا ووالدك بعض الأخبار الجيدة”.

“رائع”.

أظن أنه حان دوري للكلام فقلت بنبرة سعيدة: “سنتزوج أنا وأمك”.

“هوه؟”.

“نتزوج. مجدداً”.

ساد الصمت، ثم سأل إدوارد: “تقصد...؟ مع بعضكما؟”.

صرخت سوزان: “أليس هذا رائعاً؟”.

"أوه... نعم. واو. مريع". أظن أنه استوعب الأمر بعدها وقال: "أوه، واو". ثم أضاف: "هل تمزحان؟".

أجبنا أنا وسوزان في الوقت نفسه: "لا"، وقالت له سوزان: "اتصلنا بكاري وكانت متحمسة كثيراً. ستتصل بك الليلة".

"رائع. هاي، أنا...". ثم حصل شيء غريب، وسمعت أنه يختنق تقريباً. علق شيء ما في حنجرتي أنا أيضاً، ولاحظت أن الدموع تلألأت في عينيّ سوزان.

قلت له: "سنتركك الآن، سكيبر. استمتع بوقتك على الشاطئ. أراك قريباً".

كانت سوزان تمسح عينيها بمحرمة، واقترحت على إدوارد: "لا تحضّر الكثير من المشاريع حين تأتي إلى هنا. إنه وقت العائلة. سنتناول العشاء معاً".

"حقاً؟ أوه. حسناً. طبعاً. جيد".

تابعت سوزان شرحها: "سأتصل بك وأرسل إليك البريد الإلكتروني ما إن نحدّد شيئاً ما. عليك أن تستقل أول رحلة متوافرة إلى نيويورك. لا داعي لأن تكون الرحلة مباشرة أو من دون توقف. ولا تنسَ السؤال عن مقاعد الدرجة الأولى، أو مقاعد رجال الأعمال إذا نفدت المقاعد التجارية. إدوارد؟ هل تسمعني؟".

في الواقع، توقف إدوارد عن الاستماع قبل عشرة أعوام، لكنه أجاب: "حسناً، أمي".

"أحبك".

"وأنا أيضاً".

قلت له: "أحبك".

أنهت سوزان المخابرة وقالت لي: "كانا متحمسين كثيراً. إنهما فعلاً كذلك جون. هل لاحظت؟".

"لاحظت".

مسحت سوزان عينيها مجدداً وقالت: "هناك الكثير من الوقت الواجب علينا تعويضه كعائلة".

"نعم، ولديّ الكثير من الوقت الواجب عليّ تعويضه معهما، لكن كل شيء سيكون إيجابياً الآن".

"فعلاً". فكّرت لبرهة، ثم قالت: "لا يزال إدوارد بحاجة إلى وجه رجولي قوي وجيد في حياته. إنه... غير ناضج".

لا أظن ذلك، وكان يجدر بي تجاهل الموضوع، لكن الجانب المتهكم فيّ قال: "إنه في السابعة والعشرين. يمكنه أن يكون نموذجاً لنفسه".

بدت منزعجة قليلاً، ومن ثم محرجة، وذكّرتني: "تعرف كيف هو إدوارد".

"نعم، إنه مثلي".

"أنت أكثر تنظيماً منه بقليل. وأشدد على كلمة بقليل".

كانت سوزان واحدة من أكثر النساء الفوضويات اللواتي عرفتهن، لكنها أصبحت على ما يبدو أكثر تنظيماً منذ أن غادرت. أو على الأقل، فوضوية بنسبة أقل.

المشكلة هي أننا تغيرنا كلانا، لكن الذكريات لم تتغير، أو أن الذكريات تغيرت، ونحن لم نتغير. لا بدّ لنا من أن نرى بعضنا البعض مثلما نحن الآن، وليس مثلما كنا قبلاً.

وعلى صعيد أكثر تفاؤلاً، شعرت سوزان فوراً بالارتياح معي، بحيث لم تتردد في الإشارة إلى عيوبي، وتوجيه انتقادات بنّاءة عند الضرورة. إنها مغازلة قصيرة جداً.

أحست على ما يبدو بما أفكر فيه، أو أنها كانت تتابع تعليقها الأخير، فقالت لي: "أحبك على أي حال. أحب سحرك الطفولي، وذكاءك الساخر، وعاداتك المزعجة جداً، وحتى عنادك وطبيعتك غير المسامحة. أحبك من دون شروط، ولطالما فعلت ذلك. وسأقول لك السبب؛ أنت تقول الحقيقة، ولديك شخصية، لم أعد أرى الكثير منها هذه الأيام، ولديك الشجاعة، جون". ثم أضافت: "لم أشعر أبداً بالخوف حينما كنت برفقتك".

بالكاد عرفت ما أقوله، لكنني أجبتها: "أنت مدللة، وبعيدة كثيراً عن الواقع، ومخادعة قليلاً، وسلبية وعدائية، ومجنونة، لكنني أحبك على أي حال". إنها الحقيقة، لكنني خشيت ألا تفهمني بطريقة صحيحة فقلت: "شكراً". أخذتها بين ذراعيّ وقلت لها: "أحبك من دون شروط. لطالما فعلت وسأفعل ذلك دائماً".

"أعرف". وضعت رأسها على كتفي وقالت: "إنه مثل الحلم".

انسابت دموعها على عنقي، وتشبثنا ببعضنا البعض.

لم أعرف في ماذا كانت تفكر، لكنني كنت أفكر في العشاء مع أنطوني بيلاروزا.

الفصل الثامن والعشرون

أخذت سوزان على عاتقها مهمة تجميلي قبل الزواج مجدداً. ومن بين عيوبي كانت هناك بشرتي الشاحبة، التي لاحظتها في غرفة النوم، ووافقت معها على حاجتي إلى القليل من اللون. هكذا، نقلنا كرسيين طويلين إلى ضوء الشمس في المصطبة، وخلعنا ملابسنا، واستلقينا جنباً إلى جنب ونحن نمسك بأيدي بعضنا، فيما ارتديت أنا سروالي الداخلي القصير وارتدت سوزان سروال ثوب السباحة. كان الراديو في المطبخ مضبوطاً على محطة كلاسيكية فيما أوركسترا شيكاغو السمفونية، بقيادة السير جيورغ سولتي، تعزف افتتاحية "الألماني الطائر".

كان تأثير الشمس جيداً على بشرتي علماً أنني لم أرَ الشمس كثيراً في لندن طوال سبعة أعوام.

على الطاولة الصغيرة بيننا ثمة قنينة من سان بيليغرينو، ذكّرتني في المرة الأولى التي شربت فيها هذه المياه الفوّارة، مع سوزان، خلال الزيارة الأولى لنا إلى منزل آل بيلاروزا. والمرة الثانية كانت غداء احتفالياً مع فرانك بيلاروزا في مطعم جوليو في إيطاليا الصغرى، بعد مثولنا أمام المحكمة، ونجاحي في إطلاق سراح فرانك بناء على كفالة. وقد تكون آخر قنينة شربتها من مياه بيليغرينو في مطعم جوليو أيضاً، بعد أشهر قليلة. عندما كنا في مناسبة اجتماعية برفقة زوجاتنا، وفي ذلك الوقت، أصبحت معتاداً على المطبخ الإيطالي، وكنت واثقاً أيضاً من أن زوجتي، المستلقية الآن قربي، تقيم علاقة مع مضيفنا، الذي تجاهلها عملياً وكان مهتماً جداً بي. أي دليل آخر أحتاج إليه؟

إذاً، في تلك المناسبة، لم أكن في مزاج جيد - أقصد، كمحام، كان يجدر بي إغراء الزبون، ولا يجدر بالزبون إغراء زوجتي - وعند التفكير الآن مجدداً في الأمر، كان يجدر بي القول لآنا بيلاروزا، فيما هي تأكل الكانولي، "زوجك يقيم علاقة مع زوجتي".

وكان يجدر بآنا الالتفات نحو سوزان والقول: "سوزان. أنا مضطرة... لكن أنت...".

أنا أمزح فقط. على كل حال، تساءلتُ غالباً كيف كانت ستصبح الأمسية لو أنني واجهتهما في مطعم جوليو. هل كنا سنخرج أنا وفرانك إلى الشارع لنرى إذا كانت سيارة الليموزين خاصته تنتظرنا هناك؟ ربما لا. أنا واثق من أنني كنت سأبحث عن سيارة أجرة لتقلني إلى محطة قطار لونغ آيلند، وحيداً. وهل كان لرحيلي المفاجئ من أن يعرقل توقيت الضربة المخطط لها؟ لا أعرف، لكنني واثق من أنني ما كنت لأقف قرب فرانك حين تلقى رصاصتين اخترقتا سترته الواقية من الرصاص، وما كنت لأتواجد هناك لأنقذه بدلاً من أن ينزف حتى الموت، وما كان ليعيش حتى تقتله سوزان لاحقاً.

إذا كنا محكومين جميعاً بالقدر، فلا مهرب منه. ولكن حتى للقدر منافذ: الطبيعة البشرية والسترات الواقية من الرصاص أنقذتنا يومها سيد المافيا.

قالت لي سوزان: "أنت هادئ جداً".

"أنا أستمتع باللحظة".

"تحدث إليّ".

قلت لها: "سوزان، أريد التحدث معك بشأن بعض الموضوعات".

أجابتني، من دون أن تقطع روتينها: "لاحقاً. فلنخرج لتناول العشاء الليلة".

لم أجبها.

تابعت: "أريدك أن تنقل أغراضك إلى هنا بعد ظهر اليوم. سأساعدك".

ذكّرتها: "سيقيم أهلك هنا".

"آه... سنتدبّر الأمر".

قلت لها: "فلندخل".

جلست، ونظرت إليّ وسألت: "ما هي الأمور الأخرى التي تريد التحدث معي بشأنها؟ لقد ناقشنا ما يحتاج إلى المناقشة".

"بعض الأمور اللوجستية".

لم تجب لبضع ثوانٍ، ثم وقفت، ودخلنا إلى المنزل. اقترحت عليّ: "فلنجلس في مكتبي".

كان هذا مكتبي وغرفة جلوسي قبلاً، فعرفتُ الطريق، وذهبنا إلى الغرفة الأمامية الكبيرة التي رأيتها عبر النافذة قبل أيام قليلة.

توقعتُ أن أرى ديكوري الذكوري - جلد، ونحاس، وخشب ماهوغاني، ونقوش صيد - مستبدلاً بشيء أكثر نعومة، لكن المفروشات وطريقة ترتيبها بقيت هي نفسها كما كانت حين غادرت قبل عشرة أعوام، والشيء الوحيد الناقص، باستثنائي أنا، هو بعض أغراض الجيش غير الجديرة بالذكر. لاحظتُ أيضاً أنها تضع صورة مؤطرة لأهلي على رف المكتبة.

قالت سوزان: "حافظتُ على كل شيء، باستثناء الأغراض التي أخذتُها".

لم أجبها.

انتقلت إلى المشرب الصغير وقالت: "حان الوقت لاحتساء كأس".

"ألتزم بالشراب الروسي".

سكبت لي الشراب الروسي مع الثلج من براد المشرب، وسكبت لنفسها الشراب الروسي مع شراب منشط.

جلسنا معاً على الأريكة الجلدية، ووضعت سوزان قدميها الحافيتين على طاولة القهوة. مثلما تعلمتُ من سنواتي الطويلة في ممارسة المحاماة، يجدر بي ذكر

نقاطي وفق الترتيب التصاعدي حسب الأهمية، بدءاً من الأقل أهمية، وهو أهلها. والبدء أيضاً بسؤال.

سألتها: "كيف سيتفاعل أهلك برأيك مع أخبارنا الجيدة؟".

أجابت من دون تردد: "سيكون فرحهما لعيناً".

ابتسمتُ على اللغة غير المتوقعة، لكن لأظهر لها أن الموضوع جدي، قلت لها: "وكيف ستتفاعلين أنت مع فرحهما اللعين؟".

هزّت كتفها ثم أجابت: "هذه حياتي".

"لكنه مالهما".

"أملك مالاً خاصاً بي. لكنه ليس كثيراً بعدما دفعت الكثير ثمناً لهذا المنزل".

"حسناً. إذاً...".

"وهذا أمر أريد مناقشته معك".

"الجواب هو: أنا مفلس".

لوّحت بيدها وقالت لي: "آه، توقعتُ ذلك. لكنك تستطيع كسب المال...".

ابتسمتُ وقلتُ: "حسناً، لكن...".

"لا، ما أريد قوله لك هو أنني لا أريد اتفاقاً مسبقاً للزواج هذه المرة".

كان هذا نوعاً من الصدمة، لكنها شرحت: "أصولي الوحيدة الحقيقية هي هذا المنزل، والمنزل في هيلتون هيد، وكلاهما معفيان من الرهن، وأريدك أن تمتلك نصفهما؛ وتدفع معظم الفواتير".

أجبتها: "هذا كرم كبير منك، لكن...".

تابعت: "مثلما تعلم، حين نعلن زواجنا من جديد، سيهددني أهلي بحرماني من الميراث، ويوقفان دعمهما المالي".

لاحظتُ أنها فكرت في ذلك خلال الساعات القليلة الماضية، أو ربما خلال الأسابيع القليلة الماضية، أو السنوات. يبدو أنه فيما كنت أفكر، ما إذا كان بوسعنا التصرف بمدنية مع بعضنا، كانت هي تفكّر في، كم سيكلفها الزواج مجدداً من جون ساتر. تأثرت كثيراً لقرارها من أنني بالنسبة إليها أغلى من مال أهلها. إلا أن ما هو الآن مجرّد أمر نبيل سيصبح حقيقة صعبة خلال أيام قليلة حين تتصل بالماما والبابا. قلتُ لها: "لن يهددانك بقطع المال عنك وحرمانك من الميراث. سيفعلان ذلك. بلمح البصر".

هزّت كتفها مجدداً وأجابت: "أنت، سيد ساتر، آخر فرصة لي مع السعادة. وسعادتي هي كل ما يهمني". ابتسمت وأضافت: "حسناً، سعادتك أنتَ أيضاً".

"لا أعرف ماذا أقول".

"قل شيئاً لطيفاً".

"سأقول شيئاَ واقعياً، وهذا ألطف شيء أستطيع قوله لك؛ الحياة غير سهلة من دون مال".

"لا أعرف ذلك".

"هذه هي النقطة، سوزان".

"هل تحاول التهرب من هذا الزواج لأنه لم يبقَ لدي إلاّ بضعة ملايين من الدولارات؟".

أجبرتُ نفسي على الابتسام ومازحتها: "لا تنسي المهر وهدية الزفاف الكبيرة من أهلك".

أجابت: "يمكنك التأكد من أنهما سيقدمان إليّ خمسة ملايين لعدم الزواج بك".

بقيتُ صامتاً لبرهة، أحتسي كأسي. وأخيراً، قلت: "حسناً... يمكننا الاكتفاء تماماً بما تبقى لديك، والبقاء في هذا المنزل إذا أردت، وربما الاحتفاظ بمنزل هيلتون هيد، وأستطيع حتماً كسب كمية جيدة من المال". وهذا صحيح، حتى لو لم أعمل في شركة المجرم، وأنا واثق تماماً من أنني لن أفعل ذلك بعد هذا التحول في حياتي العاطفية.

انتبهت سوزان إلى عبارتي الأخيرة وذكّرتني: "لديك عرض للعمل".

"صحيح... وسنحسم الأمر قريباً. لكن إذا وضعنا المال جانباً، هل فكّرت في الكلفة العاطفية للابتعاد عن أهلك؟".

"سيتجاوزان المسألة. لكنني أريدك أن تعدني بألا تزيد من لهيب النار".

فكرتُ في ذلك وأجبتها: "سأجعلهما حتماً يعرفان أنني أصبحت رجلاً مختلفاً جداً عن الرجل الذي عرفاه قبل عشرة أعوام".

قالت سوزان: "لست كذلك. لكن يمكنك القول إنك هكذا". ذكّرتني: "قلتَ لوالدي إنه أحمق".

"لا، لم أفعل. قلتُ له إنه...".

"لا أحتاج إلى سماع ذلك مجدداً". نظرت إليّ وقالت: "ربما كان يستحق كل ذلك، لكن إذا كنتَ تحبني، ستعتذر منه".

"حسناً، أحبك، ولذلك سأعتذر".

"شكراً".

"وأنا مسرور جداً لسماع أنهما أصبحا أكثر لطفاً".

قالت لي: "في الواقع، لم يصبحا. كذبت بشأن ذلك". ابتسمت وغمزتني.

ابتسمتُ أنا أيضاً واعترفتُ لها: "لم أصدقك".

أصبحت جدية وقالت: "سنبذل ما في وسعنا جون. لن يكون الأمر سهلاً، لكنني أعدك بذلك؛ هذه المرة، سأفضلك دائماً على أهلي".

هذا أول اعتراف سمعته منها بأنها عكست أولوياتها حين كنا متزوجين. أفهم قوة المال، خصوصاً حين يكون في أيدي أشخاص مثل ويليام وشارلوت ستانهوب، لكن في النهاية، إذا واجهتَ هذا النوع من التسلط والمراوغة، يستفيد الجميع، حتى مثل هذين الشخصين. قلتُ لها، بتفاؤل أكبر مما كنت أشعر: "حسناً، قد نتفاجأ برد فعلهما حين نخبرهما".

"نحن؟ أنا لن أخبرهما. أنتَ ستفعل ذلك". وضحكت.

ابتسمتُ وقلت: "سأطلب يدك للزواج من والدك، مثلما فعلت في المرة الماضية".

"هذا لطف كبير منك. ولا تنسَ إخبارهما بأنك أصررت على عدم عقد اتفاق مسبق للزواج". ثم اقترحت: "أحضر معك كاميرا فيديو. أريد أن أعاود مشاهدة رد فعلهما".

يتضح جلياً أن سوزان هي في مرحلة معينة من حياتها ونموها العاطفي، التي تسبب لها تمرداً كبيراً على سلطة أهلها. لقد تأخر الوقت بضعة عقود، لكنني ألاحظ أن هذا التمرد اكتمل في عقلها. وما عليها الآن سوى اتباعه.

فكرتُ أيضاً في زواجها بصديق والدها العجوز، دون هانون، ولم أحتج إلى الكثير من التحليل لأدرك من أن الزواج كان مدبَّرا، ووافقت هي عليه لمجرد إرضاء البابا. الآن، ستوضح للبابا أمراً أو أمرين. لا أشك في أنها تحبني، وأنها ستتخلى عن أهلها وأموالهم من أجلي، لكن هذا بمثابة تسديد دين للبابا.

أطلعتني سوزان على بعض الأخبار الجيدة: "لا أريد أن أبدو باردة، لكن لم يبقَ لهما الكثير من السنوات".

تجاهلت هذه الفكرة، وأثرتُ موضوعاً على صلة. قلتُ لها: "أنا أتساءل أيضاً ما إذا كان زواجنا مجدداً سيؤثر في إرث ولدينا".

بدت سوزان متفاجئة وأجابت من دون تفكير كاف: "لن يفعلا ذلك أبداً بحفيديهما".

لم أجبها، وأردت تصديق ذلك، لكنني أعرف آل ستانهوب جيداً للإجابة عن سؤالي: ويليام، على الأقل، حقود جداً، بحيث لو كان لديه عرف عائلي لقال: "سأقطع أنفي لأغيظ وجهي"، وتصبح الصورة رجلاً من دون أنف.

ذكّرتني سوزان: "مال الأولاد في وديعة".

لم أشأ إغضابها ولذلك قلتُ لها: "هذا صحيح". لكنني رأيت مستندات الوديعة، ومن دون الدخول في الشروط القانونية، عرفتُ أن ما يعطيه الجدّ يستطيع أن يأخذه مجدداً. كما أن شقيقها عديم الفائدة، بيتر، هو المؤتمن على الوديعة، ويستطيع ويليام، عبر بيتر، التلاعب بالوديعة، وإيقاف الدفعات الشهرية للولدين، مع التأكد من عدم حصول إدوارد وكارولين على قرش واحد قبل بلوغهما عمر الخمسين. ويستطيع طبعاً حرمان حفيديه من الميراث في أي وقت.

شعرتُ فعلاً بضرورة إخبارها بكل ذلك، لأنه حتى لو كانت مستعدة للتخلي عن إرثها ومالها، فإنها غير مستعدة لحصول ذلك مع إدوارد وكارولين. إذا كان هذا أمراً محتماً، يجدر إذاً بجون ساتر الرحيل. وسأفهم ذلك.

في غضون ذلك، أتمنى أن يحب ويليام حفيديه كفاية بحيث لا يعاقبهما بسبب أخطاء ابنته، ولذلك قلتُ لها: "حسناً، لكنك تعرفين أنك أنت قد تخسرين حصتك، وقد يتم حرمانك من ملكية عقار قيمته ملايين الدولارات؟".

"نعم، جون، أعرف ذلك".

سألتها، من دون مزاح: "وهل لا تزالين ترغبين في الزواج بي؟".

أجابت: "لا. أنت تكلفني كثيراً".

افترضت أنها تمزح، فقلت لها: "كوني جدية".

"لا أصدق أنك تطرح عليّ هذا السؤال".

"أعتذر".

"لكن انتظر... أخبرني مجدداً ماذا سأكسب من ذلك؟".

"أنا فقط".

"أنت فقط؟ فارس الأحلام من دون مهنة أو مال؟".

"أملك شهادة في القانون".

"هل أستطيع رؤيتها؟".

ابتسمنا كلانا، وجلسنا وشربنا كأسينا. حسناً، لو سارت الأمور بطريقة مختلفة، لكنت تفاجأت. سوزان ستانهوب ساتر مغرمة وتريد استعادتي، علماً أن سوزان تحصل على أي شيء تريده. أنا مغرم أيضاً، ولم أتوقف يوماً عن حبها، ولذلك يفترض أن ينجح الأمر، نظرياً.

شبكت سوزان ساقيها، وحدّقت إلى خارج النافذة، وقالت كما لو أنها تتحدث إلى نفسها: "الحب يهزم كل شيء".

"صحيح". مثلما قال فيرجيل الحب ينتصر على كل شيء، مما ذكرني بموضوعي التالي، إذا كنت بحاجة إلى التذكير.

الفصل التاسع والعشرون

بعد حلّ مسائل عائلة ستانهوب، أو على الأقل مناقشتها علناً، أصبحت الآن جاهزاً لمناقشة موضوع أنطوني بيلاروزا، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مع سوزان. لكن سوزان أرادت التنزه نحو باب الحراسة، لترى شيئاً ما، ولذلك مشينا في الممر الطويل الفاصل بين منزل الضيوف ومقرّ إقامتي المؤقت.

حين عبرت هذا الممرّ، قبل ست ساعات، كانت حياتي في سجن، ولم تكن مشاريعي المستقبلية أكيدة. أما الآن، حسناً... فأنا على وشك الزواج.

قالت لي سوزان: "حين ترعرعت هنا، لم أتخيل أبداً أن هذا العقار سيتم بيعه وتقسيمه، وسيصبح محاطاً بمبانٍ أخرى، وسأعيش وحيدة في منزل الضيوف". ثم أضافت: "لن أسامح أبداً والدي على بيعه هذا العقار".

لم يكن ويليام بحاجة إلى بيع ستانهوب هال، لكن السبب هو كلفة الصيانة والضرائب التي تخطت ما كنت أجنيه في عام كامل وما كان يريد إنفاقه للحفاظ على عقار العائلة لورثته. لا يستطيع أخذه معه، لكنه لم يشأ الإنفاق عليه قبل أن يرحل. لذا، انتقل إلى هيلتون هيد، وعثر في النهاية على شارٍ اسمه السيد فرانك بيلاروزا، الذي تأثر قراره، بشراء عقار ثانٍ، بالسيدة التي تمشي الآن قربي.

الآن، أصبح ستانهوب هال - باستثناء الأكرات العشرة التي تملكها سوزان، ومساحة الستين أكراً الخلفية التي كانت سوزان تمتطي فيها صهوة جوادها - في أيدي السيد أمير نسيم، رجل لم يكتب اسمه في السجل الاجتماعي، لكنه قد يكون على لائحة أهداف الملالي. وتم تقسيم الحمرا، ومات مالكها السابق، فرانك بيلاروزا. إلا أن الكثير من هذه التغييرات، إذا فكرتَ فيها، هي نتيجة تصرفات سوزان ستانهوب ساتر التي لا تحب التغيير.

على كل حال، علينا العيش في العالم مثلما هو الآن، وليس مثلما كان. لكن علينا أولاً إعادة ترتيب أحداث الماضي قليلاً.

إلا أن سوزان موجودة مؤقتاً في الحاضر، وسألتني: "هل سأجد في منزل الحراسة شيئاً لا أرغب في رؤيته؟".

"حسناً...؟".

أسرعت في خطواتها وقالت: "أراهن أنك لم تظن أبداً أنك سترافقني مجدداً إلى منزل الحراسة حين اتصلت بي هذا الصباح".

"لا، لم أفعل". لكن المنزل لا يحتوي على أي أدلة مُدينة - وإنما فقط على أدلة مبرّئة - والأهم من ذلك، أملك ضميراً حياً.

وصلنا إلى منزل الحراسة، وقالت لي سوزان: "لا تعرف كم غضبتُ حين رأيت سيارة إليزابيت ألارد متوقفة هنا ليل نهار".

أظن أنه أصبح لديّ فكرة عن ذلك الآن، لكنني قلت لها: "ليست الأمور دائماً مثلما تبدو".

"سنكتشف ذلك".

سبقتني إلى منزل الحراسة، وشاهدت؛ داخل الردهة، الأغراض الشخصية لآل ألارد التي وضبتها أنا وإليزابيت هنا. علّقت سوزان: "ألاحظ أنكما فعلتما شيئاً آخر غير الشرب".

"كان هناك الكثير من العمل".

"ماذا تناولتما خلال العشاء؟".

"جبنة ومكسرات".

انتقلت إلى غرفة الجلوس وشاهدت وسادتي وبطانيتي على الأريكة، وكنت سعيداً لأنني تركتهما هناك. لكن سوزان لم تعلّق على هذا الدليل المؤكد على نومي وحيداً، ولذلك قلت لها: "هل رأيت؟".

تجاهلتني ونظرت إلى الغرفة، ثم سألت: "هل تريد إليزابيت هذه الأغراض القديمة؟".

"لا أعرف، لكنني أجريت جردة لكل شيء، ووقعت هي عليها".

انتقلنا إلى غرفة الطعام، حيث لا تزال الطاولة والأرضية مليئتين بعلب التخزين والملفات. سألتني: "ما كل هذا؟".

أجبتها: "معظمها محتويات مكتب المحاماة ومكتبي المنزلي السابق، وقد وضعتها هنا قبل أن أغادر".

"يمكنك استرداد مكتبك المنزلي".

"هذا كرم منك".

"ماذا كنت ستفعل بكل ذلك؟".

كنت سأحفظها في منزل إليزابيت ألارد، لكنني أجبتها: "سأحفظها في مكان عام". ثم أضفت: "لكنني وجدت الآن الحل لمشكلة حفظ أغراضي. ولمشكلة سكني. ولكل مشاكلي الأخرى".

وافقت: "نعم". ثم نصحتني: "بعدما تستقيل من وظيفتك، عليك الانتقال من شقتك في لندن".

"طبعاً، حبيبتي. سأسافر إلى لندن مباشرة بعد دفن إيثيل".

"وتخلَّ عن صديقتك في لندن. قبل أن تعود إلى هنا".

"سأفعل، حبيبتي". إلا إذا وصلت إلى هنا على نحو غير متوقع قبل ذلك. أحتاج إلى إجراء هذا الاتصال الهاتفي سريعاً.

أعلنت سوزان: "سأسافر معك إلى لندن".

"رائع. سنقيم في فندق بيركلي".

"سنقيم في شقتك".

كنت أخشى ذلك. لدي شقة جميلة ومرتبة بالنسبة إلى عازب، ولا تحمل سامنتا مفتاحاً، لكن قد تكون هناك بعض الأغراض في الشقة، بما في ذلك بعض أغراض سامنتا الشخصية، التي ستزعج سوزان.

أثارت موضوع الخصوصية ولذلك قلت لها: "قبل أن أنتقل إلى السكن معك، سأعطيك كل الوقت لتتخلصي من كل الأغراض التي لا تريدين أن...".

"يمكنك الانتقال، وستفعل ذلك بعد ظهر اليوم، ويمكنك الاطلاع على كل ما تريد. لا أملك شيئاً لإخفائه عنك". فكرت مجدداً في ذلك وقالت: "حسناً، أحتاج ربما إلى ساعة".

ابتسمتُ وقلت: "هذا كل ما أحتاج إليه في لندن".

"سأعطيك عشر دقائق فيما أنتظرك في سيارة الأجرة".

تخيلت المشهد.

"جون؟".

أجبتها: "اتفقنا".

شعرت أنني أفقد بعض السيطرة على جدول أعمالي، وحياتي. لم تكن سوزان امرأة غيورة أو مسيطرة، إلا في الأيام الأولى لمغازلتنا وزواجنا. إنها إذاً مجرد مرحلة. ستمرّ.

نظرت إلى الغرفة ولاحظت أن صورة إيثيل وجورج لم تعد معلّقة فوق حافة الموقد، فقالت: "يصعب التصديق... كانا هنا قبل أن أولد أنا".

أجبتها: "تعرفين، سوزان، هذا العقار هو أحد آخر الأشياء التي بقيت على حالها في العائلة منذ البداية، ولم يبقَ الكثير منها، فإذا فكّرت في الأمر، تجدين أن تلك الحقبة انتهت من قبل أن تولدي". ثم أضفت: "نحن جميعاً نعيش في وقت مسروق هنا".

فكّرت في ذلك، وأومأت برأسها وقالت: "الحنين ليس إلاّ ما كان موجوداً قبلاً".

انتقلت سوزان من غرفة الطعام إلى المطبخ، ونظرت حولها وقالت: "حين كنت فتاة صغيرة، كان جورج يأتي بي إلى هنا بعد المدرسة، وكانت إيثيل تحضّر لي الحلويات الطازجة والشوكولاته الساخنة".

أنا واثق من أنها لم تحصل على ذلك في ستانهوب هال، لكن لو فعلت، لم تكن أمها هي التي تخبز الحلويات، وتحضر الشوكولاته، أو حتى تقدمها إليها. سوزان، مثلما استطعت أن أفهم من إيثيل وجورج والخدم الذين كانوا لا يزالون موجودين هنا حين وصلت أنا إلى الساحة، كانت الفتاة الوحيدة الغنية الكلاسيكيّة. أظن أن أهلها لم يهتما كثيراً بها إلى حين موعد حفلة تعريفها للمجتمع، فبدأا

التفكير حينها ربما في التعليم المناسب والزواج المناسب - أخطآ هنا - وبدأا التفكير أيضاً في كيفية تأثير نجاح ابنتهما الاجتماعي، أو إخفاقها، فيهما.

أفترض أنني أستطيع أن أكون أكثر تسامحاً في رأيي تجاه ويليام وشارلوت، وأستطيع عزو العديد من أخطائهما وإخفاقاتهما إلى تربيتهما؛ لكنني عرفت الكثير من الرعيل القديم، وكان العديد منهم أشخاصاً رائعين ومحترمين يحبون أولادهم، ويكرمون أصدقاءهم والأشخاص غير المحظوظين مثلهم. بعضهم كانوا جديرين فعلاً بالازدراء، لكن إذا اجتمعت الأربعمئة عائلة، المسجلة أسماؤهم في السجل الاجتماعي، لتقديم جائزة إلى أكثر الأشخاص حقارة، فإن ويليام ستانهوب سيفوز حتماً بالشريط الأزرق وستحصل شارلوت على شهادة تقدير.

فتحت سوزان البراد وقالت: "لا يوجد شيء هنا".

"كمية أقل للنقل".

اقترحت سوزان: "نستطيع التقاط بعض الصور الفوتوغرافية قبل إفراغ كل شيء".

"فكرة جيدة".

ألقيت نظرة على ساعة المطبخ التي كانت تشير إلى الثالثة والنصف، فقلت لها: "ما رأيك في صباح الغد؟".

"حسناً".

ظننت أن الجولة في المنزل قد انتهت، فقلت لها: "فلنجلس على المصطبة".

"فلنرَ الطابق الثاني".

لحقت بها إلى الردهة وصعدنا السلالم. فتحت باب غرفة نوم إيثيل ودخلت.

كانت الشراشف مبعثرة، والغرفة مظلمة تنتشر فيها رائحة عفن. كانت أبواب الخزانة مفتوحة، تماماً مثل جوارير المنضدة، وكانت معظم الثياب موضوعة على الفراش الأجرد. إنه مشهد مسبب للاكتئاب، يذكرني بما قاله رجل، يوم دفن فرانك بيلاروزا، أمام القبر، مقتبساً الكلام عن تيموثي: لا نحضر شيئاً إلى هذا العالم، ومن المؤكد أننا لا نستطيع أخذ شيء معنا.

لم تعلّق سوزان على غرفة نوم إيثيل، وغادرنا، وأغلقنا الباب.

ألقت نظرة على الحمام، ورأت كومات المناشف مكدسة على الأرض فسألت: "هل الغسالة معطلة؟".

"لا أعرف. أين هي؟".

"سأطلب من عاملة التنظيف أن تأتي إلى هنا وترتب المكان لإليزابيت غداً".

"هذا لطف كبير". كيف أستطيع أن أنسى أن عاملة تنظيف جاءت مع منزلي الجديد وعروستي؟

سألتني سوزان: "هل استحمّت هنا؟".

"عاملة التنظيف؟".

"جون".

"أعتقد ذلك. نعم".

دخلت سوزان إلى غرفة نومي، التي كانت قبلاً وأخيراً غرفة نوم إليزابيت، ونظرت حولها بتأنٍّ. حدّقت إلى السرير، ثم لاحظت قنينة شراب فرنسي فارغة على المنضدة الصغيرة، وركّزت على كأسيّ الشراب الفرنسي اللذين كان يجدر بي التخلص منهما. استفسرت: "لماذا يوجد كأسين هنا؟".

فكّرت في عدة إجابات، بما في ذلك إخبار سوزان عن صديق إليزابيت الوهمي الذي احتسى الشراب الفرنسي، لكن لإبقاء الأمر بسيطاً وقريباً من الحقيقة قلت لها: "أرادت إليزابيت النوم في غرفتها القديمة، ولذلك شربنا قليلاً قبل أن ترتاح".

"كم هذا ضعيف".

أخذتُ نفساً عميقاً، وتذكرت أن الحقيقة هي آخر وسائل الدفاع، فقلت لها: "حسناً... كنا... شربنا الكثير من الشراب الفرنسي، وفكّرنا في الأمر، لكننا استدركنا بأننا قد نرتكب خطأً كبيراً".

لا جواب.

ثم تابعت: "لُفظ اسمك، وشعرت إليزابيت... بعدم الارتياح، وكي أقول لك الحقيقة، هذا ما شعرت به أنا أيضاً".

مجدداً، لا جواب.

يجدر بك المغادرة حين تكون في الطليعة، لكنني لم أعرف إذا كنت في الطليعة. وللحفاظ على الجانب الآمن، ختمت قائلاً: "هذه هي كل الحقيقة".

"ليست مطابقة لما أخبرتني به قبلاً".

"حسناً. الآن، تملكين التفاصيل". انزعجت قليلاً من نفسي لأنني كنت دفاعياً كثيراً، وتذكرت أيضاً أن أفضل دفاع هو الهجوم الجيد، فقلت لها: "كنت رجلاً حراً الليلة الماضية، سوزان، وحتى لو حصل شيء ما، لم يكن هذا من شأنك".

استدارت، وغادرت الغرفة، ثم بدأت تنزل السلالم. مع سوزان، يصعب الكلام، إذا كانت غاضبة، أو غير مبالية، أو إذا خرج القطار عن السكة. تحتاج معها أحياناً إلى بضع دقائق لفهم المسألة، ولذلك انتهزت الفرصة لترتيب الغرفة.

سمعتها تنادي عبر السلالم: "سأكون على المصطبة".

تمهّلت دقيقة أخرى، ثم نزلت السلالم أحمل الكأسين وقنينة الشراب الفرنسي الفارغة التي رميتها في سلة المهملات في المطبخ.

خرجت إلى المصطبة ورأيت سوزان تتنقل في حديقة الخضار.

ناديتها: "عليّ الذهاب إلى مكان ما عند الساعة الرابعة".

لم تجب.

تابعت: "لكنني أريد التحدث معك أولاً".

نظرت إليّ وسألتني: "عمّ؟".

"اجلسي هنا، سوزان. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً".

عادت إلى المصطبة واستفسرت: "إلى أين تريد الذهاب عند الساعة الرابعة؟".

"هذا ما أردت التحدث معك بشأنه. اجلسي".

ترددت، ثم جلست أمام الطاولة، وجلست أنا على الكرسي قربها. بدأت: "سيبدو ذلك... حسناً، غير قابل للتصديق قليلاً، لكن مثلما أخبرتك...".

"إذاً، لم يحصل شيء بينكما لأنك كنت تفكر فيّ؟".

يبدو أننا لم ننتهِ من ذلك الموضوع فأجبتها: "هذا صحيح". ثم توسّعت في الأمر وقلت: "لم يكن الأمر مقبولاً. خصوصاً بعدما رأيتك في سيارتك. لا أستطيع شرح ذلك، لكن حتى قبل أن أعرف شعورك حيالي، لم أستطع تقبل الأمر قبل التحدث إليك".

ظننت أنه يفترض بذلك إنهاء المسألة، لكن النساء يفحصن هذه الأمور في مستويات لا يفكّر فيها الرجال، وقالت لي سوزان: "إذاً، كنت منجذباً إليها؟".

"على الإطلاق". شرحت لها: "لا يحتاج الرجال إلى سبب؛ يحتاجون فقط إلى مكان".

"صدقني، أفهم ذلك. لكنها منجذبة كثيراً إليك".

"هذه هي حال الجميع".

"أنت مغفل".

"أعرف ذلك. هل نستطيع...؟".

"حسناً، ربما لم تكن في كامل وعيها بحيث بدوت مناسباً لها".

"أنا واثق من ذلك. إذاً...".

"ظننت أنها صديقتي".

"إنها كذلك، سوزان. لهذا السبب...".

"وأفترض أنها كانت تشعر بوحدة كبيرة مع قرب وفاة أمها".

"بالضبط".

انتظرت المزيد من التحليل، لكن سوزان أخذت يدي وقالت: "حسناً. انتهى الموضوع".

شككت في ذلك، ولذلك انتظرت بضع ثوانٍ ثم بدأت: "مثلما قلت لك...".

"أحبك".

"وأنا أحبك".

"أعرف أنك كنت وفياً لي طوال فترة زواجنا، وأتمنى لو أنني أستطيع قول الشيء نفسه".

أنا أيضاً.

"أريدك فقط أن تعلم، جون، أنه كان الوحيد".

"أعرف ذلك".

"كانت العديد من النساء يلحقن بك ولم أشعر أبداً بالغيرة. كنت أثق بك تماماً".

"أعرف ذلك. ولا يزال بإمكانك الوثوق بي".

"لكن إذا كنت قد أقمت علاقة فيما كنت أنا... فيما كنا منفصلين، أستطيع التفهم".

"جيد. أقصد...".

"هل فعلت؟".

"طبعاً لا". كذبت قليلاً. "كنت منهاراً جداً للتفكير حتى في ذلك".

"أنا آسفة لأنني خنت ثقتك".

"أصبح الأمر خلفنا". خطر في بالي تعبير مبتذل وإنما ملائم، فقلت لها: "اليوم هو أول يوم في حياتنا الزوجية الجديدة معاً".

ابتسمت، وانحنت صوبي، وقبّلتني، ثم جلست وسألتني: "هل كنت تريد التحدث معي عن أمر ما؟".

"نعم. وأرجوك استمعي إليّ من دون تعليق". بدأت مجدداً: "مثلما قلت لك، زارني أنطوني بيلاروزا الاثنين الماضي". شرحت لها تفاصيل الزيارة باختصار شديد، وذكرت لها مجدداً سؤال أنطوني عنها، واستمعت سوزان من دون تعليق. ختمت بالقول: "دعاني لتناول العشاء معه".

"وهل فعلت؟".

"فعلت".

"لماذا؟".

"لست واثقاً. سوى أنني كنت قلقاً عليك".

لم تجب، ولذلك تابعت: "وأفترض أنه كان لديّ فضول...".

"أفهمك. تابع".

“حسناً. هكذا، التقيته في مطعم وونغ لي في غلين كوف”. ولم أستطع منع نفسي من القول: “ظننت أنه من الأفضل تفادي الدخول إلى مطعم إيطالي، نظراً لما حصل... حسناً، على أي حال، ليس أنطوني ساحراً مثل والده، أو ذكياً، لكن...”.

“جون. لا أريد فعلاً سماع أي شيء عن والده. سواء أكان جيداً أم سيئاً. أخبرني فقط ماذا حصل مع أنطوني”.

“حسناً”. ذكرت طوني، السائق، الذي سأل عنها، ثم سردت التفاصيل الملائمة من حديث العشاء الذي دار بيني وبين أنطوني بيلاروزا، وذكرت لها بإيجاز فحوى اتصالي الهاتفي مع آنا بيلاروزا. ختمت بالقول: “نهضت وغادرت”.

فكّرت سوزان في كل ذلك وقالت: “أتمنى ألا يكون هذا هو عرض العمل الذي ذكرته”.

“حسناً... دعيني أتابع”. أخبرتها عن لقائي صدفةً بطوني وأنطوني في غرايس لاين، وكيف ذهبت برفقة أنطوني إلى أويستر باي. أعطيتها فكرة عما قيل في المكتب السابق لتيدي روزفلت، محاولاً إفهامها ليس فقط ما قيل، وإنما أيضاً ما لم يقل عنها. ذكرت أيضاً سيارة الكاديلاك إسكالادا السوداء، واقترحت عليها الانتباه منها. أعدت ذكر الكثير مما جرت مناقشته، وأشرت إلى رأيي فيه، لأنني لم أشأ إخافتها. لكنني لا أريدها أيضاً أن تظن أن هذه المشكلة ستحل من دون تدخلنا، أو أنه عليها معالجة الوضع بلامبالاتها الاعتيادية. أنهيت بالقول: “هكذا، تركنا عرض العمل معلقاً نوعاً ما في الهواء”.

نظرت إليّ وأجابتني: “لا يبدو لي الأمر بهذه الطريقة”. سألتني: “هل أنت مجنون؟”.

“سوزان، عليك أن تفهمي...”.

“أنا أفهم، جون. تقول إنك تفكّر في عرض العمل هذا لحمايتي، لكن...”.

“وما هو السبب الآخر الذي يدفعني إلى التحدث مع هذا الرجل؟”.

“يجدر بك طرح هذا السؤال على نفسك، وليس عليّ”.

“سوزان، دعينا لا ندخل في تحليل الهواة. لو لم أكن أظن أن أنطوني بيلاروزا يبحث عن الانتقام منك... حسناً، قد أكون فكّرت أيضاً في أنني أستطيع العمل معه مقابل مال شرعي...”.

“إنه سيد مافيا”.

“لا أعرف ذلك”.

“جون. أنت تعرف ذلك. وسأخبرك شيئاً آخر تعرفه جيداً. إنه يُرضي أنانيتك، وقد شعرت بالإطراء. وأحسّ هو أيضاً أنك كنت ضعيفاً أمام اقتراحاته بسبب ما حصل في الماضي، ولأنك لم تكن راضياً تماماً عن حياتك، لن تكرر هذا الخطأ...”.

"توقفي. هل يجدر بي تذكيرك بمن شجّع على إقامة تلك العلاقة مع ذلك الذي تعرفينه، ولِمَ؟".

"توقفّ". أخذت نفساً عميقاً، ثم استعادت السيطرة على نفسها وقالت: "لست بحاجة إلى تذكيري. لم أنسَ الأمر يوماً".

لم يتحدث أي منا لبرهة، ثم قالت: "قد يكون أذكى مما تظن".

"أعرف ذلك".

"لكنك أنت أكثر ذكاء من ذلك".

"أعرف ذلك أيضاً".

"إذاً، ماذا سنفعل جون؟".

فكرت في ذلك وأجبتها: "حسناً، لقد تغير وضعي الآن بلا شك". ادّعيت الابتسام وقلت: "أنا مغرم ومطلوبٌ للزواج، منذ بضع ساعات، ولذلك لا أحتاج إلى إطراء من أي شخص كان، ولم أعد ضعيفاً أمام إغراءات الشيطان".

نظرت إلي سوزان مجدداً وقالت: "قل للشيطان ليذهب إلى الجحيم".

"سأفعل... لكنني لا أزال قلقاً عليك".

"لا تخف". أخذت يدي مجدداً وقالت: "أنا متأثرة جداً لأنك كنت تفكّر في حمايتي حين كنت تكرهني".

"لم أكرهك أبداً. أحببتك".

"ألاحظ ذلك". عثرت على منديل في جيبها، ومسحت به عينيها، ثم قالت: "ألاحظ ذلك".

جلسنا بهدوء لبرهة، ثم سألتني سوزان: "هل تنوي رؤيته أو التحدث إليه مجدداً؟".

ألقيت نظرة على ساعتي وأجبتها: "نعم، بعد خمس دقائق تقريباً".

"أين؟".

"في منزله. أنا مدعو إلى غداء الأحد".

"لا تذهب".

"يخبرني حدسي بضرورة الذهاب. وعليك الوثوق بي في هذا".

بقينا صامتين لبعض الوقت، ثم سألت: "ما هو هدف الزيارة؟".

أجبتها: "أشعر أنه إذا لم أذهب، سأفوّت عليّ فرصتي الأخيرة في تعلم شيء ما... في فهم الرجل بصورة أفضل، وفي رأيه في... حسناً، فيك". شرحت لها: "إذا نجحت في جعله يلفظ تهديداً، هكذا، حين أذهب إلى الشرطة، أكون واثقاً من

أنهم سيأخذون الأمر على محمل الجد، بسبب ما قاله أنطوني بيلاروزا، وبسبب ما حصل أيضاً قبل عشرة أعوام".

بقيت سوزان صامتة لوقت طويل، ثم قالت: "لو أتيحت لي فرصة تكرار التجربة مجدداً، ما كنت لأضغط على الزناد".

ثلاث مرات، في الواقع. ذكّرني ذلك بسؤالها: "هل تملكين سلاحاً؟".

نظرت إليّ وأجابتني: "تعلمت الرماية في هيلتون هيد. أملك بندقية".

سررت لسماع أنها تملك بندقية وتعرف كيفية استخدامها، لكن عند تذكر نصيحة إميلي بوست في موضوع الأسلحة، وعند التفكير في أنني على وشك الانتقال للعيش معها... لكن، حسناً، سألتزم بكلمتها، من أنها نادمة على لحظة الغضب الشديد ضد عشيقها، وسأفترض بأنها اكتسبت مهارات تساعدها على التماسك من لحظات الغضب. سألتها: "أين تضعين البندقية؟".

"لا أعرف... أظن أنها في الطابق الأرضي".

"عليك البحث عنها". وقفت وقلت: "يجدر بي الذهاب".

وقفت وسألتني: "من سيكون هناك؟".

"أنطوني، طبعاً، وزوجته، ميغان، وربما ولداهما، وأفترض آنا. ولا أعرف مَن أيضاً".

"حسناً... أثق في حكمك على هذا".

عدنا إلى المطبخ، وقلت لها: "لن أبقى طبعاً إلى وقت الغداء". أخذت مفاتيح سيارتي من علاقة المفاتيح، وذكّرتني سوزان: "يجدر بك شراء هدية لزوجته".

ثمة شيء كوميدي تقريباً في اقتراح سوزان إذ لا يجدر بي نسيان اللياقة الاجتماعية، حتى عندما أتناول الطعام مع رجل يريدها على الأرجح ميتة. حسناً، في عالم سوزان، لا علاقة لأي أمر بأي أمر آخر.

فتحت خزانة الأطعمة، ووجدت أن الشراب الفرنسي قد نفد، فأخذت وعاء من هلام التفاح البري الذي كانت قد أعدته إيثيل، وعليه لصيقتها الشخصية مع تاريخ الصنع. "إنه من العام 1999. سيكون رائعاً مع اللازانيا".

لم تعلّق سوزان، ثم قالت لي: "في أثناء غيابك، سأوضّب أغراضك لأنقلها إلى منزلنا".

"شكراً". ثم ذكّرتها. "لكنني سأعود إلى هنا حين يصل أهلك".

"سيكون جميلاً إذا بقينا جميعاً تحت سقف واحد".

"ما من سقف كبير يتسع لنا جميعاً".

"لنَرَ كيف ستكون الأمور حين يصلان".

لم أشأ مناقشة الأمر الآن، ولذلك قلت: "حسناً، إلى اللقاء".

“حين تغادر، قل له أن يذهب إلى الجحيم”.

“سأفعل ذلك”.

قبلتني وقالت: “حظاً موفقاً”.

غادرت منزل الحراسة، وركبت في سيارتي، وتوجهت نحو البوابات المفتوحة لستانهوب هال، واستدرت إلى اليسار نحو غرايس لاين في رحلة قصيرة إلى الحمرا.

زيارتي الأولى إلى الحمرا، قبل عشر سنوات، كانت خطأ تاريخياً. هذه الزيارة هي فرصة تاريخية لتصحيح ذلك الخطأ.

الفصل الثلاثون

إذاً، إلى غداء يوم الأحد عند آل بيلاروزا.

المسافة بين منزل الحراسة في ستانهوب هال، ومنزل الحراسة في الحمرا هي ربع ميل تقريباً، في النصف الأول من هذه المسافة كانت طريق غرايس لاين محاطة بالحائط الحجري الرمادي التابع لعقار ستانهوب، والذي ينتهي حيث يبدأ الحائط القرميدي لعقار الحمرا.

الشاطئ الذهبي، في ذروة ثروته وقوته، أي قبل انهيار سوق البورصة عام 1929، اشتمل على أكثر من مئتيّ عقار كبير، وعدد موازٍ من القصور والمنازل الريفية الأصغر حجماً.

يستطيع مثلاً الرجل النبيل الذي يعيش مع عائلته في قصر فيفث أفنيو أن يكون هنا، في منزله الريفي، خلال ساعة واحدة، وهو آتٍ في سيارته الخاصة، أو يستطيع الاستمتاع برحلة بحرية ممتدة على ساعتين في يخته. ويستطيع الرجل النبيل أيضاً الوصول إلى هنا في سيارة الليموزين التي يقودها سائقه عبر طريق فاندربيلت تول الخاصة، التي شيدها السيد ويليام ك. فاندربيلت جونيور، ثم سمح للآخرين في ما بعد باستعمالها مقابل رسم. كانت تلك أياماً جيدة، مثلما يقولون.

معظم العقارات كانت مسيجة بجدران أو بأسوار حديدية، ومصانة مداخلها ببوابات ومنازل حراسة، وقد صمد العديد من هذه العقارات، ولا تزال شاهداً على الماضي الذي ازدهر لفترة وجيزة، لكنه لا يزال حاضراً وبقوة في ذاكرة الذين يعيشون الآن هنا. مشكلة العيش في مثل هذا المكان، برأيي، هي الدليل المادي المحيط بنا الذي يقول إنه كان هناك فعلاً عصر ذهبي أفضل من العصر الحالي.

وللعودة إلى تشبيه السيد أنطوني بيلاروزا بسقوط الإمبراطورية الرومانية، قرأت ذات مرة أنه خلال الحقبة المظلمة، اعتقد الآلاف الأخيرة القليلة من سكان روما، المذهولون بالأطلال الرائعة المحيطة بهم، أن المدينة القديمة شُيّدت بلا شك من قبل عمالقة أو آلهة.

لا أملك مثل هذا المعتقد هنا، بالرغم من أنني أظن أن علماء الآثار الذين سيحفرون الشاطئ الذهبي بعد آلاف السنوات قد يستنتجون ربما أن السماسرة والمحامين كانوا من القبائل البربرية التي طهت سكان المنطقة في شيء اسمه مشاوي ويبير.

وفيما كنت في هذه الحالة العقلية، تذكرت أيضاً قصة مجلس الشيوخ الروماني الذي استمر في الاجتماع لفترة طويلة بعد سقوط الإمبراطورية، والذي أصبح في الواقع مجرد جذب سياحي للمواطنين الفضوليين والبرابرة الذين ذهبوا إلى المجلس لرؤية تلك الأشباح الحية في أثوابها الغريبة.

لم أكن أبداً عضواً دائماً في طبقة مجلس الشيوخ، وإنما كنت أكثر من عضوٍ دائم في طبقة الفروسية، لكن حين أرتدي سترتي الزرقاء، وسروالي داكن اللون وأنتعل حذائي المريح، وأذهب إلى المدينة مع لكنتي المميزة، أشعر أحياناً كأنني واحد من مصادر جذب السياح في الشاطئ الذهبي، بالترافق مع الجدران والأطلال والعقارات التي باتت الآن مفتوحة للعموم. "انظري أمي. هذا واحد منهم!".

أبطأت سرعتي، فيما اقتربت من منزل الحراسة السابق للألهامبرا، الذي بات الآن بمثابة كشك حراسة للتجمع السكاني.

ثمة لافتة كتب عليها "عقارات ألهامبرا - خاصة - توقف عند الأمن".

استدرت إلى اليسار نحو الممر. كانت البوابات الحديدية الكبيرة مفتوحة، ورأيت مطبّ سرعة وخط توقف أصفر اللون قد رُسمَ على الممرّ المرصوف بالحجارة، والذي لا يزال محاطاً بأشجار الحور الضخمة.

عبرت البوابات، ثم توقفت حسب التعليمات أمام منزل الحراسة القديم.

على باب المنزل، رأيت لافتة صغيرة كتب عليها عقارات الحمرا؛ المبيعات والإدارة. لاحظت أيضاً أن نافذة كبيرة تم فتحها في جانب منزل الحراسة، وخلف النافذة المفتوحة ظهر رجل وهو يرتدي قميصاً كاكي اللون وعسكري الطراز.

ألقى التحية عليّ مع ابتسامة مصطنعة وسألني: "كيف أستطيع مساعدتك؟".

ثمة لافتة معدنية كتب عليها خدمة أمن بيل، وتذكرت أنها فرع من شركة بيل للمقاولات التي يملكها أنطوني بيلاروزا، والتي تعاقدت على ما يبدو مع عقارات الحمرا. لذا، وبما أنني كنت صديقاً للمدير، ولست في مزاج جيد على أي حال، دللتُ نفسي بالقليل من رداءة الطبع وأجبته: "لا أعرف كيف تستطيع مساعدتي. ما هي خياراتي؟".

"سيدي؟".

شعرت بالقليل من الحنين إلى رجال فرانك بيلاروزا، ليني وفيني، اللذين توفيا الآن، وأنطوني، المعروف الآن بطوني. قلتُ له: "أنا هنا لرؤية" - بدأت أشعر بالتململ - "السيد بيلاروزا".

نظر إليّ الحارس عن كثب، ثم قال لي: "السيد أنطوني بيلاروزا".

"صحيح. وشقيقه السيد".

بدا غير مرتاح، لكن بما أنني كنت على ما يبدو ضيفاً للمدير، ضبط أعصابه وسألني: "ما اسمك سيدي؟".

أجبته: "جون ويتمان ساتر".

من دون العودة إلى لائحة المدعوين التي بين يديه، قال: "حسناً"، ثم أعطاني التوجيهات وتذكر القول: "استمتع بيوم جميل".

فيما تقدمت بي السيارة، لاحظتُ في المرآة الجانبية أن الحارس عبر الهاتف، يتصل، حسبما أفترض، بمنزل بيلاروزا. فلا مجال للعودة الآن.

تابعت التقدم في الممرّ المستقيم المرصوف بالحجارة الذي كان ينتهي في ما مضى أمام فناء الفيلا المعروفة باسم الحمرا. لكنني لاحظتُ الآن أن الممرّ المرصوف قد أصبح طريقاً معبدةً تصل إلى الموقع الذي كان فيه القصر في ما مضى. تتفرع من الطريق الرئيسية طرقات أصغر، تصل إلى مجموعة الأكرات الخمسة والفيلات الزائفة. بعض الأشجار صمدت رغم تشييد المنازل والطرقات وأحواض السباحة وتأهيل البنية التحتية، لكن معظم المساحات كانت جرداء بين المنازل المشيدة حديثاً.

أفترض أنه كان يمكن أن يكون الوضع أسوأ؛ ولكن ليس أسوأ بكثير. لم أتحمس كثيراً حين اكتشفت أن السيد فرانك بيلاروزا اشترى الحمرا - أقصد لدينا جميعاً جيران سيئون، لكن هذا الجار كان سيئاً كثيراً - بالرغم من أنني أدرك بالعودة إلى الماضي أن سيد المافيا مع عائلته هو في الواقع أفضل من مئة سمسار بورصة غارقين في الرهانات العقارية.

على أي حال، ليست هذه مشكلتي. تذكرت أن قسماً جيداً من وقتي هنا أمضيته في حفلات الكوكتيل، وحديث النوادي الريفية عن كيفية تغير العالم حولنا، وقد انتسبت إلى العديد من الهيئات التي كانت مهتمة في الأعمال القانونية لكبح المطورين؛ والتي كانت في الأساس تحاول إيقاف الزمن عند المرحلة الماضية. أنا واثق من أنهم لا يزالون متوقفين عندها.

أوقفت السيارة في المكان الذي كان ينتهي فيه ممر الحصى القديم وتبدأ فيه الطريق المعبدة. هنا كانت الحمرا، وخرجت من السيارة ونظرت حولي. إنها أعلى نقطة في هذه الأرض، واستطعت أن أرى من هنا دزينة من الفيلات الصغيرة المشيدة على أكراتها، المحددة مع كاراجاتها التي تتسع لثلاث سيارات، وممراتها وردهاتها الخاصة. شممت رائحة الشواء، وارتفع الدخان الأزرق في السماء الخالية من الغيوم، مثل نار خيم الجيش الساكن مؤقتاً في العراء. باستثناء ذلك، بدا أنه لا يوجد الكثير من النشاط البشري في مجموعة الأكرات الخمسة.

خلف أكرات ما كان قبلاً يعرف بعقار الحمرا، استطعت رؤية ملعب غولف نادي الكريك، وتذكرت أنه بعدما اصطحبنا أنا وسوزان السيد والسيدة بيلاروزا إلى الكريك لتناول العشاء، طلب مني السيد بيلاروزا مساعدته للحصول على عضوية النادي. حسناً، هذه هي دائماً المشكلة عند اصطحاب ثنائي هامشي إلى النادي لتناول العشاء. والشيء التالي الذي يحصل هو الطلب منك لإدخالهم في العضوية. كنت واثقاً تماماً من أن هيئة العضوية في النادي لن توافق على طلب سيد المافيا، لذا، من دون تبديد الكثير من اللباقة، شرحت له أنه لا يستطيع الدخول إلى الكريك.

عليّ الاعتراف، بيني وبين نفسي على الأقل، أنه على رغم كل ما حصل في ذلك الربيع والصيف والخريف، وعلى رغم النهاية المأساوية لحياة وزواج، استمتعت قليلاً في كل ذلك؛ وهذا مشابه حسبما أفترض لجواب السيدة لينكولن

على سؤال: "باستثناء ذلك، سيدة لينكولن، كيف كانت المسرحية؟". مع الجواب الصريح: "كانت كوميديا مضحكة، وبقيت أضحك حتى إطلاق العيار الناري".

نظرتُ إلى حيث كان حوض السباحة والحديقة الرومانية الكلاسيكية، لكن المنظر الطبيعي أصبح مختلفاً جداً الآن بحيث لم أعد أعرف بالضبط أين كانا، بالرغم من أنني أعتقد أنهما الآن في قسم منخفض من الأرض حيث هو المنزل.

الصور المزعجة التي رأيتها في حلمي اتخذت شكلاً مغايراً في عقلي، لكنني لم أعد أريد رؤيتها، ولذلك طردتها بعيداً، فاختفت.

نظرت مجدداً إلى الممرّ الطويل في اتجاه منزل الحراسة والطريق. على الجانب الآخر من غرايس لاين، ثمة منزل كبير شُيّد قبل مئة عام تقريباً على هضبة. أصحاب هذا المنزل كانوا آل دي باوز، بالرغم من أنني لا أعرف ما إذا كانوا لا يزالون هنا. لكن قبل عشرة أعوام، استخدم رجال الأف بي آي منزلهم كموقع مراقبة لرؤية وتصوير أي شخص يدخل إلى الحمرا.

ليلة الإصابة غير الموفقة خارج مطعم جوليو في إيطاليا الصغرى، تم اصطحابي إلى مركز الشرطة في ميدتاون ساوث، حيث أتيحت لي فرصة رؤية العديد من هذه الصور الفوتوغرافية التي تم التقاطها بعدسة كاميرا مكبّرة، وطلب مني رجال الشرطة والأف بي آي محاولة معرفة ما إذا كان الرجلان اللذان شاهدتهما خارج مطعم جوليو هما من زوار فرانك بيلاروزا الذين جرى تصويرهم.

بين صور أصدقاء السيد بيلاروزا وعائلته وشركائه في العمل، كانت هناك بعض الصور الجميلة التي التقطت لي ولسوزان خلال زيارتنا الأولى إلى منزل آل بيلاروزا لارتشاف القهوة وتناول المعجنات. خطر في بالي حينها أن رجال الأف بي آي يعرفون، قبلي بكثير، ما يجري بين سوزان وفرانك. وأتساءل الآن ما إذا كان رجال الأف بي آي يعرفون أننا سنلتقي أنا وأنطوني بيلاروزا للمرة الرابعة على التوالي. تساءلت أيضاً عما حصل للعميل الخاص فيليكس مانوسكو الذي حاول جاهداً حمايتي من نفسي. كان يجدر بي ربما الاتصال به.

ركبت مجدداً في سيارتي وتابعت في طريق صغيرة إلى اليسار اسمها "باين لاين" أو طريق الصنوبر، قادتني إلى مساحة كبيرة شُيّدت فوقها ثلاث فيلات كبيرة مع سقوف من القرميد الأحمر، وتفصل بين الواحدة والأخرى مسافة مئة ياردة.

أدركت أنني أصبحت الآن قريباً من عقار ستانهوب هال، واستطعت أن أرى في الواقع أشجار الصنوبر الفاصلة بين العقارين. هكذا، حين يحلّق الغراب أو يقفز الجواد، تكون المسافة الفاصلة بين منزل ضيوف سوزان وفيلا أنطوني مجرد خمس مئة ياردة تقريباً.

كانت الفيلات الثلاث مختلفة قليلاً عن بعضها من ناحية الطراز واللون، وقال الحارس إنه المنزل الأصفر، ولذلك اتجهت بسيارتي نحو آخر منزل إلى اليسار،

وتوقفت أمام الحديقة المرتبة لفيلا بيلاروزا. ترجلت من السيارة وتذكرت وعاء هلام التفاح البري.

رأيت في الممرّ العريض سيارة الكاديلاك إسكالادا السوداء، وعربة مقفلة صغيرة بيضاء اللون، افترضت أنها تنتمي إلى ميغان بيلاروزا، وسيارة كورفيت صفراء اللون، اعتقد أنها سيارة هروب أنطوني. فوق أبواب الكاراج ثمة سلة لكرة السلة مثبتة على لوح خلفي.

لاحظتُ أيضاً سيارة كاديلاك سوداء خاصة بأسلوب المافيا مع نوافذ ملونة كانت تقف أمامي.

مشيت في الممر، واستدرت نحو رواقٍ من الباطون أوصلني إلى الباب الأمامي.

تحققت من ساعتي ولاحظت أنها الساعة الرابعة والربع. تأخرت، ولكن ليس كثيراً.

لاحظت أيضاً وجود كاميرا مراقبة مثبتة فوق الباب، ولذلك ابتسمت للكاميرا وضغطت على الجرس.

الفصل الحادي والثلاثون

تم إبلاغ بيلاروزا من قبل "أمن بيل" بأنني في طريقي إليه، ورآني أيضاً على شاشة المراقبة خاصته، ولذلك لم يتظاهر بأنه متفاجئ حين فتح الباب وألقى عليّ التحية بالقول: "هاي، أنا مسرور لأنك أتيت. هيا ادخل".

كان أنطوني يرتدي قميصاً أسود اللون لماعاً طوى كميه إلى الأعلى، وكان القميص مرتَّباً تحت حزام رفيع وسروال رمادي داكن اللون. لاحظت أن حذاءه مصنوع من نوع من جلد الزواحف. لا أعتقد أن أحداً من صفحة الموضة في "نيويورك تايمز" سيتصل قريباً.

على أي حال، قلت له: "شكراً على دعوتي".

"نعم. ولن تهرب هذه المرة".

هل تراهن؟

ظننت على غير عادتي أنه سيسألني هذه المرة إذا كنت أريد التحقق من وجود مسدسي، لكنه سألني بدلاً من ذلك: "هل من مشكلة في كشك الحراسة؟".

افترضتُ أن الحارس أخبره عن حكاية السيد بيلاروزا، وأراد أنطوني أن يبلغني بأنه غير مسرور. أجبته: "بدا وكأنه يواجه صعوبة في السمع".

"حقاً؟ يصعب الحصول على مساعدة جيدة".

وبالحديث عن صعوبة السمع، كان مغنٍّ إيطالي ينشد أغنية حية تصدح نغماتها من مكبرات الصوت المعلقة على الحائط، وصرخ أنطوني يعلن عن وصولي بصوتٍ أعلى من صوت الموسيقى: "هاي ميغان، لدينا ضيوف!".

توجه أنطوني إلى لوحة تحكم مثبتة على الحائط، وأخفض صوت الموسيقى وقال لي: "أسطوانة رائعة. اسمها أفضل الأغاني القذرة". ضحك. "هل فهمت؟".

ابتسمت.

فيما انتظرنا وصول ميغان، وفيما تلاعب أنطوني بأزرار الصوت، نظرتُ حول الردهة الكبيرة، وإلى غرفة الجلوس وغرفة الطعام. لكي أكون صريحاً، لم يكن الديكور سيئاً جداً. توقعت أن أرى زخرفة إيطالية مماثلة لزخرفة السيد نسيم الفرنسية المريعة، لكن ميغان، وربما مهندس الديكور، حافظا على الألوان الخافتة. لكن كانت هناك الكثير من اللوحات الزيتية، لإيطاليا المشمسة، على الجدران. ورأيت صليبين.

دخلت ميغان بيلاروزا إلى الردهة، وتفاجأت بشكل إيجابي. كانت في أواخر العشرينيات، طويلة ونحيلة، ذات وجه إيرلندي نموذجي مليء بالنمش، وعينين زرقاوين، وشعر أحمر بدا طبيعياً، ولذلك عرفتُ، من تجربتي الشخصية، أنها ساقطة أو قوية الإرادة أو فقط مجنونة.

بادرتني ابتسامة مغرية، متسائلة في ما كان يفكر زوجها حين دعاني للمشاركة في غداء عائلي. قلتُ لها: "لطفٌ كبير منكم أن تدعوني".

أجابت: "أنا مسرورة لأنك استطعت القدوم. لدينا الكثير من الطعام"، مما بدد أي قلق لديّ بالحاجة إلى تناول فضلات حصص العائلة. سألتني: "هل أستطيع أن آخذ معطفك؟".

لا أملك معطفاً، وإنما فقط سترة زرقاء، ولا أتخلى عنها بسهولة، ولذلك قلتُ لها: "سأبقيها عليّ"، ثم تذكر القول: "لديك منزل جميل".

أجابت: "شكراً. يستطيع أنطوني أن يريه لك لاحقاً".

كانت لكنتها تدلّ على أنها من الطبقة المتواضعة، تماماً مثل قميصها وردي اللون المصنوع من البوليستر، وسروالها الأسود المطاطي المصنوع من البوليستر أيضاً. لكن إذا أخذنا في الاعتبار ملامحها الجميلة، يستطيع البروفسور هيغينز فعل العجائب معها.

أعطيتها وعاء هلام التفاح البري وقلت: "إنه منزلي الصنع".

أخذت الوعاء، ونظرت إلى اللصيقة، وابتسمت وتعجبت: "أوه، كانت جدتي تحضّر هذا".

باشرنا إذاً في انطلاقة جيدة. وجّهت إليّ ميغان ابتسامة كبيرة لطيفة، وذكّرتني للمرة الثانية بسوزان. يبدو أن رجال بيلاروزا يحبون ذوات البشرة الفاتحة وهو أسلوب رجال شمال أوروبا. عزيزي سيغموند...

قبل أن أتمكن من تحليل المزيد، قال أنطوني: "هاي، أمي متحمسة لرؤيتك. هيا".

رافقت أنطوني وميغان عبر الردهة إلى مطبخ كبير مشمس، ورأيت آنا بيلاروزا تقف أمام الطاولة الوسطية تقطع الجبنة على لوح. رأتني، فتركت سكينها، ومسحت يديها بوزرتها، وتوجهت نحوي قائلة: "جون، يا الله".

حضرت نفسي مباشرة قبل حصول الاصطدام، ففتحت ذراعيّ، واصطدمنا. بام! عانقتني بقوة، واستطعت وضع ذراعيّ حول جسدها ونجحت في القول: "آنا... تبدين رائعة...".

في الواقع، قبل حصول الاصطدام، لاحظتُ أن وزنها ازداد بضعة كيلوغرامات، وأحسست بها الآن فيما كانت تعصر الهواء خارج رئتيّ. ولزيادة مشاكلي في التنفس، كانت تضع عطر أزهار طغت رائحته على رائحة الطعام الذي كانت تحضره.

ابتعدنا عن بعضنا، وأمسكت بيديها كي لا تتمكن من وضع ذراعيها حول عنقي مجدداً ونظرت إليها. كان وجهها مثل وجه الطفل الصغير، وازداد هذا الشبه كثيراً بفعل الكمية الكثيرة من أحمر الشفاه وظلال الوجنتين، لكن تحت الطلاء، بدت بشرتها شابة، حمية متوسطية؟

التقطت أنفاسي وقلت لها: "من الجيد...".

قاطعتني: "جون، تبدو رائعاً. أنا مسرورة لأنك أتيت". تابعت الحديث لبعض الوقت، فسألتني عن ولديّ، ولكن ليس عن زوجتي الشريرة قاتلة الرجال، وسألتني عما أنا عليه حالياً.

كانت آنا تضع المجوهرات قبلاً لعرقلة الإرسال اللاسلكي، لكنها اكتفت اليوم بوضع زوج من الأقراط الذهبية وخاتم الزفاف. بالإضافة إلى ذلك، ارتدت بذلة رسمية سوداء اللون للإشارة إلى كونها أرملة.

تابعت آنا كلامها، وأجبتها أنا بأفضل ما يمكنني قبل أن تقاطع كل جواب لي. لاحظتُ أن ميغان غادرت المطبخ، وتذكرت أن سيدتيّ بيلاروزا لا تتفقان كثيراً، أو بالأحرى إطلاقاً.

أخيراً، قاطع أنطوني مقاطعات أمه لي وقال: "حسناً، دعيه يلتقط أنفاسه، أمي. هاي، جون، شراب فرنسي أو شراب شعير أو مشروب مسكر؟".

أحتاج إلى قنينة شراب اسكتلندي معتّقة، لكنني طلبت شراباً فرنسياً أبيض.

فتح أنطوني البراد وأخرج قنينة مفتوحة من شيء ما، وسكب الشراب الفرنسي في كأسين من الكريستال.

أبلغتني آنا: "جون، حضُّرت لك اللازانيا. قال لي أنطوني إنك تحب اللازانيا خاصتي".

"صحيح". كان هذا طعامي المفضل من مطبخ آنا في الحمرا، كما أن سوزان أيضاً أحبت تلك اللازانيا، لكن لا يجدر بي ذكر ذلك.

تابعت آنا: "لدينا مقبلات باردة وساخنة، ومعكرونة. لدينا لحم عجل...".

"أمي، لا يحتاج إلى...".

"أنطوني، ستا زيتو".

أظن أن هذا يعني اخرس. عليّ تذكر ذلك.

ذكرت لي آنا مكونات لائحة طعامها. لم أفهم أبداً سبب استلطافها لي - باستثناء أنني وسيم - لكن حين يكون الرجال والنساء أصدقاء، يوجد دائماً عنصر حميمي تقريباً. قد لا يكون حميماً رومنسياً، وإنما نوعاً من مفهوم فرويد للحميمية الذي يقرّ بأن الانجذاب هو أكثر من أفلاطوني، وإنما لا يصل إلى مستوى "هيا إلى العلاقة". لكن مع سوزان وفرانك، كانت الحميمية قصوى منذ البداية، ووقعا ربما في الغرام بعد ذلك. اللافت أن آنا لم تنتبه أبداً إلى ذلك، ولذلك بقيت مولعة جداً بسوزان إلى أن قتلت سوزان زوجها العزيز.

على أي حال، وبالنسبة إلى استلطاف آنا لي، عرفتُ أيضاً مما قالته لي ذات مرة بأنها تعتقد أن جون ويتمان ساتر يؤثر جيداً في فرانك، المتأثر أساساً بالأشخاص السيئين. يمكن أن يكون هذا مضحكاً لو لم يكن محزناً جداً. على أي حال، أنا واثق من أن آنا تملك أفكاراً مماثلة عن صداقة ابنها لي.

فيما تابعت آنا الثرثرة، وفيما حاول أنطوني مقاطعتها، كنت أنا أطلق جواباً ملائماً بين الحين والآخر، ثم أدركتُ أنه حين أخبر أنطوني بأننا عدنا أنا وسوزان مجدداً إلى بعضنا، سيجد نفسه في موقع غريب بالنسبة إلى أمه، التي لم تعد مولعة كثيراً بسوزان؛ وقد يعيد النظر في أن أكون مستشاره الموثوق. في الواقع، أنا واثق من ذلك.

فيما كنت أفكر في ذلك، كانت آنا ترى أنني لا أبدو بصحة جيدة كفاية، ولذلك دفعت طبقاً من الجبنة والسلامي نحوي وقالت لي: "تبدو نحيلاً جداً. كُلْ".

ضحك أنطوني وقلّد أمه: "كُل. كُل. أنت نحيل جداً".

وجهت آنا انتباهها إلى ابنها وقالت: "أنت أيضاً. أنت نحيل جداً، أنطوني".

ضحك أنطوني مجدداً، وسكب لأمه كأساً من الشراب الفرنسي الأحمر. "أنت لا تشربين كمية كافية من الشراب الفرنسي. اشربي، اشربي". تجاهلت آنا الشراب الفرنسي وإنما تناولت القليل من الجبنة والسلامي. حمية أتكينز؟

تناولنا أنا وأنطوني قليلاً من الجبنة، التي بدت لي رائحتها مثل رائحة خليج نابولي، لكن طعمها كان جيداً. هكذا، لو خُيِّرت بين أم إيطالية وأم "دبور"، لاخترت أن أكون يتيماً.

كانت آنا تتفحّص وعاء الهلام الذي تركته ميغان على الطاولة، ثم سألت ابنها: "ما هذا؟".

شرح أنطوني: "أحضره جون معه".

بدا هذا ملائماً، لكنها سألتني، بعد قراءة اللصيقة: "كيف حالها؟ السيدة العجوز؟".

"ليست جيدة جداً".

بدت آنا وكأنها تفكر، ثم قالت: "أذكر الزوج. كان يأتي إلينا، بحثاً عن... زوجتك". لم أجبها، وأضافت آنا: "لا أذكر السيدة العجوز كثيراً. لكننا تحدثنا مع بعضنا ذات مرة".

"سأنقل إليها تحياتك".

"نعم. أتمنى أن تتحسن". ثم سألتني: "إذاً، أنت تعيش هناك؟".

"نعم". أو بالأحرى كنت.

لم يكن لدي شك بأن آنا أصبحت على وشك تحذيري من أن القاتلة قد عادت إلى منزل الضيوف، وشعر أنطوني ربما بأن أمه بدأت تستعيد ذكرياتها السيئة، فقال لي: "هاي، فلنخرج. أريد أن أعرّفك إلى الولدين".

قالت له آنا: "قل لهما إن موعد الأكل قد حان تقريباً".

عبرنا باباً زجاجياً مؤدياً إلى مصطبة عملاقة كانت كبيرة كفاية لتتسع لهبوط طارئ لمركبة فضائية، وخلف المصطبة، المحاطة بسور معدني يصل ارتفاعه

إلى ستّ أقدام، كان هناك حوض سباحة جعلته مقاييسه يبدو وكأنه بحر داخل يابسة.

خلف حوض السباحة، رأيتُ حبلاً معدنياً طويلاً مربوطاً يلتف حول رقبة كلب ألماني ضخم، وقد لاحظ وجودي بالرغم من المسافة البعيدة، فتوقف عن الحراك، وبدأ يشدّ الحبل وينبح عليّ.

صرخ أنطوني: "ستا زيتو!"، وتوقف الكلب، الذي كان على ما يبدو ثنائي اللغة، عن النباح. مشيت أنا وأنطوني نحو حوض السباحة، وفتح البوابة ونادى الولدين اللذين كانا يلعبان بوساطة الأجنحة المائية، "هاي، أيها الولدين! قولا مرحباً للسيد ساتر".

نظرا إليّ، ولوّحا، وقالا في الوقت نفسه: "مرحباً"، ثم تابعا اللعب.

الصبي، مثلما أذكر، هو فرانك وعمره خمسة أعوام، والفتاة هي كيلي آنا، وتبدو أكبر بسنة من أخيها تقريباً. إنهما ولدان جميلان، وتحت الاسمرار يملكان على الأرجح بشرة فاتحة اللون مثل أمهما. ذكّراني بإدوارد وكارولين حين كانا في مثل هذا العمر، يلهوان صيفاً في البيئة المريحة ويستمتعان بالعالم من دون أي اكتراث.

لاحظتُ الآن سيدة في خريف العمر تجلس على كرسي تحت مظلة، وكانت تراقب الولدين مثل الصقر. ناداها أنطوني: "إيفا، حضّري الولدين للجلوس إلى طاولة العشاء".

استدار أنطوني وعدنا إلى المصطبة، وظننتُ أننا سنعود إلى الداخل مجدداً لكن أنطوني توجه نحو خيمة كبيرة نصبت فوق المصطبة، ولاحظتُ الآن أن رجلاً وامرأة يجلسان هناك.

مشينا نحو الخيمة، وقال لي أنطوني: "تذكر عمي سال".

تفاجأت فعلاً، وبقيت لبرهة عاجزاً عن الكلام.

كان سالفاتور داليسيو، المعروف بسالي دادا، جالساً على كرسي مريح، يمسك بكأس كوكتيل ويدخن سيجارة. أقصد، من الجيد اجتماع شمل العائلة على الغداء، لكن الأمر يصبح غريباً إذا ما كان فرد العائلة المدعو قد حاول قتل والدك ذات مرة. لكنني متطرف جداً ربما، وأبالغ في تحليل الأمور.

بقي العم سال جالساً، ونظر إليّ، وأومأ إليّ، ثم تمتم: "كيف حالك؟".

أجبته: "لا أزال على قيد الحياة".

ظننتُ أن اجتماعنا بعد عشر سنوات يفترض أن يمنحه المزيد من السعادة، لكنه اكتفى بالجلوس هنا يحمل سيجارته وكأس الكوكتيل، ويحدق إلى الفضاء.

المرة الأولى التي رأيت فيها سالي دادا كانت في فندق البلازا، حيث دعا فرانك نصف رجال المافيا في نيويورك إلى جناحه للاحتفال بخروجه من السجن بناء على كفالة. لكنه كان أكثر من احتفال، إذ كان استعراضاً للقوة حيث جاء أتباع

السيد ورجاله لتقبيل خاتمه، وجاء شركاؤه في العمل وحتى منافسيه ليشهدوا على هذا الدعم القوي والرائع لسيد الأسياد.

اقترب مني في الغرفة رجل اعتبرته إنساناً ممّا قبل التاريخ، وطرح عليّ بعض الأسئلة التي لم أفهمها كثيراً. عرفتُ لاحقاً أن هذا الرجل هو سالفاتور داليسيو، صهر السيد بيلاروزا. وبعد فترة طويلة، عرفتُ أن السيد داليسيو، الذي كان تابعاً للسيد، يريد أن يكون سيد الأسياد، ولا بد إذاً من رحيل فرانك.

على أي حال، كان السيد داليسيو، الجالس الآن على مسافة بضع أقدام مني، رجلاً ضخماً وقوي البنية ذا شعر أسود مصبوغ، وحاجبين كثيفين يلتقيان في الوسط، مثل حاجبي رجل ما قبل التاريخ في متحف التاريخ الطبيعي. كان باستطاعته الاكتفاء بجلده الحيواني، من دون أن يعلّق أحد، لكنه ارتدى في الواقع سروالاً أسود فضفاضاً وقميصاً أبيض نصف مزرر، ذا كمّين مطويين، يكشفان عن الكثير من الشعر. لا أظن أنه يحمل مسدساً خلال العشاء العائلي، لكن إذا كان يحمل، فيمكنه إخفاؤه في شعر صدره.

سألني أنطوني: "هل التقيت قبلاً بخالتي ماري؟".

حوّلت انتباهي إلى الخالة ماري، التي بدت أكثر نحافة من أختها آنا؛ وإنما أكبر سناً. قلتُ لها: "أعتقد أننا التقينا قبلاً".

أومأت برأسها، لكنها لم تقل أي شيء.

في الواقع، التقيت بماري داليسيو خلال جناز فرانك بيلاروزا، وكانت جالسة قرب آنا، وتناوبتا على البكاء. وفي ذلك الجناز أيضاً، رأيت العم سال للمرة الثانية، ومن ثم أمام القبر حيث راح يحدّق إلى التابوت، متفادياً النظر مباشرة إلى عينيّ الشاب أنطوني بيلاروزا.

يبدو أن ماري ليس لديها ما تقوله لزوج سوزان ساتر السابق، ولذلك حوّلت انتباهي إلى العم سال، ولاحظتُ الآن أنه يرمقني بنظرة مديح. نظرنا إلى بعضنا وقال لي: "مضى وقت طويل".

أظن أنه يقصد "مضى وقت طويل ولم أرَك" ممّا يعني فعلياً "مضت عصور جون، ولم نرَ بعضنا البعض". فأجبته: "مضى وقت طويل".

فهمتُ سبب رغبة العم سال في التخلص من ابن حميه، لكنني انزعجت لأنه اختار الليلة التي كنت أتناول فيها العشاء بصحبة فرانك وزوجتينا. لكن، مثلما شرح لي فيليكس مانوسكو لاحقاً، عرف سالي دادا على الأرجح أن فرانك بيلاروزا لم يظن أبداً أن أي شخص قد يخرق القانون الصارم بعدم قتل أحد في حضور العائلة أو في صحبة مواطنين بارزين، ومنهما جون وسوزان ساتر، حسبما أظن. لذا، قرر سالفاتور داليسيو تصفية "الأخرق فرانك" في الليلة نفسها التي كتبتُ فيها أنا على جدول مواعيدي: "عشاء مع آل بيلاروزا/مدينة نيويورك/ ليموزين". كان يجدر بي تدوين اسم المطعم، مطعم جوليو، ولكن مع فرانك لا تعرف أبداً المقصد الحقيقي إلا حين تصل إلى هناك. إلا أن شخصاً آخر، وهو

سائق فرانك على الأرجح، ليني الأفعى، عرف اسم المطعم، ونقله إلى سالي دادا، الذي لم يستطع تفويت الفرصة.

نظرتُ مجدداً إلى سالفاتور داليسيو، الذي كان لا يزال ينظر إليّ، وتساءلتُ عن بطانة رجل يدبّر قتل ابن حميه أمام عيني شقيقة زوجته.

بالنسبة إلى توقيت الاعتداء، لم يكن فرانك بيلاروزا من دون حراسة في أي يوم من أيام حياته، وكان يرتدي دائماً سترة واقية من الرصاص تحت بذلته الأنيقة، ولذلك بقي على قيد الحياة، مع بعض المساعدة مني، باستثناء بعض الضلوع المكسورة، وإصابة بالغة في الشريان السباتي الذي لم يكن محمياً بالسترة الواقية من الرصاص.

خرق أنطوني الصمت ببعض الأخبار الجيدة وقال: "وصل عمي وخالتي للتو لإلقاء التحية علينا".

وقف العم سال، وصُدمتُ من ضخامة بنية هذا الرجل. أقصد، حتى لو حلقتَ كل شعره، يبقى ضخماً جداً. قال: "نعم، سنذهب".

وقفت أيضاً الخالة ماري، وقالت لابن أختها: "أنطوني، اهتم بأمك".

"سأفعل".

"عليك الاتصال بها".

"حسناً".

"أحضرها أكثر إلى هنا. ليس فقط أيام الآحاد، أنطوني".

"يأتي أخواي من جرسيه لرؤيتها طوال الوقت".

تجاهلت هذا وتابعت نصح أنطوني: "منذ وفاة والدك" - ألقت نظرة عليّ لسبب ما - "منذ رحيله، أصبحت وحيدة تماماً".

"لديهما خمسون قريباً، وأخت في بروكلين".

"لكل منهم حياته".

"حسناً، حسناً. شكراً، خالة ماري".

فيما كان هذا الحديث يدور، وقف العم سال هناك، من دون أي كلمة، وهو يفكر ربما في أن زوجته تبدد وقتها في الحديث إلى رجل ميت. حسناً، لا أعرف ذلك طبعاً، لكنني واثق تماماً من أن العم سال لديه الكثير من الوقت والفرص لوضع أنطوني على لائحة الموتى. لذا، ربما توصلا إلى نوع من ترتيب تبادل القوى، مثل "أنطوني، أنت تهتم بالمخدرات، والدعارة، والاحتيال على القروض، وأنا أهتم بالمقامرة والابتزاز والسرقة من المرافئ والمطارات". هذا ما أوصي به.

قال أنطوني لعمه: "شكراً على قدومك".

رمى العم سال سيجارته على المصطبة، وداس عليها، وقال: "تبدو أمك بحال جيدة".

ألقى أنطوني نظرة على السيجارة المنطفئة فوق مصطبته الجميلة، لكنه لم يقل أي شيء، كان يظن ربما "لمَ إزعاج نفسي؟ إنه ميت على أي حال".

ألن يكون لطيفاً لو تدبر أنطوني بيلاروزا وسالفاتور داليسيو قتل بعضهما؟

أتمنى لو أنني قلت هذا بصوت عالٍ، وأظن أنني لم أفعل لأن العم سال التفت نحوي وسألني: "إذاً، بمَ تعمل؟".

"في الهراء القديم نفسه".

"حقاً؟ مثل؟".

قاطع أنطوني هذه المحادثة العنيفة وقال: "جون هو المسؤول عن ضرائبي".

"حقاً؟". نظر إلي العم سال لوقت طويل، كما لو أنه يريد القول: "آسف لأن رجالي لم يقتلوك في مطعم جوليو". حسناً، كنت أتخيل ذلك ربما.

وأعلنت ماري: "سأدخل"، لكن قبل أن تغادر، ذكّرت أنطوني: "تحتاج أمك إليك". يجدر بها تذكير زوجها بذلك أيضاً.

هكذا، وقفتُ هناك مع أنطوني وسالفاتور في صمت رجولي، ثم أدركتُ أنه يفترض بي تركهما وحيدين. لكنني لم أشأ العودة إلى المطبخ مع النساء - وحدهم الجبناء يفعلون ذلك - ولذلك قلتُ لهما: "سأقوم بنزهة". ثم توجهت إلى العم سال: "حسناً، سررتُ بلقائك مجدداً".

"نعم".

"هل تملك بطاقة؟".

"ماذا؟".

"إلى اللقاء". اتجهت نحو حوض السباحة، وأصبحت بعيداً عن السمع ومرمى القنص. نظرتُ إلى حوض السباحة المتلألئة مياهه، ثم خرجتُ إلى حيث كان الكلب الألماني ينبح عليّ، وقد ذكّرني لسبب ما بسالفاتور داليسيو.

سالفاتور داليسيو - سالي دادا بالنسبة إلى أصدقائه، والعم سال بالنسبة إلى قريبه - هو الرجل الحقيقي. أقصد، هذا الرجل لم يكن يمثل دور سيد المافيا مثلما كان يفعل العديد من هؤلاء الرجال. إنه رجل حقير وخطير. ولو توجب عليّ المراهنة على: مَن سيقتل مَن أولاً، أراهن على أن العم سال سيحضر جنازة أنطوني، وليس العكس.

إلا أن أنطوني يملك الحافز الأساسي - الثأر الشخصي - وبدا أيضاً أنه يملك المزيد من الحكمة، لكنه لا يتفوه بالكثير منها.

الخلاصة هي الآتي: أراد أنطوني قتل العم سال. أراد العم سال قتل أنطوني. قد لا يزال العم سال منزعجاً مني بسبب إنقاذي حياة فرانك، وجعله يبدو غير كفوء. أراد أنطوني قتل سوزان. أردت أنا أن أرى أنطوني بيلاروزا وسالفاتور داليسيو ميتين.

من قال إن الغداء العائلي يوم الأحد يكون مضجراَ؟

الفصل الثاني والثلاثون

لاحظتُ أن العم سال غادر، وبات أنطوني يجلس الآن على كرسي تحت الخيمة. جلستُ على الكرسي قبالته، ولاحظتُ أن السيجارة شارفت على النهاية.

لم يتحدث أي منا عن أي شيء، لكنني ظننتُ أن أنطوني سيريحني بشأن العم سال، ويقول شيئاً مثل: "تحت كل هذا الشعر يوجد قلب كبير"، لكنه تصرف كما لو أن العم سال لم يكن هنا وعلّق بدلاً من ذلك على الخالة ماري بالقول: "إنها امرأة غريبة".

لم أكن واثقاً مما إذا كان يتوجب عليّ الإجابة، لكن أنطوني ما زال غاضباً من المحاضرة العلنية للخالة ماري، وأرادني أن أعرف رأيه بها. قلتُ له: "حسناً، أظن أنها مولعة بك، وتحب أختها".

"نعم، صحيح". ثم أبلغني: "أنجبت ولدين. كلاهما في فلوريدا. لا يراهما أحد أبداً".

ظننتُ أن والدهما أكلهما ربما، لكن أنطوني شرح لي: "إنهما يقيمان علاقات مع ساقطات الشاطئ".

لم أجبه.

تراجع إلى الخلف في كرسيه، وراح ينفث دخان سيجارته، ولاحظتُ أن زيارة العم سال جعلته في مزاج سيئ، ولذلك كان يفكر ربما في أفضل طريقة لإنهاء هذه الزيارات إلى الأبد، ولهذا السبب فكّر في زوجة العم سال وولديه. خالته غريبة الأطوار، ويودّ أن يرمّلها، مثل أمه، فيما لن يشكل قريباه أي خطر عليه إذا مات والدهما.

لكنني أتذاكى كثيراً، ربما، كان يفكر في لازانيا أمه. قلتُ له: "يبدو عمك في حال جيدة".

تنبه وأجابني: "نعم. إنه يستخدم الطلاء نفسه على شعره وحذائه". نظر إليّ، وابتسم، وقال: "سألته عن بطاقته".

"تساءلت عن نوع العمل الذي يهتم به".

ابتسم أنطوني مجدداً وأجاب: "عمل العائلة". ثم طمأنني: "لم يعرف أنك كنت تمازحه".

هذا جيد.

قال لي أنطوني: "سجلت هدفاً في مرماه".

لم أجبه، لأن موضوع أهداف المرمى غير ملائم هنا، ولذلك شعر أنطوني بالحاجة إلى إخباري: "كان يجدر بي وضع عقب السيجارة في جسده، لكن في كل مرة أغضب منه، يظن الجميع أنني أنا الرجل السيئ".

"أظن أنك تعاملت مع الوضع بصورة جيدة". ثم ذكَرته: "إنه عمك".

"نعم. بالزواج. لكن رغم ذلك، عليك إظهار الاحترام، أليس كذلك؟".

"صحيح". صحيح إلى أن تقتله.

"لكن عليه أن يظهر الاحترام هو أيضاً".

"أوافقك الرأي". لا شك في أن رجالاً عدة في عالم أنطوني قتلوا حتى الآن لأسباب أقل أهمية من رمي السيجارة فوق مصطبة مضيفهم. الأمر كله متعلق بالاحترام، وعدم إحراج السيد أمام العامة، ومتعلق أيضاً بالروابط العائلية، والتسلسل الهرمي، وأخيراً بتوازن القوى الواجب المحافظة عليه. وربما لهذا السبب، لم يبادر أي من الاثنين بأي خطوة بعد تجاه الآخر. في غضون ذلك، يستمران في مضايقة بعضهما إلى أن ينهار أحدهما تلو الآخر.

قدّم إليّ أنطوني نصيحة جيدة وقال: "لا تتلاعب معه. لا يحتمل المزاح".

شككت في ما إذا كان العم سام يستطيع فهم المزاح.

ثم قال أنطوني: "أظن أن هذا الأسبوع سيكون حافلاً".

بدا لي أن هذه العبارة أتت من لا شيء، لكنها كانت على ما يبدو مقدمة لشيء ما، وليست مجرد ملاحظة، ولذلك تابعت الموضوع وسألته: "لماذا؟".

"حسناً، حسبما سمعته، لم يبقَ أمام جون غوتي سوى أيامٍ قليلة".

لم أجب.

تابع أنطوني القول: "سيكون هناك حداد لثلاثة أيام، وجنازة كبيرة. تعرف ذلك؟".

مجدداً، لم أجب.

تابع أنطوني: "لذا، عليّ أن أكون هناك". وشرح: "أقصد، ليست لي أي علاقة معه، لكنني أعرف العائلة وعليك أن تظهر احترامك. حتى بالتواجد هناك، يكوّن بعض الأشخاص فكرة غير ملائمة".

صحيح. مثلما قد تظن الشرطة والصحافة خطأ أنك عضو في عصابة إجرامية.

نظر إليّ وقال: "ذهبتَ إلى جنازة والدي. بدافع الاحترام".

لم أكن واثقاً مما دفعني لحضور جنازة والده، ربما أنني شعرت ببعض... الذنب، حسبما أظن، لأن زوجتي قتلته. لم أكن أحترم فرانك بيلاروزا، لكنني أظن أنه على رغم كل ما حصل، كنت أستلطفه. لذا، قلت لأنطوني: "كنت أستلطف والدك". ثم أضفت: "وأمك".

نظر إليّ وأومأ برأسه، ثم قال: "بعد ذلك، بعد سنوات عدة، أدركت كم كانت تلك الخطوة جريئة. أقصد حضور جنازة والدي فيما زوجتك هي التي قتلته".

لا أملك جواباً على هذا.

تابع: "أراهن أنك تلقيت الكثير من اللوم على ذلك من الأصدقاء والعائلة".

في الواقع، لم يحصل ذلك. والسبب في هذا هو أن أحداً لم يعد يتحدث إليّ بعد ذلك إلا أهلي، وقد علّق والدي قائلاً: "يظهر ذلك حكماً سيئاً على الأمور، جون". وأمي، التي تحب كل ما يتعلق بتعدد الثقافات، قالت: "فيمَ كنت تفكر؟"، وأختي إميلي اتصلت بي أيضاً وقالت: "شاهدتك على التلفزيون في دفن بيلاروزا. كنت تقف مثل الأحمق جون. علينا أن نحضر لك قميصاً أسود اللون وربطة عنق بيضاء". ثم أضافت: "كان هذا مقرفاً".

قال لي أنطوني: "تلقيت بعض اللوم من الصحافة أيضاً".

تم ذكر بعض العبارات التي كتبت عني، لكنها لم تكن في الواقع انتقادية أو مسيئة. فمعظم الصحافة كانت مسرورة بالتحدث عن سخرية تواجد زوج القاتلة في دفن القتيل. حسناً، لا تفهم الصحافة ربما السخرية، لكنها تفهم قيمة التسلية.

ساعدتني صديقتي الجيدة جيني ألفاريز على تخفيف الوطأة بالقول في برنامج تلفزيوني "إن مصادر مجهولة وصفت جون ساتر بالرجل الذي يقدّم مسؤولياته المهنية على مشاعره الشخصية، وتابعت جيني: وبصفته محاميَ فرانك بيلاروزا، شعر أنه يجدر به التواجد هناك من أجل مواساة عائلة زبونه المتوفي".

كان الأمر مسهباً قليلاً، ومن دون ذكر التناقض فيه، فإن جيني استلطفتني، وحين يستلطفك مراسل صحافي، يجد أو يبتكر مصادر مجهولة لقول أشياء لطيفة عنك. ولو كانت صحافية صادقة فعلاً، لأضافت: "ولمصلحة الحقيقة كاملة، أودّ الإشارة إلى أنني قمت بعمل ما مع السيد ساتر".

قال لي أنطوني: "هاي، إذا كنت تريد مرافقتي، سيكون ذلك جيداً".

شعرتُ بأن حضور دفن رجل مافيا واحد في الحياة أكثر من كافٍ، ولذلك قلتُ له: "أنا أيضاً ينتظرني أسبوعٌ حافلٌ. لكن شكراً".

"أبلغني إذا بدّلت رأيك".

لم يتحدث أي منا لدقيقة، فيما نفث أنطوني دخان سيجارته وحدق إلى حوض السباحة خاصته.

لست رجل مافيا، لكنني محامٍ ذو دماغ جيد، عمل ذات مرة لصالح فرانك بيلاروزا، ولذلك بدأت أجمع بعضَ الأمور معاً: موت جون غوتي قد يؤدي إلى انعدام الثقة بين شركائه في العمل، وربما يعطي بعض الفرص. وإذا فكرت في تعايش أنطوني وسالي دادا بطريقة غير سهلة طوال كل هذه السنوات، فقد أستنتج أن الطريقة الوحيدة لحصول ذلك هي أن هذا الوضع كان مضبوطاً من قبل شخص مثل جون غوتي؛ ولم يتبقَّ له الكثير في هذا العالم. وإذا كانت استنتاجاتي صحيحة، فسيصبح أنطوني وعمه سال قادرين عما قريب على قتل بعضهما. ولهذا السبب ربما، يبقى أنطوني دائماً في حالة تأهب.

خطر في بالي أيضاً أنه تم إدراج سوزان في هذا الترتيب القائم على عدم القتل - فَهَمُّ المافيا هو جمع المال، وتفادي أقلام الصحافة السيئة بسبب قتلها للمدنيين -

لكن بعد دفن جون غوتي ربما، قد يشعر أنطوني بحرية للتعامل مع سوزان.

الاحتمال الآخر هو أنني أمضي الكثير من الوقت مع أنطوني، ولذلك بدأت أفهم طريقة تفكيره هو ورفاقه.

بدا أن موضوع الموت الوشيك لغوتي قد أقفل، ولم يتم الإعلان بعد عن جهوزية الغداء، ففكرت في أن الوقت مناسب لإبلاغ أنطوني الخبر السار عني أنا وسوزان، لكن قبل أن أتمكن من فعل ذلك، سألني: "كيف حال ولديك؟".

تعلمت قبل وقت طويل من دخول آل بيلاروزا إلى حياتي أن أبقى متحفظاً مع الغرباء حيال موقع ولديّ ونشاطاتهما. أقصد، ليس آل ساتر ولا آل ستانهوب من المشاهير، مثل آل بيلاروزا، لكن آل ستانهوب أغنياء، وثمة أشخاص يعرفون هذا الاسم. أملي الكبير في هذا المجال هو أن يتمكن خاطف ما من اختطاف ويليام، وطلب فدية قدرها مليون دولار، ورفض الطلب من قبل شارلوت. على أي حال، للإجابة عن سؤال أنطوني، قلت له: "ابني يعيش في الشاطئ الغربي، وابنتي تعمل مساعدة محامٍ في بروكلين".

هذه المعلومة لفتت انتباهه، فسأل: "حقاً؟ هل تعمل مع جو هاينز؟".

المحامي الأسطوري في مقاطعة بروكلين اسمه تشارلز ج. هاينز، لكن أصدقاءه ينادونه جو. لا أظن أن السيد هاينز والسيد بيلاروزا صديقان، لكنني واثق من أنهما يعرفان بعضهما، مهنياً. أجبته: "إنها تعمل مع الفدراليين على مرتكبي الجرائم المنظمة"، وهذا ليس صحيحاً، لكن كيف أستطيع مقاومة قول ذلك؟

فكّر أنطوني في الأمر لبرهة، ثم نظر إليّ وقال: "لم أسمع أبداً بها".

أجبته ببراءة: "ولِمَ قد تفعل؟".

"أقصد... نعم. صحيح". ثم أضاف: "لا يُجنى الكثير من المال في هذا العمل".

"المال ليس هو المهم".

ضحك. "حقاً؟ أظن أنه إذا كنت تملك المال أصلاً، فلا يكون المال مهماً عندها".

"أنت تملك المال. هل هذا هو رأيك؟".

نظر إليّ، ثم أجابني: "كل هذا كان يخصّ والدي".

لم أجبه.

تابع: "ستعوّضني عن ذلك".

تعبتُ من هذا الموضوع، ولذلك لم أجبه مجدداً. لقد حان الوقت الآن أيضاً لإخباره أننا أنا وسوزان عدنا إلى بعضنا، وأنني لن أعمل معه. بدأت بسؤاله: "لماذا قلتَ لعمك إنني مسؤول عن ضرائبك؟".

"لأنك كذلك".

"أنطوني، لم نتفق على ذلك".

"هل راودتك أفكار أخرى؟".

"تجاوزت الأفكار الأخرى".

"هل تحاول إقناعي بدفع المزيد من المال لك؟".

"المال جيد، لكن العمل مقرف".

"وكيف تعرف قبل أن تجرّب؟".

تجاهلت السؤال، ثم سألته مجدداً: "لماذا أخبرتَ عمك أنني أعمل معك؟".

أجابني: "يظن أنك تملك بعض القوة. بعض العلاقات. وهذا جيد لي".

"ولمَ يظنّ ذلك؟".

"لأنه غبي".

"أفهم". يوظف الملك شخصاً يحمل اسم شمشون على أمل أن يكون بمواصفاته إلا أنه يكتشف أنه يملك الاسم من دون المواصفات، لكن الجميع يظن أنه كذلك، وهو الشيء نفسه مع الملك وأعدائه. يجدر بي ربما طلب المزيد من المال. أو على الأقل طلب سترة واقية من الرصاص في حال أراد سالي دادا التخلص مني بسبب عملي مع أنطوني.

أبلغني أنطوني: "حين تعمل معي، لن يكون لك أي علاقة مع عمي".

"هذه خيبة للأمل".

فهم أنطوني السخرية وضحك بصوت عالٍ.

أثرتُ مسألة جديدة، وقلت: "بما أن ابنتي تعمل مع شرطة بروكلين، قد لا ترغب في أن أعمل معك".

"لن تتورط في أي شيء له علاقة أبداً بما تفعله ابنتك".

خطرت في بالي تلك الفكرة المضحكة أنّ كارولين تعمل على قضية الدولة مقابل جون ساتر. "آسفة أبي. إنه العمل، وليس أمراً شخصياً". قلت لأنطوني: "ربما لا، لكن الأمر قد يكون محرجاً بالنسبة إلى ابنتي إذا وجدت الصحافة رابطاً بيني وبينك وبينها".

"لماذا؟".

"أنطوني، قد تُصدم لسماع ذلك، لكن بعض الأشخاص يظنون أنك متورط في الجريمة المنظمة".

لم يُصدم لسماع ذلك، ولم يكن حتى منزعجاً من إثارتي للموضوع، وقال لي: "جون، هناك خمس شركات قانونية أملكها أو أديرها. إحداها، خدمات بيل للأمن، وتهتم بعقود كبيرة منذ أحداث 11 سبتمبر. من هنا يأتي المال". انحنى صوبي وقال: "هذا كل ما تحتاج إلى معرفته، وهذا كل ما هو موجود لتعرفه". تراجع إلى

الخلف وقال: "لا أستطيع الإساءة إلى اسم عائلتي. وإذا كتب أحد الحمقى في الصحافة أي شيء عني، فسأقاضيه".

بدا لي هذا مقنعاً جداً بحيث كنت مستعداً لإرسال مساهمة إلى العصبة الإيطالية - الأميركية المناهضة للافتراء. لكن قبل أن أفعل ذلك، عليّ التحدث إلى فيليكس مانوسكو عن أنطوني بيلاروزا.

مدّ أنطوني يده إلى جيبه وقال: "هل تريد بطاقة؟ إليك بطاقتي".

أخذتها ولاحظتُ أنها بطاقة عمل كتب عليها شركات بيل مع عنوان في قسم حديقة ريغو من الكوينز، ورقم هاتف يبدأ بالرمز 718، الخاص أيضاً بمنطقة الكوينز.

قال أنطوني: "هل ترى؟ أنا رجل أعمال قانوني".

"ألاحظ ذلك. الدليل موجود هنا".

لم يظن أن الأمر مضحك جداً، لكنه قال: "كتبتُ رقم هاتفي الخلوي، ورقم منزلي على الجهة الخلفية". ثم أضاف: "احتفظ بها لنفسك".

لم يعد هناك الكثير لقوله حول هذا الموضوع، ولم يتم الإعلان بعد عن موعد الغداء، فبدأت "أنطوني...". لديّ بعض الأخبار الجيدة وبعض الأخبار السيئة. "أريدك أن تعرف أن...".

خرجت كيلي آن مسرعة من المنزل وقالت: "الغداء بعد عشر دقائق...". ثم رأت السيجارة في المنفضة وصرخت "بابا! أنت تدخن! ستموت!".

شخصياً، لا أظن أن بابا سيعيش طويلاً كفاية ليموت من التدخين، لكنني لم أقل هذا لكيلي آن.

جواب أنطوني على ذلك تمثل في وضعي أنا تحت المجهر بالقول: "السيد ساتر يدخن، حبيبتي. ليست هذه سيجارة بابا. صحيح، جون؟".

"صحيح". تمددت وأخذت السيجارة؛ لكن كيلي آن لم تكن غبية، وصرخت: "كاذب! سروالك يشتعل!". ثم استدارت وركضت إلى المنزل واستطعت سماعها تصرخ: "أمي! بابا يدخن!".

أخذ أنطوني السيجارة مني، وسحب الدخان منها، ثم نفثه وشرح: "أولئك الأساتذة الحمقى. يقولون لهم إن المخدرات والشراب والتدخين هي الشيء نفسه. إنهم يكذبون على الأولاد".

لم أجب، لكنني فكّرت في المسكين أنطوني، المحاط بإناث قويات ومسيطرات. أمه، خالته، زوجته، ابنته، وربما حتى عشيقته. من الغريب أنه لم يتحول إلى شاذ. الأهم من ذلك أنه لا يبدو مسيطراً كثيراً على حياته المنزلية، على العكس من والده الذي كان السيد المطلق للألهامبرا. بالإضافة إلى ذلك، لا يملك أنطوني رجولة والده ليطلب من ابنته البالغة من العمر ستة أعوام أن تخرس. حسناً، هذه

ملاحظتي، ونصف إيطاليتي تقريباً. أما رأيي الآخر فهو أنه ضئيل المقدرة، ولا يجدر بي القلق كثيراً بشأن سوزان.

وقفت وقلت: "أرغب في استخدام هاتفك".

"طبعاً". قادني أنطوني نحو مجموعة أخرى من الأبواب المزدوجة في الطرف الآخر من المنزل ونصحني: "عليك شراء هاتف خلوي".

"سأترك ربع دولار قرب الهاتف".

"لقد غبت لوقت طويل جداً. اترك دولاراً كاملاً". فتح لي أحد الأبواب وقال: "هذا مكتبي. يمكنك العثور على طريقك إلى غرفة الطعام".

دخلت الغرفة المظلمة ومكيفة الهواء، وأغلق الباب خلفي.

كان مكتب أنطوني ذكورياً جداً - من خشب الماهوغاني والنحاس والجلد ومشرب وتلفزيون كبير - وأعتقد أنه يلجأ إلى هنا حين ترتفع مستويات الاستروجين كثيراً عند بقية أفراد المنزل.

كانت الجدران مليئة برفوف الكتب، ورأيتُ مجموعة كتب والده من أكاديمية لاسال العسكرية. فرانك، مثلما قلت، كان مولعاً كثيراً بمكيافيللي. تساءلتُ أين هو الآن، ومع من يتناقش!؟

من جهة أخرى، كان أنطوني يفضل الكتب الوثنية، ورأيت رفوفاً مليئة بكتب عن الإمبراطورية الرومانية، وعرفت أن أنطوني لم يكن أول سيد مافيا متأثراً في كيفية إدارة الرومان للأمور، وكيفية حلّ مشاكلهم بالقضاء على دول بأكملها. ولسوء الحظ، يصبح أشخاص مثل أنطوني مثقفين أكثر منهم أذكياء، ويصبحون أكثر خطورة من العم سال مثلاً.

على أي حال، وجدت الهاتف على مكتبه، وطلبت رقم الهاتف الخلوي الخاص بإليزابيت. وفيما كان الاتصال جارياً، خطرت في بالي فكرتان: الأولى، هي أنه لا يوجد شيء على هذا المكتب أو في داخله لا يريدني أنطوني، أو زوجته أو، الأف بي آي رؤيته. الثانية، هي أن يكون هاتفه مراقباً ربما من قبل إحدى الوكالات القانونية، أو حتى من قبل منافسي أنطوني في العمل، وربما من قبل أنطوني نفسه ليتمكن من مراقبة ميغان. لكن الآن، مع وجود الهواتف الخلوية، لم تعد مراقبة الخطوط الثابتة مثيرة، ولذلك لا يزعج أحد نفسه ربما في مراقبة هاتف ثابت. ولكنني عليّ الانتباه إلى ما أقوله.

سمعت المجيب الصوتي في هاتف إليزابيت، وهذا يعني أنها لا تستطيع تلقي الاتصال حالياً وأن عليّ ترك رسالة عند سماع الإشارة. قلت: "إليزابيت، هذا جون. آسف لأنني لن أتمكن من لقائك في السابعة". ترددت ثم قلت: "نلتقي أنا وسوزان". ثم أضفت: "أتمنى أن تكون أمك مرتاحة. أتحدث إليك غداً".

أنهيت الاتصال وطلبت رقم هاتف سوزان الخلوي. أجابت فقلتُ لها: "مرحباً، هذا أنا".

"جون، أنا مسرورة لأنك اتصلت. كيف تجري الأمور؟".

"بخير...".

"هل أخبرته؟".

"ليس بعد، ولا أستطيع التحدث بحرية".

ظننت ربما أن أنطوني يسمعني، ولم يخطر في بالها أمر التنصت الهاتفي. قالت: "حسناً، دعني أقول لك ماذا حصل. رنّ الهاتف في منزل الحراسة فيما كنت أوضّب أغراضك، وأجبت".

"حسناً...". سامنتا؟ إليزابيت؟ إيرانيون؟

تابعت سوزان: "كانت إليزابيت، تبحث عنك".

"صحيح. كنت أعيش هناك".

"قالت إن وضع أمها الصحّي تدهور ودخلت في غيبوبة".

"أنا آسف لسماع ذلك، لكننا نعرف...".

"ولن تتمكن من مقابلتك عند السابعة".

"أوه... حسناً. أرادت دعوتي إلى العشاء لتشكرني...".

"أخبرتني هذا. وانتهزتُ الفرصة لإخبارها أننا عدنا أنت وأنا إلى بعضنا".

"رائع. كانت تتمنى أن نعود إلى بعضنا".

"لم يكن هذا هو الانطباع الذي حصلت عليه من حديثنا الوجيز. بدت متفاجئة".

"حقاً؟ حسناً، أنا متفاجئ أيضاً. حسناً، دعيني أضع أنطوني جانباً...".

"جون، أخبره فقط أنك مضطر إلى المغادرة الآن. أخبرت إليزابيت أننا سنوافيها إلى فير هافن". ثم أضافت: "يمكنك الاتصال به لاحقاً وإخباره".

"سوزان، أحتاج إلى فعل ذلك الآن. شخصياً. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس عشرة دقيقة".

"حسناً، حظاً موفقاً. أحبك".

"وأنا أيضاً". أنهيت المكالمة ونظرت حول المكتب مجدداً. فوق حافة الموقد ثمة نسخة عن لوحة روبينز اغتصاب النساء والتي أعتقد أنها تعبّر عن رأس فرانك بيلاروزا أكثر مما تعبّر عن ذوقه في الفن.

كنت على وشك المغادرة، لكنني لاحظتُ بعدها لوحة مألوفة موضوعة على محمل. إنها في الواقع اللوحة التي رسمتها سوزان لأطلال فناء النخل في الحمرا. رأيت هذه اللوحة للمرة الأولى والأخيرة في فناء النخل المرمم للألهامبرا، وجثة فرانك بيلاروزا على مسافة أقدام قليلة، فيما كانت الرسامة نفسها مكبّلة اليدين.

كان حكمي على اللوحة آنذاك أنها واحدة من أفضل لوحات سوزان. وتذكرت أيضاً، بالنظر إليها الآن، أنني قارنت يومها بين تصوير سوزان للأطلال والدمار

وبين حالتها العقلية. حتى اليوم، لست واثقاً مما إذا كنت أفرط في تحليل ذلك. لكنني أذكر أنني ضربت اللوحة بقبضة يدي ورميت بها في فناء النخل.

حدقت إلى اللوحة، ولاحظت أن الشخص الذي أنجز الترميم قام بعمل مثالي. حبذا لو أن بإمكاننا ترميم الحياة بالطريقة نفسها.

الأهم من ذلك، تساءلت عن الشخص الذي رممها، ولماذا، ولِمَ هي موجودة أيضاً في مكتب أنطوني بيلاروزا. رأيت توقيع سوزان الواضح في الزاوية اليمنى، وبالتالي فإن أنطوني يعرف من رسمها.

أستطيع التفكير في ذلك لوقت طويل، وأستطيع التوصل إلى عدد من النظريات الملائمة وغير الملائمة عن سبب وجود هذه اللوحة هنا. لكنني أستطيع سؤاله أيضاً عن السبب. إلا أن هذا قد يربكه. لقد حان الوقت لإخبار أنطوني بأنني لن أعمل معه، وأطلب منه البقاء بعيداً عن زوجتي السابقة والمستقبلية.

حين عبر القيصر الروبيكون، كان يعلم بأنه لن يرجع إلى الوراء، لذا، أخذت فتاحة الرسائل عن مكتب أنطوني، وتوجهت إلى اللوحة، ومزقتها حتى أصبحت خرقاً. غادرت بعدها غرفة الجلوس ومشيت في الرواق الطويل نحو الأصوات الصادرة من غرفة الطعام.

الفصل الثالث والثلاثون

وُضعت الطاولة الكبيرة في جانب واحد من غرفة الطعام بحيث تتسع لستة أشخاص، ووزعت عليها أطباق المقبلات المتنوعة، ورغيف من الخبز الإيطالي، وقنينة من الشراب الفرنسي الأحمر.

جلس أنطوني على رأس الطاولة، وميغان إلى يمينه، وأمه إلى يساره، وجلس الولدان معاً قرب أمهما، وكانت آنا تتناول السلامي والجبنة. قالت لي: "اجلس. هنا. قربي".

أعلنت: "أعتذر. لكن يجدر بي الذهاب".

توقفت آنا عن تناول الطعام وسألت: "تذهب؟ إلى أين؟".

شرحت للجميع: "إيثيل ألارد، السيدة التي كانت تعيش في منزل الحراسة، والموجودة الآن في دار العجزة قد دخلت في غيبوبة".

قال أنطوني: "هذا مؤسف جداً".

تابعتُ: "أعتذر، لكن عليّ التواجد هناك في حال..." - ألقيت نظرة على الولدين - "في حال توفيت الليلة".

رسمت آنا رمز النصارى الديني، لكن لم يفعل أحد آخر ذلك، بالرغم من أنني فكّرت في ذلك لبرهة.

سأل الصغير فرانك: "ماذا يعني غيبوبة؟".

أصبح أنطوني واقفاً وقال لي: "طبعاً. لا مشكلة. سنفعل ذلك مجدداً".

وقفت ميغان أيضاً وقالت: "أبلغنا بما يحصل".

استفسرت كيلي آن: "ماذا يحصل حين تدخل في غيبوبة؟".

قالت آنا: "دعني أوضّب لك بعض الطعام".

"هذا لطف كبير منك، لكن عليّ الاستعجال". نظرتُ إلى أنطوني وأومأت في اتجاه الباب. قال: "سأرافقك إلى الخارج".

عانقتُ آنا بسرعة، وتمنيت للجميع غداء لذيذاً، ولحقت بأنطوني إلى الردهة.

قال لي: "حين تعرف ماذا يحصل، أبلغني. وحين يموت غوتي، ستعرف من الأخبار، ولذلك بعد انتهاء كل هذا، سنعود للاجتماع مجدداً".

قلتُ له: "لنخرج".

نظر إليّ، ثم ألقى نظرة إلى الخلف نحو غرفة الطعام وصرخ: "انطلق وابدأ"، ثم فتح الباب وخرجنا ووقفنا في الرواق المعمّد. انتهز الفرصة لإشعال سيجارة وسألني: "ما الأمر؟".

قلتُ له: “قررنا أنا وسوزان أن نعود إلى بعضنا”.

“هوه؟”.

“سوزان. زوجتي السابقة. سنعود إلى بعضنا”.

فكّر في ذلك لبرهة، ثم قال: “وتقول لي ذلك الآن؟”.

“متى أردت أن تعلم؟”.

“البارحة”.

“لم أكن أعرف البارحة. وما هو الفرق بالنسبة إليك؟”.

أجاب بطريقة غير صريحة: “هل تعرف، لا أفهم أبداً كيف يستطيع رجل استعادة زوجة خانته. لا أعرف من هو هذا الرجل”.

كان بإمكاني الاقتراح عليه أن يذهب إلى الجحيم، لكن هذا سينهي المحادثة، ولم أنتهِ بعد. لكنني قلتُ له: “أتمنى ألا تضطر أبداً إلى تقرير ما يجب عليّ القيام به”.

أزعجه ذلك، وقال لي: “هاي، أنا أعرف ما يجب عليّ فعله، ويمكنك فعل ما تريده”.

“شكراً. لقد فعلت”.

“ظننتُ أنك رجل ذكي جون. رجل يملك بعض الكرامة”.

لن أسمح له بمهاجمتي، ولا حاجة إلى إجابته؛ لكنني قلتُ له: “ليس هذا من شأنك”.

أجابني: “أظن أنه من شأني. أظن أن هذا قد يغير الأمور بيننا”.

“لم يكن أبداً من شيء بيننا”.

“أنت حقير. عقدنا اتفاقاً، وأنت تعرف ذلك”.

“لم نفعل، لكن إذا كنت تظن أننا فعلنا، يكون الاتفاق قد انتهى الآن”.

“نعم. إذا عدتَ إليها، لا شك في أن الاتفاق ينتهي. لكن... إذا غيَّرت رأيك بشأنها، يمكننا التحدث مجدداً”.

“لن أغير رأيي بشأنها، أما أنت فيجدر بك”.

“ماذا يعني ذلك؟”.

“تعرف ما أعنيه”.

“أوه، نعم. ما زلت مصراً على ذلك. هيا، جون. أخبرتك، لو كانت هذه مشكلة لتوجب تسويتها قبل زمن بعيد. لا تشغل بالك. اذهب وتزوجها. عش حياة سعيدة”.

تعمّد عدم لفظ أي قول أستطيع نقله إلى الشرطة، وفي الواقع، طمأنني بالقول: "النساء والأولاد والمتخلفون عقلياً يحصلون على عفو. هل تفهم؟". ثم شرح: "هذه قوانين".

ذكّرته: "حاول أحد قتل والدك على مرأى من أمك، وكان يمكن أن تتأذى أو تموت. هل نسي أحد القوانين؟".

نظر إليّ مطولاً ثم قال: "ليس هذا من شأنك".

"اعذرني، أنطوني. كنت أقف على مسافة قدمين من والدك حين مرّت الرصاصات أمام وجهي. يصبح الأمر حينها من شأني".

فكّر في ذلك، ثم قال: "رغم ذلك ليس هذا من شأنك".

"حسناً. لا تدعني أؤخرك عن العشاء. شكراً على ضيافتك. لديك عائلة جميلة. أحببت، خصوصاً، عمك سال. وكي لا يحصل أي سوء تفاهم في ما يتعلق بسوزان ساتر، أبلغك الآن، بصفتي محاميها، أنني سأجعل سوزان تتقدم بشكوى إلى الشرطة، وتعلن عن قلقها وخوفها من نواياك تجاهها. هكذا، إذا حصل أي شيء لها، ستعرف الشرطة إلى من تتحدث. فهمت؟".

توقعت أن يجنّ جنونه، لكنه وقف هناك وحدّق بعيداً عني. لذا، قلتُ له: "استمتع بيومك"، واستدرت وهممت بالسير في حديقته.

"جون".

استدرت، متوقعاً جزئياً أن أرى مسدساً، لكنه بدلاً من ذلك اتجه نحوي وتوقف وقال بصوت هادئ: "هاي، جون، لست بحاجة إلى التقدم بشكوى إلى الشرطة. نحن رجلان. يمكننا التحدث".

"لقد تحدثنا".

"ظننت أنك فهمتَ ما قلته لك بشأن إنقاذك لوالدي. أخبرتك تلك الليلة التي زرتك فيها بأنني أدين لك بخدمة لإنقاذك حياته. وذكرتَ شيئاً عن زوجتك. هل تذكر؟ لم أكن واثقاً مما تريده، لكنني أفهم الآن. لم تكن هناك أصلاً مشكلة على أي حال. لكن إذا كنت تظن أن هناك مشكلة، وهذه هي الخدمة التي تريدها، تكون قد حصلت عليها". أضاف: "أقسم بهذا على قبر أبي".

يفترض بهذا أن ينهي الحديث، لو كنت أثق به، لكنني لا أثق به أبداً. فإذا أعطيتُ حق الاختيار بين التقدم بشكوى إلى الشرطة، وكلمة شرف أنطوني بيلاروزا، أقدم مالي وحياتي وحياة سوزان مقابل رفع الشكوى ضد أنطوني. والمسدس.

انتظر أنطوني إجابة، ولكن حين لم يسمع جواباً، قال: "ما من مشاعر ضغينة. لنذهب في مسالك منفصلة، وتتوقف عن القلق بشأن ما أنت قلق عليه. فنكون متساويين جميعاً الآن".

لم أشأ أن يظن أنطوني بيلاروزا أنه يؤدي لي أي خدمة، حتى لو كنا نعرف كلانا أنه يكذب، ولذلك أبلغته: "لقد سدد لي والدك أصلاً ثمن خدمة إنقاذ حياته. لذا، أنت لا تدين لي بأي شيء".

بدا أن هذا الأمر فاجأه فقال: "حقاً؟ سدد لك ثمن خدمة إنقاذ حياته؟ جيد. لكنني سأسدد لك الثمن مجدداً".

"لا أريد أي خدمات منك".

"حقاً؟". بدأ يغضب ويفقد صبره بسبب عدم قبولي تمنياته الطيبة لي بحياة سعيدة خالية من الهموم، ووعده بعدم قتل سوزان. لذا، قال: "أنت أحمق. اخرج من هنا أيها اللعين".

أزعجني ذلك فعلاً، فقررت أن أنطوني يحتاج الآن إلى معرفة كيف سدد لي والده ثمن الخدمة. اقتربت منه أكثر، وأصبحنا على مسافة قدمين تقريباً.

"نعم؟ ماذا؟".

"والدك، أنطوني، كان مغرماً بزوجتي، وكانت هي مغرمة به، وكانا مستعدين للهرب معاً، وتركك أنت وأخويك وأمك...".

"عمَّ تتحدث؟".

"لكنه كان يدين لي بحياته، لذا...".

"كان يقيم علاقة معها. هذا كل ما كان يفعله. يقيم علاقة مع زوجتك للتريض ليس إلاّ".

"لذا، طلبتُ منه أن يقول لها إن العلاقة بينهما انتهت، وإنه لم يحبها أبداً...".

"أنت حقير".

"وفعل ذلك من أجلي، ولسوء الحظ، غضبت سوزان، التي كانت مغرمة به، و...".

"اخرج من هنا".

"أنطوني. لهذا السبب قتلته. كانت تحبه وهو يحبها، وأخلف بوعده لها بأخذها معه إلى إيطاليا ضمن برنامج حماية الشهود".

"وكيف تعرف...؟".

"كان شاهداً حكومياً، أنطوني، وأنت تعرف هذا تماماً مثلما أعرفه أنا. انظر إلى شبكة الإنترنت. كل شيء مذكور". لم يجب على هذا. لذا، أنهيت حديثي بالقول: "سألتني عن الحقيقة بشأن والدك، وأخبرتها لك للتو".

كاد يضع أنفه في وجهي، وتحدث بنبرة بطيئة ورزينة: "لن يغير ذلك شيئاً مما فعلته زوجتك. لإبلاغك فقط".

وضعت يدي على صدره ودفعته إلى الوراء، وكنت مستعداً لأي خطوة قد يقوم بها، لكنه وقف هنا، يحدق إلي. قلت له: "يبدو هذا مثل تهديد. هل هذا تهديد؟".

كان يجدر به التراجع عند سماع ذلك، لكنني وضعت الإصبع على الجرح، وقال: "احسبها مثلما تريد".

"سأعتبره تهديداً. وكذلك ستفعل الشرطة".

لم يجب، وأدرت له ظهري واتجهت نحو سيارتي.

ناداني: "تظن أن الرجال من أمثالك لا يقلقون بسبب رجال من أمثالي. حسناً، أيها المستشار، أنت مخطئ في هذا".

سررتُ لأنه فهم المبدأ، لكنني لم أكن واثقاً ممّا إذا كان ذكياً كفاية أو بارداً كفاية، مثل والده، ليعرف متى يجدر به إغلاق فمه، والقيام بخطوة إلى الأمام. أو بما أنه هدد سوزان أمامي، ومن ثم هددني، قد يظن أنه يحتاج إلى التخلص منا نحن الاثنين.

ركبت في سيارتي، وفيما ابتعدتُ عن منزله، رأيت أنه لا يزال واقفاً على المرج يراقبني.

اجتزت عقارات الحمرا.

الآن، لم أعد مضطراً إلى حماية سوزان. أصبحنا معاً، وكنا أنا وأنطوني حيث ننتمي: وجهاً لوجه وكل شيء واضح في العلن.

أوقفت السيارة حيث تنتهي الطريق المعبّدة، ونظرت إلى حيث كانت الحمرا، متذكراً المكتبة التي جلسنا فيها أنا وفرانك بيلاروزا، والسيجار، والشراب المسكر، نتحدث عن مكيافيللي وعن تهمة القتل التي يواجهها. وقبل أن أدرك ذلك، أصبحتُ جزءاً من العائلة. حسناً، التاريخ لن يكرر نفسه هذه المرة، لكن التاريخ لا يزال يقود السفينة.

المرة الأخيرة التي رأيت فيها بيلاروزا، مثلما قلت، كان مستلقياً نصف عارٍ وميتاً فوق أرض فناء النخل، تحت شرفة غرفة نومه. نظرتُ إلى حيث كان فناءُ النخل، حيث يؤدي الآن ممر طويل معبَّد إلى كاراج فيلا صغيرة، وتصورته فعلياً مستلقياً هناك.

ألقيت نظرة أخيرة حولي، وأنا مدرك أنني لن أكون أبداً مجدداً على أرض الحمرا، ثم تابعت طريقي، واجتزت كشك الحراسة، واستدرت إلى اليمين نحو غرايس لاين لأعبر مسافة الربع ميل إلى منزل الضيوف في ستانهوب هال.

الفصل الرابع والثلاثون

عبرتُ البوابات المفتوحة لستانهوب هال، واجتزت منزل الحراسة، والممرّ المحاط بالأشجار المؤدي إلى منزل الضيوف حيث ركنتُ سيارتي قرب سيارة سوزان اللكزس.

ترجلت من السيارة وذهبت إلى الباب الرئيسي. لم تعتد سوزان يوماً على قفل الأبواب، ولا تزال على هذه العادة، ففتحتُ الباب ودخلت إلى الردهة، مثلما كنت أفعل، وقلت: "حبيبتي، عدتُ إلى المنزل!".

لا جواب، لذا دخلتُ إلى المطبخ ورأيتها على المصطبة الخلفية، تجلس على كرسي طويل وتقرأ مجلة.

فتحتُ الباب، ووقفت بسرعة، واتجهت نحوي، ووضعت ذراعيها حولي قائلة: "أوه، أنا مسرورة لأنك عدتَ إلى المنزل". أعطتني قبلة وأضافت: "هل أخبرته؟".

"نعم".

"و؟".

"حسناً، مثلما توقعتُ، لم يتقبل خبر اجتماعنا جيداً".

"لماذا أخبرته بذلك؟ ليس هذا من شأنه. كل ما كان عليك إخباره به هو أنك لن تعمل معه".

"صحيح. عادة، لا أعلن خطوبتي أمام سيد مافيا، لكنني أردته أن يعرف أننا عدنا معاً، وأنك لست وحيدة".

فكرت في ذلك، ثم أجابت: "حسناً... لكنني ما زلت أظن أنك أفرطت في ردة فعلك".

لن يكون هذا رأيها لو كانت برفقتنا أنا وأنطوني بيلاروزا في حديقته الأمامية، لكنني لم أشأ إخافتها، ولذلك قلتُ لها: "لا أظن أنه ستكون هناك أي مشكلة... لكن غداً، سنذهب أنا وأنت إلى مركز الشرطة المحلي ونتقدم بشكوى ضد أنطوني بيلاروزا بحيث...".

"جون، لا أحتاج إلى فعل ذلك". ثم أضافت: "قد يجعله ذلك...".

"سوزان. سنفعل ذلك وفق خطتي، ولا أريد أي مناقشات. أريده أن يعلم أن الشرطة مدركة للوضع. هل تفهمين؟".

نظرت إليّ، وعلى رغم نبرتي الطبيعية، لاحظتُ أنها عرفت أنني قلق. قالت لي: "حسناً". ثم غيّرت الموضوع وسألتني: "هل رأيت آنا؟".

"نعم".

"وكيف كانت؟ ودودة؟".

"نعم". لكنها لم ترسل لك تحياتها.

سألت سوزان: "كيف هي زوجته؟".

"تبدو لطيفة كفاية".

أذكر، منذ زمن طويل، أنه حين أذهب إلى مكان ما من دون سوزان، أتمعن في كل شيء ينافس أي شيء فعلته قبلاً مع شاهد. احتجت فعلاً إلى شراب، ولذلك قلت لها: "أظن أنه حان وقت الكوكتيل".

"كيف بدت زوجته؟".

"أوه... إنها جميلة فعلاً. وإنما غير مصقولة كثيراً".

"ومن كان هناك أيضاً؟".

"سالفاتور داليسيو. العم سال. وزوجته ماري". ثم سألتها: "هل التقيتِ بهما؟".

"لا. وكيف لي أن أفعل...؟". ثم تذكرت على ما يبدو أنها كانت زائرة دائمة إلى الحمرا، ففكرت لبرهة في الأشياء التي كانت تحاول نسيانها طوال عشر سنوات، وأجابت: "في الواقع نعم. لقد التقيت بهما. حين كنت في المنزل. كنت أرسم في فناء النخل". أرادت إنهاء الحديث هناك، لكنها شعرت بأن عليها مشاركة جميع الذكريات معي، فتابعت: "توقفا قربي، وعرّفتهما آنا إليّ، لكننا لم نتحدث".

ثم ختمت قائلة: "كان رجلاً مخيف المظهر".

"ولا يزال كذلك".

قالت سوزان: "سأحضر لك شراباً. ماذا تريد؟".

"شراب يذهب بالعقل، وردي".

"وكيف أحضر هذا؟".

"تضعين أربع أونصات من قنينة شراب اسكتلندي في كأس، وتضيفين مكعبات من الثلج".

"حسناً... سأعود في الحال".

دَخَلت، وفكرتُ قليلاً في لقاء سوزان مع سالفاتور داليسيو في الحمرا، وتساءلتُ عما إذا خطر في بالها بأنها دخلت عالماً لا تملك أي سيطرة فيه، وحيث لا تكون الليدي ستانهوب، في الواقع، سوى عشيقة السيد، وهذه المكانة لا تستحق الكثير من الاحترام. ويبدو الأمر مذهلاً عند التفكير في أن سوزان ستانهوب، التي عاشت حياة محمية ومدللة، والتي كانت متعجرفة كثيراً، تنازلت عن كبريائها، وارتضت بأن تتحول إلى لعبة حميمية لرجل قوي؛ وإنما فظ. أقصد، التاريخ مليء بالسيدات النبيلات اللواتي فعلن ذلك - زوجة إمبراطور روماني انضمتِ إلى ساقطات الليل - وأفترض أن العالم النفسي السريري يمضي يوماً

كاملاً في تحليل هذا المفهوم. كانت سوزان تحاول ربما الثأر من ماما وبابا. أو نسيت أنا ربما أن أجاملها وهي ترتدي فستاناً جديداً. أو على الأرجح، لم يكن لديها فكرة عن سبب اتخاذها مجرماً، عشيقاً لها. العقل، مثلما يقولون، هو أكبر مثير للحميمية، ولا يعرف أحد كيف يعمل. على أي حال، كنت واثقاً تماماً من أن سوزان لم تعد هي سوزان. تواجدت هناك وفعلت ذلك.

عادت سوزان تحمل صينية عليها كأساً من الشراب الفرنسي الأبيض، وكأس الشراب الاسكتلندي خاصتي. وضعت الصينية على الطاولة، ورفعنا كأسينا، وقالت: "نخبنا".

أضفت: "معاً. إلى الأبد".

ارتشفت القليل من الشراب الاسكتلندي، وأبلغتني سوزان: "هذا هو الشراب الاسكتلندي خاصتك. اشتريته منذ... أن عدتُ إلى هنا".

لا أظن أن أياً من أصدقاء زوجها المرحوم كان يحتسي الشراب الاسكتلندي. أو أنها تخبرني كذبة بيضاء صغيرة لتجعلني أشعر بأن السنوات العشر الماضية كانت مجرد ومضة حزن على طريق السعادة السريعة في الحياة. إلا أنني قلت لها: "لقد تحسنت مع التقدم في العمر". أردت أن أضيف: "وأنتِ أيضاً"، لكن مع النساء، يجب توخي الحذر في مثل هذا النوع من الإطراءات.

سألتني: "وبمَ يختلف هذا الشراب الوردي الذي يذهب بالعقل عن الشراب الاسكتلندي مع قطع الثلج؟".

"في الأغلب، إنه اختلاف في اللفظ".

ابتسمت وقالت: "سأحتاج إلى بعض الوقت لأعتاد على مرحك الطفولي مجدداً".

"طفولي؟ أعرف أنكِ...".

قبّلت شفتيّ وقالت: "الله، لقد اشتقت إليك. اشتقت إلى كل شيء فيك".

"وأنا أيضاً".

أمسكنا بأيدي بعضنا، ووقفنا هناك ننظر إلى الحديقة المشمسة، ونشرب كأسينا. وبعد دقيقة تقريباً، سألتني: "كيف هو منزلهم؟".

"ليس سيئاً جداً، لكنني لم أتوقف أمام مكتب المبيعات". أردتُ العودة إلى الموضوع السابق فسألتها: "هل تعرفين أن سالفاتور داليسيو كان المشتبه به الرئيسي في حادثة مطعم جوليو؟".

ألقت نظرة سريعة عليّ، وأجابت: "لا. تقصد... صهره؟".

"هذا صحيح. ألم تسمعي أبداً بذلك؟".

"ومن أين لي أن أسمع بذلك؟".

حسناً، من ضحية الجريمة، عشيقك. لكنني أجبتها: "من الصحف".

لم تجب لبضع ثوانٍ، ثم قالت: "لم أتتبع الخبر في الصحف".

"هذا صحيح". في الواقع، أذكر أنها لم تلاحق حتى أخبار القصة الكبيرة التي حدثت بعد أسابيع قليلة، عن قتل سوزان ستانهوب ساتر لفرانك بيلاروزا، ولم يكن هذا لأنها كانت عاجزة عن تحمل قراءة ذلك؛ وإنما هو بسبب عدم الاهتمام المطلق لسوزان بالأخبار عموماً، واشمئزازها منها. كان شعارها، الجملة الشهيرة التالية: إذا قرأت عن تحطم قطار واحد، تكون قد قرأت عن كل حوادث التحطم. طبعاً، إذا كنت في حادثة تحطم القطار، قد تكون مهتماً كثيراً في قراءة الخبر. على أي حال، وبالترافق مع قلة اهتمامها بقراءة الأخبار، هناك أيضاً تربيتها في بيئة اجتماعية لا تزال تعتقد أن اسم المرأة يجب أن يكتب فقط في الصحف حين تولد، وتتزوج، وتموت. بهذه الطريقة، لم تترك الكثير من المجال لكتابة قصة عن كيفية قتل المرأة لعشيقها. على أي حال، صدّقتها حين قالت إنها لم تكن تعرف أن سالفاتور داليسيو هو الرجل الذي أفسد سهرتنا في إيطاليا الصغرى. في الواقع، لم أذكر الأمر أبداً أمامها.

سألتني: "ولمَ تتحدث عن هذا الموضوع؟".

أجبتها: "لأنني أظن أن... أنطوني بيلاروزا قد يحتفظ بالضغينة حيال عمه. كما أن عمه قد يرغب في أن ينهي مع أنطوني ما كان قد بدأه في مطعم جوليو مع فرانك".

صمتت مطولاً، ثم أشارت: "لكنهما... كانا يتناولان العشاء معاً".

"حسناً، آل داليسيو لا يبقون على العشاء، لكنني واثق من أنهم تناولوا العشاء معاً جميعاً". شرحتُ لها، مستخدماً كلمات فرانك بيلاروزا نفسه حول هذا الموضوع: "لا علاقة للأول بالآخر".

"حسناً، بلى جون. إذا حاول ذلك الرجل قتل...".

"سوزان، لا تحاولي حتى أن تفهمي". فكرتُ في مقاربة الحدث مع حدث توقيعي عقداً مع والدها، لكن هذا سيكون خرافة أكثر مما هو مقاربة جيدة، ولذلك قلت: "الخلاصة هي أنني أظن هذا... تم تأجيل الثأر طوال عشر سنوات، وقد يحصل عما قريب. لذا، قد يكون أنطوني مشغولاً جداً لبعض الوقت، وهو يحاول البقاء على قيد الحياة، وفي الوقت نفسه يحضّر الخطط للتأكد من أن عمه لا يفعل ذلك". لم تجب سوزان، ولذلك ختمتُ قائلاً: "على الأقل، هذا ما أظنه".

حدّقت إلى حديقة الورود وقالت أخيراً: "هذا لا يصدق".

"أردتُ فقط أن تكوني واعية لما قد يحصل". والاستيقاظ قليلاً. "لكن هذا يهمنا فقط لناحية أن أنطوني قد لا يبقى جارنا لوقت طويل". أو قد لا يبقى على قيد الحياة أساساً. "لذا، الموضوع انتهى". سألتها: "هل من خبر عن إيثيل؟".

"لا... جون، ماذا قلتَ بالضبط لأنطوني، وماذا قال هو لك؟".

"سأخبرك بذلك خلال العشاء".

"حسناً...".

“ما هو العشاء؟”.

أبلغتني: “حضَّرت اختصاصي. حجز في مطعم”.

“رائع. في أي وقت؟”.

“السابعة. هل أخبرتك أنني ألغيت عشاء الساعة السابعة مع إليزابيت؟”.

“نعم، وأخبرتك أنني تركتُ لها رسالة في هذا الخصوص”.

“حسناً، لم تكن قد تلقتها حين تحدثتُ إليها”.

“صحيح. تحدثتِ إليها أولاً. إذاً إلى أين سنذهب؟”.

“فكرتُ في أنك تودّ تناول العشاء في سيوانهاكا”. أضافت: “لتذكر الأوقات الماضية”.

فكرتُ في نادي اليخوت السابق، ولكي أكون صريحاً، ساورتني مشاعر مختلطة حيال رؤيته مجدداً. فمن جهة، هناك الذكريات الجيدة المرتبطة بالنادي؛ الحفلات الموسيقية، حفلات الزفاف، حفل الشواء السنوي في الرابع من يوليو في الحديقة المطلة على مرفأ أويستر باي، ولقائنا الأول أنا وسوزان في حفل زفاف هناك. ومن جهة أخرى، هناك ذكريات إبحاري الرائع في يخت “مورغان” البالغ طوله ستاً وثلاثين قدماً، أي يخت بومانوك الأصلي، الذي أحببته كثيراً لدرجة أنني أغرقته في الخليج بدلاً من تسليمه لخدمة العائدات الداخلية مقابل الضرائب. لم تكن هناك ذكريات سيئة مرتبطة بنادي اليخوت، باستثناء الرحلة الأخيرة على متن بومانوك. لكنني لا أعرف إذا ما كنت أريد العودة إلى هناك. أريد ترك الأمور كما هي.

“جون؟ هل كل شيء على ما يرام؟”.

“ربما في وقت آخر”.

“الآن هو الوقت المناسب. أريد ألا أنسى هذا اليوم أبداً، وأريد إنهاءه ونحن جالسان على المصطبة الخلفية فيما الشمس تغيب ونحمل في أيدينا كأسي شراب لذيذ”.

“حسناً... لكن إذا قال أحدهم لي: جون، أنا متفاجئ لرؤيتك هنا بعدما دمّرت حياتك وهربت، سألكمه بقوة”.

ضحكت سوزان وقالت: “إذا قال أحد ذلك، سنضربه نحن الاثنان”.

قلت لها: “اتفقنا. حسناً، أحتاج إلى الراحة”.

“لقد رتبتُ كل أغراضك، وسلمت غسيلك إلى سيدة التنظيف. عليك الذهاب إلى المصبغة غداً”. ثم أشارت: “بالكاد تملك ثياباً لارتدائها”.

“شكراً”.

“سأطلب صوفي؛ سيدة التنظيف. إنها بولندية؛ لكنها تتحدث لغة إنكليزية جيدة. سأطلب مِنها كيّ بذلتك السوداء”. ثم أضافت: “ستحتاج إليها قريباً”.

"شكراَ". ارتحتُ لمعرفة أن سوزان لم تتعلم الغسل أو الكيّ خلال السنوات العشر الماضية، وإلا لكان هذا الأمر دمّر صورتها المرسومة في خيالي.

ذكّرتني: "لكن علينا الذهاب أولاً إلى فير هافن".

"حسناً".

"سأدعو إليزابيت لتنضم إلينا على العشاء - أعرف أنها حرّة، لأنني ألغيت موعد عشائها - لكنني متأكدة من أنها تريد البقاء قرب سرير أمها، وهذه أيضاً الليلة الأولى لنا معاً".

"نعم، طبعاً".

"سألتها، بفظاظة، إذا حصل أي شيء بينكما الليلة الماضية".

"والآن، تعرفين أن شيئاً لم يحصل. خاب أملي لأنك لم تصدقيني، وأنا متفاجئ صراحة لأنك طرحتِ عليها هذا السؤال، لكن...".

"لم أسألها جون".

"أوه...".

"لا أصدق أنك تظن أنني سألتها".

"وكيف أعرف؟". أقصد، بشأن النساء.

قالت لي سوزان: "لكنها رغبت هي في أن تشرح لي سبب مكوثها ليلاً، وأخبرتها أنك شرحتَ لي الموضوع قبلاً".

"جيد. إذاً تمت تسوية الأمر. مجدداً". ألقيت نظرة على ساعتي، وقلت: "لن أتأخر".

"سأذهب معك".

عدنا إلى الداخل، وصعدنا السلالم، ودخلنا إلى غرفة نومنا. نظفنا أسناننا أمام المغسلة نفسها، مثلما فعلنا قبلاً مرات عدة، ورتبت سوزان ماكياجها، فيما غسلتُ أنا آثار آل بيلاروزا عن يديّ ووجهي.

عثرتُ على قميص نظيف مبدئياً في خزانتي القديمة، وارتدت سوزان فستاناً صيفياً أبيض اللون بدا جميلاً مع اسمرار بشرتها.

كنت أظن أن سوزان ستحتاج إلى الكثير من الوقت في استعداداتها، ولكن بعد عشر سنوات من انتظار نساء أخريات، أدركت أن سوزان سريعة نسبياً. إنها صاحبة جمال طبيعي، ولا تقف مطولاً أمام المرآة أو الخزانة. خطر في بالي أنني سأقدّرها أكثر هذه المرة. على الأقل، خلال الأسابيع الأولى القليلة.

جَهُزت قبلي وسألتني: "جاهز؟".

"لا أستطيع العثور على مشطي".

"إنه في سترتك، حيثِ هو دائماً".

تحققت منه وكان فعلاً موجوداً هنا.

نزلنا إلى الأسفل، وغادرنا المنزل، وأعطتني مجموعة من المفاتيح وقالت لي: "هذه لك".

"شكراً".

أقفلتُ الباب الأمامي، ولاحظت ذلك، لكنها لم تعلّق.

استخدمنا سيارة اللكزس خاصتها، وقدتُها أنا. فيما مررنا أمام منزل الحراسة، قالت لي سوزان: "اتصلتُ بسهيلة، من باب اللياقة، وأخبرتها أنك انتقلت للعيش معي".

"هل قالت لك إنك امرأة ساقطة؟".

"لا، جون، تمنّت لي الحظ".

"هذا لطيف. لكن عليّ العودة إلى منزل الحراسة عندما يصل والداك".

"لا. إذا لم يعجبهما الأمر، يمكنهما العثور على مكان آخر".

أجبتها، بخبث، "لا أريد أن أسبب لك أي مشاكل مع والديك".

لم تجب على ذلك وقالت: "أرسلت بريداً إلكترونياً إليهما وإلى الولدين، وأخبرتهم أن إيثيل دخلت في غيبوبة".

"حسناً".

قدت السيارة نحو غرايس لاين، وتوجهت إلى دار عجزة فير هافن.

نقرت سوزان زرّ الأقراص المدمجة، وكان بوبي دارين يغني "خلف البحر".

تابعنا الطريق بصمت، نستمع إلى الموسيقى.

بقي فقط أحد عشر يوماً قبل الانقلاب الصيفي، أطول يوم في السنة، وكانت الشمس لا تزال ساطعة في الأفق، والمشهد الطبيعي الجميل مضاء بنور شمس المغيب، وهبّت نسمة لطيفة نحو ساوند.

لقد كان هذا أفضل الأيام وأسوأ الأيام. لكن عند إجراء مقارنة، يبدو جيداً أكثر مما هو سيئ. إلا إذا كنت طبعاً إيثيل ألارد، أو أنطوني بيلاروزا. لكن بالنسبة إليّ أنا وسوزان، كان يوماً جيداً جداً.

الفصل الخامس والثلاثون

اتصلت سوزان قبلاً بإليزابيت عبر هاتفها الخلوي، وعرفنا أن حالة إيثيل لم تتغير، وحين وصلنا إلى فير هافن، وافتنا إليزابيت إلى ردهة الاستقبال. كانت ترتدي بذلة جميلة من الكتان الأزرق، وقد أتت على الأرجح إلى هنا بالثياب نفسها التي ارتدتها في زيارتها إلى دار العبادة بعدما تلقت الاتصال بشأن أمها.

تبادلنا العناق والقبل، وعبّرنا أنا وسوزان عن حزننا لهذا التحول في الأحداث. بدت إليزابيت متماسكة وفلسفية نوعاً ما بشأن الموت الوشيك لأمها، وأبلغتنا أن الدكتور واترال قال إن إيثيل قد تفارق الحياة على الأرجح خلال الثماني والأربعين ساعة المقبلة.

رأيتُ أن إليزابيت بدت ودودة مع سوزان أكثر مما كانت معي، وبالكاد تحدثت إليّ. حسناً، أفهم ذلك. لقد تشاركنا بعض الوقت الجميل والحميم معاً، وكنا نحن الاثنان روحين وحيدين ظننا ربما أنها بداية لشيء ما. ثم تدخل القدر، مثلما يفعل دائماً، وأعاد رسم الخطوط.

سألتنا إليزابيت: "هل ترغبان في رؤيتها؟".

أجابت سوزان: "طبعاً".

استقللنا المصعد قاصدين غرفة إيثيل حيث جلست ممرضة على كرسي في الزاوية، تقرأ قصة رومنسية. كان جسدُ إيثيل مقيَّدا ببعض الأنابيب الإضافية، لكنها بدت في سلام.

كانت ستائر النافذة مغلقة هذه المرة، وبدت الغرفة مظلمة، باستثناء مصباح قراءة الممرضة والإنارة غير المباشرة فوق سرير إيثيل.

قالت لنا إليزابيت: "يؤكد لي الطبيب أنها لا تشعر بأي ألم، ولذلك تبدو مسالمة جداً".

اقتربت سوزان من سرير إيثيل، وأمسكت بيدها، وانحنت قرب وجهها. همست لها: "فليباركك الله، إيثيل، ولتكن رحلتك الأخيرة سالمة". قبّلت إيثيل على الوجنة وقالت: "شكراً على الشوكولاته الساخنة والحلويات".

أخذتُ نفساً عميقاً، واقتربتُ من سرير إيثيل، وأمسكتُ بيدها، وقلتُ لها: "أبلغي جورج تحياتي حين ترينه". وأوغسطس أيضاً. ثم أبلغتها: "عدنا أنا وسوزان إلى بعضنا مجدداً". عرفتُ أنها في غيبوبة عميقة، لكنني أحسستُ بأنها تضغط على يدي. قبّلتها، وقلت لها: "وداعاً".

حسناً، لم يعد هناك الكثير لقوله بعد ذلك، فخرجنا نحن الثلاثة إلى الرواق وقالت لنا إليزابيت: "شكراً على زيارتكما".

سوزان، التي شعرت ببعض الذنب ربما، أو كانت مدركة من أن إليزابيت لن تترك أبداً أمها، قالت: "نحن ذاهبان لتناول العشاء في سيوانهاكا. لماذا لا تنضمين

إلينا؟".

ابتسمت إليزابيت وأجابت: "هذا لطف كبير منك، لكنني أحتاج إلى البقاء هنا. اتصلتُ ببعض الأشخاص الذين قالوا إنهم سيأتون". ثم نظرت إليّ وأبلغتني: "ستصل أمك قريباً، إذا كنت تريد انتظارها".

لا أريد، ولذلك أجبتها: "أودّ ذلك، لكن أمي لا تلتزم غالباً بالوقت". ثم تذكرت القول: "أرجوك قولي لها إنني آسف لعدم تمكني من رؤيتها".

ظننتُ أن سوزان ستعطيني ملاحظة، لكنها لم تفعل.

لم أعد أريد البقاء هنا لأي وقت إضافي، كي لا أصادف هارييت، أو الأب هانينغس، أو أي شخص آخر لا أريد رؤيته، لكنني رأيتُ أنه يجدر بي إخبار إليزابيت: "لقد تركتُ منزل الحراسة".

أومأت برأسها وقالت: "أعرف".

"هكذا، يمكنك التجوّل في المنزل، وإجراء جميع الترتيبات لنقل الأثاث والأغراض الشخصية. سأطلب من السيد نسيم فترة منطقية من الوقت لإخلاء المكان".

أومأت برأسها مجدداً، ونظرت إليّ وقالت: "شكراً لك. شكراً لك جون على كل ما فعلته".

تسمّرنا في مكاننا قليلاً نتبادل النظرات، ثم أومأت برأسي وأجبتها: "سأهتم بكل الأمور الأخرى الواجب معالجتها، وإذا احتجت إلى أي شيء، اتصلي بي".

أضافت سوزان: "اتصلي بي عبر هاتفي الخلوي أو عبر هاتف المنزل، وسأنقل الرسالة إلى جون. وأرجوك أبلغينا فور وفاة إيثيل".

"سأفعل". ثم نظرت إلينا وقالت: "أنا سعيدة لكما".

كنت واثقاً من أنها غير صادقة، تماماً مثل دعوة سوزان لها للذهاب معنا إلى العشاء.

على أي حال، تعانقنا جميعاً وتبادلنا القبلات مجدداً، وعادت إليزابيت إلى الغرفة لمتابعة رعايتها لوالدتها وهي على فراش الموت، ونزلت وسوزان إلى الأسفل.

في طريقنا إلى مرآب السيارات، سألتني سوزان: "هل أنت أكيد من أنك لا تريد انتظار أمك؟".

أسرعت في خطاي وأجبتها: "سنبقى هنا حتى شروق الشمس". ثم أضفت: "أحتاج إلى كأس".

"حسناً... لكن، أريدك أن تتصل بها وتقول لها إننا عدنا إلى بعضنا مجدداً".

طمأنتها: "سأفعل، لكنها ستتصل بك حينها وتحاول إقناعك بعدم فعل ذلك".

"جون...".

قاطعتها: "كان لطفاً منك دعوة إليزابيت إلى العشاء".

"أنا أستلطفها".

لكنها ما كانت لتستلطفها لو قالت نعم. إلا أنها كانت مبادرة لطيفة، وتتصرف سوزان دائماً بلطافة مع أصدقائها.

علّقت سوزان: "إليزابيت هي واحدة من الرعيل القديم".

أومأت برأسي وفكّرت في كل الأشخاص الذين كنا نعرفهم: منهم من مات ومنهم من انتقل بعيداً، وقلت لها: "نعم، هذا صحيح".

أضافت سوزان: "لم يتبقَّ الكثير منهم، مثلما يتبين لي".

"حسناً، أنا عدت، وأنتِ عدتِ. سنتعرف إلى أصدقاء جدد في الجوار".

"لا أظن ذلك".

أمسكنا بأيدي بعضنا فيما مشينا نحو السيارة. أصبح الحظ بجانبي مجدداً لأننا وصلنا إلى السيارة قبل أن أصادف أي شخص لا أرغب في رؤيته. لكنني عرفت أنني سأراهم جميعاً في دفن إيثيل. عند التفكير في الماضي، كانت سوزان واحدة من بين الأشخاص الذين لا أتطلع إلى رؤيتهم في الدفن. والآن... حسناً، هذا صحيح؛ الحياة هي مفاجأة تلو الأخرى. بعضها سارة، وبعضها الآخر غير سارّة.

وصلنا إلى سنتر آيلند، وهي شبه جزيرة، لكن إذا كنت تعيش في قصر قيمته عشرة ملايين أو عشرون مليون دولار في أويستر باي أو في ساوند، فيمكنك تسميته مثلما تريد.

توجهنا إلى مرآب السيارات أمام نادي يخوت سيوانهاكا الكورنثي، ومثلما توقعت، بدا النادي مثلما كان في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، ومثلما كان تقريباً عند بنائه عام 1892. ويليام سوان، وهو صديق مقرّب من تيدي روزفلت، كان أحد مؤسسي النادي ورئيسه الأول، ولو أبحر في المرفأ اليوم، لتعرّف بسهولة إلى النادي الكبير المؤلف من ثلاثة طوابق، مع حواف بيضاء اللون وستائر سوداء اللون. وإذا لم تتغير الأشياء في أثناء غيابي، فسيشعر بأنه في منزله. إلا أن شروط اللباس تغيرت طبعاً، بالرغم من أن الرجال لا يزالون يرتدون السترات، لكن ربطات العنق لم تعد ضرورية دائماً، وبالنسبة إلى السيدات فعليهنّ ارتداء الثياب المحتشمة، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ الرجال القدامى سيصدمون حين يشاهدون الأجساد نصف عارية.

تأسس النادي فعلياً عام 1871، مما يجعله أحد أقدم نوادي اليخوت الكورنثية في أميركا؛ علماً أن كلمة كورنثي تعني أن أصحاب اليخوت يبحرون ويتسابقون في يخوتهم، من دون مساعدة بحّارة محترفين، وهذه هي روح الكورنثيين الإغريق القدامى الذين كانوا على ما يبدو من أول الأشخاص الذين مارسوا رياضة التسابق للمرح. والواقع أنه من أكثر الرياضيات مرحاً التي عرفتها هنا، عن طريق الصدفة، وكان ذلك في أثناء مشاهدتي لويليام وشارلوت يبحران على متن بومانوك خلال سباق إلى ساوند. أذكر ذلك اليوم تماماً.

سألتني سوزان: "ما الذي يجعلك تضحك؟".

"أنت، حبيبتي".

ركنت السيارة في الحقل المرصوف بالحصى، ولاحظتُ وجود الكثير من السيارات - ومعظمها سيارات رباعية الدفع - في تلك الأمسية الجميلة من يوم الأحد. قالت لي سوزان: "اليوم هو يوم الكلب المالح".

"الكلب المالح" هو حفلة شواء تقام في الحديقة، وبالرغم من أنني لست واثقاً من سبب هذه التسمية، إلاّ أنني لم أتناول أبداً قطع لحم الأضلاع، للحفاظ على سلامتي.

أضافت: "لكنني حجزتُ طاولتنا في غرفة الطعام، كي نكون وحيدين".

"جيد". وفيما مشينا حول النادي، سألتها:"هل نملك يختاً؟".

ابتسمت وأجابت: "لا. أردت فقط الانضمام مجدداً إلى النادي. لأسباب اجتماعية".

يعني ذلك التعرف إلى أشخاص، وأحياناً يكونون رجالاً. ذكّرتها: "في الأيام الماضية، لم تكن النساء العازبات يُقبلن كأعضاء".

"حسناً، الحمد لله أن هذه الأيام انتهت. ماذا كنتم ستفعلون من دوننا؟".

"لا أستطيع أن أتخيل".

وفيما اقتربنا من النادي، فكرت مجدداً في قدومي إلى هنا. فقد طُلب مني في الماضي، بتهذيب، المغادرة من دون توضيح أسباب محددة، علماً أنها قد تشمل إغراق مركبي الخاص، وظهوري علناً على التلفزيون بصفتي محامي سيد المافيا، من دون ذكر قتل زوجتي لسيد المافيا هذا الذي كان عشيقها. من جهة أخرى، أعيد قبول عضوية سوزان، ولا تتردد أبداً في المجيء إلى هنا. لذا، فقد نسي الجميع ربما كل شيء عن فظاظتها. ما الذي أخشاه إذاً؟

"عزيزتي الآنسة بوست. حسناً، لقد عدت إلى زوجتي السابقة - تلك التي قتلت عشيقها سيد المافيا - وتريد اصطحابي إلى العشاء إلى نادي اليخوت الذي كنا عضوين فيه قبلاً. إذا أخذنا في الاعتبار طردنا من النادي بسبب سلوكنا السيئ (هي ارتكبت الزنى والجريمة، وأصبحت أنا محامي مجرم، وأغرقت أيضاً يختي كي لا تستولي عليه الحكومة مقابل الضرائب)، هل تظنّين أن أعضاء النادي سيرحبون بنا من جديد؟ (التوقيع) الذي لا يزال مرتبكاً في لونغ آيلند".

"عزيزي... على أي حال، أفترض أنه أعيد قبول أحدكما أو كلاكما كأعضاء في النادي، فإذا ارتديتما الثياب المناسبة، وتصرفتما بطريقة مناسبة، ودفعتما كل التكاليف المتوجبة، سيُسرّ الأعضاء الآخرون بالتحدث إلى أشخاص مثلكما. ثمة تحذيران: أولاً، لا تثِر أي محادثة عن الجريمة، أو الزنى، أو العمل كمحامي مجرم، أو إغراق المركب. انتظر حتى يثير الآخرون الموضوع. ثانياً، حاول تفادي تكرار أي من الأعمال الإجرامية وغير المقبولة اجتماعياً التي جعلتهم قبلاً

يدوّنون اسمك على اللائحة السوداء. حظاً موفقاً. (التوقيع) إميلي بوست. ملاحظة: تملكان أنتما الاثنان مجموعة من الفرص".

أحسّت سوزان ربما بترددي، لأنها أمسكت يدي وقالت: "جئت إلى هنا مرتين بعد عودتي، ولم أصادف أي مشكلة". ثم ذكّرتني: "لا تملك هيئة العضوية أي مشكلة هنا، أو في الكريك".

لاحظتُ: "تم تغيير المعايير". في الواقع، كان في وسعي الآن إدخال فرانك بيلاروزا إلى نادي الكريك؛ لو لم يكن ميتاً.

دخلنا إلى النادي، واستدرنا إلى اليمين نحو غرفة المشرب مثلما فعلنا قبلاً مرات عدة، وصعدنا إلى المشرب.

لم أتفاجأ حين لاحظتُ أن شيئاً لم يتغير، بما في ذلك النادل، وهو رجل مرح وأصلع الرأس اسمه بينيت، قال لسوزان: "مساء الخير سيدة ساتر". ثم نظر إليّ وقال من دون تردد: "مساء الخير، سيد ساتر".

"مرحباً، بينيت". ترددنا كلانا لثانية، ثم تصافحنا وقال لي: "من الجيد رؤيتك مجدداً".

"وأنا أيضاً. من الجيد العودة إلى هنا".

سألني: "داكن وعاصف؟".

"من فضلك".

ذهب لتحضير كأسين، بالرغم من أنني لا أحب هذا المشروب، لكنه مشروب النادي، و... حسناً، لمَ تغيير الكون؟

أدرتُ ظهري للمشرب ونظرت حولي. تعرفتُ إلى ثنائي قديم يجلس إلى إحدى الطاولات، ولاحظتُ بعض الثنائيين الشباب الذين بدوا مرتبين، بالرغم من أن الرجال لم يرتدوا جميعاً سترات زرقاء اللون وسراويل داكنة. لا أظن أيضاً أن بعضاً منهم يعرف الفرق بين المرفأ والجانب الأيمن من السفينة، لكنني تذكرت أنني كنتُ أجهل هذا في الماضي.

سألتني سوزان: "كيف تشعر؟".

"جيد".

وضع بينيت الكأسين على رف المشرب، ووقّعت سوزان على الفاتورة.

راقبتُ الغرفة مجدداً، ولاحظتُ هذه المرة الكؤوس المعدنية العائدة إلى هيئة السباق مصفوفة في كوّة في الجدار، واسمي محفور على واحدة منها. ثمة جدار آخر عُلّقت عليه مجسمات لسفن قديمة الصنع كما عُلّقت بعض الصور على الجدران الأخرى لأشخاص ماتوا وأصبحوا منسيين منذ زمن، لكنهم خُلّدوا هنا حتى نهاية الزمن، أو على الأقل حتى تستلم النساء هذا المشرب ويتولين تغيير الديكور.

أعطتني سوزان مشروبي، وطرقنا كأسينا، وقالت: "أهلاً بك مجدداً".

لم يكن المشروب الداكن والعاصف سيئاً كثيراً إذا كنت تحب الشراب الداكن وشراب الشعير مع الزنجبيل في الكأس نفسها، لكنني أنا لا أحب.

حملنا كأسينا وانتقلنا إلى الغرفة الكبيرة الأساسية، التي لم تتغير كثيراً، ولا تزال تبدو بحرية جداً وما زالت الأعلام الخاصة بأعضاء النادي متدلية من سقف الغرفة، والخزانة المليئة بجوائز السباقات، بعضها ربحتها أنا.

ثمة عدد من الأشخاص يجلسون أو يقفون في الغرفة الأساسية يتناولون المشروبات، ونظر بعضهم إلينا، ولوّح بعضهم الآخر وبادلناهم التحية، بالرغم من أن أياً منهم لم ينهض عن كرسيه للتحدث معنا. أظن أنهم تفاجأوا عندما رأونا أنا وسوزان معاً، ولم يرغب أي منهم في أن يكون الأول في السؤال: "إذاً، ما كل هذا؟". عرفتُ أنه بعدما نغادر الغرفة، ستبدأ الألسنة بالثرثرة، وقد يتم تفويض أحدهم للتقرب من الثنائي ساتر للاستفهام.

في الواقع، قبل أن نصل إلى الأبواب المؤدية إلى المصطبة، ظهرت امرأة أمامنا، واحتجتُ إلى ثانية للتعرف إلى السيدة ألثيا غوين، إحدى كبار السيدات من الرعيل القديم، والتي أذكر أنها كانت تعتبر نفسها حكَمَ التصرفات الجيدة والسلوك المقبول. زوجها، دوايت، مثلما أذكر، كان رجلاً محترماً عانى من سكتة دماغية، أو تظاهر بذلك، بحيث توقف عن التحدث إليها.

على أي حال، ابتسمت السيدة غوين لي ولسوزان، وقالت لي: "سمعتُ أنك عدتَ جون".

"نعم".

"كم هذا رائع. وأين تعيش؟".

"في المنزل".

"أفهم...".

أبلغتها سوزان: "لقد عدنا أنا وجون معاً".

"هذا رائع. أنا سعيدة لأجلكما".

نظرت إليّ السيدة غوين وقالت: "آخر مرة رأيتك فيها، جون - قبل عشر سنوات من الآن - كنت أنت وسوزان تتناولان العشاء في الكريك مع... ثنائي آخر أعتقد أنهما كانا جديدين في المنطقة".

"أوه، نعم، أذكر ذلك. أعتقد أنه كان السيد فرانك بيلاروزا وزوجته، آنا، اللذين كانا يعيشان قبلاً في بروكلين".

بدت السيدة غوين متفاجئة قليلاً لفظاظتي؛ كان يفترض بي القول فقط، "هل مضى كل هذا الوقت؟".

قالت لي سوزان: "كانا فرانك وآنا، حبيبي. أذكر ذلك".

أجبتُ سوزان: "هذا صحيح. كنا نرحب بهما في الجوار". ثم أضفت: "لكنهما لم يبقيا طويلاً".

لم تعرف السيدة غوين ما يجدر بها قوله، ولذلك قالت: "اعذراني"، ومشت بعيداً.

شبكت سوزان ذراعها في ذراعي، وتابعنا المشي في الغرفة. قالت لي: "من اللطيف أن تلقي علينا ألثيا التحية".

"إنها امرأة رائعة".

"هيا، هيا، جون. كانت فقط تقول إنه مضت عشر سنوات منذ أن رأتك".

"صحيح. كنا نتناول العشاء في الكريك مع... مع من؟".

"آل بيلاروزا، حبيبي. كانا يعيشان قبلاً في بروكلين".

ضحكنا كلانا.

حسناً، الأمر ممتع قليلاً، وكانت السيدة غوين واحدة من سلالة منقرضة، وليست مهمة جداً مثلما تعتقد. لكن في عالمها، فعلت ما يجدر بها فعله. وأنا كنت مرعوباً من ازدرائها وتبجحها، خصوصاً أن سوزان من آل ستانهوب.

على أي حال، بدّلت سوزان الموضوع وقالت: "احتفظ بعلمك، وحين نشتري مركباً، سنعلقه مجدداً فوق السارية".

تساءلتُ عما حلّ بعلم مركبي. كنت أعرف ماذا حلّ بمركبي، ولذلك قلتُ: "لست أكيداً من وضعي هنا".

فكّرت في ذلك وأجابت: "يُسمح لك بإغراق مركب واحد كل عشر سنوات".

ابتسمتُ، ثم تساءلتُ عن عدد العشاق الذين يُسمح لها بقتلهم قبل أن تختفي إلى الأبد. صفعتُ نفسي، صورياً، على وجهي لتفكيري في ذلك.

أضافت سوزان: "حين نتزوج، تعاد إليك عضوية النادي وسأشتري قارباً جميلاً طوله أربعون قدماً بحيث نبحر فيه إلى الكاريبي لتمضية شهر العسل".

قلت لها: "تتحسن الأمور كثيراً"، لكنني تساءلتُ ما إذا استوعبت بأن منحتها المالية ستكون في خطر شديد نتيجة قرارنا الزواج مجدداً.

خرجنا إلى المصطبة الطويلة والكبيرة، ووجدنا كرسيين، وجلسنا مقابل الخليج.

إنها الساعة السابعة مساء، وكانت الشمس تغيب فوق المنطقة الجنوبية الغربية. وفي آخر المصطبة، الممتدة نزولاً حتى الماء، كان العلم الأميركي يرفرف بفعل نسمة جنوبية ناعمة، وكانت حفلة الشواء في أوجها. لاحظت العديد من الأزواج الشباب والأولاد؛ أكثر مما أذكر في الماضي. إنهم جماعة القصور.

عندما كنا أنا وسوزان، مراهقين يافعين، كنا نأتي إلى هنا برفقة أهلنا، الذين كانوا أعضاء، لكن آل ستانهوب وآل ساتر لم يتعارفوا منذ ذلك الحين، ولا نذكر أنا وسوزان أننا قد التقِينا، وإذا كنا قد فعلنا، فإننا لا نذكر ذلك.

كان أبي يملك يختاً جميلاً طوله سبع عشرة قدماً، وعلمني كيف أبحر، وهذه إحدى أجمل ذكرياتي معه.

ويليام، حماي السابق والمستقبلي، لم يكن يملك فعلياً مركباً. لم يكن يعرف كيف يبحر، لكنه امتلك عدداً من اليخوت القوية، بالرغم من أنه لا يسمح بإبقاء اليخوت الكبيرة هنا في النادي. كانت عضوية ويليام وشارلوت في نادي سيوانهاكا الكورنثي اجتماعية بمعظمها، وهذه مهارة أخرى لم يكن يجيدها.

نظرتُ إلى الأرصفة الثلاثة في النادي، والتي كانت تتوغل مسافة مئة قدم تقريباً في الخليج. كان رصيف نادي الصغار مزدحماً بالمراهقين، الإناث والذكور منهم، السعداء بالابتعاد عن أهلهم والمنخرطين على ما يبدو في ممارسة طقوس ما قبل الزواج. أذكر أنني كنت أفعل الشيء نفسه حين كنت شاباً، وأذكر أيضاً أن الشبان، وحتى بعض الفتيات، كانوا يمرحون بخشونة على الرصيف، وينتهي شخص ما عادة في الماء. سألت سوزان: "هل رماك أحدهم في الماء؟".

"مرة على الأقل كل أسبوع. ذاك الشاب جايمس نيلسون كان يظهر عاطفته المراهقة لي برميي من الرصيف".

"كان يجدر بك الزواج به".

"كان يجدر، لكنني شككت في أنه لن ينضج أبداً". ثم سألتني: "هل رميتَ أنت فتيات من الرصيف؟".

"ربما".

سألتني: "وهل رماك أحدهم من الرصيف؟".

"فقط أمي، وفقط حينما كانت تعثر على مرساة لربطها حول كاحلي".

"جون، لا تكن مريعاً".

شبكنا أيدينا، ونظرت جنوباً عبر الماء. رأيت أنوار قرية أويستر باي، حيث كدت أحصل على مهنة جديدة، وتساءلتُ ما إذا كان أنطوني سيستمر في شراء ذلك المبنى. انزعجت طبعاً لأن هذا الرجل، الذي كانت ثروته مرتبطة عن كثب بالنشاط الإجرامي، يملك الكثير من المال. كنت أشعر بالشيء نفسه تقريباً حيال والده. لكنني ذكّرت نفسي بأن مثل هؤلاء الأشخاص لا ينامون في الليل. وإذا فعلوا، فإن ساعات الاستيقاظ عندهم تكون مليئة بالرعب والقلق. وينتهون عادة في قبضة القانون أو الرصاصة، في الواقع، تمنيت أن يقع أنطوني في قبضة الرصاصة قريباً.

قالت سوزان: "المكان جميل جداً هنا".

"نعم". كان نور الشمس يتلألأ فوق الماء، وأبحرت عشرات المراكب واليخوت في عرض الخليج، فيما سبحت الغيوم البيضاء ببطء في السماء الزرقاء. نظرت إلى الجنوب الشرقي باتجاه كوف نيك، حيث منزل تيدي روزفلت، ساغامور هيل، وقد أصبح الآن موقعاً وطنياً تاريخياً، وحيث لا يزال بعض من آل روزفلت

يعيشون هناك، بمن فيهم أصدقاء قدامى لنا، ولذلك سألت سوزان: "هل بقيت على اتصال مع جيم وسالي؟".

أجابت: "فعلت ذلك طوال سنوات عدة، لكنهما انتقلا إلى سان دييغو".

"وماذا يفعلان في المكسيك؟".

"في كارولينا الجنوبية. توقف عن كونك متعجرفاً من الشاطئ الشرقي".

"انظروا من يتكلم".

"لديّ عذر. أنا ولدتُ متكبّرة. عليك تلقي الدروس في ذلك".

"فهمت".

قالت: "يجدر بنا الدخول".

"دعينا نلغي العشاء ونجلس هنا".

"حسناً. سأعود".

وقفت سوزان ودخلت إلى النادي. شاهدتُ مركباً طوله أربعون قدماً يتجه نحونا، وهو مبحر بكل سرعته باتجاه النسمة الجنوبية، وكدت أحسّ بمقبض دفة المركب بين يديّ وأسفل الصاري تحت قدميّ.

عادت سوزان وقالت: "سيكتفي آل ساتر بالشراب الليلة".

"آل ساتر هم من الأشخاص الذين أفضلهم".

جلسنا نحدق إلى المياه المتلألئة والأرض المنبسطة عبر الخليج، والسماء، والمراكب، التي أضاءت الآن مصابيحها، متجهة إلى المراسي مع حلول الظلام.

نظرتُ إلى الجهة الشرقية وقلتُ لها: "هناك التقينا. تماماً حيث نُصبت خيمة الزفاف".

قالت لي: "لطف منك أن تتذكر ذلك. لكن أظن أن المكان كان أقرب إلى المصطبة هنا. كنت خارجة من النادي وكنت أنت داخلاً".

"هذا صحيح. أردتُ الذهاب إلى الحمام".

"كم هذا رومنسي".

"حسناً... على أي حال، رأيتك، في الواقع كنت قد رأيتك قبلاً، وحاولت أن أعرف إذا ما كنت بصحبة أحدهم، أو إذا ما كان أحدهم يعرف من تكونين. حسناً، أعتقد أنني قلت لك هذا".

"أخبرني مجدداً".

هكذا، سردتُ قصة مطاردتي خلسة لها، واكتشافي أنها لا تواعد أحدهم، وأنها من آل ستانهوب، وثرية جداً، وهذا لم يعنِ طبعاً أي شيء بالنسبة إليّ لأنني كنت مفتوناً جداً بجمالها وثقتها الواضحة وما إلى ذلك. كان يجدر بأحدهم إخباري أن

أهلها مريعون، لكنني لم أكن أبحث عن الزواج. كنت أبحث عن... حسناً، الحميمية القصوى.

على أي حال، حصلتُ على ذلك، وعلى الزواج أيضاً، وعلى أهلها كعقاب لي بسبب نواياي الأساسية غير الشريفة.

قلت لسوزان: "عند التفكير مجدداً في الأمر، العبارة التي استخدمتها كانت إيحاء ذات مصدر خارجي عظيم".

"وما كانت تلك العبارة، جون؟".

"تذكرين. قلت، في ما يتعلق بالعروس... ما كان اسمها...؟ على أي حال، قلتُ إنها ضيفة في زفافها. هل تذكرين؟".

بقيت سوزان صامتة لثانية، ثم قالت لي: "كانت هذه المرة الثالثة التي أسمع فيها تلك العبارة في تلك الليلة".

"لا".

"وأقسم أن الرجل الثاني الذي قال هذا لي، أخبرته أنه مغفل".

"حقاً؟".

"حقاً. وكان هذا أنت".

"حسناً... ظننتُ أن الأمر مضحك. وأنت ضحكتِ".

"ضحكتُ. وهكذا عرفتُ أنك مميز".

"أنا مسرور لأنك ضحكت. كنت أول امرأة تضحك تلك الليلة".

جاءت النادلة تحمل كأسين جديدتين من المشروب، وطبق من المازة النيئة، وطبق من القريدس أظن أن سوزان طلبتهما.

هكذا، جلسنا هناك، نشرب ونتحدث ونشاهد مغيب الشمس.

عند مغيب الشمس، تم عزف النشيد وضرب المدفع، ووقف الجميع بصمت، ينظرون إلى العلم الذي تم إنزاله.

طوى الحارس العلم وحمله بعيداً، وقالت لي سوزان: "تذكر هذا اليوم".

"إلى أن أموت".

"وأنا أيضاً".

الفصل السادس والثلاثون

استيقظنا أنا وسوزان في السرير نفسه، واحتجنا إلى بعض الدقائق للتكيف مع وضعية النوم هذه بعد عشر سنوات. لحسن الحظ أنني لم أنادِها باسم امرأة أخرى، ولفظت هي اسمي من المرة الأولى، لكن الأمر كان محيراً قليلاً في السادسة صباحاً.

لكن بعد نصف ساعة، عدنا إلى الروتين الصباحي القديم، وارتدينا ثيابنا ونزلنا إلى الأسفل.

بعد تناول فطور دسم مؤلف من اللبن والغرانولا وكبسولات زيت السمك، أعلنتُ لها: "سنذهب إلى مركز الشرطة، وستتقدمين بشكوى".

لم تجب، ولذلك وقفت وقلتُ: "فلنفعل ذلك الآن".

بقيت جالسة وأجابت: "لم يهددني فعلياً".

"بلى فعل".

رمقتني بنظرة سريعة ثم وقفت وحملت حقيبة يدها. ارتديت سترتي الزرقاء وغادرنا المنزل وصعدنا إلى سيارة اللكزس خاصتها.

توجهتُ جنوباً نحو مركز الشرطة في مقاطعة ناسو، التي تبعد مسافة نصف ساعة تقريباً عن ستانهوب هال.

قبل عشر سنوات، تلقى التحريون في هذا المركز تقرير الأف بي آي حول عملية إطلاق نار في الحمرا، وأعتقد أنه لا يزال هناك أشخاص يذكرون الحادثة. وكيف يستطيعون أن ينسوا؟ هكذا، حصلنا على الانتباه الذي نحتاج إليه، بالرغم من أنه لم يكن ربما الانتباه الذي نريده لأن الأف بي آي سرقت القضية من الولاية، ومنحت وزارة العدل الأميركية عفواً لسوزان على ارتكابها الجريمة.

حسناً، قد يكون رجال الشرطة نسوا الحادثة الآن، وقد تعطيهم هذه الشكوى فرصة لطرح أسئلة عن السيد أنطوني بيلاروزا، وريث إمبراطورية والده الشريرة.

على أي حال، كان يوماً جميلاً ومشمساً، ولو لم تكن هذه الغيمة تحوم فوقنا، لكان مستقبلنا ساطعاً مثل السماء.

رمقت سوزان بنظرة سريعة، ولاحظتُ أنها شاردة. قلتُ لها: "لن يكون هذا لطيفاً، لكن بصفتي محاميك وزوجك السابق، أشعر بأنه تحذير ضروري".

لم تجب. ظنّت ربما أنني أعيد فتح الماضي أمامها، لكنني لم أكن أفعل ذلك. كنت أستدرك عواقب ما فعلته قبل عشر سنوات، وعليها هي أيضاً مواجهة ذلك.

أعطيتها لمحة موجزة عما يمكن توقعه، وعما يجب قوله، لكنها لم تكن تصغي إليّ على ما يبدو. أنا لم يكن لديّ الكثير من الخبرة في التقدم بشكوى إلى

الشرطة، ولذلك لم أكن واثقاً تماماً مما قد يحصل، ولكن بصفتي محامياً، أستطيع أن أتصور ما قد يحصل هناك.

وضعت سوزان قرصاً مدمجاً في مشغل الأقراص وتابعنا السير، ونحن نستمع إلى واغنر يصدح من عشرات مكبّرات الصوت.

اقتربنا من قرية وودبوري، ورأيت لافتة لمركز الشرطة. استدرت إلى اليمين، ثم إلى اليسار للتوقف في مرآب للسيارات مخصص للزوار، وأخفضت صوت ريتشارد واغنر في مشغل الأقراص، وقلت لسوزان: "قد يستغرق ذلك ساعة أو أكثر. ثم ننتهي".

سألتني: "هل ستذهب الشرطة لمحادثته؟".

أجبتها: "نعم".

لم تكن سعيدة بذلك، ولذلك قلت لها: "إنه مجرد إجراء روتيني. لتنبيهه". لكن الحقيقة هي أن رجال التحري الذين سيتسلمون هذه القضية سينتهزون الفرصة، مثلما قلت، لإزعاج أنطوني بيلاروزا، والأهم من ذلك، توجيه تحذير واضح له، وإبلاغه من أنه تحت المراقبة. وإذا حالفنا الحظ فعلاً، يقول شيئاً يدينه، ويكون للشرطة سبب لتوقيفه. لكن حتى لو لم تعتقله الشرطة، سيكون أنطوني رجلاً منبوذاً، وهذا هو ربما سبب قلق سوزان. حسناً، إنه أصلاً رجل منبوذ، ويحتاج الآن إلى وضعه تحت الأضواء.

خرجنا من السيارة وتوجهنا نحو المدخل الأمامي. كان مركز الشرطة مؤلفاً من طابق واحد مع أسلوب بناء مستعمري وزخارف خشبية وستائر بيضاء، مما ذكّرني بمطعم البوظة "فراندلي" الذي مررنا أمامه للتو. دخلنا عبر الباب الأمامي ووصلنا إلى ردهة تؤدي إلى قاعة استقبال عامة.

ثمة مكتب طويل في الجانب البعيد من الغرفة، يتولاه شرطيان يرتديان البذلات الرسمية. فيما اقتربنا، رمق الشرطي الأصغر سناً، والذي كتب على شارة بذلته اسم أندرسون، سوزان بعينه ثم حوّل انتباهه نحوي وسألني: "كيف أستطيع مساعدتك؟".

قلت له: "نحن هنا للتقدم بشكوى".

"حسناً. أي نوع من الشكاوى؟".

أجبته: "تهديد جسدي موجه ضد هذه المرأة".

نظر إلى سوزان مجدداً وسألها: "ومن هو مصدر التهديد؟".

أجابت: "جار لنا".

توسعت في هذا الموضوع وقلت: "الجار هو رجل اسمه أنطوني بيلاروزا، قد يكون منخرطاً في الجريمة المنظمة".

"حقاً؟ وكيف تعرف ذلك؟".

يبدو أن الشرطي أندرسون يعرف هذا الاسم، وعرفتُ أن أنطوني بيلاروزا يحاول الحفاظ على السرية في تحركاته، ولذلك أجبته: "إنه ابن فرانك بيلاروزا".

بدا أن الشرطي الشاب لم يتعرف إلى الاسم وقال: "حسناً. ومن أنت؟".

"أنا محامي هذه السيدة".

بدا أن هذا لفت انتباهه، فقيّم الوضع، وثيابنا ولكنتنا، واستنتج ربما أن القضية قد تكون مثيرة. لكن الإثارة ليست من اختصاص قسمه، فاستدار وسأل الضابط الأعلى رتبة منه الجالس على المكتب خلفه: "هاي، أيها الملازم، هل سمعتَ يوماً برجل اسمه أنطوني بيلاروزا؟".

حوّل الملازم نظره عن الكمبيوتر، ونظر إليّ وإلى سوزان، وأجاب أندرسون: "نعم، لماذا؟".

أبلغه الشرطي أندرسون: "هذه المرأة جارته، وتقول إنه يشكل خطراً كبيراً عليها".

وقف الملازم واقترب من المكتب وسألني: "هل هذه زوجتك سيدي؟".

"ستصبح قريباً. اسمي جون ساتر، وهذه سوزان ساتر وأنا محاميها". وكي لا يظن أنني سأتزوج بأختي، شرحتُ له: "كنا متزوجين قبلاً".

"حسناً". ثم قال للشرطي أندرسون: "أدخلهما إلى غرفة الاستجواب وافتح تقرير قضية".

عثر الشرطي أندرسون على بعض الاستمارات خلف المكتب ثم تقدم نحونا ورافقنا إلى غرفة صغيرة إلى اليمين. قال: "اجلسا، ولنتحدث عما حصل".

بدأ بملء استمارة شرطة، تستخدم على ما يبدو لاستهلال أي نوع من الحوادث قد يلفت انتباه وكالة مسؤولة عن الأمن. سألنا الشرطي أندرسون عن اسمينا، وعنواننا، ومعلومات ذات صلة للتعريف بسوزان بصفتها مقدمة الشكوى في هذا التقرير، ثم طلب شرحاً موجزاً عما حصل، بما في ذلك هوية الأفرقاء المشتركين في القضية. توليت أنا معظم، إن لم يكن كل، الكلام نيابة عن موكلتي.

بعد إنهاء كتابة هذا التقرير، بدأ الشرطي أندرسون يستمع إلى إفادتينا ويدوّن أقوالنا في استمارة أخرى متعلقة بشكوانا ضد أنطوني بيلاروزا والتفاصيل الدقيقة للشكوى. ومرة جديدة، كنت أنا الناطق الرسمي باسم سوزان، وذكرت المحادثة التي دارت بيني وبين أنطوني بيلاروزا، ولا سيما العبارات التي قالها والمتعلقة بسلامة سوزان. حين انتهى الشرطي أندرسون من الكتابة، سلّمني الاستمارة، استمارة رقم 32أ، فقرأتها ثم أعطيتها لسوزان، وناولتها قلمي، وقلت لها: "وقعي هنا".

وقّعت من دون النظر إليها، مثلما تفعل دائماً. فهي لم تقرأ حتى اتفاق ما قبل الزواج الذي أعدّه محامو والدها. ولِمَ يجدر بها إزعاج نفسها بعد قراءة السطر الأول القائل "لا يحق للزوج الاحتفاظ بأي شيء باستثناء القلم الذي استعمله لتوقيع هذا الاتفاق".

حمل الشرطي أندرسون الاستمارات ووقف، وطلب منا الانتظار في الغرفة فيما استفسر عن وجود تحر يهتم بالتحقيقات ويمكنه أن يستمع إلى إفادة مسهبة منا عند اللزوم. حين غادر الغرفة، نصحتُ سوزان: "إذا أجرى معك شخص آخر مقابلة، أرجوك حاولي إظهار بعض الاهتمام بذلك".

هزّت كتفها.

بعد دقائق قليلة، دخل الغرفة رجل مدني يحمل التقرير في يده وعرّف عن نفسه بأنه التحري أ. ج. ناستاسي، وتصافحنا جميعاً.

كان التحري ناستاسي رجلاً ذكي المظهر، وكان في الأربعينيات، وهو بالتالي كبير كفاية لتذكر الحادثة الأساسية التي أحضرتنا إلى هنا. كان يرتدي بذلة مخططة وأنيقة جداً تلائم شركتي القانونية القديمة. بدا أنه رجل قليل الكلام - نوع التحري الصامت وكثير التفكير - وأنا واثق من أنه قرأ كل شيء عن الشكوى.

ألقى التحري ناستاسي نظرة على التقرير وقال لسوزان: "إذاً، هددك أنطوني بيلاروزا".

أجابت: "لا".

"حسناً... لكنك تظنين أنه قد يشكل خطراً عليك".

أجابت: "لست واثقة تماماً".

لم يكن التحري ناستاسي واثقاً أيضاً، ولذلك قلتُ له: "حضرة التحري، أنا هو الشخص الذي سمع ما أعتقد أنه تهديدات صادرة عن أنطوني بيلاروزا، وموجهة نحو السيدة ساتر، وأنا مستعد لتزويدك بتقرير حول هذا الموضوع".

"جيد. اتبعني من فضلك".

لحقنا أنا وسوزان بالتحري ناستاسي إلى القاعة المفتوحة، ثم نزلنا الدرج وصولاً إلى غرفة التحريات، التي كانت تضجّ بالنشاط - مدنيون يتم استجوابهم أو يقدمون إفادات للتحريين، وهواتف ترنّ.

عبرنا غرفة التحريات، وفتح التحري ناستاسي باباً كُتب عليه: الملازم التحري باتريك كونواي؛ الضابط المسؤول.

أدخلنا التحري ناستاسي إلى المكتب الهادئ، الذي لا يشغله أحد. قال: "يمكننا استخدام هذه الغرفة. إنها أكثر خصوصية".

يبدو أننا لفتنا انتباه شخص ما، أو أن أنطوني بيلاروزا فعل ذلك.

جلس التحري ناستاسي خلف مكتب الضابط المسؤول، وجلسنا نحن على الكرسيين المقابلين. نقر أزرار الكمبيوتر لبرهة، وقرأ ما ظهر على الشاشة، ثم قال: "لإبلاغكما فقط، لم يتم الحكم أبداً على أنطوني بيلاروزا بأي جرم، ولم تقدم ضده أي شكوى من أي نوع". نظر إلينا وقال: "لكن كي أكون صريحاً، هو ليس من نوع الرجال الذي يتقدم أي كان بشكوى ضده". نظر إلى سوزان وأضاف:

"فإذا أصررت على تقديم هذه الشكوى، عليك أن تفهمي أننا سنزوره، ونناقش معه ما ذكرته في الشكوى. مفهوم؟".

أجبته: "لهذا السبب، نحن هنا".

استمر في النظر إلى سوزان وقال: "مفهوم؟".

لم تجب، وتراجع ناستاسي في كرسيه وسأل: "هل تريدين سحب هذه الشكوى؟".

أجبت: "بصفتي محاميها، لا تريد".

تابع النظر إلى سوزان، مقيماً الوضع، لكن بما أنه لم يحصل على أي إجابة، عاد إلى كمبيوتره وبدأ ينقر أزرار لوحة المفاتيح.

بدأت أنزعج قليلاً من سكوتها. فكل ما أحاول فعله هو إنقاذ حياتها، وأقل ما يمكنها فعله هو التعاون.

فيما استمر التحري ناستاسي في الطباعة، تساءلتُ ما إذا كانت الشرطة قد أحضرتها إلى هنا قبل عشر سنوات بعدما اقتادوها من الحمرا مكبّلة اليدين. لكنهم اقتادوها على الأرجح مباشرة إلى قسم الجنايات في المركز الرئيسي للشرطة في مانيولا. وبالرغم من أن جميع غرف مركز شرطة متشابهة من الداخل، قد تكون رأيتها كلها، أردت أن أكون حساساً حيال ما تشعر به الآن، والذكريات السيئة التي تستعيدها. لكنني أردت أن أكون قاسياً معها كي لا يتحول هذا التهديد المحتمل إلى حقيقة. ولسوء الحظ، لطالما كانت الحقيقة مشكلة مع سوزان. لذا، قلت لها لإيقاظها: "حسناً. فلنذهب". وقفتُ وقلتُ للتحري ناستاسي: "علينا التفكير في ذلك. في غضون ذلك، نريد سحب الشكوى". استدرتُ نحو سوزان وقلتُ مجدداً: "فلنذهب".

همّت بالنهوض، ورمقتني بنظرة سريعة، ثم جلست مجدداً على الكرسي وقالت: "دعنا ننهي هذا".

بدا أن هذا التصرف جعل التحري ناستاسي سعيداً، وأعتقد أنه فهم وقدّر تصرفي. قال لسوزان: "أظن أنك تتخذين القرار الصحيح، سيدة ساتر. دعينا نقلق نحن بشأن ذلك، كي لا تقلقي أنت".

أبلغته: "لست قلقة".

"حسناً". نظر إليّ وقال: "لكنك قلق".

"نعم".

"جيد. أخبرني عن سبب قلقك".

أجبته: "حضرة التحري، مثلما قلتُ لك، أنا الوحيد الذي سمع ما أعتقد أنها تهديدات حقيقية صادرة من أنطوني بيلاروزا وموجهة نحو السيدة ساتر. السيدة ساتر هي زوجتي السابقة، ولأؤكد لك حقيقة مخاوفي من أن هذه التهديدات حقيقية...".

"جيد. أعرف كل ذلك. كنت هناك تلك الليلة".

نظرتُ إليه، وبدا مألوفاً، لكن كان هناك الكثير من رجال التحري، وعملاء الأف بي آي واختصاصيي الأدلة الجنائية في الحمرا تلك الليلة. ولكن كي ألفت انتباه التحري ناستاسي، قلتُ له: "نعم، أذكرك".

قال لي: "وأنا أذكرك". ثم نظر إلى سوزان وقال لها: "وأنتِ أيضاً". سألها: "هل غادرتِ هذه الولاية؟".

أجابت: "نعم".

"وقد عدتِ الآن" - نقر على استمارة الشكوى - "إلى هذا العنوان؟".

"نعم".

قال: "والسيد بيلاروزا موجود في عنوان والده القديم".

أجبته: "نوعاً ما". شرحتُ له التقسيمات العقارية من دون أن أبدو متحيزاً حيال الفيلات التي تساوي ملايين الدولارات.

أعاد التحري ناستاسي قراءة ما ظهر على شاشة الكمبيوتر فيما كنت أتحدث. ثم قال لي: "لم يتم حلّ تلك القضية أبداً في محكمة الولاية".

افترضت أنه كان يتحدث عن تهمة القتل الموجهة ضد سوزان ساتر، ولذلك أجبت: "تم حلّها في المحكمة الفدرالية". ثم أضفت: "الـ... الضحية كان شاهداً حكومياً".

أومأ التحري ناستاسي برأسه، ثم نظر إلى سوزان، وقال لي: "لم أكن راضياً جداً عن ذلك، لكن، حسناً، تمت تسوية القضية، وعلينا التحدث عما يحصل الآن بسبب ما حصل حينها".

ألقيتُ نظرة على سوزان، التي انسحبت إلى مكان أسميه أرض سوزان، ولم تكن على ما يبدو منزعجة أو غاضبة من اقتراح التحري ناستاسي، أو حتى نادمة على الجريمة، أو خجولة من خرق القانون.

لإعادة الأمور إلى مسارها مجدداً، قلتُ مجدداً للتحري ناستاسي: "أنا مستعد لإعطائك إفادتي الآن".

قال لي: "نسمع الإفادة عادة من صاحب الشكوى أولاً، لكن... سآخذ إفادتك أولاً". حرّك كرسيه صوب لوحة المفاتيح وقال: "أنا أطبع بسرعة، ولكن خذ نفساً بين الحين والآخر".

ذكّرته: "أنا محامٍ".

"حسناً أيها المستشار. أنا جاهز حين تصبح جاهزاً".

بعد التعريف بنفسي، وأين أعيش، وما إلى ذلك، بدأت إفادتي بذكر جريمة مقتل فرانك بيلاروزا قبل عشر سنوات، وذكرتُ من ثم أنني عشتُ في لندن خلال

السنوات السبع الماضية، لكنني ما زلت عضواً في نقابة محامي نيويورك. كان التحري ناستاسي يطبع الكلمات فيما أنا أتكلم.

ذكرتُ من ثم تلك الليلة التي قام فيها السيد أنطوني بيلاروزا بزيارة مفاجئة لي في منزل الحراسة حيث كنت أعيش مؤقتاً، ومن دون الدخول في تفاصيل كل ما قلناه تلك الليلة، تطرقت مباشرة إلى جوهر المسألة، واستذكرتُ حديثي مع السيد بيلاروزا في ما يتعلق بزوجتي السابقة، سوزان ساتر.

استمر التحري ناستاسي في الطباعة، مقدراً سردي الواضح والواقعي، وكذلك لغتي الجيدة ولفظي الجيد.

سوزان، التي كانت تسمع بعضاً من هذا للمرة الأولى، لم تبدِ أي انفعالات، وإنما جلست تحدق إلى الفضاء.

أخبرته من ثم عن دعوة العشاء برفقة السيد بيلاروزا في مطعم وونغ لي، وذكرتُ عرضه لي بأن أنضم إلى محاميه.

ألقى التحري ناستاسي نظرة عليّ للمرة الأولى، ثم تابع الطباعة.

لا شك في أنني أجيد الإدلاء بالشهادة، بالرغم مما قد يظنه اثنان من زبائني المحتجزين، والتزمتُ بالحقائق المرتبطة بموضوع الشكوى؛ وحذفتُ كل الحقائق التي قد يتم فهمها على أننا أنا وأنطوني تفاوضنا على عرض عمل.

تابعت الكلام عن اللقاء الصدفة الذي تم بيني وبين السيد بيلاروزا حين كنت أمارس هواية الركض في غرايس لاين، ومرافقتي له وسائقه في سيارته إلى أويستر باي، وزيارتنا إلى المبنى الذي كان يفكر السيد بيلاروزا في شرائه، ومحاولاته الإضافية في إقناعي بالعمل لديه.

بعض من هذا الكلام لم يكن على صلة مباشرة بموضوع التهديدات، لكنني لاحظتُ أن التحري ناستاسي احتار من كل ذلك. وسوزان بدأت تتزعج قليلاً، ربما بسبب علاقتي مع ابن عشيقها الميت. وكدتُ أسمعها تقول: "هل أنت مجنون؟".

شرحتُ في الإفادة أنه ساورتني مشاعر سلبية حيال اهتمامات السيد بيلاروزا بي، لكنني كنت قلقاً على سلامة سوزان، ولذلك رأيت أنه من الجيد الاستمرار في هذه المحادثات مع السيد بيلاروزا لأتمكن من تحديد مستوى الخطر، وتحديد أيضاً مسار تحركي التالي.

قاطعني التحري ناستاسي للمرة الأولى: "قررتَ أنت والسيدة ساتر في هذا الوقت الزواج مجدداً".

أجبته: "لا".

"حسناً، لكنكما كنتما تتحدثان عن ذلك؟".

أجبته: "لم نكن نتحدث على الإطلاق. لم نتحدث مع بعضنا منذ ثلاث سنوات".

قالت سوزان: "أربع".

“صحيح. أربع”. أنا مسرور لأنها تصغي.

أومأ التحري ناستاسي برأسه ثم سألني: “إذاً، لمَ كنت تزعج نفسك بالدخول في هذه المشاكل؟”.

رمقت سوزان بنظرة وأجبت التحري ناستاسي: “أنا... ما زال لديّ مشاعر إيجابية حيالها، وهي أم ولديّ”. بالإضافة إلى ذلك، لم أكن أدفع نفقة الزوجة المطلقة، وبالتالي لا أملك سبباً وجيهاً لرغبتي في أن تموت.

ساد صمت في الغرفة، فتابعت: “ولأننا لم نكن على علاقة رومنسية، لم يكن قلقي من نوايا السيد بيلاروزا حيال السيدة ساتر عاطفيًّا. الآن، تغير الوضع بيني وبين السيدة ساتر، وأصبحت قادراً على مناقشة هذه المسألة معها، ولذلك قررنا المجيء إلى هنا بمثابة تحذير”.

أومأ ناستاسي برأسه، متسائلاً ربما عن الدوامة التي أضعه فيها هو وسوزان. قال لي: “أظن أنني فهمتُ سبب تحدثك مع السيد بيلاروزا، سيد ساتر”. ثم أضاف: “لكن ليس جيداً التحدث عن فرص عمل مع رجل قد يكون متورطاً في جريمة منظمة”.

“شكراً لك على النصيحة أيها التحري. ولكن مثلما قلت أنت، سجله نظيف مثل سجلك أنت حسبما أفترض”.

ابتسم التحري ناستاسي للمرة الأولى، ثم عاد إلى لوحة المفاتيح وقال: “تابع أرجوك”.

ختمتُ بالتحدث عن زيارتي إلى منزل بيلاروزا لتناول غداء الأحد، وذكرتُ أنه في هذا الوقت كنا أنا والسيدة ساتر قد عدنا إلى بعضنا، وأنها نصحتني بعدم فعل ذلك. ذكرتُ أيضاً أن السيد سالفاتور داليسيو، الملقب بسالي دادا كان موجوداً هناك لفترة وجيزة.

سألني التحري ناستاسي: “وهل التقيتَ به قبلاً؟”.

“نعم، قبل عشرة أعوام حين كنت أنجز بعض الأعمال القانونية لفرانك بيلاروزا”.

“صحيح. كنت تتناول غداء الأحد مع رجال سيئين جداً، سيد ساتر”.

“في الواقع لم أبقَ حتى الغداء”.

“جيد”. توقف عن الطباعة، وفهمتُ أنه يفكر في شيء ما، ثم قال لي: “هاي، لقد كنتَ موجوداً يوم حدثت تلك المحاولة الفاشلة في إيطاليا الصغرى”.

يبدو أنه ربط بين سالفاتور داليسيو وفرانك بيلاروزا ومحاولة القتل. أجبته: “هذا صحيح”.

“لقد أنقذتَ حياة بيلاروزا”.

“أوقفتُ النزف. سامرائي طيب”.

رمق سوزان بنظرة، وهو يفكر ربما في سخرية إنقاذي حياة عشيق زوجتي، وقتلها لاحقاً الرجل الذي أنقذتُ حياته. لكن إذا أراد التحري ناستاسي قول أي شيء حيال ذلك، أو حولنا، فإنه احتفظ به لنفسه وتابع القول: "حسناً، إذاً في هذه المناسبة؛ في منزل أنطوني بيلاروزا البارحة، هل لفظ أنطوني بيلاروزا تهديدات ضد السيدة ساتر؟".

"نعم". ذكرتُ جزءاً من حديثنا على المصطبة الأمامية ونقلتُ حديث أنطوني مباشرة: "قال، بشأن شيء قلته له: لن يغير أي من هذا ما فعلته زوجتك. لإبلاغك فقط".

سألني التحري ناستاسي: "وهل كانت هذه كلماته؟".

"حرفاً حرفاً".

"حسناً. وماذا قلت؟".

"سألته إذا كان هذا تهديداً، وأجابني حرفياً: احسبه مثلما تريد". أضفت: "آخر شيء قاله لي كان: أتظن أن رجالاً من أمثالك لا يحتاجون إلى القلق من رجال من أمثالي. حسناً، أيها المستشار، أنت مخطئ في ذلك".

أنهى التحري ناستاسي طباعة ذلك، ثم سألني: "هل اعتبرتَ ذلك تهديداً شخصياً؟".

"نعم".

"حسناً. هل من شيء آخر تريد إضافته؟".

أجبته: "أعتبر أن هذه التهديدات الموجهة ضد السيدة ساتر، وضدي أنا، جدية تماماً استناداً إلى ما سمعته، ولكون السيدة ساتر قتلت والد أنطوني بيلاروزا".

سجّل التحري ناستاسي ذلك بالنقر على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ونظر إلى سوزان وقال: "هل تريدين إضافة أي شيء إلى إفادة السيد ساتر؟".

"لا".

"هل تريدين قول أي شيء عن شعورك حيال هذا التهديد المحتمل لحياتك؟".

فكرت سوزان لبرهة، ثم أجابت: "حسناً... بعد سماع كل هذا - وبعضه للمرة الأولى - أعتقد أن التهديد موجود فعلاً".

طبع التحري ناستاسي هذا الجواب من دون تعليق، ثم استدار نحونا وقال: "عادة، لا يهدد مثل هؤلاء الرجال أبداً. إنهم ينفذون فقط. لذا، قد يكون هذا مجرد كلام".

أجبته: "أعرف ذلك. لكن هذا الرجل ما زال شاباً. هو ليس والده. أظن أنه شخص متهور". لم أخبره أنني قلت بعض الأمور التي جعلت أنطوني غاضباً جداً، على أمل أن يصدر تهديداً واضحاً وصريحاً. ولم أخبر التحري ناستاسي أيضاً أنني تعرضت لانهيار عصبي بسيط، ومزقت لوحة وجدتها في مكتب

أنطوني بيلاروزا؛ فالأمر غير مهم إلا لأنطوني الذي سيجنّ جنونه حين يكتشف الأمر. إلا أنني أخبرت ناستاسي: "التهديد قد يكون أو قد لا يكون حقيقياً، لكنه صدر، ولذلك يمكن اعتباره إزعاجاً وتهديداً تحت القانون".

"صحيح. فهمتُ ذلك أيها المستشار. دعنا نرى ماذا سيقول حين أتحدث إليه".

"حسناً. ما التالي؟".

نقر التحري ناستاسي زر الطباعة وقال: "تقرأ هذا وتوقعه". وفيما خرجت الصفحات من الطابعة، قال لنا: "سيكون هذا جزءاً من تقرير القضية. نأخذ التهديدات على محمل الجد، ونتابع المسألة مع الفريق المعني. في غضون ذلك، أنصحكما بتفادي أي اتصال مع هذا الرجل".

"الأمر بديهي".

"صحيح. لكن عليّ قول ذلك". ثم أضاف: "أنصحكما أيضاً باتخاذ بعض التدابير الوقائية العادية، لكنني أترك لكما حرية تقرير نوع هذه التدابير". نظر إلينا وقال: "بعدما أتحدث إليه، سأعود إليكما وأنصحكما أكثر".

سألته: "متى ستتحدث إليه؟".

"قريباً جداً".

خرجت جميع أوراق إفادتي من الطابعة، وأعطاها لي التحري ناستاسي وقال: "انظر إليها للتأكد من أن كل شيء صحيح، وأريدك أن تمهرها بتوقيعك".

تصفحت الأوراق ثم أخذت قلمي، ووقعت حيث هو اسمي.

أعطى التحري ناستاسي بطاقته لكل منا وقال: "اتصلا بي إذا فكرتما في شيء آخر، أو إذا رأيتماه، أو إذا لاحظتما أي شيء قد يلفت انتباهكما. أو اتصلا بالطوارئ".

أومأت برأسي وسألته: "هل تنوي وضعه تحت المراقبة؟".

أجاب: "سأناقش الأمر مع المسؤولين الأعلى رتبة مني بعدما نتحدث إلى بيلاروزا".

بدا هذا كافياً حتى الآن، فرافقنا التحري ناستاسي مجدداً إلى غرفة التحريات، ومنها صعوداً على السلالم، وصولاً إلى قاعة الاستقبال الكبيرة. قلتُ له: "شكراً لك على اهتمامك بهذه القضية".

لم يجب على ذلك، لكنه قال لنا: "إذا قررتما مغادرة المنطقة لأي سبب، أبلغاني من فضلكما". ثم طمأننا: "فعلتما الشيء الصحيح بالمجيء إلى هنا".

تصافحنا، وغادرنا أنا وسوزان مركز الشرطة، واتجهنا نحو السيارة. قلتُ لها: "فعلنا الشيء الصحيح، وسيكون كل شيء على ما يرام".

سألتني: "هل نستطيع تغيير الموضوع الآن؟".

"طبعاً. عمَّ تريدين التحدث؟".

“أي شيء”.

ركبنا السيارة وتوجّهنا إلى المنزل. التزمنا الصمت لبرهة، ثم قالت سوزان: “شكراً”.

“أهلاً بك”.

“هل تهتم لي أو لمالي؟”.

“لمالك”.

أشارت: “لكنك كنتَ قلقاً عليّ حتى قبل أن تطلبني للزواج مجدَّدا؟”.

هل طلبتها للزواج؟ على أي حال، أجبتها: “لطالما اهتممتُ بك، سوزان، حتى عندما أردتُ كسر عنقك”.

“كم هذا رائع”. فكّرت لبرهة، ثم قالت: “هذه غلطتي”.

طمأنتها: “نعم. لكنها مشكلتنا الآن”.

فكرت في ذلك، ثم قالت: “لم أكن أعرف أنه هددك”.

لم أجب.

سألتني: “ماذا قلتَ له حتى أرغمته على قول هذا لك؟”.

أخبرته أن والده كان سيتخلى عن جميع أفراد عائلته من أجل سوزان ساتر، وكان جيداً قول ذلك.

“جون؟ ماذا قلتَ له؟”.

“رفضتُ عرض العمل من دون أن أظهر الاحترام اللائق”.

“بالكاد يفضي ذلك إلى نوع التهديد الذي وجهه إليك”.

غيّرت الموضوع وقلت: “أظن أنه يجدر بنا إعطاء أنفسنا إجازة بعد دفن إيثيل”.

“سأفكر في الأمر. في غضون ذلك، إنه يوم جميل، وأحتاج إلى استراحة، فلمَ لا نذهب إلى الهامبتون لتمضية اليوم هناك؟”.

إذا كانت تعني استراحة للاستجمام العقلي، سنغيب بضعة أشهر، لكنني أجبتها: “فكرة جيدة. سنعرج على المنزل ونحضر أثواب السباحة”.

“على ذلك الشاطئ في جنوب هامبتون لا نحتاج إلى أثواب سباحة”.

“حسناً”. بدّلت مسار السيارة، وفي غضون عشر دقائق، كنا على الطريق السريع للونغ آيلند متجهين شرقاً نحو الهامبتون للغوص في المحيط.

امتلكتُ ذات مرة منزلاً صيفياً في شرق هامبتون، وكذلك فعل أهلي، ويمضي آل ساتر معظم أيام الصيف في المنطقة الشرقية. حين كان ولداي صغيرين، وحين كنت لا أزال على علاقة طيبة مع أهلي، كانت فترات الصيف سحرية،

مليئة بالدهشة والتعجب بالنسبة إلى الولدين، وبالحب والسلام بالنسبة إلينا أنا وسوزان.

بعتُ المنزل بسبب مشاكلي الضرائبية، ولم أعد إلى الهامبتون طوال العقد الأخير، ولذلك كنت أتطلع إلى تمضية اليوم في المنطقة الشرقية، وعدم التفكير في هذا الصباح أو في الغد.

قالت سوزان: "سيكون هذا مثل الأيام الماضية".

"لا بل أفضل".

"وسيأتي الأفضل لاحقاً".

"نعم".

الفصل السابع والثلاثون

لا توجد شواطئ... ممنوعة على أي كان في الهامبتون، لكننا عثرنا على الشاطئ المنعزل في جنوب هامبتون حيث ارتداء الملابس اختياري.

ركنتُ السيارة في المرأب الصغير وترجلنا منها. كان الشاطئ مقفراً تقريباً يوم الاثنين من شهر يونيو، ولم يكن هناك إلاّ ثنائيان في الماء، وحين انحسر الموج، تأكدنا من ذلك.

ركضنا أنا وسوزان إلى الشاطئ الرملي الأبيض الكبير، وخلعنا ملابسنا، وغطسنا في الماء شديد البرودة. قالت سوزان: "اللعنة!".

كانت المياه باردة قليلاً، مكثنا فيها لمدة نصف ساعة تقريباً، وقبل أن نصاب بانخفاض في حرارة الجسم، هرعنا مجدداً إلى الشاطئ. وفيما ارتدينا ملابسنا فوق جسدينا الرطبين، قالت سوزان: "أذكر المرة الأولى التي غطسنا فيها في هذه المياه معاً، حين كنا نتواعد. لم أفعل ذلك أبداً من قبل، وظننتُ يومها أنك مجنون".

"مجنون في الحب". في الواقع، كانت هناك الكثير من الأمور التي لم تفعلها سوزان ستانهوب قبل أن تلتقي بي، وربما لهذا السبب كنتُ منجذباً نحو هذه الفتاة الغنية والبريئة التي تشاركني أهوائي المضحكة. كنت أحاول التأثير عليها، طبعاً، وكانت هي تحاول أن تريني أنها مثل أي امرأة أخرى. في النهاية، بدأنا نعود إلى طبيعتنا، وارتحنا لأننا استمررنا في استلطاف بعضنا.

عدنا بسرعة إلى السيارة ودخلنا إلى قرية ساوثهامبتون، التي كانت قبلاً قديمة الطراز وأصبحت الآن حديثة، وتناولنا الغداء في أحد المطاعم القديمة التي كنا نرتادها، وهو مطعم صغير اسمه "مقعد السائقين". وبناء على إلحاح سوزان المستمر، طلبتُ سلطة الدجاج المشوي مع مياه فوارة، لكن حين نهضت للذهاب إلى حمام الرجال، استبدلت الطبق بطبق آخر من التشيزبرغر مع بطاطا مقلية وشراب شعير. يبدو أن سوزان تذكرت هذه الخدعة، وحين ذهبت إلى حمام السيدات، أعادت التأكيد على طلب الطبق الأول. قال لي صديق عزيز ذات مرة: "لا تغازل أو تتزوج مجدداً زوجتك السابقة". الآن فهمت.

بعد تناول السلطة، قمنا بنزهة طويلة في جادة لاين، التي تم تشييدها حسب لافتة عام 1664 وباتت الآن مليئة بالمتاجر الفخمة والمطاعم والمستوطنين المغامرين من جزيرة مانهاتن.

قالت سوزان: "دعنا نشتري لك بعض الثياب".

"لديّ بعض الثياب".

"هيا، جون. بضعة قمصان فقط".

هكذا، توقفنا أمام بضعة متاجر وابتعنا بعض القمصان الرسمية، وبعض القمصان الرياضية، وبعض ربطات العنق، وبعض الأشياء الأخرى التي لم أكن

أعرف أنني بحاجة إليها. ابتاعت بعض الأغراض لنفسها أيضاً.

قررنا تمضية الليل هنا، ولذلك ابتعنا أيضاً ثياباً رياضية وأثواب سباحة، واتصلت سوزان بفندق غورني إين، قرب نقطة مونتوك، المشتمل على نادٍ صحي، وحجزت غرفة مطلة على المحيط. توجهنا بعدها شرقاً، عبر القرى المتبقية من الهامبتون، بما في ذلك شرق هامبتون، حيث كنا نملك قبلاً منزلاً صيفياً، وسألتها: "هل تريدين المرور أمام منزلنا القديم؟".

هزّت رأسها وأجابت: "هذا حزين جداً". ثم ذكّرتني: "أحب الولدان فعلاً ذلك المنزل، وأحبا التواجد هنا". ثم أضافت: "دعنا نشتريه مجدداً".

أجبتها: "لا يمكنك إعادة شراء جميع منازلك القديمة".

"ولِمَ لا؟".

"حسناً، المال هو أحد الأسباب".

قالت لي: "لا أريد أن أبدو متكبرة، جون، لكنني سأرث يوماً ما حصتي البالغة مئة مليون دولار".

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مقدار ثروة آل ستانهوب، وكدتُ أنحرف عن الطريق. أقصد، حين يدور الحديث أصلاً عن ثروة آل ستانهوب، يكون مترافقاً دائماً بكلمة "متضائلة" أو "متقهقرة"، مما جعلني أشعر بالأسف على ويليام وشارلوت. ليس تماماً، لكنني لطالما قدّرت أن صافي ثروتهم هي عشرة أو ربما عشرين مليون، ولذلك جاء هذا الرقم بمثابة مفاجأة. أصبحت الآن مغرماً فعلاً. أنا أمزح.

على أي حال، عرفتُ أن إدوارد وكارولين، الحفيدين الوحيدين، سيكونان في وصية ويليام، وهناك أيضاً شقيق سوزان، بيتر، وطبعاً شارلوت، إذا بقيت على قيد الحياة بعد وفاة ويليام. إلا أن شارلوت ليست من آل ستانهوب، وفي عالم المال القديم، يتم حرمانها من مجموع عقارات ستانهوب - لكنها تملك أصلاً مال عائلتها - وعبر بعض التخطيط الذكي للضرائب والعقارات والودائع المعقدة، ستذهب معظم ثروة ستانهوب إلى المتحدرين مباشرة من ويليام. هكذا، حصل ويليام على الإرث من أوغسطس، وهكذا حصل عليه أوغسطس من سيروس.

تكشف بعض الحسابات السريعة أنه يجدر بسوزان ستانهوب فتح قنينة شراب خفيف في دفن ويليام.

إلا إذا تزوجتني طبعاً، ولذلك ذكّرتها: "قد تتدنى حصتك إلى الصفر".

لم تجب على ذلك، لكنني عرفتُ أن الحقيقة تتثبت.

تابعنا طريقنا، وعبرنا القرى ومجموعة من الكثبان الرملية. في البعيد كانت هناك منارة نقطة مونتوك، على الرأس الشرقي للونغ آيلند. آخر مرة رأيت فيها المنارة، كانت وأنا أبحر في المياه، قبل عشر سنوات، حين بدّلت توجهي نحو هيلتون هيد، وتساءلتُ مليون مرة عما كان سيحصل لو توقفت فعلاً هناك ورأيتها.

ما زلتُ أظن أن أياً منا لم يكن مستعداً للمصالحة، لكن لو تحدثنا، لا أصدق أنني كنت سأبتعد عشر سنوات. لكن من يعلم؟

قبل أن نصل إلى النقطة، ظهر فندق غورني إين المطلّ على المحيط من جهة الطريق، وأوقفت السيارة أمام مكتب الاستقبال.

صعدنا إلى الغرفة المطلة على المحيط، ثم ارتدينا الثياب الرياضية التي اشتريناها وأمضينا بضع ساعات في النادي الصحي واستخدمنا الآلات الرياضية.

حجزت سوزان لنفسها موعداً جمالياً من نوع ما، ولذلك انتهزت الفرصة للعودة إلى غرفتنا، واتصلتُ بمكتب التحقيقات الفدرالية في مانهاتن.

بعد القليل من الاستفسارات البيروقراطية، تم تحويلي إلى شخص من هيئة الجريمة المنظمة وقلتُ له: "اسمي جون ساتر، وأنا أبحث عن العميل الخاص فيليكس مانوسكو".

"وما هي القضية، سيدي؟".

أجبته: "لقد اهتم بقضية كنت متورطاً فيها قبل عشرة أعوام. أودّ التحدث إليه بشأن تطور جديد، إذا كان موجوداً، من فضلك".

"وهل سيعرف ما هو الموضوع؟".

"سيفعل".

"حسناً. لا أستطيع التأكيد من أنه هنا. ولكن إذا تركت رقمَ هاتفٍ للاتصال بك، فسأطلب منه، أو من شخص آخر، الاتصال بك مجدداً".

"جيد". أعطيته رقم هاتف غورني إين، وقلت له إنني باقٍ فيه حتى الصباح، ثم أعطيته رقم هاتف منزل الضيوف على أنه رقم هاتفي المنزلي.

سألني: "هل من رقم هاتف خلوي نستطيع الاتصال بك من خلاله؟".

أجبته: "لا أملك هاتفاً خلوياً".

صمتٌ لبرهة، وظننتُ أنني ارتكبت خطأ جرمياً من نوع ما، ولذلك شرحت له: "لقد عدت للتو إلى هنا من لندن. سأشتري واحداً عما قريبٍ".

"حسناً، يستطيع إذاً شخص ما ترك رسالة لك على هذين الرقمين؟".

"صحيح. أرجوك أخبر العميل مانوسكو أن الأمر مهم".

"سأفعل".

أقفلت الخط وعدتُ إلى النادي الصحي للخضوع للتدليك الذي حجزناه.

حجزت سوزان لنفسها اختصاصية تدليك صغيرة القامة من شرق آسيا، واختصاصي تدليك لي، تم الحكم عليه قبلاً ربما بالتعذيب.

فيما كنا مستلقيين جنباً إلى جنب على الطاولات، قالت لي سوزان: "ذهبتُ إلى مكتب الأعمال وأرسلتُ بريداً إلكترونياً إلى الولدين، ووالديّ لإطلاعهم على حالة

إيثيل، وأخبرتهم أنه يجدر بهم الاستعداد للمجيء إلى هنا قريباً".

"هل أطلعتِ والديك على أخبارنا الجيدة؟".

"لا، وفي بريدي الإلكتروني المرسل إلى الولدين، أخبرتهما ألا يقولا أي شيء لأي كان قبل أن تعلنَ الأمر بنفسك".

"صحيح". تمنيتُ أنه حين أخبر الماما والبابا بالخبر الجيد، سيموتان فوراً قبل أن يحرما ابنتهما من الميراث. مئة مليون؟ كان يجدر بي ربما التصرف بطريقة أكثر لطافة أكبر معهما. أو كان يجدر بي ربما الاتصال بسالي دادا وعقد اتفاق معه.

في الواقع، كنت أعرف أشخاصاً في الشاطئ الذهبي وهنا في الهامبتون يملكون مئات الملايين من الدولارات، ولذلك لم يذهلني هذا الرقم تماماً. ما أذهلني هو أن ويليام، الذي يتصرف دائماً وكأنه على مسافة قريبة من التشرد، يملك في الواقع هذا المقدار من المال. لقد أزعجني ذلك فعلاً. أقصد، ذلك اللعين الخسيس الحقير... لكن سوزان أخطأت ربما في الرقم. لن تكون هذه المرة الأولى. في الواقع، أظن أن الرقم قد يكون أكثر.

سألتني سوزان: "بمَ تفكر؟".

"أوه... أنا أفكر في ملامسة جسمك المدهون بالزيت عند العودة إلى الغرفة".

ضحكت المدلكة، وقهقه المدلك، وقالت سوزان: "جون".

خضعنا للتدليك بصمت ثم انتقلنا بجسمينا المدهونين بالزيت إلى الغرفة. لم يكن زرّ الرسائل قيد العمل، وأقمنا علاقة حميمية، ونمنا قليلاً، ثم ارتدينا ثيابنا ونزلنا إلى قاعة الكوكتيل وراقبنا المحيط والسماء المظلمة.

كنا قد حجزنا طاولة للعشاء في الفندق، ووصلنا إلى الفندق متأخرين ومترنحين فيما اختفى آخر نور شمس من السماء.

نظرت إليّ سوزان عبر الطاولة المضاءة بشمعة، وقالت: "لم أعتقد أبداً أنني سأراك مجدداً جالساً قبالتي في مطعم".

أخذت يدها، وقلت: "أمامنا الكثير من السنوات الجيدة".

"أعرف ذلك".

رنّ هاتفها الخلوي، ونظرت إليه، وقالت لي: "لست مضطرة إلى الإجابة".

أطفأت الهاتف ووضعته مجدداً في حقيبتها.

لم أكن واثقاً ما إذا كان يجدر بي سؤالها عن هوية المتصل - قد يكون أهلها، أو ولدينا للإجابة على بريدها الإلكتروني، أو إليزابيت تحمل بعض الأخبار السيئة. أو قد يكون رجل. ولو أرادت أن أعرف من يكون، لأخبرتني.

إلا أنها بدت فجأة أقل مرحاً، ولذلك سألتها: "من كان المتصل؟".

أجابت: "قسم الشرطة في مقاطعة ناسو".

قلت لها: "شغلي الرسالة".

"لاحقاً".

"الآن".

أخرجت هاتفها الخلوي وأدارته، وأدخلت كلمة السر، ثم أعطتني إياه.

وضعتُ الهاتف على أذني وسمعت: "مرحباً سيدة ساتر. أنا التحري ناستاسي من قسم الشرطة في مقاطعة ناسو. أريد أن أبلغك فقط أنني ذهبتُ الليلة إلى صاحب الشأن، في منزله، وأبلغتني زوجته أنه خارج المدينة لفترة غير محددة من الوقت. اتصلي بي مجدداً متى يناسبك". ثم أضاف: "أرجوك انقلي هذه الرسالة إلى السيد ساتر".

ضغطتُ على زر إعادة بث الرسالة وأعطيتها الهاتف. فيما أصغت إلى الرسالة، فكرتُ أن أنطوني بيلاروزا خارج المدينة. لا يتوافق ذلك مع قوله إنه يحتاج إلى البقاء قرب المنزل بسبب الموت الوشيك لجون غوتي ودفنه. لكن العم سال شهر ربما مسدسه، وأنطوني موجود في مكان ما في المحيط، يطعم الأسماك مثلما يقولون. أليس هذا لطيفاً؟ وإلا، يكون اختفاء أنطوني المفاجئ مثيراً للقلق أكثر مما هو مريح.

أطفأت سوزان هاتفها مجدداً وأعادته إلى حقيبتها.

قلت لها: "سنتصل به غداً".

غيّرت الموضوع وقالت: "أريدك أن تطلب الطعام من قائمة النادي الصحي".

"لماذا؟ بمَ أخطأت؟".

قالت لي: "أنت ما تأكل".

"حسناً، عليّ إذاً تغيير اسمي إلى الضلع الأساسي".

"أوصيك بالهلبوت المسلوق على البخار".

"تناولتُ زيت السمك خلال الفطور".

"أريدك أن تبقى معي لوقت طويل".

"حسناً، يبدو أن الوقت سيكون طويلاً جداً إذا توجب عليّ تناول تلك الحثالة".

"هيا إذاً، اطلب شرائح اللحم واقتل نفسك".

"شكراً".

جاءت النادلة وطلبنا الطعام.

لم يكن سمك الهلبوت سيئاً جداً مع قنينة من الشراب الفرنسي المحلي.

حين عدنا إلى الغرفة، لاحظتُ أن زر الرسائل ما زال غير مضاء.

لا أحتاج إلى التحدث مع فيليكس مانوسكو، لكن إذا كان هناك شخص يفهم هذه القضية - ليس فقط الحقائق والتاريخ، وإنما أيضاً العنصر البشري في ما حصل قبل عشر سنوات - فإنه هذا الرجل، الذي لم يحاول فقط إنقاذ روحي من شرير عظيم، وإنما أيضاً تعرض للإزعاج من زملائه بسبب تصرفه كسمسار مع السيد بيلاروزا.

حسناً، حسبما أعرف، أصبح مانوسكو متقاعداً أو منقولاً أو ميتاً، لكن إذا لم يكن في أي من هذه الحالات، عرفتُ أنني سأسمع صوته قريباً.

خرجنا أنا وسوزان إلى الشرفة ونظرنا إلى المحيط. رأيت في الأفق البعيد أضواء البواخر وسفن الشحن في المحيط الكبير، وفي الأعلى، ثمة طائرات بدأت تهبط إلى مطار كنيدي أو تشق طريقها نحو أوروبا، أو العالم.

سألتني سوزان: "هل تظن أنك ترغب في الإبحار مجدداً؟".

أجبتها: "حسناً، ما فائدة نادي اليخوت من دون يخت؟".

ابتسمت، ثم قالت بجدية: "لا أريدك أبداً أن تبحر مجدداً وحيداً".

لم أكن وحيداً تماماً، لكنني فهمت ما تقصده وأجبتها: "لن أبحر من دونك".

بقيت صامتة لبرهة، وأصغينا إلى صوت الموج المتكسر على الشاطئ، وحدّقت أنا إلى سماء الليل والمحيط الأسود.

سألتني: "كيف كان ذلك؟".

تابعت النظر إلى الليل المظلم وأجبتها: "شعرت بالوحدة". فكرتُ لبرهة طويلة ثم قلت: "يسهل التخيل هناك، خلال الليل، أنك آخر إنسان بقي حياً على الأرض".

"يبدو هذا مريعاً".

"أحياناً. لكن معظم الوقت شعرتُ... كأنني كنت وحيداً مع الله. أقصد، تصابين بالقليل من الجنون هناك، لكن ليس بالضرورة الجنون السيئ. لديك الكثير من الوقت للتفكير والتعرف إلى نفسك".

"وهل فكرت فيَّ؟".

"نعم. بصراحة فعلت. كل يوم وكل ليلة".

"إذاً، ما الذي منعك من العودة إلى المنزل؟".

هناك الكثير من الأجوبة عن هذا السؤال؛ الغضب، الكبرياء، العنفوان، والحرية الكاملة بكوني رجلاً منفياً طوعياً من دون بلد أو مهنة. لكنني قلت لسوزان: "حين أعرف، أخبرك".

جلسنا على الكرسيين الطويلين وراقبنا السماء ثم نمنا تحت النجوم.

خلال نومي، سمعتُ صوت تلاطم أمواج المحيط، وأحسستُ بنسيم البحر، وشممتُ رائحة الهواء المالح، وحلمتُ أنني عدت مجدداً إلى البحر. لكن هذه المرة، كانت سوزان معي.

القسم الثالث

الحاضر هو عيش مجموع الماضي.

توماس كارليل

"خصائص"

الفصل الثامن والثلاثون

صباح اليوم التالي، الثلاثاء، كان غائماً جزئياً، وبعد الركض على الشاطئ، وتناول فطور مغذٍ للروح في النادي الرياضي، توجهنا إلى المنزل في لاتينغتون وستانهوب هال. استغرقت هذه الرحلة ساعتين تقريباً تحدثنا خلالها قليلاً عن السنوات العشر الماضية، في محاولة لملء ما قالت عنها سوزان إنها "سنوات ضائعة". والضائع والتائه هو أي ذكر لأمور مهمة أو أخرى غير مهمة، بحيث كانت هناك فجوات في السجل التاريخي. نوع من الثقوب السوداء. إلا أنها ذكّرتني: "اتصل بسامنتا".

فكّرت في سؤالها: متى وأين وكيف نشأت العلاقة بينها وبين فرانك بيلاروزا، لكنها لن تحب هذا السؤال. أدركتُ أيضاً أن الأمر لم يعد يزعجني أبداً، وقد بدأت أتخطى الأمر ربما وأتفاعل معها.

دخلتُ عبر بوابات ستانهوب هال، ولاحظنا عربة مقفلة مركونة إلى جانب منزل الحراسة. شاهدت أيضاً سيارة إليزابيت رباعية الدفع، ولذلك ركنتُ السيارة وتوجهنا أنا وسوزان إلى داخل منزل الحراسة.

إليزابيت، بسروال الجينز وقميص قطني، كانت في الردهة، تشرف على نقل الأغراض. رأتنا وقالت: "صباح الخير. مررت بمنزل الضيوف لأخبركما أنني سأنظف المنزل، لكنكما لم تكونا في المنزل. رأيت أنه من الجيد إنجاز ذلك، بحيث لا نضطر إلى التفاوض على الوقت مع نسيم بعد الدفن". ثم نظرت إليّ وقالت: "جون، أتمنى أنني لا أطردك".

حسناً، لا، لكنك تحرقين جسوري، ولا أستطيع الآن العودة إلى هنا حين يصل آل ستانهوب.

"جون؟".

"لا. لم أعد بحاجة إلى المنزل".

قالت إليزابيت: "هذا ما قلته. ستأخذ شركة النقل كل علبك وملفاتك إلى منزل الضيوف، إذا كنت تودّ ذلك".

"شكراً لك"، قلت لها قبل أن تذكر عرضها السابق بتوضيبي أنا وملفاتي في منزلها.

سألت سوزان إليزابيت: "كيف حال أمك؟".

هزّت إليزابيت كتفها: "على حالها. أعرف أن النهاية أصبحت قريبة، ولا أستطيع التصديق... لكنني توقعتها". نظرت حول منزل الحراسة وقالت: "كانا هنا لأكثر من ستين عاماً... والآن... حسناً، الحياة تستمر". قالت لسوزان: "سألت جون إذا كان نسيم يفكر في بيع المنزل، لكن نسيم يريده لنفسه. كان يمكن أن نصبح جيراناً مجدداً".

أجابتها سوزان، بما بدا نبرة صادقة، "لكان هذا رائعاً". ثم أبلغت إليزابيت: "سأطلب من سيدة التنظيف عندي إنجاز بعض العمل، وأنا آسفة إذا ترك جون هذه الفوضى".

أراد جون القول إن إليزابيت تركت فوضى أكثر مما ترك جون، لكن جون يعرف متى يبقي فمه مغلقاً.

لكن إليزابيت طمأنت سوزان: "أوه، لا تقلقي بشأن ذلك. أنا ذاهبة، ويستطيع نسيم فعل ما يريده. مرّ إلى هنا قبلاً، وأخبرته أنه يستطيع استعادة المنزل بدءاً من الآن". نظرت إلى محاميها وسألت: "موافق؟".

أجبتها: "أنت صاحبة القرار".

تابعت: "عرف من حديث زوجته مع سوزان أنكما عدتما إلى بعضكما، وتعيشان معاً في منزل الضيوف. تمنى لكما الحظ والسعادة".

قالت سوزان: "هذا لطيف جداً".

حسناً، يستطيع الآن السيد نسيم إسكان رجال الأمن في منزل الحراسة، بالرغم من أنني أنصحه بعدم استخدام شركة بيل للأمن. كما أنه يتساءل ربما كيف سيؤثر هذا التطور الجديد في هدفه بإقناع سوزان بالبيع. يجدر بي إخبار نسيم أننا نواجه نحن أيضاً مشاكل أمنية، وأنني أملك سلاحاً، ويمكننا بالتالي دمج قوانا وتوفير نار داعمة في حال التعرض لهجوم.

قاطعت سوزان تفكيري الاستراتيجي وقالت لإليزابيت: "بالمناسبة، لم نخبر أهلي أننا عدنا إلى بعضنا. فإذا اتصلت بهما، أرجوك لا تذكري الأمر أمامهما".

أجابت إليزابيت: "أفهم".

أضافت سوزان: "يصح الشيء نفسه مع والدة جون، والأب هانينغس".

"لن أذكر الأمر أمام أي كان".

"شكراً. هل تمانعين إذا ذهبت وأحضرت كاميرا لالتقاط بعض الصور قبل نقل كل شيء؟".

أبلغتها إليزابيت: "لقد فعلت ذلك قبلاً، وسأرسل لك نسخاً من الصور. هذا هو المنزل الوحيد الذي ترعرت فيه، وسأشتاق إلى كل الذكريات التي كانت تراودني حين أزور أمي". ألقت نظرة سريعة عليّ وابتسمت، وفكّرت في أنها ستخبر سوزان عن حبها المراهق لي. لكن إليزابيت لا تسبب المشاكل، وختمت بالقول: "كانت تلك أياماً جيدة اجتمعنا خلالها كلنا هنا في ستانهوب هال".

سوزان، هي امرأة حساسة، عانقت إليزابيت بحرارة، ودمعت عيونهما قليلاً.

لم أعرف أبداً ما يجب فعله حين تسيطر العواطف على النساء؛ هل أنضم إليهن؟

تماسكت المرأتان مجدداً، وقالت سوزان لإليزابيت: "إذا لم نكن في المنزل، يستطيع العمال ترك العلب في مكتبي. مكتب جون. الباب غير مقفل".

أجابت إليزابيت: "سأشرف على ذلك". ثم ذكّرتني: "لا أزال أملك تلك الرسالة التي كتبتها أمي لك، لكنني لا أشعر أنه من الملائم أن أعطيها لك قبل أن تموت".

طمأنتها: "هذا هو الشيء الصحيح"، بالرغم من أنني لا أظن أن إيثيل ستتعافى، وتجلس في السرير وتسأل: "هل أستطيع رؤية تلك الرسالة مجدداً؟".

تحدثنا لبضعة دقائق إضافية، ثم عدنا أنا وسوزان إلى سيارة اللكزس خاصتها، وسألتني سوزان: "أي رسالة؟".

"كتبت لي إيثيل رسالة، على أن يتم تسليمها إليّ عند وفاتها".

"حقاً؟ وماذا يوجد برأيك في الرسالة؟".

"وصفتها لهلام التفاح البري".

"كن جدياً".

تابعت السير في الطريق المحاطة بالأشجار في اتجاه منزل الضيوف وأجبتها: "لا أعرف، لكن الوقت لن يطول قبل أن نكتشف ذلك".

بعد العودة إلى منزل الضيوف، وضّبنا ثيابنا الجديدة، وأمضينا نصف ساعة نحاول التعوّد مجدداً على المكان. بدأت أشعر فعلاً بأنني عدت إلى منزلي مجدداً، وهذا شعور جيد.

سألتُ سوزان عن كلمة السر الخاصة بهاتف المنزل، وذهبتُ إلى المكتب، لكن لم تكن هناك رسائل صوتية لي، وإنما بضع رسائل فقط من صديقاتها.

انضمت إليّ سوزان في المكتب وسألتني: "هل تتوقع اتصالاً؟".

"نعم".

"ومن يعرف أنك هنا؟".

"الشرطة، ولدانا، إليزابيت، السيد والسيدة نسيم، أنطوني بيلاروزا وفيليكس مانوسكو".

"ومن هو فيليكس... أوه، نعم. أذكره". ثم سألتني: "ولماذا اتصلتَ به؟".

"بسبب أنطوني بيلاروزا".

هزّت كتفها وقالت: "افعل ما تشاء".

"بمساعدتك وتعاونك. أريد أن يتم تركيب جهاز إنذار للأمن هنا".

قالت لي: "هذا المنزل قائم هنا منذ مئة عام من دون جهاز إنذار، ولا أنوي تركيب واحد الآن".

"حسناً، فلنبدأ بإقفال الأبواب والنوافذ".

"أقفلها في الليل".

المرحومة عمتي كورنيليا، التي عاشت في منزل فيكتوري كبير في لوكوست فالي، لم تقفل أبداً الأبواب أو النوافذ، إلا في الليل، حين تتذكر ذلك. كان شيئاً وراثياً إلى حد ما وتعبيراً مفاده: "لست خائفة، ولن أسمح للآخرين بتغيير الطريقة التي اعتدتها دائماً". أحببت ذلك، لكنه ليس واقعياً. لقد غيّرنا جميعاً طريقة عيشنا بعد أحداث 11 سبتمبر، مثلاً، ولا ضرورة لأن نحب ذلك. لكن علينا فعل ذلك.

إلا أن سوزان كانت في رحلة الحنين هذه، تحاول إعادة لملمة حياتها مثلما كانت قبل عشرة أعوام. لقد استعادت منزلها القديم، وزوجها القديم، وانضمت مجدداً إلى نواديها، وتفكر في شراء منزلها الصيفي السابق في شرق هامبتون. يمكنكَ فعل الكثير بالمال، لكن ثمة أمر لا يمكنك فعله وهو إعادة الزمن إلى الخلف. وإذا حاولت، تكون النتائج في الغالب مخيبة للآمال، أو كارثية، أو في هذه الحالة خطرة.

مع هذا في بالي، قلتُ لها: "أين هي البندقية برأيك؟".

"أعتقد أنها في الطابق السفلي، جون. لا أعرف. لم أفتح كل العلب منذ أن عدت".

"سأبحث عنها لاحقاً".

"لا تفتح العلبة التي كُتب عليها أصدقاء".

"وهل تحتفظين بأصدقائك القدامى في علبة؟".

"رمادهم فقط". ثم وعدتني: "سأفتش لاحقاً".

جلست وراء المكتب، وتحققت من بريدها الإلكتروني وقالت: "هذه إجابات وصلتني من إدوارد وكارولين وأمي". قرأتها وقالت: "يؤكدون فقط... ويطلبون إبلاغهم...".

ذكّرتها: "يظن والداك أنهما سينامان هنا".

"دعنا نرى كيف ستجري الأمور".

"سوزان، سيصلان في سيارة مستأجرة وسيقفان أمام بابك...".

"بابنا، حبيبي".

"ولن يكونا سعيدين".

"يمكنهما الاستدارة، والذهاب إلى مكان آخر".

"أظن أنه يجدر بك إبلاغهما... بتلميح ربما. مثل: أنا أعيش مع رجل كنتُ متزوجة به".

بدأت تنقر أزرار لوحة المفاتيح وقالت: "عزيزاي أمي وأبي... لديّ صديق يشبه كثيراً... لا ماذا عن... لأسباب لا أستطيع شرحها الآن، حجزت لكما غرفة في... أين؟".

"فندق ستة في جونو، ألاسكا".

"ساعدني جون".

"فلنرَ إذا كان يوجد مرفق للضيوف في الكريك. يمكنك إدخالهما إلى هناك بواسطة بطاقة عضويتك. ويصح الشيء نفسه على غرف الضيوف في سيوانهاكا".

أنهت كتابة البريد الإلكتروني وقالت لي: "إذا أرسلتُ هذا، سيتصلان ويسألان لماذا لا يستطيعان الإقامة هنا".

"أخبريهما أن المال الذي يدفعانه لا يغطي النفقات، ولذلك تستقبلين نزلاء مقابل مال".

أطفأت الكمبيوتر من دون إرسال البريد الإلكتروني وقالت لي: "فليأتيا إلى هنا، وسنتفق على الأمر حينها".

"هذه فكرة رائعة". وللدخول في الجو الملائم لهذا اللقاء، قلتُ لها: "تمرّنت على شعر سعيد ومفرح لقوله حين يصلان إلى هنا". أمسكتُ بيدها وأخذتها إلى الباب الأمامي، وفتحته، وقلتُ: "ها قد وصلا، وها هما يخرجان من السيارة".

"جون...".

تقدمت بخطوة إلى الخارج وفتحتُ ذراعيّ في الهواء، وصرختُ: "أمي! أبي! لقد عدت!".

ظنت سوزان أن هذا مضحك، لكنها ذكّرتني: "أنت مغفل".

عدنا إلى المكتب، وعثرت في محفظتي على بطاقة التحري ناستاسي وقلتُ لسوزان: "سأتصل به". طلبتُ رقم هاتف مكتبه، وتم تحويله إليّ وقلتُ: "حضرة التحري، أنا جون ساتر، أعيد إليك الاتصال". ضغطتُ على زرّ السماعة لتتمكن سوزان من الإصغاء.

قال التحري ناستاسي: "حسناً. لقد تلقيت رسالتي. قالت زوجته إنه خارج المدينة".

أبلغته: "قال لي بيلاروزا يوم الأحد إن أمامه أسبوع مزدحم إذ يتوقع أن يموت جون غوتي قريباً جداً، ويحتاج للذهاب إلى الدفن".

"حقاً؟ حسناً، لقد مات غوتي بعد ظهر البارحة في مستشفى السجن الفدرالي في سبرينغفيلد، ميسوري. ذكر الخبر في الصحف والأخبار".

أجبته: "لم أكن على علم". فكرتُ في سؤاله ما إذا كانت لا تزال جيني ألفاريز تغطي أخبار المافيا - قد تملك بعض المعلومات المهمة - لكنني فكرت في شيء أفضل من ذلك وقلتُ: "ذهب بيلاروزا ربما إلى سبرينغفيلد، ميسوري".

"ربما. تحققتُ من رجل الأمن في كشك الحراسة في الحمرا، وقال الرجل إنه لم يرَ بيلاروزا منذ أن غادر صباح البارحة، واتصلتُ للتو بالكشك مجدداً وقال

لي رجل آخر الشيء نفسه".

"حسناً، عليك أن تعلم أن شركة بيل للأمن هي فرع من شركة بيل للخدمات، التي يكون أنطوني بيلاروزا رئيسها، ورئيس مجلس إدارتها ومديرها الأساسي".

"هل تمزح؟ كيف هذا؟ هل تظن أن هذه مصادفة؟".

"أوه... لا".

ضحك ثم قال: "في الواقع، لديّ صديق في قسم النيابة العامة يجري تحقيقاً حول أنطوني بيلاروزا. يظهر الملف أن شركة بيل للمقاولات هي شركته القانونية في ريغو بارك - خدمة تنظيف، خدمة مطاعم، خدمة جمع النفايات، خدمة سيارات ليموزين – وأعمالها قانونية".

أملتُ ألا يكون هناك شيء عن شركتي القانونية الجديدة ساتر وبيلاروزا وروزفلت.

إلا أن التحري ناستاسي طمأنني: "هكذا، نعرف عن شركة بيل للمقاولات". ثم سألني: "وكيف عرفتَ أنتَ ذلك؟".

"هو أخبرني".

لم يعلّق التحري ناستاسي على ذلك وقال: "هل تعرف، حين تحدثتُ إلى زوجته، شعرت أنه غير موجود فعلاً، ولم أرَ سيارة الإسكالادا المسجلة باسمه. لذا، قد يكون سافر إلى سبرينغفيلد للتواجد مع العائلة".

"يمكنك التحقق من ذلك ربما".

"ربما. حسناً، سيد ساتر، سنتابع ذلك، وما إن أتحدث إلى بيلاروزا، أتصل بك. في غضون ذلك، وبما أنك جاره، إذا رأيته أو سمعتَ أي شيء عنه، اتصل بي، لكن لا تذهب للبحث عنه".

"لا أنوي ذلك".

"جيد". ثم قال: "لقد هدموا القصر".

"لقد فعلوا".

"كان مكاناً رائعاً. لم يعودوا يبنون مثله".

"لا".

"وما هو سعر هذه المنازل برأيك؟".

"لا أعرف...". ألقيت نظرة على سوزان التي رفعت ثلاثة أصابع، فأجبته: "ثلاثة تقريباً".

"هل تمزح؟".

اقترحتُ: "ربما ثمن جرائم".

ذكَرني: "لا نملك دليلاً ضده".

بدأت أنزعج قليلاً ولذلك قلت: "عليك النظر عن كثب أكبر".

"حسناً، هذه مهمة التحريين والفدراليين".

في ما يتعلق بهذا، قلتُ له: "بصفتي محامياً، أعرف أن الأف بي آي لا تملك سلطة قضائية في حال التهديد أو الإزعاج، لكنني أتساءل ما إذا كان يجدر بك الاتصال بقوة عمل الجريمة المنظمة لمعرفة ما إذا كانوا يتعقبون حركاته لأسباب أخرى".

قال لي: "لن تقول لي الأف بي آي إذا كنت موضع شك".

"حسناً... لكن إذا كانوا يراقبونه لأمور أخرى، يفترض بهم معرفة ذلك، في حال...".

"حسناً. سأهتم بذلك".

"جيد".

"هل من اقتراحات أخرى؟".

الغريب هو أنني لم أظن أنه يتكلم بسخرية. أعتقد أنه يحمي نفسه في حال تم قتل سوزان ستانهوب ساتر على ساعته. أجبته: "أنا واثق من أنك تبذل كل ما بوسعك، لكنني أقدّر معرفة أن سيارات الشرطة الدوّارة على اطلاع على شكواي".

"تم إبلاغهم جميعاً. حين أتحدث إلى بيلاروزا، سأعيد تقييم الوضع والجواب".

"حسناً. شكراً على اهتمامك بهذا".

"استمتع بيوم جيد وبلغ تحياتي إلى السيدة ساتر".

"شكراً".

أقفلت السماعة ونظرتُ إلى سوزان، التي باتت تجلس الآن على كرسي كبير وتقرأ مجلة، وقالت: "أظن أنه في ميسوري مع عائلة غوتي، ولذلك لا داعي للقلق لبعض الوقت".

"صحيح". لسوء الحظ، لا تسير الأمور بهذه الطريقة. سالي دادا كان خارج الولاية حين حاول قتل فرانك بيلاروزا. ليس هذا نوع العمل الذي يقوم به سيد المافيا بنفسه. ولهذا السبب، جرت تسميته عقداً. وتم إنجاز العقد، فيما كان الرجل المخطط موجوداً على الشاطئ في فلوريدا.

ولهذا السبب يجب إبقاء الأعداء قربك، لأنه حين تجهل أين يكونون، يصبحون أكثر خطورة.

قالت لي سوزان: "رافقني إلى لوكوست فالي. أحتاج إلى بعض الشراب الفرنسي والمشروبات، وأريد شراء بعض الأطعمة. سأسمح لك بشراء الغرانولا إذا أردت".

أردت في الواقع انتظار اتصال مانوسكو، والبحث عن البندقية، لكنني رأيت أنه يجدر بي مرافقتها، فقلت لها: "حسناً. يبدو هذا ممتعاً".

"تسوق أي شيء معك بعيد عن المتعة".

في موضوع مغازلة أو الزواج مجدداً بزوجتك السابقة، قال صديقي أيضاً: "يعرفن اسمك، ورتبتك، ورقمك التسلسلي من المرة الأخيرة التي ألقين فيها القبض عليك".

حسناً، هذا ساخر جداً، لكن الشيء الجيد هو أن الثنائي المتحد مجدداً معفى من فترة المغازلة الطويلة والمسببة للتوتر حيث يتم الكشف عن أفضل سلوك.

ذهبنا إلى سيارة اللكزس، وأرادت سوزان القيادة. قالت لي: "علينا التخلص من سيارتك المستأجرة".

"أحتاج إلى سيارة".

"اشترِ واحدة".

"سوزان، حبيبتي، لا أملك مالاً أو بطاقة اعتماد في هذا البلد".

"حقاً؟ حسناً، أنا أملك".

"وكم تظنين أن والدك سيعطيني للعودة إلى إنكلترا؟".

"مئة ألف. هذا هو عرضه القياسي للرجال غير المقبولين".

"يا ليتني عرفتُ ذلك حين كنا نتغازل".

"في حالتك، كان ضاعف المبلغ".

"سأنفصل عنك".

فيما اقتربنا من منزل الحراسة، رأينا إليزابيت خارجاً، فتوقفت سوزان، وجاءت إليزابيت إلى السيارة وانحنت فوق نافذتي. كانت تضع العطر الليلكي نفسه كما تلك الليلة. قالت لها سوزان: "لِمَ لا تنضمين إلينا على العشاء الليلة؟ سيساعدك ذلك على إراحة أفكارك".

أجابت إليزابيت: "شكراً، لكنني أريد العودة إلى فير هافن".

قالت سوزان: "أفهم. لكن إذا بدّلت رأيك، سنكون في الكريك في تمام السابعة".

كانت هذه أول مرة أعرف فيها أن سوزان لا تطهي الطعام، وارتحتُ لذلك، بالرغم من أنها تعلمت ربما خلال السنوات العشر الماضية ما تعنيه كل تلك الأغراض في المطبخ. من جهة أخرى، لم أكن سعيداً لسماع أننا ذاهبان إلى الكريك.

التفتت إليزابيت إليّ وقالت: "لديّ علبة من هلام التفاح البري لك".

"شكراً".

قالت لسوزان: "هذه بدل أتعاب جون على الاهتمام بالمنزل".

ظننتُ أن سوزان ستقول: "لا عجب أنه مفلس". لكنها قالت بدلاً من ذلك لإليزابيت: "إذا أردت الذهاب إلى النادي لشرب كأس سريعة، اتصلي بي".

"شكراً".

وفيما توجهنا نحو لوكوست فالي، قلتُ لسوزان: "لا أريد الذهاب إلى الكريك".

أجابت: "فلننسَ الأمر".

"كيف أستطيع رفض مثل هذه الدعوة؟".

"تعرف ما أعنيه".

فكرتُ في ذلك، ثم أجبت: "حسناً. قد يكون الأمر ممتعاً. قد تكون ألثيا غوين هناك".

دخلنا إلى لوكوست فالي وتوقفنا أولاً أمام متجر الشراب الفرنسي والمشروبات، ومن ثم السوبرماركت، حيث صادفنا عدداً قليلاً من النساء اللواتي تعرفهن سوزان، وعدداً أقل من اللواتي أعرفهن أنا. تحدثنا معهن حديث السوبرماركت، وثمة امرأة واحدة، بياتريس براون، المعروفة باسم "بي بي"، إذ قالت شيئاً استفزازياً. إذ قالت لي: "أنا متفاجئة لأنك عدت، جون".

أجبتها: "أنا متفاجئ لأنك لا تزالين هنا".

لم تعرف بي بي كيف تتقبل هذا الجواب، فجرّت عربتها إلى الأمام وانطلقت.

نصحتني سوزان: "كان يفترض بك القول: العودة رائعة".

"العودة رائعة".

"لا تجب مباشرة على تعليق أو سؤال مبطن".

"العودة رائعة".

انتقلت سوزان إلى قسم الفاكهة والخضار، وفي غضون ثلاثين دقيقة عدنا إلى السيارة. وفيما ملأنا صندوق السيارة، سألتني: "هل تحتاج إلى أي شيء آخر؟ أغراض للحمام؟ الصيدلية؟".

"العودة رائعة".

تنهدت، وجلست خلف المقود، وتوجهنا إلى المنزل.

في الطريق، قالت لي: "أريدك أن تتصل اليوم بأمك".

"إذا اتصلتُ بها، لا أستطيع القول لها إننا معاً لأنها قد تتصل بوالديك".

"اطلب منها عدم فعل ذلك". ثم تابعت: "عليها أن تعرف أن ابنها يعيش الآن مع زوجته السابقة. وعليها أن تعرف ذلك قبل أن يعرف والداي، وقبل موعد الدفن".

“ومن أين تأتي هذه القوانين؟”.

“المنطق العام واللياقة العامة”.

“ماذا تقول إميلي بوست؟”.

“ستقول لك أن تفعل ما تريد زوجتك المستقبلية أن تفعله”.

“العودة رائعة”.

تمددت سوزان نحوي، وقرصت وجنتي، وقالت: “عودتك رائعة”.

الفصل التاسع والثلاثون

بعد العودة إلى منزل الضيوف، أفرغنا محتويات اللكزس، ثم اقترحت سوزان: "فلنركض إلى ساوند".

أجبتها: "لديّ الكثير من الأشياء الواجب فعلها هنا في مكتبي الجديد، وأحتاج إلى تنظيم جارور جواربي".

"فكرة جيدة. سأغيب ساعة واحدة فقط".

قلتُ لها: "لا أريدك أن تركضي في غرايس لاين أو في أي مكان آخر خارج الملكية".

"جون...".

"اركضي في ملكية العقار". ذكّرتها: "لا يملك الجميع أرضاً من مئتيّ أكر للركض فيها. قد أنضم إليك لاحقاً".

بدت منزعجة قليلاً وقالت: "لم أدرك أنه سيتم التحكم بي إلى هذه الدرجة".

يجعلنا ذلك اثنين، لكنني أجبتها: "مازحيني فقط".

"أفعل ذلك دائماً. حسناً، سأراك خلال ساعة تقريباً".

"خذي معك هاتفك الخلوي واتصلي بي، أو أتصل أنا بك".

"حاضر سيدي".

"ولا سراويل قصيرة".

ابتسمت، وصعدت إلى الأعلى، فيما دخلتُ أنا إلى مكتبي، ولاحظتُ أن علب الملفات والتخزين مكدّسة الآن قرب الحائط، بالإضافة إلى علبة من هلام التفاح البري.

لاحظتُ أيضاً أن ضوء الرسائل الصوتية في الهاتف يومض، واستمعتُ إلى الرسالة الوحيدة التي تقول: "جون ساتر، هذا فيليكس مانوسكو يعيد لك اتصالك". أعطاني رقم هاتف خلوي، دوّنته على الجهة الخلفية لبطاقة التحري ناستاسي، ثم محوتُ الرسالة.

لتمضية بعض الوقت حتى تغادر سوزان، نظرتُ حول مكتبي القديم، وتذكرتُ سهري لساعات طويلة هنا أمام المكتب، محاولاً حلّ المشاكل العقارية أو الضرائبية لأشخاص آخرين، سببوها بأنفسهم في معظم الأحيان.

فوق الأريكة، ثمة إضافة جديدة إلى المكتب؛ ثلاث من لوحات سوزان الزيتية لأطلال مشهورة محلياً: دار عبادة لورلتون، وقصر لويس تيفاني؛ وبعض الأعمدة الحجرية المتبقية من ميودون، وهو قصر من ثمانين غرفة كان نسخة عن قصر ميودون خارج باريس؛ وأعمدة مكان اسمه نولوود، كان في ما مضى منزل

شخص اسمه زوغ، آخر ملك لألبانيا، مما ذكّرني أن السيد نسيم ليس أول أجنبي اشترى أرضاً في الشاطئ الذهبي، ولن يكون الأخير.

فيما نظرتُ إلى اللوحات، تذكرتُ أن سوزان تملك فعلاً بعض الموهبة، وتساءلتُ لماذا توقفت عن الرسم. قد يكون لذلك علاقة بجهدها الأخير، الحمرا، وكل الذكريات السيئة المرتبطة بهدية الترحيب بآل بيلاروزا. وذكّرني ذلك طبعاً بتخريبي المتعمد في مكتب أنطوني. أراهن أنه غضب كثيراً حين رأى ذلك. وأراهن أن سيغموند فرويد كان ليستمتع وهو يشرح لي سلوكي المدمر؛ وقد يستنتج أنه، بالإضافة إلى ذكرياتي غير السعيدة حول هذه اللوحة، كنت أحاول عن غير وعي لفت انتباه أنطوني وتحويل انتباهه من سوزان إليّ. حسناً، لم يكن سيغموند غبياً جداً.

صرخت سوزان: "أراك لاحقاً".

جلست أمام المكتب ونظرتُ إلى الهاتف، وإنما ترددت. قال لي حدسي قبلاً بضرورة الاتصال بفيليكس مانوسكو، لكن فهمي لكيفية عمل الشرطة قال لي هذه المرة بأنه خرق للبروتوكول ولن يكون التحري ناستاسي مسروراً. مثلما قال، لن يخبره رجال الأف بي آي إذا كان هو في خطر، وأنا واثق من أنه يكتم عنهم المعلومات الطارئة نفسها. قال أيضاً إنه سيتصل هو بالأف بي آي.

من جهة أخرى، كانت لي قبلاً علاقة شخصية مع فيليكس مانوسكو، وكان رجلاً ذكياً ومحترماً وكنت أثق به. كنت ألقّبه، في عقلي، بالسيد صالح فيليكس، لكن وراء شخصيته اللطيفة كان هناك رجل صلب يهتم شخصياً بالنشاطات الجرمية للمافيا، لا كوسا ناسترا، نتيجة إرثه الإيطالي الخاص؛ فأحرجه رفاقه وطردوه.

لذا، أحتاج إلى التحدث إليه، ولكي أكون واثقاً من أنني ألتزم جميع القواعد. فإذا حصل شيء ما، ولم أفعل كل ما كان ممكناً بسبب التذمر، حسناً... سيكون ذلك من دون أهمية عملية، لأنني سأفعل كل ما في وسعي لأحمي سوزان. يجدر بأحدنا فعل ذلك.

طلبتُ رقم الهاتف الخلوي لفيليكس مانوسكو، وأجاب: "مانوسكو".

قلت له: "مرحباً سيد مانوسكو. أنا جون ساتر".

"حسناً، مرحباً سيد ساتر. بمَ أدين به لك بسبب هذا الاتصال؟".

تذكرتُ أن فيليكس مانوسكو هو رجل رسمي، بأسلوبه وحديثه، وبصفته عميلاً خاصاً فإنه أيضاً محام، مثلي، بالرغم من أن هذا لا يجعل منه رجلاً سيئاً. أجبته: "أنا أتصل بك، لسوء الحظ، للغرض نفسه الذي تحدثنا به في المرة الأخيرة التي التقينا فيها".

"حقاً؟ وكيف ذلك؟".

"حسناً، إنها قصة طويلة. لكن في البداية، غبتُ عن البلاد خلال السنوات العشر الماضية، ومنذ أسبوعين تقريباً، عدتُ إلى لونغ آيلند".

"أهلاً بك مجدداً".

"شكراً. وعدتُ إلى زوجتي السابقة".

صمت قليلاً، ثم قال: "تهانينا. وكيف حال السيدة ساتر؟".

"ليست سيئة جداً، نظراً لعودتي إلى حياتها".

قهقه وقال: "لا تقلل من شأنك، سيد ساتر. إنها محظوظة بعودتك".

كان يلمّح ربما إلى كون سوزان ساتر، فضلاً عن ارتكابها الزنى مع سيد المافيا، قتلت أيضاً سيداً كان شاهداً حكومياً أساسياً بالنسبة إلى الأف بي آي في ما يتعلق بإمبراطوريته الجرمية. ولزيادة الأمر سوءاً، نجت سوزان من العقاب. باستثناء ذلك، أتمنى ألا يكون فيليكس مانوسكو يشعر بالضغينة حيال سوزان.

سألني: "إذاً، كيف أستطيع مساعدتك سيد ساتر؟".

قلت له: "لستُ واثقاً ما إذا كان بوسعك، لكن الوضع تطور هنا بحيث عادت جذوره إلى ما حصل قبل عشر سنوات".

"فهمت. وما هو هذا الوضع؟".

أجبته: "ابن فرانك بيلاروزا، أنطوني، يعيش في الحمرا؛ أحد تلك المنازل المشيدة هناك...".

"أعرف ذلك. هذا مثير للسخرية، أليس كذلك؟".

"نعم، لكن السخرية ليست هي المشكلة. المشكلة هي أن سوزان عادت من هيلتون هيد وابتاعت مجدداً منزلها في عقار ستانهوب و...".

"أفهم".

"عرفتُ أنك ستفعل. لقد عادت منذ شهرين تقريباً، وانتقلتُ للتو للعيش معها".

"حسناً. هل وجه أنطوني بيلاروزا أي تهديدات أو إفادات محددة ضدها مما يجعلها تعتقد أنه يكنّ لها الضغينة أو ينوي... الانتقام من موت والده؟".

"تقصد الثأر؟".

عرف السيد مانوسكو أن الثأر هو الكلمة الصحيحة وقال: "هذا تعبير جيد. و؟".

"في الواقع، لم يتحدث إليها. لكنه تحدث إليّ، وتولّد لديّ انطباع بأنه ينوي تسجيل هدف معادل".

"أفهم". ثم سألني: "وكيف حصل أن تحدثتَ مع أنطوني بيلاروزا؟".

لم يكن هذا هو السؤال الذي أنتظره، لأن فيليكس مانوسكو أمضى الكثير من الوقت وقدم الكثير من الجهد وهو يحاول إنقاذي من فرانك بيلاروزا. لذا، لم أكن متحمساً لإخباره بأنني كنت أتحدث مع ابن السيد بشأن فرص عمل.

“سيد ساتر؟”.

“حسناً، خطرت لأنطوني فكرة أنني قد أرغب في استئناف عملي مع عائلة بيلاروزا”.

“حقاً؟ ومن أين جاءته هذه الفكرة؟”.

شرحتُ له: “أعتقد من جاك واينشتاين. تذكره”.

“نعم، بالفعل. إنه محامٍ لامع آخر أضاع طريقه”.

لم أكن أحتاج إلى محاضرة، وإنما أحتاج إلى خدمة، ولذلك تابعت القول: “وكان أنطوني نفسه يملك هذه الفكرة، استناداً جزئياً إلى ما يذكره عما قاله له والده عني، بأنني عنصرٌ موضع ثقة ومهم في منظمته”. ثم أضفت، كمثل عن سبب ذلك: “أخبر فرانك بيلاروزا أنطوني أن جون ساتر أفضل من دمج بين الذكاء والحيلة”.

بقي صامتاً لبضعة ثوانٍ، ثم سألني السيد مانوسكو: “و؟”.

لم أرغب فعلاً في متابعة هذا الموضوع، فذكّرته: “أنا أذكر ذلك فقط في سياق سؤالك عن سبب حديثنا أنا وأنطوني. المسألة الحقيقية هي أن أنطوني أدلى لي بعبارات اعتبرتها بمثابة تهديد لسوزان”.

“مثل ماذا؟”.

“حسناً، عليك أن تفهم أولاً أن حديثي مع أنطوني جرى قبل عودتنا أنا والسيدة ساتر إلى بعضنا. حصلت هذه العودة قبل يومين فقط. ولذا، أظن أن أنطوني شعر بحرية حين أخبرني هذه الملاحظات عن سوزان، ظناً منه، أنني مثل معظم الأزواج السابقين، أدعو يومياً لموت زوجتي السابقة”.

ضحك السيد مانوسكو بتهذيب، ثم سألني مجدداً: “ماذا قال فعلياً؟”.

ذكرتُ له بعضاً مما قاله أنطوني بيلاروزا عن سوزان، وقاطعني بالسؤال: “كم مرّة تحدثتَ فيها معه؟”.

أجبته: “أربع مرات منفصلة”.

“حقاً؟”.

ظننتُ أنه سيقول: “أربع مرات كثير جداً”، لكنه لم يقل أي شيء آخر، ولذلك شرحتُ له فكرة إبقاء الأصدقاء قريبين والأعداء أقرب.

قال لي: “أظن أن مؤلفاً أو كاتب سيناريو أعدّ ذلك”.

كانت هذه خيبة أمل؛ إذ جعل الأمر يبدو وكأنه طرفة إيطالية. على أي حال، تابعتُ: “لقائي الأخير به كان يوم الأحد... في منزله”.

“حقاً؟”.

“دعاني لتناول الغداء”.

“حقاً؟”.

“لم أبقَ لتناول الغداء، طبعاً، لكنني انتهزتُ الفرصة لأخبره أن يذهب إلى الجحيم ويتوقف عن إزعاجي أنا وزوجتي المستقبلية”.

“وكيف تفاعل مع ذلك؟”.

“ليس جيداً”. أخبرته قليلاً عن زيارتي إلى منزل أنطوني، ولقائي السعيد بأمه، ولقائي برفيقي السابق، سالي دادا. ختمت بالقول: “كانت ملاحظة أنطوني الأخيرة لي، في ما يتعلق بشيء قلته: لن يغير ذلك حقيقة ما فعلته زوجتك. لإبلاغك فقط”.

بقي السيد مانوسكو صامتاً لبرهة، ثم سألني: “هل ذهبتَ إلى الشرطة؟”.

“نعم. البارحة. تقدمنا بشكوى”.

“هل أستطيع الحصول على تفاصيل زيارتك إلى... مركز الدائرة الثانية، صح؟”.

“صح”. أعطيته التفاصيل، وأعطيته اسم التحري أ.ج. ناستاسي، وذكرتُ له أن التحري ناستاسي ذهب البارحة إلى منزل أنطوني بيلاروزا، لكن يبدو أن أنطوني خارج المدينة. كان بإمكاني القول له إن أنطوني موجود ربما مع عائلة غوتي في سبرينغفيلد، ميسوري، لكنني لم أشأ أن أبدو مثل عنصر مافيا. إلا أنني ذكرتُ له أن التحري ناستاسي كان في حادثة إطلاق النار في الحمرا قبل عشر سنوات، ولذلك يملك برأيي معلومات جيدة واهتماماً جيداً بهذه القضية.

علّق السيد مانوسكو: “هناك الكثير من الأمور التي لم تنتهِ تلك الليلة”.

لم أجب على ذلك، لكنني قلت: “لست واثقاً كيف سيتفاعل التحري ناستاسي مع اتصالي بالأف بي آي”.

“لا تقلق بشأن ذلك، سيد ساتر. بعد أحداث 11 سبتمبر، نعمل جميعاً كفريق واحد، وتعلمنا تشارك المعلومات والتعاون على أصعدة عدة في تنفيذ القانون”.

لا يتطابق ذلك مع ما أخبرني به التحري ناستاسي، لكنني أجبته: “حسناً، هذا أمر جيد ناجم عن تلك المأساة. إذاً، سأخبره...”.

“لا تفعل ذلك. دعنا نفعل ذلك نيابة عنك”.

“أفهم... حسناً، قال التحري ناستاسي، بناء على اقتراحي، إنه سيتصل بقوة عمل الجريمة المنظمة في الأف بي آي لتنبيهها إلى هذه المشكلة. هل تم إبلاغك بمثل هذا الاتصال؟”.

“لا، لم يحصل. لكنني سأجري بعض الاتصالات ثم أعود إليك”.

قلت له: “فكرتُ في أن نلتقي”.

ذكّرني: “بصفتك محامياً، تعرف أن الأف بي آي لا تملك سلطة قانونية مباشرة في ما يبدو تهديداً شخصياً لا يرتبط بالانتماء المحتمل لأنطوني بيلاروزا إلى الجريمة المنظمة. إنها مسألة من اختصاص الشرطة المحلية”.

"أفهم ذلك، لكن...".

"لكننا نستطيع ربما مساعدة الشرطة المحلية. ونستطيع ربما أن نحدد ما إذا كان القانون الفدرالي ينطبق على ذلك".

"جيد".

أبلغني حينها: "لم أعد أعمل في قوة عمل الجريمة المنظمة. لكن... بما أنني عملت على القضية الأساسية، وبما أنك اتصلت بي مباشرة، أستطيع تقديم طلب يسمح لي الالتقاء بك. ثم أستطيع أن أساعدك لتلتقي بالأشخاص الملائمين هنا، إذا كان هذا مناسباً. ما زال لديّ اهتمام شخصي بالقضية".

"حقاً؟".

"لطالما كنت هكذا، سيد ساتر".

فهمتُ أنه اهتم بي شخصياً، بصفتي ربما جزءاً من دراسة تعليمية مستمرة حول كيفية تحول محامين أصحاب أخلاق عالية إلى محامي مافيا. أو أنه كان يستلطفني ربما. أما اهتمامه الآخر بالقضية، سواء أكان شخصياً أو مهنياً، فله علاقة بالاشتباه العام بأن المدعي العام الأميركي ألفونس فيراغامو، الذي يستلطفه عدد قليل من الأشخاص على ما يبدو، حضّر لفرانك بيلاروزا جريمة لم يرتكبها. وأخيراً، لم يكن السيد مانوسكو سعيداً حين طلبت وزارة العدل - السلطة الكبيرة لتنفيذ القانون، والتي يعتبر السيد مانوسكو عاملاً صغيراً جداً فيها - من سوزان الذهاب إلى المنزل، وعدم ارتكاب الخطيئة بعد الآن.

مازحني السيد مانوسكو: "لطالما أزعجتني هذه القضية".

قلت له: "وأنا أيضاً. لا أحتاج إلى إنقاذ روحي هذه المرة".

قهقه وذكّرني: "لم أنجز عملاً جيداً جداً في المرة الأخيرة".

"أفضل مما تظن".

"جيد. وأتمنى أن تكون تعلمتَ شيئاً من ذلك".

"جميعنا فعلنا، سيد مانوسكو. بما في ذلك أنت".

فكّر في ذلك ثم أجاب: "نعم، تعلمنا جميعاً شيئاً عن أنفسنا، وعن كيفية عمل العدالة، أو عدم عملها، سيد ساتر. لكن كل ما ينتهي جيداً يكون جيداً، وأنا سعيد لسماع أنك والسيدة ساتر عدتما إلى بعضكما".

في الواقع، أراد أن تكون السيدة ساتر في السجن - لا شيء شخصي، وإنما عمل فقط - لكنني أجبته: "شكراً". وفي خصوص اجتماع الأزواج مجدداً، سألته: "كيف حالك؟".

"جيد جداً. شكراً. كنت سأتقاعد بعد أسبوعين تقريباً حين ارتطمت الطائرتان بالبرجين. أنا أعمل الآن في قوة الإرهاب المشتركة".

"أفهم. حسناً، أعتقد أن العمل يكمن هناك هذه الأيام".

"هذا صحيح لسوء الحظ". ثم قال لي: "الجريمة المنظمة لم تصبح شيئاً من الماضي، لكنها لم تعد المشكلة الكبيرة مثلما كانت قبلاً".

"إنها كذلك بالنسبة إليّ، سيد مانوسكو".

وافقني الرأي وقال: "الوضع يحدد الموقف".

"صحيح. حسناً، أقدر اتصالك بي واهتمامك بهذا الموضوع".

"وأقدّر تفكيرك بي، سيد ساتر، وأشكرك على ثقتك بي".

"حسناً، أنا على وشك أن أصبح محامي ضرائب مجدداً، سيد مانوسكو، ولذلك فكّرت في أنني سأستفيد من بعض الخدمات الحكومية".

قهقه مجدداً، متذكراً، أنا واثق، كم كنت مسلياً. سألني: "هل من رقم هاتف خلوي أستطيع الاتصال بك بواسطته؟".

أجبته: "أنا محرج لقول لا. أحتاج إلى إنشاء بطاقة اعتماد وكل ذلك. لكنني سأعطيك رقم الهاتف الخلوي للسيدة ساتر". أعطيته له وقلت: "أخبرتها أنني اتصلت بك، وسأخبرها أننا تحدثنا، ولذلك لن تتفاجأ باتصالك، بالرغم من أنك قد تجدها...".

"منهارة؟".

"ما هو عكس منهارة؟".

"حسناً... تقصد القول أنها ليست منهارة من وجود أنطوني بيلاروزا بالقرب منها، ومن إفاداته الموجهة إليك، والتي تخصها؟".

"هذا ما أردتُ قوله. لكنني قلق".

"أنت محق. في الواقع، حسناً... لا أريد أن أزيد قلقك، لكنني أمضيت عشرين عاماً في التعامل مع مثل هؤلاء الأشخاص، وأظن أنني أعرفهم أفضل مما يعرفون أنفسهم. لذا، نعم، يحتاج أنطوني بيلاروزا إلى فعل شيء ما، سواء أراد المجازفة بذلك أم لم يرد. يحتاج إلى إحياء ذلك الرمز القديم، وإلا سيفقد الاحترام وسيضعف موقعه. إنها مسألة ثأر شخصي، لكنها أيضاً مسألة الموقع الريادي لأنطوني".

"أفهم. وأريدك أن تجعل السيدة ساتر تفهم ذلك من دون أن تخيفها".

"عليها أن تخاف".

لم أجب على ذلك، وسماع الأمر من العميل الخاص مانوسكو كان صدمة.

تابع القول: "ابقَ هادئاً، واتخذ بعض التدابير الوقائية، وابقَ على اتصال بالشرطة المحلية. أعتقد أنه يوجد خطر، لكنني لا أظن أنه وشيك".

"ولمَ لا؟".

"يمكننا مناقشة ذلك حين ألقاك. حسناَ، سأبذل كل جهد لألتقيك غداَ. هل أنت حر؟".

"نعم. أنا من دون وظيفة، وكذلك هي السيدة ساتر".

لم يجب على ذلك وقال: "أرجوك بلّغها تحياتي".

"سأفعل...". كنت على وشك إنهاء المكالمة ثم خطرت في بالي فكرة وقلتُ: "قد أؤمن لك المزيد من العمل سيد مانوسكو".

"ربما كان يجدر بي التقاعد".

ضحكتُ بتهذيب، ثم قلت: "شيء له علاقة بمهمتك الحالية في قوة عمل الإرهاب". لم يجب ولذلك تابعت: "الشخص الذي اشترى ستانهوب هال، السيد أمير نسيم، هو رجل نبيل إيراني المولد، وتحدثتُ معه الأسبوع الماضي. أخبرني بأنه قد يكون هدف مخطط اغتيال سياسي مصدره وطنه الأم، مثلما أعتقد".

"أفهم".

بدا أنه غير مهتم كثيراً بذلك لسبب ما، ولذلك قلتُ: "حسناً، يمكننا مناقشة هذا حين تأتي إلى هنا إذا أردت".

"أرجوك تابع".

"حسناً...". أعطيته لمحة موجزة وختمت بالقول: "قد يكون نسيم مصاباً بالخوف الشديد، أو قد تكون لديه دوافع أخرى لمشاركة مخاوفه معي. لكنني أنقل الأمر لك".

قال السيد مانوسكو: "شكراً. سأبحث في الموضوع. ومثلما نقول الآن للناس: إذا رأيتم شيئاً، قولوا شيئاً".

افترضتُ أن هذا مرتبط أيضاً بوكالات تنفيذ القانون، ولذلك ذكّرته: "أرجوك اتصل بالتحري ناستاسي".

تمنى لي السيد مانوسكو يوماً طيباً، وفعلتُ أنا الشيء نفسه.

حسناً، شعرتُ أنني التزمت جميع القواعد - بما في ذلك الإبلاغ عن نشاطات إرهابية محتملة في الجوار - وأنني أقوم بالفعل وليس بردة الفعل، وأن هذه الزاوية الصغيرة من العالم ستكون على الأقل أكثر أماناً مما كانت قبل يومين.

بعد قول ذلك، ما زلتُ بحاجة إلى العثور على البندقية.

هكذا، ذهبتُ إلى الطابق الأرضي، وأمضيتُ نصف ساعة أبحث في العلب الموضّبة، التي وضعت لصائق على معظمها، ولكن ما من واحدة ذكرت كلمة "بندقية" أو حتى "رماد الأصدقاء".

إلا أنني عثرتُ على علبة كتب عليها "جون". افترضت أنه أنا، وستطلب مني إميلي بوست عدم فتحها. لكن مع التبرير القائل إن سوزان فتشت في منزل

الحراسة... والأفضل من ذلك أن البندقية قد تكون هنا، بالرغم من أن العلبة صغيرة قليلاً. على أي حال، مزقت الشريط بقطاعة العلب وفتحتُ الغطاء.

في الداخل، كانت هناك كدسات من رسائل الحب، والبطاقات، والصور، وبعض التذكارات السخيفة التي أحضرتها لسوزان خلال رحلات عمل.

كانت هناك أيضاً بعض رسائل البريد الإلكتروني المطبوعة فوق الأغراض القديمة، وأخذتُ واحدة ولاحظتُ أنها من سوزان إليّ في لندن، مؤرخة قبل أربعة أعوام. قالت الرسالة: "جون، أنا آسفة لسماع خبر العمة كورنيليا. سأكون في نيويورك لحضور الدفن، ويقول إدوارد إنه سيحضر هو أيضاً. أردت فقط إبلاغك. أتمنى رؤيتك هناك وأتمنى أن تكون بخير. سوزان".

وكان جوابي ملحقاً: "سأكون هناك، وكذلك إدوارد".

جواب قصير وغير لطيف جداً.

لم تكن لديّ فكرة عن سبب طباعتها هذه الأوراق. حسناً، أنا أملك فكرة، والغريب - أو ربما ليس الغريب كثيراً - أن رؤية هذا مؤلمة فعلاً. كانت تحاول التودد إليّ، وأنا كنت بعيد المنال.

لكن مثلما قال السيد مانوسكو ووليام شيكسبير، كل ما هو جيد ينتهي جيداً. حتى لو أضعنا جميعاً بعض السنوات التي لم يكن يجدر بنا إضاعتها.

وقفتُ هناك - مع ذاك البريد الإلكتروني أحمله في يدي، ولم أعثر بعد على البندقية، فيما كلمات قلق فيليكس مانوسكو تراود ذهني، والماضي يلقي بشبحه على المستقبل الساطع لي ولسوزان - خطرت في بالي فجأة فكرة ضرورة قتلي لأنطوني بيلاروزا.

الفصل الأربعون

تعود سوزان دائماً من جولات ركضها عبر حديقة الورود متعبة، ولذلك جلستُ على المصطبة أحمل قنينة من الماء البارد ومنشفة، في انتظارها. ذهبت منذ أكثر من ساعة، لكنني لم أقلق بالرغم من ذلك. لم أكن غير قلق تماماً. خطر في بالي أننا لا يمكننا الاستمرار في العيش هكذا لفترة طويلة.

حملتُ معي أحد هواتفها اللاسلكية، وطلبتُ رقم هاتفها الخلوي. تم تحويلي إلى المجيب الصوتي، وتركتُ لها رسالة وقررتُ الذهاب للبحث عنها.

أخذت الهاتف اللاسلكي معي، الذي يملك نطاقاً محدوداً لكنه أفضل من لا شيء، وذهبت إلى الجهة الأمامية للمنزل، وركبتُ إلى سيارة التوروس خاصتي.

رنّ الهاتف اللاسلكي، وأجبت: "جون ساتر".

ارتحتُ لسماع صوت سوزان يقول: "أنا هنا...". كانت تلهث، وأضافت: "على المصطبة".

"سآتي فوراً".

عدتُ إلى المصطبة، وكانت سوزان تقف على الممرّ في حديقة الورود، منحنية إلى الأمام ويداها على ركبتيها، تأخذ نفساً عميقاً.

قلتُ لها: "أين وضعتِ هاتفك؟".

أجابت: "لا تسأل".

تساءلتُ ما إذا كان مضبوطاً على ميزة الرجّ.

جاءت إلى المصطبة، ووضعت هاتفها الخلوي على الطاولة، ثم مسحت وجهها وجسمها المتعرقين بالمنشفة. شربت كمية كبيرة من المياه، ثم قالت: "رأيت نسيم، وضاعف لي عرضه".

ابتسمتُ وأجبت: "لو كنت مكانه، لدفعتُ لك لتبقي".

وضعت منشفتها على الكرسي الهزاز، ثم وضعت قدميها على الطاولة. طلبت مني أن أساعدها في خلع حذائها، وهذا ما فعلته بالترافق مع جواربها. حرّكت أصابع قدميها، مما يعني أنه يجدر بي فرك قدميها، وهذا ما فعلته فيما سكَبت هي الماء فوق رأسها، ثم شربت الكثير من الماء. أرجعت رأسها إلى الخلف، وأخذت نفساً عميقاً وسألت: "ماذا كنت تفعل؟".

"تمارين بيلاطس".

ابتسمت، ثم قالت: "إنه وقت احتساء المشروب، وحان دورك لتحضرها بنفسك". طلبت: "غراي غوز وعصير التوت البري".

سألتها: "هل أحضر لك شيئاً ما فيما أنا في الداخل؟".

"لا. أحب فعلاً أن أبقى كما أنا".

لا جدل هنا. ذهبتُ إلى المطبخ وحضرتُ لها مشروبها وحضرت لنفسي مشروباً اسكتلندياً مع صودا. أفرغتُ أيضاً علبة الفول السوداني في وعاء للإيحاء بأن المشروب ليس كل شيء.

كلمة عن هذا؛ كانت هناك مجموعة تكثر من احتساء المشروبات. واحتساء المشروبات كان بمعظمه اجتماعياً، وليس إدماناً مفرطاً، بالرغم من أنني واثق من أنه يتم احتساء الكثير من المشروبات في المنزل. على أي حال، كنا أنا وسوزان ربما عند أدنى مستويات المعدل الأسبوعي لاستهلاك المشروبات، لكن وفق معايير منطقة نائية في الغرب الوسطي، يتم استدعاؤنا إلى المحكمة وإدانتنا. وبما أن مستوى اليقظة المحلي ارتفع عندنا ليصل إلى اللون الأحمر، سنُنصح جميعاً بالحدّ من احتساء المشروبات.

حملتُ كل شيء إلى الخارج على صينية.

أعطيتها مشروبها، وطرقنا كأسينا، وقلت لها: "نخب الصيف".

جلستُ، واحتسينا نحن الاثنان كأسينا وتناولنا الفول السوداني، واستمتعنا بالهدوء والنسمة الخفيفة التي تحركت عبر الأشجار المحيطة بحديقة الورود.

قلت لها: "قلقتُ قليلاً".

لم تجب لبضع ثوانٍ، ثم قالت: "أنت تقلق كثيراً".

عرفتُ أن هذا سيكون جوابها، فقلتُ لها: "ثمة شيء فعلاً للقلق بشأنه".

"أعرف، لكن... ما الذي يمكننا فعله؟".

هناك عدد من الأمور التي يمكننا فعلها، لكنها لا تريد فعلها. قلتُ لها: "بحثتُ في الطابق الأرضي عن البندقية، لكنني لم أجدها".

"قد تكون في مكان آخر".

"إذا لم نتمكن من العثور عليها غداً، سأشتري واحدة أو أشتري سلاح رماية".

ذكّرتني: "أنا أجيد استعمال البندقية".

ليست سيئة أيضاً في استعمال سلاح الرماية، لكن هذا موضوع حساس. قلتُ لها: "حين كنتِ خارجاً، تحدثتُ إلى فيليكس مانوسكو".

أومأت برأسها، وتابعتُ: "يريد ترتيب لقاء معنا، غداً ربما، وأعطيته رقم هاتفك الخلوي".

"أظن أنه حان الوقت لتحصل على هاتف خلوي خاص بك".

"ليس هذا المهم".

"تكاد تفلسني".

"سوزان... أرِيدك فعلاً أن تخرجي رأسك من تحت الرمل وتبدأي بمساعدتي".

أجابت: "حسناً. سأفعل ما تطلبه مني".

هذا هو طبعاً حديث الزوجة بدلاً من القول "أنت متنمّر ومعقد، وأنا الضحية العاجزة أمام شخصيتك المهيمنة، لكنني سأفعل ما تطلبه مني، حبيبي".

سألتني: "ألم أتبع تعليماتك بالركض داخل الملكية، وأخذ هاتفي الخلوي، وعدم ارتداء السروال القصير؟ انظر إليّ. توجب عليّ الركض شبه عارية في الجوار بسببك".

يصعب الغضب من امرأة جميلة شبه عارية، لكنني اقترحتُ عليها: "عند اتباع تعليماتي، لا تتقيدي بحذافير الكلمات".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت بجدية أكبر: "لا يحب أحد أن يحمل الخبر السيئ. أنت فقط ناقل الرسالة، وأنا تلقيت الرسالة".

"أعرف ذلك".

"وأحب قلقك عليّ".

أردتُ القول لها إن فيليكس مانوسكو يشاركني قلقي، لكن من الأفضل أن يقول لها ذلك بنفسه.

صعدنا إلى الأعلى إلى غرفة نومنا، وقالت لي سوزان: "الركض شبه عارية يجعلني ساخنة".

لذا، اهتممنا بذلك، ثم استحممنا. وفيما كنا نرتدي ثيابنا لتناول العشاء في الكريك، رنّ الهاتف الخلوي لسوزان، ونظرت إلى الشاشة وقالت: "أظن أنه لك".

أخذتُ الهاتف فسمعت صوت فيليكس مانوسكو يقول: "ماذا عن العاشرة من صباح غد؟".

"جيد. تعرف أين نحن".

"نعم".

في الواقع، جاء مرتين إلى هنا بسبب العمل؛ مرة لإيصالي إلى المنزل من مانهاتن بعد محاولة قتل بيلاروزا، ومرة ليقول لي إن زوجتي قتلت للتو فرانك بيلاروزا في المنزل المجاور. قلت له: "أراك حينها"، وأنهيت المكالمة. قلتُ لها: "غداً في العاشرة صباحاً". ثم أضفت: "أريدك أن تكوني جاهزة".

"طبعاً، حبيبي".

قدتُ سيارة اللكزس الخاصة بسوزان في الممرّ الطويل وعبرتُ أمام منزل الحراسة، الذي بدا الآن مظلماً وموحشاً. خلال يوم تقريباً، سيُسكن السيد نسيم رجاله هنا، إلا إذا اطمأن من أن ما من أحد يحاول فعلاً اغتياله. كانت مخاوفي أكثر واقعية، ولذلك لا أكترث فعلاً إذا اضطررت إلى العبور أمام نقطة تفتيش نسيم للوصول إلى منزلي. فأي نوع من الحماية مفيد، بالرغم من أنني ذكّرت نفسي بأن رجال أنطوني بيلاروزا قد يضربون ضربتهم في أي مكان.

من أحد مخاوفي المباشرة كان دخولي مجدداً نادي الكريك الريفي. على الصعيد الإيجابي، لم يتم قتل أحد هنا قبلاً خلال العشاء، بالرغم من أنني فكرتُ في ذلك حين كان رفاقي في العشاء يضجرونني حتى الموت. قلتُ لسوزان: "لإبلاغك، لستُ متحمساً للذهاب إلى الكريك".

أجابتني: "سيكون كل شيء بخير. أنت معي".

"صحيح". ما زلت لا أفهم سبب العفو عن سوزان لارتكابها جريمتها، فيما كتب اسمي على اللائحة السوداء بسبب اصطحابي سيد المافيا إلى الكريك لتناول العشاء. حسناً، أنا أفهم؛ لقد خرَقَت فقط القانون؛ أما أنا فخرقتُ قوانين النادي غير المكتوبة. بالإضافة إلى ذلك، إنها من آل ستانهوب. وفي ما يتعلق بعلاقتها الغرامية مع "السيد الذي جاء إلى العشاء"، كان ذلك مثيراً جداً لكتابة اسمها على اللائحة السوداء. في الواقع، يجدر بهم منحها عضوية مجانية لمدة سنة.

يقع نادي الكريك على مسافة عشر دقائق بالسيارة من ستانهوب هال، وقبل أن أتمكن من التفكير في سبب جيد للاستدارة، دخلنا في الطريق الطويلة المحاطة بالأشجار المؤدية إلى مدخل النادي.

نادي الكريك الريفي هو مكان جميل جداً فيه ملعب غولف، وشاطئ وأكواخ على ساوند، وملاعب تنس، ومنازل ضيوف سنقيم فيها أنا أو آل ستانهوب لفترة قصيرة. مبنى النادي هو قصر قديم لا يزال يكشف عن السحر والرقي، والطعام جيد بعد احتساء بضعة أنواع من المشروبات، ويصبح أفضل بعد احتساء قنينة أو قنينتين من الشراب الفرنسي. الخدمة غير موجودة أحياناً، لكن هذا جزء من السحر الذي حاولتُ شرحه للسيد فرانك بيلاروزا حين كان هو وآنا ضيفينا هنا. لم يفهم فرانك تماماً التقليد القديم لتقديم طعام النادي والخدمة الغريبة، التي جعلت منه شخصاً أخرق وغير متكلف. كانت هناك مشاكل أخرى مرافقة لزيارته هنا في تلك الليلة، بما في ذلك ملابسه الفاخرة هو وزوجته، وصراخه على ريتشارد، النادل العجوز الذي عمل هنا منذ زمن، ورغبته غير الواقعية وغير المفهومة في أن ينتسب إلى النادي. لكن الحمد لله أنني تفاديتُ هذا الوضع الغريب حين قتلته سوزان.

ركنتُ السيارة في المرأب الصغير ودخلنا. دونت سوزان اسمها، ومررنا أمام المشرب وقاعة الاستراحة التي كانت مزدحمة باحتمالات غير جميلة. قادتنا النادلة مباشرة إلى غرفة الطعام، وأرشدتنا إلى طاولة لشخصين في الزاوية، ثم دونت طلباتنا من مشروبات.

لم يكن هناك العديد من الأشخاص الذين يتناولون العشاء تلك الليلة، لكنني رأيتُ بعض الوجوه المألوفة، لكنهم لم يكونوا أصدقاء قدامى أو زبائن قدامى.

سألتني سوزان: "هل أنت سعيد لوجودك هنا؟".

أجبتها: "حين أكون معك، حبيبتي، أستطيع أن أكون سعيداً في أي مكان".

"جيد. سنحضر والديّ إلى هنا ذات ليلة".

طمأنتها: "إذا كانا يرتاحان لذلك، فإنني أتطلع بشوق إلى هذا".

بدت مشككة قليلاً، لكنها قالت: "إنهما يحبانني ويريدان أن أكون سعيدة".

"إذاً نملك جميعاً شيئاً مشتركاً".

اقترحت: "قد نقيم حفل زفافنا هنا".

"لا أريد أن يتكلف والدك هذه النفقة مجدداً. أقصد، الزوج نفسه وكل ذلك".

قالت لي: "نحن من سيدفع كلفة هذا الحفل".

تساءلتُ من دفع تكاليف حفل زفاف سوزان إلى دان لا أعرف اسمه. اقترحتُ: "فلنبقِ دعوات الحفل مختصرة".

"يمكننا ربما إقامته خارجاً في منزل الضيوف".

"لا تنسي دعوة آل نسيم. إنهما يحبان حضور حفل الزفاف".

تذكرت وقالت: "حفل زفافنا في ستانهوب هال كان في مستهل فصل الصيف".

يبدو أن سوزان نسيت أنه كان حفل ذا موضوع معين، وأن الموضوع الذي حدده والدها كان "فلنعد إحياء الحرب العالمية الثانية"؛ مع كمية قليلة من الطعام ونقص في المشروبات، وشروط قاسية بعد العاشرة مساء. قلت لها: "كانت ليلة لا تنسى".

خطرت في بالها فكرة جيدة وقالت بتعجب: "جون، دعنا نقيم هذا الزفاف في سيوانهاكا!". نظرت إليّ وتابعت: "هناك التقينا، وأنت بحار، فيكون ذلك مثالياً".

كل ذلك الحديث عن الزفاف جعلني عصبياً، فوافقتُ معها لإنهاء الموضوع. "مثالي".

"رائع. سأتصل غداً وأرى ما هو متوافر".

"اتصلي بي أيضاً لتعرفي إذا كنتُ متوافراً".

استوعبت ذلك جيداً وابتسمت.

جاءت النادلة تحمل المشروبات - كأسين من الشراب الفرنسي الأبيض – وقدمت لنا لوائح الطعام.

طرقنا أنا وسوزان كأسينا وقلت لها: "على أمل أن تكون المرة الثانية أجمل".

"أنت رائع جداً".

تصفحتُ قائمة الطعام لأرى ما إذا كانوا قد أضافوا طبقاً إيطالياً بعد أن تناول سيد المافيا الشهير عشاءه هنا. لحم بيلاروزا؟ كرات لحم بندقية السيد؟ معكرونة البندقية المصنوعة من قذائف حقيقية؟

قالت سوزان: "أطلب كمية معقولة من الطعام".

"كنت أفكر في دجاج كيفلار".

"أين رأيت ذلك؟".

"المقبلات، السطر الثالث".

نظرت وقالت: "هذا دجاج كييف".

"أوه... صح، كييف". وضعتُ القائمة على الطاولة وقلتُ: "تصعب القراءة مع هذه الإنارة. اطلبي أنتِ لي".

عادت النادلة، وطلبت سوزان السلطة المفرومة لشخصين، وسمك القدّ المسلوق لشخصين، مما جعل اللعاب يسيل في فمي لمجرد التفكير في ذلك.

على أي حال، كان عشاء ممتعاً وخالياً من الأحداث المهمة في نادي الكريك، ولم يقاطعه أي شخص نعرفه، وكنت شاكراً لأنها كانت أمسية هادئة في غرفة الطعام.

لكن في الطريق إلى الخارج، ألقيت نظرة خاطفة على المشرب وقاعة الاستقبال، ورأيتُ عدداً من الأشخاص الذين أعرفهم، واستطاع بعضهم رؤيتنا أنا وسوزان. في الواقع، رأيتُ سيدة على إحدى الطاولات ذكّرتني بأمي. في الواقع، إنها أمي، تجلس مع أربع سيدات من عمرها.

لم ترَني، ولذلك تابعتُ المشي في اتجاه الباب الأمامي.

لم أرَ أمي منذ دفن العمة كورنيليا قبل أربعة أعوام، بالرغم من أننا كنا نتحدث عبر الهاتف مرة كل شهر تقريباً، ونتبادل بطاقات المناسبات الملائمة. دعوتها إلى لندن، لكن مثل العديد من المواطنين المهمين هذه الأيام، كانت مشغولة جداً. بالفعل، إنها تسافر كثيراً مع الكبار في السن؛ ليس إلى لندن، وإنما إلى أماكن غريبة حيث تستطيع التواصل مع الطبيعة والتعرف إلى أشخاص فطريين يكونون حكماء، ونبلاء، وغير ماديين، وربما غير صحيين. لم تقبل عرضي باصطحابها إلى متحف الحرب الإمبراطوري.

كانت هارييت عضواً مؤسساً في الحزب الاشتراكي المعارض، وترفض مبدئياً الانضمام إلى نادٍ خاص، وإنما لا تتردد في أن تكون ضيفتي أو ضيفة شخص آخر. والآن، بعد موت والدي، يبدو أنها أصبحت ضيفة لما يسميه بعض الأعضاء نادي الأرامل للنحيب والبكاء. كنت أرى مثل هذه السيدات في قاعة الاستقبال هنا، يشربن الشراب الفرنسي أو المشروبات، ويتحدثن عن أزواجهن الأعزاء الذين ماتوا بعاطفة أكبر كثيراً من تلك التي كنّ يشعرن بها حين كان أزواجهن على قيد الحياة.

تابعت المشي مع سوزان نحو الباب الأمامي. لكنني توقفتُ بعدها وقلت: "حان الوقت لرؤية الوحش".

"ماذا تقصد؟".

"أمي في قاعة الاستقبال".

"جون، هذا مريع. فنلذهب لنقول لها مرحباً".

أرجعنا خطواتنا إلى الخلف ودخلنا إلى قاعة الاستقبال.

لمحتنا هارييت حين دخلنا، فوقفت، وأطلقت صرخة فرح. "جون! جون!". قالت لصديقاتها: "أيتها الفتيات! إنه ابني، جون! أوه، كم ابتسم لي الحظ الليلة".

لم تكن هذه كلماتها. في الواقع، إنها لا تملك أي كلمات لأنها تتأثر كثيراً بالعاطفة.

مشيتُ نحو الطاولة برفقة سوزان، التي أخذت المبادرة وانحنت صوبها وتبادلت العناق والقبلات مع حماتها السابقة والمستقبلية. فعلتُ الشيء نفسه.

عرّفتنا هارييت إلى صديقاتها بالقول: "أيتها السيدات. هذا ابني، جون الذي يذكرنه بعضكنّ. وهذه زوجته السابقة، سوزان ستانهوب، التي أظن أنكن تعرفنها أو تعرفن أهلها". ثم عرّفتنا على السيدات الأربع، وتذكرتُ بالفعل الأرامل السعيدات أو أزواجهنّ المراحيم، الذين كان بعضهم لا يزال على قيد الحياة حين رأيتهن في المرة الأخيرة.

كانت هارييت ترتدي ثياباً أنيقة من أسلوب السبعينيات، وتنتعل ربما الصندال نفسه الذي انتعلته في مظاهرتها الأولى المناهضة للحرب. كان ذلك قبل حرب فيتنام، وكانت بالتالي حرباً أخرى، بالرغم من أنها لا تزال غامضة حتى هذا اليوم. تملك هارييت شعراً رمادياً طويلاً أظن أنه ولد معها، والمجوهرات الوحيدة التي تضعها مصنوعة من قبل أشخاص فطريين أفسدتهم الحضارة الغربية وهم يردّون الآن الخدمة لها.

تحدثنا قليلاً مع السيدات لمدة دقيقة تقريباً، وشعرتُ أن بعض الأشخاص أمام المشرب والطاولات بدأوا يتكلمون عنا. لم أجذب هذا القدر من الانتباه منذ أن تناولنا المشروب هنا مع آل بيلاروزا قبل عشرة أعوام.

لم تدعُنا هارييت للجلوس، ولذلك انتهزت سوزان الفرصة للقول لأمي وصديقاتها: "سأسرق هارييت لدقيقة، إذا لم تكن هناك من مشكلة".

اعتذرت هارييت من صديقاتها، وذهبنا إلى الردهة. إذا كانت أمي تتساءل عن سبب وجودنا أنا وسوزان معاً، فلن تفكر كثيراً لتعرف، ونظرت فقط إلى سوزان.

قالت لها سوزان: "يريد جون أن يخبرك شيئاً".

بالفعل، هناك الكثير من الأمور التي أريد إخبارها لهارييت، لكنني قاومتُ رغبتي وقلت: "لقد تصالحنا أنا وسوزان".

أومأت هارييت برأسها.

تابعتُ: "وسنتزوج مجدداً". أعطيتها المزيد من الأخبار الجيدة وقلتُ: "لقد انتقلتُ من لندن".

أومأت برأسها مجدداً، ثم نظرت إلى سوزان كما لو أنها تريدها أن تؤكد هذا الهراء.

قالت لها سوزان، ببساطة وصراحة: "لم نتوقف أبداً عن حب بعضنا، وقد سامحني جون".

أجابت هارييت كما لو أنها تعرف نوعاً ما كل هذا وقد تمرّنت قبلاً على جواب جيد. سألت: "هل سامحتِه؟".

كان هذا سؤالاً مبطناً، لكن سوزان أجابت: "لقد ناقشنا كل ما يتعلق بالأذى الذي سببناه لبعضنا، ووضعناه خلفنا ونحن مستعدان للمضي قدماً".

نظرت هارييت إلينا معاً، ثم قالت: "حسناً، أيها الولدان"... - هكذا تسمينا - "عليّ القول إن هذا مفاجئ، ولا أعرف ماذا أقول".

هيا هارييت، قولي فقط: "اللعنة عليكما" وعودي إلى صديقاتك.

قالت لها سوزان: "أريدك أن تكوني سعيدة لأجلنا".

تجنّبت هارييت ذلك وسألت: "هل تحدثتما إلى ويليام وشارلوت؟".

أجابت سوزان: "أردنا أن تكوني أول من يعلم، بالرغم من أننا اتصلنا قبلاً بإدوارد وكارولين، وكانا مسرورين".

"أنا واثقة من ذلك".

تابعت سوزان: "نقدّر لكِ إذا لم تذكري هذا الأمر أمام أي كان إلى أن تتاح لنا فرصة القيام بذلك".

أومأت هارييت برأسها مجدداً، ثم قالت لسوزان: "لا أعتقد أن والديك سيوافقان على ذلك سوزان".

أجابت سوزان: "نودّ الحصول على موافقتهما، لكننا مستعدان للمضي قدماً من دونها".

"حقاً؟".

يعني ذلك طبعاً أن هارييت تأمل في أن نفهم أن كلمة "موافقة" في هذا السياق تعني المال.

قالت سوزان لهارييت: "لقد ناقشنا أنا وجون كل ذلك".

"حسناً. لكن أتمنى ألا يجعل زواجكما والديكِ غريبين عن حفيديهما".

تعريف "غريب": الحرمان من الوصية، قطع المبلغ المالي، تصرف الجد بحسابك المصرفي. وهذا من امرأة لا تكترث بالثروة الموروثة، إلا إذا كان المال القذر سيذهب إلى حفيديها. كانت هارييت مثالاً نموذجياً في التناقضات والنفاق.

أجابت سوزان: "لا أفهم كيف سيؤثر زواجنا مجدداً في علاقة والديّ بحفيديهما الكبيرين".

"أتمنى ألا يحصل ذلك".

نفد صبري قليلاً من هذا النوع من الحديث المهذب والمراوغ، ولذلك قلتُ لأمي: "لا حاجة لأن تكوني سعيدة لأجلنا، أو لتعطينا بركاتك، أو حتى تأتي إلى زفافنا. لكن عليكِ أن تهتمي بشؤونك الخاصة".

نظرت إليّ هارييت كما لو أنها تحاول أن تفهم من أكون، أو كيف وصلتُ إلى هنا. قالت لي: "جون، أنت فظ".

تابعتُ فظاظتي وقلتُ: "بحق الله، هارييت، الحياة قصيرة جداً لكي تقفي هناك من دون ابتسامة، أو عناق، أو حتى كلمة جميلة لنا".

قالت سوزان بهدوء: "جون...".

أعلنتُ: "سنغادر. عمتِ مساء أمي".

اتجهتُ نحو الباب وقالت هارييت: "جون".

استدرتُ، فتقدمت نحوي، وتوقفت ونظرت إلي. نظرنا إلى بعضنا لبرهة، ثم قالت: "أنا أيضاً أرغب في ابتسامة، أو عناق، أو كلمة جميلة منك".

هارييت جيدة جداً في قدرتها على التحول من معتدية إلى ضحية، من مضطهِدة إلى أم الشهيد، ومن ملكة جليد إلى كتلة عواطف بلمح البصر. لذا، أجبتها مثلما كنت أفعل دائماً منذ أن فهمتها للمرة الأولى حين كنت طفلاً، وعانقتها، وتبادلنا القبل وتصالحنا حتى المرة التالية.

كانت سوزان تبتسم، وشكّلنا مجموعة جميلة ومشوشة. كنت مستعداً لإعطاء سنتين من عمري مقابل كأس من الشراب الاسكتلندي مثلث، وكذلك هارييت.

على أي حال، حافظنا على ابتساماتنا، وقالت لنا هارييت: "فاجأتني أخباركما، وطبعاً أنا سعيدة لأجلكما".

قالت لها سوزان: "أعرف ذلك. جون هو أروع رجل في العالم، والرجل الوحيد الذي أحببته".

لم أكن واثقاً من هذا الجزء الأخير، ولم تكن هارييت واثقة من الجزء الأول، لكنها قالت: "هذا رائع".

قلتُ: "العودة رائعة".

نظرت إليّ سوزان نظرة انزعاج، ثم قالت لهارييت: "سنتركك لتعودي إلى صديقاتك".

أجابت هارييت: "أفترض أننا سنلتقي جميعاً في الدفن".

قالت سوزان: "لا أعرف ما إذا علمتِ بالأمر، لكن إيثيل دخلت في غيبوبة".

أومأت هارييت برأسها: "نعم، لقد علمت. أخشى أن النهاية قريبة". ثم قالت مؤنبة: "إيثيل ألارد سيدة رائعة".

حسناً، تظن هارييت ساتر ذلك.

تمنينا لبعضنا ليلة طيبة، وتوجهنا أنا وسوزان إلى السيارة. قالت سوزان: "أنا مسرورة لأنك تخطيتَ ذلك".

لم أكن واثقاً ما إذا كانت تعني تناولنا العشاء في النادي أو لقائي مع السيدة ماكبيث.

فكرت سوزان في المستقبل وقالت: لن يكون ذلك سهلاً، أليس كذلك؟".

انتهزتُ هذه الفرصة للقول: "أظن أنه يجدر بنا الانتقال بعيداً".

"فعلنا ذلك. والآن عدنا. معاً".

طمأنتها: "العودة رائعة".

"تبدو أمك جيدة".

"تحضر ماكياجها الخاص من النفايات الطبية المعاد تدويرها. معظمه من الدم والمادة الصفراوية".

"جون".

"هل تظنين أننا ولدان بالتبني؟".

طمأنتني بالقول: "بالرغم من كل أخطائهم، فإنهم يحبوننا".

"حسناً، أخذتِ فكرة عن ذلك الحب الغريب قبل دقيقتين. لا يسعني الانتظار لرؤية ردة فعل والديك على هذا".

فكرت سوزان لبرهة، وابتسمت، ثم قالت: "المشكلة فينا ربما".

"لا بد أنك تفكرين في شيء ما".

ركبنا السيارة وعدنا مجدداً إلى ستانهوب هال. بعد التحدث إلى فيليكس مانوسكو، لم أكن أتطلع إلى الدخول إلى منزل الضيوف ليلاً، لكن سوزان لم تفكر في هذا، وتحدثت عن مستقبلنا فيما كنت أفكر أنا في الدقائق العشر القادمة.

الفصل الحادي والأربعون

كانت ليلة مظلمة، واختفى القمر وراء غيوم المطر المتكدسة. طلبتُ من سوزان القيادة، وفيما اقتربت من البوابات المغلقة لستانهوب هال، نقرت زر آلة التحكم عن بعد، وفُتحت البوابات ببطء إلى الداخل.

اجتزنا منزل الحراسة، وأغلقت البوابات تلقائياً خلفنا.

كان الممر الممتد على ثلاثمئة ياردة المؤدي إلى منزل الضيوف ضيقاً، وملتوياً، ومحاطاً بالأشجار العملاقة، لكن سوزان اعتبرت دائماً الأمر بمثابة تحدٍّ أكثر مما هو خطر، وبدأت تزيد السرعة.

"خففي".

"جون".

"توقفي!".

ضغطت على المكابح وسألت: "ماذا؟".

تمددتُ نحوها وأطفأت المصابيح الأمامية، ثم قلتُ: "هيا. ببطء".

نظرت إليّ، ثم فهمت وبدأت تقود ببطء في الممر المرصوف بالحصى التي انسحقت تحت الإطارات. قالت بهدوء: "لا أصدق أنه علينا فعل هذا".

لتهوين المسألة، قلتُ ممازحاً: "نسيم يفعل ذلك كل ليلة".

تابعنا التقدم، وطلبتُ هاتفها الخلوي، فأعطتني إياه وضغطتُ على 9-1-1، لكنني لم أرسل الاتصال.

بدا منزل الضيوف إلى يسارنا، على مسافة مئة ياردة تقريباً، ولمحتُ أيضاً الأنوار في ستانهوب هال، الواقع على مسافة ربع ميل تقريباً خلف منزل الضيوف. إذا كان نسيم يراقب بمنظاريه، فقد يظن أن المجرمين آتون إليه.

فيما اقتربنا أكثر من المنزل، رأيتُ بعض الأضواء داخل المنزل، وضوءين خارجيين؛ واحد معلق فوق الباب الرئيسي وواحد على عمود حجري للإشارة إلى المنعطف المؤدي إلى ستانهوب هال. استدارت سوزان إلى اليسار عن الطريق الرئيسي متجهة نحو طريق منزل الضيوف، وقلتُ لها: "استديري في الفناء الأمامي".

فيما وصلنا إلى الفناء الأمامي أمام منزل الضيوف، أدارت سوزان سيارتها بحيث أصبحت السيارة رباعية الدفع متجهة مجدداً نحو الطريق.

أعطيتها الهاتف الخلوي وقلتُ لها: "سأتحقق من المنزل، وتبقين أنتِ هنا، مستعدة للانطلاق بسرعة، واتصلي بالرقم 911. وانقري زر الخطر في لوحة المفاتيح".

"جون، إذا كنتَ تظن أن هناك خطر ما، فدعنا نذهب إلى فندق الليلة".

أجبتها: "لا أظن أنه يوجد خطر، لكن أظن أنه يجدر بنا اتخاذ التدابير الوقائية العادية".

"هذا ليس عادياً".

"إنه الآن". ثم ابتسمتُ وقلت: "ابقي هنا، وابقي يقظة".

"جون...".

خرجتُ من السيارة رباعية الدفع، ومشيتُ نحو الباب الأمامي وتأكدتُ من أنه مقفل، ثم ذهبتُ إلى الممر الجانبي المؤدي إلى حديقة الورود لأرى ما إذا كانت هناك نوافذ مفتوحة أو مكسورة.

ذهبتُ إلى المصطبة الخلفية وتحققتُ من النوافذ والأبواب، ونظرتُ إلى الداخل. ثم انتقلتُ إلى الجهة الأخرى من المنزل، وفيما كنت أنعطف حول الزاوية، تحرك شيء ما في الظلام فجمدتُ في مكاني.

تركتُ مصباحاً مضاء في غرفة الجلوس، وكان الضوء الآتي من النافذة ينير رقعة من الممر الجانبي، ولمحت أحدهم في الضوء. إنها سوزان. لمحتني وقالت: "يبدو كل شيء جيداً هنا".

"قلتُ لك أن تبقي في السيارة".

"بقيتُ في السيارة. ثم خرجتُ من السيارة. أخذتَ وقتاً طويلاً".

غضبتُ كثيراً منها، لكنني تأثرتُ في الوقت نفسه بشجاعتها. سوزان ليست خجولة، ولا تتقبل الأوامر جيداً، ولا تملك الكثير من الصبر مع الرجال الذين يريدون حمايتها. لاحظتُ ذلك عشرات المرات عندما كنا في البحر، ومرات عدة حين كنا نمتطي الخيل في الأرياف. لذا، قلتُ لها بهدوء: "تعلمتُ في الجيش أن كل ما نحتاج إليه هو اتباع الأوامر، وتنفيذ فقط ما طُلب منا، كي لا يفاجئنا أحدهم. لو كنت أحمل مسدساً، لقتلتكِ الآن ربما".

"انتظر حتى نتزوج".

لم يكن المنطق يجدي نفعاً، ولذلك استسلمتُ ومشيتُ نحو باب المطبخ وفتحته وقلت: "انتظري هنا".

ذهبتُ مباشرة إلى الردهة لأتأكد بنفسي من أن باب الطابق السفلي مقفل، ثم قمتُ بجولة سريعة في الطابق الأرضي، وأشعلتُ الأنوار في كل غرفة. مثلما قلتُ، إنه منزل كبير، ولا أنوي التحقق منه غرفة غرفة كلما عدنا إلى المنزل. لكن في الوقت الحاضر - حتى تتحدث الشرطة مع أنطوني بيلاروزا، وحتى أتحدث مع فيليكس مانوسكو، وحتى نحصل على بندقية - هذا ما أفعله، على الأقل خلال الليل. كما أن إجراءات الأمن هذه قد تؤكد لسوزان أن الخطر حقيقي.

لم تنتظر سوزان خارجاً، وأصبحت الآن في الردهة، ولذلك قلتُ: "ابقي هنا". صعدتُ إلى الأعلى وتحققتُ من غرف النوم الخمس، ثم نزلتُ ووجدتها في

المكتب. يبدو أننا نواجه مشكلة في كلمة "هنا".

كانت تقرأ بريدها الإلكتروني وقالت لي: "سيصل والداي غداً...". أعطتني تفاصيل رحلة العروسين ويليام وشارلوت، ثم قالت: "سيصل إدوارد ليلة الخميس وتطلب كارولين إبلاغها حين تموت إيثيل، وستستقل القطار على الفور".

"حسناً". لاحظتُ أن ضوء الرسائل في الهاتف يومض، ولذلك ضغطتُ على زر السماعة وشغلت الرسالة. قال صوت إليزابيت، الذي بدا متعباً ومرهقاً: "أردت فقط إبلاغكما أن أمي توفيت في الثامنة والربع من هذه الليلة". ساد صمتُ بعدها، ثم قالت: "سأتصل بكما غداً من أجل الترتيبات. شكراً مجدداً على كونكما صديقين رائعين".

لم نقل أنا وسوزان أي شيء، ثم طلبت سوزان رقماً من الهاتف وسمعتُ صوت إليزابيت عبر المجيب الصوتي. قالت سوزان: "إليزابيت، نحن آسفان جداً. لكن اعرفي أنها الآن في سلام، مع الله. إذا كان هناك من شيء نستطيع فعله للمساعدة في الترتيبات، أرجوك اتصلي بنا".

قلتُ عبر مكبّر الصوت: "أبلغيني إذا كنت تريدين أن نوافيك إلى قاعة الجنازة. لا تحاولي فعل كل ذلك لوحدك. نريد أن نساعدك".

أقفلت سوزان الخط وقالت لي: "أذكر حين مات جورج، وكيف ظننتُ أن حقبة شارفت على النهاية... وأن جزءاً صغيراً من طفولتي قد ذهب معه".

ذهبتُ إلى المشرب وسألتها: "تريدين مشروباً؟".

"أرجوك. أي شيء".

سكبت كأسين من الشراب فيما كانت سوزان ترسل البريد الإلكتروني لإبلاغ الأشخاص المناسبين بموت إيثيل.

إذاً ماتت إيثيل ألارد. وتذكرتُ أيضاً أن جون غوتي مات، وأنهما ماتا بفارق يوم واحد. باستثناء ذلك، أنا واثق من أنهما لا يملكان الكثير من الأمور المشتركة. بالرغم من ذلك، أثّر موتهما في حياتي. فقد أعادني موت إيثيل إلى الوطن، وقد يحرر موت غوتي خطراً بقي محبوساً طوال السنوات العشر الماضية.

أعطيتُ سوزان كأسها، وطرقنا كأسينا، وقالت سوزان: "نخب إيثيل".

شاركتُ فكرتي مع سوزان وقلتُ: "لقد أعادتني إلى الوطن".

أومأت سوزان برأسها واعترفت: "طلبتُ منها التحدث إليك عني".

"أعرف، وفعلت".

"كان تصرفاً أنانياً مني أن أطلب ذلك من امرأة على شفير الموت".

طمأنتها: "أظن أنها كانت سعيدة بفعل ذلك".

وافقتني سوزان: "أظن ذلك".

أخذنا كأسينا إلى الأعلى، وجلسنا في السرير.

تحدثنا وقرأنا لبعض الوقت، ثم نامت سوزان. نهضتُ من السرير وذهبت إلى الطابق السفلي للبحث مجدداً عن البندقية. لم أستطع العثور عليها، ولذلك ذهبتُ إلى المطبخ وأحضرتُ سكيناً طويلة، ثم عدتُ إلى غرفة النوم وأقفلتُ الباب ووضعتُ المنضدة أمامه.

جلستُ على السرير وأنا أفكر في جميع الأحداث التي حصلت، في تسلسل معين، وقادتني إلى هنا إلى غرفة النوم هذه وأضع سكيناً طويلة على منضدتي.

حسناً، كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. كان يمكن أن أضيع في البحر. أو أسوأ، أن أتزوج. أو كان يمكن أن يكون الأمر أفضل. كان يمكن أن يعثر فرانك بيلاروزا على المطعم في غلين كوف قبل عشرة أعوام ولا يزور أبداً الحمرا أو يتعرف على سوزان ساتر.

لكن أموراً حصلت وأخرى لم تحصل، وعاش أناس ومات أناس، وفي نهاية اليوم، عليك أن تكفّ عن السؤال عن السبب، وعليك أن تبدأ التفكير في خطوة واحدة على الأقل تجعلك متقدماً على أي شخص يخطط لقتلك.

أطفأتُ المصباح، وإنما بقيت نصف مستيقظ خلال الليل.

الفصل الثاني والأربعون

هطل المطر طوال الليل، مما صعّب عليّ سماع إذا ما كان أحدهم يحاول الدخول إلى المنزل.

جلستُ في السرير ونظرتُ إلى سوزان تنام قربي. لا يزال يصعب تصديق ذلك. لا بل يصعب التصديق أكثر أن سوزان امرأة مشهورة. حسناً، خسرتها أمام فرانك بيلاروزا، لكنني غير مستعد لخسارتها أمام أنطوني بيلاروزا.

كانت ليلة طويلة، وأظن أنني أحرزتُ تقدماً بسبب ما قاله فيليكس مانوسكو - يجب أن تخاف - وأنا مسرور لأن مانوسكو قادم بحيث أستطيع إخباره أنه جعلني أسهر طوال الليل. لا تملك سوزان مثل هذه الشكوى.

لست من النوع المصاب بجنون الارتياب، وحين أبحرتُ حول العالم، كنت واحداً من الأشخاص القلائل الذين لا يحتفظون ببندقية على متن المركب، بالرغم من أن عدداً من الرجال رفضوا العمل معي بسبب ذلك.

لكن ذات مرة، قبالة الشاطئ الصومالي، احتجتُ إلى سلاح، وتوجب عليّ شراء مسدس ضوئي. سارت الأمور على ما يرام، ولكن بالكاد. بعد ذلك، استسلمتُ للحقيقة واشتريت سلاح AK-47 في عدن، والذي كان شراؤه هناك أسهل من شراء قنينة شراب اسكتلندي، وأرخص.

مع وجود السلاح AK-47 على متن المركب، أدركتُ أنني أصبحتُ أنام أفضل خلال الليل، وتساءلتُ كيف صمدتُ طوال الوقت من دونه. الحقيقة مقرفة، لكن جعل رأسك بين الغيوم أو أعلى من الأرض قد يكون قاتلاً.

كان فجراً رمادياً وممطراً، وإنما فجراً مرحباً به. طبعاً، يمكن قتل الأشخاص في أي وقت، لكننا نملك حدساً أساسياً يقول لنا بضرورة الحفاظ على اليقظة حين يفترض بنا النوم. ثمة مفترسون ليليون في الخارج، يصيدون فرائسهم حين ننام.

نهضتُ من السرير، وارتديتُ ثوبي، ونزلت إلى الطابق السفلي مجدداً. بعد خمس عشرة دقيقة من البحث، أصبحتُ مقتنعاً أن البندقية أعيدت إلى هيلتون هيد، أو أن الرجال الذين نقلوا المفروشات سرقوها. حسناً، يسهل كثيراً شراء أي مسدس أو بندقية أريدها من متجر محلي. فليبارك الله التعديل الثاني للقانون ومتاجر الأسلحة الخاصة. لن يكون الأمر أسهل فيما لو كنتُ في سوق في عدن.

لكن هنا، بالرغم من حقي الدستوري في حمل الأسلحة، يصعب الحصول على رخصة لامتلاك سلاح فردي - بندقية في هذه المنطقة - وهذا ما أحتاج إليه بالضبط حين أكون أنا وسوزان خارج المنزل. وكنت واثقاً تماماً من أن أنطوني بيلاروزا ولاكوسا ناسترا لا يواجهان المشكلة نفسها.

صعدتُ إلى الأعلى ووجدتُ سوزان جالسة أمام طاولة المطبخ في ثوبها الأبيض الذي أبرز أكثر لون اسمرارها. كانت تقرأ مجلة عن اللياقة النسائية، فيما

تمضغ الفيتامينات في فمها وتشرب وراءها عصير الجزر، الذي تطابق لونه مع لون شعرها.

نظرت إليّ وقالت: "صباح الخير".

كنت محروماً قليلاً من النوم، ومنزعجاً بشأن المسدس، ولست في مزاج جيد في هذا الصباح الرمادي، فلم أجبها.

سألتني: "ماذا كنتَ تفعل في الطابق السفلي؟".

"أجرّب فساتين الشتاء خاصتك".

"جون، لا يزال الوقت باكراً".

لاحظتُ إبريقاً من القهوة، فسكبتُ لنفسي كوباً.

اقترحت سوزان: "اشرب القليل من عصير الجزر".

"شكراً، لكنني تلقيت قبلاً حقنة من عصير الرمان".

"لا يزال الوقت فعلاً باكراً على ذلك".

سألتها: "هل أنت أكيدة من أنك أحضرتِ البندقية من هيلتون هيد؟".

"نعم، وأذكر أين وضعتها".

"جيد. وأين هي؟".

"في العلية".

"قلتِ إنها في الطابق السفلي، سوزان".

"الطابق السفلي، العلية. الشيء نفسه".

"حقاً؟ حسناً... إذا صعدتُ إلى العلية...".

"لقد فعلتُ ذلك قبلاً". أشارت إلى خزانة المكانس وقالت: "إنها هناك".

"طبعاً". فتحتُ خزانة المكانس، ورأيت علبة بندقية متكئة على الحائط بين ممسحة ومكنسة - حيث يتم الاحتفاظ بالأشياء الطويلة.

أخرجتُ العلبة من الخزانة وأخرجت البندقية، ثم تأكدتُ من أنها مضبوطة على زر السلامة قبل فحصها.

إنها بندقية تتسع لاثنتي عشرة طلقة، ثنائية الأسطوانة، جنباً إلى جنب، إيطالية الصنع من ماركة بيريتا. وعلى الزند المصنوع من خشب الجوز ثُبتت صفيحة نحاسية حفر عليها سوزان ستانهوب ساتر، ولمسة النيكل على المتلقي محفورة ومغلفة بالذهب مع تصميم أزهار متكلف. لو توجب عليّ تخمين ثمن هذا الموديل، لقلتُ عشرة آلاف دولار تقريباً. إنها هدية زفاف ربما من سالي دادا، مع شكر لسوزان لقتلها فرانك بيلاروزا.

صححت سوزان معلوماتي حول ذلك وقالت: "أعطاني إياها دان حين انضممتُ إلى نادي رماية محلي".

يبدو أن دان لم يعرف ماذا حصل لصديقها المرحوم.

اقترحت علي: "يمكنك بيعها، والحصول على بندقية أخرى إذا أردت".

أعتقد أنه يجب عليّ الاستفسار عمّا إذا كانت البندقية تحمل أي قيمة عاطفية لها - ذكريات رائعة لها ولدان، وهما يصيدان طيور الحمام في السماء أو يصيدان البط في المستنقع.

صححت معلوماتي حول ذلك أيضاً وقالت: "لم يكن يطلق النار. أنا فعلت". ثم أضافت: "كان يلعب الغولف، والغولف".

طمأنتها: "يمكننا الاحتفاظ بها. فاسمك محفور عليها".

هزّت كتفها وعادت إلى قراءة مجلتها.

فتحتُ البندقية للتأكد من أنها لا تحتوي على أي طلقة، ونظرت عبر الأسطوانتين، اللتين كانتا نظيفتين تماماً، لكن يمكن ربما تنظيف وتزييت البندقية بكامل أجزائها. سألتها: "متى أطلقت النار للمرة الأخيرة منها؟".

من دون أن ترفع عينيها عن بندقيتها، أجابتني: "منذ عامين تقريباً".

علّقت قائلاً: "كان من الجيد امتلاكها الليلة الماضية".

لم تجب.

سألتها: "هل تملكين عدّة تنظيف؟".

"لم أستطع العثور عليها".

"طلقات؟".

"سأبحث عنها".

حسناً، لم تكن البندقية تفيد كثيراً الليلة الماضية. قلتُ لها: "سأذهب اليوم إلى متجر جيد للأدوات الرياضية".

لم تجب.

أعدتُ البندقية إلى علبتها وقلتُ: "أظن أنه يجدر بنا شراء كلب".

"لديّ كلب".

"هل هو في العلية؟".

تجاهلت هذا وقالت: "الكلاب تتطلب الكثير من العمل. لماذا تريد كلباً؟".

يبدو أننا لسنا نقرأ في الصفحة نفسها، فقلتُ لها: "للأمن".

"أوه... حسناً... لا بأس. لكن دعنا ننتظر بعد الدفن، حتى يغادر الجميع. والداي لا يحبان الكلاب".

أنا واثق من أن الجرذان التي لديهما لا تحب الكلاب أيضاً. ذكّرتها: "لن يقيما هنا ربما".

"هل تمانع إذا فعلا؟".

"سأتفاجأ إذا فعلا".

رمت المجلة جانباً وقالت: "جون، لا أظن أنهما سيتفاعلان بطريقة سلبية مثلما تظن".

"سأكون سعيداً إذا تبين لي العكس".

"هل سمعتُ هذا فعلاً؟".

خطرت في بالي اليوم تلك الفكرة المرعبة القائلة إن اليوم هو أول يوم من بقية حياتي. اقترحت عليها: "توقفي عن تناول حبوب الفيتامينات تلك!".

ذهبتُ إلى البراد لأبحث عن طعام للفطور، لكن قبل أن أفتح الباب، قالت: "بسبب تلك الملاحظة، عليك تناول هذا للفطور".

نظرتُ إليها، وكانت سوزان مستلقية على الطاولة...

حسناً... كنت أفكر في مافن إنكليزي، لكن...

بعد تناولي فطور الأبطال، ذهبنا أنا وسوزان والبندقية معنا إلى الأعلى إلى غرفة النوم، وأبلغتني سوزان: "ستأتي صوفي اليوم. لنضع تلك في خزانتك؟".

"حسنا". وضعتُ البندقية في خزانتي، فجعلتها تتكئ على الحائط خلف الباب المفتوح. أخبرتها عن مكانها، ثم دخلتُ للاستحمام.

فتحت باب الحمام وانضمتّ إليّ، وفركتُ ظهرها بليفة استحمام، ثم فركَت لي ظهري، وقلتُ لها: "ليس عادلاً استخدام أسلوب الحميمية القصوى كوسيلة للسيطرة عليّ أو لتعديل سلوكي".

"كل شيء عادل في الحب والحرب، جون".

"حسناً. تذكري أنكِ قلت ذلك".

"بالإضافة إلى ذلك، هذا ينفع".

وفيما كنا نرتدي ملابسنا، سألتني: "ما هو الهدف من زيارة فيليكس مانوسكو؟".

أجبتها: "لمعرفة ما إذا كان لدى الأف بي آي أي اهتمام أو صلاحية بهذه المسألة".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت: "إنه لا يستلطفني".

"ليس الأمر شخصياً. إنه مهني".

أجابت: "أظن أنه شخصي".

حان الوقت للحفر في الماضي القذر، لأن فيليكس مانوسكو سيفعل ذلك على أي حال، وتحتاج سوزان إلى الاستعداد لذلك، فذكّرتها: "قتلتِ شاهده الملك في قضية الأف بي آي ضد الجريمة المنظمة، ولا تعثر الأف بي آي غالباً على رجل مثل فرانك بيلاروزا لاستجوابه". لم تجب، ولذلك تابعتُ: "خسارة شاهد في جريمة، تحت إشرافه، لا يساعد مهنة العميل الخاص مانوسكو".

بقيت صامتة لبرهة، ثم أبلغتني: "كان رافضاً جداً للسماح لي بالزيارة".

عرفتُ ذلك، لكنني تفاجأتُ بأنها تعرف، أو بأنها ترغب في مناقشة الأمر. لكنني أعتقد أن الوقت قد حان لتحرر نفسها من ذلك. بالنسبة إلى عدم موافقة فيليكس مانوسكو على السماح لفرانك وسوزان بالتصرف على هواهما، يعود ذلك إلى معاييره المهنية، وكذلك إلى حسه الخاص بالأخلاق والملكية، وربما مشاعره الإيجابية تجاهي، والتي لا يشاركها مع جميع من حوله.

هكذا، تكون سوزان محقة في هذا السياق. الأمر شخصي. على أي حال، ما حصل لم يكن حتماً خطأ مانوسكو - لم يتوقع أحد أن تقتل سوزان السيد بيلاروزا - لكنني شعرتُ آنذاك أن مانوسكو هو الرجل الضحية. لماذا؟ لأنه حين تتعطل المروحة، فإن الرجل الذي يقول "أخبرتك بذلك" هو عادة من يدفعه الآخرون ليكون كبش المحرقة بدلاً منهم.

لكن بدلاً من إخبار سوزان أن السيد الصالح فيليكس يظن مبدئياً أنها عنصرٌ من المافيا ومخادعة، أعدتُ المناقشة إلى المسائل المهنية وقلتُ: "لم يكن مانوسكو متحمساً أيضاً لنجاتك من العقاب".

فاجأتني بالقول: "كان هذا خطأ مدرائه". ثم أضافت: "كنتُ مستعدة لدفع الثمن".

نظرتُ إليها وكنتُ واثقاً من أنها تعني ذلك فعلاً. وكانت محقة - لم تكن غلطتها إذا تدخلت الحكومة في القضية. فمعايير العدالة تتجه دائماً نحو أفضل مصالح الحكومة، وتعني أحياناً دفن الحقائق غير الملائمة أو المحرجة، والسماح بإطلاق سراح المذنب. خطر في بالي أنه لو تمت إدانتها وتمت معاقبتها بسبب قتل رجل، لكانت على وشك الخروج من السجن الآن. وأنا واثق تماماً من أنني ما كنت لأطلقها، وأنني كنت انتظرتها. إلا أنني كنت سأقوم برحلتي البحرية حول العالم.

انتهيتُ من ارتداء ملابسي، وانتقلتُ إلى الموضوع الآخر المقيت، فذكّرتها: "ستكون الأيام القليلة المقبلة كثيرة التوتر"، ولا أقصد بذلك فقط جنازة إيثيل ودفنها، فضلاً عن محاولة تفادي إمكانية دفننا، وإنما أيضاً تواجد والديها في مكان ما قربنا. أضفتُ: "علينا... التواصل مع بعضنا".

أومأت سوزان برأسها، ثم قالت: "راودني حلم محزن جداً عن إيثيل... كانت جالسة وحيدةً، تبكي... وسألتها عن سبب حزنها. وقالت لي: مات الجميع.

فحاولتُ تعزيتها... لكنها استمرت في البكاء، ورحتُ أبكي، وأحسست بذلك... الشعور الكبير بالوحدة... ثم قلتُ: سأتصل بجون".

نظرت إليّ، ولاحظتُ أنها كانت على وشك البكاء، فأخذتها بين ذراعيّ وتعانقنا. قلتُ لها: "لست وحيدة".

"أعرف. لكنني كنت وحيدة لأعوام عدة، ولم يكن ذلك جيداً".

نزلنا إلى الأسفل وجلسنا في المطبخ، نقرأ التايمز ونتناول القهوة، في انتظار صوفي، وفيليكس مانوسكو، وويليام وشارلوت ستانهوب، وكل ما يخبئه لنا اليوم.

الفصل الثالث والأربعون

وصلت صوفي، سيدة التنظيف، في الساعة الثامنة صباحاً، فيما وصل مدرب سوزان الشخصي، وهو رجل خنثوي اسمه تشيب، في الثامنة والنصف. جاء عمال الحديقة للعمل تحت المطر، فيما أوصلت لنا شركة البريد السريع شيئاً ما في التاسعة، وجاء ساعي البريد في التاسعة والربع، ووصل عامل المصبغة لإيصال الأغراض وأخذ أخرى جديدة في التاسعة والنصف. خطر في بالي أن سيد المافيا عليه انتظار دوره في الردهة.

رنّ الهاتف طوال الصباح، وبعدما انتهت سوزان من التمارين مع مدرّبها، أمضت بعض الوقت في المكتب تجري الاتصالات الهاتفية وتهتم بالبريد الإلكتروني. الكثير من هذه الاتصالات لها علاقة بجنازة إيثيل ودفنها، وتحدثت سوزان إلى إليزابيت مرات قليلة، وتحدثت أيضاً مع القيمين على قاعة الجنازة، وبائع الأزهار، وبعض شركات تأجير الليموزين - لا تستخدموا شركة بيل للسيارات - واتصلت أيضاً بالمسؤولين عن مدافن ستانهوب. أردتُ أن أقترح عليها حفر خندقين إضافيين لويليام وشارلوت؛ - لكنها قد تفهم هذا بطريقة غير صحيحة. حول هذا الموضوع، سألتها: "ماذا تفعلين حين تفوّتين بيت حماك؟ تعيدين الشحن وتطلقين النار مجدداً".

لم أطرح عليها فعلياً هذا السؤال، لكن هذا ذكّرني بشراء طلقات للبندقية، وذكّرني أيضاً بإخبارها: "احجزي غرفة لوالديك في نادي الكريك".

أجابت: "دعنا نرى أولاً ما إذا كانا يريدان الإقامة معنا".

"متى سيصلان؟".

"أخبرتكَ خمس مرات - يصلان إلى لاغارديا عند الثالثة والربع ويفترض أن يصلا إلى هنا عند الخامسة تقريباً. نتناول المشروبات ونناقش... الأمور".

"حسناً". أين تحتفظين بسمّ الجرذان؟ "في أي وقت سنزور إيثيل الليلة؟".

"أخبرتك أيضاً ذلك. من السابعة إلى التاسعة". أطلعتني على مواعيد الزيارات في قاعة الجنازة، ويبدو أن إيثيل تركت تعليمات للسماح بزيارتها طويلاً في قاعة الجنازة، بحيث لا يكون لأي كان عذر بعدم إلقاء النظرة الأخيرة عليها. ختمت سوزان بالقول: "قداس الجنازة هو يوم السبت في العاشرة صباحاً. هل تريد أن أسجّل لك هذا؟".

"لا. لديّ أنتِ، حبيبتي".

أبلغتني أيضاً: "هذا الأحد هو يوم الأب. حسب رسائل البريد الإلكتروني التي تبادلتها مع والديّ والولدين، يبدو أننا سنكون جميعاً هنا يوم الأحد، ولذلك اقترحتُ تناول العشاء في المنزل للاحتفال بالمناسبة".

بدت أكثر تفاؤلاً مني بشأن هذا الاجتماع، لكنني قلتُ لها: "هذا لطف كبير منك. هل يعرف والداك أنني هنا؟".

"يعرفان من الولدين أنك عدتَ لحضور الجنازة، وأنك تعيش في منزل الحراسة".

"لكنني لا أفعل ذلك في الحقيقة".

"لم يتم إبلاغهما بذلك بعد".

"صحيح. وليس لديهما مشكلة في وجودي هنا في حفل عشاء يوم الأب؟".

"يعرفان أن إدوارد وكارولين يريدانك أن تنضم إلينا في يوم الأب. أخبرتهما أنني لا أمانع في ذلك".

"أفهم. ومتى تنوين إخبار والديك أنني أعيش هنا وأقيم علاقة معك؟".

"حين يصلان. من الأفضل أن نظهر لهما الحقيقة كما هي".

وآمل أن يؤدي ذلك إلى تعرضهما لنوبة تشنج كبيرة، تليها طلقة رحمة مني بواسطة البندقية. "حسناً. افعلي الأمر على طريقتك".

غيّرت الموضوع وسألت: "هل تظن أنه يجدر بي دعوة أمك، أم سيكون ذلك محزناً بسبب موت والدك؟".

أجبتها بحماسة مفرطة: "ستكون هارييت مسرورة بدعوتها، وأنا أتطلع شوقاً إلى تناول العشاء معها ومع والديك".

نظرت إليّ سوزان عن كثب وقالت: "هل يمكنك تحمل كل ذلك؟".

أجبتها: "الجواب هو كأس من الشراب".

لم تعلّق على ذلك، إلا بالقول: "أنا أعتمد عليك، جون، لتكون مثلاً جيداً لإدوارد وكارولين".

"يمكنك الاعتماد عليّ حبيبتي". كنت أنوي فعلاً بذل ما في وسعي لإعادة المرح، واقترحتُ: "سنجلس أنا ووالدك على الطرفين المتقابلين من الطاولة ونغني أغنية أوه بابا".

بدت مشككة في ذلك لسبب ما، ولذلك أضفت: "سأكرّم والدك في هذا اليوم الخاص، سوزان، لأنه أعطاني إياك".

"هذا لطف كبير منك جون". ثم ذكّرتني: "نحن نفعل ذلك من أجل إدوارد وكارولين، وإذا اضطررت إلى قضم لسانك مرات عدة، سيحترمك الولدان أكثر لكونك رجلاً عظيماً. وإذا لم يكن أبي لطيفاً، تكون هذه مشكلته".

"لطالما كان كذلك".

"ومن فضلك لا تجلس هناك مثلما فعلت في آخر عشاء تناولناه معاً، بحيث انفجرت غضباً وناديته... أي شيء".

"أحمق من دون مبادئ،...".

"حسناً، جون. ووعدتَ بالاعتذار على ذلك".

"أتوق إلى فعل ذلك".

نظرت إليّ عن كثب وقالت: "جون... إنه للولدين... ولا أقصد راحتهما العاطفية وإنما أقصد راحتهما المادية".

"أعرف تماماً ماذا تقصدين". إلا أنني ذكّرتها: "ألا تظنين أن والديك سيعاقبان حفيديهما مادياً بسببنا؟". ثم أضفت: "ما من أحد حقود لهذه الدرجة".

أجابتني: "دعنا لا نجرب هذا الافتراض".

"فهمتك. وهل سيكون لنا شرف حضور أخيك في هذه المناسبات الحزينة والسعيدة؟".

أجابت: "لن يحضر بيتر دفن إيثيل. لكنه سيحاول القدوم يوم الأب".

"رائع. وهل يعمل بيتر هذه الأيام؟".

"في الباهاماس".

"ماذا يفعل؟".

"يركب الأمواج".

"حسناً، إذا بدأ الآن وصادف بعض الموجات الجيدة، فيمكنه الوصول إلى هنا يوم الأحد".

ظننتُ أن هذا سيغضبها، لكنها ابتسمت وقالت: "يخرج آل ستانهوب أفضل ما في ذكائك".

لم تشاهدي بعد أي شيء أيتها السيدة. غيّرت الموضوع وذكّرتها: "سيصل فيليكس مانوسكو إلى هنا بعد برهة. أنا أعتمد عليك، سوزان، لتضعي جانباً كل المشاعر السلبية التي تملكينها حياله، وتتصرفي بلباقة. مثلما سأفعل مع أهلك".

"حسناً. فهمت". فكّرت لبرهة، ثم قالت لي: "هذه فرصة الجميع للتعويض عن الماضي. أو على الأقل نسيان الماضي".

"هذا صحيح". فكّرت في حديثي مع إيثيل وهي على فراش الموت، وأتمنى أن تكون قد فعلت الشيء نفسه مع جميع الأشخاص الذين زاروها. لا نملك جميعاً يقين الوداع الطويل، ولذلك نفوّت غالباً فرصة تسوية الأمور قبل أن نتوقف عن التنفس والكلام.

يمكننا أيضاً ترك رسائل خلفنا للجميع، في حال لم تتح لنا فرصة القول: "آسف لأنني كنت أحمق"، وأفترض أن رسالة إيثيل لي تتناغم مع هذه العبارة. وإذا توجب عليك إخبار الحقيقة، لتركتُ ثلاث رسائل من هذا النوع خلفي: واحدة لكل من إدوارد وكارولين، وواحدة لسوزان. وأسهل رسالة يمكن كتابتها هي تلك التي

تبدأ بعبارة: "إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، يعني ذلك أنني ميت...". يجدر بي ربما أيضاً كتابة رسالة إلى ويليام وشارلوت: عزيزاي الأحمقين...

سألتني سوزان: "بمَ تفكر؟".

"في... كم نحن محظوظان... أنت وأنا... وكم أنا محظوظ لأنك جعلتِ هذا يحصل... وأنه مهما حصل لاحقاً، نكون قد أمضينا هذا الوقت معاً".

رنّ جرس الباب في تمام العاشرة صباحاً، وفتحتُ الباب للعميل الخاص فيليكس مانوسكو.

تصافحنا وتبادلنا التحيات، وفيما رافقته إلى الردهة، نزع قبعة المطر عن رأسه، ولاحظتُ أن صلعه لم يتقدم كثيراً خلال عشر سنوات، ولكن ما تبقى من شعره تحول من اللون الأسود إلى اللون الأبيض والرمادي. حين كان يعمل في لا كوسا ناسترا، كانت البذلات إيطالية الصنع للعميل الخاص مانوسكو أفضل دائماً من بذلاتهم. لكنني ألاحظ الآن أن بذلته الرمادية وقيمصه وربطة عنقه لا تكشف عن أي شيء مميز، ويستطيع الاندماج تماماً مع المارة في شوارع نيويورك فيما يطارد الإرهابيين حول المدينة - أو ما يفعله في قوة العمل الإرهابي. لاحظتُ أيضاً أنه يضع دبوس علم على طية سترته، للتناغم أكثر مع الأشخاص الآخرين في نيويورك.

كانت سوزان في المطبخ، وطلبتُ منها إعطائي عشر دقائق مع مانوسكو، رافقته إلى مكتبي القديم الجديد ودعوته للجلوس على الكرسي الجلدي القديم. تفحص الغرفة بسرعة فيما جلستُ أنا على الكرسي خلف مكتبي وأطفأت جرس الهاتف.

قال لي: "المكان جميل جداً هنا. وهل كان هذا ملك عائلة زوجتك؟".

"تودّ القول منزل الأسلاف".

لاحظ أنني أمزح، فابتسم.

أبلغته: "إنها تملك منزل الضيوف هذا فقط وعشرة أكرات. أما معظم بقية المساحة والمنزل الرئيسي فهي الآن ملك السيد أمير نسيم، الذي يواجه بعض المشاكل الخاصة التي قد تهمك".

لم يجب السيد مانوسكو على ذلك، وإنما قال: "أتمنى لك الحظ هنا. العودة إلى المنزل جميلة بلا شك".

"صحيح، باستثناء وجود جاري في الحمرا".

أومأ برأسه.

مثلما قلت، لقد جاء إلى هنا مرتين قبلاً؛ مرة حين عرض عليّ إيصالي من المدينة إلى المنزل بعدما نجا فرانك بيلاروزا من محاولة القتل في مطعم جوليو، ومرة حين أوصلني إلى الحمرا ليريني نتيجة نجاح سوزان في إنهاء حياة فرانك.

في هذا الموضوع، أحتاج إلى إيضاح بعض الأمور التي توقفنا عندها في المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها، فقلتُ: "قالت لي السيدة ساتر إنها تظن أنك تضمر لها بعض المشاعر السلبية".

أجاب بصراحة: "كنت أفعل ذلك. لكنني الآن أصبحت أكثر واقعية بعد المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها".

وربما أقل مثالية، برأيي. خصوصاً بعدما تلقى عقوبة في عمله بسبب خطأ لم يرتكبه. في النهاية، تقبّلت سوزان المسألة بسهولة أكثر مما تقبلها العميل الخاص مانوسكو، ما يثبت مرة جديدة أن الحياة غير عادلة. قلتُ له: "أظن أن السيدة ساتر يمكنها أن تكون أكثر تعاوناً هذه المرة".

تساءل ربما عن سبب احتمال كونها أقل تعاوناً من المرة الأخيرة، لكنه أجاب: "أنا مسرور لسماع ذلك. مشاعري الشخصية حيال السيدة ساتر لم تؤثر أبداً في سلوكي المهني".

لإبقاء الحديث صريحاً، قلتُ له: "تعرف أن هذا غير صحيح. لكن هذا قد يكون شيئاً إيجابياً. أقدّر لك مثلاً اهتمامك الشخصي بتورطي مع فرانك بيلاروزا. كان بوسع السيدة ساتر الاستفادة أيضاً من نصيحتك".

فكّر في ذلك، ثم أجاب: "فكرة جيدة. لكن بصراحة... كانت هذه مهمتك".

"أيضاً فكرة جيدة. وسأعطيك فكرة أفضل - كان يجدر بها الإصرار على عدم تورطي مع فرانك بيلاروزا، لكنها شجعتني على ذلك".

لم يتفاجأ من هذا التصريح، لأنه استنتج ربما منذ زمن بعيد القوى المحركة في مثلث جون - سوزان - فرانك. إلا أنه قال: "كان هذا صحيحاً عندما... حسناً، حين لم يعد الأمر مجرد متعة محظورة أو ما كان بالنسبة إليكما. كان هذا صحيحاً في المرحلة التي احتجتما فيها كلاكما إلى إنقاذ بعضكما البعض، وزواجكما".

"ولا تنسَ روحينا. حين أدركنا ذلك، سيد مانوسكو، كان الوقت قد فات".

"هذا ما يحصل عادة".

سردت بعض الأخبار الجيدة: "كانت السيدة ساتر معارضة بشدة حديثي مع أنطوني بيلاروزا".

أجاب، مثلما عرفت أنه سيفعل: "أنا مسرور لأن أحداً تعلم الدرس". ابتسم، ورأيت صف أسنانه البيضاء التي أذكرها.

ذكّرته: "تعلمنا جميعاً دروسنا".

رنّ جرس الهاتف الداخلي، ورفعتُ السماعة. سألت سوزان: "هل يجدر بي الدخول الآن؟".

سررتُ لأنني لم أضغط على زرّ السماعة، ولا أفعل ذلك أبداً حين تكون سوزان على الخط. أجبتها: "نعم، واطلبي أرجوك من أحد الخدم تقديم القهوة".

"غادرت آخر خادمة قبل ثلاثين عاماً، لكنني سأرى ما أستطيع فعله".

"شكراً. بعد خمس دقائق تقريباً". أنهيت المكالمة وقلت للسيد مانوسكو: "لا نملك خدماً في الوقت الحاضر، لكن السيدة ساتر ستقدّم القهوة".

ابتسم مجدداً، وانتهز الفرصة للقول: "لم أفهم أبداً كيف يمكن لشخصين من عالمكما من أن يدخلا إلى عالم فرانك بيلاروزا".

فكرتُ في ذلك وأجبته: "حسناً، إذا كان هذا سؤالاً، لا أملك الجواب".

اقترح: "جزء من الجواب هو أن الشرّ مغوٍ. أظن أنني قلتُ لك هذا".

"فعلت. أضف إلى ذلك القليل من الضجر، وتملك على الأقل جزءاً من الجواب عن سؤالك". ثم أضفت: "أنا أتحدث عن نفسي. لستُ واثقاً تماماً من حوافز السيدة ساتر لما قامت به".

"هل سألتها؟".

"ليس مباشرة. لكنك تستطيع سؤالها إذا كان الأمر يزعجك. الأمر له علاقة ربما بالحميمية القصوى".

بدا أنه لم يُصدم بذلك، بالرغم من أنه كان سيُصدم لو قلتُ له إن للأمر علاقة بالحب. لكن هذا ليس من شأنه.

فكّر لبرهة، ثم أجاب: "الزنى هو عارض لمشكلة أكبر".

"أحياناً. لكن لإعادة صياغة كلام فرويد، يكون الزنى أحياناً مجرد زنى. وما الفرق في ذلك الآن؟".

"لأن المعرفة والفهم، سيد ساتر، هما أول خطوة نحو المصالحة الحقيقية. والأهم من ذلك، من الضروري جداً أن تفهم من تكون، ومن هي، وماذا تسامح".

لاحظتُ أن السيد مانوسكو لا يزال يمارس طرائق علم النفس، ولا يزال يقدّم نصائح روحية. بالإضافة إلى ذلك، أضاف مشورة الزواج إلى جدول أعماله. سألته: "لا أريد أن أكون... قليل الاحترام، ولكن هل تلقيت أي تدريب مهني خارج نطاق القانون وتطبيق القانون؟".

لم ينزعج من السؤال، وأجاب: "بطبيعة الحال، أمضيت سنتين في معهد اللاهوت قبل أن أقرر أنها ليست دعوتي".

لم أتفاجأ تماماً. أعرف بالفعل عدداً من المحامين والقضاة الكاثوليك وبعض الرجال العاملين في تطبيق القانون الذين درسوا قبلاً اللاهوت. يبدو أنه يوجد رابط ما، بالرغم من أن الأمر واضح جزئياً فقط بالنسبة إليّ. سألته: "ما الذي جعلك تقرر أن اللاهوت ليس دعوتك؟".

أجاب من دون إحراج: "كانت إغراءات الشهوة كبيرة جداً".

"حسناً، أستطيع فهم ذلك". فكرتُ في الاقتراح عليه أن يصبح أسقفاً، ويجرّب الكهنوت مرة أخرى، لكنه غيّر الموضوع وقال: "إذا استعدت ذكريات مراقبتي

الأخيرة لما حصل قبل عشر سنوات... وخلال سنوات عملي مع الجريمة، المنظمة وغير ذلك، نادراً ما صادفتُ رجلاً يملك السحر الاجتماعي والجاذبية الكبيرة مثل فرانك بيلاروزا. فإذا كان هذا يجعلك تشعر بالتحسن، سيد ساتر، كنتَ أنت وزوجتك مفتونين بمرواغ من الطراز الأول".

"يجعلني ذلك أشعر بتحسن كبير".

"حسناً، أقدم النصيحة حسب ما تساويه".

بدا لي أن فيليكس مانوسكو يظن أن تاريخ البشرية يمكن فهمه كصراع بين الخير والشر، علماً أن فرانك بيلاروزا ليس بالصالح. لكن هذا لا يشرح كل مشاعر الحب البشرية التي كنّها فرانك بيلاروزا لسوزان ساتر، ومأثرته الأخيرة الجيدة والمشرّفة حيالي التي سببت موته.

للانتقال إلى المشكلة الحالية، أبلغته: "أنطوني بيلاروزا ليس معقداً أو ساحراً، أو حتى ذكياً، مثل والده".

أجاب السيد مانوسكو: "لا، ليس كذلك. ولهذا السبب، ثمة احتمال بعيد من أن يلجأ إلى العنف حين يشعر بالحرمان، أو يتحداه أحد ما".

"صحيح. ليس مكيافيللياً. إنه أقرب إلى كاليوغولا".

ابتسم السيد مانوسكو وأومأ برأسه. قال لي: "لقبه غير الرسمي هو القيصر الصغير. وأظن أن كلمة صغير هي التي تضبطه، وليس كلمة قيصر".

اعترفتُ له: "أجرينا أنا وأنطوني بعض المحادثات حول انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية".

لم يعلّق على هذا، الأمر الذي اعتبرته غريباً قليلاً، ولذلك تابعتُ: "أثناء تناول العشاء في مطعم صيني في غلين كوف".

لم يعلّق مجدداً، ولذلك سألته: "هل كان أحد يراقبنا هناك؟".

قال لي: "أتيحت لي فرصة قراءة الإفادة التي قدّمتها إلى الشرطة".

"أفهم". لكنني لم أذكر أبداً هذا التفصيل في الإفادة.

حسناً، لا بد أنها النادلة. وحده الموظف الحكومي يمكنه أن يكون أحمق إلى هذا الحد. إذا وضعنا المزاح جانباً، لم أكن متحمساً لفكرة وجود جهاز تنصت في حساء الونتون خاصتي. لكن السيد مانوسكو لم يكن يؤكد أو ينفي؛ إنه من الطابور الخامس.

لذا، غيّرت الموضوع وقلت: "قولك لي إنه يجدر بسوزان الخوف، أبقاني مستيقظاً طوال الليل".

"حسناً، لم أشأ أن تستخف بالأمر. أتمنى أنني لم أزعج السيدة ساتر".

"إنها غير مدركة أن أنطوني بيلاروزا مريض نفسي. أودّ منك أن ترفع مستوى الخوف لديها... من دون إفراط".

"فهمت. ولكن ما لا أفهمه هو سبب عدم قلقها كثيراً الآن".

أجبته: "إنها طبيعتها، وأيضاً تربيتها".

"ماذا يعني ذلك؟".

"الأمر معقد قليلاً، لكنها عاشت مبدئياً حياة محمية ومدللة - مثل... حسناً، العصفور في جزيرة معزولة - ولا تعرف بالتالي ما هو شكل الخطر أو لونه أو رائحته".

فكر في ذلك، وتمعّن فيه، ثم قال: "كانت البلاد كلها هكذا حتى أحداث سبتمبر من العام الماضي".

"مقاربة مثيرة".

أبلغني السيد مانوسكو: "أتيحت لي في الواقع فرصة قراءة التقرير النفسي لوزارة العدل حول السيدة ساتر، وكذلك التحليل الذي قدمه الأطباء النفسيون لعائلتها، وكان الأمر... مثيراً".

أنا واثق من ذلك، بالرغم من إدراكي بأنه لا يستطيع التوسع في الموضوع. إلا أنني قلتُ له: "وضعها العقلي قبل عشر سنوات لم يكن مصدر قلق بالنسبة إلي. قلقي هو موقفها الحالي تجاه الخطر البديهي الذي تواجهه؛ والمشكلة هنا برأيي هي في شخصيتها أكثر مما هي تضاربات نفسية أو لاوعي... أو أي شيء. وما أريده منك هو أن توقظها".

أومأ برأسه وأجاب: "سأطلعها على الحقائق وكذلك رأيي في مستوى الخطر".

"جيد. أطلعني عليها الآن. استخدم النظام الجديد لرموز الألوان إذا كان هذا أسهل عليك".

أجبر نفسه على الابتسام، وقال: "أحتاج إلى سماع ما تريد قوله أنت والسيدة ساتر قبل أن أتوصل إلى اللون".

لم تدخل سوزان بعد، ولذلك اعترف لي السيد مانوسكو: "تريد أن تعرف بلا شك أنني حاضرتُ حول هذه القضية في الأكاديمية".

"حقاً؟ أتمنى ألاّ تكون قد قسوتَ كثيراً على آل ساتر".

لم يجب مباشرة، وإنما قال: "يملك الحضور دائماً أسئلة أكثر من أجوبتي".

"وأنا أيضاً".

نظر إليّ وقال: "أرحّب بهذه الفرصة لأعيد النظر في بعض هذه المسائل والقضايا".

"حسناً، سيد مانوسكو، أنا لا أريد، لكن هذا ما حصل".

وافقني بالقول: "الدجاج يعود إلى المنزل ليبيت".

قبل أن أتمكن من الإجابة على ذلك، فتحت سوزان الباب وقالت: "دجاجة إضافية".

الفصل الرابع والأربعون

وقفنا أنا وفليكيس مانوسكو، وقلتُ: "سوزان، تذكرين العميل الخاص مانوسكو".

ابتسمت بسرور، ومدّت يدها، وقالت: "طبعاً أذكره. شكراً على قدومك".

أجابها: "أنا مسرور بتقديم الخدمة مرة جديدة".

لا أظن أن سوزان كانت سعيدة كثيراً بخدمته المرة الأخيرة، وهما يعرفان ذلك.

بعد انتهاء المزاح، أشارت سوزان إلى صوفي التي كانت واقفة أمام الباب مع تمسك بمقبض عربة التقديم، فأدخلتها، ثم غادرت وأغلقت الباب.

دعتنا سوزان لارتشاف القهوة، وهذا ما فعلناه، ثم جلست على الأريكة، وعدنا أنا والسيد مانوسكو إلى مكانينا.

كانت سوزان ترتدي بطريقة متواضعة سروالاً داكناً وقميصاً أبيض اللون، وضعت فوقه سترة زرقاء اللون. كنت أودّ رؤية رمز ديني حول عنقها، لكن هذا قد يكون مبالغاً فيه.

نحن نغالي ربما في التفاعل مع الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها فيليكس مانوسكو، ومبادئه الكاثوليكية، ورأيه في الزنى السابق لسوزان، وجريمتها، وعملي أنا لدى مجرم. لكن فيليكس مانوسكو بدا صادقاً في أفكاره، وأنا واثق من أننا نتشارك أنا وسوزان الكثير من معتقداته الأخلاقية، وكذلك رأيه في سلوكنا الماضي. لكن الوقت حان الآن للانتقال إلى مشاكل جديدة.

سألت سوزان: "هل فوّتُّ شيئاً مهماً؟".

أجبتها: "ليس تماماً. كنا نسترجع بعض التفاصيل التي قادتنا إلى إفساد حياتنا أنا وأنتِ".

أجابت: "حسناً، أنا مسرورة لأنني لم أفوّت شيئاً مهماً جداً".

ابتسمنا جميعاً.

قال لها السيد مانوسكو: "أتمنى لك أنتِ والسيد ساتر التوفيق والسعادة في زواجكما المستقبلي".

أجابت سوزان: "شكراً. هذا لطف كبير منك".

لاحظتُ أن سوزان كانت في كامل أسلوب الإقامة الخاص بالليدي ستانهوب، الذي قد يكون أو لا يكون التصرف الصحيح مع فيليكس مانوسكو. إلا أن سوزان تقوم بردة فعل ربما على المرة الأخيرة التي رأت فيها العميل الخاص مانوسكو - كانت ترتدي بذلة فروسية جميلة، وإنما كانت أيضاً مكبّلة اليدين، مما قلل كثيراً من مكانتها. ولا ننسى طبعاً أنها كانت تبكي، فيما كانت شرطية تصدر عليها

الأوامر، ودم عشيقها متناثر على الأرض على مرأى من الجميع. لذا، نعم، يعتبر هذا الاجتماع مع العميل الخاص مانوسكو صعباً أو محرجاً بالنسبة إليها، ولهذا السبب ربما تتصرف مثل الليدي ستانهوب.

قال فيليكس مانوسكو لسوزان: "مثلما شرحتُ للسيد ساتر عبر الهاتف، لم أعد أعمل في قسم الجريمة المنظمة، ولكن بسبب اطلاعي السابق على القضية التي أفضت إلى هذا التهديد المحتمل، ولأن السيد ساتر اتصل بي مباشرة، تم تعييني لتقييم هذه المسألة وإصدار توصية عن كيفية عمل مكتب التحقيقات الفدرالي. يبدو أنها مسألة حكومية - تهديد شخصي من دون صلة مباشرة بالجريمة المنظمة، باستثناء التورط المزعوم للسيد بيلاروزا في الجريمة المنظمة - لكن اطمئني، لأن مكتب التحقيقات سيمنح السلطات المحلية كل الدعم أو المعلومات التي يحتاجون إليها أو يطلبونها".

فكرتُ أنه يجدر بي القول له: "أخبرني أحدهم من قسم الشرطة من أن الأف بي آي لن تخبره ما إذا كان في ورطة".

ابتسم السيد مانوسكو، ثم طمأنني: "بصرف النظر عن هذا الأمر، فتحنا العديد من خطوط الاتصال بعد أحداث 11 سبتمبر. نملك جميعاً الهدف نفسه هنا، ألا وهو وضع أنطوني بيلاروزا وراء القضبان لبقية حياته، وشخصياً، لا أبالي إذا أمضى حياته في سجن فدرالي أو حكومي".

لكن لا شك في أن السجن الفدرالي سيكون الخيار الأول بالنسبة إلى السيد مانوسكو. خياري الأول هو رؤية أنطوني ميتاً. ذكّرته: "هدفنا الأساسي هو ضمان عدم حصول شيء للسيدة ساتر".

"هذا أمر مؤكد".

قالت سوزان، موضوع هذه المحادثة: "اعلما أنني قلقة لكنني لست مصابة بجنون الارتياب. هدفي، إذا كنتما مهتمين، هو عيش حياة طبيعية". ثم قالت للسيد مانوسكو: "كما في الإرهاب، إذا كنتَ خائفاً، وبدّلت طريقة عيشك، يربح الإرهابيون. حسناً، لن يربحوا. سيربح هو".

نظر فيليكس مانوسكو إلى سوزان ساتر بإعجاب، ثم قال لها: "أنا معجب بشجاعتك".

لم تجب سوزان، فانتقل مانوسكو إلى موضوع آخر وقال لنا: "مثلما ذكرتُ أمام السيد ساتر، أتيحت لي فرصة مراجعة الإفادات المقدمة للشرطة، ولذلك أملك فكرة عامة عما حصل في الأسابيع القليلة الماضية، وفهمتُ سبب قلقكما".

ذكّرته: "أنتَ نفسك بدوت قلقاً".

أومأ برأسه وأجاب: "أجريت بعض التحقيقات حول الأعمال الجرمية لأنطوني بيلاروزا على مرّ السنوات، وفيما لم أجرِ أي اتصال مباشر معه، أجريتُ اتصالاً مباشراً مع عدد من شركائه، وكذلك عدَد من الأشخاص الذين أعتقد أنهم كانوا ضحيته هو ومنظمته. وتحدثتُ إلى عدد من زملائي الذين كان لهم اتصال مباشر مع بيلاروزا، وتشير المعلومات إلى أنه رجل عنيف وإنما حذرٌ".

قلت رأيي: "أظن أنه شخص متهور، ولذلك لن يكون حذراً دائماً في ما يقوم به".

أومأ برأسه، ثم قال لنا: "يمثل أنطوني بيلاروزا الفئة الجديدة من رجال المافيا من الطبقة المتوسطة. يمثل هؤلاء الرجال الجيلين الثالث والرابع للإيطاليين - الأميركيين، وبعضهم ليسوا حتى إيطاليين مئة بالمئة، والعديد منهم يتزوجون بغير الإيطاليين، مثلما فعل أنطوني بيلاروزا. لذا، ما أقوله هو أن الرأي المقولب لا ينطبق على الدوام، وانخفض مستوى العنف، لكنه لا يزال موجوداً تحت السطح، وهو دائماً خيار عند هؤلاء الأشخاص. خصوصاً حين يكون الأمر شخصياً".

فهمتُ كل ذلك، وفكرتُ مجدداً في أنطوني كنمر صغير، تم إبعاده قبل ثلاثة أو أربعة أجيال عن البرية، وجرى تدجينه ظاهرياً، لكنه لا يزال يتفاعل مع بعض الغرائز البدائية حين يشمّ رائحة الدم. قلتُ لمانوسكو: "تقول الشرطة إنهم لا يملكون أي دليل ضده".

أجاب السيد مانوسكو: "نظن أنه ضرب أربعة عشر رجلاً على الأقل، لكننا لم نستطع اتهامه، مباشرة أو غير مباشرة، بأي جريمة قتل".

تذكرتُ بعضاً من لغة المافيا، فسألت: "إذاً، لم يحسم أمره؟".

أجاب السيد مانوسكو: "أنا واثق من أنه فعل، وإلا لما كان حيث هو في المنظمة، لكنه لم يلفت أبداً انتباهنا، ولم يعتد على ذلك".

قالت سوزان: "أظن أنني لم أفهم شيئاً".

تركتُ السيد مانوسكو يشرح: "يعني ذلك ارتكاب جريمة شخصياً. وليس تفويض أحدهم بالقتل".

قالت سوزان: "آسفة لأنني سألت".

أخرج فيليكس مانوسكو دفتراً صغيراً من جيبه وقال لنا: "أودّ أن يخبرني كل منكما، بالترتيب الذي تريدانه، عن أمر لم يتم ذكره ربما في إفادة الشرطة. يمكنكما أن تقولا لي آراء، أو انطباعات، أو مشاعر، إضافة إلى ملاحظات وتفاصيل بدت غير مهمة ربما لكما، لكنها قد تعني لي شيئاً في السياق الأكبر، أو قد تصبح مهمة لاحقاً".

بدا أن هذا يعطيني مجالاً أكبر بكثير من ذلك الذي حظيت به من الشرطة، ويوسع احتمالات الاستمتاع قليلاً بوصفي لأحداث يوم الأحد عند آل بيلاروزا. من جهة أخرى، إنها مسألة جدية، ولا أريد أن يظن السيد مانوسكو أن زملاءه كانوا مضحكين عن غير قصد. اقترحت سوزان أن أبدأ أنا أولاً، فبدأت من الطرقة على الباب، ورؤيتي للسيد أنطوني بيلاروزا على عتبة الباب.

ختمتُ بالقول: "كان أنطوني في مهمة، ألا وهي توظيفي، ولذلك تطرّق إلى موضوع سوزان لاستخدامه لاحقاً بمثابة ورقة مقايضة. كانت الصفقة ستقول دائماً إنها ستبقى على قيد الحياة طالما أعمل لديه".

لم يعلق السيد مانوسكو على ذلك وقال: "تابع أرجوك".

سكبتُ المزيد من القهوة وتابعتُ قصة جون وأنطوني، وانتقلتُ من ثم إلى العشاء في مطعم وونغ لي، ولقائي بطوني، المعروف قبلاً بأنطوني، وحديثي الهاتفي مع آنا، وكررتُ حتى نكات أنطوني عن أمه، مما جعل السيد مانوسكو يبتسم، متذكراً ربما أمه.

انتقلتُ بعدها إلى فظاظة أنطوني مع النادلة الصينية لإعطاء الجميع صورة غير جميلة عن أنطوني بيلاروزا. ذكرتُ بقية المحادثة مع أنطوني، عن والده، ومسائل متصلة بعضها بعضاً، وختمتُ بذكر رحيلي المفاجئ والغاضب. سألتُ السيد مانوسكو: "هل أعطيك الكثير من المعلومات؟".

طمأنني: "ما من شيء اسمه الكثير من المعلومات حين تكون في قسم المعلومات". ثم قال لي: "نحضّر ملفات شخصية عن هؤلاء الأشخاص، ويمكن لأي شخص، مثلك، أجرى اتصالاً مع شخص من هؤلاء، أن يعطينا معلومات قيّمة حول كيفية تفكيرهم، وأحاديثهم، وتصرفاتهم، وتفاعلاتهم".

"حسناً". لذا، أخبرته نكات أنطوني عن النساء الصينيات، لكنه لم يبتسم. ولم تفعل سوزان التي قالت: "مقرف".

قد يكون هذا تجاوز خط المعلومات الكثيرة، ولذلك انتقلتُ إلى تفاصيل لقائي بأنطوني صدفة في غرايس لاين، وذهابي معه إلى أويستر باي. أبقيت السرد صادقاً، ومثلما اقترح مانوسكو، عبُّرت عن رأيي بين الحين والآخر.

أومأ السيد مانوسكو مرات قليلة ورفع حاجبيه عند بعض التفاصيل الملائمة من روايتي، ليظهر لي أنه غير موافق على اهتمامي المحتمل بالعمل كمستشار لأنطوني، بالرغم من شرحي السابق عن قلقي بشأن سوزان. وكان يدوّن ملاحظة بين الحين والآخر.

حين انتهيت من فصل أويستر باي، علّقت سوزان: "حسناً، لا شك في أنه اختار الشخص المناسب ليخبره أن رأسه أصبح كبيراً جداً".

يفترض أن يكون ذلك مضحكاً، فضحكتُ بصوتٍ عالٍ، وحتى السيد مانوسكو ابتسم. إلا أنني اقترحت: "لماذا لا تتركين الآراء لي، حبيبتي، إلى أن يحين دورك؟".

طلب مني السيد مانوسكو المتابعة، فقررتُ ذكر حادثة يوم الأحد، وزيارتي إلى سوزان، لتحديد الإطار الزمني لمصالحتنا. بالغتُ في السرد، وذكرتُ ندم سوزان على ما فعلته، وطمأنت مانوسكو بأن سوزان، مثل مريم المجدلية، فهمت خطاياها، ولامست عتبة التوبة الكاملة ومرحلة القداسة ربما.

حسناً، لم أصل إلى هذا الحد، لكنني أردت أن يفهم السيد مانوسكو بأن سوزان ساتر، الجالسة الآن هنا، لم تعد نفسها المرأة الساقطة التي كانت قبل عشر سنوات، وأنها تستحق الإنقاذ. يحتاج فيليكس مانوسكو إلى أن يضع جانباً كل الأفكار السلبية التي يضمرها، والقائلة إن الزاني يستحق الموت، أو إذا حصل شيء لسوزِان، فإنها تستحق ذلك. كان العمِيل الخاص مانوسكو شخصاً محترفاً،

لكنه أيضاً رجل صُدم بعمق، وجُرح مهنياً بسبب ما حصل قبل عشر سنوات. إلا أنه سيؤدي مهمته، وسيفعل ذلك بطريقة أفضل إذا ظن أنه إلى جانب الملائكة.

قاطع مديحي لسوزان وقال: "إذا كان بوسعي التدخل... لا أفهم كيف تصالحتما بسرعة بعد انفصال دام عشر سنوات".

حسناً، سوزان ستانهوب ساتر هي إحدى أفضل النساء في حياتي. لا؛ هي أفضلهنّ على الإطلاق.

"سيد ساتر؟".

"حسناً... بدا وكأن هذا السدّ قد انهار، وأطلق العنان لعقد كامل من الغضب، والأذى، وخيبة الأمل، والخيانة، والعناد. وبعدما همد الدم، لم يبقَ سوى بحيرة عميقة وهادئة من... حسناً، الحب".

أظن أنني سمعتُ سوزان تتأوه، لكن السيد مانوسكو أومأ برأسه وقال: "تابع أرجوك".

ذكرتُ رحلتي إلى الحمرا، بما في ذلك خدمة بيل للأمن عند البوابة، ولقائي بميغان بيلاروزا، واجتماعي مع آنا. كان يمكن هنا أن أواجه مشكلة مع السيد مانوسكو إذا سخرتُ من الأم الإيطالية، ولذلك خففتُ من سيطرة آنا على ابنها، وشددتُ على مزاياها الإيجابية في الحب، والحنان، والضيافة، وحسن الاستقبال. وختمتُ القصة بالقول: "أتمنى لو أنّ لي مثل هذه الأم". أدركتُ أنني لم أكن كاذباً تماماً، وابتسم السيد مانوسكو.

لقد أبليتُ حسناً حتى الآن، وتجاوزتُ المسألة المحيرة من حديثنا أنا وأنطوني عن مهنة جديدة لي، ومن هناك، وضعتني القصة في منظور جيد، لكن الأهم أنني كنت أصل إلى التهديدات المبطنة لحياة سوزان.

أبلغتُ السيد مانوسكو: "سالفاتور داليسيو، الملقب بسالي دادا، كان على المصطبة الخلفية مع زوجته ماري".

يبدو أن السيد مانوسكو لم يتفاعل مع ذلك، ولذلك سألته: "هل تراقب منزله؟".

قال مانوسكو: "كان هذا مذكوراً في إفادتك للشرطة. تابع أرجوك".

"حسناً". ذكرتُ تفاصيل لقائي الصدفة مع العم سال، وشاركتُ السيد مانوسكو أفكاري وملاحظاتي حول العلاقة بين سال وأنطوني، ثم انتقلتُ إلى مقابلة التوظيف المستمرة مع المدير العام التنفيذي لشركة بيل للخدمات، مشدداً على أن أنطوني كان بليداً كثيراً في فهم رفضي لعرضه. ذكرتُ أيضاً رأيي في أن النساء في حياة أنطوني لا يعاملنه على أنه السيد. ذكرتُ أيضاً أنني أخبرتُ أنطوني أن ابنتي هي مساعدة محامٍ في بروكلين.

علّق السيد مانوسكو بالقول: "لديك إذاً فرد من العائلة يعمل في تطبيق القانون".

سوزان، الأم الفخورة، قالت: "إنها تحب مهنتها، وتعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً. أنا فخورة جداً بها".

ابتسم السيد مانوسكو، وهو يفكر ربما ثمة فرد واحد على الأقل في هذه العائلة اختار الطريق المستقيمة.

أصبحنا جميعاً متماسكين الآن، وكنت أنا في الطليعة ولذلك انتقلتُ إلى الحديث عن مكتب أنطوني، واتصالي الهاتفي بإليزابيت وسوزان. ما كنتُ لأذكر الاتصال الهاتفي بإليزابيت، لكن السيد مانوسكو استمع على الأرجح إلى التسجيل الصوتي لذلك الاتصال، وكذلك اتصالي بسوزان. وبصفتي محامياً، أعرف أنه حين يتجاهل المرء أمراً ما، أو يكذب على القانون، ولو في شيء صغير، يُطرح السؤال حول صحة الأشياء الأخرى.

بدا السيد مانوسكو مهتماً لوجودي في مكتب أنطوني بيلاروزا، وطلب مني وصفه.

لذا، ولإضافة بعض التفاصيل إلى ملف شخصية أنطوني بيلاروزا، وتبرير لقائي الاجتماعي به، قلتُ إن أنطوني يحتفظ بكتب والده من أكاديمية لاسال العسكرية على رفوف مكتبته، وإن أنطوني يملك مجموعة من الكتب التي كتبها الرومانيون، أو التي تتحدث عنهم.

أومأ السيد مانوسكو برأسه وقال: "مثلما ذكرتُ قبل انضمام السيدة ساتر إلينا، لا بد من أن أنطوني بيلاروزا مصاب بعقدة قيصر". ابتسم ثم أضاف: "العديد منهم هكذا". ثم قال لي: "تابع أرجوك".

كنتُ سأنتقل من موضوع الرومانيين، لكنني وجدت غرابة في أن يكون رجل غير مثير وغير معقد مبدئياً يملك هذا الجانب الآخر فيه، ولذلك اقترحت: "بعض إعجابه بالرومانيين له علاقة ربما بما ذكرته قبلاً؛ أنطوني خاضع لسيطرة النساء، و... حسناً، كان الرومانيون هكذا".

أومأ السيد مانوسكو برأسه بتهذيب، لكنني أحسست أنه يظن أنني أستطرد في كلامي، فقررت إيضاح فكرتي ومتابعة وصفي للمكتب وقلت: "فوق الموقد، عُلقت نسخة من لوحة اغتصاب نساء سابين للفنان روبنز". وأضفت، في حال لم يكن السيد مانوسكو مطلعاً على القصة الكلاسيكية: "اغتصب الرومان نساء قبيلة سابين".

أومأ السيد مانوسكو برأسه، وطمأنتني سوزان: "أظن أننا فهمنا. هل نستطيع المتابعة؟".

"حسناً". أنهيتُ وصفي للمكتب، وأصبحت الآن في المرحلة التي يجدر بي التحدث فيها عن رؤيتي للوحة سوزان الزيتية للألهامبرا في مكتب أنطوني، وتمزيقها إرباً. لم أذكر هذا الأمر في إفادتي للشرطة، ولم تعرف سوزان بهذا الأمر، ولا أعرف ماذا سيكون رأيها. لا أعرف أيضاً ما إذا كان هذا التصرف التخريبي يجعلني رجلاً قوياً أو مجنوناً. لذا، ومن دون الالتفاف أو الدوران، قلتُ ببساطة: "كانت هناك لوحة زيتية على محمل في مكتب أنطوني، وعرفتُ أنها اللوحة التي رسمتها سوزان لفناء النخل في الحمرا...".

قاطعني السيد مانوسكو وقال لي: "أدخلت قبضتك فيها تلك الليلة".

"صحيح. لكن أحدهم رممها".

سوزان، التي لم تعرف أبداً أنني مزقت لوحتها، نظرت إليّ لكنها لم تقل شيئاً.

دخلتُ مباشرة في الموضوع وقلت: "أخذت فتاحة الرسائل ومزقت اللوحة وحولتها إلى قطع".

لم يعلّق أحد على ذلك ولذلك سكبتُ كوباً آخر من القهوة لنفسي.

أخيراً، سأل السيد مانوسكو: "لماذا؟".

سؤال جيد. أجبته: "كان هذا تصرفاً رمزياً له علاقة بأمور نفسية دفينة، بالترافق مع اعتقاد أساسي مفاده أن عدوي يجب ألا يمتلك أي شيء له علاقة بزوجتي السابقة والمستقبلية".

غاص السيد مانوسكو في تفكيره، كما لو أنه يستجمع أفكاره حول الجانب النفسي في شخصيتي.

أحسستُ أن سوزان كانت تنظر إليّ، ولذلك نظرت مباشرة إليها.

أدركتُ أن شرحي كان غريباً قليلاً، ولذلك اعتمدت شرحاً أكثر بساطة وقلت: "كنت غاضباً جداً منه، وأعتقد أنني أردت ترك رسالة له".

قال لي فيليكس مانوسكو: "حسناً، أنا واثق من أنه فهم الرسالة، سيد ساتر. وبما أنني أعرف بطانته، أنا واثق أيضاً من أنه يملك رسالة أيضاً لك".

"أنا واثق من ذلك".

ختمتُ سردي لأحداث يوم الأحد مع أنطوني بتكرار ما قاله لي كلمة كلمة، مثلما فعلتُ مع التحري ناستاسي، حديثنا الذي دار على مصطبته الأمامية، وقولي له إن والده كان جاسوساً يبيع أصدقاءه وعائلته مقابل الحصول على حصانة من المقاضاة. إلا أنني لم أكشف أمام السيد مانوسكو، أو سوزان، أنني قلت لأنطوني إن والده وزوجتي كانا مغرمين، ومستعدين للهرب معاً؛ وكانا سيفعلان ذلك لو لم يكن فرانك يدين لي بخدمة.

أنهيت كلامي بعبارات لم أقلها للتحري ناستاسي، ولم أركز عليها كثيراً من قبل. قلتُ لفيليكس مانوسكو: "عينا أنطوني بيلاروزا، ووجهه، ونبرة صوته... لو لم نكن واقفين على مصطبته الأمامية، ولو كان يحمل مسدساً، أظن أنه كان ليقتلني".

وقفت سوزان، وانضمّت إليّ، وأمسكت بيدي.

لم يعلّق السيد مانوسكو، لكنه وقف أيضاً وقال: "أظن أنه حان الوقت للاستراحة".

الفصل الخامس والأربعون

بقي فيليكس مانوسكو في مكتبي، وأخذنا أنا وسوزان استراحتنا في الردهة العلوية، التي تحولت قبل زمن بعيد إلى غرفة عائلية، حيث كنا نجتمع فيها لمشاهدة التلفزيون حين كان إدوارد وكارولين صغيرين. لا أعرف ماذا فعل المالكان السابقان بهذه الغرفة، لكن سوزان أعادت بإخلاص توليد الجو نفسه، والمفروشات الأصلية للغرفة، بما في ذلك بعض الملصقات السينمائية القديمة التي أذكرها، بالرغم من أن فيلم "العراب" بدا ناقصاً.

فتحت سوزان قنينتين من المياه المعدنية، وناولتني واحدة. بقينا واقفين، ونظرتُ خارج النافذة إلى المطر المنهمر.

قالت لي سوزان: "أصبحت أملك صورة أكثر وضوحاً الآن عما حصل بينك وبين أنطوني بيلاروزا".

أجبتها: "الأهم من ذلك، أتمنى أن تكوني قد فهمتِ بصورة أفضل الخطر الذي يحدق بكِ".

"وبكَ".

أجبتها: "إنه غاضب مني، وربما خائب الأمل. لكنه سيتخطى ذلك. الأمر متعلق بك".

قالت لي: "لقد هددك، جون".

لم أجبها.

سألتني: "ما الذي دفعك إلى تمزيق اللوحة؟".

"أخبرتك".

"لكن... لماذا أردته أكثر غضباً منك؟".

أشحت بنظري عن النافذة وأجبتها: "إذا أردتِ فعلاً أن تعرفي، سوزان، أعادت إليّ تلك اللوحة اللعينة ذكريات الوقت الذي أمضيته في الحمرا، وعلاقتك مع...".

"حسناً. أظن أنك أفرطت في ردة فعلك، لكن...".

"لهذا السبب، مزقتها قبل عشرة أعوام، ولن يكون هناك أحد لترميمها هذه المرة".

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت: "أفهم".

لم يتحدث أي منا لبرهة، ثم قالت سوزان: "لكن ما لا أفهمه هو... سبب الغضب الشديد لدى أنطوني بيلاروزا... كان يستلطفك على ما يبدو، ويقدرك كثيراً... ثم انقلب عليك وهددك. لماذا؟".

أنهيتُ شرب الماء وأجبتها: "مثلما قلتُ للتحري ناستاسي، ومثلما قلتُ للتو لمانوسكو؛ أخبرتُ أنطوني أننا عدنا أنا وأنتِ إلى بعضنا، وأن علاقتي معه قد انتهت. اعتبري ذلك مثل... حسناً، مثلث عاطفي". أردتُ القول: "تعرفين معنى ذلك"، لكنني قلتُ: "ليس معتاداً على التوبيخ. وما أزعجه فعلاً هو قولي له إن والده كان يبيع نفسه للأف بي آي".

أومأت برأسها، لكنني لاحظتُ أنها غير راضية عن الإيضاحات التي قدمتها. سوزان، بالرغم من كل جنونها المتقطع، تمتلك قدرة رهيبة على كشف السخافة. خصوصاً حين تصدر عني.

نظرت إليّ وسألتني: "هل تخبرني بكل شيء؟".

عكستُ السؤال وسألتها: "هل تخبرينني بكل شيء؟ عنك وعن فرانك؟".

نظرت إلى عينيّ مباشرة، وقالت: "فعلت. أخبرتكَ أنني أحببته، وأنني قتلته لأنه أخبرني أن العلاقة انتهت بيننا، وأخبرني أنه استغلني، ولم يحبني أبداً، وأنه سيذهب إلى إيطاليا مع آنا. وأخبرتكَ أيضاً أنني لم أقتله لأجلنا؛ كانت هذه كذبة. ماذا أستطيع أن أخبرك بعد؟".

أخذتُ نفساً عميقاً وأجبتها: "لا شيء".

سألتني مجدداً: "هل تخبرني بكل شيء؟".

صمتنا لبرهة، وأدركتُ أن الوقت قد حان؛ في الواقع، لم أكن أرغب في أن يأتي هذا الوقت، لكن المسألة تزعجني أكثر مما اعتقدت، وكانت هي صريحة معي، وعليّ بالتالي فعل الشيء نفسه، وإذا تفاعلت بشكل سيئ، فسنكون قد تعلمنا معاً شيئاً جديداً عن بعضنا.

اقترحت عليها الجلوس، لكنها بقيت واقفة، فبقيت واقفاً أنا أيضاً. قلت لها: "حسناً... إليك الجزء الناقص؛ إليك السبب الذي جعل أنطوني يفقد السيطرة على نفسه. أخبرت أنطوني أنكِ كنتِ أنت ووالده مغرمين، وكنتما تخططان معاً للتخلي عن عائلتيكما والذهاب إلى إيطاليا معاً. لم يصدقني، وأصرّ على أن والده كان فقط يتسلى في علاقته معك. لكنني أقنعته بأن والده كان مستعداً تماماً للتخلي عن زوجته وأبنائه".

أومأت برأسها، وكان بوسعي التوقف هنا لأن هذا يبرر التغير المفاجئ في موقف أنطوني حيال جون ساتر، حامل هذه الأخبار غير السارة. لكن بما أنني بدأت، عليّ أن أنهي، ولذلك قلتُ لها: "إليك المزيد. وهذا أمر قد لا ترغبين في سماعه".

"أصبحت معتادة على ذلك الآن".

"حسناً". وهكذا، بدأت أخبرها ما قلته قبلاً لأنطوني بيلاروزا - أن فرانك بيلاروزا عرض عليّ خدمة بوسعه القيام بها مقابل إنقاذي لحياته. قلتُ لها من ثم: "الخدمة التي طلبتها منه كانت... إبلاغك بأن علاقتكما قد انتهت، سوزان، وأنه

لم يحبك أبداَ، وأنه كان يستخدمك للتقرّب مني، وأنه لن يأخذك إلى إيطاليا معه. وهذا ما فعله بوضوح. لأجلي".

نظرت إليها، والتقت نظراتنا. لاحظتُ أنها تواجه صعوبة في استيعاب ذلك، لكنها فهمت من ثم أن كل ما قاله لها فرانك بيلاروزا تلك الليلة كان صادراً عني أنا، وليس معبَّرا عما في قلبه. وقد قتلت الرجل الذي أحبته، والذي كان يحبها.

جلست سوزان على الأريكة وحدقت إلى الحائط.

قلتُ لها: "أخبرتُ كل ذلك لأنطوني - أن والده كان سيتخلى عنه وعن أمه وإخوته، والسبب الوحيد الذي منعه من ذلك هو أن والده كان يدين لي بحياته. لم أكن بحاجة إلى إبلاغ أنطوني ذلك، لكن... كنت غاضباً منه، وأردته أن يعرف أن والده لم يكن فقط جاسوساً للدولة، وإنما لم يكن أيضاً والداً وزوجاً جيداً". كنتُ أحاول أيضاً صرف بعض انتباه أنطوني عن سوزان، وعني، لكن إذا قلتُ ذلك، سيبدو ذلك أنانياً ولذلك ختمتُ بالقول: "لهذا السبب، غضب أنطوني كثيراً وهددني".

بقيت سوزان تحدق إلى الحائط، ولم أستطع قراءة أي تعابير في وجهها.

أحتاج الآن إلى إبلاغها بأمر لم أقله لأنطوني، وأمر لم أحسمه أبداً في عقلي. قلتُ لها: "حين طلبتُ من فرانك إبلاغك أن العلاقة قد انتهت بينكما، فكرتُ، أو تمنيتُ، أن تتركيه... لكنني فكرتُ ربما في اللاوعي أنك ستنتقمين منه". أخذتُ نفساً عميقاً وتابعت: "لكن هذا خطر في بالي لاحقاً ربما لأن... حسناً، حين قتلته، لم أكن واثقاً في قرارة نفسي ما إذا كان هذا هو الشيء الذي أردته أو تمنيته حين أعددت هذه الخطة... لم أكن واثقاً ما إذا كان يجدر بي الاحتفال بموته، أو الشعور بالذنب وتحمل بعض المسؤولية... حتى اليوم، ما زلت غير واثق من ذلك".

نظرت إليّ سوزان، ولم يكن هناك أي تعبير في وجهها.

قلتُ لها: "أردت استردادك، وأردتُ ألا تحبينه... لكنني لستُ واثقاً من أنني أردته ميتاً. لكن إذا كان هذا صحيحاً، تكونين محقة في ذلك؛ كان يجدر بي قتله بنفسي".

بقيت جالسة، ولاحظتُ أنها تجاوزت الصدمة، وكنت واثقاً من أنها لا تزال تفكر في قتلها الرجل الذي كان يحبها، والذي لم يخنها أبداً، وإنما كان يتبع فقط تعليماتي - كمسألة شرف - لتسديد دين.

لم أعرف حتى ما هو شعورها الآن حيال ما فعلته، أو شعورها حيالي أنا.

لم يبقَ الكثير من الكلام لإضافته، لكنني قلتُ لها: "لست واثقاً من أنه يجدر بي الاعتذار منك لأنني طلبتُ منه الكذب عليك - فقد كذبتما أنتما الاثنان كثيراً عليّ - ولن أطلب منك حتماً السماح. لكنني أريدك أن تعرفي أنني أتحمل بعض اللوم اتجاه ما حصل".

تحدثت للمرة الأولى وقالت: "أنا قتلته، وليس أنت".

“حسناً. لكن... حين تفكرين في كل ذلك...”.

قالت: “أظن أنه أحبك أكثر مما أحبني”.

“كان يدين لي بخدمة”.

أخذت نفساً عميقاً وتابعت: “كان دائماً يتحدث عنك، وكان هذا يزعجني و... يغضبني... و...”.

قلتُ لها: “حسناً. لا أحتاج إلى سماع ذلك. عليك التفكير في الكثير من الأمور قبل أن تقرري... شعورك. سأنهي الحديث مع مانوسكو. لست بحاجة إلى الانضمام إلينا”.

استدرتُ وتوجهتُ نحو الباب.

“جون”.

نظرتُ إليها وسألتني: “هل أردتَ فعلاً عودتي؟”.

“نعم”.

“إذاً، لماذا لم تستعدني بعدما مات؟”.

“بدّلت رأيي”.

“لماذا؟”.

“لأنني... أدركتُ بعد ذلك أنني... أردتكِ أن تتركيه لأنك ترغبين أنتِ في تركه؛ أردتكِ أن تعودي إليّ لأنك تحبينني أكثر منه... ولذلك فإن تخليه عنك، وموته، لم يكونا بالضبط ما أردته”.

لم تجب.

كنت على وشك الاستدارة والمغادرة لكنها قالت مجدداً: “جون”.

“عليّ الذهاب”.

“عليك أن تخبرني لماذا لم نعد إلى بعضنا بعدما قتلته”.

“أخبرتك للتو”.

“لا، لم تفعل”.

مثلما قلت قبلاً، سوزان تعرفني، وأستطيع الهروب لكنني لا أستطيع الاختباء. لذا قلتُ لها: “حسناً... كنتُ مهاناً... أمام العموم. لو بقيت علاقتك به محصورة بيننا نحن الثلاثة - وطبعاً الأف بي آي - لكنتُ سامحتك. لكن حين تحولت العلاقة إلى قضية وطنية، وموضوع هزل ونكات...”، نظرتُ إليها وقلت: “وتتساءلين لماذا أبحرت على متن مركبي وهربتُ من هنا؟ أي نوع من الرجال تظنينني؟”.

وضعت يديها فوق وجهها، ولاحظتُ أنها تبكي. لم أعرف على ماذا كانت تبكي؛ على قتلها فرانك بيلاروزا، الذي اكتشفت للتو أنه أقل حقارة مما ظنّت، أو

أنها تبكي ربما لأنها فهمت أخيراً الفوضى التي سببتها من حولها. أو أنها أدركت ربما أنني ترددتُ في عودتنا إلى بعضنا مجدداً.

استدرتُ وغادرت الغرفة.

الفصل السادس والأربعون

لا يزال فيليكس مانوسكو في مكتبي، وكان يتحدث عبر هاتفه الخلوي. بقيتُ واقفاً حتى أنهى مكالمته، وقلتُ: "تشعر السيدة ساتر ببعض الانزعاج، ولذلك علينا تأجيل المسألة إلى وقت لاحق. أستطيع الذهاب إلى مكتبك غداً إذا كان هذا يناسبك".

نظر إليّ ثم سأل: "هل كل شيء على ما يرام؟".

أجبته: "إنها غاضبة".

أومأ برأسه وقال: "هذا يسبب الكثير من التوتر لها. لكنني أحتاج إلى عشر دقائق إضافية من وقتك. وأحتاج إلى التحدث معها حين تصبح جاهزة".

أجبته: "لا أظن أنه بقي الكثير من الكلام الذي تستطيع إضافته إلى ما قلته، أو إلى ما تعرفه أصلاً، لكن هذا قرارك". اقترحتُ عليه: "يمكنك الاتصال بها هاتفياً". جلست أمام مكتبي وقلتُ: "تابع أرجوك".

نظر إليّ مجدداً وقال: "أولاً، عليك أن تعرف أن أنطوني بيلاروزا اختفى على ما يبدو. لا نعرف ما إذا كان لهذا علاقة بهذه المشكلة أو بمشاكل أخرى خاصة به، أو بموت جون غوتي، أو أنها واحدة من اختفاءاته العادية. فالعديد من هؤلاء الأشخاص يختفون لبعض الوقت. ويكون هذا أحياناً متعلقاً بالعمل، وإنما في الأغلب للمتعة".

لم أكن أنتبه كثيراً إلى كلام فيليكس مانوسكو، لأن تفكيري لا يزال مع سوزان، لكنني سألته: "هل يمكن أن يكون قد مات؟".

أجاب السيد مانوسكو: "ربما. لكننا لم نسمع بذلك، وحسب معلومات التحري ناستاسي، لا تبدو ميغان، زوجة بيلاروزا، منزعجة من مغادرته من دون تبرير آخر سوى العمل".

اقترحتُ عليه، نصف ممازح: "تريده ربما ميتاً".

لم يجب مانوسكو على ذلك، وإنما قال: "تودّ الشرطة التحدث إليه، لإبلاغه بأنك تقدمت بشكوى ضدّه، وإبلاغه بأنه تحت المراقبة. وترغب الشرطة حتماً في اتهامه بجرم معين لتتمكن من توقيفه. إلا أنه اختفى لسوء الحظ لأسباب مجهولة".

المثير للسخرية هو أنني لو كنت مستشاره، لنصحته بأن يجعل نفسه متوافراً بين يدي الشرطة، ويخبرهم بتهذيب أنه يرفض الإجابة عن أي أسئلة من دون حضور محاميه. في عالمي أنا، هذا ما يجب فعله - لكن في عالمه هو، لا يمكن التغاضي عن رجال الشرطة. لذا، فإن الاختفاء من قبل أن تطلب منك الشرطة إبلاغها عن كل تحركاتك هو خطوة ذكية جداً. بالإضافة إلى ذلك، ليس ممنوعاً عليه مغادرة المنزل. إلا أنني سألت: "هل يمكنك أنتَ أو الشرطة الحصول على مذكرة لاعتقاله؟".

أجاب: "نعمل على طرائق عدة لعرض هذه القضية أمام قاضٍ حكومي أو فدرالي، لكن باستثناء الحاجة إلى استجوابه، استناداً إلى شكواك فقط، لا نملك الكثير من الأدلة لإقناع القاضي. لكننا سنحاول". ثم قال لي: "اكتشفت منذ أحداث 11 سبتمبر أن عملي الجديد في القوة الإرهابية أسهل لناحية ما تسمح به المحاكم والقوانين، لكن أنطوني بيلاروزا ليس إرهابياً مشتبهاً به. إنه رجل مافيا قديم الطراز، ولا تزال كل حقوقه المدنية مصانة".

قلتُ للسيد مانوسكو: "هل ذكرتُ لك أنني رأيت صورة موقعة لأسامة بن لادن في مكتبه؟".

ابتسم السيد مانوسكو وتابع: "على أي حال، يعتبر اختفاء أنطوني بيلاروزا، وهو ليس غريباً، مقلقاً من هذه الناحية، وربما مثيراً من ناحية مشاكله في المنظمة".

سألته: "هل تقصد مشاكله مع سالفاتور داليسيو؟".

"ربما. سنرى إذا كان أنطوني بيلاروزا سيظهر في دفن جون غوتي".

قلت له: "حسناً. أتمنى أن يعثر أحدهم على جثته كي أتمكن من النوم جيداً في الليل؟".

سألني مانوسكو حول هذا الموضوع: "هل تملك سلاحاً؟".

أجبته: "لدينا بندقية؟".

"هل تعرف كيف تستخدمها؟".

أجبته، بسذاجة: "أضع خرطوشة في كل فوهة، وأنزع زر الأمان، وأضغط على الزناد. كنت في الجيش، وكانت السيدة ساتر بارعة في الرماية وصيد العصافير. إنها بندقيتها".

"حسناً. لا تشجع الأف بي آي أو الشرطة الأشخاص المدنيين على مواجهة أي متطفل، أو اقتناء أو شراء السلاح بهدف...".

"سيد مانوسكو، أفهم. كن مطمئناً بأنني أنا والسيدة ساتر لن نكمن لأنطوني بيلاروزا على مصطبته الأمامية. لكن إذا دخل أي كان إلى هذا المنزل بهدف إلحاق الأذى الجسدي، سنقوم بما يلزم. أعرف القانون".

"أعرف ذلك". ثم تابع: "إذا عاد أنطوني بيلاروزا إلى منزله، أو إذا اكتشفنا مكانه، سيخبرك أحدهم من مكتب الأف بي آي أو من الشرطة المحلية بذلك".

"أتمنى ذلك".

تابع القول: "تأكدت من أن مركز الشرطة في الدائرة الثانية قد أنذر كل السيارات الجوالة بهذا الوضع. قد يتواجد مكتب الأف بي آي أيضاً في المنطقة".

أومأت برأسي، وتابع شرح بعض النقاط الإضافية، وطلب مني أيضاً توضيح بعض ما جاء في إفاداتي السابقة. بدا أنه يتذكر جيداً كل ما قلته في الآونة

الأخيرة، وأصبحت واثقاً من أنه يتذكر جيداً كل الأحداث الماضية التي حصلت قبل عشر سنوات. في هذا السياق، نملك شيئاً مشتركاً.

لم أستعد بعد رباطة جأشي بعد الحديث الذي دار بيني وبين سوزان، بالرغم من أنني شعرت بالارتياح لأنني بحت أخيراً بما في داخلي، وأدركتُ أن إعادة نبش الماضي مجدداً جعلني في مزاج سيئ. وبالإضافة إلى أن اعترافاتي الكاملة لسوزان، توجب عليّ تذكر كوني الأحمق الأول في أميركا ذلك الأسبوع.

"سيد ساتر؟".

نظرتُ إلى مانوسكو.

"سألتك هل يعيش أحد آخر في هذا المنزل؟".

"لا... حسناً، توفيت للتو صديقة قديمة للعائلة - السيدة ألارد - ونتوقع حضور الأهل والأصدقاء إلى هذا المنزل للمشاركة في الدفن".

سأل: "ومن هم هؤلاء؟".

أجبته: "ولدانا، إدوارد وكارولين". أعطيته عمرهما، ودوّن ذلك. تابعت قائلاً: "وربما والدا السيدة ساتر، ويليام وشارلوت ستانهوب، بالرغم من أنهما قد يقيمان في مكان آخر. وكذلك شقيق السيدة ساتر، بيتر، قد يأتي إلى هنا يوم عيد الأب".

أومأ برأسه وقال: "هذا صحيح. إنه يوم الأحد. يصعب التصديق أن هذا الشهر مرّ بسرعة".

"ليس بالنسبة إليّ".

لم يجبني وتابع: "هل من أحد يعيش في ذلك المنزل الصغير الواقع قرب البوابات؟".

شرحتُ له: "إنه منزل الحراسة، حيث كانت المرحومة السيدة ألارد تعيش، وحيث كنت أعيش أنا حتى يوم الأحد".

"فهمت. هل من أحد هناك الآن؟".

"انتقل منزل الحراسة إلى ملكية السيد أمير نسيم بعد وفاة إيثيل ألارد".

"تركته لأمير نسيم؟".

سيستغرق الكثير من الوقت لأشرح للسيد مانوسكو كيف كانت إيثيل ألارد تقيم علاقة مع أوغسطس ستانهوب، وحصلت على حق الإقامة في المنزل لمدى الحياة، وكل ذلك، بالرغم من أنه بصفته محامياً، سيفهم السيد مانوسكو المبدأ القانوني. لكن بصفته طالباً سابقاً في معهد اللاهوت، لن يكون مسروراً لمعرفة أن بدلَ الزنى كانت قيمته ستين سنة من الإيجار المجاني. على أي حال، قلتُ له: "احتفظت السيدة ألارد بحق الإقامة في المنزل طوال حياتها. وأعتقد أن نسيم يريد تعزيز أمنه، ولذلك قد يُسكنُ بعض رجاله هناك".

أومأ السيد مانوسكو برأسه وسأل: "هل تعرف أي شيء عن الوضع في منزل نسيم؟".

أجبته: "أعرف أن المنزل يحتوي على خمسين غرفة، وأن المجرم يحتاج إلى أسبوع لقتل جميع من فيها". ولكي أكون أقل وقاحة، أضفت: "حسب معلوماتي، يعيش هناك وحيداً مع زوجته، لكن قد يكون هناك بعض الخدم أيضاً. رأيت خادمة واحدة. يمكنك سؤال السيدة ساتر. إنها معتادة أكثر على وضع الخدم في ستانهوب هال".

دوّن السيد مانوسكو ذلك، ثم طرح بعض الأسئلة حول عادات عيشنا، ومشاريع سفرنا، وما إلى ذلك. اقترح قائلاً: "عليكم التفكير في تركيب جهاز إنذار واقتناء كلب".

"نحن نعمل على ذلك".

نصحني أيضاً: "إذا كنتم تملكون المال، عليكم التفكير جيداً في الاستفادة من خدمات شركة أمن خاصة".

اقترحتُ: "ماذا عن شركة بيل للأمن؟".

ادعى الابتسام وأجاب: "قد يعطي ذلك عكس النتيجة المرجوة".

قلتُ له: "يبدو لي وكأننا نواجه خطراً كبيراً".

فكر في ذلك وأجاب: "في هذه المرحلة، أقول إن مستوى الخطر هو أصفر اللون، وينتقل نحو البرتقالي منه".

"ولكن ليس أحمر اللون؟".

أجاب: "دعنا لا نركز على مستويات الخطر. هناك خطر، وسأتحدث إلى الشرطة مجدداً، وإلى الأشخاص المعنيين في مكتب التحقيقات الفدرالي، وسنقيّم الوضع ونبقيك على اطلاع".

أومأت برأسي ثم سألته: "لماذا قلتَ لي عبر الهاتف إنك تظن أن الخطر ليس وشيكاً؟".

لم يجب لبضعة ثوانٍ، ثم قال: "الأمر معقد قليلاً، لكن له علاقة بموت جون غوتي، وبسالفاتور داليسيو، وببعض التغيّرات التي قد تحصل في الأسابيع القليلة المقبلة".

"بمعنى آخر، أنطوني بيلاروزا منشغل بأمور أخرى".

شرح مانوسكو: "مبدئياً، هذا هو الوضع. يملك أنطوني بيلاروزا بعض مشاكل الأمن الخاصة به، وقد يكون هذا هو السبب الرئيسي لاختفائه. السرّ هو أن واحداً منهم - بيلاروزا أو داليسيو - سيتقاعد خلال أسابيع قليلة. تقليدياً، يكون هناك تعليق لنشاطات الثأر خلال أسبوع الدفن والجنازة".

"هذه عادة نبيلة جداً. هل يشمل ذلك أي ثأر ضد آل ساتر؟".

"لا. لكنه يعطي أنطوني وسال أسبوعاً هادئاً في ما يتعلق ببعضهما البعض".

"أنا مسرور لسماع ذلك. لماذا لم تتم تسوية هذا الأمر قبل عشر سنوات؟".

أجاب: "مجدداً، للأمر علاقة بموت غوتي، والهدنة التي حصلت بعد الحادثة في مطعم جوليو". ثم شرح لي: "الجريمة المنظمة تقوم على جمع المال؛ وليس على حروب العصابات أو تصدر العناوين والصور الملونة على شاشة التلفزيون بطريقة تزعج الناس. ولهذا السبب، تعايش أنطوني وعمه في هدنة غير سهلة طوال كل هذه السنوات. لكن الآن... حسناً، كما في وضعك، سيد ساتر، عاد الدجاج إلى بيته".

لم أجب.

أضاف السيد مانوسكو صورة زراعية أخرى لشرحه: "نحصد ما نزرع".

لم يكن هذا بالضبط ما أردتُ سماعه من فيليكس مانوسكو، الذي اعتبرته مثل فارس أبيض وليس حصاداً شرساً. لكنه يتحدث ربما فقط عن أنطوني والعم سال، وليس عني وعن سوزان.

ختم مانوسكو شرحه للوضع الحالي للقضايا بالقول: "أنت والسيدة ساتر لستما الأولوية الأولى عند أنطوني، ولا حتى الثانية ربما. لكن بعدما ينتهي من معالجة مسائله الأخرى مع أصدقائه وعائلته - أو يهتم بعمله وإياهم - سيسوّي حسابه مع السيدة ساتر. هذا أمر شخصي، لكنه أيضاً عمل متعلق بشخصيته". ظننتُ أنه سيسأل: "مفهوم؟"، لكنه قال: "هذا هو الوضع الآن برأينا".

"فهمت". فكرتُ لبرهة ثم قلت: "لكنك قد تكون مخطئاً".

"ربما، ولذلك لا يجدر بك تخفيف حذرك".

"لا أنوي فعل ذلك".

"جيد. وسأقول هذا... إذا اختفى سالفاتور داليسيو، أو قُتل، يكون ذلك إنذاراً لنا جميعاً بأن أنطوني بيلاروزا على قيد الحياة وقد بدأ يسوي حساباته. وإذا تم العثور على أنطوني ميتاً، يمكنك أنتَ وسالفاتور داليسيو وبعض الأشخاص الآخرين التنفس بحرية أكبر.

"فهمت. أنا نصير سالي دادا".

لم يعلّق السيد مانوسكو.

فكرتُ في كل ذلك ثم قلتُ: "حسناً، من الناحية العملية، علينا التواجد هنا هذا الأسبوع، لكن...".

"أنصحك بالعودة إلى عملك الطبيعي هذا الأسبوع. سيكون لديك رفقة، وستكون محاطاً بالأشخاص خلال الجنازة والدفن، ومثلما قلتُ، يحتاج أنطوني بيلاروزا وعمه إلى تسوية أمورهما أولاً. هذه هي الاستراتيجية الوحيدة المنطقية".

"صحيح". لكنني واثق من أحد لم يظن أن أنطوني منطقي أو ذكي مثل والده. سألتُ مانوسكو: "إذاً، ألا تظن أن هناك خطراً على ضيوفي أو ولديّ؟".

"لا أستطيع تأكيد ذلك مئة بالمئة، لكنني أشك في أن يفعل أنطوني بيلاروزا أي شيء يصدم الرأي العام أو ينزل عبء القانون على كتفيه، أو الأهم من ذلك، يثير غضب أصدقائه وشركائه لدرجة أنهم قد ينقلبون عليه. وابنتك مساعدة محام بالاستئناف. يحميها ذلك الواقي من الرصاص". ثم ذكّرني: "إنه يريد السيدةً ساتر، وأنت ربما أيضاً، وهذا هو الترخيص الذي حصل عليه من منظمته. الشخص الذي أراد قتل فرانك بيلاروزا - لنقل إنه كان صهره - لم يكن يريد إلحاق الأذى بك أنت، أو السيدة ساتر أو السيدة بيلاروزا، ولهذا السبب أنتم هنا الآن. إنهم أشخاص محترفون وليسوا عصابات شوارع".

"أنا مسرور لسماع ذلك". يجدر بي إذاً تقديم غرفة نومنا لويليام وشارلوت، وإعارة معطفي وقبعتي لويليام.

قلتُ للسيد مانوسكو: "قد نغادر أنا والسيدة ساتر هذه المنطقة في الأسبوع المقبل بعد مغادرة ضيوفنا".

أجاب: "هذا قراركما لكن إذا غادرتما، لا تخبرا أحداً بمكانكما. لا تخبرا حتى الأصدقاء أو العائلة، ولا تكتبا البطاقات البريدية قبل أن تنتقلا إلى مقصد جديد".

"فهمت". لكن قبل خمس عشرة دقيقة، لم أكن واثقاً ما إذا كنا سنذهب أنا وسوزان معاً إلى أي مكان.

ختم السيد مانوسكو حديثه بالقول: "أعرف أنك أنت، وكذلك السيدة ساتر، مواطنان جيدان ملتزمان بالقانون، ولا تصدقان أن هذا قد يحصل لكما، وقد تظنان أن قوى القانون والنظام يجب أن تبذل جهداً أكبر لحمايتكما، لكن اطمئنا لأننا نفعل كل ما في وسعنا لعدم حصول أي أذى لكما، ونحن نتعامل مع هذه القضية بجدية كبيرة، ونعرف أيضاً أن مشكلتكما هي جزء من مشكلتنا الكبيرة مع الجريمة المنظمة".

كان بوسعي التعليق على نقاط عدة في حديث السيد مانوسكو، لكنني اكتفيت بالقول: "شكراً".

وقفنا كلانا، وأوصلته إلى الباب الأمامي. سألته: "هل ستتصل بالسيد أمير نسيم؟".

أجاب: "هذا منطقي بما أنني هنا".

قلت له: "لا أعرف إذا كان موجوداً، لكنه يكون هنا عادة".

أبلغني السيد مانوسكو: "إنه هنا".

لم أسأله كيف عرف ذلك، لأنه لن يخبرني حتماً، لكنه قال لي: "سأبلغ نسيم أنك أنتَ والسيدة ساتر لديكما بعض المخاوف الأمنية، مثله هو، وسأطلب منه الاتصال بالشرطة المحلية إذا لاحظ أي شيء غير اعتيادي أو مشكوك فيه".

"طلب مني إبلاغه هو أيضاً".

"جيد. سيكون المكان آمناً جداً".

لم أفكر أبداً في أن يصبح ستانهوب هال مكاناً محصناً، لكنني أجبته: "يمكننا توفير الحماية المشتركة. يجدر بنا التوقيع ربما على اتفاقية".

ابتسم السيد مانوسكو وقال: "كونا فقط جارين جيدين".

سألته: "هل تملك أي شيء في ملفاتك حول أمير نسيم؟".

"لا أستطيع التعليق على ذلك".

"أعرف، لكنك تستطيع أن تقول لي، بصفتي جاره، ما إذا كان هناك أي خطر فعلي عليه".

فكّر السيد مانوسكو لبرهة، ثم قال لي: "أقول لك سراً وهو أن أمير نسيم يلعب لعبة خطرة وإنما مربحة بتوفير المعلومات والموارد اللوجستية لأي شخص يحتاج إلى خدماته. لذا، أصبح لديه الكثير من الأصدقاء، وكذلك الكثير من الأعداء، ومشكلته أنه لا يستطيع التمييز بينهم".

سألته: "ولِمَ لا تعتقلونه؟".

لم يجب السيد مانوسكو، لكنه أعطاني نصيحة أخيرة. "حين تغادر هذا العقار، كن حذراً جداً ولا تتردد في الاتصال بالرقم 911 إذا شعرتَ بأنك مراقب أو ملاحق".

أومأت برأسي، وفكرت في شراء سلاح دفاع شخصي لاستخدامه في الطريق.

أبلغني السيد مانوسكو أيضاً: "لن يكون أنطوني بيلاروزا. تعرف ذلك".

"أفهم، لكن... في هذه الحالة، الأمر شخصي جداً بحيث أتساءل ما إذا كان...".

"على الإطلاق. وإذا حصل شيء ما لعمه، لن يكون أنطوني على مسافة قريبة من موقع الحادثة، حتى لو كان الأمر شخصياً جداً".

سألته: "ماذا حصل للثأر الشخصي والشرف العائلي؟".

أجاب: "لا يزالان موجودين، لكنهما ليسا في الصدارة الآن".

أعطاني بطاقتين من بطاقاته، وتصافحنا وشكرته على قدومه. طلب مني إلقاء التحية على السيدة ساتر؛ وطلب أيضاً أن تتصل به حين تصبح قادرة على ذلك.

راقبته وهو يصعد إلى سيارته الرمادية الحكومية، وتابعتُ مراقبته فيما قاد سيارته في الطريق الفرعي المؤدي إلى الطريق الرئيسي وانعطف في اتجاه ستانهوب هال.

حسناً، لديّ بعض المشاكل أمامي - الجنازة، الدفن، قدوم أهل زوجتي والولدين، منافق إيراني في المنزل الرئيسي، الشرطة، الأف بي آي، وأخيراً

وليس آخراَ، أنطوني بيلاروزا الذي يفاوض على قتلي أنا وسوزان. إذا أخذنا كل الأمور في الاعتبار، يصبح القراصنة قبالة الشاطئ الصومالي أقل أهمية.

هناك أيضاً سوزان. أصبحت أشعر بالحاجة إلى المزيد من الحماية تجاهها، وجعلني ذلك أدرك أنني دخلت في قلب المعمعة. لكنني لا أعرف بماذا تشعر هي في هذه اللحظة، ولذلك عليّ الصعود إلى الأعلى لمعرفة ذلك أو الذهاب في سيارتي، والقيام بجولة لترتيب أفكاري وتخزين الذخيرة.

عدتُ إلى المنزل وصعدتُ إلى الطابق العلوي. كان الباب المؤدي إلى الغرفة العائلية مقفلاً، فترددت ثم فتحته.

كانت سوزان لا تزال جالسة على الأريكة، لكنها أصبحت الآن ملتفة في زاوية الأريكة، محاطة بالوسادات. أعرف ماذا تعنيه هذه الوضعية وهذه اللغة الجسدية، وهي لا تعني "تعال إلى هنا وعانقني واعطني قبلة كبيرة".

قلتُ لها: "سأذهب إلى متجر الأدوات الرياضية".

لم تجب.

"هل لا يزال المتجر في غلين كوف موجوداً؟".

لا جواب.

انزعجت فوراً، وهذا أحد العيوب العديدة في شخصيتي وقلتُ لها: "سأبقى في المنزل، لكن إذا أردتِ، يمكنك نقل أغراضي إلى غرفة الضيوف أو أفعل ذلك بنفسي".

نظرت إليّ لكنها لم تجبني.

غادرت الغرفة العائلية ونزلت إلى الأسفل، وتحققت من دفتر الأرقام الهاتفية في المكتب ووجدتُ أن متجر الأدوات الرياضية لا يزال حيث كان قبل عشرة أعوام.

خرجتُ تحت المطر، وصعدتُ إلى سيارتي، وأخذت الطريق المؤدية إلى غرايس لاين.

لم يكن هذا واحداً من أفضل أيامي، لكن من الناحية الإيجابية، لم أعد مضطراً الآن إلى التصرف بلباقة مع ويليام وشارلوت.

تمهّلت في القيادة إلى غلين كوف، واستفدتُ من هذا الوقت للتفكير في، اليوم والغد والأيام المقبلة. خطر في بالي أنه لم يبقَ لي شيء هنا، باستثناء التعاسة والذكريات السيئة. لذا، ما إن أنهي إنجاز الأمور المستجدة، سأعود إلى لندن. تستطيع سوزان، القوية كفاية، أن تأخذ قراراتها وتهتم بنفسها. سأنصحها بالعودة إلى هيلتون هيد، لكن باستثناء ذلك، لا أملك أي واجبات إضافية تجاهها، ولا أرغب في أن أكون جزءاً من حياتها.

ليس هذا صحيحاً بالطبع، لكنه سيكون باب الخروج بالنسبة إليّ حين أوضب حقائبي - ثم نستطيع ربما التجربة مجدداً بعد عشر سنوات.

الفصل السابع والأربعون

تذكرتُ صاحب متجر الأدوات الرياضية، السيد روجيه باهنيك، الذي كان دائماً مساعداً وصبوراً حين كنت أصطحب إدوارد وكارولين لشراء لوازم التخييم والرياضة. كنت آتي أيضاً إلى هنا وحيداً لشراء معدات الصيد البحري وكذلك بعض اللوازم البحرية، ولذلك فكرتُ في التعريف مجدداً عن نفسي، لكن السيد باهنيك لا يزال يذكر على الأرجح سوء استعمال سوزان للبندقية، وبما أن غرض وجودي هنا هو لشراء سلاح وذخيرة، فكرتُ أنه من الأفضل البقاء مجهول الهوية إلى أن أضطر إلى إظهار بطاقة هويتي.

حددتُ الأغراض التي أريدها، وتظاهرت أنني أعرف القليل عن الأسلحة والذخيرة، بالرغم من ثقتي بأنني أراوغ من دون ضرورة. أراني السيد باهنيك قسم الأسلحة في الجهة الخلفية من المتجر، وسألني إذا كنت أصطاد الأطباق الطائرة أو العصافير، وإذا كنت أصطاد العصافير، فأي نوع منها.

أجبته: "العصافير الكبيرة جداً".

اقترح عليّ السيد باهنيك بندقية ملائمة للطيور الكبيرة، واشتريتُ أيضاً علبة من الرصاصات الثقيلة التي تستطيع إحداث ثقب كبير جداً في الإنسان.

كان السيد باهنيك يعلق على خاصرته قراباً فيه مسدس، مثلما تقضي الأصول عند بيع الأسلحة، ورغبتُ في أن أشتري اثنين من مسدسات السيد باهنيك - واحد لي وآخر لسوزان - لكن مثلما قلت، أحتاج إلى إذن خاص لحمل سلاح مخفي. أستطيع ربما الحصول على هذا الإذن، لكن الأمر قد يستغرق ستة أشهر، وسيكون الوقت قد تأخر. واجهت سوزان لسوء الحظ هذه المشكلة قبلاً مع المسدس اليدوي، وأشك في أن توافق السلطات على منحها رخصة سلاح لحمل المسدس.

لكنني ما زلت بحاجة إلى سلاح دفاع شخصي، ولذلك طلبتُ رؤية بعض البنادق الصغيرة، فسُرّ السيد باهنيك بعرضها لي.

فتح صندوق البنادق وعرض لي عدداً قليلاً من البنادق الصغيرة وضعها على الرف. تمعنتُ في بندقية أم -1 قديمة، من طراز وينشتسر بعيار 0.30 من الحرب العالمية الثانية، استعملتها حين كنت في الجيش. يصل مدى هذه البنادق إلى ثلاث أقدام فقط، ويمكن إخفاؤها بسهولة تحت مقعد السيارة، أو حتى في واحدة من تلك الحقائب الكبيرة التي تحملها النساء.

قال لي السيد باهنيك: "تكون بندقية أم -1 دقيقة لمسافة ثلاثمئة ياردة وهي قادرة على قتل غزال، لكنها تستخدم مبدئياً لصيد الطيور الصغيرة، وكذلك بمثابة سلاح دفاع شخصي". استفسر: "لِمَ تريد استخدامها؟".

لم أشأ إخباره أنني سأضعها في السيارة لأن المافيا تتعقبني، ولذلك أجبته: "للحفاظ على أمن المنزل".

"آه. ممتاز. ستحبها سيدة المنزل - إنها خفيفة الوزن، خمسة باوندات تقريباً، شبه أوتوماتيكية، وتراجع ناعم".

قلتُ له: "ستحبها. إنها هدية ذكرى ميلاد".

عرف السيد باهنيك أنني أمزح - أو تمنى ذلك - وضحك.

اشتريتُ علبة من خراطيش البندقية بعيار 0.30، وعدّة تنظيف للبندقية الصغيرة، وأخرى للبندقية الكبيرة، وقدم لي السيد باهنيك لصيقة للعلم الأميركي أستطيع لصقها على سترة الصيد أو البيجاما خاصتي.

لاحظتُ سترة وقاية برتقالية معلقة على جدار، مع مجموعة جميلة من أقنعة الغاز. يبدو أن هذه الأغراض أضيفت بعد زيارتي الأخيرة، وسألته: "هل تبيع العديد من أقنعة الغاز وسترات الوقاية؟".

ألقى نظرة على الأغراض المعروضة على الجدار وأجابني: "أبيع القليل من أقنعة الغاز... ولكن لا زبائن للسترات الواقية. إلا أنني أبيع الكثير من حصص الطعام المجففة والمجلدة وعلب الماء". ثم أضاف: "وبعض الأجهزة الكاشفة للإشعاعات".

"والأسلحة؟".

"ازدهرت الأعمال. والشموع. والمصابيح، والأضواء الوميضة... هذا النوع من الأمور". ثم قال ممازحاً: "لا نفعل ذلك جيداً حتى في موسم الإعصار".

لم أجب، لكنني سررتُ لمعرفة أن السيد باهنيك بخير، وأن الشاطئ الذهبي مستعد. لا شك في أن الحياة في الولايات المتحدة تغيرت.

وضّب السيد باهنيك مشترياتي فيما ملأت بعض الاستمارات الخاصة بالبندقية والذخيرة. لا تسأل الاستمارات الحكومية الكثير من الأسئلة السخيفة، واستخدمتُ جواز سفري للتعريف عن هويتي. لا تزال بطاقة اعتمادي أميركان إكسبرس صالحة، بالرغم من أنني لا أذكر أنني دفعتُ الفاتورة منذ فترة، وأنهينا معاملتنا.

لفّ السيد باهنيك بندقية أم - 1 بورق بني اللون عادي بحيث أستطيع حملها إلى السيارة من دون إزعاج المتسوقين أو رجال القانون، فيما وضع بقية مشترياتي في كيس تسوق كبير كتب عليه "لوازم رياضية - معدات تخييم - أسلحة". لا ذكر لأقنعة الغاز.

بدا أن اسمي، وربما عنواني على الاستمارات وكذلك وجهي أصبحت مألوفة الآن لدى السيد باهنيك، ولاحظتُ أنه يتذكر شيئاً ما - ربما زياراتي السعيدة إلى متجره مع الولدين. أو يتذكر، على الأرجح، شيئاً قرأه أو شاهده على شاشة التلفزيون قبل عشر سنوات تقريباً. نظر إليّ وقال، كما لو أنه يتحدث لنفسه: "أوه... نعم".

شكرته على مساعدته، واتجهتُ نحو الباب، ولاحظتُ أنه لا يزال ينظر إليّ، وهو يخشى ربما أن يراني أنا والسيدة ساتر في أخبار الليلة مجدداً. حسناً، قد يفعل.

توقف المطر عن الهطول، لكن السماء بقيت مظلمة، واستطعتُ سماع الرعد في البعيد، وعرفتُ أن المطر سيعود للهطول مجدداً.

عند العودة إلى ستانهوب هال، كنت محظوظاً بلقاء أمير نسيم، الذي كان واقفاً خارج منزل الحراسة الذي استرده حديثاً، وهو يتحدث إلى رجلين يرتديان الثياب الرسمية. هل هما مهندسا ديكور؟ توقفتُ وخرجتُ من سيارة التوروس خاصتي، فاعتذر السيد نسيم من الرجلين واقترب مني.

تبادلنا التحيات، وكان بارداً قليلاً معي، ربما بسبب رفضي اقتراحه بإقناعي سوزان في أن تبيع له المنزل. أدرك أيضاً أن وجودي في المكان دائم على ما يبدو. من جهة أخرى، استردّ منزل الحراسة خاصته في وقت أسرع مما توقعناه نحن الاثنان.

كان غاضباً أيضاً ربما من زيارة فيليكس مانوسكو. وهناك سببان لينزعج من الأف بي آي: الأول، هو أنه لا يريد التواصل مع الأف بي آي، والثاني لأن مانوسكو أخبره عن مشاكل آل ساتر مع المافيا. أو كل هذه الأمور معاً.

لكن السيد نسيم رجل مهذب، وحافظ على ابتسامته المكرهة فيما قال لي: "أفهم إذاً أن التهاني مناسبة لك وللسيدة ساتر".

لم أشأ إفساد تمنياته الطيبة بإبلاغه أنني أنا والسيدة ساتر لا نتحدث مع بعضنا في الوقت الحاضر، ولذلك أجبته: "شكراً".

سألني: "هل تنويان الاستمرار في العيش هنا؟".

لا أعرف فعلياً ما إذا كنت سأعيش هنا إلى أن أعود إلى منزل الضيوف لأرى ما إذا كانت حقائبي موضبة. وإذا عبّرت عن أي فكرة توحي برحيلنا، سينخفض السعر الذي عرضه وسأخسر عمولتي بنسبة 10 بالمئة. لكنني أجبته جدياً: "نحن نحب منزلنا".

"حسناً... ستبلغني إذا تبدلت مشاريعكما".

"ستكون أول من يعلم".

يبدو أن زيارة السيد مانوسكو لم تكن على جدول أعمال نسيم، وقال لي، بشأن الرجلين الواقفين قرب منزل الحراسة: "طلبتُ خدمات شركة أمن خاصة لدراسة الموقع من الجهة الأمنية وإجراء التوصيات لتعزيزه هنا".

طمأنته: "فكرة جيدة". ثم نصحته: "لا تستخدم شركة بيل للأمن. إنها شركة مافيا".

لم أعرف ما إذا ظنّ أنني أمزح أم أتحدث جدياً، لكنه طمأنني: "ليست تلك الشركة".

"جيد. وحول هذا الموضوع، أعتقد أنك تحدثتَ مع العميل الخاص فيليكس مانوسكو من الأف بي آي هذا الصباح".

أومأ برأسه وأجاب: "نعم. تحدث عن مخاوفك أنتَ والسيدة ساتر بشأن مشكلة محتملة تتعلق بالأحداث التي جرت قبل بضعة أعوام، والتي يبدو أنها عادت الآن لتظهر".

"صحيح. يبدو إذاً أننا نملك جميعاً مخاوف بشأن أمننا، وسأكون سعيداً جداً إذا قمنا بتنسيق جهودنا في هذا الصدد".

فكّر في ذلك، واستنتج ربما أنني أحاول الحصول على بعض خدمات الأمن المجانية. أجابني: "طبعاً نستطيع فعل ذلك". ثم أضاف: "من الناحية العملية، إنه العقار نفسه، ونملك أنا وأنتَ المدخل نفسه، ولذلك نحتاج إلى مناقشة مسألة الزوار المخوّلين الدخول. مثلما يفعلون في عقارات الحمرا المجاورة".

مقارنة سيئة، لكنني أجبت: "صحيح".

أبلغني أيضاً: "أول ما أقوم به، اعتباراً من الآن، هو توظيف حارسين في منزل الحراسة هذا، وسيصلان قريباً. سأبدّل تردد جهاز التحكم عن بعد، وكذلك رمز المرور، وسأغلق البوابات بتواتر أكبر مما هي الآن". وطمأنني: "لكنني سأعطيك طبعاً أنتَ والسيدة ساتر الرموز الجديدة، وأوامر التحكم عن بعد الجديدة".

"شكراً لك". لا شك في أن السيد نسيم يجعل الحياة أكثر أماناً بالنسبة إلى آل ساتر، لكنه يسُرّ أيضاً بجعل دخولنا وخروجنا أكثر صعوبة. حسناً، هذا حقه - فمنزل الضيوف مثل دخيل وسط ملكيته، وفيما صك ملكية منزل الضيوف ينطوي على حق المرور في الممرّ الرئيسي، بات أمير نسيم هو من يتحكم الآن في فتح أو إغلاق البوابات، وبالتالي في النفاذ إلى ذلك الممرّ. لو لم نكن نملك مخاوف أمنية مماثلة، (أي أشخاص يحاولون قتلنا)، لكنت واثقاً من أن ألتقي السيد نسيم في المحاكم في غضون شهر. لكن في الوقت الحاضر، تطابقت مخاوفنا واحتياجاتنا، ومن حسن حظ آل ساتر أن يظن أمير نسيم أن هناك أشخاصاً يحاولون قتله. إنه الحظ.

بالنسبة إلى موضوع الزوار، سألني: "هل تتوقع زيارة أحدهم سيد ساتر؟". ثم أضاف: "أو هل من شخص لا تريده الدخول إلى هنا؟".

أجبته: "حسناً، أنا لا أتلقى أي اتصالات من المافيا اليوم". بدا متفاجئاً بجوابي الصريح، أو تفاجأ ربما لاستخدامي المزاح في أمر لا يجده ممتعاً كثيراً. وفي موضوع الزوار غير المرغوب فيهم، فكرتُ في إعطائه وصف لويليام وشارلوت، والطلب منه إيقافهما وتفتيشهما في منزل الحراسة. لكن هذا سيزعج سوزان، ولن تفهم أنها مجرد مزحة لم يفهمها السيد نسيم.

إلا أنني قلتُ له: "بعد موت السيدة ألارد، نتوقع حضور بعض الأشخاص". أخبرته عن وصول آل ستانهوب في الخامسة عصراً، ووصول إدوارد وكارولين مساء غد، في السيارة أو التاكسي. نسيتُ ذكر احتمال وصول بيتر يوم السبت أو الأحد، وبمحض الصدفة، سيسجنه الحراس في الطابق السفلي من منزل الحراسة. إلا أنني ذكرت له إليزابيت ألارد، التي يعرفها، وأمي التي وصفتها بأنها سيدة

عجوز لطيفة. ذكرتُ أيضاً المجموعة الصغيرة من الخدم، وأصحاب المتاجر الذين استأجرتهم سوزان.

أومأ السيد نسيم برأسه فيما أخبرته، وقال: "نعم، يمكنك إذاً، ربما، إعطائي لائحة بأسماء هؤلاء الأشخاص، وسأحرص على إبلاغ رجال الأمن".

قلتُ له: "علينا إيجاد نظام لا يكون مزعجاً لنا أنا والسيدة ساتر".

"طبعاً".

"أحتاج إلى الاتصال برجال الأمن خاصتك، وعليهم التواصل معنا. أحتاج أيضاً أنا والسيدة ساتر إلى الحصول على إذن منك يسمح لنا إعطائهم التعليمات".

يبدو أنه لم يحب أي من هذا، لكنه أجابني: "أنا واثق من أننا نستطيع تنسيق كل ذلك، سيد ساتر".

"رائع. ذلك الجدار البالغ ارتفاعه عشر أقدام والممتد لمسافة أكثر من ربع ميل على طول غرايس لاين لن يردع المعتدين. كما أن ما تبقى من الحدود الخارجية فهي مفتوحة مبدئياً، باستثناء سور في الجهة الخلفية لعقارك، ولصفّ من الأشجار على الجانبين. هكذا، فيما تكون البوابة آمنة، تبقى لديك مسافة ميل تقريباً من الحدود الخارجية غير المحمية حول ملكيتك".

قال لي: "تناقش مسألة شراء أجهزة إنذار، وعليّ إخبارك بأنه ستكون هناك عربة مع رجل أمن وكلب للتجول في المكان خلال ساعات المساء. سأبقيك على اطلاع بما يحصل".

"من فضلك. وهل سيكون رجال الأمن مسلحين؟".

"طبعاً".

معظم هؤلاء الأشخاص يؤدون وظيفتين: إما أنهم شرطيون متقاعدون، أو كانوا قبلاً في الجيش، ويمكن الوثوق باستخدامهم الأسلحة. لكن لديّ الشعور - من أنطوني بيلاروزا - بأن الأمن بات صناعة مزدهرة في أميركا، ويعني ذلك دائماً توظيف أشخاص هامشيين لملء الصفوف، مثلما حصل في المطارات. نصحتُ السيد نسيم: "تأكد من أن جميع رجال الأمن يملكون خلفية مناسبة، ويملكون رخصة لحمل السلاح، واحرص على وجود اثنين على الأقل من الشرطيين الحاليين أو المتقاعدين في كل دوام. دوّن ذلك في العقد المكتوب".

قال لي: "أنا مسرور لأنني تحدثتُ إليك سيد ساتر".

"وأنا أيضاً". ولكي أكون جاراً أفضل، ولأعترف باستفادتي من تعزيز السيد نسيم لأمن ستانهوب هال، قلت له: "سأكون مسروراً إذا شاركتُ في جزء من تكاليف الأمن هذه". في الواقع، سوزان ستدفع.

طمأنني: "لن أفرض أي تكاليف إضافية بسبب وجودك هنا، وأنا مسرور لإضافة منزل الضيوف ومساحتك ضمن ترتيباتي الأمنية".

“شكراً لك، لكن مثلما نقول، يحصل المرء على ما يدفع ثمنه، ولذلك عليّ الإصرار أن أساهم في هذا الاتفاق، وأن أدفع، مباشرة إلى شركة الأمن، حصتي استناداً إلى أكراتي العشرة”.

ابتسم وقال: “آه، ما زلت المحامي، سيد ساتر، والرجل الذي يعرف حدوده”.

“هل هذا ملائم - أو يجدر بي استقدام رجال أمني الخاص إلى هنا، مما قد يكون مربكاً وغير ملائم؟”.

فهم مخاوفي، وكذلك دوري السلطوي، فأومأ برأسه وقال: “حسناً. يمكنك ربما إعطائي بعض النصائح القانونية بشأن العقد”.

“يمكنك التأكد من أن عقدنا مع شركة الأمن سيكون على مستوى معاييري”.

جاء دوره لتأدية الدور السلطوي، وقال لي: “تلك الشجيرات التي تحيط بمساحة الأكرات العشرة خاصتك قد تكون مشكلة محتملة في ما يتعلق بأمني، وكذلك بأمنك. لذا، عليك التفكير ربما في إزالتها”.

“سأفعل، لكن السيدة ساتر تحب القيام بأخذ حمام شمسي في العراء، وأفترض أنك لا تريد رؤية ذلك”.

ظن السيد نسيم أنني أستفزه ربما، أو أغويه، فأجابني بصرامة: “أظن أن السلامة تبقى هي الأولوية، ولذلك عليك الطلب ربما من السيدة ساتر أن تفكر في إزالة الشجيرات وبناء سور صغير لها من أجل... ساعات الطبيعة”.

فكرة جيدة أمير. ومنطقية جداً. أجبته: “سأناقش ذلك معها”.

“شكراً لك”. فكر لبرهة، ثم قال لي: “إذا وجدتَ أنت والسيدة ساتر أن هذا الوضع لا يروق لكما، عليكما التفكير ربما مجدداً في عرضي بشراء ملكيتكما”.

في الواقع، قد أفعل. لكنها ليست ملكيتي. أدركتُ أيضاً أن منزل سوزان وملكيتها - المحاطين بأرض غريبة، يستأجر صاحبها، المصاب بجنون الارتياب أو الخوف المبرّر، حراساً مسلحين مع كلاب - لم يعودا عقارين من الدرجة الأولى. حتى السماسرة المحليون، الذين يستطيعون بيع مطمر للنفايات السامة لثنائي لهما أولاد، قد يجدون هذا بمثابة تحدٍّ. وهذا المنزل الإنكليزي الجميل يقع وسط عقار كبير يملكه ثنائي إيراني رائع يواجه خطراً مميتاً، لكن الكلاب ودودة، ولا يطلق الرجال النار خلال ساعات النهار. معروض بثلاثة ملايين.

“سيد ساتر”.

“حسناً... إنه قرار السيدة ساتر، وأعتقد أنك تعرف قرارها. لكنني سأفعل...”. فكرتُ أنه إذا نجحت في إطلاق النار على ويليام وشارلوت، أو تحريض الكلاب لعضهما، قد تتمكن سوزان من إعادة شراء كل العقار بواسطة إرثها. لكن الصيانة مكلفة... حللتُ بعض الأرقام فيما انتظرني السيد نسيم بصبر. قلتُ له: “سأطرح السؤال مجدداً، لكن لأنك سألتَ”.

"هذا كل ما أريده منك. ويمكنك أن تذكر للسيدة ساتر بأنني مسرور لتوفير بعض إجراءات الحماية لها خلال هذا الوقت من... الشك في حياتها، لكن هذه الحماية تترافق لسوء الحظ مع بعض الإزعاجات". أعطاني مثلاً آخر عن الإزعاج بالقول: "أخشى مثلاً أن أضطر إلى الحدّ من استخدامكما لأراضي - بناء على نصيحة مستشار الأمن لديّ".

لعنة إضافية، لكنه يحضر قضية جيدة ليدفعنا إلى أن نبيع العقار له بسعر مخفض.

تابع قائلاً: "من الأمثلة على مخاوفي، رأيت السيدة ساتر تركض البارحة، ولست واثقاً ما إذا كانت هذه فكرة جيدة مع وجود الكلاب والحراس".

سألته: "هل أنت واثق من أنها هي؟ ماذا كانت ترتدي؟".

"حسناً... كانت ترتدي ثياباً متواضعة، لكن ليست هذه المسألة".

"صحيح، فهمت". عرفت أنها لم تكن تركض شبه عارية.

ختم حديثه بالقول: "وفيما أتمنى من قلبي أن تُحلّ مسألة السيدة ساتر بسرعة وإيجابية، يبقى وضعي لسوء الحظ طويل الأمد. لذا، لا أعتقد أن هذه الأكرات ستستعيد هدوءها وسلامها في المستقبل القريب".

"واضح ومفهوم، سيد نسيم".

"نعم؟ جيد. حسناً، بلّغ من فضلك تعازيّ لعائلة السيدة ألارد، وقد تتاح لي ربما فرصة لقاء عائلتك في الأيام القليلة المقبلة".

فكرتُ في سؤاله ما إذا كان لديه غرفة نوم إضافية لويليام وشارلوت - في الواقع لديه في المنزل عشرين غرفة - لكنني لست واثقاً من أن آل ستانهوب ونسيم يتفقان مع بعضهما. أقصد، قد يتفقان - يستطيع ويليام إطلاع أمير على تاريخ المنزل، وشرح معنى الزنوج السود، وتستطيع شارلوت أن تعلّم سهيلة كيفية رجّ شراب زهيد.

على أي حال، قلتُ للسيد نسيم: "يمكننا ربما اللقاء جميعاً لشرب الشاي".

"أبلغني".

"سأفعل. وفي غضون ذلك، أبقني من فضلك على اطلاع كامل على ترتيباتك الأمنية، واجعل العقد مكتوباً باسمينا".

افترقنا من دون مصافحة، وعدتُ أنا إلى السيارة وتابعت طريقي إلى منزل الضيوف.

لم أشاهد حقائبي في الحديقة، وهذا دليل جيد، لكنني لم أعرف ماذا ينتظرني في الداخل.

أقصد، هناك طريقتان للنظر إلى ما فعلته قبل عشر سنوات لقطع العلاقة السعيدة بين فرانك وسوزان: الأولى، أنني فعلت ذلك لاسترداد سوزان لأنني

أحبها؛ والثانية أنني فعلت ذلك بدافع الغضب لأنني كنت أكرههما. قد يكون الأمران معاً، وأنا واثق من أن سوزان فهمت ذلك، لكنها أحبتني، ولذلك تميل إلى الظن أنني فعلت ذلك بدافع الحب أكثر منه الكره. وهي محقة.

والخلاصة إطلاقها النار على فرانك؛ أنا واثق من أننا نحن الثلاثة كنا نتمنى ألا يحصل ذلك، خصوصاً فرانك، وخصوصاً أن الدجاج عاد إلى منزله ليبيت مثلما أشار السيد مانوسكو.

الفصل الثامن والأربعون

نقلتُ مشترياتي إلى مكتبي، وكانت سوزان هناك، تتحدث عبر الهاتف وتعمل على الكمبيوتر وتدوّن بعض الملاحظات على دفتر صغير.

وجهت لي ابتسامة محيرة، ثم تابعت التحدث عبر هاتفها الخلوي وتابعت العمل على بريدها الإلكتروني.

أخرجت البندقية الصغيرة من الأوراق، ووضعتها على الطاولة الصغيرة ثم بدأت أحشو الطلقات في داخلها.

أنهت سوزان اتصالها الهاتفي وسألت: "لِمَ هذه البندقية؟".

"للسيارة".

لم تجب.

وضعتُ البندقية المحشوة على الطاولة، ودخلتُ مباشرة في صلب الموضوع فسألت: "أين سأنام؟".

"في غرفة النوم الرئيسية".

"جيد".

"أنا سأنام في غرفة الضيوف".

لاحظتُ أنها تمزح ولذلك قلت لها: "لن ألومك إذا أردتِ بعض الوقت للتفكير في... ما قلته، وما فعلته".

"فكرت في ذلك".

"و؟".

"و... أفهم لِمَ فعلتَ ذلك، ولا أصدق فعلاً أنك كنت تريد أن... يحصل ما حصل". ثم أضافت بطريقة بديهية: "أنا أقمتُ العلاقة، وأنا قتلته. وليس أنت".

"حسناً".

تابعت القول: "أعرف أن كل ما كنتَ تحاول فعله هو لاستردادي".

"صحيح. كل شيء مسموح في الحب والحرب".

تذكرت أين سمعت ذلك وقالت: "هذا... صحيح". تابعت القول: "يستحيل علينا الآن أن نفهم ما كنا نفكر فيه ونشعر به قبل عشرة أعوام، ولذلك لا يجدر بأي منا الحكم على الآخر بما حصل حينها".

"أوافقك".

ختمت بالقول: "أدركتَ، قبلي أنا، المشكلة مع أنطوني بيلاروزا، وكان بوسعك الهروب، لكنك جعلتَ الآن من مشكلتي مشكلتك، وعرَّضت حياتك للخطر".

لم يكن في وسعي شرح الأمر بصورة أفضل، ولو التقيتُ للتو بجون ساتر وسمعتُ ذلك، لكنت قلت إنه رجل محظوظ. أو مغفل. قلتُ لها: "أحبك".

وقفت وتعانقنا، وأحسستُ بالدموع تنساب على عنقي.

قالت لي: "أحبك. وأحتاج إليك".

"نحن معاً".

"نعم".

تماسكت نفسها، ونظرت إلى عينيّ وقالت لي: "هذه نهاية الموضوع. لا أريد التحدث مجدداً عما حصل حينها. أبداً".

"أوافقك. ما من شيء آخر لقوله".

"صحيح". أخذت نفساً عميقاً وقالت: "أرى أنك عثرت على متجر اللوازم الرياضية".

"نعم، وتذكرني صاحب المتجر، وتذكر أيضاً أن هناك ذكرى لنا في نهاية الشهر، فاقترح عليّ أن أشتري لك هذه البندقية الصغيرة لكي نتمكن من النزول إلى المطمر وصيد الجرذان معاً".

تماشت مع سخافتي وقالت: "كم هذا جميل". نظرت إلى البندقية وقالت: "لا داعي لأن تدفع الكثير من المال، جون".

"آه، هذا لا شيء".

رفعتُ البندقية الصغيرة وقلت لها: "انظري كم هي خفيفة".

أخذت البندقية، وتحسستها، ثم قالت: "أستطيع حملها إلى لوكوست فالي، والتجول بها طوال اليوم".

"ويمكن وضعها بسهولة تحت مقعد السيارة".

"ألاحظ ذلك".

استعدت منها البندقية، ووضعتها في العلبة، وتحققت من زر الأمان، وقلت لها: "تتقرين زر الأمان، وتصوبين نحو الهدف، ثم تضغطين على الزناد. إنها شبه أوتوماتيكية، ولذلك تطلق النار كلما ضغطتِ على الزناد - خمس عشرة طلقة. مفهوم؟".

أومأت برأسها.

أظهرتُ لها من ثم كيف تصوّب إلى الأهداف القريبة، ثم رفعتُ البندقية إلى كتفي وقلتُ لها: "إذا أردت إطلاق النار على هدف يبعد مثلاً عشرين قدماً، صوّبي عليه كما لو أنك تستعملين البندقية العادية للتصويب على طبق طائر، لكن لا داعي للتقدم قليلاً نحو الهدف و...".

لسوء الحظ، ظهرت صوفي أمام الباب، وصرخت، ثم هربت.

فكرتُ أنه يجدر بي اللحاق بها - من دون البندقية - لكن سوزان قالت لي: "سأعود حالاً". وخرجت للحاق بصوفي.

استفدتُ من الوقت لتحضير كأسين من الشراب الروسي الخفيف مع المشروب المنشط. شعرتُ بالرضى؛ لأننا تمكنا أخيراً أنا وسوزان من تخطّي الماضي، وشعرت بالرضى؛ لأنني اشتريت البندقية الصغيرة والذخيرة، وكذلك لأن فيليكس مانوسكو اطلع على القضية.

الجيد أيضاً هو أن أمير نسيم قرر اعتماد نظام أمن كامل، كان يجدر به القيام بذلك منذ زمن طويل لو كان فعلاً خائفاً. فكرتُ من ثم في أن فيليكس مانوسكو استفاد من الفرصة لإخافة نسيم بالقول له إن الأف بي آي لاحظت أن الخطر المحدق بحياته حقيقي ووشيك. اللون الأحمر، أمير.

لكن هل يفعل مانوسكو ذلك بنسيم لمجرد دفعه لتوفير خدمات أمن على مدار الساعة لآل ساتر؟ أو أنها مجرد مصادفة أن يتحدث نسيم إلى مستشاري الأمن بعد زيارة مانوسكو؟ اتصل بهما نسيم ربما ما إن اكتشف أن منزل الحراسة قد أصبح ملكاً له. على أي حال، شعرتُ أن فيليكس مانوسكو قدّم إلى نسيم النصيحة نفسها التي قدّمها إليّ: وهي شراء بعض الأسلحة.

عادت سوزان وقالت لي: "أعطيتها علاوة".

"هل ستنظف لي أسلحتي؟".

"لا، جون، لكنني طمأنتها بأنك إنسان طبيعي، وأعطيتها العلاوة بسبب وجود شخص إضافي في المنزل الآن".

"جيد. هل أخبرتها أن المافيا تلاحقنا؟".

"لا، لم أفعل. لكنني سأشرح لها مسألة عدم فتح الباب للغرباء".

أبلغتُ سوزان: "لن يزورنا الكثير من الغرباء. فقد أنشأ نسيم نظاماً جديداً لستانهوب هال".

"ماذا تقصد؟".

أعطيتها كأس الشراب الروسي خاصتها، وقلت لها: "صادفته للتو، وكان يتحدث إلى بعض مستشاري الأمن". شربت نخبها وقلت: "نخب معاهدة الدفاع الإيرانية - الأميركية المشتركة".

أخبرت سوزان باختصار عن فحوى محادثتي مع نسيم فقالت: "سيكون الأمر مزعجاً جداً... ويؤثر في نوعية حياتي".

قلت لها: "وكذلك يفعل القتل".

فكرت في ذلك ثم قالت: "لم يكن هذا ما تمنيته حين عدت".

"أنا واثق من ذلك. لكن... حسناً، علينا جميعاً التخلي عن جزء من الحرية من أجل الأمن".

"لا".

ناقشتُ هذه المسألة في لندن، وهنا في نيويورك، مع سوزان. إنها مسألة درجة؛ ما هو الجزء من الحرية الشخصية التي نريد التخلي عنه، وما هو مقدار التحرر من الخوف الذي نحظى به في المقابل؟ قلتُ لسوزان: "لنرى كيف ستجري الأمور. في غضون ذلك، لا مزيد من الركض شبه العاري حول العقار".

ابتسمت.

أخبرتها أيضاً: "يريد منا أن نقتلع الشجيرات كتدبير أمني مشترك. لكنني أخبرته أننا نحب خصوصيتنا".

فكرت سوزان في ذلك وقالت: "إذا لم يكن لديه مشكلة في طريقة اللباس... حسناً، أظن أن نسيم يضغط عليّ لكي أبيع".

"لا شك في أن هذا جزء مهم من الأمر". نظرتُ إليها وقلت: "عليك التفكير في ذلك".

"لن أفعل".

"اشتري إذاً كل العقار منه".

"ومن أين آتي بهذه الكمية من المال؟".

رمقت عيناي، عن غير قصد، البندقية الصغيرة الموضوعة على طاولة القهوة.

أجرت بعض الروابط العقلية، ونظرت إليّ، وقالت: "ليس هذا مضحكاً".

سألتها ببراءة: "ماذا؟".

بدلت الموضوع وسألت: "عمّ تحدثتَ أنت ومانوسكو؟".

أخبرتها عن حديثنا بشأن اختفاء أنطوني بيلاروزا، والسيناريوهات المحتملة التي قد تظهر خلال الأسبوع أو الأسبوعين المقبلين. ناقشتُ معها أيضاً طمأنات فيليكس مانوسكو في ما يتعلق بضيوفنا وولدينا.

حول هذا الموضوع، طرحت عليّ الكثير من الأسئلة، فأعطيتها بطاقة مانوسكو وقلتُ لها: "يريدك أن تتصلي به، ويجدر بك طرح كل هذه الأسئلة عليه، وذكر مخاوفك".

"حسناً، سأفعل ذلك اليوم".

"جيد. عليك أن تعلمي أيضاً أن العميل الخاص مانوسكو زار السيد نسيم، وقد يكون ذلك قد عجّل في تعزيز أمن ستانهوب هال".

فكرت سوزان في ذلك وسألت: "كيف تورطنا في كل ذلك؟ كل هؤلاء الأشخاص...؟".

تمنيت أن يكون السؤال بلاغياً، لأنه إذا توجب عليّ الإجابة عنه، سأبدأ بإثارة الأمور التي اتفقنا على عدم التحدث بشأنها أبداً مجدداً. لا شك في أن مشاكل نسيم

ليست من ابتداع سوزان، لكن لو لم تلحّ سوزان على فرانك بيلاروزا لشراء ستانهوب هال، لما استولت الحكومة على العقار، ولامتلكته الآن عائلة مرتبة لا تعرف أحداً يريد قتلها، وما إلى ذلك. ولو لم تقم سوزان علاقة مع فرانك بيلاروزا وتقتله، لعاش سوزان وجون هنا بسلام خلال العقد الماضي من الزمن، من دون القلق بشأن التعرض لثأر المافيا. وما إلى ذلك.

ولكن بدلاً من ذكر كل ذلك، أجبتها: "سينتهي كل ذلك".

نظرت إليّ وسألت: "ماذا كنت سأفعل من دونك؟".

أملك سؤالاً مماثلاً، لكن... حسناً، أنا اتخذت هذا القرار بوساطة قلبي، وليس بوساطة عقلي، وبالتالي... لا يجدر بي أن أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة.

انتقلت سوزان إلى موضوعات أكثر أهمية. "ستأتي طاهية طعام إلى هنا لمساعدتي على التسوق والطهي على مدى الأسبوع، وستكون صوفي موجودة طوال الأسبوع، وأظن أننا نملك كمية كافية من الشراب الفرنسي، وشراب الشعير، والمشروبات، والشراب الروسي، والشراب الاسكتلندي وكل شيء، لكن أمي وأبي يشربان شراباً آخر ولم يعد لدينا أي مقدار منه، هل تمانع في الخروج لشرائه؟".

"عدت للتو من شراء الأسلحة".

"أرجوك، جون".

"حسناً، سأرى إذا كان في وسعي الحصول على إذن لمغادرة المنطقة".

تجاهلت هذا وسألت: "هل يجدر بي الاتصال بوالديّ وإخبارهما بشأن ترتيبات الأمن الجديدة عند البوابة؟".

اقترحت عليها: "قد تكون هذه فكرة جيدة. أخبريهما أن للأمر علاقة بنسيم، وليس بنا".

"طبعاً. وسأبلغ إدوارد وكارولين. وبيتر أيضاً".

"ويريد نسيم أسماء ضيوفنا مدونة على ورقة. أرجوك اهتمي بذلك".

"سأفعل".

"لا تنسي موظفي المنزل، والتجار، وفتيان التوصيل".

"سأهتم بذلك. هذا مقرف".

"صحيح. حسناً، سأعود خلال ساعة. في غضون ذلك، خذي علب الخراطيش إلى الأعلى وضعي البندقية الصغيرة في خزانة المدخل".

"ألا تريد أن تأخذ معك البندقية الصغيرة؟".

"لا، سأذهب في التوروس".

"أقصد... هل تصدق أننا نتحدث هكذا؟".

لم أجب على ذلك وقلت: "أراك لاحقاً".

قررت الخروج معي إلى السيارة، وقبل أن أركب في التوروس، أعطتني هاتفها الخلوي وقالت: "اتصل بي". ثم عانقتني وقبلتني وقالت: "كن حذراً".

ركبت في السيارة وقدت في الممر الطويل نحو منزل الحراسة.

لا تزال البوابات مفتوحة ومن دون رجال أمن، وانعطفتُ نحو غرايس لاين.

بعد دقيقة تقريباً، رأيت سيارة إسكالادا سوداء قادمة في اتجاهي، وأبطأ السائق سرعتها فيما اقتربت من سيارتي.

لم أستطع الرؤية عبر النوافذ الملونة، وكانت السيارة بعيدة كفاية لقراءة أرقام لوحة التسجيل، لكن بدا جلياً أن سائق سيارة الإسكالادا يبطئ لسبب ما. أسفتُ الآن لأنني لم أحضر معي البندقية الصغيرة.

توقفت سيارة الإسكالادا في منتصف الطريق، على مسافة ثلاثين قدماً مني تقريباً، وفيما اقتربتُ منها، رأيت العلم الأميركي ملصقاً على النافذة الجانبية، ورأيتُ أيضاً أنها لوحة تسجيل سيارة أنطوني.

لكن هل أنطوني في السيارة؟ وهل يستعمل سيارته الخاصة لقتل جون ساتر؟ إنه غبي، لكن هذا شبيه بقاعدة المافيا رقم 101 - لا تستعمل سيارتك أو رجالك، ولا تقتل أحداً في جوارك.

كان بوسعي تجاوز سيارة الإسكالادا، أو الانعطاف والرجوع، لكن للأسباب الآنفة، ولأنني أردتُ أن أعرف هوية من يريد التحدث إليّ، توقفت أمام سيارة الإسكالادا.

فُتح زجاج نافذة السيارة وكشفت عن وجه طوني.

أخفضتُ زجاج نافذة سيارتي، وقال لي: "هاي، سيد ساتر. فكرت أنه أنت. كيف حالك؟".

"أنا بألف خير. كيف حالك أنت؟".

"رائع".

لاحظت حركة في المقعد الخلفي، وتركت سيارة التوروس قيد الدوران، وقدمي جاهزة للضغط على دواسة السرعة. ولو كانت البندقية الصغيرة في حرجي، لشعرتُ بتحسن أكبر خلال هذه المحادثة.

سألني: "ماذا تفعل؟".

الغبي يسأل دائماً الأسئلة السخيفة نفسها، وأجبته: "الهراء القديم نفسه".

"حقاً؟ كيف حال السيدة ساتر؟".

كدت أقول: "اللعنة عليك"، لكنني سألته بدلاً من ذلك: "أين مديرك؟".

ابتسم، ولو كنا أقرب، لصفعته بقبضة يدي على وجهه. استمر في الابتسام وأجاب: "لا أعرف. ماذا تريد أن تعرف؟".

وزعت انتباهي بين طوني، والحركة في المقعد الخلفي. قلتُ لطوني: "أخبره أنني أبحث عنه".

"حقاً؟ لماذا تبحث عنه؟".

أذكر أن هذه المحادثات مع طوني، حتى حين يعمل مثل أنطوني، غير مرضية أو ذات معنى. أجبته: "تذكرت بعض الأمور الأخرى عن والده وأريد إبلاغه إياها".

"حقاً؟ يودّ سماع هذه الأمور، وأنا أيضاً. أخبرني".

حسناً، بما أنه سألني، قلتُ له: "لو عاش فرانك لوقت طويل، لسلّمك إلى الفدراليين، ولمكثت حتى الآن في السجن".

"هاي، اللعنة عليك".

"لا. اللعنة عليك أنت. واللعنة على مديرك. واللعنة على...".

انخفضت النافذة الخلفية الملونة، وكنت مستعداً للضغط على الدواسة، وصدم الإسكالادا، لكن كيلي آن قالت: "أنت تشتم! لا تشتم!".

أخذتُ نفساً عميقاً وقلتُ لها: "آسف حبيبتي". قلتُ لطوني: "أخبر مديرك أن يتوقف عن الاختباء ويتصرف كالرجال".

كان طوني يريد القول: "اللعنة عليك"، لكن كيلي آن تنتظر للتدخل، وسمعتُ فرانكي، الجالس قربها، يقلّد أخته الكبرى ويقول: "لا تشتم. لا تشتم".

قال لي طوني: "سأخبره بما قلته".

"هذا لطف منك. لكنني أودّ إخباره شخصياً".

"نعم. نحن نعمل على هذا".

"جيد. وتحياتي إلى أرملته المستقبلية".

بدا أن هذا أربكه، ثم استوعب الأمر، وقال لي: "نعم، وأنت أيضاً"، ولم يكن هذا الجواب الصحيح بالضبط، لكنني فهمت.

رفع كل منا زجاج نافذته، وتابعت طريقي.

السؤال هو: "لِمَ نجعل الأمور أسوأ؟" والجواب هو "لا يمكن أن تكون الأمور أسوأ، وما من ضير بالتالي في إزعاج الرجل الذي يريد قتلك". في الواقع، يجعلني ذلك أشعر بالتحسن، وقد يدفعه إلى ارتكاب خطأ. وهذا كل ما أريده، خطأً واحداً من جهته، لأتمكن من قتله بنفسي.

القسم الرابع

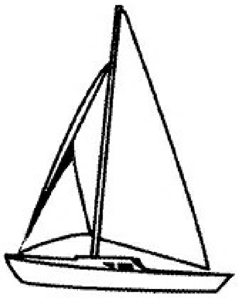

سأقول لك إن هناك جدار سماكته عشر أقدام،
وارتفاعه عشرة أميال بين الأهل والولد.

جورج برنارد شو

اتحاد غير موفق

الفصل التاسع والأربعون

إنها الخامسة وعشر دقائق، هطل المطر، لكن آل ستانهوب لم يطلا. إلا أن سوزان طمأنتني: "اتصلا قبل عشر دقائق، وترجلا للتو من القطار السريع". قالت إنها تتوقع وصولهما خلال خمس عشرة دقيقة، وهذا أكثر من وقت كافٍ لأشرب الكأس الثانية لي من الشراب الاسكتلندي والصودا.

كنا أنا وسوزان في المطبخ، ورتبت صوفي المازات على الطاولة الوسطية، لكن لم يُسمح لي بلمسها. وصلت أيضاً طاهية الطعام، وصممت مع سوزان بعض لوائح الطعام لأيام الأسبوع كافة. بالإضافة إلى ذلك، ستنام صوفي في غرفة الخدم في الطابق السفلي خلال الأيام الخمسة القادمة. لا شك في أن هذا يلائم سوزان، لكنه يمنح أيضاً ويليام وشارلوت فرصة لإصدار الأوامر على شخص آخر غير ابنتهما، وقد يضمن أيضاً بقاء أصواتنا منخفضة إذا اشتركنا جميعاً في مسابقة صراخ.

رنّ الهاتف، وتحدثت سوزان إلى أحدهم وقالت: "نعم، نحن نتوقعه". أقفلت سوزان الخط وقالت: "إنه بائع الزهور أخيراً". ثم أبلغتني: "هناك حرس الآن على البوابات".

لم أعلّق على هذا، بالرغم من أنني لاحظتُ كل الاستعدادات لوصول ماما وبابا. لكنني تذكرت، من وجودي في الأيام الأخيرة هنا، أن ويليام وشارلوت لا يلاحظان أو يقدّران أبداً كل ما تفعله سوزان لهما حين يأتيان للزيارة. حسناً، إنهما والدان متطلبان، لكنهما يتحدثان عن بيتر كما لو أنه الولد المثالي. إنه في الواقع شخص أحمق؛ لكنه يعرف كيف يلاطف ماما وبابا، ويعرف من أين يستمدّ قوته.

فكرتي الأخرى هي أن سوزان متفائلة كثيراً بشأن مكوث والديها هنا. نظفت غرفتهما القديمة وملأتها بقناني الماء، والوجبات الخفيفة، وأنا واثق من أن هناك أزهار مخصصة لتلك الغرفة. نظرت إلى سوزان، وبالرغم من أنني لم أكن أريد أن أرى والديها هنا، ولا أريد أيضاً تخييب أملها أو إيذاءها، قلت لها: "انظري سوزان. لمَ لا أذهب إلى فندق...؟".

"لا. أنت زوجي المستقبلي ووالد ولديّ. ستبقى هنا معي ومع إدوارد وكارولين".

"لكن...".

"لكنني أريدك أن تختفي حتى أضع مشروباً بين يديهما. انتظر في المكتب وأغلق الباب، سأبلغك عبر الهاتف الداخلي. بعد خمس عشرة إلى عشرين دقيقة تقريباً من وصولهما".

"سيريان سيارتي حين يصلان".

"سأقول لهما إنها سيارتي الثانية".

"سيلاحظان أن هناك حراساً في منزل الحراسة، ولا أعيش بالتالي هناك".

"حسناً، هل تريد أن تلقي التحية عليهما معي؟".

"لا، سوزان. أريد المغادرة. سأعود...".

"لن تغادر. ستختبئ فقط لبرهة".

"حسناً". وضعتُ مجموعة من المقبلات في منديل ورقي، وأمسكتُ بكأس الشراب الاسكتلندي ثم نظرتُ إليها وقلت: "حظاً موفقاً".

"جون، تذكر فقط شيئاً واحداً".

"ماذا؟".

"خمسون مليون دولار".

ابتسمتُ، وحملتُ حصتي الغذائية إلى المكتب، وأغلقتُ الباب. كانت الستائر مفتوحة ورأيت عربة بائع الأزهار أمام المنزل. راقبت رجلين وهما ينزلان كمية من باقات الأزهار كافية لملء دار جنازة إيطالية.

أنزلتُ الستائر كي لا يلاحظ ويليام وشارلوت وجود صهرهما المستقبلي، وجلستُ أمام المكتب، وتحققت من بريدي الإلكتروني، وتناولت المقبلات، وشربت كأس الشراب الاسكتلندي.

اتصلت سوزان بالسيد مانوسكو، وأخبرتني أنه قدّم إليها بعض الطمأنات، وبعض النصائح، وكذلك بعض المعلومات عن اختفاء أنطوني والتي أعطاني إياها قبلاً. أخبرها أيضاً أنه متأثر بشجاعتها، لكنها تحتاج إلى موازنة ذلك ببعض الحذر، وما إلى ذلك. يبدو بحسب سوزان أنهما أصبحا الآن على علاقة طيبة، وهذا ما جعلني سعيداً.

لم أخبر سوزان عن لقائي بطوني لأنها تملك ما يكفيها عنه في ذاكرتها، ولكن مباشرة بعد الحادثة اتصلت بفيليكس مانوسكو عبر هاتف سوزان الخلوي، وتركتُ له رسالة صوتية في بريده الصوتي أخبرته فيها عن ملاحظاتي حول سائق أنطوني، واقترحتُ أن يقوم هو أو شخص آخر يعمل في مكتبه باستجواب طوني في ما يتعلق بمكان مديره، إذا لم يفعل ذلك حتى الآن. أبلغتُ مانوسكو أيضاً أن أمير نسيم في صدد تركيب جهاز أمن كامل في ستانهوب هال سينافس ما كان موضوعاً في البلازا الفدرالية 26، أي العنوان المذكور على بطاقة العميل الخاص مانوسكو. اقترحتُ أيضاً أن يطلع التحري ناستاسي على آخر الأحداث، أو سأفعل أنا ذلك إذا كانت الأف بي آي والشرطة المحلية لا تتشاركان المعلومات هذا الأسبوع.

أنا أجيد تغطية كل قواعدي، وحماية نفسي، ويعمل دماغي جيداً حين تكون حياتي في خطر.

على أي حال، تحققتُ من محتوى أسبوعين تقريباً من البريد الإلكتروني، وهو بمعظمه من زبائن لي في لندن لا يستوعبون على ما يبدو أنني في إجازة ممددة،

مما ذكَرني بضرورة إبلاغهم قراري بالاستقالة. أحتاج أيضاً إلى إبلاغ سامنتا عن قراري بالتخلي عنها.

يجدر بي الاتصال، لكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، ولذلك يجدر بي ربما الاكتفاء بالبريد الإلكتروني لإنهاء المسألة، لكن ليس هذا هو التصرف الملائم... وفكرت أنه يجدر بي الانتظار لرؤية ما سيحصل خلال الثلاثين دقيقة القادمة. أقصد، قد تسوء الأمور، لكنني أعرف أن سوزان ستحدد أولوياتها، مثلما قالت. المشكلة هي أنها تملك الكثير من الأولويات منها: أنا، والولدان، والمال، وقد تكون الأمور حصرية بطريقة متبادلة.

لذا، قد أكون أنا من يجدر به تحديد ترتيب الأولويات، وأقصد بذلك الانسحاب إذا انحصر الخيار بين جون أو الخمسين مليون. من دون ذكر اعتمادات الولدين، والمال المخصص لسوزان.

فيما كنت أفكر بطريقة نبيلة ومجردة، استطعت سماع رجليّ الأزهار وهما يدخلان ويخرجان من الباب الأمامي فيما تعطيهما سوزان التعليمات بنبرة صوت علوية مهذبة، وإنما سلطوية من دون شك.

تساءلتُ كيف ستعيش هذه المرأة من دون مال؟ أقصد أن هذه الأزهار اللعينة تكلف أكثر مما يجنيه معظم الأشخاص في شهر واحد. من دون ذكر تلك المقبلات السخيفة، والطاهية، وصوفي... حسناً، لمَ التفكير في ذلك الآن؟ لدينا مشاكل أخرى أكثر جدية، مثل البقاء على قيد الحياة.

أرسلت بعض رسائل البريد الإلكتروني إلى أصدقاء لي في لندن، لكنني لم أذكر أي شيء عن استقالتي من وظيفتي، وانتقالي إلى نيويورك، وزواجي من زوجتي السابقة، ومحاولات المافيا لقتلي. يمكن أن تصل بعض هذه الأخبار إلى شركتي أو إلى سامنتا. أنا مستعد لحرق جسوري، لكن إذا وجدت أنني بحاجة إلى إعادة عبور المستنقع، سأحتاج إلى ذلك الجسر.

أرسلت بريداً إلكترونياً إلى أختي إميلي، التي لا تزال تعيش على شاطئ ما في تكساس مع الصديق الرابع أو الخامس. أنا وإميلي قريبان من بعضنا، بالرغم من الانفصال الجغرافي الكبير، خلال الاثنتي عشرة سنة الأخيرة. أخبرتها عن موت إيثيل، ثم أخبرتها الخبر السار عني وعن سوزان.

قرأت جوابها الذي يقول: رائع. مع حبي. إميلي. ملاحظة: رائع. ملاحظة إضافية: سأفوّت دفن إيثيل، لكنني لن أفوّت زفاف جون وسوزان. فلنتحدث حين تسمح الفرصة.

أجبتها: أنت رائعة. الحياة رائعة. سأتصل بك حين أستطيع. مع حبي. جون. ملاحظة: سيصل آل ستانهوب قريباً. ليس هذا رائعاً جداً. لكنه جيد ربما لبعض النكات.

في هذا الخصوص، رنّ جرس الباب. نظرت عبر الستائر ورأيت قرب سيارة التوروس زرقاء اللون خاصتي سيارة توروس زرقاء اللون أخرى، أنا واثق من أنها السيارة التي استأجرها آل ستانهوب. تخيلت المشهد الرائع لويليام وشارلوت

وهما يقودان سيارتهما التوروس زرقاء اللون عبر البوابات في غرايس لاين وتعرضهما لوابل من نيران الأسلحة.

استطعتُ سماع سوزان تقول: "أهلاً".

قال ويليام المريع: "زحمة سير لعينة في نيويورك؛ كيف يمكنك العيش هنا؟".

صرخت شارلوت: "من الرائع رؤيتك حبيبتي".

وما إلى ذلك.

خفتت الأصوات السعيدة في الرواق، وعدتُ أنا إلى لوحة المفاتيح وبدأت أكتب رسالة إلكترونية إلى إدوارد وكارولين: مرحباً! وصل جداكما لسوء الحظ بخير...حذف ذلك...وصل الجد والجدة للتو وأنا أختبئ... حذف ذلك... وصل الجد والجدة للتو إلى هنا، لكنني لم ألق التحية عليهما بعد، ولذلك سأختصر هذه الرسالة. تذكرا حين تأتيان إلى هنا أننا نحبكما أنا وأمكما كثيراً، وأننا نحب بعضنا، ونحاول جميعاً جعل الجد والجدة يشعران بالترحاب والحب، وحتى الخال بيتر عديم الجدوى... حذف... الذي قد ينضم إلينا. سنحاول أنا وأمكما الاتصال بكما غداً ونبلغكما عن تطور الأمور، أو اتصلا بنا. إدوارد، إذا لم نتحدث، أتمنى أن تكون رحلتك آمنة. كارولين، أبلغينا بموعد انطلاق قطارك. مع الحب. بابا. ملاحظة: يساوي جداكما مئة مليون دولار عند وفاتهما...حذف.

قرأت البريد الإلكتروني، وأنا غير واثق إذا كان يجدر بي إرساله. أقصد، يعرف إدوارد وكارولين أنه سيكون هناك بعض الاصطدام بيني وبين جديهما، وأصبح الولدان راشدين، ولذلك أحتاج إلى معاملتهما على هذا الأساس، وإبلاغهما بما يجري. تبدو رسالتي إيجابية، لكنهما يفهمان التلميح البسيط بوجود مشكلة حين يصلان إلى هنا. لا أعرف أبداً ماذا أخبرتهما سوزان عن هذا الموضوع، لكن عليّ أن أكون فاعلاً، ولذلك نقرت زر الإرسال فانطلقت الرسالة عبر الشبكة.

لتمضية الوقت، تصفحت الإنترنت وبحثت عن عبارة "أفضل الطرائق لقتل أهل الزوجة"، وحصلت على بعض النتائج.

انتقلت من ثم إلى موقع ويب أخبرني عنه زبون أميركي، يظهر المشاهد الجوية للمنازل والممتلكات التجارية في البلاد. استخدمت هذا الموقع ذات مرة في عملي لزبون أميركي، وبحثت حتى عن ستانهوب هال، والحمرا قبل أشهر قليلة أثناء نوبة حنين.

في غضون دقيقة، حصلت على مشهد جوي لستانهوب هال تم التقاطه الشتاء الماضي، وأظهر لي كم أن المنزل الرئيسي ضخم. رأيت أيضاً مجموع الشجيرات، ومعبد الحب، وملعب التنس، وأشجار الفاكهة، وحتى الأطلال المحترقة لمنزل اللعب في طفولة سوزان، والممتد تقريباً على مساحة نصف مرعى حقيقي.

جعلت الصورة تقترب من منزل الحراسة، ثم انتقلت إلى منزل الضيوف والإسطبلات المجاورة. انتقلت من ثم إلى الحمرا، واستطعت رؤية الخط الطويل

والمستقيم لأشجار الصنوبر البيضاء الفاصلة بين العقارات، وفكرت في تنقلات سوزان ممتطية صهوة جوادها من ستانهوب هال إلى فيلا الحمرا.

هذه الصورة الفوتوغرافية، حديثة، لا تظهر فيلا بيلاروزا المهدمة، أو الأطلال الرومانية، أو حوض السباحة. لكنها تظهر الأسقف القرميدية الحمراء للفيلات الصغيرة الجديدة وحدائقها، والطرقات المؤدية إليها.

اقتربت من منزل أنطوني مع المصطبة الكبيرة وحوض السباحة الكبير، ثم عدتُ بالمنظر نحو أشجار الصنوبر وعقار ستانهوب ومنزل الضيوف.

على الأرض، ثمة طريق ملتوية من منزل سوزان إلى فيلا أنطوني، لكن خيالية، مثلما اعتقدت، المسافة لا تتعدى خمسمئة أو ستمئة ياردة - أي ثلث ميل - بين المنزلين.

ملاحظة خاصة: إذا أردت الركض إلى منزل أنطوني بيلاروزا، أستطيع الوصول إلى هناك في أقل من خمس دقائق. ويبقى الوقت هو نفسه إذا أراد أنطوني بيلاروزا القدوم في هذه الطريق.

الفصل الخمسون

رنّ جرس الهاتف الداخلي ورفعت السماعة وسألت: "هل أغمي عليهما أم غادرا؟".

"لا هذا ولا ذاك. لكنهما تجاوزا الصدمة الأولى".

"وهل هما مستعدان لصدمة أخرى حين أخبرهما أننا لن نوقع على اتفاق ما قبل الزواج؟".

"فلنكتفِ بصدمة واحدة كل يوم. دورك أنت غداً".

"حسناً. أين أنت؟".

"أنا في المطبخ، أحضر لهما الشراب رقم اثنين، لكنني سأعود إلى غرفة الجلوس خلال دقيقة. حضرتُ لك مشروباً قوياً".

"جيد. أراك هناك".

خرجت من المكتب إلى الردهة. أخذتُ دقيقة لتذكر عشرين عاماً من سخافتهما، ثم دخلت إلى غرفة الجلوس.

كان ويليام وشارلوت يجلسان قرب الموقد على كرسيين متلاصقين، وكانت سوزان تجلس على أريكة قبالتهما. تفصل بينهما طاولة صغيرة مليئة بأطباق المازات، ولاحظتُ أن ويليام وشارلوت يضعان أمامهما كأسين جديدتين من الشراب، فيما تحمل سوزان كأساً من الشراب الفرنسي الأبيض.

فكّرت في الركض نحوهما وفتح ذراعيّ وأنا أصرخ: "ماما! بابا!"، لكنني قلتُ بدلاً من ذلك: "مرحباً" واتجهت نحوهما.

وقفت سوزان، ثم وقف ويليام وشارلوت من دون حماس.

قبّلت سوزان بداية، لإغاظتهما، ثم مددتُ يدي إلى شارلوت التي صافحتني ببرودة، ثم إلى ويليام الذي بالكاد لامست يده. سألت: "هل كانت رحلتكما جيدة".

أجاب ويليام: "جيدة كفاية".

قالت سوزان: "اجلس هنا، جون، قربي. حضرت لك الشراب الروسي مع مشروب منشط".

"شكراً". جلست قرب سوزان على الأريكة، وأمسكت بيدي، مما لفت فوراً انتباه ماما وبابا وجعلهما يجفلان.

كانت موسيقى شوبرت تعزف بهدوء في الخلفية، وكانت الغرفة مضاءة بالشموع ومزينة بالأزهار. مثل دار الجنازة تقريباً.

احتسيت كأسي، واكتشفت أنه منشط صرف.

كان ويليام المصاب بعمى الألوان يرتدي سروالاً أخضر اللون سخيفاً، وقميص غولف أصفر اللون مربعاً وسترة رياضية من الكتان وردي اللون الساطع. ارتدت شارلوت سروالاً وردياً شاحباً وقميصاً أخضر اللون، وانتعلا كلاهما تلك الأحذية الطبية البيضاء المريعة. تفاجأتُ كيف سُمح لهما بالركوب على متن الطائرة.

لاحظتُ أن ويليام لم يتقدّم في العمر كثيراً خلال عشر سنوات، ولا يزال شعره رأسه كثيفاً ولا يزال يستخدم صبغة الشعر نفسها. أما شارلوت فقد بدت على وجهها ملامح التقدم في العمر بوضوح، مع خطوط من التجاعيد العميقة التي تبدو مثل طلاء منزل متشقق. أبقت على لون شعرها الأحمر الطبيعي، ووضعت قرطين في الأذنين، وقلادة وسواراً مصنوعة كلها من المرجان وصدف البحر، مما جعل وجهها يبدو مثل حوض أسماك جاف. لم يزدد وزن أي منهما كثيراً، ويكشف كلاهما عن وجه شاحب جداً بالنسبة إلى لاعبي غولف، كما لو أنهما يستخدمان واقياً من أشعة الشمس.

قلتُ لهما: "تبدوان كلاكما بصحة جيدة".

لم يردّ ويليام على الإطراء وإنما قال: "شكراً. نشعر أننا بخير".

هنا، يعطيك المواطن رفيع المستوى عادة تقريراً طبياً معقداً، يجعلني أشعر بالضجر عادة، لكنني في هذه الحالة متشوق لسماع أي خبر عن إصابتهما بأمراض، مهما كانت صغيرة أو غير مهمة. فلا تعرف أبداً متى يمكن أن تتطور إلى مرض قاتل في هذا العمر. لكنهما لم يشاركا تاريخهما الطبي معي، باستثناء شارلوت التي قالت: "قال طبيبنا الخاص إننا قد نعيش حتى مئة عام".

ذلك اللعين.

تطرقت سوزان إلى الموضوع المهم وقالت: "جون، أخبرتُ أمي وأبي أننا سنتزوج مجدداً، وأخبرتهما أيضاً كم كان إدوارد وكارولين سعيدين لأجلنا".

قلت لماما وبابا: "أمي مسرورة هي أيضاً. وإيثيل، مباشرة قبل أن تموت قالت لنا: الآن، أستطيع الموت بسلام بعد أن عرفت...". أحسستُ بأظافر سوزان تتغرز في يدي، فأوقفت الحديث وقلت: "فكرنا أنا وسوزان طويلاً في هذا الموضوع" - منذ أن أقمنا علاقة حميمية يوم الأحد - "وناقشنا كل الترتيبات المتعلقة باستعادة زواجنا ونحن واثقان من أن هذا ما نريد فعله".

ذكّرتني سوزان: "ونحن مغرمان، جون".

قلت: "ونحن مغرمان".

لم يقل بابا أو ماما أي شيء حول ذلك، ولذلك تابعت سوزان: "مثلما قلتُ لكما قبل أن ينضم جون إلينا، أفهم أن الأمر يفاجئكما، وأفهم سبب شكوكما وتحفظاتكما، لكننا واثقان من حبنا لبعضنا".

جلس ويليام وشارلوت هناك كما لو أن أجهزة السمع لديهما قد تعطلت، وحملا في الوقت نفسه كأسيّ الشراب واحتسيا جرعة كبيرة.

تابعت سوزان: "ناقشنا أنا وجون كل ما حصل في الماضي، ورمينا ذلك وراءنا، ونتمنى أن نتمكن جميعاً من المضي قدماً. نشعر أن الماضي علّمنا ما هو مهم، وعلمتنا الأخطاء التي ارتكبناها دروساً قيمة سنستخدمها لتمتين حبنا وعائلتنا".

أنهى ويليام وشارلوت احتساء كأسيّ الشراب.

أظن أنه حان دوري فقلت: "أنا واثق من أنكما تريدان سوزان سعيدة، وأعتقد أنني أستطيع إسعادها". حان الوقت للاعتراف بأخطائي، فتابعت القول: "ارتكبتُ العديد من الأخطاء خلال فترة زواجنا السابقة، وأتحمل لوم معظم ما حصل بيننا، لكنني أريد أن تعرفا أنني نضجت كشخص، وأصبحت أكثر اهتماماً باحتياجات سوزان ومتطلباتها، وقمت بتقوية مهارات التكيف لديّ، وتعلمت كيف أسيطر على غضبي، و...". مرة جديدة، انغرزت أظافر سوزان في يدي. لذا، ختمتُ بالقول: "أستطيع تقديم مئة مليون سبب" - أو نصف ذلك - "يدفعني لأن أكون زوجاً جيداً لسوزان ومئة مليون سبب لـ...".

"جون".

"ماذا؟".

"أظن أن ماما وبابا يريدان معالجة ما حصل في آخر مرة كنا فيها معاً".

"صحيح. كنت سأتناول ذلك". مثلما أذكر، كنا في مطعم إيطالي في لوكوست فالي، وكان ويليام قد باع للتو ستانهوب هال لفرانك بيلاروزا، وطلب مني ويليام إعداد عقد البيع، من دون أي مقابل، وكان سيجبرني بعدها على دفع فاتورة المطعم، مثلما يفعل دائماً، وكنت قد سئمت من كل ذلك الهراء الذي يلحقه بي، فناديته...

"جون".

"صحيح". نظرت إلى ويليام، ومن ثم إلى شارلوت، وقلت: "أحد أبرز محطات الندم في حياتي كانت كلماتي لك، ويليام، حين تناولنا العشاء معاً للمرة الأخيرة. كانت نوبة غضبي غير مقبولة البتة. كلماتي، التي تلفظت بها، مثل... حسناً، تلك العبارات السيئة... على أي حال، لو أستطيع استرداد تلك الكلمات - أو إلغاءها - لفعلت. لكنني لا أستطيع، ولذلك أقدم فقط أصدق اعتذار لك ولشارلوت لأنكما سمعتما تلك الإهانات المريعة، ولسوزان، أيضاً، لأنها شاهدت الأشخاص الثلاثة الذين تحبهم كثيراً...". بدأت أفقد تركيب الجملة ولذلك ختمت: "أرجوك أن تقبل اعتذاري".

سادت بضع لحظات من الصمت، ثم قال ويليام: "لم أتحدث أبداً على هذا النحو طوال حياتي".

حقاً؟

قالت شارلوت: "كان ذلك مؤذياً جداً".

يحتاجان ربما إلى شراب آخر. حسناً، وعدت سوزان بأنني سأعتذر، وفعلت، لكن هذين الحقيرين لا يستوعبان شيئاً. إلا أنني جربت الطريقة القديمة وقلت: "لا تعرفان كم مرة جلست فيها لأكتب إليكما رسالة اعتذار، لكنني لم أستطع أبداً كتابة الكلمات التي كانت تعتمر في قلبي على الورق. أما الآن فأستطيع توجيه كلمات الاعتذار لكما - من الفم نفسه الذي أطلق تلك الكلمات الحقيرة، والمبتذلة، والفظة، والمسيئة... الآن، أتمنى أن تريا وتسمعا اعتذاري الصادر من قلبي".

لاحظتُ أن ويليام، بالرغم من انسياب محتويات كأسيّ الشراب إلى دماغه التافه، شعر بأنني أستمتع قليلاً بذلك. شارلوت، التي كانت فعلاً بليدة الفهم، تأخذ كل شيء حرفياً.

أخيراً، قال ويليام: "كنت مذهولاً، جون، أن يقوم صهري، وهو رجل أحترم أهله، باستخدام هذا الأسلوب - في مكان عام أو في أي مكان آخر، واستخدامه في حضور سيدات". وما إلى ذلك.

أخفضت رأسي واستمعت إليه. بدا جلياً أن ويليام كان ينتظر هذا اليوم، وسيستمتع من كل ذرة فيه.

أخيراً، قاطعته سوزان وقالت: "بابا، طلب منك جون أن تقبل اعتذاره".

نظر ويليام إليها ومن ثم إليّ وقال: "سنناقش أنا وشارلوت ذلك. واعلم، جون، أننا لا نعطي موافقتنا بسهولة وخفة مثلما يفعل العديد من الشباب اليوم. يمكن طلب المسامحة، لكن يصعب الحصول عليها".

أخذتُ نفساً عميقاً وأجبت: "أتمنى أن أحصل على مسامحتك".

"ليست مسألة تمنٍّ، جون. إنها مسألة عمل على ذلك".

حسناً، اللعنة. "هذا ما كنت أقصده".

قالت سوزان: "دعوني أحضر لكما كأسين جديدتين". أخذت كأسيهما وقالت لي: "ساعدني جون".

وقفت، وتبعتها إلى المطبخ.

قالت لي: "شكراً".

لم أجب.

"أعرف أن هذا صعب، لكنك فعلته".

"كان ذلك نابعاً من قلبي". أشرت إلى قلبي.

"أظن أنه كان نابعاً من طحالك".

"ظننت أنكِ قلتِ إنهما أصبحا أكثر ليونة".

"لا، أخبرتك أنني كذبت في ذلك".

"صحيح".

أخرجت سوزان الشراب من الثلاجة وقالت: "لا يجدي هذا المشروب نفعاً".

"سيفعل. الشراب الأول، الشراب الثاني، الشراب الثالث، في الأرض. لا يوجد قليلٌ من الشراب الروسي في مشروبي".

"ستشكرني على ذلك".

"أحتاج إلى احتساء كأس إضافية لأتمكن من متابعة ذلك".

"أنت رائع".

"حقاً؟".

"نعم. لكن لا تفرط في ذلك. تكاد تصل إلى حد السخرية".

سألتها: "أنا؟ هل كنا مضطرين إلى فعل ذلك لو لم يكونا غنيين؟".

سكبت الشراب في الكأسين وأجابت: "لو لم يكونا غنيين، لما كانا صعبين هكذا".

"لا نعرف أبداً".

"وأرجوك لا تستعمل عبارة مئة مليون مجدداً".

"كنت أحاول فقط تحديد كمية...".

"تذكر الولدين. لا أهتم بنا، لكنني أهتم بهما".

فكرتُ لبرهة وقلت: "لا أريد أن يخسر ولدانا الاحترام الذاتي، أو الكرامة من أجل حفنة من الذهب".

"لا. هذه مهمتنا".

سألتها: "أين سينام ماما وبابا الليلة؟".

"لم نتطرق بعد إلى المسألة".

"هل يعرفان أنني أنام هنا معك؟".

"حسناً... تساءل والدي عن وجود الحراس في منزل الحراسة، لكنني لا أظن أنه استوعب الأمر بعد. حين يأتي الوقت، سنقول لبعضنا عمتم مساء من دون تضخيم المسألة".

"حسناً. وما هي مشاريع العشاء؟".

"حسناً، نذهب جميعاً إلى دار الجنازة، ثم أقترح أن نعود إلى هنا لتناول عشاءً خفيفاً. إلا إذا أرادا الذهاب إلى مطعم".

"ماذا عن المطعم الإيطالي في لوكوست فالي حيث تناولنا عشاءنا الأخير؟".

ضحكت وقالت: "حسناً، لكن لا تحاول التهرب من دفع الفاتورة هذه المرة".

"آه! لهذا السبب لا يزال منزعجاً".

سكبت سوزان القليل من المشروب المجفف الذي يذهب بالعقل في كلتا الكأسين، وأضافت حبة زيتون وقالت: "فلنعد إليهما كي لا يظنان أننا نتكلم عنهما".

"إنهما يتكلمان عنا".

وضعت الكأسين على صينية فضية، وناولتني إياها، وقالت: "تولَّ أنت التشريفات".

توجهت نحو الباب، ثم توقفت وقلت لها: "إذا لم تنجح التسوية بحلول يوم الأحد، لا أريد رؤية هذين الاثنين مجدداً. هل تفهمين؟".

"ستنجح. أنت ستجعلها تنجح".

تابعت المشي، ووصلت إلى الردهة، ومن ثم إلى غرفة الجلوس حيث قلت بمرح: "ها قد وصلنا. وهناك المزيد من هذا".

تناولا كأسيهما، وتذوقا الشراب، وقال ويليام: "تحضّر سوزان شراباً مثالياً".

قلت بفخر: "ولم أوقع أي قطرة منه".

رفعت سوزان كأس الشراب الفرنسي خاصتها وقالت: "دعوني أقول لكما مجدداً كم أنا سعيدة بوجودكما هنا، حيث عشنا جميعاً قبلاً في ستانهوب هال، جميل، بالرغم من أن المناسبة حزينة، أعرف أن إيثيل تنظر إلينا من فوق وتبتسم فيما ترانا جميعاً معاً مجدداً".

كادت الدموع تتلألأ في عينيّ، فقلت: "آه، آه".

لم نطرق كؤوس بعضنا، لكننا رفعناها وشرب الجميع.

شعرت أن ويليام وشارلوت قد أمضيا الخمس دقائق الأخيرة وهما يهنئان بعضهما على حماقتهما، وينسقان أيضاً هجوماً على جون.

عندئذ، قال ويليام لابنته: "رأيت ابن دان، بوب، ذلك اليوم في النادي، ويرسل لك تحياته".

أجابت سوزان: "هذا لطيف".

"أخبرني مجدداً كم جعلت والده سعيداً في سنواته الأخيرة".

لم تجب سوزان.

جاء دور شارلوت وقالت: "نشتاق جميعاً إلى دان كثيراً. لطالما كان نبض الحفلات".

قهقه ويليام وأضاف: "وكان يحب لعب الغولف كثيراً. وجعلكِ تحبين اللعبة، سوزان. أصبحت جيدة جداً". ثم سألها: "هل تلعبين هنا؟".

"لا".

"حسناً، حين تصبح اللعبة في دمك - أراهن أن دان يلعب الغولف فوق مرتين يومياً".

قالت شارلوت لسوزان: "تركت تلك النوادي الجميلة التي اشتراها لك. هل تريدين أن نرسلها لك"؟.

"لا، شكراً".

أردت ضربهما على عنقيهما، طبعاً، لكنني جلستُ هناك أصغي إليهما وهما يطلعان سوزان على آخر الأخبار في هيلتون هيد، ويذكران اسم دان عند الإمكان.

كان يجدر بسوزان الاقتراح عليهما أنني لا أريد سماع أخبار زوجها العزيز المرحوم، لكن هذين الاثنين كانا أحمقين جداً بحيث افترضت أن الأمر لا يهم. ويصبحان طبعاً في مزاج أفضل إذا تقبلتُ كل ذلك الهراء الذي يتشدقان به.

في غضون ذلك، لم ينسجم ذنبي الوحيد في الماضي مع هرائهما، لكن ابنتهما ارتكبت الزنى والجريمة، وعليّ أنا الاعتذار منهما لأنني قلت لويليام إنه أحمق من دون مبادئ، وحقير مقرف، ورذيل لعين، وأخرق تافه. أقلت له أخرق ومن ثم رذيل؟ على أي حال، كان كل ذلك صحيحاً.

شعرت سوزان بأنني أغلي، وعلى وشك الانفجار، مثلما فعلت قبل عشر سنوات في المطعم، ولذلك قاطعت والدها وقالت: "سيصل إدوارد وكارولين إلى هنا مساء غد، وهما متحمسان إلى رؤيتكما".

قالت شارلوت: "نحن نتطلع إلى رؤيتهما". ثم تذكرت أن تسأل: "كيف حالهما؟".

هل يهتمان فعلاً؟ أقصد، افترضت أنهما تحدثا حول هذا الموضوع قبلاً، لكنني ألاحظ الآن أنهما لم يسألا حتى عن حفيديهما الوحيدين. يا للعار.

أخبرتهما سوزان عن إدوارد وكارولين، لكنني لاحظت أن الجد والجدة غير مهتمين كثيراً، كما لو أن سوزان تتحدث عن حفيديّ شخص آخر.

استنفدنا ذلك الموضوع، ولذلك عاد ويليام إليّ وسألني: "ماذا عنك جون؟ كيف حالك في لندن؟".

لا يهتم أبداً لما أفعله في لندن، وعرفت أن السؤال - من خبرتي الطويلة - هو مقدمة لسؤالٍ آخر أقل انقلاباً.

أجبته: "لندن جيدة".

سألني: "هل تعمل؟".

أجبته: "لطالما عملت".

ذكّرني: "أبحرتَ حول العالم طوال ثلاث سنوات"، ثم اعترف بكرم: "حسناً، أفترض أن في هذا الكثير من العمل".

أردتُ دعوته للإبحار معي، لكنه قد يتصور أنه لن يعود، ولذلك قلت: "كان الأمر تحدياً".

"لا شك في ذلك". ثم ابتسم وسألني: "هل تعرفت إلى امرأة في كل مرفأ؟".

أجبته: "ليس هذا سؤالاً ملائماً في حضور ابنتك".

حسناً، أنهى جوابي الموضوع لكن سوزان تدخلت وقالت: "بابا، الماضي أصبح وراءنا".

ويليام، مثل جميع الرجال الجبناء، تراجع وقال: "حسناً، لم أقصد التطرق إلى موضوع حساس".

طمأنته سوزان: "ليس موضوعاً حساساً. إنه موضوع منتهٍ".

"طبعاً"، قال السيد حساس، ثم تجرأ على سؤالي: "كيف حصل أنك لم تتزوج مجدداً بعد كل هذه السنوات، جون؟".

"تعرفت فقط إلى نساء متزوجات".

لم يظن ويليام أن الجواب مضحك جداً، لكن شارلوت بدت راضية عن شرحي، بالرغم من قولها: "يبدو أنك بددت كل تلك السنوات على نساء غير مؤهلات".

سألت سوزان: "هل أحضر لكما مشروباً إضافياً؟".

هزّ ماما وبابا رأسيهما، وأبلغنا ويليام: "نكتفي باحتساء ثلاث كؤوس من الشراب".

دقيقة؟ قلت له: "شربتما اثنين فقط".

"شربنا واحداً قبل أن نصل إلى هنا".

"لا يُحسب ذلك. أكره الشرب وحيداً".

"حسناً... جيد".

وقفتُ للهروب وتحضير كأسين إضافيتين، لكن صوفي أطلت برأسها وسألت سوزان: "هل تحتاجين إلى أي شيء؟".

ويليام، الذي يعامل الخدم مثل عبيد، أجابها: "كأسين إضافيتين من الشراب، واغسلي هذه الأطباق، وأحضري أطباقاً جديدة ومحارم نظيفة". ثم قال لسوزان: "علّميها كيف تحضر الشراب".

وقفت سوزان، وجمعت صوفي الأطباق، وغادرتا. ثم اعتذرت شارلوت للذهاب إلى الحمام ووجدت نفسي وحيداً مع ويليام.

نظرنا إلى بعضنا، ولاحظت أن عينيه الصفراوين بدأتا تضيقان، وأن القرون تخرج من شعره. خرج الدخان من منخريه، وانفتح حذاؤه الطبي للكشف عن مخالب كبيرة، ثم مدّ يده إلى خلف ظهره، ولعب بذيله الطويل.

أو أنا أتخيل ذلك ربما. لكن عينيهِ ضاقتا فعلاً.

لم يتحدث أي منا، وقال لي أخيراَ: "لا يجعلني ذلك سعيداَ، جون".

"حسناً، أنا آسف لسماع ذلك. لكن ابنتك سعيدة".

"تظن أنها سعيدة". ثم أبلغني: "كانت سوزان وحيدة بعد موت دان، وأصبحت منزعجة كثيراً بعد الهجمات الإرهابية، وهي تفكر كثيراً في الماضي خلال الأشهر القليلة الماضية".

لم أجبه.

تابع القول: "ما أقوله لك، جون، هو أنها ليست هي نفسها، وما تراه الآن قد لا تراه ربما بعد أشهر قليلة".

أجبته: "أقدّر لك رغبتك في عدم ارتكابي خطأ، وأنا متأثر لقلقك على مستقبلي".

ضاقت عيناه مجدداً وقال: "في الواقع، نحن لا نهتم بك".

"وهل قلتُ أنا ذلك؟".

"ولا نظن أن سوزان تهتم بك أيضاً. إنها مرتبكة. نعرف ابنتنا، ونظن أنها تعيش فقط مرحلة من الحياة، ستمضي".

"عليك إذاً إطلاعها على رأيك بحالتها العقلية. أو أنا أفعل ذلك".

انحنى صوبي وقال بصوت هادئ: "نحتاج إلى مناقشة ذلك، جون، من رجل إلى رجل".

"يسعدني فعل ذلك". لكن أحضر رجلك أيها الحقير. لن أستأجر واحداً لك.

فهم ويليام صلب الموضوع وقال: "الأشخاص الذين هم في وضعنا - أقصد أنا وشارلوت - عليهما توخي الحذر في ما يتعلق بالرجل الملائم لابنتهما. هل تفهمني؟".

"طبعاً. تريدها أن تكون سعيدة".

"لا - حسناً، طبعاً نريد ذلك. لكنني أتحدث عن... حسناً، المال".

"المال؟ وما علاقة ذلك بالمال؟". طمأنته: "سندفع نحن تكاليف زفافنا".

بدا محبطاً من بلادة فهمي، لكنه تابع بصبر: "لا أعرف كيف تتدبر أمورك مادياً، لكنني واثق من أن النفقة السنوية لسوزان، وإرثها المستقبلي، أثرا في تفكيرك. لا تفهمني بالطريقة غير المناسبة، جون. أنا واثق من أنك تظن أنك مولع بها، لكن بصراحة، أظن أنكما تطلقتما أنتما الاثنان للأسباب الصحيحة - كنتما غير ملائمين لبعضكما - وبقيتما بعيدين عن بعضكما طوال عشر سنوات بسبب ذلك. السؤال الآن إذاً هو، لمَ تغازلها مجدداً، ولمَ تقترح عليها الزواج؟".

الأمر هو بالطريقة المعاكسة، لكنني رجل نبيل كفاية لعدم قول ذلك. قلت له: "ويليام، إذا كنت تقول إنني أسعى وراء المال، أعتبر ذلك إهانة كبيرة".

"جون، أنا لا أقول ذلك. أقول فقط إن تفكيرك ومشاعرك يتأثران ربما بهذه الاعتبارات - عن غير وعي طبعاً".

"حسناً، أثرتَ مسألة مهمة... تظن إذاً أنه من دون وعي... حسناً، أظن أنه عليّ التفكير في ذلك. لا أريد أن أظن أنني أتزوج من أجل الحب، فيما أتزوج في الحقيقة من أجل المال".

لقد تجاوزت حدود السخرية، لكن ويليام أعفاني، وانحنى أكثر صوبي وقال بفظاظة: "نستطيع ربما مناقشة بعض الترتيبات المالية التي تحفزك على العودة إلى لندن".

إذا كان يتحدث عن المئة ألف دولار التي يقدمها لجميع عرسان سوزان غير الملائمين، سأشعر بالإهانة. حتى المئتا ألف دولار تعتبر إهانة. يجب أن يكون المبلغ من سبعة أرقام.

"جون؟".

نظرت إليه، وأدركتُ أنه إذا قلت له أن يذهب إلى الجحيم، ستكون بقية الأسبوع محمومة قليلاً. لكن إذا تماديت مع لعبته، سيجعله ذلك ضيفاً سعيداً، وبعدما ننهي عشاء عيد الأب، أستطيع أن أقول له أن يذهب إلى الجحيم. أو أستطيع ربما الانتظار حتى يغادر إدوارد صباح الاثنين. يجب توقيت عبارة اذهب إلى الجحيم في الموعد الصحيح.

قال لي: "أتمنى أن تفكر في ذلك".

"سأفعل. أقصد، ليس في العرض المادي... لكن في ما قلته عن ارتباك سوزان وعدم كونها على حالها". تظاهرتُ أنني أفكر عميقاً، ثم أومأت لنفسي، واستنتجت بالقول: "لا أريدها أن ترتكب خطأ بشأن زواجنا مجدداً... والشعور من ثم بالتعاسة".

"لا، جون، لا نريد ذلك".

"إذاً، حسناً... يجدر بنا إذاً، ربما" - فكرة رائعة - "العيش معاً".

المسكين ويليام. ظن أن عجلاتي ستتوقف أمام مبلغ من ثلاثة أرقام وأعود إلى المنزل. نحنح حنجرته وقال: "كنت أتحدث عن حافز مادي لك للعودة إلى لندن".

"أوه... صحيح. حسناً... لا أريد إيذاء سوزان بالمغادرة... لكنني لا أريد أيضاً إيذاءها بالدخول في زواج مشؤوم...".

طمأنني ويليام: "ستكونان أكثر سعادة في المدى البعيد إذا انفصلتما الآن. يجب أن يتم ذلك بسرعة ورحمة وصورة نهائية".

ذكّرني ذلك نوعاً ما بالعرض الذي عقدته مع فرانك بيلاروزا. على أي حال، أخذتُ نفساً عميقاً - في الواقع كانت تنهيدة - وقلت: "أحتاج إلى التفكير في هذا".

شمّ ويليام رائحة صفقة وقال: "أود الحصول على جوابك بحلول يوم الأحد، أو صباح الاثنين قبل أن نغادر، على أبعد حد".

“حسناَ”. ثم استفسرت بسذاجة: “بشأن الحافز المادي...”.

“نناقش ذلك حين نتحدث”.

“حسناً... يفيدني أن أعرف الآن مقدار الحافز المعروض عليّ”.

ويليام نفسه لا يعرف مقدار المال الذي يريد إنفاقه لضمان سعادة ابنته الوحيدة. ولا يعرف مقدار المبلغ الذي قد يغريني للابتعاد عن حب حياتي. إلا أنه يعرف أنني مدرك تماماً لقدرته على قطع النفقة السنوية لسوزان وحرمانها من الميراث. هذا يخفض من قيمتها ويخفض من قيمتي للتغلب على آل ستانهوب.

رأيته يفكر ملياً في ذلك، وبدا منزعجاً كثيراً لأن سوزان ستكلفه مبلغاً كبيراً من المال النقدي. وكان منزعجاً مني، بلا شك، لمجموعة منوعة من الأسباب، بما في ذلك حصولي على حصة من ماله. قد يخفض من نفقتها السنوية للتمكن من دفع المبلغ لي.

سألني أخيراً: “ما هو الرقم الذي تفكر فيه؟”.

“ما رأيك في مليونين؟”.

ظننتُ أنه سيقع على وجهه ما إن يسمع بالرقم، لكنه التقط أنفاسه وتمتم: “يمكننا ربما الاتفاق على نصف هذا المبلغ - وإنما ندفعه على عشرة أقساط سنوية، بحيث يبقى حافزك مستمراً”.

“آه، أفهم ما تنويه. لكن إذا حصلت على كل المبلغ مسبقاً، لن أنكث أبداً بالعهد. أعدك بذلك”.

“أريد عقداً مكتوباً”.

“صحيح. مثل اتفاق على عدم الزواج”.

“وعدم المساكنة”.

“طبعاً”. أحب عقد الاتفاقات، ولذلك قلت له: “لكن إذا دفعت لي مسبقاً، أجري حسماً على المليونين”.

“أظن أنه علينا مناقشة هذا الرقم، والشروط. لاحقاً”.

“ماذا تفعل بعد العشاء؟”.

قبل أن يتمكن من الإجابة، عادت سوزان وصوفي، ووقف ويليام النبيل، وفيما كان واقفاً، تناول كأس الشراب عن صينية كانت تحملها سوزان.

أعادت صوفي ترتيب طاولة القهوة، وغادرت. جلست سوزان، وسألت: “أين ماما؟”.

قال ويليام: “في الحمام”.

استفادت سوزان من الوضع واستفسرت، مع ابتسامة، “هل تحدثتما من رجل إلى رجل؟”.

أجاب ويليام: "كنا نناقش للتو ما يجري هنا في ستانهوب هال".

نظرتُ إلى ويليام، ولاحظتُ أنه أصبح أكثر استرخاء الآن، وربما حتى أكثر أملاً بأن كابوسه الأسوأ قد ينتهي قبل أن يبدأ. فكرتُ في الإشارة بغمزه ورفع إصبعين - علامة النصر - وليس بأي ثمن. فقط بمليونين.

عادت شارلوت، وأخذت مكانها، وتناولت كأس الشراب خاصتها.

قالت سوزان، وهي تتابع طرح رأيها في موضوع ستانهوب هال: "مثلما ذكرت في بريدي الإلكتروني، يكشف المالك، أمير نسيم، عن بعض المخاوف الأمنية، ولذلك كلف شركة أمن لتقديم النصح له بشأن ما يجب عليه القيام به".

استفسر ويليام: "أي نوع من المخاوف الأمنية؟".

شرحت سوزان: "إنه من إيران، وأخبرتني زوجته أن لديه أعداء في ذلك البلد قد يرغبون في إيذائه".

باتت شارلوت تلعق الآن قعر كأس الشراب، وتوقفت في منتصف اللعقة، وقالت: "أوه، يا".

ويليام، الذي يفكر دائماً في نفسه، قال: "هل تظنين أن هناك خطراً يداهمنا؟". وهو يقصد نفسه.

أجبته: "لن يظن أحد أن منزل الضيوف هو ستانهوب هال، أو يظن أن واحداً منا هو السيد أو السيدة نسيم".

وافق ويليام وقال بغباء: "حسناً، قد نعيش بعض الإثارة هنا".

لم يضحك أحد، أو يطرق على ركبتيه، لكنني قلت: "إذا كنت تشعر بالارتياح في أي مكان آخر، تستطيع سوزان الاستفسار عن غرف الضيوف في نادي الكريك".

تدخلت سوزان: "لا أظن أنه يجدر بنا الإفراط في ردة الفعل، جون".

لم أجب، لكنني لاحظت أن ويليام وشارلوت لم يعبّرا عن أي قلق بشأن ابنتهما وحفيديهما.

إلا أن ويليام قال: "حين كنا نعيش في ستانهوب هال، لم نكن نقفل أبوابنا". نظر إلى زوجته، وسأل: "هل كنا نفعل حبيبتي؟".

"كنا نفعل"، قالت شارلوت موافقة، أو غير موافقة، حسب ما تظن أنه قاله.

كنت مسروراً لأنني شربت شراباً منشطاً صرف، إذ أستطيع أن أقدر بصورة أفضل ويليام وشارلوت.

ذكّرتهما سوزان بسبب وجودهما في نيويورك، وقالت: "أشعر بالحزن الشديد على إيثيل. يصعب التصديق أنها رحلت".

قالت شارلوت: "المسكينة. أتمنى ألا تكون قد عانت كثيراً في النهاية".

وهكذا، تحدثنا عن الراحلة إيثيل لبضعة دقائق، متذكرين العديد من الذكريات السعيدة، وطبعاً، تناسينا أن إيثيل كانت مصدر إزعاج. لكن شارلوت قالت مبتسمة: "كانت امرأة عنيدة". ثم أضافت وهي لا تزال تبتسم: "تساءلتُ أحياناً، من كانت السيدة ومن كانت الخادمة".

ذكرتها سوزان: "لم نعد نستخدم هذه الكلمات أمي".

"أوه، سوزان. من يبالي؟".

لاحظتُ أن ويليام لم يقُل شيئاً عن إيثيل، لا جيد ولا سيئ، واكتفى بالجلوس هناك، وهو يفكر ربما في والده وهو يقيم علاقة مع إيثيل، أو إيثيل تقيم علاقة مع والده.

ظننت أن الوقت مناسب لتسوية مسألة العشيقة - كون إيثيل عشيقة أوغسطس؛ لا شك في أن إيثيل كانت سيدة، ولكن ليست سيدة ستانهوب هال. أقصد، إنها ميتة، وكذلك هو أوغسطس، ولجعل المحادثة أكثر مرحاً، قلت لشارلوت وويليام: "كنت أتصفح أوراق إيثيل، وعثرت على ورقة حق السكن لمدى الحياة بين أوراقها، ودفعني ذلك إلى التساؤل عن سبب منح أوغسطس مثل هذا الاعتبار المهم لموظفين شابين كانا...".

"جون"، قالت سوزان. "أظن أنه يجدر بنا الاستعداد". نظرت إلى ساعتها وقالت: "أود التواجد في دار الجنازة في تمام السابعة". وقفت.

حسناً، يجدر بي توفير ذلك الوقت الذي يتواجد فيه المزيد من الأشخاص لتقدير الأمر، ولذلك وقفت، وكذلك فعل بابا وماما، اللذان تأرجحا قليلاً.

قالت لي سوزان: "لا تزال حقائب ماما وبابا في السيارة. هل تمانع في إحضارها؟".

"أبداً حبيبتي".

كان ويليام يحمل المفاتيح في يده، فأعطاها لي وقال: "شكراً لك جون". أظن أن هذا يعني عدم رغبته في مساعدتي. حسناً، إذاً لن أحسم شيئاً من المليونين.

خرجتُ وسرت تحت المطر، وأحضرتُ أغراضهما الرخيصة، التي بدت وكأنها هبة مقدّمة من أحدهم، وأوصلتها عبر السلالم إلى غرفتهما.

لم يصلا إلى غرفتهما بعد، ولذلك لم أحصل على بقشيش، وتركت الأغراض على رفين أعدتهما سوزان. ذهبت من ثم إلى غرفة النوم الرئيسية حيث كانت سوزان تخلع ملابسها، فسألتها: "هل نملك الوقت لجولة سريعة؟".

ابتسمت وسألت: "هل هذا تأثير الشراب؟".

قلت لها: "مضحك جداً. ذاك الاثنان تناولا نصف قنينة من الشراب".

"كانا متوترين جداً، وأظن أنهما كانا غاضبين. لكن بابا بدا أقل غضباً بعدما احتسى الكأس الثالث".

"صحيح، أليس كذلك؟".

استفسرت: "عمّ تحدثتما؟".

فكرت في إخبارها أن والدها حاول شراء عزوفي عن الزواج مجدداً بالمال، وأردت إخبارها... لكن إذا فعلت ذلك الآن، قد تغضب. ظننت أنه من الأفضل أن تظن أن مزاج والدها قد تحسن بفعل الشراب. وغداً، حين تلاحظ أنني أنا ووالدها نتبادل الأحاديث بطريقة مقبولة مع بعضنا - من دون شراب - ستكون سعيدة، وستستردّ سعادتها مثل شعاع الشمس لتضفي الفرح علينا جميعاً، بما في ذلك إدوارد وكارولين.

ويوم الأحد، بعد العشاء، أو صباح الاثنين، بعدما يذهب الولدان، وقبل أن يتوجه الوز الأحمق إلى الجنوب، أسأل سوزان عن رأيها في قيمة الثمن المناسب الذي يجدر بي قبوله من والدها للعودة إلى لندن. حسناً، قد أعرض الأمر بطريقة مختلفة، مثل "تجرأ والدك على عرض مبلغ من المال لأبتعد عنك. لم أتعرض في حياتي إلى مثل هذه الإهانة". وما إلى ذلك.

بعد أن تتجاوز صدمتها، سأقول لها إنه عرض عليّ مليونيّ دولار، لكنني لن أتركها، إلاّ إذا دفع لي ما لا يقلّ عن خمسة ملايين. أقصد أن هذا مال جدي. أستطيع بالفعل العيش من فائدة المال، مثلما يفعل آل ستانهوب.

جلست سوزان أمام طاولة الماكياج، وأجرت بعض اللمسات التجميلية. قالت لي: "حصلت الأمور على نحو أفضل مما توقعت. وأشكرك مجدداً على... لطافتك".

"يسهل التصرف بلطافة مع الأشخاص اللطفاء".

ظننت أن هذا مضحك، ثم قالت لي: "تخلَّ عن السخرية والتهكم. لا يتحملان ذلك".

"هل تظنين؟".

"ولا تتطرق إلى موضوع حق إيثيل ألارد في العيش لمدى الحياة في منزل الحراسة". ثم سألتني: "لماذا فعلت ذلك؟".

"لم أدرك أن الموضوع مؤلم".

"الآن تعرف أنه كذلك". ثم نصحتني: "عليك العثور على أساليب أكثر لطافة لتسلية نفسك".

"حسناً. ما رأيك بجولة سريعة؟".

"جون، نحن ذاهبان إلى جنازة". ألقت نظرة على ساعتها وسألت: "كم هي سريعة؟".

الفصل الواحد والخمسون

كان بوسع ويليام وشارلوت كسر إبرة جهاز تحليل النَفَس، ولذلك قدت أنا السيارة. تركت البندقية الصغيرة في المنزل كي لا يراها آل ستانهوب، وكي لا أحاول أيضاً قتلهما.

سوزان، الجالسة قربي، كانت تبدو جميلة وهي ترتدي الثياب سوداء اللون، لكنها كانت في مزاج هادئ، الذي يسبق الدفن.

آل ستانهوب، في المقعد الخلفي لسيارة اللكزس، بدلا ثيابهما الاستوائية، وكانا يرتديان الثياب سوداء اللون أيضاً، مما جعلهما يبدوان مثل الصقرين. فاحت رائحة الشراب في السيارة، وبدأت أشعر بالقليل من الدوار.

لا أشك أبداً في أن ويليام أخبر زوجته عن مناقشتنا الخاصة، وأضاف بهاره الخاص إليها، وهما يزنان الآن هذه المسألة في دماغيهما الصغيرين المشبعين بالشراب.

حسناً، يعرف ثلاثة منا أننا نتفاوض على سوزان ستانهوب ساتر، التي لا تعرف حتى أنها معروضة للبيع.

على أي حال، بالرغم من أننا على موعد مع يوم طويل ومرهق، وما يعد بأن يكون أمسية طويلة، كنت في مزاج مرح. أتحمس ربما للخطر والنزاع والهراء.

كما أنني أقمت علاقة حميمية للتو. ليس مع أي كان - لا، مع ابنة السيد والسيدة ستانهوب، مما جعل الأمر أكثر متعة. أعرف أن الأمر شرير قليلاً، لكنني أدرك ذلك على الأقل، وتبقى الدرجة منخفضة جداً في معيار الأطوار الغريبة، ولا تستحق حتى التمعن.

إذا كان ماما وبابا ينتبهان، فسيدركان بلا شك أنني أتشارك غرفة نوم ابنتهما. وإذا كانا يسترقان السمع خارج بابنا، لعرفا أيضاً سبب تأخرنا خمس عشرة دقيقة.

يبدو أن أحداً لا يملك الكثير لقوله، فيما قدت السيارة إلى لوكوست فالي، فأردت إبهاج الجو وقلت: "دعوني أدعوكم إلى العشاء الليلة. ثمة مطعم إيطالي جميل في لوكوست فالي لم أزره منذ عشر سنوات".

"جون".

"نعم حبيبتي".

أبلغتني سوزان: "أمضى أبي وأمي يوماً طويلاً، ولذلك سنتناول عشاء هادئاً في المنزل".

"فكرة ممتازة حبيبتي. آسف لأنني تهت عن هذه الملاحظة".

"أصبحت تعرف الآن".

بدا ويليام وشارلوت هادئين على غير عادتهما، فألقيت نظرة على مرآة الرؤية الخلفية ولاحظت أنهما يغطان في النوم، وفوّتا عرضي الكريم بتناول العشاء في مطعمنا الإيطالي المفضل. سألت سوزان: "ما كان اسم ذلك المطعم؟ فافانوكولو؟".

انحنت صوبي وهمست: "أحسن التصرف. الأمر مهم جداً لك إذا أفسدته بهزلك الطفولي".

"آسف".

"أنت تبلي حسناً. ألا تستطيع التحكم في نفسك؟".

"أحاول، لكنني أعجز أحياناً عن المقاومة...".

"لا يتعلق الأمر بك. إنه يتعلق بإدوارد وكارولين. وبنا".

لا تعرف سوزان، طبعاً، أنني أملك بعض القوة على العزيز بابا الآن، لكن هذه القوة ستختفي لحظة أخبر ويليام أن يسحب عرضه ويدير ظهره. لذا، أتطلع إلى إغاظته بضعة أيام، لكن عليّ فعل ذلك حين لا تكون سوزان موجودة.

"جون؟ هل تفهم؟".

رفعت إصبعين، فهمتها على أنها "سلام"، وقالت "شكراً". يوم الاثنين، سأشرح لها أن الإشارة تعني مليونيّ دولار.

لكي أكون موضوعياً قليلاً هنا، فهمت أن ويليام، كوالد، يظن أنه يحاول القيام بما يظنه مناسباً لابنته. لكنه أيضاً غريب الأطوار، ولا يعرف أبداً ما هو الأفضل لسوزان. كما أنه يكرهني من دون مبرر. حسناً... لم نضرب بعضنا يوماً. المشكلة إذاً فيه. وبدلاً من أن يتحدث إلى سوزان، ومن ثم إليّ، قرر أن يعرض عليّ المال مباشرة. ولمَ يظن أن جون ويتمان ساتر سيأخذ ماله؟ حتى بعد كل هذه السنوات، لا يعرف من أكون.

وحول هذا الموضوع، سأصرّ على اتفاق ما قبل الزواج، هو لا يعطيني شيئاً أكثر مما كنت أملكه قبل الزواج، أي لا شيء. يفترض بذلك أن يجعل الحقير العجوز سعيداً، والأهم من ذلك، أن يجعلني سعيداً لمعرفة أنني سأتزوج مجدداً من سوزان للسبب الحقيقي. الحب. حسناً... ربما قارب جديد. في حال توجب عليّ المغادرة مجدداً.

على أي حال، أشعر وكأنني واقف على رأس هضبة معنوية؛ قلبي نقي، ومحفظتي فارغة. لذا، يفترض السماح لي على الأقل بالمرح قليلاً مع آل ستانهوب قبل أن يغادرا.

نظرت إليهما عبر مرآة الرؤية الخلفية. لقد ماتا ربما. حسناً، نحن ذاهبون إلى المكان الصحيح.

فيما اقتربنا من دار الجنازة، قالت سوزان: "أعرف أنك لا تحب الجنازات. لا أحد يحب، لكن...".

“يرتبط ذلك بمن هو مسجّى في التابوت”.

“لكن حاول ألا تظهر كم أنت سئم، وحاول التصرف كما يجب”.

“لقد نضجت كثيراً خلال السنوات العشر الماضية”.

“الوقت مناسب إذاً لتظهر ذلك”.

“سأجعلك فخورة بأن تكوني برفقتي”.

ابتسمت وأمسكت يدي، وقالت: “أنا فخورة دائماً بك، حتى عندما تتصرف مثل الأحمق”.

“هذا لطيف جداً”.

اقتربت مني، وقبّلت وجنتي وقالت: “تبدو وسيماً جداً في هذه السترة سوداء اللون”.

دخلت إلى مرأب دار الجنازة وقلت: “شكراً. أستطيع الحصول على وظيفة هنا ربما”.

أدركت أن آل ستانهوب مستيقظان، وتساءلتُ كم سمعا من حديثنا. لم يكونا رومنسيين يائسين، لكنهما يريان ويسمعان بوضوح أننا أنا وسوزان مغرمان - بالرغم من انتقاداتها لشخصيتي. حسناً، ويلي، إذا لم تفهم ذلك، أشعر بالأسف عليك وعلى شارلوت. يمكنهما تسهيل الحياة عليهما، وعلينا، إذا قالا فقط “نحن سعيدان لأجلكما. استمتعا بحياة رائعة”.

لكنهما، مثلي، يحملان داخلهما الكثير من الضغينة والحزن - لكن على عكسي، لا يزالان غارقين في حقارتهما. وفي نهاية المطاف، سينتهي كل ذلك هنا - في دار الجنازة.

دار جنازة والتون في لوكوست فالي شبيه بدار جنازة كامبل، المشيّد في أعلى الجهة الشرقية من مانهاتن - عنوان أخير جيد جداً.

هنا، حضرنا جنازة جورج ألارد قبل عشر سنوات، وكذلك عمتي كورنيليا، ووالدي، والعديد من أفراد العائلة والأصدقاء الآخرين منذ كنت صغيراً.

تقع دار جنازة والتون في منزل فيكتوري جميل قديم الطراز، مشابه لمكتبي القديم وغير البعيد كثيراً عنه، وأفترض أنه لو أنني استقررت في نيويورك، كنت سأنتهي هنا يوماً ما، لأن هذه الأمكنة لا تغلق أبوابها. يموت الأشخاص ليتسنى لهم الدخول إلى هنا. أحب الجناح **ب**.

إلا أن إيثيل موجودة في الجناح أ، وهو صغير ومخصص عادة للكبار في السن الذين عاشوا طويلاً، أو للأشخاص غير الشعبيين فعلاً. مثل آل ستانهوب.

بالكاد استطعت سماع صوت موسيقى أرغن تعزف فيما دونت اسمي في دفتر الضيوف، وطلبت من رجل يرتدي ثياباً سوداء اللون أن يرفع الصوت قليلاً ويتحقق من المكبرات. ثم دخلنا الجناح أ.

هناك الكثير من باقات الأزهار التي وضعت بجانب الجدران، ولكن ليس هناك الكثير من الأشخاص الجالسين في المقاعد. احتلت عائلة ألارد معظم الصف الأمامي، لكننا توجهنا أولاً إلى التابوت، ووقفنا نحن الأربعة هناك ننظر إلى إيثيل ألارد.

بدت هادئة - أعني أنها لم تكن تتحرك أو أي شيء - وتولى الحانوتيون إنجاز عمل جيد في شعرها وماكياجها. ألبست فستاناً جميلاً جداً بلونيّ الخزامى والأبيض بدا وكأنه من أزياء حقبة أخرى. اختيار جيد إيثيل.

همست سوزان: "إنها جميلة جداً".

وافقتها الرأي: "تبدو جيدة". بالنسبة إلى شخص عجوز وميت.

وأضاف ويليام وشارلوت أن إيثيل لم تهرم كثيراً خلال العشر سنوات الأخيرة من عمرها. في الواقع، تبدو أفضل من شارلوت التي لا تزال على قيد الحياة.

دعوت بصمت لإيثيل، ثم أخذت المبادرة في ابتعادنا عن التابوت، واستدرت وتوجهت نحو إليزابيت، التي وقفت، وكانت تبدو جميلة بثوبها أسود اللون. تبادلنا القبلات وقالت: "شكراً على حضورك".

قلت لها: "كانت امرأة مميزة، وسأشتاق إليها".

اقتربت سوزان مني، وتبادلت هي وإليزابيت القبلات والملاحظات الملائمة. سألتها سوزان: "كيف حالك؟".

أومأت إليزابيت برأسها وأجابت: "أنا سعيدة لأنها مع بابا الآن".

حسناً... من يعرف أين هي، أو مع من هي.

ألقى من ثم آل ستانهوب التحية على إليزابيت، وشعرت بأن هناك بعض المسافة بين كلا الطرفين. جاء آل ستانهوب إلى هنا بدافع ما يقتضيه التصرف النبيل، لكنهما جاءا في الواقع لرؤية ابنتهما، وأصدقائهما القلائل في نيويورك، وحفيديهما مثلما أتمنى. وجودي في نيويورك هو علاوة بالنسبة إليهما.

في الواقع، واجه ويليام وشارلوت بعض المشاكل مع إيثيل، معظمها بسبب حق إقامة إيثيل لمدى الحياة في ما كان قبلاً ملكهما، وأيضاً بسبب الدافع الذي كان وراء هذه الإقامة. ولا ننسى طبعاً عدم معرفة إيثيل لمكانتها، الأمر الذي ذكرته شارلوت، والذي يرتبط مجدداً بمغازلة إيثيل لأوغسطس. حسناً، أظن أن ويليام مسرور لموت عشيقة والده.

إليزابيت، من جهتها، لم تهتم أبداً بويليام وشارلوت - ومن يفعل؟ لكنها اكتسبت على مرّ السنوات الخبرة في كيفية التصرف بلطافة معهما، وهي طبعاً تتصرف بلطافة الآن وشكرتهما على مجيئهما من هيلتون هيد.

إليزابيت، التي لم تتذكر، أو لم تقدّر تماماً مشاعر آل ستانهوب حيال صهرهما السابق والمستقبلي، قالت لهما: "أليس رائعاً أمر سوزان وجون؟".

حسناً، قد لا تظن أن الوجوه يمكن أن تتجمد وترتعش في الوقت نفسه، لكن هذا ما حصل معهما. استوعبت إليزابيت الأمر فوراً وقالت: "دعوني أعرّفكم إلى ولديّ".

عرّفتنا إلى طوم جونيور وبيتسي، اللذين نذكرهما طفلين صغيرين، وهما الآن شابان وسيمان يرتديان ثياباً مرتبة جداً، ويتصرفان بلباقة. يجدر بي ربما محاولة تزويجهما بإدوارد وكارولين. يمكننا استهلال سلالة حاكمة. لكن في الوقت الحاضر، عبّرنا جميعاً عن أسفنا لموت الجدة.

عرّفتنا إليزابيت من ثم إلى أفراد أخرى من العائلة يجلسون في الصف "أ"، وأخيراً، في نهاية الصف هناك الزوج السابق لإليزابيت، طوم كوربيت، الذي أذكره. عرّفنا طوم من ثم إلى شاب وسيم اسمه لورانس، قال طوم إنه شريكه.

حسناً، ماذا أستطيع القول؟ هذه الأمور غريبة دائماً حين يتواجد الأزواج السابقون في الغرفة نفسها مع حبهم الجديد، ولا يهم كثيراً إذا كان الحب الجديد من الجنس نفسه أو من الجنس المقابل. خطر في بالي أيضاً أنه لو جرت الأمور بصورة مختلفة ليلة السبت وصباح الأحد، لكنت جالساً الآن قرب إليزابيت، ولألقيت التحية على سوزان وويليام وشارلوت بلامبالاة باردة تشارف ملامسة العدائية.

على أي حال، وبما أن طوم عرّف بلورانس على أنه شريكه، فقد دفع ذلك ويليام بصورة طبيعية إلى الاستفسار: "في أي مجال تعملان؟".

أجاب طوم: "وول ستريت"، وأجاب لورانس: "أخبار سي بي أس".

بدا ويليام مرتبكاً فتابع القول: "ظننت أنكما شريكان".

كانت إليزابيت مسرورة جداً بما يحصل، وضحك الجميع بطريقة خافتة، باستثناء ويليام، الذي تعلم للتو معنى جديداً لكلمة قديمة لا يريد تعلمه. شارلوت لا تعرف أبداً عمّا يتكلم أي شخص عن أي شيء.

ثم أخبرت سوزان، القديسة، إليزابيت أننا سنبقى هنا حتى نهاية الجناز، وطلبت إبلاغها عن أي مساعدة تستطيع تقديمها إليها هي أو جون. وافق جون على ذلك، لكن جون لا يعرف كيف يستطيع المساعدة في دار جنازة. ريّ الأزهار؟ تشغيل موسيقى الأرغن؟ أتمنى أن يتعب ويليام وشارلوت قبل التاسعة مساء. هذا أمر جيد يستطيعان تقديمه إليّ.

شكرتنا إليزابيت على كل ما فعلناه قبلاً، وأضافت: "أحبكما".

هذا لطيف. ولمتابعة لحظات الحب، قلت: "من المؤسف أن نحتاج إلى جنازة تجمعنا معاً هنا: أنت سوزان وأنا، وويليام وشارلوت، اللذان اشتقت إليهما كثيراً طوال هذه السنوات".

أظن أنني سمعت صوت دهشة من شارلوت، التي لم تفوّت ذلك، وسمعت حتماً شخيراً من ويليام. هيا. استرخيا واسمحا للحب بالسيطرة.

اقترحت سوزان أن نجلس، فأخذنا مقاعدنا خلف إليزابيت وولديها.

ثمة جنازات أفضل من الأخرى، ويرتبط ذلك جزئياً، مثلما قلت، بمن هو مسجّى في التابوت. كما أنك قد تلتقي بأشخاص لم ترهم منذ مدة، وتتواعدون معاً على التلاقي في مناسبات أكثر سعادة. إلا أن هذه الجنازة تعد بالموت. حسناً، حسناً.

أقصد، يبدو أنني لا أعرف أحداً هنا، أو أحداً داخلاً. يجدر بي الذهاب ربما إلى الجناح ب ورؤية ما يجري هناك.

إلا أن سوزان تعرف بعض الأشخاص، ووقفت مرات قليلة لإلقاء التحية على معزين واصلين، وكانت ترافق أحدهم بين الحين والآخر لإلقاء التحية عليّ أنا ووالديها.

عرف ويليام وشارلوت أيضاً بعض الأشخاص الكبار في السن، ونهضا وألقيا التحية على بعض منهم، ثم انسحبا إلى الجهة الخلفية من الجناح حيث اجتمع الكبار في السن، بعيداً عن المكان الذي وضع فيه التابوت، الذي أزعجهم ربما.

أذكر أنه عندما كنا في جنازة جورج، قبل عشر سنوات، وقف طاقم الخدم، الكبار في السن، أو من بقي منهم حينها، بأعداد جيدة أمام دار جنازة والتون لتقديم التحية الأخيرة لواحد منهم. أذكر أيضاً أن عدداً قليلاً من الرجال النبلاء وزوجاتهم قد حضروا الجناز. لكنني لا أرى الآن أحداً يمكن أن يكون من الطبقة المقابلة، وجعلني كل ذلك أدرك أن العالم القديم الذي كان يموت حين ولدت أصبح الآن ميتاً فعلاً ومدفوناً.

ثم دخلت عبر الباب سيدة عجوز مقعدة في كرسي متحرك تدفعها ممرضة ترتدي بذلة بيضاء اللون. رأتها سوزان وقالت لي: "إنها السيدة كوتر، التي كانت مدبرة المنزل الرئيسية عندنا. هل تذكرها؟".

لم أذكر أنه كان عندي مدبرة منزل، رئيسية أو غير رئيسية، ولذلك افترضتُ أنها تقصد ستانهوب هال. أجبتها: "أظن ذلك".

دُفعت السيدة كوتر للاقتراب من التابوت من قبل الممرضة، وبقيتا هناك لبعض الوقت، ثم استدارتا وتوجهتا نحو إليزابيت.

وقفت سوزان وأخذت يدي، وذهبنا إلى حيث كانت إليزابيت والسيدة كوتر تقفان الآن وجهاً لوجه، وأمسكت إليزابيت بيديّ السيدة العجوز بين يديها. كانتا تبكيان وتتحدثان عبر دموعهما المتساقطة.

السيدة كوتر معوقة، لكنها تبدو ذكية جداً وتعرفت إلى سوزان على الفور. ركعت سوزان قربها، وبدأت تذرف المزيد من الدموع المتدفقة فيما تحدثت النساء الثلاث عن إيثيل وجورج والماضي والحياة.

بدا أن هذا كل ما تبقى لهم من أمجاد الأيام الماضية في ستانهوب هال: السيد والسيدة السابقان يحتسيان الشراب في الجهة الخلفية من الجناح أ؛ وتحاول ابنتهما إعادة جمع بعض أجزاء تلك الأيام الجميلة؛ السيدة كوتر التي أذكرها كانت تدير مجموعة قليلة من الموظفين في منزل تم إغلاقه، غرفة تلو الأخرى؛ إليزابيت،

كانت الطفلة المزعجة في العقار. وإيثيل التي كانت في وضع تحسد عليه إذ لم تعد مضطرة إلى حضور المزيد من الجنازات.

قالت سوزان للسيدة كوتر: "تذكرين زوجي، جون ساتر".

رتبت السيدة كوتر نظاراتها وقالت: "ظننتُ أنك هربت مع امرأة أخرى".

الكبار في السن، فليباركهم الله، يستطيعون أن يقولوا كل ما يريدون قوله، حتى لو لم يكن ذلك صحيحاً. أجبتها بتهذيب: "لقد عدت".

"حسناً، لم يكن يجدر بك أبداً المغادرة أساساً. حصلت الآنسة ستانهوب على كل العرسان الذين رغبت بهم، ومن بعض أفضل العائلات".

حاول الجميع كبت ابتساماتهم، وتابعت السيدة كوتر، وهي سعيدة بفرصة التحدث إلى الآنسة ستانهوب: "إنها شابة راقية، وأتمنى أن تقدّرها".

"أفعل".

بدت السيدة كوتر مكتفية بترك الأمور عند هذا الحد، وقالت لها سوزان: "والداي هنا، سيدة كوتر، وأعرف أنهما يريدان إلقاء التحية عليك".

ثم حصل شيء غريب. قالت السيدة كوتر لسوزان: "شكراً، لكنني لا أرغب في التحدث إلى السيد ستانهوب".

حسناً، توقف العرض. ثم قالت السيدة كوتر لممرضتها: "نستطيع المغادرة الآن".

رافقتهما إليزابيت إلى الردهة، وعدت أنا وسوزان إلى مقعدينا.

لم أعرف ماذا أقول، ولذلك لم أقل أي شيء. لكنني ظننت أن ويليام كان على الأرجح مدير عمل صعب، وغير كريم في دفع أجور الخدم. سررت لأنّ رأيي المتواضع بويليام صادقت عليه السيدة كوتر بحضور ابنته.

قالت سوزان: "أذكر بعض النفور بين البابا والسيدة كوتر".

لإضافة المرح إلى الأمور، قلت لها: "لا شك في أنها وضعتني في مكاني المناسب".

ابتسمت سوزان وقالت: "لا تذكر، لكنها كانت تستلطفك. قالت إنه يجدر بي الزواج بك".

توقفنا عند هذا الحد، وعدتُ إلى توزيع انتباهي بين ساعتي والمعزين الواصلين. لاحظتُ الآن بعض الأشخاص الذين يبدون بوضوح أنهم أصدقاء لإليزابيت، ذكوراً وإناثاً، وكذلك بعض النساء اللواتي ارتدين ثياباً بشعة جداً، وقد يكنّ من زبائنها. أعتقد أنه تمت برمجتي منذ الطفولة على الازدراء بالأغنياء الجدد، لكنهم يوفرون بأنفسهم فرصة للآخرين للسخرية منهم. أقصد أنهم مزيج سيئ من المال الخالي من الذوق، والاستهلاك الكبير من دون قيود. ويبدو أنهم يسيطرون على جزء من هذا العالم.

بعد نصف ساعة تقريباً، شعرت بالضجر، ولذلك لم ألاحظ أن أمي وصلت إلا حين أدركت أن سوزان تتحدّث إلى هارييت، الواقفة مع إليزابيت في الصف الأول.

نظرت إليّ هارييت وسألتني: "ألن تقول لي مرحباً، جون؟".

الحقيرة. وقفت واعتذرت: "آسف، أمي. كنت غارقاً في الدعاء".

ابتسَمت لذلك، ثم تابعت الثرثرة مع سوزان وإليزابيت.

بالمناسبة، كانت هارييت ترتدي فستاناً من القطن الخشن متعدد الألوان، وأنا واثق من أنه فستان الحزن لدى قبيلة لعينة، تعيش في غابة لعينة، في بلد لعين في مكان ما. كانت هارييت متعددة الثقافات قبل أن تصبح على الموضة، وتستفيد من أي ثقافة، طالما أنها ليست ثقافتها.

لذا، قبل أن تبدأ بالرقص حول التابوت ورمي الموز المحترق في الهواء أو ما شابه، اعتذرتُ وهربتُ إلى قاعة الجلوس. كان طوم ولورانس يستريحان، وجلست معهما. قلت: "اشرحا لي مجدداً كيف يمكن أن تكونا شريكين، وتعملان في مجالين مختلفين".

قهقهنا جميعاً، واعترف طوم: "كنت أظن أن حماتي آتية من الجحيم، فليرحمها الله، لكن حمويك آتيان من قلب نار الجحيم".

أجبته: "أوه، ليسا بهذا السوء".

قال طوم: "حسناً، أنا أتقيد فقط بما كانت تقوله لي إليزابيت، ولا بد من أنني سمعت ذلك من إيثيل. لذا، أنا آسف إذا لم أجد التعبير".

اعترفتُ: "ليسا شخصين محبوبين، لكنهما يملكان بعض المزايا الجيدة". لم أكن في مزاج سيئ جداً، ولذلك شرحت: "إنهما غنيان وكبيران في السن".

ضحكا بقوة، وقال طوم: "حسناً، تهانينا الكبيرة على زواجك القادم".

جلستُ بعدها هناك أتحدث قليلاً مع طوم ولورانس، وأنا مسرور بصحبتهما. دخل ويليام بعدها إلى قاعة الجلوس الكبيرة برفقة رجل آخر كبير في السن، ورآني، لكنه لم يعرني انتباهه. حسناً، لن يمنعني ذلك من أن أكون مهذباً ومحترماً مع حميّ المستقبلي، ولذلك رفعت يدي وأشرت له بإصبعين.

استدار ويليام وجلس مع صديقه بعيداً.

سألني طوم: "هل ستغادر؟".

"لا".

"أوه، ظننت أنك أعطيت ويليام للتو إنذار الدقيقتين".

"لا، كنت أرفع إشارة السلام. وأرفع أحياناً الإصبع الوسطي فقط".

ظن طوم ولورانس أن هذا مضحك، فتوسعت في الموضوع وقلت: "حين كنت أواعد سوزان، كنا أنا وويليام نتجادل بشأن حرب فيتنام، وكنت أرفع إشارة

السلام، فيرفع هو إشارة النصر، وهما الشيء نفسه. صح؟ حسناً، ضحكنا قليلاَ، ثم رفعت الإصبع الوسطي، الأمر الذي لم يجده ممتعاً، فهزّ سبابته بمثابة إنذار من أنني أضايقه، فأبدأ بهز إصبعي الوسطي - هكذا - للسخرية من سبابته الصغيرة".

كان طوم ولورانس يضحكان، وبدأ الناس يلاحظون ذلك، بمن فيهم ويليام، وكذلك الأب جايمس هانينغس، الذي رأيته للتو، والذي بدا لي وكأنه على وشك هزّ إصبعه لي. على أي حال، يجدر بي المغادرة، فاعتذرت.

بالعودة إلى الجناح أ، جلست في الجهة الخلفية، وراقبت الوافدين والمغادرين. كانت رائحة الأزهار طاغية، وحاملات المصابيح الجدارية تكشف عن أنوار غبية يمكن أن تؤدي إلى نوبة تشنج.

عادت ذاكرتي إلى جنازة جورج مجدداً، وتذكرت أن فرانك بيلاروزا كان حاضراً، مما سبب القليل من البلبلة في الحشود. أقصد، لا يأتي كل يوم سيد المافيا إلى دار جنازة والتون، وتساءلت ما إذا عرف المعزون أنه أتى إلى هنا لأجلي. ولأجل سوزان طبعاً. أتمنى أن يكون الجميع قد ظنوا أن بيلاروزا حضر الجناز لأنه كان يسكن في العقار المجاور.

على أي حال، وصل فرانك مع آنا وركعا أمام التابوت، على الطريقة الكاثوليكية، ورسما إشارة رمز ديني، وأحنيا رأسيهما للصلاة. أقسم أنني رأيت جورج يحاول التململ. وبعد تأدية تحية الاحترام للميت، استدار آل بيلاروزا وصافحا جميع من كان موجوداً في الصف الأمامي، وقدّما تعازيهما، وغادرا لحسن الحظ.

لا أعرف لماذا جاءا أساساً، سوى علمي بأن الإيطاليين لا يفوّتون أبداً جنازة، مهما كانت العلاقة التي تربطهم بالشخص المتوفي بعيدة. عليهم تصفح صفحة الوفيات كل صباح، ومن ثم الاتصال لمعرفة إذا ما كان أحدهم على اتصال بأنجيلو كاسياتوري، أو أي كان، ثم يتخذون قرارهم بالذهاب إلى الجنازة لعدم رغبتهم في إهانة العائلة. حتى ولو لم تكن عائلتهم.

على أي حال، امتلك فرانك بيلاروزا حوافز أخرى للابتعاد نصف ساعة عن حياته الجرمية المنشغلة للمجيء إلى جنازة جورج ألارد، وإرسال باقة أزهار كبيرة. أراد إقحام نفسه في حياتي وحياة سوزان. في الواقع، كان يتلاعب بأحدنا، وفي تلك المرحلة، لم أكن أنا.

لكنني وعدت سوزان بأنني لن أفكّر في هذه الأمور، ولذلك فكّرت بدلاً من ذلك في الأمور السعيدة، مثل رؤية إدوارد وكارولين، والتواجد مع سوزان مجدداً، والمغطس المنزلق في حمام الضيوف عند آل ستهانوب.

بعد عشرين دقيقة تقريباً، نهضت وتحققت من باقات الأزهار المعلقة على الجدران. تعرفت على الكثير من المرسلين، بما في ذلك زميليّ القديمين جيم وسالي روزفلت، اللذين لن يأتيا إلى نيويورك لحضور دفن إيثيل ألارد، بالرغم من أنهما يعرفان آل ألارد منذ أربعين عاماً. وفي هذه الخانة أيضاً تأتي أختي

إميلي، التي تمنيت لو أنها تمكنت من الحضور، لمجرد الاجتماع العائلي، لكن إميلي لا تعير اهتمامها لأي علاقة مع هذا العالم، وقد قررت قبل زمن بعيد أن أمنا مجنونة، وأن كل من عاش هنا كان عالقاً في الماضي غير السليم.

وبالحديث عن هارييت، عرفت مباشرة أن نبتة الخبازى الموضوعة في إناء فوق منصة هي حتماً مقدّمة منها. هارييت نباتية جداً، ولذلك لا يحصل أحد على أزهار مقطوفة منها. تحضر أو ترسل في المناسبات عادة باقة من البقدونس أو الشبث، أو ما شابه. إنها مجنونة، لكنها لم تحضر على الأقل باقة بندورة إلى دار جنازة والتون.

رأيت باقة كبيرة جداً كتب على بطاقتها إنها من جون وسوزان، وكارولين، وإدوارد، وويليام وشارلوت وبيتر. أعرف سبب تواجد الأسماء الأربعة الأولى على البطاقة، لكنني لا أعرف لماذا لا يستطيع الحقير ويلي، والمجنونة شارلوت وعديم الفائدة بيتر إرسال أزهارهم الخاصة. مجرّد كتابة أسمائهم قرب أسمائنا على البطاقة نفسها سبب لي تشنجات في المعدة. كيف سأمضي بقية حياتي برفقة ويليام وأن أتصرف معه بلطافة؟

نظرت إلى باقات الأزهار الأخرى، وكان لطيفاً قراءة أسماء عدد من رجالات الأيام القديمة، أسماء أشخاص انتقلوا إلى مكان آخر، لكنهم سمعوا بموت إيثيل ألارد، التي بالرغم من كل عيوبها، كانت سيدة تقية، وصديقة جيدة لبعض رجالات النخبة، وواحدة من آخر روابط أيام العقارات الكبيرة والسيدات والرجال النبلاء الذين عاشوا في عالم كرهته، وإنما كانت جزءاً منه بطريقة أكثر مما أدركت.

ألقيت نظرة سريعة على بطاقات بعض باقات الأزهار الأخرى، ثم وجدت نفسي أحدق إلى بطاقة صغيرة ملصقة على باقة كبيرة جداً من السوسن أبيض اللون. كتب على البطاقة أصدق التعازي مع توقيع أنطوني وميغان وآنا والعائلة.

الفصل الثاني والخمسون

مكثنا في المكان إلى أن أصبحت إيثيل الشخص الوحيد الباقي في الجناح أ.

رافقنا إليزابيت إلى سيارتها، مع ابنتها وابنها، وسألتها سوزان: "هل تودين الانضمام إلينا في المنزل لتناول العشاء؟".

اعتذرت إليزابيت، لكنني ألححت عليها، لأنني أردت الحصول على رفقة كي لا أضطر إلى التحدث مع آل ستانهوب.

شعرت إليزابيت بذلك، لكنها أخبرتنا أن طوم ولورانس سيزورانها، الأمر الذي اعتبرته حضارياً جداً، ولذلك قررنا دعوتهما أيضاً، واتصلت إليزابيت بطوم عبر هاتفه الخلوي، وكان مسروراً هو ولورانس بالانضمام إلينا. أحب الحفلات العفوية، واقترحت على إليزابيت: "دعينا ندعو العم... ما كان اسم عمك؟".

حذرتني سوزان: "لا نريد إغراق صوفي بالعمل".

لم يكن آل ستانهوب مسرورين أيضاً بهذه الصحبة، مما جعلني سعيداً.

هكذا، انطلقنا جميعاً، وقرابة التاسعة والنصف، اقتربتُ من بوابات ستانهوب هال.

لا يزال جهاز التحكم عن بعد خاصتي يعمل، لكن فيما اقتربتُ من البوابات المفتوحة، خرج رجل شاب، يرتدي بذلة سخيفة لونها أزرق سماوي، من منزل الحراسة - الذي أصبح الآن منزل رجال الأمن – وأشار بيده.

توقفتُ، وسألني: "تريد زيارة من هنا؟".

أجبته: "أنا. تريد زيارة من أنت هنا؟".

أبلغته من أكون وطلبت منه ترك البوابات مفتوحة أمام السيارتين التاليتين، ثم تابعت طريقي في الظلمة.

علّق ويليام: "حسناً، هذا شيء جيد. لا يستطيع المرء الدخول حتى إلى ملكيته. في المكان الذي نسكن فيه، بالميتو شورز، يعرف كل رجل أمن كل واحد من السكان وسياراتهم. أليس هذا صحيحاً، سوزان؟".

أجابت سوزان: "بدأ السيد نسيم هذه الخدمة للتو، بابا".

لكن ويليام تابع، وراح يمدح فردوسه المحمي هو وشارلوت، وسوزان حسبما أظن. أحتاج فعلاً إلى احتساء كأس. والأهم من ذلك، أظن أن سوزان سئمت أصلاً ماما وبابا، بالرغم من وصولهما قبل أربع ساعات فقط.

لكن لكي أكون لطيفاً، قلت للجميع: "أتطلع فعلاً لكي أذهب أنا وسوزان إلى هيلتون هيد. تبدو بالميتو شورز رائعة".

ساد الصمت في الجهة الخلفية من السيارة، فتابعت السير، وركنت السيارة، ودخلنا جميعاً إلى المنزل.

اتصلت سوزان مسبقاً بصوفي، التي كانت في المطبخ تحاول إعداد طعام كافٍ لتسعة أشخاص؛ أو عشرة، إذا استطعنا الاتصال بالعم الذي لا أعرف اسمه.

أنجزت عملي وأعددت المشروبات على طاولة المطبخ، فيما ساعدت سوزان صوفي. لكن ويليام وشارلوت، كالعادة، كانا عديميّ الفائدة وجلسا في غرفة الجلوس مع الشراب رقم خمسة.

وصلت إليزابيت مع طوم جونيور وبيتسي، وسألت إليزابيت: "ماذا يجري في منزل الحراسة؟".

شرحت لها سوزان الأمر فيما أعددت أنا مشروبات للجميع، وقالت إليزابيت: "هذا محزن... لكنني ما زلت أملك ذكريات جميلة تخص المكان". ثم سألتني إليزابيت إذا كنت أحتفظ بشراب توسكاني أحمر اللون، مما ذكرني بموعدنا الأول والأخير. طلبت من ولديها رفع يديهما اليمنيين والقسم أنهما تجاوزا الحادية والعشرين، مما رسم الابتسامة على وجهيهما ووجه أمهما.

خطرت في بالي فكرة رائعة، وذهبت إلى غرفة الجلوس وأحضرت صورة مؤطرة لكارولين وإدوارد وقلت: "سيصلان إلى هنا مساء غد. تستطيعون ربما أنتم الأربعة الخروج معاً".

قالت سوزان: "جون".

يعني ذلك شيئاً مختلفاً كل مرة، لكنه يعني عادة "اخرس".

إلا أن إليزابيت قالت: "سيكون ذلك لطيفاً".

وصل طوم ولورانس، وتوجب عليّ شرح مسألة الحراس والإيراني المصاب بجنون الارتياب. ظنا كلاهما أن الأمر مثير للحماس، لكنني لاحظتُ أن إليزابيت بدأت تفهم أن هناك شيئاً أكثر من ذلك، فألقت نظرة على سوزان، ومن ثم عليّ، وأومأتُ لها برأسي.

أعطاني ذلك فكرة أخرى رائعة وقلت لسوزان: "فلنتصل بآل نسيم ونطلب منهما الحضور إلى هنا".

"لا أعرف ماذا يأكلان أو يشربان".

"سأطلب منهما إحضار طعامهما الخاص. سيحب السيد نسيم التحدث إلى والدك عن ستانهوب هال".

"لا أظن أن والداي يتحملان هذا العدد من الزوار".

لهذا السبب أردت دعوة آل نسيم. قلت لها: "قد يشعر أمير وسهيلة بالإهانة إذا لم ندرجهما في طقوسنا الجنائزية". ثم سألت إليزابيت: "هل تمانعين؟".

أجابت: "على الإطلاق. عرفا أمي لمدة تسع سنوات، وكانا دائماً لطيفين معها".

"جيد".

كان لورانس يتابع الحديث وسأل: "هل نستطيع سؤاله عمن يريد قتله، ولماذا؟".

أجبته: "طبعاً. إنه منفتح جداً في هذا الموضوع".

شعرت أن الميزان يميل إلى صالحي، لكن سوزان قالت: "لا. ربما في وقت آخر".

سيفوّت آل ستانهوب إذاً على نفسيهما تجربة التعايش مع تعدّد الثقافات. قد أدعو آل نسيم للعشاء وأدعو أمي أيضاً. إنها تحب شعوب العالم الثالث، وستكون فخورة بي لأنني أصاحب أصدقاء إيرانيين.

على أي حال، في العاشرة والنصف، كنا جميعاً جائعين قليلاً وجلسنا في غرفة الطعام وتناولنا أطباق السلطات الباردة والساخنة، التي خشيت أن تناسب ويليام وشارلوت. أصررت على أن يجلسا في الطرفين المقابلين من الطاولة، وحرصت على عدم جلوس أحد بقربهما يستطيعان التحدث إليه، فجلسنا أنا وسوزان وإليزابيت في الوسط، وأجلست طوم ولورانس على جانبيّ ويليام، وطوم جونيور وبيتسي على جانبيّ شارلوت. أنا بارع في ذلك.

اعتذر ويليام وشارلوت باكراً، وعرفت أنهما سيفعلان ذلك، وفي منتصف الليل غادر الجميع وبقينا أنا وسوزان وصوفي ننظف المنزل.

قلتُ لسوزان: "كان هذا جميلاً. بدا وكأن الجميع أمضى وقتاً جيداً".

وافقت سوزان: "كان فعلاً جميلاً".

"بدا والداك هادئين قليلاً".

"كانا متعبين".

"أظن أننا نفدنا من الشراب الخاص بهما".

"سأحضر البعض غداً". نظرت إليّ وابتسمت وقالت: "هذا مثل الأيام القديمة".

"صحيح". لكن هذا ليس صحيحاً.

تعانقنا وتبادلنا القبلات، مما جعل صوفي تبتسم، وقالت لي سوزان: "أنا سعيدة جداً، جون، وإنما أيضاً حزينة".

"أعرف".

"لكنني أعرف أننا نستطيع التعويض عن كل السنوات الضائعة".

"سنسهر ساعتين إضافيتين كل ليلة".

"ولا نهمل أبداً بعضنا، ونتصل ببعضنا مرتين يومياً، ولا نعمل لوقت متأخر في المكتب، ولا نسهر خارجاً مع الفتيات...".

"هل تقصِدين أنا أو أنتِ؟".

“كن جدياً. وسندعو أمك إلى العشاء مرة في الأسبوع...”.

“توقفي”.

“ونلتقي بكارولين في المدينة لتناول العشاء وحضور عرض ما، ثم نسافر إلى لوس أنجلوس مرة كل شهر لرؤية إدوارد”.

“نسيتِ هيلتون هيد”.

“سنفعل ذلك أيضاً. وسترى جون أن والديّ سيتقبلانك. لن يحبانك أبداً مثلما أحبك أنا، لكنهما سيتوصلان إلى احترامك، وحين يريان كم أنا سعيدة، سيكونان بخير”.

لم أجب.

قالت: “اعترف أن الليلة لم تكن سيئة مثلما توقعت”.

“اختل توازن عقلي قليلاً بسبب احتساء المشروبات، ولم يكن يجدر بنا سماع الكثير من الأخبار المتعلقة بدان، وكان بوسعي التخلي عن الأسئلة السخيفة، أو المحاضرة عن العمل بكدّ للتسامح... وإنما باستثناء ذلك، كان اللقاء جميلاً”.

قالت لي: “كان يمكن أن يكون أسوأ. غداً سيكون أفضل”.

“ويوم الاثنين سيكون أفضل من كل ذلك”.

قبلتني وقالت: “سأصعد إلى الأعلى”.

“سأتحقق من الأبواب”.

صعدت سوزان إلى الطابق العلوي، وتحققت أنا من الأبواب والنوافذ، وتأكدتُ من تشغيل الأنوار الخارجية. قلت من ثم تصبحين على خير لصوفي، وأخرجت البندقية الصغيرة من علبتها، وصعدتُ إلى غرفة النوم الرئيسية.

كانت سوزان تطالع في السرير، وألقت نظرة خاطفة إلى البندقية الصغيرة، لكنها لم تعلّق.

كنت قد حشوت البندقية الكبيرة قبلاً برصاص الطرائد الثقيلة في أسطوانة، ورصاص الغزلان في الأسطوانة الأخرى، وأخرجت البندقية من خزانتي، وحملت سلاحاً في كل يد ثم سألت سوزان: “هل تفضلين النوم مع السيد بيريتا أو السيد وينشستر؟”.

تابعت قراءة مجلتها وقالت: “لا أهتم”.

وضعتُ البندقية الصغيرة قرب منضدتها الصغيرة، ووضعتُ البندقية الكبيرة إلى جانبي من السرير. قلت لها: “سيتم تركيب جهاز إنذار كامل خلال أسبوع تقريباً”.

لم تجب، ولذلك غيّرت الموضوع وسألتها: “هل سنحت لك فرصة النظر إلى باقات الأزهار؟”.

"نعم".

"حسناً. إذاً؟".

"رأيتها".

قلت لها: "لا أقرأ الكثير فيها. ذكرتُ مرض إيثيل حين كنت موجوداً هناك يوم الأحد، وتذكرتها آنا. وأنطوني ليس في المنزل. لذا، أظن أنه تصرف لطيف من آنا وميغان".

"أو ربما رسالة شكر على تمزيق اللوحة".

فكرتُ في ذلك وقلت: "أنا واثق من أن أنطوني رآها أولاً، وتخلص منها".

لم تجبني أيضاً. لذا، خلعتُ ثيابي وارتديت قميصي القطني من جامعة يال.

سألتني سوزان: "هل سأرى هذا كل ليلة؟".

"هذا أنا".

"فليساعدك الله".

أظن أنها مزحة. لكنها قريبة من التجديف.

صعدتُ إلى السرير، وقرأت واحدة من الجرائد المحلية التي تحضرها صوفي معها كل صباح لتحسين لغتها الإنكليزية، وأظن أن هذا يبرر بعض مشاكلها في اللغة.

على أي حال، كنت أبحث تحديداً عن مقالة حول جون غوتي، وعثرت على فقرة صغيرة تقول إن جثة السيد غوتي وصلت من ميسوري، وهي مسجاة في تابوت مقفل في دار جنازة بابافيرو، في قسم ماسبيث من الكوينز. أوحت المقالة أنه لا توجد زيارة عمومية للجثة، وأن أوقات الدفن غير محددة، لأن أسقفية بروكلين حرمت السيد غوتي من احتفال ديني عمومي.

بدا هذا غير متناسق قليلاً مع رسالة التسامح، لكنها كنيستهم ويستطيعون فعل ما يريدون. بالرغم من ذلك، شعرت أنها خطوة سيئة في العلاقات العامة، ويحتمل أن تحدث ردة فعل عكسية، وتولّد تعاطفاً عاماً مع جون غوتي.

الأهم من ذلك بالنسبة إليّ، بدا وكأنه لن تكون هناك جنازة طويلة واحتفال ديني، ولذلك قد يشعر أنطوني بيلاروزا أنه غير محتاج للظهور علناً هذا الأسبوع. يجدر بي ربما إرسال بريد إلكتروني إلى أسقفية بروكلين أشرح فيها أنني أنا والأف بي آي وشرطة نيويورك نرغب فعلاً في رؤية كل الرفاق الذين سيأتون إلى الجنازة والدفن.

على أي حال، تبقى المشاريع المستقبلية لدفن السيد غوتي وروحه الأزلية في انتظار المزيد من المفاوضات، حسبما أظن. يجدر بشخص ما أن يقدم ربما هبة كبيرة للأسقفية. لقد فعل أحدهم ربما، ولا يزال الكاردينال ينتظر المزيد.

المصادفة أن فرانك بيلاروزا لم يواجه مثل هذه المشاكل. أنا واثق من أن روحه شريرة بقدر روح السيد غوتي، لكن فرانك كان يفكر مسبقاً. وأظن أيضاً أنه شعر بموته الوشيك، وإن لم يحصل بالطريقة التي توقعها.

أذكر بوضوح أنه في اليوم الذي تلا حفلة المافيا في البلازا، عبرنا أنا وفرانك، مع ليني وفيني وسيارة كاديلاك سوداء اللون كبيرة، النهر الشرقي وتوجهنا إلى قسم ويليامسبورغ في بروكلين، حيث ترعرع فرانك. ذهبنا إلى دار العبادة التي كان يزورها في فترة الطفولة، سانتا لوسيا، وشربنا القهوة مع ثلاثة رجال دين إيطاليين كبار في السن أخبرونا كم يصعب الحفاظ على دار عبادة قديمة في منطقة متغيرة، وما إلى ذلك. الخلاصة في هذا أن فرانك كتب شيكاً بخمسين ألف دولار، وأظن أن هذا الشيك أجدى نفعاً، لأنه حين جاءت ساعة فرانك - ألقيت نظرة على سوزان - بعد أشهر قليلة، لم تكن هناك مشكلة في إقامة احتفال ديني له في سانتا لوسيا.

لكن الأوقات تتغير، ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية سئمت من إقامة الاحتفالات الدينية للأشخاص غير المرغوب فيهم في رعيتها، علماً أن هؤلاء الأشخاص هم أكثر من يحتاجون إلى الرحمة.

فكرت أيضاً في جنازة إيثيل في دار والتون، واحتفالها الديني التالي في دار عبادة القديس مرقص، التي يرأسها الأب جايمس هانينغس، ومن ثم دفنها في مقبرة ستانهوب الخاصة. لن يكون موت إيثيل ألارد خبراً وطنياً مثلما هو موت جون غوتي، أو موت فرانك بيلاروزا قبله.

هذا منطقي، طبعاً، حتى لو لم يكن عادلاً. إذا عشت كبيراً، تموت كبيراً.

قالت سوزان: "تصبح على خير"، وأطفأت المصباح قربها.

قرأت الجرائد المحلية لبعض الوقت الإضافي، ثم قبّلت أميرتي النائمة، وربّتُّ على بندقيتي، وأطفأت مصباحي.

الفصل الثالث والخمسون

أشرق صباح يوم الخميس مع سماء ملبدة بالغيوم وتساقط للمطر. تمنيتُ طقساً جيداً حتى يخرج آل ستانهوب ويلعبان خمس جولات من الغولف.

سوزان، المضيفة المثالية والابنة المحبة، كانت في الأسفل، ولاحظتُ أنه تم وضع الأسلحة في مكان آخر، كي لا ينزعج الضيوف أو الموظفون الذين قد يرغبون في ترتيب أسرّتنا أو تنظيف الحمام. أحتاج فعلاً إلى جعل صوفي مرتاحة مع الأسلحة. قد أعلّمها دليل استخدام الأسلحة، ومواقع التصويب الخمسة.

استحممت، وارتديت ثيابي، ونزلت إلى المطبخ حيث حضّرت سوزان إبريقاً من القهوة وفطوراً عالمياً وضعته فوق طاولة المطبخ.

تعانقنا وتبادلنا القبلات، وسألتها: "هل يقوم أهلك بجولة خارجاً؟".

"لم ينزلا بعد، لكنني سمعتُ حراكهما".

"هل يجدر بي حمل الشراب لهما؟".

تجاهلت ذلك - ولا ألومها - وقالت: "تحققت من بريدي الإلكتروني، وستصل كارولين في قطار الساعة 6:05، وستستقل سيارة أجرة من المحطة". أخبرتني من ثم عن مواعيد رحلة إدوارد وبعض الأمور الأخرى التي أحتاج إلى معرفتها، وكنت مسروراً لمعرفة أننا لن نذهب إلى دار جنازة والتون بعد الظهر. أنا واثق من أن إيثيل تودّ تفويت كل جنازتها، لكن عليها التواجد هناك، فيما نحن لا، وأنا واثق من أنها لن تلاحظ.

على أي حال، سكبتُ القهوة لنفسي ولسوزان، التي ألحت عليّ مشاركتها في تناول الفيتامينات، لكنني رفضت بتهذيب. إلا أنني غرزت أسناني في قطعة مافن بالغرانولا.

جلسنا أمام الطاولة، ورحت أقرأ الجرائد المحلية الثلاث التي أحضرتها صوفي، ولاحظت أن السيد غوتي لا يزال مسجى في دار جنازة بابافيرو. لا يزال التابوت مغلقاً، ويُسمح فقط للعائلة بالزيارة. إلا أن هناك بعض الحديث عن احتفال ديني خاص في دار عبادة المقبرة، بناء على دعوة موجهة فقط، على أن يحدد الوقت والتاريخ والمكان لاحقاً. حسناً، هذه خطوة في الاتجاه الصحيح. لقد تلقت أسقفية بروكلين ربما بعض نيران المدفعية من عصبة لاكوسا نوسترا المناهضة للافتراء. تساءلتُ أيضاً إذا تمت دعوة أنطوني بيلاروزا وسالفاتور داليسيو.

وقفت وتوجهت إلى الهاتف المعلق على الجدار وسألت سوزان: "بمن تتصل؟".

"بفيليكس مانوسكو".

"لماذا؟".

"للحصول على معلومات جديدة". طلبت رقم الهاتف الخلوي للسيد مانوسكو، وأجاب، فقلت له: "مرحباً، أنا جون ساتر".

"صباح الخير".

"ولك أيضاً. انظر، لا أريد أن أكون مزعجاً، لكنني أتساءل إذا ما سمعتَ أي شيء عن مكان تواجد أنطوني أو أي أخبار قد تفيدني؟".

أجابني: "كدت أتصل بك. لكنني مسرور لأنك اتصلت. تلقيت رسالتك واستمعت إلى فحواها عن لقائك الصدفة بسائق بيلاروزا، طوني روسيني - هذا اسم شهرته - ونحن نتابع ذلك".

هذا كل ما كنت سأحصل عليه من فيليكس مانوسكو، ولم أشأ التوسع في الموضوع مع وجود سوزان في الغرفة، فأخبرته بشيء لا يعرفه. "كنت البارحة في جنازة إيثيل ألارد، التي أخبرتك عنها، وكانت إحدى باقات الأزهار هناك - باقة جميلة من السوسن أبيض اللون - موقعة من أنطوني وميغان وآنا والعائلة".

بقي السيد مانوسكو صامتاً لبرهة، ثم قال: "اسم زوجته وأمه على البطاقة. لذا، لا أقرأ الكثير في ذلك".

هذه هي فكرتي أيضاً، وأنا مسرور لأنه أكدها. لكن لتقدير السبب الحقيقي وراء هذا التصرف، سألته: "اشرح أرجوك".

شرح لي: "حسناً، لو تم توقيعها فقط باسم أنطوني، لكان يبعث لك برسالة، ولزوجتك".

"ليست هذه جنازتنا".

"حسناً، هذه الرسالة".

"ألا وهي...؟".

"تعرف. انسَ الأمر".

"حسناً". أنا مسرور فعلاً لأن فيليكس مانوسكو يقدّم تفسيرات ثقافية إليّ. سألته: "هل تلقيتَ رسالتي عن أمير نسيم وتركيبه جهاز إنذار كامل هنا؟".

"نعم. هذا جيد للجميع".

"حسناً، ليس جيداً للقتلة الإيرانيين أو الإيطاليين".

"لا، ليس جيداً لهم".

سألته: "هل طلبتَ من أمير نسيم فعل ذلك؟".

أجاب السيد مانوسكو: "توصل بنفسه إلى استنتاجاته".

"حسناً... لكن هل الخطر عليه حقيقي؟".

"لديه أعداء".

لا جدوى من متابعة ذلك، ولذلك أبلغته: "وصل والدا سوزان وهما في المنزل".

"هل أخبرتهما عن مخاوفك؟".

"لا. نقول لهما إن إجراءات الأمن لها علاقة بآل نسيم".

"حسناً. لا جدوى من إخافتهما".

قلت له: "تقترح إذاً أن يذهبا إلى مكان آخر".

"لا، لم أقل ذلك".

"حسناً، سأناقش ذلك مع السيدة ساتر".

بعد ثوانٍ قليلة، ضحك السيد مانوسكو وقال: "يجب أن تعمل معنا".

"شكراً. سأنقل ذلك".

أبلغني: "أجريتُ حديثاً لطيفاً مع السيدة ساتر البارحة".

"أخبرتني".

تابع القول: "أظن أنها تتفهم الوضع، وهي يقظة وإنما غير خائفة".

"جيد. هل أخبرتها أنني أريد اقتناء كلبٍ؟".

ضحك مجدداً وأجاب: "أطلب من زوجتي الإذن لاقتناء كلب منذ عشرين عاماً".

"لا يحاول أحد قتلك".

"في الواقع، بلى. لكن هذا جزء من عملي، وليس جزءاً من عملك".

"أتمنى ذلك".

قال لي: "أنا متأثر بشجاعة السيدة ساتر".

"جيد. وأنا أيضاً. وهي أيضاً متأثرة بك".

"جيد. حسناً، هل من شيء آخر أستطيع فعله لك؟".

"نعم. كنت أقرأ في الجرائد المحلية عن جون غوتي وأسقفية بروكلين وكل ذلك. هل رأيت ذلك؟".

"نعم".

"إذاً، كيف يؤثر ذلك في ظهور أنطوني المحتمل في الجنازة والدفن؟".

"حسناً، لن تكون هناك جنازة عمومية، ولذلك سيغيب كل أصدقاء السيد غوتي وشركاؤه عن ذلك. لكن سيكون هناك احتفال ديني صغير وخاص عند الظهر في دار عبادة مقبرة القديس جون في الكوينز يوم السبت. سنرى من سيأتي إلى هناك".

لم تذكر الصحف أي شيء عن الوقت أو المكان أو التاريخ، لكنني أظن أن العميل الخاص مانوسكو لديه مصادر أفضل من النيويورك بوست. قلت له: "المصادفة أنني سأذهب إلى الاحتفال الديني الخاص بإيثيل ألارد ودفنها يوم السبت هنا في لوكوست فالي. لذا، أخشى ألا أتمكن من توديع جون غوتي".

"لا أظن أنك ستُدعى، سيد ساتر".

"في الواقع، تمت دعوتي. من قبل أنطوني".

"حقاً؟ حسناً، سأكون هناك، بصفتي ضيفاً غير مدعو، وإذا رأيتُ هناك أي شخص تعرفه، سأتحدث إليه نيابة عنك".

"شكراً. واتصل بي من فضلك".

"سأفعل".

قلت له: "بمناسبة الحديث عن الموتى، أخبرتني آنا بيلاروزا أنها تزور هي وأولادها الثلاثة قبر البابا في كل يوم أب". ألقيت نظرة على سوزان، التي كانت تستمع إلى حديثي، لكنها عادت الآن إلى قراءة الجريدة. تابعت القول: "لذا، قد يكون هذا وقتاً ومكاناً جيدين للبحث عن أنطوني".

أجاب السيد مانوسكو: "فكرة جيدة. سنضاعف المراقبة حول منزل بيلاروزا ومنزل أمه في بروكلين يوم الأب".

رأيت أن هذا سيكون جيداً إذا شعر أنطوني بأن عليه التواجد قرب قبر والده يوم الأب - للاستلهام ربما، أو لتفادي الصراخ من ماما ربما. وسيكون هناك طبعاً عشاء في منزله، أو منزل الماما. لكن أنطوني ليس غبياً جداً ليذهب إلى منزله أو منزل ماما - لكنه قد يذهب إلى المقبرة. ذكرت السيد مانوسكو: "مقبرة سانتا لوسيا".

"أعرف. كنت هناك". بقي صامتاً لبرهة، ثم ذكّرني: "ذهبتَ إلى جنازة فرانك بيلاروزا ودفنه".

"نعم".

"لماذا؟".

"يجدر بنا شرب بعض شراب الشعير معاً ذات مرة".

"أودّ ذلك".

"جيد. هل أنت على اتصال بالشرطة المحلية؟".

"تحدثنا أنا والتحري ناستاسي الليلة الماضية".

"أنا مسرور لسماع ذلك. هل ما زلتَ معنياً بهذه القضية؟".

"إلى أن يتم حلها".

"رائع. كيف حال الحرب على الإرهاب؟".

"جيدة جداً اليوم".

"حسناً، لا يزال الوقت باكراً".

أبلغني: "كل يوم لا يحصل فيه شيء هو يوم جيد".

"أعرف الشعور".

انتهى حديث العمل بيننا، فأنهينا الاتصال مع وعد بالتحدث مجدداً، ثم جلستُ وتأملتُ قطعة المافن بالغرانولا. قلت لسوزان: "طعمها مضحك".

"إنها مصنوعة باللبن. ماذا كان يقول في النهاية؟".

أخبرتها، لكنني قررت عدم ذكر اقتراح السيد مانوسكو بأن يغادر والداها المنزل. أو هل كان اقتراحي؟ على أي حال، رأيت أنه يجدر بي التشبث بذلك، واستخدامه إذا أصبح آل ستانهوب لا يطاقان. ولا أريد طبعاً إخافة الجميع، وخصوصاً إدوارد وكارولين.

لكن سوزان سألتني: "ماذا كان يقول عن والديّ؟".

"أوه، قال إنه إذا سمع شيئاً يبدل درجة الخطر علينا، ينصحنا بأن نطلب من والديك الانتقال إلى مكان آخر".

فكرت في ذلك ثم قالت: "سيكون مزعجاً جداً إذا اضطررت إلى أن أخبر إدوارد وكارولين عن مشكلتنا، والطلب منهما النوم في مكان آخر".

"ليست هذه مشكلة. قال السيد مانوسكو إن الولدين سيكونان في أمان هنا. يتوجب فقط على والديك المغادرة".

"لا أفهم...". ثم فهمت وقالت لي: "جون، ليس هذا مضحكاً وليس لطيفاً".

"آسف، إنها فكرتي". ثم اقترحت عليها: "فكري في الأمر. احتمال أقل للتصادم. وفرصة أكبر للتلاقي".

بدت وكأنها تفكر فعلاً في ذلك، ثم قالت: "دعنا نرى كيف ستجري الأمور اليوم".

"حسناً. بدوت متململة منهما قليلاً الليلة الماضية".

"كان يوماً طويلاً ومتوتراً وعاطفياً".

لم أجب، وهذا جيد لأنني سمعتهما ينزلان على الدرج.

دخل ويليام وشارلوت إلى المطبخ، وقبّلت سوزان والديها، فيما اكتفيتُ أنا بعبارة "صباح الخير".

أذكر أن ويليام يحب تناول حبوب الفطور الباردة في الصباح، ووضعت له سوزان على الرف ست علب من تلك المنتجات المريعة المليئة بالسكر، واختار ويليام شيئاً بالكاكاو، لا أعطيه أنا للحيوانات النتنة.

لا تتناول شارلوت الفطور، ولا تشرب القهوة، ولذلك أحضرت سوزان مجموعة من مغلفات الشاي العشبية، وغلت سوزان الماء لأمها العجوز.

لم تبلغ الساعة بعد الثامنة صباحاً، وبدأت أشعر بالتوتر.

إلا أنني تأثرتُ لأنه والنظر إليهما، لا تعرف أبداً أنهما استهلكا الليلة الماضية فقط كمية كافية من الشراب والشراب الفرنسي لإبحار قارب صغير. مذهل. لقد قاما ربما بزرع الكبد السنوي.

على أي حال، جلسنا نحن الأربعة حول طاولة المطبخ وتحدثنا قليلاً.

ثم قال لي ويليام ارتجالاً: "لم أفهم من بريد سوزان واتصالاتها الهاتفية أنك تقيم هنا".

أجبته: "حسناً، انتقلت قبل يوم تقريباً. بعد موت إيثيل، استطاع السيد نسيم، مثلما تعلم، المطالبة بمنزل الحراسة، وأراد إسكان رجال الأمن هناك - مثلما تلاحظ - مما جعلني مشرداً في نيويورك، وكانت سوزان لطيفة كفاية لتسمح لي باستخدام غرفة نومي القديمة هنا".

فكر في ذلك، ثم أشار: "إنها غرفة نومها أيضاً".

شرحت سوزان، من دون أي حاجة: "نحن ننام في الغرفة القديمة نفسها".

ويليام يعرف ذلك الآن من دون شك. مرحباً؟ ويليام؟ لكنني أظن أنه أراد سماع ذلك من فم الخاطئين نفسيهما. في غضون ذلك، أنا واثق من أنه لم يكن هو وشارلوت مهتمين كثيراً بسوزان حين عاشت وواعدت في هيلتون هيد. أقصد، سوزان امرأة راشدة، ولديّ أنا ميول راشدة، وليس من شأنهما التدخل في ما نفعله نحن وراء الأبواب المغلقة. ولا ننسى طبعاً أننا كنا متزوجين، وأنجبنا ولدين. لكن مثلما قلت قبلاً، يحب ويليام السيطرة، خصوصاً إذا كان للأمر علاقة طبعاً بجون ساتر.

على أي حال، أهملنا هذا الموضوع، وأفرغ ويليام ملاعق من فطائر الكاكاو المشبعة بالحليب في فمه، وشربت شارلوت الشاي المصنوع من حشيشة الهيمالايا النتنة أو ما شابه.

كنت أفكر في تقديم عذر ما لأنسحب، لكن ويليام قال لسوزان: "كنا نفكر أنا وأمك في أنه سيكون لديك الكثير من الصحبة مع وصول إدوارد وكارولين - ووجود جون هنا - ولذلك قررنا الإقامة في الكريك".

الحمد لله.

عارضت سوزان، وتدخلتُ أنا بالقول: "ألا تعيدا النظر في المسألة؟". يجدر بكما ربما العودة إلى المنزل.

على أي حال، ناقشنا الموضوع، وحين أصبحت واثقاً من أنهما لن يغيرا رأيهما، قلت لهما: "يمكنكما المكوث ربما لليلة واحدة إضافية".

"حسناً...".

آه يا الله. ماذا فعلت؟

ثم عاد ويليام إلى رشده وقال لسوزان: "اتصلي من فضلك بالكريك لمعرفة ما إذا كانت توجد غرفة متوافرة".

تدخلت شارلوت: "لطالما استمتعنا بالإقامة هنا، ولا مجال للشك في ضيافتك الرائعة عزيزتي".

أجبتها: "أفهم ذلك".

نظرت إليّ شارلوت وقالت لي: "كنت أتحدث إلى سوزان".

"طبعاً".

توجهت سوزان إلى الهاتف، واتصلت بالكريك، وحجزت غرفة للسيد والسيدة ستانهوب، والديها، وطلبت من النادي تحويل كل النفقات إلى حسابها، بما في ذلك الطعام والشراب والمتفرقات. كان ويليام سعيداً. شعرتُ أنا بالدوار.

قلتُ لسوزان: "اسألي إذا كنت تستطيعين الحصول على بطاقات غولف للماما والبابا. ولا تنسي كوخ الشاطئ. وربما دروس التنس".

تجاهلتني سوزان، وأنهت الترتيبات، ثم أقفلت السماعة وقالت: "تم حجز غرفة لكما حتى يوم الاثنين".

إذاً تم حسم المسألة. أظن أن آل ستانهوب لا يريدان مشاركة المنزل معي، ويخشيان ربما من تجمع آخر عفوي أو مخطط في المنزل، وأنا واثق من أنهما وجدا الحراس عند البوابات مزعجين. من دون ذكر احتمال وجود المجرمين المختبئين في الأجمات.

لكن الجميع وافقوا على أنه من الأفضل ربما إذا امتلك ماما وبابا مساحتهما الخاصة، بالقرب من هنا، ولكن ليس قريباً كثيراً، بالرغم من أنه خاب أملنا جميعاً طبعاً.

سألت: "هل أستطيع مساعدتكما في توضيب الأغراض؟".

أكّد لي ويليام أنهما يستطيعان فعل ذلك لوحدهما، لكنه سألني إذا كان بوسعي نقل الأغراض إلى السيارة.

أجبته: "متى تصبحان جاهزين".

تدخلت شارلوت وقالت: "لقد وضبنا أغراضنا".

"حسناً، إذاً" - وقفت وقلت - "سأذهب لنقل أغراضكما".

وذهبت، وصعدت الدرج، بمعدل أربع درجات كل مرة.

وفي غضون نصف ساعة، كان ويليام وشارلوت وجون وسوزان يقفون خارجاً ويودعون بعضهم، ولكن ليس إلى الأبد.

أعلن ويليام أنّ لديه هو وشارلوت بعض الأصدقاء القدامى الذين يرغبان في رؤيتهم، وقد يلعبان الغولف برفقتهم ويتناولان الغداء وكذلك العشاء، ولن يحضرا لسوء الحظ جنازة إيثيل اليوم أو الليلة، ويأسفان لتفويت فرصة اللقاء بإدوارد وكارولين هذه الليلة، وما إلى ذلك.

لكننا سنجتمع كلنا مساء الجمعة في دار الجنازة، ثم نمضي السهرة معاً - بأي طريقة يقصدان. أتمنى ألا يعني ذلك أننا سنراهما حتى موعد الاحتفال الديني الخاص بالدفن صباح السبت. لكننا سنلتقي مجدداً يوم ذكرى الأب، وذكّرت ويليام، أننا سنتناقش صباح الاثنين على أبعد تقدير. غمزته، لكنه لم يردّ لي الغمزة.

وقفنا أنا وسوزان أمام الباب الرئيسي ولوحنا لهما فيما ابتعدا. رسمت لويليام إشارة النصر بإصبعيّ، لكنني لا أظن أنه رآها.

عدنا أنا وسوزان إلى المنزل، وقالت لي: "حسناً، أنا خائبة الأمل قليلاً، وإنما مرتاحة قليلاً".

"أعرف تماماً بِمَ تشعرين".

"هيا، جون. كدت تدفعهما خارج الباب".

"لم أفعل. هو تعثر".

عدنا إلى المطبخ وتناولت قطعة مافن أخرى. "تبدو رائحتها ونكهتها مثل السماد".

قالت لي: "إنها من النخالة. حسناً، أنتَ جربت وأنا جربت، لكنني لا أظن أنهما كانا مرتاحين في هذا الوضع".

"ماذا كانت أول إشارة لك؟".

فكرت لبرهة ثم قالت: "حسناً، إنها مشكلتهما".

"هي كذلك. ولا تشعري بالذنب بسببهما. أنت ابنة جيدة، لكنهما مراوغان ونرجسيان ويحبان نفسيهما". كما أنهما أحمقان. أضفت: "ولا يهتمان برؤية حفيديهما".

جلست سوزان أمام الطاولة وبدت حزينة. قلت لها: "سنحتفل بذكرى أب جميلة معاً. أعدك".

ادّعت الابتسام.

ترددتُ، ثم أخذتُ يدها وقلت: "إذا كان رحيلي... أقصد، الرحيل إلى الأبد، سوف...".

"إذا قلتَ ذلك مرة أخرى، سأرميك خارجاً".

وقفت وعانقتها بقوة ثم قلت: "لدينا موعد أنا ووالدك لمناقشة عمل معين، ليلة الأحد أو صباح الاثنين".

فكرت في ذلك وقالت: "لا أحب أن أكون موضوع نقاش كما لو أنني فتاة عذراء".

"ألستِ عذراء؟".

"عمّ تتكلم؟".

"حسناً، الصفقة". أخبرتها: "نحتاج إلى اتفاق قبل الزواج. هذا ما سيجعل الصفقة ناجحة".

"ليست صفقة. إنه زواج".

"ليس حين تكونين من آل ستانهوب. وهذه مشكلتك وليست مشكلتي".

"حسناً. تحدث إليه. حاول ألا تحرمني من نفقتي السنوية وميراثي".

"هل تهتمين لذلك؟".

"لا. لكن اهتم بالولدين".

"سأفعل. مهما كلّف الأمر".

ثم قالت شيئاً لم يصدمني. قالت: "فليسامحني الله. أنا أكرههما".

بكت قليلاً فوضعت ذراعيّ حول جسدها وقلت: "لقد تخلينا عن الماضي، وعليك الآن التخلي عن والديك".

"أعرف. أشعر بالأسف عليهما".

يصعب عليّ الشعور بالأسف على أي شخص يساوي مئة مليون دولار، خصوصاً إذا كان أحمق، لكن لكي أكون لطيفاً، قلت لها: "أعرف ماذا تقصدين... أشعر بالأسف على هارييت، وأشعر بالأسف على والدي... وأظن أنه مات وهو يشعر بالأسف على نفسه. لكننا... لن نأخذ دورهم".

أومأت برأسها، ووقفت، وقالت: "فلنفعل شيئاً ممتعاً اليوم".

حسناً، أخرجت للتو آل ستانهوب من الباب، وما من شيء ممتع أكثر من هذا. سألتها: "ماذا تودين أن تفعلي؟".

"فلنذهب إلى المدينة ونتناول الغداء، ثم نذهب إلى متحف ما أو نتسوق شيئاً".

"نتسوق؟".

"متى جئت آخر مرة إلى مانهاتن؟".

أجبتها: "في سبتمبر من العام الماضي".

نظرت إليّ، وأومأت برأسها وقالت: "لم أذهب أبداً إلى مكان البرجين". فكرت لبرهة ثم سألت: "هل هذا شيء يجدر بنا فعله؟".

"ليس بالضبط يوماً ممتعاً في المدينة".

“أعرف... لكنك كنت هناك... هل نستطيع القيام بذلك اليوم؟”.

“يمكنك إبلاغي عن شعورك حين نصل إلى هناك”.

“حسناً...”. أمسكت يدي وقالت: “أشعر بالأمان حين أقف قربك”.

“هذا لطيف جداً. لم أشعر أبداً بالوحدة والكآبة في حياتي مثلما فعلت حين جئت إلى نيويورك في سبتمبر من العام الماضي”.

قالت لي: “جاءت كارولين إلى هيلتون هيد وقالت لي: ماما، أتمنى لو أن بابا هنا، وقلت لها وأنا أيضاً”.

أجبتها: “حسناً، أنا هنا”.

الفصل الرابع والخمسون

فيما توجهنا نحو مانهاتن، نظرت سوزان إلى السماء ولاحظت: "من الغريب عدم رؤية البرجين هناك...". ثم قالت "فلنذهب إلى هناك".

رمقتها بنظرة سريعة وقلت: "حسناً".

هكذا، قدت سيارة التوروس إلى القسم السفلي من مانهاتن، وأمضينا بعض الوقت الهادئ في منصة المراقبة المطلة على الركام. يصعب فهم هذه المأساة، ويصعب أكثر فهم موت العديد من الأشخاص، بمن فيهم أشخاص عرفناهم. كان يوماً ممطراً والسماء ملبدة بالغيوم، مما زاد من مزاجنا السيئ.

قمنا بجولة بين شوارع القسم السفلي من مانهاتن. حين عملتُ هنا، كان هذا جزءاً مزدحماً جداً من المدينة، لكن الشوارع والأرصفة تبدو الآن فارغة أكثر مما أذكرها، وعرفت أن لذلك علاقة بأحداث 11 سبتمبر. قد أعود إلى العمل هنا مجدداً، لكن في شركة جديدة طبعاً - وشركة تقدّر قراراتي المهنية الصائبة، ومغامراتي في الإبحار، وشراكتي الماضية مع الجريمة المنظمة. في الواقع، لن يكون الحصول على وظيفة جديدة بهذه السهولة - باستثناء العرض المغري لأنطوني بيلاروزا - ولذلك قد أكون الشخص الوحيد الذي يوظفني بالراتب الملائم، وعليّ العمل لنفسي. سيكون حماي المستقبلي مسروراً جداً لتمويل شركتي الجديدة، وتستطيع كارولين العمل معي، ونكون شركة ساتر وساتر: قانون الضرائب، اختصاصيون في البيئة وفي حقوق النساء.

سألتني سوزان: "بِمَ تفكر؟".

أخبرتها، فابتسمت ثم سألتني: "ترتاح للعمل في إحدى هذه المجالات؟".

توجهنا إلى شارع تشامبرز ودخلنا إلى مطعم إيكو، حيث كنت أرافق زبائني. بعدما جلسنا، نظرت إلى مجموعة الأشخاص الذين يتناولون الغداء، وكانوا بمعظمهم من رجال وول ستريت الذين يسهل عليّ التعرف إليهم، بالرغم من أنني لم أرَ وجهاً واحداً أعرفه. تضم مجموعة زبائن إيكو أيضاً محامي الدفاع، مرتفعي الأجور الذين يعملون في المحاكم المجاورة، إضافة إلى بعض كبار رجال تنفيذ القانون من بلازا الشرطة، والبلازا الفدرالية المجاورتين. بحثت عن السيد مانوسكو، لكنني لا أظن أنه سيدلل نفسه بغداء يكلف ستين دولاراً، بالرغم من أننا قد نحتسي شراب الشعير هنا ذات ليلة بعد العمل.

سألتني سوزان: "هل رأيتَ أحداً تعرفه؟".

"لا. بالرغم من أنه مضت فقط عشر سنوات".

علّقت بالقول: "عشر سنوات قد تكون وقتاً طويلاً".

"ممكن".

تناولنا غداء لذيذاً، واحتسينا قنينة من الشراب الفرنسي أحمر اللون لمقاومة البرد الذي لامس عظامنا، وشبكنا أيدي بعضنا فيما كنا نتبادل الأحاديث.

بعد الغداء، قمنا بنزهة إلى مبنى مكتبي القديم في 23 وول ستريت، ومثلما أفعل دائماً مع الزوار، ألمحتُ إلى سوزان لرؤية الندوب في الحجر الناجمة عن القنبلة الفوضوية في بداية القرن الماضي. كانت سوزان لطيفة كفاية لعدم تذكيري بأنني ألمحت إليها لرؤية هذا لها عشرين مرة قبلاً.

كنت سأدخل لمشاهدة الردهة الكبيرة المزينة، لكنني لاحظتُ أنه توجد الآن نقطة تفتيش قرب الباب، مع أجهزة كشف للمعادن وطاولات تفرغ عليها محتويات جيوبك. هذا مزعج قليلاً، ومسبب أيضاً للاكتئاب، فتابعنا الطريق - خصوصاً وأنني لم أشأ استخدام المصعد للوصول إلى شركة بركينز، بركينز، ساتر ورينولدز لمعانقة وتقبيل شركائي السابقين.

حسناً، كنت مستعداً لترك جادة الذكريات وأخذ سيارة أجرة إلى ميدتاون لتمضية يوم تسوق جميل، لكن سوزان قالت لي: "فلنذهب إلى إيطاليا الصغرى".

لم أجبها.

قالت: "نحتاج أيضاً إلى الذهاب إلى هناك".

فكرت في ذلك، ثم وافقت: "حسناً".

هكذا، مشينا تحت الرذاذ إلى إيطاليا الصغرى ووجدنا أنفسنا في شارع موت، الذي لم يتغير كثيراً خلال عشر سنوات، ولم يتغير كثيراً أصلاً خلال المئة عام الماضية.

بعد دقيقة، أصبحنا أمام مطعم جوليو. لم يتغير الكثير هنا أيضاً خلال المئة عام الماضية، بالرغم من أنني واثق من أنه تم تبديل الزجاج المصفح والستائر حمراء اللون قبل عشرة أعوام - مباشرة بعد تلقي فرانك بيلاروزا طلقتين ناريتين علقتا في سترته الواقية من الرصاص، وارتدّ جانباً إلى الرصيف، ثم دخل مجدداً إلى مطعم جوليو عبر النافذة.

نظرتُ إلى الرصيف حيث سقط فيني بعدما تلقى طلقة واحدة في وجهه من مسافة أقل من ست أقدام. أما القتلة، فقد جثم اثنان منهم على الجهة البعيدة من سيارة ليموزين فرانك التي كانت متوقفة عند حافة الطريق... ثم رأيت الرجلين يقفان ويضعان أذرعتهما وأسلحتهما على سقف السيارة... ثم يطلقان النار... طلقتان نحو فرانك، وواحدة نحو فيني، وكان صوت الرصاص مدوياً.

ثم نظر إليّ الرجل الذي أطلق طلقة واحدة.

قالت لي سوزان: "جون... ماذا حصل؟".

نظرتُ إليها. كانت موجودة داخل المطعم، جالسة على الطاولة برفقة آنا، وأدركتُ أنني لم أخبرها أبداً ما جرى هنا بالضبط.

ترددتُ، ثم أخبرتها بما حصل لفرانك وفيني، وتابعت القول: "أشاح القناص بنظره عني، وعاد للنظر إلى فرانك، الذي كان نصفه داخل النافذة ونصفه الآخر خارجها... لم يعد فيني يمثل أي مشكلة... ولذلك أظن أن الرجل قرر أن أمر فرانك قد انتهى أيضاً، ولا يستطيع توجيه طلقة جيدة إليه على أي حال... على ساقيه فقط... لذا، نظر مجدداً إليّ - مثل... وكأنه غير واثق مما يجب عليه فعله اتجاهي".

قالت سوزان بصوت خافت جداً: "آه يا الله". ثم سألتني: "لِمَ لم تهرب؟".

"حسناً، حصل كل ذلك بسرعة... خلال عشر ثوانٍ ربما. لكنني... لست واثقاً من سبب تردده... ثم ظننتُ أنني لست على لائحة أهدافه... لكنه كان ينظر إليّ، ولا يزال المسدس بين يديه... وكنت أفكر في أنني قد أكون شاهداً، ولذلك لا يجدر بي ربما النظر إلى وجهه".

أخذت سوزان ذراعي وقالت: "فلنذهب".

بقيت في المكان الذي وقفت فيه قبل عشر سنوات، وتابعت القول: "هكذا، قررتُ أنني لا أريد انتظار الطلقة النارية - ولذلك أشرت له بإصبعي، وابتسم، ثم حوّل المسدس في اتجاه فرانك وأطلق طلقته الأخيرة على ساقيّ فرانك".

بقيت صامتة لبرهة، ثم سألت: "وماذا فعلت؟".

"أعطيته الإصبع. هكذا...". رفعتُ إصبعي الوسطى على طريقة التحية الإيطالية.

بقيت سوزان صامتة ثم قالت لي: "كان هذا قوياً جداً".

"حسناً... ربما. لكن ها أنذا".

شدّت على ذراعي وقالت مجدداً: "فلنذهب".

"لا... فلندخل".

"لا، جون".

"هيا. نحن هنا، والمطر يهطل، وأحتاج إلى كوب من القهوة".

بدت مترددة، ثم أومأت برأسها وقالت: "حسناً".

هكذا دخلنا إلى مطعم جوليو.

إنه تماماً مثلما أذكره، مع سقف حديدي عالٍ، وثلاث مراوح، وأرضية من السيراميك الأبيض، وشراشف مطبعة بالمربعات، ولوحات رخيصة لإيطاليا المشمسة معلقة على الجدران بيضاء اللون. لم يكن المكان جميلاً جداً، لكنه نظيف وأصيل وله طابع ثقافي يشير إلى نمطٍ من ثقافة المهاجرين الإيطاليين من القرن الماضي. تذكرت أيضاً أن الطعام كان إيطالياً صرفاً - وليس أميركياً إيطالياً - ولذلك عليك الانتباه إلى ما تطلبه، إلا إذا كنت تحب التريبا، مثلاً، التي شعرت

بأنه يصعب هضمها في معدة حيوان، ورأس الغنم - كابوزيلا - الذي لم يكن لذيذاً أيضاً.

أذكر أيضاً أن الزبائن كانوا أصليين، إذ كانوا بمعظمهم سكاناً محليين من الضاحية الإيطالية المتقلصة حجماً، وكذلك من المهاجرين الإيطاليين الوافدين حديثاً، والذين يبحثون عن نكهة الطعام المنزلي الحقيقي.

وهناك أيضاً نوع آخر من الزبائن - الرجال الذين يرتدون البذلات باهظة الثمن ويضعون الخواتم الكبيرة ولا يبتسمون كثيراً. أذكر تماماً هؤلاء الرجال حين كنت أتناول الغداء هنا برفقة فرانك. وأذكر أيضاً أن فرانك، الذي كان رجلاً سعيداً بعدما أخرجته من السجن، كان يستعيد وجه رجال المافيا ما إن يدخل إلى هنا.

على أي حال، لقد تجاوزت الساعة الآن موعد الغداء، لكن هناك مجموعة من الرجال الكبار في السن يجلسون أمام الطاولات، ويرتشفون القهوة، ويتناولون الحلويات، ويتحادثون. لم أشاهد أحداً قد يكون من أصدقاء أنطوني، أو سالي دادا، وهذا أمر جيد.

تقدّم نحونا نادل في خريف عمره وهو يرتدي مئزرة، وابتسم وقال لنا: "صباح الخير".

أجابت سوزان: "صباح الخير".

قلت له: "مساء الخير". ثم أضفت، في حال ظن أننا هنا لابتزاز المال: "طاولة من فضلك".

"نعم، نعم. تعالا واجلسا هنا. طاولة جميلة قرب النافذة".

هذه هي الطاولة التي حطّ عليها فرانك بعدما دخل عبر النافذة. لم يزعجني ذلك، لكن خطرت في بالي فكرة أخرى وأشرت إلى طاولة خلفية كان قد تناول عليها آل بيلاروزا وآل ساتر عشاءهم الأخير معاً. قلت: "سنجلس على تلك الطاولة".

"هل تريدان تلك الطاولة؟".

شرحت سوزان: "جلسنا هناك قبل زمن بعيد".

هزّ كتفه وقال: "حسناً، هذه طاولة جيدة أيضاً".

هكذا، جلسنا أمام الطاولة الجيدة، وطلبنا الكابوتشينو، وقنينة من مياه سان بيليغرينو، وطبقاً من المعجنات المتنوعة.

أعجب النادل فوراً بسوزان - جميعهم يفعلون ذلك - وقال لها: "سأحضر لك قليلاً من الحلويات اللذيذة، وقليلاً من الشوكولاته الطيبة".

ماذا عني أنا؟

قالت سوزان: "شكراً" بالإيطالية ثم قالت له شيئاً آخر بالإيطالية، فابتسم وأجابها. أظن أنها وقعت في الورطة بهذه الطريقة في المرة الماضية.

على أي حال، جلسنا هناك، وأسندنا ظهرنا إلى الجدار، علماً أنني كنت أجلس هكذا مع فرانك حين كنا نتناول الغداء معاً، وأمسكنا أنا وسوزان بأيدي بعضنا، ولم نحدق إلى أي شيء خاص.

وأخيراً، قالت سوزان: "هذا جيد".

أجبتها: "لم أكن واثقاً".

خطر في بالي أننا كنا نقبع في بطن الوحش، إذا صح القول، بالرغم من أنني لم أتوقع كثيراً دخول أنطوني بيلاروزا عبر الباب. أو شبح فرانك بيلاروزا. لا، شعرت وكأننا نطرد الأشباح، ونكوّن ذكريات جديدة، بدلاً من دفنها أو السماح لها باستنفادنا.

وصل الكابوتشينو، وقنينة المياه، والطبق الكبير من المعجنات الإيطالية، فضلاً عن طبق آخر من الشوكولاته - لسوزان - وكذلك قنينة سامبوكا وكأسين للمشروبات، على نفقة المطعم.

جلسنا هناك، نتحدث ونرتشف القهوة، ونأكل الكثير من المعجنات، ونحتسي السامبوكا، ونقتل وقت بعد الظهر على الطريقة الإيطالية. لا يسبب ذلك التوتر بقدر ما يسببه التسوق، كما أنه أكثر حميمية من زيارة المتحف. اختيار موفق.

قرابة الرابعة بعد الظهر، قالت سوزان: "علينا الذهاب لنجهز لوصول إدوارد وكارولين".

طلبت الفاتورة، وتركت الكثير من البقشيش للنادل، وغادرنا مطعم جوليو، وأخذنا سيارة أجرة لتعيدنا إلى حيث ركنّا سيارتنا، وبدأنا رحلة العودة إلى المنزل.

ليس يوماً سيئاً، حتى الآن. تخلصت من آل ستانهوب وتخلصت من شبح فرانك بيلاروزا. بقي أنطوني.

الفصل الخامس والخمسون

قررتُ مفاجأة كارولين عند المحطة، وركنتُ سيارة التوروس قرب محطة سيارات الأجرة وانتظرت وصول قطار الـ 6:05.

تركت البندقية الصغيرة في المنزل مرة أخرى، لا أظن أنني سأصادف المافيا في وضح النهار داخل محطة قطارات مزدحمة. لكن في كل مرة أترك فيها البندقية في المنزل، أغضب من نفسي لأنني لم أحضرها معي. أحتاج إلى مواجهة الحقيقة، تماماً مثل سوزان.

صفر قطار الـ 6:05 ووصل إلى نقطة التوقف في المحطة. ترجّل من قطار ساعة الذروة عشرات الأشخاص، واستعدتُ فجأة حياتي السابقة. هل أستطيع فعل ذلك مجدداً؟

ترجلت من السيارة وراقبت نزول الركاب، ثم رأيت كارولين فيما هي تشق طريقها نحو سيارات الأجرة المنتظرة. ناديتها: "هاي، يا حلوة. هل تحتاجين إلى من يوصلك؟".

بدت معتادة على ما يبدو على هذا النوع من الكلام فتابعت المشي، فيما رأسها وعيناها إلى الأمام. ثم توقفت في أرضها واستدارت في اتجاهي.

لوَّحت لها، وصرخت: "بابا". وأسرعت نحوي.

تعانقنا وتبادلنا القبلات، وقالت: "بابا. من الرائع رؤيتك مجدداً".

"من الرائع رؤيتك حبيبتي. تبدين أكثر جمالاً عن ذي قبل".

تجاهلت كارولين الإطراءات، لكنها ابتسمت وقالت: "هذا... أنا سعيدة جداً لأجلكما".

"وأنا أيضاً". كانت تحمل حقيبة يدوية، وملفاً خاصاً بأوراق المحاماة فسألتها: "أين أغراضك؟".

"أوه، لدي مجموعة من الملابس عند ماما".

"جيد". كم يدفعون بالضبط لهؤلاء المبتدئين في بروكلين؟ لا شك في أن ابنتي الحساسة اجتماعياً لا تنفق كل حصتها المالية السنوية على الثياب وترفيه الذات.

على أي حال، وصلنا إلى السيارة ولاحظتُ أنها كانت ترتدي ثياباً سوداء اللون بالكامل، والذي هو على ما يبدو لون الموضة الجديد إذ يلائم العمل، وحفلات ما بعد العمل، وحفلات الزفاف، والجنازات.

واللافت أن شعرها كان أسود اللون أيضاً، مثل شعر أمي قبل أن تشيب، ولم يكن هناك أي أثر لشعر سوزان أحمر اللون، فثمة أمل إذاً في ألا تكون كارولين حمقاء.

خرجتُ من المرأب الصغير ولاحظتُ السيارات الباهظة التي كانت تقودها زوجات جئن لانتظار أزواجهن العاملين بكدّ. ثمة أطفال صغار في بعض السيارات - غادرت المربية باكراً اليوم - وإذا نظرت إلى هؤلاء الأزواج، تلاحظ فوراً من هم السعداء منهم بلقاء بعضهم بعضاً، ومن منهم يتمنى لو أنه أخذ قطاراً آخر قبل عشرة أو عشرين عاماً.

لا شك في أن لكل زوجين قصة، لكن لا أظن أن لأيّ منهما قصة أفضل من قصتي أنا وسوزان.

اجتزت البلدة وتوجهت نحو ستانهوب هال.

سألتني كارولين: "هل أنت سعيد بابا؟".

"وأي رجل لا يكون سعيداً بشأن الزواج؟".

لم تفهم كارولين مزاجي وسألت مجدداً: "هل أنت سعيد؟".

رمقتها بنظرة سريعة وقلت: "لم أكن لأتواجد هنا لو لم أكن سعيداً هنا".

"أعرف".

قلت لها: "أمك أيضاً سعيدة جداً".

"أعرف ذلك. نتحدث أو نتراسل بالبريد الإلكتروني مرتين يومياً".

طبعاً.

لرمي الكرة في ملعبها، قلت لها: "حسناً، سأتزوج للمرة الثانية، وأنت لم تتزوجي بعد ولو لمرة".

"بابا".

تحدثنا عن عملها وتطرقنا إلى موضوعات أخرى.

كارولين، مثلما تفعل في كل صيف، أمضت أسبوعاً في لندن في شهر أغسطس، وهذا هو وقتنا معاً كل سنة، إلا حين آتي إلى نيويورك من أجل المشاركة في الجنازات وحفلات الزفاف ورحلات العمل. لذا، قالت لي: "أظن أنني لن أزورك في لندن هذه السنة".

ابتسمتُ وأجبتها: "لا، لكننا سنذهب أنا وأمك إلى لندن، قريباً جداً ربما، لنقل أغراضي". تحب كارولين لندن، ولذلك سألتها: "لماذا لا تأتين معنا؟".

أجابتني: "لا أظن أنني أستطيع ترك العمل من دون إنذار مسبق لفترة كافية، وإنما شكراً. لماذا لا تحتفظ بشقتك في لندن؟".

فكرت في ذلك، وليست هذه فكرة سيئة، حسب التمويل المستقبلي. لكنني لست واثقاً من أن سوزان تفضل ذلك. على أي حال، قد أستخدم الشقة بنفسي إذا استردّ آل ستانهوب ابنتهما. قلت لابنتي: "هذه فكرة".

فيما اقتربنا من ستانهوب هال، سألتني كارولين: "كيف حال الجد والجدة؟".

"رائعان".

"قرأت بريدك الإلكتروني".

"جيد".

"إذاً؟ كيف تتفاعل معهما؟".

"في الواقع، ليس الوضع سيئاً".

"هل هما سعيدان لك ولماما؟".

"ظننتُ أنك على اتصال يومي بأمك".

"لم نتحدث كثيراً عن هذا الموضوع".

"حسناً، فلنوفر الأمر إلى حين وصول إدوارد".

حصلت على جهازي الجديد للتحكم عن بعد من أحد رجال الأمن - اسم الشركة هي شركة الأمن الموثوقة - وأعطاني السيد نسيم أيضاً رمز المرور الجديد، مع نصيحة بضرورة عدم إعطائه للكثير من الأشخاص الذين لا أعرفهم. أحب التعامل مع الحمقى المدربين بإفراط. نعم، أنا متكبر.

وفي مثل هذه الأوضاع، طبعاً، يصبح الخط الفاصل بين الحراس والمحروسين ضبابياً، والتمييز بين تلقي الحماية والتواجد في سجن دقيقاً جداً.

فيما فُتحت البوابات، خرج رجل شركة الأمن الموثوقة من منزل الحراسة - منزل الحرس، وتعرّف إليّ لأنني خرجتُ قبل ثلاثين دقيقة ولوّح لي. ساعدني أيضاً أن لديّ جهاز التحكم عن بعد، وأركب في السيارة نفسها التي غادرت فيها.

لاحظت كارولين: "ذكرت أمي مسألة الرجال عند البوابات".

"ليست قصة كبيرة".

تجاهلت هذا، وسألت: "هل الجد والجدة في المنزل؟".

أتمنى لو كانا. قلت لها: "قررا الذهاب إلى الكريك".

"لماذا؟".

إنهما أحمقان. أجبتها: "رأيا أنهما سيشعران بارتياح أكبر هناك، ويريدان تخفيف بعض العبء عن أمك".

لم تجب كارولين.

أحتاج فعلاً إلى أن يكنّ إدوارد وكارولين مشاعر إيجابية حيال الجد والجدة. هذان الولدان لا يملكان أحكاماً مسبقة عن هذين العجوزين، وحسب علمي، يحب إدوارد وكارولين الكونت دراكولا وزوجته. لكننا في مرحلة حاسمة الآن، ونتشارك جميعاً الرمز نفسه، إن لم يكن المنزل نفسه، ولذلك نحتاج إلى تذكير ولدينا بضرورة احترام وحب الجد والجدة. بالإضافة إلى ذلك، يتوجب على أحدهم إبلاغ إدوارد وكارولين بالحقائق المادية للحياة. وهذه مهمة سوزان.

أفترض أنني أستطيع حضور هذه الجلسة، لكن المال ليس مالي. كما أنني قد أقول شيئاً يساء فهمه، مثل "جداكما مثل حيوانين مقرفين".

على أي حال، قلت لكارولين: "سنرى الجد والجدة الليلة في دار الجنازة".

سألت كارولين عن فرد آخر من حلقتي المفضلة: "كيف حال الجدة هارييت؟".

"إنها بخير وتتطلع إلى رؤيتك أنت وإدوارد". وأتمنى أن تكونا أنتما الاثنان في وصيتها.

لقول شيء لطيف عن هارييت، إنها مولعة بحفيديها الوحيدين. ليست من النوع الذي يحب العناق والقبلات، لكنها تبقى على اتصال وثيق بهما، وهي مرشدة بالنسبة إلى كارولين، إذ تعلم الحفيدة أصول التصرف، مثل إعادة تدوير نفايات المطبخ إلى وجبات لذيذة للمهاجرين غير الشرعيين من سان بيكادور، أو أي مكان آخر. يشكل إدوارد نوعاً من التحدي بالنسبة إليها، لكن إذا نجحت في إقناعه بضرورة إطفاء الأنوار، تكون قد قدّمت خدمةً لإدوارد والبيئة.

لكن عدا عن عملية غسل الدماغ، أظن أنها تعتبر إدوارد وكارولين فرصتها للتعويض عن إخفاقاتها مع جون وإميلي. وهذا أمر جيد أيضاً.

فيما تابعت السير في الطريق المحاطة بالأشجار، سألتُ كارولين: "هل تشعرين بالارتياح لعودتك إلى المنزل؟".

أجابت من دون تفكير: "نعم".

لم تهتم كارولين أبداً لهذه المنطقة، أو لسكانها، أو لنواديها الريفية، وحفلات الكوكتيل، وأساليب العيش، والسياسات الرجعية، أو أي شيء من ذلك. إلا أننا أنا وسوزان أجبرناها على الذهاب إلى حفل إطلاق فتيات المجتمع بعد تهديدها بالحرمان لبقية حياتها.

سألتني: "هل أنت سعيد بالعودة إلى المنزل؟".

"هذا جيد".

ركنت السيارة أمام المنزل، وتوجهنا نحو الباب الأمامي، الذي كان مقفلاً، وفتحته. سألت كارولين، التي ربطت هذا الأمر ربما بالحرس عند البوابة: "لماذا تقفلون الباب الآن؟".

أجبتها: "يأتي جامعو التبرعات الجمهوريون إلى منازل الأشخاص لطلب شيكات كبيرة لمساعدة الحكومة".

بالرغم من أن كارولين لا تفهم أو تقدر مزاحي، ضحكت هذه المرة.

كانت سوزان في الأعلى، لكنها سمعت أصواتنا، فأسرعت في النزول على الدرج. تعانقت الأم وابنتها وتبادلتا القبلات، فيما كنت أبتسم.

ذهبنا إلى المطبخ حيث حضّرت صوفي بعض الفاكهة، والخضار المقطعة، وغموس اللبن اللذيذ.

وضعت سوزان قنينة شراب خفيف على مكعبات من الثلج في دلو، ففتحت القنينة، وسكبت الشراب الخفيف في ثلاث كؤوس. أنا لا أحب عادة هذا المشروب، لكن سوزان وكارولين تحبان الشراب الخفيف، فملأت كأسي وشربت النخب: "نخب آل ساتر".

طرقنا كؤوسنا وشربنا.

أصبح الطقس أفضل قليلاً، ولذلك خرجنا إلى المصطبة، وجلسنا أمام الطاولة.

تتشارك سوزان وكارولين كل الأخبار والأحداث مع بعضهما، وأدركتُ أنني متأخر بضعة أشهر عن حياة كارولين. أعرف أنها تخلت عن كليف، وأسمع الآن عن ستيوارت، حبيبها الجديد، الذي يحب أيضاً الشراب الخفيف، وأتمنى أنه يملك المال لدفع ثمنه.

لم أكن ضجراً تماماً، لكنني انتقلت إلى موضوع العمل، وقالت كارولين: "بابا، لا تصدق الأمور التي أراها وأقرأها وأسمعها كل يوم".

أظن أنني أصدق. حسناً، تطلع كارولين على قسم من الجانب السيئ للمجتمع الأميركي، وهذا جيد بالنسبة إلى شابة ترعرعت في ستانهوب هال. لم تتعرف سوزان كثيراً إلى الجانب الحقير من الحياة، لكن كارولين فعلت، وتعرف لحسن الحظ شيئاً أفضل من إقامة علاقة مع سيد مافيا متزوج.

تفادينا موضوع الجد والجدة، لأننا استدركنا أننا نستطيع تأجيل ذلك إلى حين وصول إدوارد.

رنّ الهاتف الخلوي، وأجبت على المكالمة. إنه رجل الأمن يسأل ما إذا كنا نتوقع زيارة إدوارد ساتر، الذي وصل في سيارة أجرة.

أجبته: "أعتقد أنه ابننا".

"أردت التأكد فقط".

خرجنا إلى الجهة الأمامية من المنزل وانتظرنا إدوارد.

بعد دقائق قليلة، وصلت سيارة أجرة صفراء اللون، وقفز منها إدوارد يرسم ابتسامة كبيرة على وجهه.

ركضت سوزان نحوه، وتعانقا وتبادلا القبلات. ثم جاء دور كارولين - السيدات أولاً - ثم دوري. عانقني إدوارد بقوة وقال: "بابا، هذا رائع فعلاً".

"تبدو رائعاً، سكيبر. استمرار جيد".

هكذا، وقفنا هناك، مع بعضنا كعائلة واحدة للمرة الأولى منذ عشرة أعوام. لاحظتُ أن سوزان قدّرت اللحظة، وأنا واثق من أنها فكرت في دورها في حاجتنا إلى عشر سنوات للوقوف معاً مجدداً، وفي سبب كون هذه اللحظة أقرب إلى المعجزة. في الواقع، لاحظتُ أنها بدت متأثرة كثيراً، ولذلك وضعتُ ذراعي حول جسدها وأظهرتُ للولدين كم أنا رجل رائع وحساس.

لم أترعرع في عائلة حنونة جداً، ولا سوزان، ولا أي شخص نعرفه ربما. فالعلاقات العائلية إجمالاً تصبح أكثر برودة حين نكبر، وتكاد تصل هنا إلى درجة الجمود في مجتمعنا.

لكن العالم تغير، ونفرط أنا وسوزان ربما في التعويض عن طفولتنا المحرومة من الحنان. تمنيت أن يتعانق إدوارد وكارولين، حين يتزوجان وينجبان الأولاد، ويتبادلان القبلات، وألا يقيما علاقات خارج إطار الزواج، أو يقتلا عشاقهما.

سألت إدوارد ما إذا أحضر معه أغراضاً، وأجابني مثل كارولين أنه يملك مجموعة من الثياب هنا، بالرغم من أنه لم يطلق عليها اسم ثياب. قال إنها أغراض.

لسوء الحظ، لا يملك كمية كافية من المال لدفع أجرة التاكسي، كالمعتاد، فتوليت أنا الأمر مع بقشيش كبير. قال لي السائق: "شكراً. هذا قصر رائع".

لم أشأ إخباره أن القصر في الجهة العلوية من الطريق، ولذلك قلت له: "استمتع بيومك".

تذكر إدوارد حقيبته في صندوق السيارة، فأوقف السائق وأخرجها. هل كنت أنا هكذا؟ لا أظن ذلك. يجدر بي سؤال هارييت. إنها صادقة معي. لدرجة الفظاظة.

جلسنا على المصطبة الخلفية، وشبكنا أنا وسوزان أيدينا فوق الطاولة، واحتسينا شراباً خفيفاً آخر نخب آل ساتر، وأكلنا الفاكهة والخضار التي أحضرتها صوفي لنا. كيف عشتُ من دون صوفي لمدة سبع سنوات في لندن؟

عليّ الإشارة إلى أن إدوارد وكارولين، اللذين ترعرعا بمساعدة الخدم، لا يشعران أبداً بالارتياح مع هذا المفهوم، ويستغربان دائماً وجود خدم المنزل. من جهتها، ترعرعت سوزان وهي تظن أن الجميع، بما في ذلك المشردين ربما، يملكون خادمة واحدة على الأقل لتنظيف العلبة التي يعيشون فيها.

سألتُ إدوارد: "كيف كانت رحلتك؟".

"جيدة. لكن أمن المطار مقرف. تم توقيفي قليلاً".

"لماذا؟".

"لا أعرف".

لا يبدو إدوارد مثل إرهابي، لكنني استفدت من المناسبة لأعطي ملاحظة على سروال الجينز أسود اللون وقيمصه أسود اللون الضيق. قلت له: "إذا ارتديت سروالاً جيداً وقميصاً حقيقياً وسترة رياضية، ومن الأفضل أن تكون سترة زرقاء اللون مثل التي أرتديها، سيعتبرك الجميع شخصاً مهماً، وسيعاملونك باحترام ولباقة. الثياب تصنع الرجل".

أجابني: "بابا".

قالت سوزان: "جون".

التفتت كارولين نحوي.

ثم ضحكنا جميعاً.

سألني إدوارد: "ما هو أمر الرجال في منزل الحراسة؟".

أجبته: "مثلما أخبرتك أمك عبر البريد الإلكتروني، أصبح السيد نسيم قلقاً - ربما بسبب أحداث 11 سبتمبر - من تعرضه للأذى على يد أشخاص معينين".

سأل إدوارد: "من؟".

"أظن أنهم أشخاص من بلاده".

"واو. هل يستطيعون فعل ذلك؟ أقصد هنا؟".

"حسناً... تغيرت الأوقات". ثم وضعت نكتتي في قالب جديد وقلت: "تحققت من قوانين المنطقة وتقول إنه لا يُسمح بالاغتيالات السياسية من الاثنين إلى السبت قبل الثامنة صباحاً أو بعد السادسة مساء. وهي ممنوعة يوم الأحد".

إدوارد، على الأقل، ظن أن هذا مضحكاً. انتقلتُ إلى الحديث عن الغرض من زيارتهما، وأخبرناهما أنا وسوزان عن الجنازة، وقالت سوزان: "سنذهب جميعاً الليلة لمدة نصف ساعة فقط، ثم أتمنى أن نتناول العشاء معاً".

بدا أن الجميع موافق على ذلك، واقترحت سوزان: "لماذا لا نذهب إلى سيوانهاكا مثل الأيام القديمة؟".

تظاهرت كارولين ببعض الحماس، ولم يهتم إدوارد أبداً، ولذلك حسم الأمر.

أرادت سوزان التكلم عن الجد والجدة، وبما أننا رتبنا ذلك قبلاً، سكبت ما تبقى من الشراب الخفيف في كؤوس الجميع وقلت: "أحتاج إلى إجراء اتصال هاتفي مهم. لمدة خمس عشرة دقيقة تقريباً".

انتقلت إلى الداخل، وحضرت لنفسي كوكتيلاً مهماً من الشراب الروسي والمشروب المنشط، ثم ذهبت إلى مكتبي.

مثلما قلت، هذه مسألة عائلية تخص آل ستانهوب، وأردت أن أترك لسوزان مسألة إخبار إدوارد وكارولين ما ترى أنه يجدر بهما معرفته.

إذا كانت صادقة معهما، ستخبرهما أن الجد والجدة لا يتحمسان لعودتي، وأن جديهما العزيزين قد يهددان الماما بحرمانها من الميراث إذا تزوجنا مجدداً. أو عشنا مع بعضنا، أو إذا التقيت زوجتي السابقة على مسافة ألف ميل. وإذا كانت سوزان صريحة تماماً معهما، ستخبرهما أيضاً أن نفقاتهما وميراثهما في مرحلة الخطر أيضاً.

مثلما قلت، لا يبدو إدوارد وكارولين مهتمين بالمال، وأظن أنهما سيتألمان من موقف جديهما أكثر من تأثرهما بالملايين.

في النهاية، سنشعر جميعاً بالضغط المادي، لكن على أمل أن يقربنا ذلك كعائلة. نستطيع جميعاً الانتقال إلى شقة كارولين المؤلفة من غرفة نوم واحدة في

بروكلين، ونجلس حول الطاولة، ونتناول الهامبرغر، فيما نشتم الجد والجدة: "أخبرتكم أنه حيوان حقير أيها الولدين. أعطوني الكولا".

تحققتُ من الرسائل الهاتفية، وثمة واحدة من السيد مانوسكو الذي قال: "لا إشارة منه. سأتصل عبر الهاتف الخلوي للسيدة ساتر إذا تغير أمر ما. وسأتصل في كل الأحوال يوم السبت وأنا من المقبرة. تحدثنا أيضاً إلى طوني روسيني، ولا يعرف أي شيء. لكننا سنتابع ذلك. من جهة أخرى، يتابع سالي دادا روتينه الطبيعي - وإنما برفقة عدد كبير من الحراس. اتصل بي إذا احتجتَ إلى أي شيء".

حسناً، أتمنى ألا يستفيد العم سال من الحسم العائلي ويوظف شركة بيل للأمن. سأوصيه بشركة الأمن الموثوقة، إذا رأيته.

في ما يتعلق بأنطوني - أين هو هذا الرجل؟ لا بد من أنه يعرف الآن، من أصدقائه وموظفيه، أن الفدراليين ورجال الشرطة يسألون عنه. من دون أن ننسى طبعاً العم سال الذي يريد أن يعرف حتماً مكان وجود قريبه. وأنا أيضاً. الشخص الوحيد الذي لا يهتم فعلاً هو زوجته.

على أي حال، راجعتُ بريدي الإلكتروني، ورأيت رسالة من سامنتا: لم تتصل هذا الأسبوع ولم ترسل بريداً إلكترونياً. ماذا أستنتج من ذلك؟

حسناً، يجدر بك الافتراض أن هذه ليست علامة جيدة.

أو يمكنك الافتراض أنني ميت. لكنك لن تحزري أبداً أن العازب جون مطلوب للزواج.

أستلطف فعلاً سامنتا وأريد أن أكون صادقاً تماماً معها، لكن المشكلة هي أنها تعرف أشخاصاً في مكتبي. وإذا أخبرتها أنني لن أعود أبداً، سيصل هذا الخبر إلى مدرائي، الذين وعدوني كتابة من أن موقعي في الشركة محفوظ حتى الأول سبتمبر.

في غضون ذلك، وبالعودة إلى المنزل، يبدو أن عرض العمل مع لا كوسا نوسترا أصبح مستبعداً، لأن المدير العام التنفيذي الذي أجرى المقابلة معي يريد الآن قتلي. كما أن عرض السيد نسيم لي بالحصول على عمولة قدرها 10 بالمئة إذا استطعت تسهيل عملية بيع منزل الضيوف أصبح الآن مستبعداً نتيجة زواجي للمرة الثانية بصاحبة المنزل. أفهم الآن لماذا يظن أن هناك تضارباً في المصالح، ولماذا انتظر حتى أصبح لدينا أنا وسوزان مخاوف أمنية أكثر مما نريد.

الخبر الجيد هنا هو عرض ويليام لشراء عزوفي عن الزواج بابنته. لذا، ولحساب بعض الأرقام، علمت من سوزان أن نفقتها هي نحو مئتين وخمسين ألف دولار سنوياً؛ وهذا أكثر بكثير من الدولارات الخمسة التي كنت أتقاضاها أسبوعياً من والديّ. لكن كلفة العيش ارتفعت، ولذلك فإن الخمسة آلاف دولار أسبوعياً لسوزان هي نفقة منطقية. وإذا أعطاني ويليام مليوناً، مدفوعاً على عشرة أقساط سنوية، سيضطر إلى حذف مئة ألف دولار من نفقة سوزان كل سنة للتعويض، أو لتعليمها درساً. لكن إذا لم يشأ فعل ذلك، سيخرج المال من جيبه. أووه.

لا أظن أيضاً أنه سيبقى على قيد الحياة لمدة عشر سنوات، إلا إذا امتنع عن احتساء الشراب. أو هل هذا هو المشروب الذي يبقيه على قيد الحياة؟

في الواقع، كل هذا هراء. لن آخذ ماله. سآخذ ابنته. ولا أهتم إذا حرمها من المال. لا أريد ماله أو مالها. لكن ماذا عن إدوارد وكارولين؟

وفي هذا الخصوص، ماذا عن سوزان؟ هل هي مستعدة فعلاً للوقوف إلى جانبي، ورسم إشارة في إصبعها الوسطى لماما وبابا ومشاركتي في الصراخ "اللعنة عليكما".

وهل أنا مستعد للسماح لها بفعل ذلك؟

هذه هي الأسئلة في الوقت الحاضر، ولذلك لا أعرف إذا كنت بحاجة إلى بطاقة عودة إلى لندن.

أرسلت إلى سامنتا بريداً إلكترونياً: أعتذر، ولا أملك شرحاً على عدم تواصلي. نحتاج إلى التحدث، وسأتصل بك يوم الاثنين على أبعد تقدير. تركت الرسالة من دون توقيع ومن دون مجاملة عاطفية، مثلما فعلت هي.

حسناً، هذه خطوة في الاتجاه الصحيح. لم أكن واثقاً أبداً من سامنتا على أي حال - أواعد النساء اللواتي لا أستطيع الزواج بهن، أو اللواتي يُعلنّ باكراً أنهن لن يتزوجن بي إذا كانت حياتهنّ ستعتمد على ذلك. وجرت الأمور بشكل جيد حتى الآن.

رنّ جرس الهاتف الداخلي، فرفعت السماعة، وقالت سوزان: "ما زلت على المصطبة مع إدوارد وكارولين، إذا كنت تودّ الانضمام إلينا".

"سأحضر فوراً".

تركت كأس الشراب الروسي على المكتب، وعدت إلى المصطبة، وأخذت مقعداً.

قالت سوزان: "أظن أنني شرحت الوضع كما يجب وبوضوح أمام إدوارد وكارولين، ووافقنا على أن وجودنا معاً كعائلة مجدداً هو اعتبارنا الوحيد".

نظرتُ إلى إدوارد، ومن ثم إلى كارولين، ومجدداً إلى سوزان. تمنيت فعلاً أن تكون قد شرحت الوضع كما يجب وبوضوح. وأنا واثق من أنها فعلت ذلك، في ما يتعلق بعقوبتها المالية المحتملة بسبب زواجها مجدداً ببابا. لكنني واثق من أنها اتخذت الخطوة التالية وشرحت أن الجد قد يمدد العقوبة من أمهما لتصل إليهما.

قلت: "حسناً. الموضوع أغلق. من يريد احتساء المزيد من الشراب الخفيف؟".

وافقت سوزان وكارولين، فيما اخترنا أنا وإدوارد احتساء شراب الشعير.

تطوعت سوزان وكارولين لإحضار المشروبات، وجلسنا أنا وإدوارد هناك.

نظر إليّ وقال: "لا أصدق أن جدي سيفعل ذلك".

أجبته: "لا نعرف ماذا سيفعل. نباحه أسوأ من عضه". وهذا غير صحيح جداً. فالعجوز الحقير يعضّ بقوة.

قال إدوارد الحساس: "يفترض أن يكون سعيداً لأن أمي سعيدة".

"ربما. لا نعرف. لِمَ لا نخرج الموضوع من عقولنا ونستمتع باجتماعنا العائلي". ثم أضفت بفظاظة: "كن لطيفاً مع جدك".

"حسناً".

ما زلت لا أعرف ما إذا أخبرت سوزان الولدين بأنهما قد يضطران إلى العيش فقط من راتبهما لبقية حياتهما. لا يزعجني ذلك كثيراً بقدر ما تزعجني فكرة حصول بيتر ستانهوب، عديم الفائدة وابن حميّ المستقبلي، على كل شيء. حسناً، إذا جاء هذا الوقت، قد أتمكن من إخافته وإقناعه بإعطاء بعض الدولارات إلى ابنة وابن أخته، لأن هذا أفضل من قيام جون ساتر بتقديمه إلى المحاكم لمدة عشر سنوات.

قال إدوارد: "تحبك ماما فعلاً".

"لهذا السبب أنا هنا، سكيبر". ثم أضفت طبعاً: "أحبها".

وصلت حبي، وهي تحمل دلو ثلج مع قنينة من الشراب الخفيف فيما حملت كارولين شراب الشعير والكؤوس على صينية.

جلسنا هناك، نتحدث تحت السماء الملبدة بالغيوم التي تختفي بين الحين والآخر وتشرق الشمس فوق المصطبة وآل ساتر.

الفصل السادس والخمسون

وصلنا إلى دار جنازة والتون قرابة السابعة والنصف مساء، ودوّنا أسماءنا جميعاً في دفتر الزوار، الذي لا يحتوي لحسن الحظ على خانة لتدوين موعد الوصول وأخرى لتدوين موعد المغادرة.

الليلة الثانية من الجنازة تكون عادة آخر معاينة للميت، لكن إيثيل، فليرحمها الله، أرادت التأكد من ألا يرتاح أحد، ولذا - بناء على طلب الجماهير، إيثيل ألارد ستظهر ليلة الجمعة للمرة الأخيرة في كل مكان.

توجه آل ساتر إلى موضع التابوت، وقدمنا احترامنا إلى الميت بصمت. لم يشاهد كارولين وإدوارد الكثير من الموتى في حياتيهما الشابة، وشعرا بوضوح بالانزعاج وهما يقفان في مواجهة مع الموت. كانت كارولين تبكي، وبدا إدوارد حزيناً جداً. كانا يحبان إيثيل، وكان الإحساس متبادلاً، وشعرت بالسرور لأنهما تمكنا من الشعور بالحزن والخسارة.

مرة جديدة، أخذت المبادرة وابتعدنا عن التابوت.

ألقينا التحية مجدداً على إليزابيت وعائلتها، واستفدت من الفرصة لأعرف مجدداً إدوارد وكارولين إلى طوم جونيور وبيتسي، إذ لم يروا بعضهم منذ عشر سنوات على الأقل. لاحظتُ الآن أن هناك فارقاً في العمر من ست أو سبع سنوات بين ولديّ إليزابيت وولديّ، وهذا مهم في هذه المرحلة من العمر، لكنه ليس عقبة لا يمكن تجاوزها إذا استلطفوا بعضهم البعض. لكن المكان والزمان غير ملائمين ربما لكي أقوم بإشعال نار الحب. في الواقع، لم أرَ حتى أي شرارة. أوه حسناً.

كان طوم كوربيت ولورانس هنا أيضاً، ومدحت طوم على كونه زوجاً سابقاً جيداً ووالداً مهتماً. فكرت في أن أدائي السابق كزوج كان ملائماً للظروف، ولكنت والداً مطلقاً أفضل لو لم أغادر البلاد طوال عقد من الزمن. لكن الماء كان يتدفق تحت الجسر، وفوق السد، وتحت سفينتي، وعلى مسافة محيط.

اقترحت أن نبدل المكان، فتجولنا قليلاً في الجناح أ، ثم انتقلنا إلى غرفة الجلوس لرؤية إذا كان هناك أحد ما نعرفه ونريد إلقاء التحية عليه. تحظى بأمور وتعطي أموراً أخرى أثناء حضور الجنازات، ويريد كل شخص أن ينتبه الآخرون إلى قدومه. سيصل دورنا جميعاً إلى التابوت، ولذلك عليك إنجاز بعض العمل المسبق إذا أردت الكثير من الأشخاص حولك عندما يحين دورك.

تحدث كل من سوزان وإدوارد وكارولين إلى بعض الأشخاص الذين يعرفونهم، وبدا الأشخاص مختلفين قليلاً الليلة، فعرفتُ أنا أيضاً بعض الأشخاص، بمن فيهم بيريل كارليسل، امرأة متزوجة كانت تغازلني حين تتاح لها الفرصة، وهي الآن مطلقة؛ ماذا أفعل إذاً الليلة؟

حسناً، عدنا أنا وسوزان إلى بعضنا. أليس هذا رائعاً؟ وفي الواقع، ها هي. جاءت سوزان وألقت التحية على بيريل. اعذراني.

حين عشتُ هنا، كانت لعنة حياتي حضور حفلات الزفاف والجنازات - الكثير من الاثنتين - من دون ذكر العمادات، وحفلات الخطوبة، وذكرى الميلاد، وحفلات التقاعد. أقصد، إذا توجب علينا الاحتفال بالمراحل الانتقالية للأشخاص، لمَ لا تكون هناك حفلة طلاق؟ أنا أؤيدها.

تحققتُ من ساعتي، ولاحظتُ أن عشرين دقيقة قد مرّت، بالرغم من أن الوقت بدا أطول. عدتُ أدراجي إلى الردهة حيث إشارة الخروج.

يفترض بسوزان أن تجمع شمل العائلة، لكنها كانت تأخذ وقتها، فانتظرت وأنا أحدق متعمداً إلى إحدى تلك اللوحات شبه الروحية - أظهرت هذه اللوحة أشعة شمس خارجة من الغيوم لتشرق على غابة، حيث تعيش كائنات صغيرة بسلام وتناغم. مريع. لكن هذا أفضل من إجراء محادثة مع رفاقي الحاضرين في الجنازة.

تقدّمت نحوي سوزان وقالت: "نحن جاهزون".

استدرت ولاحظت أن مجموعتنا كبرت. أعلنت سوزان: "يودّ طوم وبيتسي الانضمام إلينا".

هذه إشارة جيدة. لكن لسبب ما، كانت أمي تقف أيضاً هناك، وقالت لي: "دعتني أيضاً سوزان للانضمام إليكم".

كيف وصلت إلى هنا؟ استعدت رباطة جأشي بلطافة وقلت: "لا تحتاج الجدة أبداً إلى دعوة".

وهكذا خرجنا، وتطوع إدوارد وكارولين بشجاعة للركوب مع الجدة في سيارتها، وهي حديثة العهد في القيادة، منذ خمسين عاماً. ركب طوم جونيور وبيتسي في سيارتنا، وكانا سعيدين للإفلات باكراً من دار جنازة والتون، وراحا يتحدثان مع بعضهما. ولدان لطيفان. تساءلتُ إذا ما كانت بيتسي ستحب لوس أنجلوس. أخبرني طوم أنه يريد الانتقال إلى مانهاتن. وإذا لم يستطع تحمل الكلفة في مانهاتن، سينتقل إلى بروكلين. فكرة رائعة.

تم إرشادنا إلى طاولة مستديرة في غرفة الطعام في سيوانهاكا، وحرصتُ على أن يجلس الأولاد معاً، وأن تجلس سوزان بيني وبين هارييت.

دوّنت النادلة الطلبات، لكن هارييت لن تشرب لأنها ستقود السيارة، بالرغم من أنها تقود بالطريقة نفسها، سواء أكانت رزينة أو غير متزنة. قررتُ أن تكون سوزان هي السائقة، مما أتاح لي فرصة احتساء كأس من الشراب الاسكتلندي المضاعف مع قطع الثلج. تشارك الأولاد احتساء قنينة من الشراب الفرنسي الأبيض.

بدوا جميعاً منسجمين مع بعضهم، ولم نتطفل على أحاديثهم، سوى ذكري كم أحب لوس أنجلوس. أظن أنني قلت أيضاً إن بروكلين أصبحت الضفة اليسرى لنيويورك. ركلتني سوزان تحت الطاولة.

كانت هارييت لطيفة نسبياً، لكن للأمر علاقة بسوزان وليس بي. إنها تستلطف سوزان، ولطالما فعلت ذلك، بالرغم من اتخاذ سوزان خيار سيئ في الزواج.

وصل بعض الهاربين الآخرين من الجناح أ، وتجولت هارييت وسوزان في الغرفة قليلاً، فانتهزت الفرصة للخروج إلى المصطبة الخلفية مع مشروبي والنظر إلى المراكب الشراعية وهي تتأرجح فوق المياه.

بالرغم من المال، والعدد الكبير من السكان، يبدو هذا المكان أحياناً وكأنه بلدة صغيرة في أميركا. هذا هو الجزء الجميل في العيش هنا. لكنه أيضاً العقبة. يمكنكَ عزل نفسك، خصوصاً إذا كنتَ تملك ما يكفي من الأرض والمال - لكنك لا تستطيع أن تكون مجهول الهوية.

أحببتُ لندن لأنني وأنا أقيم في لندن لم يكن لديّ أي ماضٍ، وكما هي الحال في أي مدينة كبيرة، يمكنك العيش لوحدك، أو يمكنك العثورَ على صحبة، في أي وقت وأي مكان، في أي يوم تريده. أما هنا فتكون جزءاً من مجتمع، سواء أأحببت ذلك أم لم تحبه.

أفهم الآن سبب رغبة الشباب - مثل الأربعة الجالسين أمام الطاولة - في العيش في لوس أنجلوس، أو نيويورك، أو أي مكان يستطيعون أن يفعلوا فيه ما يريدون، ومتى يريدون، ومع من يريدون.

لا أعرف إذا ما كانت قد انتهت أيامي في لندن إلى الأبد، أو إذا ما كنت سأنتهي في مانهاتن، أو هنا، أو في دار والتون. يصعب التصديق أن مغفلين - أنطوني بيلاروزا وويليام ستانهوب - يستطيعان تعديل مستقبلي، ومستقبل سوزان، ومستقبلنا معاً.

عادت هارييت برفقة ولديّ آل كوربيت إلى منزل أمهما، وتوجه آل ساتر مجدداً إلى ستانهوب هال.

قلتُ لإدوارد وكارولين: "أنا مسرور لأنكما استطعتما قضاء بعض الوقت مع الجدة هارييت".

وافقاني الرأي، وقالت كارولين: "إنها مرتبة فعلاً".

المشكلة أنا، ربما. قلت: "احرصا على البقاء على اتصال معها". فباستثناء آلاف ثعالب الماء البحرية، لديها فقط أربعة ورثة من البشر، وهي غير مولعة باثنين منهم.

سألت، بطريقة مرتجلة: "هل اتفقتما مع طوم وبيتسي؟".

لا جواب.

قلت: "بدوتم وكأنكم تمضون أوقاتاً جيدة".

قال إدوارد: "إنهما لطيفان".

أصررت: "يبدوان ولدين رائعين".

لا جواب.

قالت سوزان: "جون".

لم أجب.

قبل أن نصل إلى غرايس لاين، اتصلت سوزان بصوفي عبر هاتف المنزل وتحدثت معها لبرهة قبل أن تسألها: "هل لدينا بصل للغد؟".

أجابت صوفي: "ليس لدينا بصل هنا".

"حسناً، سأحضر البعض منه غداً. أراك خلال دقائق قليلة". ألقت نظرة سريعة عليّ، وأومأت برأسي، وأنا سعيد لأن صوفي لم تتلقَ رصاصة من مسدس في رأسها، وهذا ما تعنيه عبارة "لا بصل".

في الواقع، لم نخبر صوفي بكل شيء عن مشكلة المافيا، ولا حتى عن مشكلة المجرم الإيراني. لكننا أخبرناها فقط أننا عززنا إجراءات الأمن تحسباً للمعتدين أو السارقين. لم تكن سعيدة بذلك، لكنها استوعبت مفهوم كلمات المرور المشفرة: بصل أو لا بصل. جربنا كلمات البندورة والثوم والخيار قبل أن نستقر على البصل. إنها تحب البصل.

حين وصلنا إلى غرايس لاين، استخدمتُ الهاتف الخلوي الخاص بسوزان للاتصال بمنزل الحراسة والإعلان عن وصولنا الوشيك. وحين وصلنا إلى البوابات، كانت مفتوحة، ولوّح لنا رجل الأمن. هذه الطريقة ناجحة ربما.

بعد العودة إلى منزل الضيوف، جلسنا نحن الأربعة في الغرفة العائلية في الطابق العلوي وتناوبنا الأحاديث، مثلما فعلنا قبلاً لبالٍ عدة، قبل أعوام عدة. وبدا الوقت الآن مثل الأوقات القديمة. لا بل أفضل، لأنه بدا وكأننا فعلنا ذلك طوال السنوات العشر الماضية.

نظرتُ إلى سوزان ولاحظتُ أنها سعيدة مثلما لم أرَها قبلاً. حسناً، هذا صحيح. لا نعرف قيمة ما نملكه إلى أن نخسره. وإذا استطعنا استرداده، يصبح أفضل من المرة الأولى.

قرابة منتصف الليل، تعانقنا جميعاً وتبادلنا القبلات وتمنينا لبعضنا ليلة سعيدة.

قلتُ لإدوارد وكارولين: "حاولا النزول لتناول الفطور في الساعة التاسعة".

قالت سوزان: "ناما قدر ما تشاءان".

من المسؤول هنا؟

استعددنا أنا وسوزان للنوم، بما في ذلك تحضير الترسانة الحربية. قالت لي: "أريد البندقية الكبيرة الليلة".

"حصلت على البندقية الكبيرة البارحة".

"لا، كانت معي البندقية الصغيرة".

"لماذا تفعلين ذلك دائماً؟".

ضحكت، ثم عانقتني بقوة وقالت لي: "جون، أنا سعيدة جداَ. لكنني أيضاَ خائفة".

"حقاً؟".

"قليلاً. أحياناً".

قلت لها: "لا بأس. ترك مانوسكو رسالة. لا يزال أنطوني مفقوداً.

"جيد".

ليس جيداً. قلت لها: "قد يظهر يوم السبت في دفن غوتي، وسيكون مانوسكو هناك".

"يجدر به اعتقاله".

أفضل أن يقتله العم سال، لأن هذا يحل الكثير من مشاكل الناس. لكن في الوقت الحاضر، يشعر العم سال بالقليل من العصبية أيضاً.

قلت لها: "أعدك أن الأمر سينتهي قريباً".

لم تشأ أن تعرف كيف عرفتُ ذلك، فانتقلت إلى مشكلة أخرى وأبلغتني: "يعرف إدوارد وكارولين أن جدهما لا يوافق على زواجنا، وقد يحرمني من نفقتي السنوية، وربما يحرمني من الميراث".

"حسناً. وهل يعرفان أن الشيء نفسه قد يحصل معهما؟".

"لم أشأ طرح هذه المسألة".

"حسناً، كان يجدر بك ذلك".

"جون، هذا لن يحصل".

"حسناً. هل طلبتِ منهما أن يكونا لطيفين جداً مع الجد والجدة؟".

"لم أفعل. إنهما يحبان جديهما، ولا حاجة إلى إخبارهما بضرورة التصرف بلطافة معهما".

على العكس من جون ساتر مثلاً. قلت لها: "حسناً". لا جدوى من التخمين. سنرى من هو المحق في هذا. انتقلتُ إلى موضوع آخر مهم وسألت: "أين هو قميصي الخاص بجامعة يال؟".

"في الغسيل".

"وكم سيبقى في الغسيل؟".

"لوقت طويل".

خلعت ثيابي، وتمددت في السرير.

خلعت سوزان ملابسها أيضاً وقالت: "كنت لطيفاً جداً مع أمك الليلة".

“إنها امرأة ودودة”.

“إنها تحبك جون”.

“أعرف”.

“وأريد أن أقدم لك شيئاً لطيفاً لأنك كنت لطيفاً مع والدي، وأمك، وللتصرف كما يجب في دار الجنازة”.

“وفي أي نوع من المكافأة الإيجابية تفكرين؟”.

“كنت أفكر في العلاقة الحميمية”.

“هذا ما كنت أفكر فيه بالضبط”.

الفصل السابع والخمسون

نزلت كارولين لتناول الفطور في التاسعة صباحاً، لكن إدوارد لم ينزل. ذكرتني سوزان: "إنها السادسة صباحاً في لوس أنجلوس".

أجبتها: "نحن في نيويورك. والسادسة صباحاً في أي مكان في العالم هي وقت جيد للنهوض والإشراق".

التفتت الأم وابنتها إليّ وعادتا لتناول الغرانولا وقراءة الصحف.

كان يوماً ممطراً، ولذلك كانت خياراتنا محدودة، لكننا قررنا الذهاب إلى المدينة، وزيارة المتحف، ومن ثم أرادت سوزان طبعاً شراء الثياب برفقة كارولين. وكانت مهمتي إقناع إدوارد بشراء بذلة رسمية وبعض السترات الرياضية الجديدة.

فيما كنا ننتظر استيقاظ الأمير إدوارد، قرأت الصحف المحلية، وعثرت على مقالة عن جون غوتي. آخر الأخبار في القصة المستمرة لجثة السيد غوتي هي أنها لا تزال مسجّاة في دار جنازة بابافيرو، لكن مثلما عرف مانوسكو قبلاً، سيتم نقل الجثمان إلى دار عبادة في مقبرة القديس جون في الكوينز صباح يوم السبت، أي غداً. ما من دعوة للعموم.

في هذا الموضوع، لم أتلقَ بعد أي خبر من السيد مانوسكو حول مكان وجود أنطوني بيلاروزا، لكن السيد مانوسكو قال إنه سيتصل بنا من المقبرة لإبلاغنا بوجود أو عدم وجود أنطوني بين المجموعة المختارة من الأصدقاء وأفراد العائلة المدعوين للدفن.

يقول لي حدسي إن الظهور التالي لأنطوني بيلاروزا سيكون في دفن العم سال، أو دفنه هو. إذا لم يكن دفني أو دفن سوزان.

على أي حال، ذكرت المقالة في الصحيفة المحلية بعض الأخبار عن مهنة غوتي، بما في ذلك الأشخاص الذين قتلهم شخصياً، والأشخاص الذين أمر بقتلهم، بمن فيهم مديره، بول كاستيلانو، الذي تم قتله أمام سباركس، أحد المطاعم التي تقدّم أنواع اللحوم المفضلة لديّ. رصاصة أخرى على ذلك المكان. خطر في بالي أنه لو قتلتُ شركائي قبل عشر سنوات، لكنت موجوداً الآن في 23 وول ستريت، وسيكون اسمي الاسم الوحيد المدوّن على الباب.

حسناً، هذا أسلوب إدارة متطرف، وربما غير ملائم لشركة قانون نظيفة السمعة. لكن...

على الصعيد الشخصي، ذكرت المقالة حادثة الموت المأساوي لابن السيد غوتي، فرانك، البالغ من العمر اثني عشر عاماً، والذي تم قتله في الشارع أمام منزل غوتي في هوارد بيتش، الكوينز، لأن جاراً له، اسمه جون فافارا، داس بسيارته الصبي فيما كان راكباً على دراجته الصغيرة. تم اعتبار الوفاة حادثاً، لكن سواء أكانت حادثاً أم لا، اختفى السيد فافارا بعد أربعة أشهر، ولم يظهر مجدداً.

تذكرت هذه المأساة، وحين قرأت عن اختفاء السيد فافارا بعد أربعة أشهر، تساءلتُ عمّا إذا كان قد اقترح عليه أحدهم الابتعاد عن المنطقة إذا أراد أن يعيش حياة أفضل وأطول.

لكن لا يجدر بك انتقاد القرارات السيئة للأشخاص الآخرين. أقصد، على العكس مما يبدو للآخرين، يمكن لأي شخص كان أن يجد نفسه ساكناً بالقرب من سيد مافيا يملك ثأراً شخصياً ضده. في الواقع، أعرف ثنائياً يعيش مثل هذا الوضع. يجدر بهما الانتقال ربما.

ثمة معلومات شخصية أخرى عن الراحل جون غوتي وهي أنه كان، مثل فرانك بيلاروزا، مولعاً كثيراً بنيكولو مكيافيللي. حسناً، من الجيد رؤية رجال صارمين يحاولون تحسين عقولهم بقراءة كتابات أسياد النهضة. لا يكون المرء كبيراً أبداً على تعلم شيء جديد عن الطبيعة الإنسانية، وكيفية الفوز بأصدقاء، والتأثير في الأشخاص، وإدارة إمارة أو إمبراطورية إجرامية.

في هذا الموضوع، ذكرت المقالة أيضاً أن السيد غوتي كان يعتبر نفسه قيصراً. لذا، حاول ربما الجمع بين هذين الأسلوبين المختلفين - الديكتاتوري والماكر. ويبدو أنه نجح أيضاً إلى حد ما، تماماً مثل فرانك بيلاروزا الذي، فضلاً عن كونه مكيافيللياً، كان مولعاً أيضاً ببنيتو موسوليني.

يحب مثل هؤلاء الأشخاص - سواء أكانوا إيطاليين أو غير إيطاليين - القوة، ويحبون استخدامها. ويمكنك أن تعرف من أين أتوا من خلال الدور الذي يقررون تأديته. إلا أن أنطوني بيلاروزا - القيصر الصغير - كان برأيي رجلاً مصاباً بهلوسات العظمة، وكان وريثاً فاشلاً لإمبراطورية والده. لكن هذه ليست مشكلتي - مشكلتي هي أنه شخص خطير يتصرف بطريقة متهورة. قد يكون حدسه جيداً، مثل والده، لأن دماغه ليس هو من أبقاه بالطبع على قيد الحياة حتى الآن. أذكر أن فرانك بيلاروزا كان في أحسن الأحوال مثل الجمع بين الذكاء، وجنرال معارض. أما أنطوني بيلاروزا في أحسن الأحوال فهو شخص يحاول أن يقلد حيواناً مفترساً، من دون ذكاء - وإنما فقط معدة فارغة تحتاج إلى ملئها.

حسناً، بالعودة إلى جون غوتي. ذكرت المقالة أيضاً ميل السيد غوتي إلى شراء بذلات بريوني الرسمية بسعر 2000 دولار للبذلة الواحدة. قلتُ لسوزان: "سأشتري لإدوارد بذلة بريوني".

"وهل هي بذلة جيدة؟".

"ممتازة. سعرها ألفيّ دولار تقريباً. مصنوعة يدوياً في إيطاليا".

"يجدر بك شراء واحدة لنفسك".

"لِمَ لا؟ قد نعقد صفقة".

ظهر إدوارد قرابة العاشرة صباحاً، وفيما كان يرتشف القهوة، حضّرت له سوزان فطوره المفضل المكوّن من البيض المقلي، والنقانق، والبسكويت المدهون بالكثير من الزبدة. إنه أيضاً فطوري المفضل، ولذلك قلت: "أريد الشيء نفسه".

"لا، لن تفعل".

أقصد، ثمة شخص يحاول قتلنا، فما الفرق في أن أطيل مدة عيشي إذا تناولت أطعمة غير صحية؟ ماذا أفوّت على نفسي هنا؟

قررت سوزان استئجار سيارة وسائق للقيام بمغامرتنا في المدينة - لا انتظار تحت المطر لسيارات الأجرة، ولا مشكلة ركن السيارة في مرأب - ووصلت السيارة في الساعة الحادية عشرة. هذا صحيح، سواء أكنت غنياً أو فقيراً، من الجميل امتلاك المال.

محطتنا الأولى في مانهاتن كانت متحف فريك في الجادة الخامسة، وسألت سوزان إذا كانت صديقتها تشارلي فريك تعمل هنا. لم تجب، ولذلك لم أعرف، ولم أرَها هناك.

متعنا أنفسنا برؤية نماذج من الفن لمدة ساعة وسبع وعشرين دقيقة، ثم تناولنا غداء لذيذاً في لا غولو، أحد مطاعمي المفضلة في آبر إيست سايد.

إدوارد، في أعماقه، هو نيويوركي أصلي، ومعظم أصدقائه يعيشون في هذه المدينة، لكنه اختار مهنة وربما حياة ستبقيه مستقراً في الساحل الغربي. لا تستطيع سوزان التأثير في ذلك، لكن لو امتلكت ثروة ستانهوب، لوجدت طريقة لعودة إدوارد. المثير للسخرية، أنه مقابل استثمار قيمته خمسون ألف دولار فقط، كان بوسعي سؤال أنطوني للتفكير في طريقة لتسريع عملية الحصول على إرثها. ليست هذه فكرة جميلة. إنها قذرة على أي حال. كنت أملك الفرصة، لكن التوقيت كان غير مناسب.

بعد الغداء، أوصلنا سائق السيارة أنا وإدوارد إلى متاجر بريوني في الشارع 52 شرقي، وبقيت السيدتان في السيارة للذهاب إلى ماديسون والجادة الخامسة.

إدوارد مولع بالتسوق بقدري، لكننا اشترينا له بذلة بريوني مع الأكسسوارات الملائمة. لم يكن إدوارد يرغب فعلاً في شراء بذلة بقيمة ألفيّ دولار، لكنني أخبرته أن هذا سيجعل أمه سعيدة، وأن هذه بطاقة اعتمادها، ولذلك تكلفه هذه البذلة فقط بعض الوقت والقليل من الضجر. ستكون البذلة جاهزة خلال ثمانية أسابيع ويتم إرسالها إلى لوس أنجلوس. تمنيت لو أنني ابن سوزان ستانهوب. في الواقع، طلبت مني شراء بذلة لي، لكن علينا البدء بالاقتصاد، بالرغم من أن سوزان لم تستوعب ذلك بعد.

قررنا أنا وإدوارد أن هذا التسوق كافٍ ليوم واحد، واتصل إدوارد بسائق السيارة عبر هاتفه الخلوي، وجاء السائق لاصطحابنا إلى نادي يال في جادة فاندربيلت.

جلسنا في القاعة الرئيسية الكبيرة، وقرأنا الصحف، وتحدثنا، وشربنا بعض أكواب عصير البندورة التي أضاف إليها أحدهم الشراب الروسي حسبما أظن.

اتصلت سوزان بهاتف إدوارد الخلوي في تمام الخامسة، وقال لها إننا نشرب شاي بعد الظهر في نادي يال. إنه ولد جيد.

كانت زحمة السير في ساعة الذروة تحت المطر يوم الجمعة فوضوية، ولذلك لم نصل إلى المنزل إلا بعد السابعة مساء.

صُدمت حين اكتشفت أن صندوق السيارة مليء بالعلب والأكياس، وتوجب علينا نحن الأربعة، إضافة إلى السائق، نقلها إلى المنزل. لكن قبل أن أصدر ملاحظة ساخرة، أعلنت سوزان: "اشترينا لك أنا وكارولين ربطة عنق".

حسناً، شعرت بالسوء على ما كدت أقوله، لكنني قلت: "شكراً. أتمنى أنكما لم تدفعا الكثير".

ظننت أنه يجدر بي إخبار سوزان، على حدة، أنه عليها توفير أموالها فقد تداهمنا مجاعة مالية، لكنها تملك معلومات بقدري في هذا الخصوص، وهذا ما تفعله ربما - تخزن أرماني، وإسكادا، وبرادا وغوتشي للأوقات العصيبة. تفكير جيد. ومع بذلة بريوني، نكون جعلنا الاقتصاد الإيطالي في وضع جيد.

تحققتُ من الرسائل الهاتفية، وكان هناك العديد منها، ولكن ما من واحدة من السيد مانوسكو، الذي كان سيتصل على أي حال بهاتف سوزان الخلوي لو أراد إخبارنا بشيء مهم.

تحققتُ أيضاً من بريدي الإلكتروني وكانت هناك رسالة من سامنتا تقول: سآتي إلى نيويورك غداً. أصل في وقت متأخر بعد الظهر. وافيني إلى فندق لامارك عند السابعة.

فندق جيد، لكنني لا أظن أن هذا سينجح، ولذلك كتبت لها بسرعة تحاول المافيا قتلي، وأنا مخطوب وعلى وشك الزواج. يصعب تصديق ذلك، لكن... لا بد من وجود طريقة أفضل لإخبار ذلك. حذفتُ ما كتبته وقلت عزيزتي سامنتا. لقد عدنا أنا وزوجتي السابقة إلى بعضنا و...".

دخلت سوزان وسألتني: "إلى من ترسل بريداً إلكترونياً".

"مكتبي".

"لماذا؟".

"أنا أستقيل".

"جيد". سحبت كرسياً وجلست قربي. "دعني أساعدك".

"حسناً...". نظرتُ إلى ساعتي. "قد يستغرق ذلك بعض الوقت، وعلينا الذهاب إلى دار الجنازة".

"سيستغرق ذلك بضع دقائق".

أظن أن الوقت قد حان لحرق الجسر الذي كنت أنوي تركه. لذا، بمساعدة سوزان، كتبتُ رسالة لطيفة جداً وإيجابية للشركة التي أعمل فيها، وأبلغتهم فيها أن القرار كان صعباً جداً بالنسبة إليّ، وعبّرت عن أملي بألا يسبب لهم قراري أي إزعاج وما إلى ذلك، وأكدت لهم أنني سأكون في لندن خلال أسابيع قليلة

لجمع أغراضي الشخصية، وإطلاع بديلي في العمل على نوعية المهام، وإنجاز كل المعاملات الضرورية لاستقالتي من العمل في الشركة.

اقترحت سوزان: "أخبرهم أنك ستتزوج".

"لماذا؟".

"كي يفهموا أنك لن تعود".

"ليس هذا ضرورياً".

"سيسعدون لأجلك".

"لا يهتمون. إنهم بريطانيون".

"هراء. أخبرهم".

هكذا، أعلنت خبري الجيد، الذي سيصل إلى سامنتا، عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني، خلال ثوانٍ قليلة. حسناً، إنها الساعة الثانية فجراً في لندن، ولديّ بعض الوقت الليلة لإرسال بريد إلكتروني إليها.

نقرتُ زر الإرسال، وذهب البريد إلى لندن. يفترض أن تتأخر هذه الأمور دقيقة لكي تتاح لك فرصة إعادة النظر، أو على الأقل إخراج زوجتك أو صديقتك من الغرفة.

الخلاصة هنا هي أنني كنت أحاول تغطية كل قواعدي واللعب من كل الزوايا. لكن في التحليل النهائي، احتجت إلى خطو خطوة نحو الأفضل.

إذا توجب عليّ ترك سوزان، لن يكون ذلك لأنني أردت تركها. سيكون ذلك لأنني اضطررت إلى تركها لضمان مستقبلها، ومستقبل ولدينا. هذا شيء جيد، وكل ذلك.

أو، ربما، ستتخذ هي القرار الصعب للأسباب نفسها. غريزة الأم تقضي بحماية أولادها، وأنا أفهم ذلك.

سألتني سوزان: "بمَ تفكر وأنت جالس هنا؟".

"أفكر فيك وفي إدوارد وكارولين... وكم هو رائع تمضية هذا الوقت معاً".

"لدينا بقية حياتنا معاً".

وهذه هي المشكلة الأخرى.

الفصل الثامن والخمسون

وصلنا إلى دار والتون في الثامنة والربع، وكالعادة، في اليوم الأخير من الجنازة، يكون جميع المعنيين هنا، فضلاً عن مجموعة كبيرة من السيدات من دار عبادة القديس مرقص.

أنجزنا الخطوات الروتينية الاعتيادية: التوجه أولاً إلى حيث وضع التابوت - لا تزال إيثيل تبدو جيدة - ثم ألقينا التحية على الجالسين في الصف الأمامي، ثم تجولنا في الجناح أ مجدداً، ثم خرجنا إلى الردهة وقاعة الجلوس. لديّ إحساس قوي بأنني رأيت كل ذلك قبلاً.

كان ويليام وشارلوت هناك، بالرغم من أنه لم تتح لي فرصة التحدث إليهما. في الواقع، تفادينا بعضنا البعض. أمي كانت هناك أيضاً، وحرصت على إلقاء التحية عليها.

وكانت هناك أيضاً ديان نايت، ممرضة إيثيل في دار العجزة، التي كانت لطيفة، لكنني لاحظتُ أنني لم أرَ أبداً الطبيب المسؤول عن الميت في دار الجنازة. أظن أن هذا قد يكون غريباً.

لمحت أيضاً محاسب إيثيل، مات ميلر، وتحدثتُ إليه لدقيقة عن أهمية الاجتماع معاً لإجراء الحساب الأخير لإيثيل. أقصد، من غير اللائق إنجاز العمل في دار الجنازة، لكنك تستطيع تحديد المواعيد.

كانت رفيقة سوزان على الغداء، تشارلي فريك، موجودة أيضاً، وعرّفت عن نفسي وأخبرتها أنني ذهبت إلى متحفها في وقت سابق من اليوم. قلت لها: "مكان جميل. الكثير من التحف الفنية". ثم لفتُّ انتباهها إلى اللوحة الروحانية المريعة المعروضة في القاعة وقلت لها: "ستبدو هذه جيدة في الفريك".

اعتذرت مني وانسحبت، للتحدث مع سوزان بشأني ربما.

صادفتُ أيضاً جودي ريمسن، التي كانت صديقة جيدة لنا في الأيام القديمة، وبدت مسرورة لرؤيتي. عرفت قبلاً بأخبارنا الجيدة وكانت سعيدة لأجلنا. إنها السيدة التي رأتنا بالجرم المشهود على المصطبة، وأنا واثق من أنها تتذكر ذلك كلما رأتني. لم أذكر لها الحادثة طبعاً، لكنني قلت لها: "مرّي علينا الأسبوع المقبل وانضمي إلينا في الجلوس على المصطبة".

"أنا... نعم، يبدو ذلك رائعاً".

"اتصلي مسبقاً". ابتسمت.

اعتذرت.

ثم صادفتُ ليستر رمسين، زوج جودي، الذي كان أيضاً صديقاً لي ويعمل سمساراً في البورصة. تشاجرنا أنا وليستر بشأن اصطحاب فرانك وآنا بيلاروزا إلى الكريك لتناول العشاء. كانت سوزان موجودة أيضاً في موعد العشاء، طبعاً،

لكنها تجاهلت ذلك، مثلما تتجاهل كل شيء تقريباً. أنا دائماً الرجل السيئ. لكنني أتملق بالإرضاء.

عرض عليّ ليستر خدماته المهنية إذا احتجت إليها مجدداً. فبورصات الدماغ والأمن الإلكتروني رائجة في الوقت الحاضر. قلت له: "السترات الواقية من الغاز. سيكون ذلك عملاً مهماً".

رأيتُ أيضاً آل ديباوز، الثنائي الذي عاش في المنزل على الهضبة المقابلة لبوابات الحمرا، حيث أنشأت الأف بي آي مركز مراقبتها لتصوير السيارات والزوار الواصلين إلى منزل فرانك - بمن فيهم أنا وسوزان - وسألته إذا ما كان لا يزال يقدم تلك الخدمة للأف بي آي.

قال لا، واعتذر آل ديباوز مني.

تفادتني بيريل كارليسل، وصدّتني ألثيا غوين.

العودة رائعة.

في القاعة الكبيرة، لمحت الأب جايمس هانينغس. إنه رجل، مثلما ذكرت قبلاً، لا ينتمي إلى فئة الرجال المفضلين لديّ، بالرغم من أنه يبدو مفضلاً لدى الآخرين. ربما المشكلة فيّ أنا. لكنني أظن أن المشكلة فيه.

على أي حال، لمحني، واقترب نحوي، وقال بصوته الواعظ: "مساء الخير!".

أجبته: "مساء الخير"، من دون تقليده، حسبما آمل.

"كيف حالك جون؟".

"رائع". لكن قبل خمس ثوانٍ فقط. سألته: "كيف حالك أنت؟".

"أنا بخير. شكراً على السؤال".

"والسيدة هانينغس؟ كيف حالها؟".

"إنها بخير. وسأخبرها أنك سألتَ عنها".

لم أفهم أبداً لماذا لم تقم زوجته علاقة غرامية مع أحدهم. إنها جذابة جداً وتكشف عن لمعان في عينيها.

سألني: "هل لديك بعض الوقت؟".

"أوه... حسناً...".

"أودّ التحدث إليك على انفراد".

حسناً، كنت فضولياً قليلاً، لكنني أردت أيضاً الحصول على مشروب. قرارات، قرارات. قلت له: "حسناً".

اصطحبني عبر سلالم المنزل الفيكتوري القديم إلى باب غرفة علّق عليه رمز ديني، افترضتُ أنها مخصصة لرجال الدين.

اشتملت الغرفة على مكتب ومجموعة من الكراسي حول طاولة، وجلسنا أمام الطاولة.

بدأ: "أولاً، أريد الترحيب بعودتك".

"شكراً".

"أتمنى أن تنضم مجدداً إلى عائلتنا الروحية".

أظن أنه يعني رعيته. يصعب فهم اللغة الجديدة عند غيابك لفترة. على أي حال، هذه هي فرصتي لأخبره أنني لم أعد من رعيته، لكنني أجبته بدلاً من ذلك: "طبعاً سأفعل".

تابع: "سمعتُ، طبعاً، أنك أنت وسوزان عدتما إلى بعضكما".

"الأخبار الجيدة تنتقل بسرعة".

"بالفعل. أفترض أنك تنوي أنت وسوزان الزواج مجدداً في دار عبادة القديس مرقص".

"سيكون ذلك ملائماً. هل سنحصل على حسم التكرار؟".

"حسناً، أتمنى إذاً أن تخضعا أنت وسوزان لبعض النصائح الروحية السابقة للزواج".

لقد حصلت عليها من ويليام، لكنني أجبته: "حسناً، كنا متزوجين قبلاً ببعضنا".

"أعرف ذلك، جون، لكن، إذا بدوت ساذجاً، يجب معالجة ظروف انفصالكما وطلاقكما في سياق رعوي، وأكون مسروراً في توفير ذلك".

"حسناً... تعرف يا أبتي أنه مضى وقت طويل على طلاقنا، وبالكاد أتذكر ما دفعنا إلى اتخاذ هذا القرار".

وجد أنه يصعب تصديق ذلك قليلاً - وكذلك أنا - لكنه نصحني: "تحدث إلى سوزان بشأن النصائح الروحية، وأبلغني أرجوك بالنتيجة".

"سأفعل".

أبدى ملاحظة نهائية وقال: "تريد أن تبني مؤسسة صلبة، كي لا ينهار منزلك مجدداً".

"مقاربة جيدة". خطرت في بالي الفكرة أن الأب هانينغس يريد فقط معرفة كل التفاصيل الدسمة في علاقة سوزان الغرامية، وقتلها لفرانك بيلاروزا، وربما حتى حياتنا الحميمية منذ ذلك الحين. صفعت نفسي بطريقة عقلية، وقلت: "أقدر لك اهتمامك".

أجابني: "أنا أؤدي عملي فقط، جون".

"جيد. حسناً... نعم. جيد". ألقيت نظرة على ساعتي.

تابع القول: "وبِالحديثِ عن المنازل، أفهم أنك تعيش أنت وسوزان معاً".

من قال؟ حسناَ، فهمتُ إلى أين سيؤدي ذلك، ولذلك أجبته: "أنا أنام في غرفة الضيوف".

"حقاً؟".

"طبعاً". هذا لا يصدق أبداً، لكن عليك التمسك برأيك، حسبما أظن. كان بوسعه القول إنه أثار هذا الموضوع مع أحد الخطأة، وأنه أعلن عدم موافقته على ما يحصل. كدت أسمعه الليلة على طاولة العشاء مع زوجته - ماذا كان اسمها؟ سارة؟ جذاب فعلاً.

"جون؟ قلت إن الله لن يرضى على العلاقة إذا كنتما تتشاركان السرير نفسه".

بدأتُ أشعر وكأنني في الثامنة عشرة، وهذا ممتع قليلاً. أجبته: "أفهم".

"جيد. أتخيل أن إدوارد وكارولين سعيدان لأجلكما".

"إنهما متحمسان".

ثم أجرى نوعاً من القفزة العقلية، وقال: "طلبت مني أمك التحدث إليك".

"عمَّ؟".

أجابني: "ذكرت لي أنكما أصبحتما مثل الغريبين. إنها غاضبة كثيراً لأنك لم تحضر دفن والدك".

"ولكن ليس أكثر غضباً مني حين اكتشفت أنه مات. كنت في البحر".

"نعم، أعرف". ثم غيّر الموضوع وقال: "إذا كان بوسعي السؤال، هل تلقى السيد والسيدة ستانهوب الخبر؟".

بدا هذا مثل السؤال الذي يعرف جوابه. أجبته: "لقد حضرا إلى هنا من أجل الدفن، ولذلك يمكنك سؤالهما مباشرة، إذا لم تسألهما قبلاً".

"رأيتهما هذا المساء. لكننا تحدثنا لبرهة فقط".

حقاً؟ أبلغته: "إنهما يقيمان في الكريك، إذا أردت الاتصال بهما".

قال الأب هانينغس: "لطالما كانا عضوين ناشطين وكريمين في الرعية، وأحترمهما كثيراً، وأعرف أن سوزان تحبهما، ولذلك أنا قلق عليكم جميعاً إذا لم يمنحانكما مباركتهما".

أخذتُ نفساً عميقاً وقلت له: "لا أكترث لمباركتهما - أو مالهما. ولا يجدر بأمي الاكتراث أيضاً، إذا كان هذا مصدر قلقها. وإذا كان ويليام وشارلوت لا يزالان يتبرعان لدار عبادة القديس مرقص، نستطيع أنا وسوزان الزواج في مكان آخر، إذا كان هذا مصدر قلق بالنسبة إليك".

رفع يده - السلام؟ اخرس؟ قال: "أودّ، جون، ألا يكون زواجك بسوزان مبنياً على قرار غير صحيح، وأن يلبي توقعاتك وتوقعاتها، وأن تدخلا معاً في سرّ الزواج المبجل وأنتما تعرفان تماماً واجباتكما".

سيطول هذا الحديث، ولكنني لا أعرف كم. وإذا استطعت التخمين، أقول إن ويليام تحدث قبلاً إلى الأب هانينغس وأخبره أنه هو والسيدة ستانهوب يعارضان تماماً هذا الزواج، ويودّ لو أن الأب هانينغس يتحدث إلى جون وسوزان في جلسة نصائح روحية، وعلى نحو منفصل طبعاً. فرّق تسد. لا شك في أن ويليام ستانهوب أخبر الأب هانينغس أن جون ساتر يسعى وراء المال. وقد يقول ويليام حتى للأب هانينغس إن جون طلب مبلغاً مالياً منه للعزوف عن الخطوبة والزواج. وسيتبرع ويليام طبعاً بمبلغ مهم لدار عبادة القديس مرقص.

لا أشك أبداً في ما قاله ويلي السخيف. لكنني لا أظن أن الأب هانينغس سيوافق معه على كل شيء، وإنما سيبذل ما في وسعه، ويتأكد ربما من أن ويليام ستانهوب يملك مخاوف حقيقية. وإلا سينتقل إلى الخطوة التالية ويسألني عن طلب المال من ويليام. وقد يزرع حتى بعض بذور الشك في عقل سوزان.

ويليام عديم الشفقة، وغد مكيافيللي، ولكن بدلاً من توضيح ذلك للأب هانينغس، الذي له رأي جيد في ويليام، قلت له: "قررنا أنا وسوزان الزواج مجدداً، ويفترض ألا يكون ذلك من شأن أي شخص آخر".

"طبعاً، لكن الأمر مفاجئ جداً بعد كل هذه السنوات من الانفصال، وأنتما الآن معاً منذ... كم؟ أسبوع؟".

"منذ الأحد. قرابة الظهر".

"حسناً، أنا واثق من أنكما لن تستعجلا الزواج من دون تخصيص وقت كافٍ للتعرف إلى بعضكما".

"نصيحة جيدة". يستطيع على الأقل إخبار ويليام بأنه جرب. وقفتُ وقلت له: "حسناً، لا شك في أن سوزان والولدين يتساءلون عن مكاني الآن".

وقف هو أيضاً، لكنه لم ينتهِ. قال لي: "زرتُ السيدة ألارد كثيراً حين كانت في دار العجزة. كانت سيدة صاحبة إيمان وروح رائعين".

وافقته الرأي: "كانت لطيفة جداً".

"بالفعل. وذكرت لي أنك زرتها في فير هافن".

"أنا آسف لأنني لم أرَك هناك".

تابع القول: "اعترفت لي، بصفتي رجلَ دين، أنها كتبت لك رسالة".

نظرتُ إليه، لكنني لم أجب.

تابع القول: "أخبرتني بالإجمال عن محتوى تلك الرسالة، وسألتني إذا ما كان يجدر بي تسليمها إليك".

لم أجبه مجدداً ولذلك قال: "أعتقد أن إليزابيت كانت ستعطيك الرسالة عند موت إيثيل. هل فعلت؟".

قلت له: "أفضل عدم مناقشة ذلك".

أومأ برأسه وقال: "مثلما تريد". ألقى نظرة على ساعته وقال: "أوه، لقد حان وقت تأدية المراسم الدينية".

اتجهنا معاً نحو الباب، وقال: "أتمنى أن تبقى معنا وتشارك".

"أتمنى لو أستطيع".

نزلنا السلالم وانتهزتُ الفرصة لإخباره: "أنا محامي ممتلكات السيدة ألارد، مثلما تعرف، وفيما لم يتم الإعلان عن محتوى الوصية بعد، أظن أنني أستطيع البوح لك أن السيدة ألارد تبرعت بمبلغ مهم لدار عبادة القديس مرقص".

وصلنا إلى أسفل السلالم، وأومأ الأب هانينغس برأسه، وأظهر عدم اهتمام واضح وقال: "هذا كرم كبير منها".

ما كانت تلك الكلمة؟ قلت له: "يفترض توزيع حصص الميراث خلال ثمانية أسابيع. أريدك أن تكون حاضراً عند قراءة الوصية، وسأبلغك بالزمان والمكان". أو سأرسل شيك الخمسمئة دولار بالبريد، بعد حسم أجرة البريد.

كان الأب هانينغس يحاول معرفة المبلغ الذي تبرعت به إيثيل ألارد، وإذا كان تبرعها لدار العبادة سيؤثر فعلاً في حصة عائلتها من الميراث. لا يريد أن يكون جالساً معهم إذا كان ذلك سيحرمهم من قسم كبير من ميراثهم. لقد رأيتُ ذلك قبلاً.

أجابني أخيراً: "ليس ضرورياً أن أكون هناك".

"إذا بدّلت رأيك، أبلغني. هل تحب القطط؟".

"أوه... ليس تماماً. لماذا؟".

"حسناً... السيدة ألارد... لكننا نستطيع مناقشة ذلك في وقت آخر".

تمنينا لبعضنا أمسية طيبة.

رأيت سوزان في القاعة الكبيرة، وأبلغتني أن والداها غادرا لتناول العشاء مع أصدقاء لهما. فاجأني ذلك - ليس لأنهما لن ينضما إلى آل ساتر لتناول العشاء، وإنما لأنهما يملكان أصدقاء.

إلا أنني قلت لها: "تفاجأت وانزعجت لأنهما فوّتا فرصة للتواجد مع حفيديهما".

أجابتني سوزان: "حسناً، لقد تحدثا إلى إدوارد وكارولين".

"وهل كان اللقاء سعيداً؟".

"بدا كذلك".

لم يبدُ الكلام إيجابياً فعلاً. قلت لها: "يحاول والدك تجنبي، ويقطبان وجهيهما أمامي. وهما يعرفان أن إدوارد وكارولين سعيدان جداً لأجلنا. لذا، لا يسعد والداك برفقة إدوارد وكارولين".

"جون، لا تفرط في تحليل ذلك".

"حسناً. ماذا سنفعل الآن؟".

"هل تريد البقاء والمشاركة؟".

"أظن أننا نستطيع القيام بذلك لوحدنا في مشرب محلي".

ابتسمت وقالت: "فلنذهب إلى ماكغلايد. لم نذهب إلى هناك منذ فترة".

منذ عشر سنوات تقريباً. قلت لها: "يبدو ذلك جيداً".

أخبرنا الولدين، وأبلغت سوزان عدداً من الأشخاص عن مكان ذهابنا. تختلف تقاليد الدفن كثيراً في أميركا، لكن يجب هنا بعض الأشخاص الذهاب إلى مشرب بعد اليوم الأخير للجنازة - خصوصاً إذا كانت ليلة جمعة. وهل من مكان أفضل للتعبير عن الحزن؟

هكذا، قام آل ساتر برحلة الدقيقتين إلى مشرب ماكغلايد في ستاسيون بلازا، حيث كانت هناك مجموعة كبيرة من الساهرين ليلة الجمعة.

أعطينا المضيفة اسمنا وتوجهنا إلى المشرب.

تحدثنا أنا وسوزان مع بعض الأشخاص، الذين جاء بعضهم من دار جنازة والتون، من الجناحين أ و ب، وكنت لطيفاً مع الجميع تقريباً".

لمح إدوارد وكارولين بعض الأشخاص، ممن هم في سنهم، الذين يعرفانهم، وتحدثوا جميعاً في مجموعة واحدة في طرف المشرب.

كانت الموسيقى تعزف أغانٍ من حقبة الستينيات، وكان المكان حيوياً، ومليئاً بالساهرين من كل الطبقات الاجتماعية، وهذه علامة من علامات المشرب الجيدة. في الواقع، تفيد لائحة الطعام، مثلما أذكر، "مشرب ماكغلايد - حيث يلتقي رجال الجبال وفتيات النخبة". كانت سوزان تقول إن هذا ينطبق علينا.

بصفتي أنا سائق السيارة، التزمتُ باحتساء شراب الشعير الخفيف، فيما تحولت سوزان من الليدي ستانهوب إلى سوزي، واحتست بعض كؤوس الشراب الروسي مع المشروب المنشط. لاحظتُ أنها شعبية جداً، وخطر في بالي أنه لو لم أعد، لما بقيت وحيدة لوقت طويل.

بعد خمس وأربعين دقيقة تقريباً، حضّرت لنا النادلة طاولة، وقررنا ترك إدوارد وكارولين عند طرف المشرب مع أصدقائهما، وجلسنا وحيدين، الأمر الذي كان جميلاً. لم يكن هناك أي نوع غذاء صحي في لائحة الطعام، ولذلك تناولت عشاء أميركياً رائعاً. أحب أجنحة البافالو تلك.

بدا ذلك مثل الأيام القديمة، سوى أن سوزان اتصلت في العاشرة مساء بالمنزل قبل أن تخلد صوفي إلى النوم، وأكدت لها صوفي أنه حتى هذا الوقت لا يوجد رجال مافيا ينتظروننا في المطبخ. لا بصل.

قبل وقت قليل من منتصف الليل، أقنعنا الولدين بضرورة المغادرة معنا، وقبل دقائق قليلة من وصولنا إلى ستانهوب هال، اتصلت سوزان بمنزل الحراسة، وحين وصلنا كانت البوابات مفتوحة، ولوّح لنا الحارس. إلا أنني توقفت، وترجلت من السيارة، وشرحت له، بعيداً عن مسمع الولدين، مشكلتي مع جاري

سيد المافيا، وكان يعرف القليل عن ذلك. قلت له: "سأتصل بك من المنزل بعد عشر دقائق. إذا لم أتصل بك، اطلب الشرطة، وإذا أردت، تعال إلى منزل الضيوف". ثم أضفت: "مع سلاحك".

لم أعرف كيف سيتفاعل مع ذلك، لكنه قال: "انتظر هنا، وسأوقظ زميلي وأذهب معكم".

لم أشأ تضخيم المسألة أمام إدوارد وكارولين، وقلت له: "لا بأس. انتظر اتصالي".

أبلغني من ثم: "أنا شرطي سابق". عرّف عن نفسه بأنه الشرطي دايف كورون وأخبرني قليلاً عن إنجازاته في حال ظننتُ أنه مجرد شخص مصاب بجنون العظمة، كما هي حال العديد من رجال الأمن في الشركات الخاصة. قال لي: "نصيحتي هي أن تنتظرني إذا كنت تظن أن هناك مشكلة محتملة في منزلك".

شرحتُ له أنني لا أريد إخافة الولدين. ثم أعطيته ما يعرف في الجيش بالإشارة والإشارة المضادة. بصل، لا بصل.

رأى أن هذه فكرة ذكية.

عدتُ إلى سيارة اللكزس، ولكن لم يسألني أحد عما كنت أفعله مع الحارس، وتابعت الطريق إلى منزل الضيوف.

جربت سوزان الاتصال بالهاتف الخلوي لصوفي، ومن ثم هاتف المنزل، ولكن أحداً لم يجب، وافترضتُ أنها نائمة.

فيما خرجنا جميعاً من السيارة، قلت: "أحتاج إلى بعض الهواء المنعش. فلنجلس جميعاً على المصطبة لدقيقة ونتحدث عن الغد".

رأت سوزان أن هذه فكرة جيدة، وإذا لم يظن إدوارد وكارولين ذلك، فإنهما لم يقولا أي شيء.

قادتهما سوزان إلى المصطبة في جانب المنزل وقلت: "سأعود فوراً".

فتحت الباب الرئيسي الذي كان مقفلاً، وفتحت خزانة الردهة حيث تركت البندقية الصغيرة، وكانت لا تزال موجودة. أخرجتها وتحققت بسرعة من الطابق الأول، ثم من الطابق الثاني. في غرفة النوم الرئيسية، طلبت رقم هاتف منزل الحراسة، وأجاب الشرطي كورون وسألني: "هل كل شيء بخير؟ هل لديك بصل؟".

"لا بصل هنا".

"حسناً. اتصل بي إذا رأيت البصل أو سمعت صوته".

"شكراً". أقفلت السماعة، ونزلت إلى الأسفل ووضعت البندقية الصغيرة في خزانة المكنسة، ثم خرجت إلى المصطبة.

كانت سوزان وكارولين تجلسان أمام الطاولة وتتحدثان، فيما إدوارد يغط في النوم في كرسي كبير.

تركناه ينام، وتحدثنا عن مشروعنا للغد. المغادرة قبل التاسعة والنصف لحضور الاحتفال الديني للجنازة في دار عبادة القديس مرقص في العاشرة صباحاً. الانتقال من ثم إلى مقبرة ستانهوب لحضور الدفن، وإذا لم يطل الأب هانينغس الكلام كثيراً أمام القبر سنخرج من المقبرة قبل الظهر، ثم نعود إلى دار عبادة القديس مرقص للاجتماع بعد الدفن في الطابق السفلي. لن يكون يوم سبت ممتعاً، لكن ليست كل الأيام ممتعة.

استفسرت كارولين: "هل يجدر بنا ضبط ساعاتنا الآن؟".

ظننت سوزان أن هذا مضحك. لكن لو قلتُ أنا هذا...

أبلغتنا سوزان: "تستقبل إليزابيت الأصدقاء والعائلة في منزلها ليلة السبت، في السابعة مساء، وأظن أنه علينا الذهاب".

لم أذهب أبداً إلى منزل إليزابيت، وأظن أنه يجدر بي الذهاب ورؤية غرفة الضيوف والتحقق من مساحة التخزين في الطابق السفلي. في حال حصل شيء ما. أجبتها: "جيد. حسناً، موافق".

ولا حتى ابتسامة.

أيقظت كارولين أخاها، واعتذرا منا وذهبا إلى النوم.

احتجتُ إلى مشروب قوي بعد كل شراب الشعير الخفيف، ولذلك ذهبنا إلى المكتب، وسكبت لنفسي كأساً.

قلت لسوزان: "طلب مني الأب هانينغس التحدث معي على انفراد في مكتبه في دار الجنازة".

"عمَّ؟".

أخبرتها، وفكرت في الحديث. قالت: "لا أحتاج حتماً إلى نصائح روحية قبل الزواج، وأنا منزعجة كثيراً لأن والديّ تحدثا معه بشأننا".

أجبتها: "همهما الوحيد هو سعادتك".

"لا يجدر بهما القلق أبداً. أنا سعيدة. أما هما فلا". ثم أضافت: "هما يحتاجان إلى النصائح الروحية".

"سيكونان أكثر سعادة إذا أعطونا كل مالهما".

ابتسمت، ثم فكرت في شيء آخر، وقالت: "لا أصدق أن الأب هانينغس ذكر مسألة عيشنا معاً".

"حسناً، أظن أن والديك أثارا الموضوع، ولذلك أراد التطرق إليه".

"لماذا لا يهتمان بشؤونهما؟".

“تعرفين الجواب عن ذلك”.

لم تجب وسألتني: “ماذا تظن أنه مكتوب في تلك الرسالة؟”.

“ربما شيء مهم أكثر مما أعتقد”.

“وتحتفظ إليزابيت بالرسالة؟”.

“إنها معها”.

“يجدر بك سؤالها عنها ليلة غد”.

“سأفعل”.

سألتني عما يجري في منزل الحراسة، وأخبرتها، وقلت لها: “يبدو هذا الرجل، الشرطي كورون، ذكياً. عليك التعرف إلى رجال الشرطة السابقين. أما الآخرون فيعملون حتماً بدوامٍ ثانٍ مع شركة بيل للأمن”.

أومأت برأسها.

سألتها: “هل تظنين أن الولدين لاحظا شيئاً ما؟”.

أجابت: “كانا هادئين كثيراً في السيارة حين كنت تتحدث إلى الشرطي كورون... لكنني لا أعرف بِمَ يفكران”.

قلت لها: “إذا سألا، نلتزم بقصة نسيم”.

فكرت في ذلك، ثم قالت: “أظن أحياناً أنه علينا إخبارهما. من أجل سلامتهما”.

“لا. لقد عرفا أصلاً بقصة المجرمين الإيرانيين. لا حاجة إلى أن نخبرهما عن المجرمين الإيطاليين. ستغادر كارولين ليلة الأحد، وإدوارد صباح الاثنين، ولا أريدهما أن يقلقا علينا بعدما يغادران”.

أومأت برأسها، ثم انتقلت إلى موضوع أكثر مرحاً، وقالت: “كان الوقت ممتعاً في ماكغلايد”.

“بالفعل. حيث يلتقي رجال الجبال وفتيات النخبة. بالمناسبة، من كان رجل الجبال الذي يلاحقك؟”.

“هل أنت غيور؟”.

“وهل كنت كذلك يوماً؟”.

“لا، حسناً... في بداية لقاءاتنا”.

“لا أذكر ذلك”.

“أستطيع إنعاش ذاكرتك إذا أردت”.

“أنت تبالغين في ذلك. حسناً، لدينا يوم طويل غداً، وعلينا الذهاب إلى النوم وعدم القيام بأي عمل حميمي”.

"الحمد لله".

"سأتحقق من الأبواب والنوافذ وأصعد إلى الأعلى".

صعدت إلى الطابق العلوي، وجلست أنا أمام الكومبيوتر. إنها الساعة السابعة صباحاً تقريباً في لندن، ولذلك يفترض بسامنتا أن تقرأ بريدي الإلكتروني قبل أن تشرب أول فنجان قهوة - على افتراض أنها تتحقق من البريد الإلكتروني بانتظام، لكنها لا تفعل ذلك. لا أريد فعلاً أن تأتي بالطائرة إلى نيويورك. لديّ ما يكفي من المشاكل هنا، بالرغم من أن سوزان ليست من النوع الغيور، أنا واثق تماماً من أنها لا تريد تناول المشروبات برفقة سامنتا.

هكذا بدأت أكتب رسالة جميلة للعزيزة سامنتا، كنت قد أعددتها في عقلي، وشرحت لها الوضع بصراحة وندم. لم أذكر لها مشكلة المافيا لأنها ستقلق - بالرغم من أن قتلي قد يسرّها. لا تفهم أبداً النساء اللواتي يتم خذلهن. انظر فقط إلى سوزان وفرانك - أوبس. احذف ذلك.

قرأت الرسالة، وتحققت منها، ثم نقرت زر الإرسال، وأنا أشعر وكأنني نقرت زر التفجير لنسف آخر جسر يصلني بلندن.

حسناً... لا مجال للعودة الآن. في الواقع، منذ يوم الأحد الماضي، لم يعد هناك من مجال للعودة. انتهى الأمر.

أخرجت البندقية من خزانة المكنسة، وتحققت من كل النوافذ والأبواب، ثم صعدت إلى غرفة النوم الرئيسية.

كانت سوزان مستلقية في السرير، مع وسادة تحتها. ألم في الظهر؟ يوغا؟ آه، فهمت.

الفصل التاسع والخمسون

صباح يوم السبت كان ماطراً. طقس جيد للدفن.

ركب آل ساتر، الذين ارتدوا جميعاً الأسود وحملوا مظلات سوداء اللون، في سيارة اللكزس. قدتُ السيارة، وفي غضون خمس عشرة دقيقة توقفنا قرب دار عبادة القديس مرقص الأسقفية في لوكوست فالي.

تم تشييد البناء القوطي الصغير وإنما الجميل في بداية القرن الماضي بالمال الذي تمت مصادرته من لعبة بوكر شارك فيها ستة مليونيريين في قصر في الشاطئ الذهبي.

وقد تسأل من يصادر المال من مليونيريين يستمتعون بلعبة البوكر؟ حسناً، الاشتراكيون يفعلون ذلك، أو رجال الضرائب الحكومية - ولكن ليس لبناء دار عبادة. في الواقع، إنهن زوجات أولئك الرجال، وهنّ سيدات جيدات، كنّ لعوبات، لكنهن قررن ربما سرقة الأغنياء - أنفسهم - عن طريق راعي الرعية، الذي ظن أنه بحاجة إلى دار عبادة جديدة وعرف كيف يحصل عليها.

أنا واثق من أن الأب هانينغس يفعل الشيء نفسه لو أعطي نصف تلك الفرصة. على أي حال، كانت دار عبادة جميلة، بالرغم من المصادر غير مشروعة للتمويل - المقامرة والسرقة.

ألقينا أنا وسوزان والولدان التحية على الحاضرين، ثم عثرنا على مكان للجلوس في الجهة الأمامية.

كانت دار العبادة نصف ممتلئة تقريباً، وهذا أمر غير سيئ بالنسبة إلى احتفال ديني لدفن سيدة عجوز في صباح يوم سبت ماطر. لم أرَ الخصل الكستنائية لشعر ويليام فيما مشينا في الممر الوسطي لدار العبادة، ولا الشعر الأحمر لشارلوت الذي يصعب عدم رؤيته. لم يصلا بعد. لقد شربا ربما الكثير من الشراب خلال العشاء الليلة الماضية، وأصبحا مزعجين، وضربهما أصدقاؤهما.

كان تابوت إيثيل المغلق موضوعاً على محمل قرب المذبح، مغطى بغطاء أبيض اللون. تم وضع بعض باقات الأزهار من دار الجنازة قرب التابوت لإحياء المظهر قليلاً، وكان العازف يعزف موسيقى هادئة. هطل المطر على النوافذ الزجاجية الملونة، وكان الهواء رطباً وثقيلاً ومشبعاً برائحة الثياب المبللة والشمع المحترق.

جئت إلى هنا إلى دار عبادة القديس مرقص في العديد من المناسبات السعيدة - حفلات زفاف - والمناسبات الحزينة - حفلات زفاف ومآتم، وطبعاً لحضور الاحتفالات الدينية منتصف الليل في ذكرى الميلاد، وكذلك الاحتفالات الدينية لنهار الأحد بين الحين والآخر. إذا أغلقتُ عينيّ، أستطيع تذكر عمادة كارولين وإدوارد، وأستطيع حتى تذكر صورتي أنا وسوزان نتجه نحو المنصة للزواج.

ينطوي هذا المكان على العديد من الذكريات، والعديد من الأشباح، لكن الذكرى الأكثر حزناً ربما هي لولد اسمه جون ساتر جالس في مقعد مع هارييت وجوزيف وإميلي... وهو يظن أن لديه والدان طبيعيان، وأن هذا العالم هو مكان جيد وآمن.

وبالحديث عن الإنسان غير الصالح، وصلت هارييت إلى مقعدنا، وحشرت نفسها قرب كارولين. تبادلنا التحية، وهمست لي هارييت: "أود الذهاب معك إلى المقبرة".

"طبعاً". إذا قادت هارييت بنفسها، سيكون هناك بعض الجثث الملقاة على الطريق، والتي يجب جمعها.

وصل الأب جايمس هانينغس وهو يرتدي الثوب الملائم، وانحنى أمام المنصة، ثم توجه برزانة إلى القسم الأوسط. رفع يديه وقال بعض العبارات الدينية.

ستسرّ إيثيل، إذا استطاعت أن تسمع، أداء الأب هانينغس وكذلك أداء عازف الأرغن. تولت إيثيل اختيار المقاطع الموسيقية، وكانت الجوقة تنشد بصوت جيد.

ألقت إليزابيت كلمة جميلة عن أمها، تلاها طوم جونيور وبيتسي. تعرف بعض الأمور عن المتوفي خلال هذه الكلمات، وبدت إيثيل مثل سيدة لطيفة. لقد كانت هكذا، ربما.

تحدث الأب هانينغس بدوره عن المرحومة، وقال إنها كانت سيدة صاحبة إيمان كبير، وهي كلمات ألقاها على مسمعي الليلة الماضية.

أخيراً، دعانا الأب هانينغس لرسم إشارة السلام، وتبادل آل ساتر القبلات. حتى إنني قبّلت هارييت. ثم صافحنا الأشخاص الموجودين قربنا، واستدرت نحو المقعد الموجود خلفي ومددت يدي إلى... ويليام ستانهوب. متى وصل إلى هنا؟

قبّل كل من كارولين وإدوارد وسوزان شارلوت وويليام، ثم جاء دوري لأقبل شارلوت، ولم تكن هناك طريقة للهروب بالنسبة إلى كلينا، إلا إذا تظاهرت بنوبة قلبية. لذا، للتماشي مع رسالة السلام، زرعت قبلة سريعة على وجنتها المتجعدة، وتمتمت: "فليكن السلام معك".

قدّمت دار الجنازة حاملين محترفين لبساط الرحمة، ولحقت عائلة ألارد بالتابوت، ومن ثم الأب هانينغس، ثم وقف خدام المذبح في الخلف، وبعدهم المشاركون في الجناز.

لا يزال المطر يهطل، ولذلك فتحت المظلات، مما زاد من الارتباك الاعتيادي المتعلق بمن يركب في سيارة للذهاب إلى المقبرة، ومن يركب في ليموزين. ستذهب إيثيل طبعاً في عربة دفن الموتى.

أصرّت سوزان على أن تركب أمي بجانبي في المقعد الأمامي، ولذلك استمتعت بالاستماع إلى هارييت وهي تعطيني نصائح في القيادة. إنها مزحة - صحيح؟

اتخذت طريقي بين صف السيارات المشاركة في الجناز، كانت سيارة إيثيل في الطليعة، تليها ثلاث سيارات ليموزين كبيرة للعائلة، ونحو عشرون سيارة أخرى،

مع مرافقة للشرطة، وتوجهنا إلى مقبرة لوكوست فالي. ثمة زاوية من هذه المقبرة العمومية تخص آل ستانهوب، مما يضمن لهم خصوصية قصوى وانفصالاً مريحاً عن الأشخاص الآخرين الأقل أهمية.

ركنت السيارة بالقرب من المقبرة، ومشينا بصحبة الجموع تحت المطر نحو القبر المفتوح.

أوصلت دار الجنازة باقات الأزهار، ووضعتها بعيداً عن القبر، على شكل دائرة، اجتمعنا جميعنا حولها، وأعطانا أحدهم الورود. اجتمع نحو خمسين شخصاً حول التابوت، الذي تم وضعه على محمل قرب الحفرة المفتوحة. لاحظت أن على رأس قبر إيثيل هناك الإشارة القديمة القائلة "حديقة النصر".

كان قبر جورج ألارد قرب قبر إيثيل، وذهبت إليزابيت ووضعت يدها على اسم جورج. كان هذا لطيفاً.

نظرت حولي وراقبت القبور الأخرى، التي كانت الكتابات المدونة على بلاطاتها تكشف بمعظمها عن اسم ستانهوب في وسطها أو في آخرها. إحدى حسنات الزواج بشخص من آل ستانهوب هو حصولك على مكان مجاني هنا، وأتطلع فعلاً إلى ذلك.

كان ويليام وشارلوت يقفان في الجهة الأخرى من التابوت، قبالتي، ونظرت إليهما. لا شك في أن ويليام، الواقف هنا بين كل أسلافه الموتى، يفكر في موته، وأفعاله هنا على الأرض، التي تحدد ما إذا كان سيأخذ المصعد العلوي أو المصعد السفلي. إنه يفكر أيضاً في أولاده وأحفاده، والأجيال التي ستأتي من بعده. فكرت ربما، أو تمنيت، أن يعود ويليام إلى صوابه، ويبارك زواجنا، ويعانق ولدينا.

نظرتُ إليه عن كثب لأرى إذا كان لا يزال محافظاً على صوابه. لكنه بدا غير متزن. ثم شخر. التهاب في الرئة؟ قد أعود إلى هنا في الأسبوع المقبل.

وبالحديث عن موتى آل ستانهوب، في مكان ما، على مسافة خمسين ياردة من هنا ربما، يرقد أوغسطس ستانهوب، وتذكرت زيارة إيثيل إلى قبر حبيبها يوم دفن جورج هنا. لم أخبر أحداً بذلك، باستثناء سوزان، وفيما أنا أفكر في ذلك الآن، تساءلت إذا ما كانت إيثيل قد حملت معها أسراراً أخرى إلى القبر - مما ذكرني بالرسالة. لا بد من وجود شيء ما في تلك الرسالة، وإلا لما كان الأب هانينغس ذكرها. لكن ماذا في الرسالة؟ ربما سرّ يعدّل الوصية التي ننتظرها جميعاً، أو فعل ما، أو ربما بعض الحقوق الأخرى المعطاة من أوغسطس التي تعطي إيثيل أو ورثتها حقاً في ثروة ستانهوب؟ أو تكشف ربما هذه الرسالة عن أبوّة لا يعرف بها أحد. قد يكون ويليام ستانهوب الابن غير الشرعي للبستاني الإيطالي. من يعرف؟ لكن إذا عشت طويلاً كفاية، مثل إيثيل، ستعرف بعض الأمور.

ثمة ولد من خدام المذبح حمل مظلة فوق رأس الأب هانينغس، وحين اجتمع الجميع، بدأ الأب هانينغس القول بالوعظ.

وبعد خمس عشرة دقيقة أنهى عظته.

رمينا أنا وسوزان وإدوارد وكارولين وهارييت الورود فوق التابوت وقلنا: "ارقدي بسلام".

رافقت هارييت إدوارد وكارولين، وفيما ابتعدنا عن القبر، أمسكت سوزان بيدي وقالت: "هل تذكر، يوم دفن جورج، أننا وعدنا بعضنا بأن نأتي إلى دفن بعضنا حتى لو كنا مطلقين؟".

"أذكر ذلك". أو شيئاً من ذلك. "لماذا تسألين؟".

"لأنه... في تلك السنوات الثلاث التي أمضيتها في البحر... بقيت أفكر... ماذا لو ضاع في البحر؟ كيف أستطيع أن...؟". ثم انهارت وبدأت تبكي.

أحطتها بذراعيّ، ومشينا مع الجموع الحزينة المرتدية الثياب سوداء اللون وفتحنا مظلاتنا سوداء اللون تحت المطر، ومررنا من أمام سيارات الليموزين السوداء.

اجتمعنا جميعنا في القاعة السفلية من دار عبادة القديس مرقص، ولاحظت وجود عدد أكبر من عدد الأشخاص الذين كانوا في المقبرة. إلا أن الأشخاص الذين لم يذهبوا إلى المقبرة هم على ما يبدو من الكبار في السن، والصغار كثيراً في السن، إضافة إلى سيدات دار العبادة اللواتي يحضّرن المشروبات والطعام، ليتناولها الأشخاص بعد حضور الدفن تحت المطر.

كانت المشروبات خالية من الكحول، لكنني تمنيت أن يكون أحدهم قد غشّ في كأس واحدة على الأقل، وما عليّ سوى العثور عليها.

لست مولعاً كثيراً بالجاتوه والحلويات الأسقفية، وكانت معدتي تتوق إلى تذوّق شطيرة لحمة مع خردل. لكنني اخترت سلطة البطاطا، والقليل من اللحم الغامض عليها.

تبدو هذه الاجتماعات التالية للدفن غريبة نوعاً ما - فأنا لا أعرف ما إذا كان يجدر بي متابعة مراسم العزاء، أو إنهاءها مع عائلة المرحومة وأصدقائها. سألت سوزان عن ذلك - كانت إميلي بوست ساخرة قليلاً في المرات الماضية - وقالت إنه يفترض بنا فقط تبادل الذكريات الجيدة عن المرحومة، والبقاء مع العائلة لبعض الوقت الإضافي. أظن أنني أعرف ذلك، لكن بما أنني غبت عشر سنوات، أشعر وكأنني غريب أحياناً، ولاحظتُ أنني فوتُّ، أو أسأت فهم بعض التغيرات البسيطة التي حصلت هنا خلال العقد الماضي. أو أنني تغيرتُ ربما أكثر مما تغيرت أنماط الثقافة.

بدت هارييت شعبية أكثر مما توقعت، وهذا فاجأني، وإنما إيجابياً. الجيد أيضاً هو أن سيارتها هنا، ولا أحتاج بالتالي إلى إيصالها إلى المنزل.

لمحت ويليام وشارلوت يقفان وحيدين، ويحتسيان تلك المشروبات المريعة. راقبت بانتباه لرؤية إذا ما كان ويليام يعطس أو يسعل، لكنه بدا ضجراً أكثر مما هو مريض. اللعنة. انزعجتُ أيضاً لأن سوزان لم تجبر إدوارد وكارولين على البقاء معهما أو ملاطفتهما. لم يبقَ الكثير من الفرص، وفوّتت سوزان الآن واحدة. بحثت عن الولدين، لكنني لم أرَهما، بالرغم من أنني رأيت ولديّ كوربيت.

يجدر بي التخلي ربما عن فكرة التوفيق بينهم وكذلك محاولتي في إقناع الولدين بالبقاء قرب جديهما. لا تساعدني سوزان في كلتا الحالتين، فلمَ يجدر بي القلق إذاً؟ الحب؟ اللعنة عليه. المال؟ من يهتم؟ اترك الأمر للقدر.

أحب الاختلاط في مجموعة الأشخاص الذين لا أعرفهم، خصوصاً إذا كانوا بمعظمهم كباراً في السن. يمكنك إجراء محادثات شيقة فعلاً معهم. ولا شك في أن المشروب يساعد. رأيت طوم كوربيت ولورانس، فوقفنا نحن الثلاثة في زاوية بعيدة وتحادثنا.

لمحت الأب جايمس هانينغس، وقد انضمت زوجته إليه، فذهبت لإلقاء التحية عليهما، ولاحظتُ أن السيدة هانينغس تقدمت كثيراً في العمر خلال السنوات العشر الماضية. هذه خيبة أمل كبيرة. أكره حين تشيخ نساء خيالي. إلا أنها لا تزال تملك لمعاناً في عينيها، ولا تزال فاتنة. اسمها، مثلما أذكر الآن، هو ريبيكا، وقالت لي: "أخبرني جيم أنك عدت، وأنك وسوزان عدتما إلى بعضكما".

من هو جيم؟ أوه، جايمس هانينغس. زوجها. أجبتها: "هذه هي إرادة الله".

ضحك هانينغس، وأنا واثق من أنه يفعل ذلك غالباً، وقال: "بالفعل. أنا واثق من هذا".

صحيح. خذ مثلاً كيف لم تتخلَّ عنك زوجتك. قلت له: "كان الاحتفال الديني جميلاً، والكلام مؤثراً".

"شكراً جون. لا يصعب مديح إيثيل ألارد. إنها سيدة صاحبة إيمان كبير".

ابتسمت لي ريبيكا هانينغس، ثم اعتذرت، وتركتني وحيداً مع جيم الذي قال لي: "أتمنى أن تكون قد فكرت قليلاً في ما قلته لك".

"تحدثت إلى سوزان، وهي توافقني الرأي بأننا لن نستفيد من النصائح الروحية قبل الزواج".

"حسناً، بعد إذنك، جون، أودّ التحدث إليها في هذا الخصوص".

"لا تحتاج إلى إذنٍ مني".

"جيد. تحدثتُ للتو مع ويليام وشارلوت، وحددنا موعداً بعد ظهر اليوم في مكتبي لنناقش... حسناً، مخاوفهما".

"جيد. لكن تذكر أنهما يكرهانني".

أذهله ذلك قليلاً، لكنه قال: "همهما الوحيد هو سعادة ابنتهما".

"وأنا أيضاً".

"أعرف ذلك، وهذا هو سبب المشكلة".

"صحيح. هل ويليام متوعك الصحة؟".

"لا أظن ذلك. لماذا تسأل؟".

“أوه، بدا منزعجاً قليلاً عند القبر، وقلقت عليه”.

“بدا بخير”.

“لا سعال أو أي شيء؟”.

“أوه... لا. أوه، بالمناسبة، أتيحت لي فرصة التحدث مع إليزابيت بشأن تلك الرسالة، وقالت لي إنها في حوزتها، ولم تعطِها لك بعد”.

“هذا صحيح”.

“حسناً، لأكون صريحاً معك جون - نصحتها بأن تقرأها بنفسها أولاً، ثم تناقشها معي قبل أن تعطيها لك”.

“حقاً؟ ولمَ فعلت ذلك؟”.

“حسناً، مثلما قلت، ناقشت إيثيل معي - في العموم - محتويات تلك الرسالة، ولم تكن إيثيل نفسها واثقة ما إذا كان يجدر بك رؤيتها”.

“حسناً، حسبما سمعته من إليزابيت، طلبت منها أمها إعطائي الرسالة بعد وفاتها”.

“أفهم... حسناً، يبدو أنه حصل بعض الارتباك”.

“ليس حسب علمي. لكنني سأناقش الأمر مع إليزابيت”.

بدا وكأنه يتصارع مع شيء ما، ثم قال: “هذه الرسالة... قد تحتوي على ما يعتبر إشاعة... أو فضيحة”. نظر إليّ وتابع: “ليس هذا من الأمور التي تحبها سيدة كبيرة الإيمان مثل إيثيل ألارد”.

ولمَ لا؟ أحب الإشاعات والفضائح. أين هي رسالتي؟ قلت له: “إيثيل ماتت”.

شرح قائلاً: “لا نريد أنا وإليزابيت أن تتعرض سمعة أمها... لنقل للتشويه نوعاً ما. لذا، تريد إليزابيت الاطلاع على الرسالة أولاً”.

تساءلتُ عمن زرع تلك الفكرة في رأسها؟ حسناً، إذا كان الأب هانينغس لا ينفخ الدخان، لا تتعلق هذه الرسالة بالمال. أحب الإشاعة أكثر. الفضيحة جيدة أيضاً. لقد حان وقت الذهاب، ولذلك سألته: “هل سأراك أنت والسيدة هانينغس الليلة في منزل إليزابيت؟”.

“سنحاول وريبيكا أن نكون هناك”.

“جيد”. تجولت في المكان ووجدت سوزان، لكنني لم أخبرها عما ناقشناه للتو أنا والأب هانينغس. سألتها بدلاً من ذلك: “هل كان الولدان يتملقان مع جديهما؟”.

“جون هذا مريع”.

“أردت القول، هل كان إدوارد وكارولين يتفاعلان بطريقة ودّية مع الجد والجدة؟”.

أجابت: “تحدثا معهما لفترة وجيزة، لكن أمي وأبي غادرا”.

“الآن؟ هل هما بخير؟”.

“نعم، لكن... لا يحبان هذا اللقاء”.

“آه. إذاً، جاء اللورد والليدي ستانهوب لإلقاء التحية فقط على المزارعين”.

“أرجوك. من الجيد أنهما أتيا”.

“أظن أنهما أتيا لرؤية الأب هانينغس”. أبلغتها: “حدّد والداك موعداً معه بعد ظهر اليوم”.

“حقاً؟”. فكرت في ذلك ثم قالت: “هذا مزعج فعلاً”.

“يخاف والداك على سعادتك. الأمير جون مستعد للمغادرة”.

تجاهلت ذلك وسألتني: “هل رأيت إليزابيت؟”.

“لا، لكننا سنراها الليلة وسيكون الوقت ملائماً لسؤالها عن تلك الرسالة. أتمنى أن تكون قد دعت مجموعة أفضل من المعزّين. هل أمضى إدوارد وكارولين بعض الوقت مع بيتسي وطوم؟”.

“لا أعرف. لمَ تصرّ على ذلك؟”.

“أظن أنه من الرائع إذا تزوجا أشخاصاً من منطقتهما. مثلنا نحن”.

“لم يعد أحد يفعل ذلك”.

“مؤسف جداً. جاهزة؟ فلننادي الولدين”.

“لقد غادرا”.

“لا يملكان سيارة”.

“يريدان الذهاب إلى محطة القطار، واضطرا إلى المغادرة باكراً للحاق بالقطار، ولذلك طلبا مني نقل التحية إليك. سيذهبان إلى المدينة للقاء الأصدقاء”.

“هل أخبرتهما أن يعودا إلى المنزل في الوقت المناسب للذهاب معنا إلى منزل إليزابيت؟”.

“سينامان في شقة كارولين الليلة”.

“حسناً... جيد، تصرفا بلباقة. عليهما تمضية بعض الوقت مع أصدقائهما”.

أشارت سوزان: “الليلة سأخبرهما ذلك في المنزل”.

نظرت إليها وأومأت برأسي.

الفصل الستون

أطفأت سوزان رنين هاتفها الخلوي ونحن في طريقنا إلى دار عبادة القديس مرقص، وتركته على هذه الحال في أثناء مراسم الدفن - الاتصالات الهاتفية قرب المقبرة ليست جيدة - ثم نسيناه مطفأً.

هكذا، وصلنا إلى المنزل قرابة الثانية ظهراً، وذهبنا إلى مكتبنا للتحقق من البريد الإلكتروني والرسائل الهاتفية، وتذكرت أن تنظر إلى شاشة هاتفها الخلوي. قالت: "تلقيت أربعة اتصالات من فيليكس مانوسكو... الأول عند العاشرة وسبع وأربعين دقيقة". نقرت زر سماعة الهاتف وأدارت أول رسالة. قال مانوسكو: "حسناً، لإبقائكما على اطلاع على أخبار أنطوني بيلاروزا - وصلت إلى دار جنازة بابافيرو باكراً، ولم يكن هناك أحد باستثناء جون غوتي. كانت هناك باقة أزهار كبيرة مقدّمة من أنطوني بيلاروزا والعائلة، وأخرى من سالفاتور دالي والعائلة. ولتسليتكما قليلاً، كانت باقة الأزهار المقدّمة من أنطوني على شكل سيجار كوبي، فيما كانت الباقة المقدّمة من داليسيو على شكل نقش قلوب ملكية، وكانت هناك بعض الأشكال الأخرى مثل أحصنة السباق وكؤوس الشراب".

لم أرَ مثل هذا الإبداع في دار جنازة والتون لإيثيل.

تابع السيد مانوسكو: "وصلت سيارات الليموزين في الصباح، لكن معظم المعزّين كانوا يخفون وجوههم بالمظلات وهم في طريق الدخول والخروج. ولا شك في أن رجال الشرطة والإعلام لم يكونوا مدعوين إلى الدخول. حسناً، إنهم يحملون التابوت إلى عربة النعش، ويبدو وكأن الموكب على وشك الانطلاق، ولذلك سأنضم إليهم. الخلاصة هنا، لا نعرف إذا ما كان بيلاروزا أو داليسيو هنا، لكننا سنرى ذلك في دار عبادة القديس يوحنا".

نظرنا أنا وسوزان إلى بعضنا وقلت لها: "علينا أن نكون أكثر إبداعاً في تقديم الأزهار في الدفن التالي".

تجاهلت سوزان ذلك، وأدارت الرسالة التالية التي وصلت عند الساعة الحادية عشرة وست وثلاثين دقيقة. "مانوسكو، حسناً، معلومة سريعة - ما زلت في الدفن، ونحن الآن في بارك أوزون، حيث كان المقر الرئيسي لشركته بيرغين هانت، ونادي السمك... وأنا أمرّ أمامه الآن... هناك مئات الأشخاص الذين يقفون تحت المطر ويلوحون. لوحت لهم. هناك أربع أو خمس مروحيات جديدة تحلق فوقنا، ويمكنك بالتالي رؤية ذلك على شاشة التلفزيون إذا أردت. أنا في السيارة الرمادية ألوّح. اتصل بي حين تتلقى ذلك".

قالت سوزان: "وصلت الرسالة الثالثة عند الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة". أدارت الرسالة الثالثة: "مانوسكو. أنا الآن في مقبرة القديس يوحنا. انتقل مئة شخص تقريباً من سيارات الليموزين إلى دار العبادة، لكنهم وضعوا جميعاً المظلات أمام وجوههم. رأيت سالفاتور داليسيو - يسهل التعرف إليه - وزوجته. لا أثر لأنطوني بيلاروزا، لكن هذا لا يعني أنه ليس هنا. لم تتم دعوة الصحافة

والشرطة إلى دار العبادة. حسناً، المحطة التالية هي القبر. سأتصل بكما بعد ذلك".

قالت سوزان: "الاتصال الأخير منه وصل عند الواحدة وسبع وثلاثين دقيقة". أدارت الرسالة: "مانوسكو. الخلاصة - حسب معرفتنا - لم يكن أنطوني بيلاروزا في الدفن. لا خلال الدفن ولا بعده، نظر رجال الشرطة والأف بي آي عن كثب إلى وجه كل رجل، وأجرينا بعض اللقاءات غير الرسمية مع المشتبه بهم في ما يتعلق بالسؤال عن مكان أنطوني بيلاروزا. لم يكن أي منهم متعاوناً معنا ولا يعرف أحد أي شيء. تحدثت مع داليسيو على حدة، وسأطلعكما على ذلك حين نلتقي. اتصلا بي".

فكرت في سبب عدم ذهاب أنطوني إلى دفن غوتي، وتمنيت أن يكون فعلاً مرميًّا في قعر النهر الشرقي.

اتصلت سوزان بالهاتف الخلوي لفيليكس مانوسكو من هاتف المنزل، ونقرت زر السماعة.

أجاب: "مانوسكو".

"ساتر. سوزان هنا معي تستمع إلى المحادثة".

تبادلا التحيات وقالت له سوزان: "أطفأت جهازي الخلوي خلال الدفن، ونسيت تشغيله. آسفة".

"لا مشكلة". قال لنا: "إذاً، لم يظهر أنطوني، وهذا له دلالة كبيرة".

"أظن ذلك". فالإيطاليون يحرصون على حضور كل الجنازات.

شرح قائلاً: "يعني ذلك أنه ميت أو أنه يختبئ في مكان ما".

"من الجيد أن يكون ميتاً".

لم يعلّق على ذلك مباشرة، لكنه شرح: "إذا لم يكن أنطوني بيلاروزا ميتاً، يظن إذاً أنه سيموت إذا عثر عليه عمه. هذه هي النظرية الأكثر ترجيحاً".

"نظرية جيدة". سألت السيد مانوسكو: "ماذا قال لك العم سال؟".

"قال إنه يظن أن قريبه ميت".

تبادلنا أنا وسوزان النظرات، وسألت مانوسكو: "هل قال ذلك فعلاً؟".

"نعم. وأخبرني عن اسم الشخص الذي قتل ربما أنطوني".

"من؟".

"جون ساتر".

فاجأني ذلك، لكنني أسرعت في الإجابة: "ثمة شخص آخر يحمل اسمي".

قهقه السيد مانوسكو قليلاً، ثم قال: "طلب مني داليسيو أن أستجوبك".

قلت له: "لا أظن أن لدى العم سال حسّ الفكاهة".

"يظن على ما يبدو أنه موضوع مضحك".

ألقيت نظرة على سوزان، التي لم تكن تبتسم. لقد سئمت من المزاح. سألت مانوسكو: "ما رأيك؟ هل أنطوني ميت أم على قيد الحياة؟".

أجاب مانوسكو: "حسناً، استقدم داليسيو المزيد من الحراس الشخصيين لمرافقته خلال الأسبوع الماضي - ثلاثة أو أربعة رجال، ولكن ليس اليوم في الدفن، وإذا استعاد داليسيو هذا العدد من الرجال معه الليلة وغداً وما إلى ذلك، علينا الافتراض أن أنطوني ما زال على قيد الحياة ويريد تصفية حساب مع عمه".

سألت سوزان: "أي حساب؟".

أجاب مانوسكو: "أوه... يمكنك القول كفالة بالموت".

"أوه".

"بتوقيع أنطوني بيلاروزا". ثم شرح السيد مانوسكو لها: "ليست كفالة مكتوبة. يرغب سالفاتور داليسيو على الأرجح في إنهاء حياة بيلاروزا".

لم تعلّق سوزان. لكنها استرجعت بالتأكيد ذكرى عشيقها، الذي يحمل عن طريق الصدفة اسم الشهرة نفسه.

قال لنا فيليكس مانوسكو: "يبدو إذاً أن أنطوني بيلاروزا اختار الاختباء بدلاً من متابعة أعماله، وهو محاط بالحراس، مثلما يفعل عمه. أظن أننا سنعرف خلال أسبوع أو اثنين من قام بالخطوة الصحيحة".

سألته: "ولم تظن أن الحسم سيكون قريباً هكذا؟".

أجابني: "في كل يوم لا يظهر فيه أنطوني بيلاروزا لإدارة أعماله، يكسب عمه يوماً إضافياً لاكتساب المزيد من السيطرة والقوة". ثم أبلغنا: "أعمل في هذا... منذ وقت طويل. لذا، لمست ذلك قبلاً، وأعرف كيف يفكرون ويتصرفون".

فكرت في ذلك ثم سألته: "إذا توجب عليك المراهنة - وإذا كنت تنظر إلى الاحتمالات – على من تراهن من أنه سيكون على قيد الحياة في الأسبوع المقبل؟".

تردد ثم أجاب: "حسناً... أكره قول ذلك، لكن ثمة نوع من... الحيرة هنا".

"هل أستطيع الاطلاع عليها؟".

قهقه وقال: "طبعاً".

قالت سوزان: "من فضلك".

استعاد السيد مانوسكو صوته المهني، وقال: "الاحتمالات متساوية فعلاً. داليسيو ليس ذكياً جداً، لكن معظم رجال المافيا لا يزالون برفقته، مما يعطيه ميزة على أنطوني تساعده على إنجاز المهمة بطريقة محترفة. أما نقاط القوة عند

أنطوني فهي أنه شاب، وحيوي، ومتهور، ويملك الكثير من المواهب الشابة من حوله. إنه أيضاً حذر، مثلما قلت، لكنه متهور، وينسى كل حذره لإنجاز هذه المهمة، التي قد تكون سبب سقوطه، أو تفضي ربما إلى فوز مفاجئ".

فكرت في كل ذلك، وقال لي حدسي وذكائي بالمراهنة على الرجل الكبير - العم سال الذي كان أيضاً عاطفياً. سألته: "تعطي إذاً احتمالات متساوية".

"هذا صحيح".

"وما هو الرهان الأقصى".

"خمسون".

"جون".

إنها سوزان، وطلبت منها أن تهدأ. قلتُ للسيد مانوسكو: "هل تستطيع إعطائي خمسين على العم سال؟".

"موافق".

"سأعطيها لك حين أراك. أخبرني إذا تغيرت الاحتمالات".

"سأفعل ذلك طبعاً".

أردت أن أسأله كيف لي أن أعرف إذا ربحت، لكن هذا سؤال سخيف. إلا أنني سألته: "لماذا اصطف مئات الأشخاص على طريق جنازة سيد المافيا؟".

أجاب: "في الواقع، ربما الآلاف. ولا أملك جواباً على ذلك. الفضول ربما... أو ربما غريزة التجمع... يظن بعض الأشخاص أن غوتي كان بطلاً، وعلينا التفكير في ذلك ربما".

ألقيت نظرة على سوزان، ثم قلت للسيد مانوسكو: "حسناً، ذهبنا إلى جنازة سيدة عاشت بهدوء، وماتت بسلام، ودفنت من دون ضجة كثيرة".

أجاب السيد مانوسكو: "أنا واثق من ذلك. حسناً، لا أملك شيئاً إضافياً. هل من أسئلة؟".

نظرتُ إلى سوزان التي هزّت رأسها، وقلت: "ليس في الوقت الحاضر".

قال: "استمتعا بيوم أب سعيد".

في الواقع، سأفعل إذا أصيب ويليام بالتهاب في الرئة. أجبته: "وأنت أيضاً".

نقرت زر فصل الخط وقلت لسوزان: "أشعر بالارتياح لأن فيليكس مانوسكو مهتم بذلك".

أومأت برأسها.

"والأف بي آي، والشرطة المحلية، والتحري ناستاسي".

أومأت برأسها مجدداَ، لكنها عرفت أنني أحاول فقط جعل الأمور تبدو أفضل مما هي عليه. لقد خاب أملنا لأن أنطوني بيلاروزا لم يظهر، ولم تلمحه الأف بي آي ولا الشرطة. إذا استطاعت الشرطة أو الأف بي آي عادة استجواب شخص مشتبه به أو مهم، يستطيعون على الأقل معرفة مكان وجوده باستمرار. ويستطيعون اللحاق به. لكن أنطوني اختفى، مما جعل الجميع عصبياً.

احتمالات السيد مانوسكو المناصفة كانت متفائلة جداً أو أنه يحاول جعلنا نشعر بالارتياح. فالاحتمالات هي في الواقع لصالح أنطوني بقتل العم سال قبل أن يقتل العم سال أنطوني. لكنني لا أريد المراهنة على ذلك.

إذ يهتم أنطوني بالعم سال، الذي سيحوّل انتباهه إلى آل ساتر. هذا هو رهاني.

الفصل الواحد والستون

أمضينا بضع ساعات كسولة بعد ظهر يوم السبت الماطر في الغرفة العائلية في الطابق العلوي، نقرأ ونستمع إلى الموسيقى.

نزلت إلى الأسفل عند الرابعة من بعد الظهر للطلب من صوفي تحضير القليل من القهوة والحلويات، ثم ذهبت إلى المكتب للتحقق من بريدي الإلكتروني.

لا جواب من شركتي القانونية على استقالتي مساء الجمعة، لكنني عرفت أنني سأستلم جوابهم يوم الاثنين.

لكن هناك جواب على رسالتي إلى سامنتا. الخلاصة، ليست سعيدة. في الواقع، إنها محبطة.

أشارت إلى أنني لم أتصل بها أو أراسلها، وتركتها فعلياً في الظلام إلى أن فجرت القنبلة. قالت أيضاً إنها متألمة، ومحبطة، ومجروحة في الصميم. إنها رسالة متقنة نسبة إلى بريد إلكتروني، وكانت راقية فعلاً لعدم استخدام كلمات مثل حقير وأحمق أو حتى اللعنة عليك. أقصد، هذا ما كانت تقوله، لكنها قالته بطريقة مهذبة.

حسناً، شعرت بالسوء، وتمنيت لو أنني استطعت إبلاغها الخبر السيئ شخصياً، أو على الأقل عبر الهاتف - فهي تستحق أكثر من بريد إلكتروني - لكن الوضع خرج عن سيطرتي، وبذلت أفضل ما بوسعي، نظراً لإعلامي عن وصولها الوشيك وما قد يجري هنا.

لن أجيب على رسالتها الآن، لكنني سأتحدث معها عبر الهاتف، أو ربما حتى في لندن، وإذا أرادت فعلاً شرحاً، سأخبرها القصة كاملة. إلا أنها لا تريد على الأرجح سماع أي خبر مني، وتساءلتُ إذا كانت ستعرف إذا قُتلت. أظن أنها ستعرف من شركتي، التي ستنزعج لأنني لم أذهب لإنجاز معاملات فصلي.

على أي حال، حذفت الرسالة، في حال اطلعت الأف بي آي على بريدي الإلكتروني بعد موتي. لا أريد أن يظن فيليكس مانوسكو أنني كنت نذلاً.

عدت إلى الغرفة العائلية، وأحضرت صوفي القهوة والحلويات.

قالت لي سوزان: "أنت هادئ جداً".

أجبتها بصدق: "اهتممت بذلك العمل في لندن".

"حان الوقت"، قالت لي ثم تابعت قراءة مجلتها.

عند السادسة مساء، أدرت جهاز التلفزيون ووجدت محطة أخبار محلية تتحدث عن مراسم دفن جون غوتي.

رفعت سوزان عينيها عن مجلتها وسألت: "هل علينا مشاهدة ذلك؟".

"لِمَ لا تستعدين للذهاب إلى منزل إليزابيت؟".

وقفت سوزان وقالت: "إذا أسرعت، يمكننا ممارسة لعبتنا المفضلة".

إذاً، الحميمية القصوى أو جنازة أخرى؟ قلت لها: "خمس دقائق".

غادرت، وحوُّلت انتباهي إلى شاشة التلفزيون تعرض مشاهد جوية لدفن غوتي، تم التقاطها في وقت سابق من طائرة مروحية في الجو.

كانت المراسلة تقول: "الموكب يتقدم ببطء أمام منزل غوتي في هوارد بيتش، وهي ضاحية للطبقة الوسطى في الكوينز، حيث المنزل المتواضع لجون غوتي، والمتناقض تماماً مع مكانة الرجل نفسه، الذي كان أكثر تواضعاً".

ليست هذه ملاحظة سيئة - مستهترة قليلاً وإنما جيدة.

تابعت تقريرها العفوي عبر صوت المروحية: "جون غوتي كان رجلاً أكبر من الحياة بالنسبة إلى الكثيرين. سيد التيفلون الذي لا تلتصق به أي تهمة".

الذي لا تلتصق به أي تهمة. ليست هذه البي بي سي.

تابعت القول: "يمكنكم رؤية مئات الأشخاص الذين خرجوا في هذا اليوم الممطر - أصدقاء وجيران، بسبب الفضول ربما أو لتقديم احترامهم لجارهم...".

حسناً، ثمة جار على الأقل لم يحضر لتقديم احترامه. إنه ميت.

تابعت الكلام، وعادت إلى موضوع السيد غوتي كرجل محب للحياة، وقالت: "أطلق عليه أيضاً لقب السيد الأنيق بسبب ارتدائه بذلاته الإيطالية يدوية الصنع، والبالغ ثمن البذلة الواحدة ألف دولار".

ألف؟ هل أخطأت في دفع ثمن بذلة البريوني، ألفا دولار؟ لا. هذا هو سعرها. كان غوتي يحصل ربما على حسم مشاهير العصابات. كان يجدر بي ذكر اسم أنطوني في متاجر بريوني.

قالت السيدة المحلقة في الطائرة المروحية: "الموكب يتقدم بسرعة الآن، وهو يتوجه إلى أوزون بارك، حيث يملك جون غوتي المقر الرئيسي لشركته - بيرغين هانت ونادي السمك، لكنها في الواقع المقر الرئيسي لإمبراطوريته الإجرامية".

حقاً؟

تبدل المشهد الجوي ليظهر الرتل الطويل من السيارات المنتقلة تحت رذاذ المطر - عربة الجنازة، وعشرون سيارة للأزهار مكدسة بباقات الأزهار، وعشرون سيارة ليموزين سوداء اللون تقريباً، وفي إحداها يركب سالفاتور داليسيو، ولكن ليس أنطوني بيلاروزا على ما يبدو.

بحثت عن السيارة رمادية اللون الخاصة بالسيد مانوسكو بين عشرات السيارات التي لحقت بسيارات الليموزين سوداء اللون، ورأيت بالفعل سيارة رمادية اللون مفتوحة النوافذ، وثمة شخص يلوّح بذراعيه للحشود. أظن أن هذا هو مزاح الأف بي آي.

سمعتُ سوزان تنادي: "جون!".

ناديتها: "هذا مهم".

"ستفوّت شيئاً أكثر أهمية إذا لم تأتِ إلى هنا".

"أنا قادم!".

كنت على وشك إطفاء التلفزيون، لكن المشهد انتقل إلى الاستوديو، وقال مذيع الأخبار: "شكراً لك شارون بعد موافاتنا بالتقرير في وقت سابق من اليوم من المروحية. سنغطي المزيد من أخبار دفن جون غوتي بعد هذا التقرير عن حياة جون غوتي من مراسلتنا في المدينة جيني ألفاريز".

من؟

ثم ظهرت على الشاشة. حبي... القديم. بدت رائعة بماكياج التلفزيون... كانت تميل قليلاً إلى اللون البرتقالي ربما... لكنها أنيقة جداً ذات ابتسامة عريضة وجميلة.

قالت جيني: "شكراً لك سكوت. كانت تلك لقطات رائعة لموكب الدفن، تم التقاطها في وقت سابق من اليوم، فيما تم دفن جثة جون غوتي في مقبرة دار عبادة القديس يوحنا...".

"جون ساتر!".

"سأحضر فوراً".

كانت جيني تقول: "بين حاملي بساط الرحمة في الجنازة اليوم كان هناك محامي السيد غوتي، كارمين كابوتو وقد أجرينا مقابلة معه بعد الدفن".

ظهر وجه السيد كابوتو على الشاشة، وتلقى بعض الأسئلة من مراسل بدا وكأنه شاب في السادسة عشرة تقريباً. إلا أن السيد كابوتو لم يجب عن أي سؤال، وإنما انتهز الفرصة لمدح زبونه - رجل عائلة، أب وزوج وجار جيد - حسناً، باستثناء مرة واحدة - وصديق جيد - إلا عندما قتل بول كاستيلانو - ومساهم كريم في العديد من القضايا المهمة، بما في ذلك شركة السيد كابوتو القانونية. أكره حين يموت الزبائن من دون تسديد فواتيرهم، مثلما فعل معي فرانك. لكن السيد كابوتو بدا صادقاً في إظهار عاطفته تجاه السيد غوتي، وبالتالي فإنه حصل على ماله.

عادت جيني إلى الشاشة، وظننتُ أنها ستعود إلى آخر دفن رجل مافيا تولت هي تغطيته - دفن فرانك بيلاروزا - وذكر محامي السيد بيلاروزا، جون ساتر. إنها فرصتها للدفاع عني مجدداً والقول: "إذا حضر كارمين كابوتو دفن جون غوتي، لمَ انزعج الجميع إذاً من حضور جون ساتر دفن فرانك بيلاروزا؟ هوه؟ وجون لم يحمل النعش". ثم تظهر صورة لي على الشاشة، وحين تعاد الكاميرا إلى جيني، تمسح عينيها وتقول: "جون؟ هل أنت هناك؟".

"جون!".

"قادم!".

إلا أن جيني لم تذكر أي شيء من هذا، وشعرتُ... حسناَ، بالألم.

حزنتُ أيضاً لأنها انتقلت من شبكة أخبار إلى هذه المحطة المحلية الرخيصة. ربما أدمنت على الشرب بعد انفصالنا.

جيني، التي تعرف مجموعة المافيا، كانت تقول: "تُعرف مقبرة القديس يوحنا بمقبرة المافيا وهي تحوي بقايا الكثير من رجال المافيا مثل لاكي لوسيانو، وكارلو غامبينو، وأنييلو ديلاكروسي، وسيد عائلة غامبينو - والآن جون غوتي، سيد الأسياد...".

راقبتها فيما نظرت مباشرة إلى الكاميرا، كما لو أنها تنظر إليّ، وعرفتُ أنها تفكر بي. لاحظتُ أيضاً خاتم زواج في يدها اليسرى. أوه حسناً.

أطفأت جهاز التلفزيون وركضت تقريباً إلى غرفة النوم.

كانت سوزان جالسة أمام طاولة الماكياج وقالت لي: "تأخرت كثيراً".

خلعت ثيابي، واستلقيت على السرير، ووضعت وسادة تحتي.

ألقت نظرة إليّ وقالت: "حسناً...".

منزل إليزابيت ألارد كوربيت هو منزل قديم وكبير يقع على هضاب ميل نيك، قرب أويستر باي.

أوقفنا السيارة في الشارع المكسو بالكثير من الأشجار، ومشينا نحو المنزل. أصبحت السماء صافية، وبدا وكأن يوم الأحد سيكون يوماً جيداً، على الأقل لناحية الطقس.

ثمة بطاقة صغيرة على باب إليزابيت تقول ادخل، فدخلنا.

كانت الساعة قرابة السابعة والنصف، وكانت الردهة الكبيرة مكتظة بالأشخاص. كما هي عادتي، قلتُ مرحباً لأول رجل التقيت به وسألته: "أين هو المشرب؟".

قال لي: "الغرفة المشمسة".

أمسكتُ بيد سوزان، وشققنا طريقنا عبر غرفة الجلوس إلى غرفة مشمسة في جانب المنزل حيث يتولى نادلان مساعدة الأشخاص على تخفيف حزنهم.

حملنا كأسينا في أيدينا - شراب روسي مع مشروب منشط - وتوجهنا أنا وسوزان إلى الصالون المكتظ بالأشخاص.

لمحتُ بعض الأشخاص الذين رأيتهم في دار الجنازة أو الدفن، لكن معظم الحاضرين كانوا قد قدموا اثنين اثنين، وهم أصغر منا سناً، وهم ربما أصدقاء أو جيران لآل كوربيت - وليسوا أصدقاء للمرحومة. لم ألمح آل ستانهوب، ولم أتوقع ذلك. ولم ألمح أيضاً الأب هانينغس. لا يزالون ربما في مكتب الأب هانينغس يناقشون مسألتي أنا وسوزان. يفترض بهؤلاء الأشخاص تلقي ضربة.

لم ألمح أمي أيضاً. إنها معهم ربما في الاجتماع. في الواقع، لقد طلبوا ربما من أشخاص آخرين الحضور، وتقديم شهادات ضدي - مثل أمير نسيم (السيد ساتر متعصّب)، وتشارلي فريك (إنها محافظة النزعة)، وجودي ريمسن (إنه منحرف)، وألثيا غوين (إنه فظ وجلف)، وبيريل كارليسل (إنه عاجز)... وربما حتى سامنتا (إنها من جماعة الأنذال) التي جاءت من لندن. إنهم يحضّرون الآن لإعدام من دون محاكمة قانونية ربما. لكن أمي ستعفو عني. إنها تحبني، من دون شروط.

أعلنت سوزان: "ما من أحد نعرفه هنا".

"إنهم يتآمرون ضدي في مكتب هانينغس".

"أظن أنك بحاجة إلى مشروب آخر".

"مشروب واحد، ثم نغادر".

"جيد، لكن عليك التحدث إلى إليزابيت إذا أمكن".

تجولنا في غرفة الجلوس، ثم انتقلنا إلى غرفة الطعام حيث تم وضع مجموعة شهية من الأطعمة، ولاحظتُ وجود باتيه كبد عملاق يفيض منه الدهن.

قالت سوزان: "لستَ بحاجة إلى هذا. تناول بعض الخضار المقطعة".

"خطر الاختناق".

انتقلنا إلى غرفة عائلية كبيرة في الجهة الخلفية للمنزل، لكننا لم نرَ أحداً نعرفه باستثناء طوم جونيور وبيتسي.

قالت سوزان: "إنه منزل كبير بالنسبة إلى إليزابيت، وولدين لا يسكنان هنا".

فكرتُ أنه من الأفضل عدم ذكر غرفة الضيوف، لكنني قلت: "لا بد من أنه يوجد الكثير من مساحة التخزين في الطابق السفلي".

"ما الذي جعلك تفكر في ذلك؟".

"حسناً... معظم الأغراض في منزل الحراسة تم نقلها إلى هنا".

أومأت برأسها وهي تفكر في شيء آخر.

في غضون ذلك، كنت أفكر في أنني كنت سأشعر بارتياح كبير هنا. صحيح أنني سعيد جداً لوجودي برفقة سوزان مجدداً، لكن المسألة لم تحسم بعد - بالرغم من أنها حُسمت برأيها. لكن في الأيام والأسابيع المقبلة، عليها مواجهة بعض الحقائق الصعبة، واتخاذ خيارات أصعب حين يضعها ماما وبابا أمام الأمر الواقع.

أنا واثق من أنها ستفضلني أنا عليهما وعلى مالهما، وإذا كان مال الولدين على المحك أيضاً، سنعقد اجتماعاً عائلياً وسأبقى أنا الفائز على الجد والجدة.

لكن هذا لن يحدث. ولن أحدث جلبة كبيرة حول ذلك. سأختفي فقط. حسناً، سأركل أولاً ويليام في رأسه. هذا أقل ما يمكنني فعله.

سألتني سوزان: "هل تستطيع العيش هنا؟".

"العيش... أين؟".

"أتساءل إذا كان يجدر بنا الانتقال من ستانهوب هال، والابتعاد عن الذكريات، عن نسيم، عن... كل شيء هناك".

لم أجبها على الفور، ثم قلت: "هذا قرارك أنت".

"أريدك أن تخبرني عن شعورك".

لماذا هي دائماً مسألة شعور مع النساء؟ ماذا عن "أخبرني عن رأيك".

"جون؟".

"لا أعرف حقيقة مشاعري حيال هذا الموضوع. سأفيدك لاحقاً بذلك".

"تريد إليزابيت أن تبيع، فلنفكر إذاً في الأمر".

إنها خطوة في الاتجاه الصحيح بعيداً عن ستانهوب هال. وافقتها الرأي: "لنرَ كيف سيكون شعورنا".

أومأت برأسها وقالت: "هناك أشخاص جالسون على المصطبة. فلنخرج إلى هناك".

هكذا، مشينا عبر غرفة الجلوس، وتوقفنا لإلقاء التحية على طوم جونيور وبيتسي، واكتشفنا أن والدهما ولورانس عادا إلى المدينة، لكن الولدين سينضمان إليهما غداً لتناول غداء الأحد في مطعم سوهو. هذا ما سأفعله إذا انتقلت إلى المدينة وحيداً.

قلت: "هذه إليزابيت. سنلقي عليها التحية، ثم تعتذرين منا، كي أتحدث معها بشأن تلك الرسالة إذا رأيتُ أن هذا ملائم".

أومأت برأسها، واتجهنا نحو إليزابيت التي كانت واقفة مع مجموعة من الأشخاص في وسط المصطبة الكبيرة.

تبادلنا القبلات، وعرّفتنا إليزابيت إلى أصدقائها، أحدهم كان رجلاً شاباً شعرتُ فوراً أنه عازب وفظ ويحوم حول صديقتنا ومضيفتنا. اسمه ميتش، وبدا مقرفاً قليلاً بالنسبة إليّ - ثياب على الموضة، شعر مصفف، أظافر مصقولة، وابتسامة مصطنعة. أسنان مصقولة أيضاً. لم يعجبني ميتش، وتمنيتُ ألا يعجب إليزابيت أيضاً.

قالت سوزان لإليزابيت: "كانت الجنازة جميلة والدفن مؤثراً".

أجابت إليزابيت: "شكراً لكما على كل ما فعلتماه".

وما إلى ذلك.

ثم اعتذرت سوزان، وترددتُ، ثم قلت لإليزابيت: "قد لا يكون الوقت ملائماً، لكنني أحتاج إلى خمس دقائق تقريباً لمناقشة شيء طارئ".

نظرت إليّ، وعرفت جوهر الموضوع. كان بوسعها تأجيله، لكنها قالت لضيوفها: "جون هو محامي أملاك أمي. يريد أن يخبرني أين دفنت المال النقدي".

ضحك الجميع من ذلك، ودخلنا أنا وإليزابيت إلى المنزل وقادتني إلى مكتبة صغيرة، وأغلقت الباب.

قلت لها: "هذا منزل جميل جداً".

"كبير جداً، وقديم جداً، ومكلف كثيراً". ثم أضافت مبتسمة: "أنجز طوم كل الزخرفة". فتحت خزانة للمشروبات وقالت: "دعني أزيد لك مشروبك".

"أنا بخير".

"حسناً، أحتاج أنا إلى كأس". سكبت الشراب، أو الشراب الروسي في كأسها من قنينة زجاجية.

سألتها: "كيف حالك؟".

حرّكت مشروبها بإصبعها، وهزّت كتفها وقالت: "جيدة. غداً لن يكون رائعاً".

"لا. لكن الوقت يشفي".

"أعرف. عاشت حياة جيدة".

كان بوسعي الانتقال مباشرة إلى موضوع الرسالة، لكنني أحسستُ أننا نحتاج إلى دقيقة أخرى من الكلام وقلت: "استمتعتُ كثيراً برفقة طوم".

"وأنا أيضاً. نحن صديقان. أحب لورانس أيضاً. وأنا سعيدة لهما".

"جيد. ولداك رائعان. أحبهما".

"إنهما ولدان جيدان. كان الأمر صعباً عليهما، لكن هذا حصل على الأقل في وقت أصبحا فيه كبيرين كفاية ليفهما".

أومأت برأسي وقلت: "حصل الشيء نفسه مع ولديّ".

"ولداك مذهلان، جون".

"أتمنى لو كنت متواجداً أكثر معهما خلال السنوات العشر الماضية".

"لم تكن كلها غلطتك. ولديك الكثير من الوقت للتعرف إليهما مجدداً".

"أتمنى ذلك". ابتسمت وقلت: "يبدو أن محاولة تقريبي بينهم قد فشلت".

ابتسمت هي أيضاً وأجابت: "لا تعرف أبداً". ثم أضافت: "ألن يكون ذلك لطيفاً؟".

وحول موضوع المواعدة، سألتني: "هل أعجبك ميتش؟".

"لا".

ضحكت وقالت: "أنت رقيق جداَ، جون".

"يمكنك اختيار شخص أفضل".

لم تجب على ذلك، ووقفنا هناك لبرهة، من دون أن يتوصل أي منا إلى الدخول في موضوع جديد للثرثرة.

لذا، قلت: "تحدثتُ إلى الأب هانينغس، وقال لي إنه تحدث معك بشأن الرسالة التي كتبتها أمك لي".

أومأت برأسها.

تابعت: "أخبرني أن أمك ناقشت معه - بالخطوط العريضة - محتويات تلك الرسالة، وأن إيثيل سألته إذا ما كان يجدر بها إعطاءها لي".

"أعرف ذلك".

"والأب هانينغس، مثلما تعلمين، يريد الاطلاع على محتوى الرسالة ليحدد ما إذا كنت أستطيع الاطلاع عليها".

لم تجب، ولاحظتُ أن الحديث لن يأتي لصالحي. قلت لها: "لا أعارض مشاركة قراءة محتويات تلك الرسالة معك - فأنت ابنة إيثيل. لكنني أعارض أن يطّلع على محتواها الأب هانينغس قبلي أنا. أو رؤيتها أساساً".

أومأت برأسها، ولاحظت أنها تتأرجح في رأيها.

هكذا، وقفنا هناك نحن الاثنان. بصفتي محامياً، أعرف متى يجدر بي تنحية القضية.

وأخيراً، قالت إليزابيت: "أحتفظ بالرسالة... غير مفتوحة - إنها موجهة إليك... لكن... إذا كنت لا تمانع، أودّ التفكير في أمر تسليمها إليك... والتحدث ربما إلى الأب هانينغس مرة أخرى".

أعدت فتح قضيتي، وقلت: "أظن أن القضية بيني وبينك".

"لكن أمي تحدثت إليه... وأنا الآن في الوسط".

"ما كان آخر شيء قالته لك عن الرسالة؟".

"تعرف... أنه يجدر بي إعطاءها لك بعد وفاتها. لكن... ماذا لو كانت تحتوي على فضيحة؟ أو... من يعرف ماذا؟". نظرت إليّ وسألت: "ماذا لو كان للأمر علاقة بسوزان؟".

فكرتُ قبلاً في ذلك، مثلما فعلت إليزابيت. إليزابيت وسوزان صديقتان، لكن في مكان ما في خلفية التفكير الجميل لإليزابيت هناك القليل من تفكير أناني بأن جون سيصبح حراً إذا رحلت سوزان. أعرف أن هذا أناني. لكنه صحيح. على أي حال، لا أظن أن إيثيل، حتى لو كانت تعرف فضيحة عن سوزان، ستكتب ذلك لي. في الواقع، أرادتنا أن نتصالح أنا وسوزان. وحتى لو كانت الرسالة عن

سوزان، لا أستطيع التفكير في العديد من الأمور التي ستبدل عقلي أو قلبي لناحية شعوري تجاهها. حسناً، أفترض أنني أستطيع التفكير في أشياء قليلة.

قلت لإليزابيت: "هذا شيء أرادت أمك أن أعرفه. لكنني أتفهم قلقك للحفاظ على سمعتها الجيدة وذكراها الطيبة. لذا، هل أستطيع الاقتراح عليك أن ننظر إلى الرسالة الآن، معاً؟ وإذا كان قد كتب فيها شيء من هذا القبيل، تحتفظين بالرسالة وتتلفينها".

هزّت رأسها: "لا أستطيع فعل ذلك الآن".

"حسناً. حين تصبحين جاهزة".

أومأت برأسها. "ربما يوم الاثنين. حين يصبح كل شيء ورائي. سأتصل بك".

"شكراً لك". ابتسمت وقلت: "تريد أمك إخباري فقط ربما كم أنني غبي".

ابتسمت لي وقالت: "كانت تحبك". اعترفت إليزابيت: "لكنها لم تستلطف أبداً إعجابي بك. أحبت طوم. وسوزان".

"أنا أيضاً أحب طوم وسوزان. لكن طوم يحب لورانس الآن".

ابتسمت مجدداً وقالت: "إنها مسألة توقيت".

"بالفعل". فتحتُ ذراعيّ، وتقدمت نحوي وتعانقنا.

قالت: "فلنتحدث يوم الاثنين".

"جيد".

عدنا معاً إلى المصطبة، حيث كانت سوزان تتحدث إلى ميتش والضيوف الآخرين في مجموعة إليزابيت الصغيرة.

قال ميتش لي ولإليزابيت: "هاي، فلنحضر المعاول ونذهب للبحث عن المال".

أحمق.

تجاهلته إليزابيت – رسمت لميتش إشارة إصبع إلى الأسفل وانتهى - وقالت لسوزان: "آسفة. أرادني جون أن أوقع بعض الأوراق".

ابتسمت سوزان وقالت: "اجعليه يستحق هلام التفاح البري".

ثرثرنا لدقيقة، ثم قلت: "لسوء الحظ، علينا المغادرة".

شكرنا أنا وسوزان إليزابيت على ضيافتها، وطلبنا منها الاتصال بنا إذا احتاجت إلى أي شيء. تمنينا للجميع أمسية طيبة، وقلت لميتش: "لا تنتعل هذه الأحذية إذا ما ذهبت للحفر".

لم يجب ميتش.

خرجنا أنا وسوزان من جانب المنزل لتفادي الأشخاص الموجودين في الداخل وأبلغتني: "كنتَ فظاً مع ميتش".

"لا أستلطفه".

"أنت لا تعرفه".

"ما من شيء لمعرفته".

"حسناً، أظن أنه هو وإليزابيت...".

"ليس بعد الآن".

"ماذا تقصد؟".

"أعطيته علامة غير مرضية".

فكرت في ذلك، ثم سألت: "هل قلتَ ذلك لإليزابيت؟".

"نعم".

بقيت صامتة لبرهة، ثم استفسرت: "متى أصبحت المستشار وحافظ الأسرار بالنسبة إلى إليزابيت؟".

أوه، لم أكن أتبع تسلسل تفكير سوزان. أجبتها: "لقد سألتني عن رأيي به، فأخبرتها".

"عليك التعلم ألا تجيب بفظاظة. وعليك التعلم أيضاً ألا تتدخل في شؤون الآخرين".

"حسناً". ثم أضفت: "العودة رائعة".

لم تجب على ذلك، ومشينا بصمت. لا تزال سوزان تكنّ بعض الغيرة بوضوح. جيد. لتغيير الموضوع، سألتها: "ألا تريدين معرفة ما حصل بشأن الرسالة؟".

"بلى، أريد".

هكذا، شرحتُ لها كيف حسمنا الموضوع أنا وإليزابيت، وأضفت: "لا أعرف ما هو مهم أو ما هو متعلق بي في هذه الرسالة. لذا، لا يجدر بنا القلق بشأنها. إيثيل كانت امرأة عجوز مع بعض التقاليد النموذجية الخاصة بجيلها، والكثير من الأفكار قديمة الطراز بشأن ما هو مهم".

أشارت سوزان: "كان الأب هانينغس قلقاً أيضاً".

"حسناً، إنها التقاليد النموذجية. هل أخبرتك أنني أقسمت له أننا ننام في غرفتيّ نوم منفصلتين؟".

"جون، لا يجدر بك الكذب على رجل الدين".

"كنت أحمي شرفك".

"دعني أفعل ذلك". فكرت لبرهة، ثم قالت: "أظن أنه علينا منح الأب هانينغس فائدة الشك في هذه الرسالة. إنه يحاول القيام بما يراه مناسباً".

اقترحت عليها: "لنرَ إذا نجحتُ في قراءة الرسالة الموجهة إليّ، ولنرَ ماذا تقول. سأبلغك حينها إذا كنت أظن أنه يحاول القيام بما يراه مناسباً".

عدنا إلى ستانهوب هال، وحين وصلنا إلى غرايس لاين، اتصلت سوزان بمنزل الحراسة لفتح البوابات، ثم اتصلت بصوفي، التي أكّدت لنا أنه لا يوجد بصل في المنزل.

لم تكن صوفي تتوقع قدومنا على العشاء، لكنها حضّرت بسرعة طبقاً من اللوبياء الخضراء والتوفو. يصعب اختيار الشراب الفرنسي مع ذلك.

تناولنا أنا وسوزان عشاء هادئاً على ضوء الشموع في المصطبة. أصبحت السماء صافية والنجوم ساطعة، وهبّت نسمة جميلة من ساوند.

قالت سوزان: "كان هذا أحد أفضل، وأحد أسوأ الأسابيع في حياتي".

طمأنتها: "سيتحسن الوضع بعد ذلك".

"أظن ذلك".

حسناً، أنا لا أظن. لكن ماذا أستطيع القول؟

قالت: "سأشتاق إلى إدوارد وكارولين هنا".

"وستشتاقين إلى قرب والديك".

"لن أفعل". ثم انتقلت إلى موضوع أكثر مرحاً وسألتني: "ماذا تودّ أن تتناول على فطور يوم الأب؟".

"كنت أفكر في بقايا اللوبياء الخضراء، لكنني سأتناول ربما البيض المقلي والنقانق. التوست المدهون بالزبدة، والبطاطا المقلية في المنزل، والقهوة، وعصير البرتقال. اخلطيه مع الشراب الروسي".

"وهل تود تناول ذلك في السرير؟".

"طبعاً".

"قال إدوارد وكارولين إنهما يأسفان لعدم حضورهما إلى المنزل لتناول الفطور".

"لا مشكلة".

"سيكونان هنا لتناول العشاء".

"جيد".

اقترحت: "علينا التحدث معهما بشأن جديهما".

لم أجب.

"جون؟".

سكبتُ لنفسي كأساً أخرى من الشراب الفرنسي، وقلت لها: "لن أتدخل في ذلك. إذا كنتِ تظنين أنهما بحاجة إلى تذكيرٍ إضافي بشأن الحقائق المالية في الحياة، وجهيه أنتِ إليهما. لقد اعتذرت شخصياً من ويليام وشارلوت. عملي انتهى".

"حسناً... أشعر أنك محبط وغاضب...".

"أبداً. فعلتُ ما كان يجدر بي فعله، وانتهيت من فعله. سأكون أكثر من لطيف غداً على العشاء، وسأتحدث مع والدك على انفراد مساء غد أو صباح الاثنين - بشأنك. لكن فقط لأنه يريد هو ذلك. بالرغم من أنني أستطيع القول لك إنه ما من شيء سيغير رأيه في هذا الزواج، ولن أحاول حتى تغيير رأيه. لذا، عليك أنت أيضاً، سوزان، مواجهة بعض الحقائق واتخاذ بعض القرارات".

"لقد فعلت ذلك".

"هذا ما تظنينه. انظري، جئت إلى هنا من دون أي شيء، وأنا مستعد للرحيل من هنا من دون أي شيء".

"لن تغادر هنا من دوني. ليس مجدداً".

"لن أجبرك على ذلك".

أمسكت بيدي وقالت: "انظر إليّ".

نظرت إليها عبر ضوء الشمعة، فيما الهواء لفح شعرها، ولم تكن يوماً أكثر جمالاً مما هي عليه الآن.

قالت لي، ببطء وتأنٍّ، "أفهم ما تقوله ولماذا تقوله. لكن يمكنك نسيان ذلك. لن تهرب بسهولة هذه المرة. حتى لو ظننت أنك تفعل ذلك لأجلي ولأجل ولدينا".

نظرت إلى عينيها، ولاحظت أنهما أصبحتا لامعتين. قلت لها: "أحبك".

"وأنا أحبك".

قالت لي: "لقد سئمت من سيطرتهما عليّ بمالهما. هكذا، إذا خسرت المال، أخسرهما، وأصبح حرة".

"أفهم. والولدان؟".

"لن يفعل ذلك - لن تسمح له أمي بفعل ذلك".

تريدين المراهنة؟ قلت لها: "حسناً. هذا جيد. الأمر محسوم إذاً. كدتُ لا آتي لحضور الدفن".

أجابتني: "عرفتُ أنك آتٍ، حتى لو لم تفعل". أشارت إلى السماء وقالت: "هذا مشارٌ إليه في نجومنا، جون. هذا ما كتب لنا".

الغريب أنني شعرت بالشيء نفسه، مثلما يفعل جميع العشاق. لكن السؤال الآن هو، ماذا تخبئ لنا إشارات النجوم لاحقاً؟

الفصل الثاني والستون

قدمت لي سوزان الفطور في السرير، بالرغم من أنني أظن أن صوفي هي التي حضرته - لأن طعمه أفضل بكثير من طعم الطعام الآخر.

كان يوماً جميلاً من شهر يونيو، وسطع نور الشمس على صينية الأكل المليئة بالدهن. بالكاد عرفتُ من أين أبدأ.

جلست سوزان ترتدي ثوب نومها، وشبكت ساقيها قربي، وارتشفت فنجاناً من القهوة. سألتها: "هل تريدين قطعة نقانق؟".

"لا، شكراً".

غصت في النقانق والبيض.

قالت لي: "إنه يومك المميز. ما الذي تودّ فعله في يوم الأب؟".

قتل والدك. أجبتها: "إنه يوم جميل جداً. فلنذهب إلى الشاطئ".

"ظننت أنه بوسعنا الذهاب للتسوق".

"أوه... فكرت...".

وضعت كيس تسوق قربها، وأعطته لي. "هذه هديتك ليوم الأب، وعلينا أن نشتري لك شيئاً يتناسق معها". ثم أبلغتني: "إنها مني ومن كارولين وإدوارد. اشتريناها أنا وكارولين لك حين كنا في المدينة".

"رائع. لم يكن يجدر بكما".

"افتحها".

مددت يدي إلى الكيس للبحث عن ربطة العنق البالغ سعرها مئتي دولار، والتي تحتاج الآن إلى بذلة جديدة للتناغم معها. لكنني لم أشعر أنها علبة ربطة عنق. شعرت أنها مثل علبة ملابس داخلية، أو ربما قميص يال جديد. لكن حين أخرجتها، وجدت أنها قبعة بحرية بيضاء اللون، مزينة بطرف أسود اللون ساطع، وضفيرة ذهبية على التاج. حدقت إليها. المرة الأخيرة التي حصلت فيها على واحدة من هذه القبعات كانت عندما شاركت في لجنة السباق في سيوانهاكا - قبل زمن بعيد.

قالت سوزان: "يوم أب سعيد".

نظرت إليها، وما زلت غير واثق من أنني أفهم ذلك.

قالت: "جربها".

هكذا، وضعتها فوق رأسي وجربتها. "إنها رائعة... جداً". هل يجدر بي النظر خارج النافذة للبحث عن اليخت؟

شرحت سوزان: "تصفحت بعض مجلات اليخوت، واخترت خمسة قوارب يمكننا رؤيتها اليوم".

لم أعرف فعلاً ماذا أقول، لكنني قلت: "هذا... باهظ جداً".

"على الإطلاق".

استدرت نحوها - من دون أن أزعج صينية فطوري - وأعطيتها قبلة كبيرة. قلت لها: "شكراً، لكن...".

"ما من لكن. سنبحر مجدداً".

أومأت برأسي.

"بشرط واحد".

"ليس وحيداً".

"هذا صحيح".

"موافق".

هكذا، جلسنا هناك لبعض الوقت، ونحن نمسك بأيدي بعضنا - أصبح البيض المعدّ لفطوري بارداً - وسألتها أخيراً: "هل نستطيع تحمل كلفة ذلك؟".

"سنساهم جميعنا. يريد إدوارد وكارولين المساهمة في ذلك أيضاً".

لم يكن هذا جواباً عن السؤال، لكنني تأثرت جداً بالفكرة.

حضّرت سوزان بعض صفحات المجلات وأعطتها لي. نظرت إلى بعض الإعلانات المبوبة المحاطة بقلم، ورأيت أننا نبحث في الفئة الصحيحة - أربعون إلى خمسين قدماً - يخت ألدن، اثنان هينكلي، واحد سي أند سي، ومورغان من خمس وأربعين قدماً. لاحظت أن الأسعار أعلى قليلاً من سعر الصاري الرئيسي - لكن، مثلما يقولون، إذا أردت أن تسأل عن سعر اليخت؛ فلا يمكنك شراءه. لذا، قلت "يكلف ذلك الكثير من المال".

"فكر في كل ساعات المتعة التي قد نحصل عليها من ذلك".

"صحيح". تذكرت تلك الأوقات الجيدة التي قضيناها معاً كعائلة ونحن نبحر في الساحل الشرقي. ثم فكرتُ في إبحاري حول العالم، والذي كان شيئاً مختلفاً تماماً. قلت لها: "علينا الطلب من الولدين ليخصّصا بعض الوقت هذا الصيف للإبحار معنا".

"وعداني. أسبوعان في شهر أغسطس".

"جيد". ثم فكرتُ في كل ما قد يحدث بين الفترة الممتدة منذ الآن حتى شهر أغسطس - آل ستانهوب، أنا وسوزان، وأنطوني بيلاروزا. حسناً، أنا متشائم جداً. أو واقعي. لكنني لا أريد إفساد اللحظة، ولذلك قلت: "إنها فعلاً فكرة رائعة. كيف فكرتِ في ذلك؟".

“هذا سهل. جلسنا أنا وكارولين وإدوارد لمناقشة هديتك المفضلة ليوم الأب، وكتب كلّ منا اقتراحاً على ورقة، وكتبنا جميعاً الشيء نفسه. مركب”.

أظن أن هذا أسرع من التمثيل الإيمائي. قلت: “إنهما ولدان رائعان”.

“إنهما مسروران لقدرتهما على القيام بذلك من أجل والدهما”.

أصبحت عاطفياً قليلاً، فمازحتها: “أين هي ربطة عنقي؟”.

“أوه، لا تبدو جيدة هنا مثلما كانت في المتجر. سأعيدها”.

أتساءل لماذا تبدو الأشياء مختلفة في المتجر بالنسبة إلى السيدات. الإضاءة؟ حسناً، لا بد أنها كانت مريعة فعلاً. قلت لها: “أفضل المركب. أعطي ربطة العنق لوالدك”.

“فكرة جيدة. ما إن يصل الولدان إلى هنا، سنخرج ونرى تلك المراكب”. أضافت: “يريدان المساعدة”.

حسناً، إنه مالهما. في الواقع، إنه مال ويليام، وهذا ما يجعل الهدية رائعة. لا يسعني الانتظار لأخبر الرخيص ويليام أنه ساهم في شراء هدية يوم الأب الخاصة بي، والبالغة قيمتها مئتيّ ألف دولار - على الأقل في الدفعة الأولى. نحتاج إلى تمويل لتسديد الدفعات الأخرى، ولست واثقاً ما إذا كانت مخصصات الجميع، والحصص المالية ستستمر في التدفق بعد اليوم. إنها هدية ملائمة وعزيزة جداً بالنسبة إلي، لكنها جنون بحت. إلا أن الفكرة هي التي تهم.

قالت سوزان: “انهِ فطورك، وسأقدّم لك هدية أخرى”.

اللعنة على الفطور. حسناً... ربما قطعة نقانق أخرى.

قفزت من السرير وقالت: “عليك إبقاء القبعة على رأسك”.

شرحت: “أنت بحار وصل إلى الشاطئ بعد عاصفة، وأنا الزوجة الوحيدة لبحار لم أرَه منذ سنوات. وأنا أعتني بك لأعيد لك صحتك، وجئت للتو لآخذ صينية الفطور منك”.

“حسناً”. لا تبالغي كثيراً.

جاءت إلى جانب السرير وسألتني: “هل من شيء آخر أحضره لك سيدي؟”.

“حسناً...”.

“أوه، سيدي، كيف ترتفع الصينية لوحدها؟”.

ابتسمت: “حسناً...”.

“دعني آخذها سيدي قبل أن تقع أرضاً”.

وضعت الصينية على المنضدة، ثم عادت إلى السرير وقالت: “بعد إذنك سيدي، سأدلك المرهم على جسدك”.

نقرت على قبعتي وقلت: “أعطيتك إذني”.

هكذا، لم أتناول الكثير من الفطور، لكنني لا أواجه مشكلة كبيرة في الاختيار بين الحميمية القصوى والطعام.

وصل كارولين وإدوارد في قطار الساعة التاسعة والثماني والعشرين دقيقة، واصطحبتهما سوزان من المحطة.

أعطاني الولدان قبلة وعناقاً لمناسبة يوم الأب، وبطاقة جميلة مع صورة مركب شراعي. شكرتهما على استعدادهما للمساهمة في شراء مركب شراعي حقيقي، وكانا سعيدين جداً بعطائهما.

قال إدوارد: "أهلاً بك في المنزل، بابا".

قالت كارولين: "أنت هديتنا يوم الأب".

بدأت سوزان تبكي، وكذلك فعلت صوفي، وحتى كارولين، القاسية عادة مثل الأظافر، مسحت عينيها. نحنحنا أنا وإدوارد حنجرتينا، لكوننا رجلين حقيقيين.

لم أخبر الولدين عن رأيي بأن اعتماداتهما المالية لدفع ثمن ذلك قد تتوقف سريعاً. في الواقع، سنحظى بالجواب على ذلك قبل أن نكتب شيكاً، ولذلك لست قلقاً كثيراً. أسوأ سيناريو هو أنه سيخيب أملهما لأنهما لن يستطيعا المضي قدماً في تسديد ثمن هديتهما. وهما يعرفان من يلومان على ذلك. في هذا الموضوع، لم أذكرهما: "كونا لطيفين جداً مع الجد والجدة". قلت لهما بدلاً من ذلك: "فلنبحر إلى هيلتون هيد في شهر أغسطس".

نصحتني سوزان: "دعنا لا نذكر ذلك أمام والديّ اليوم".

"صحيح. سنفاجئهما في أغسطس". لم تعلق سوزان على ذلك. الخلاصة هنا هي أن مال ستانهوب هو الذي لا يزال يصبغ ما نفعله ونقوله. حسناً، أتمنى أن ينتهي ذلك قريباً.

على أي حال، صعدنا إلى سيارة اللكزس وخرجنا لرؤية بعض المراكب.

أول مركبين كانا، واحداً نوعه ألدن طوله سبع وأربعون قدماً والثاني هينكلي طوله ثلاث وأربعون قدماً، كانا يرسوان في مرافئ عامة، وفحصناهما من الرصيف.

المركب التالي كان هينكلي، قديماً. طوله واحد وأربعون قدماً، موضوعاً في منزل خاص في خليج مانهاست، واتصلنا مسبقاً، وأرانا إياه مالكه. المركب الرابع كان مورغان 454 طوله خمس وأربعون قدماً، موجوداً في سيوانهاكا، واصطحبنا مرشد النادي إليه، لكننا لم نصعد إلى متنه. المركب الخامس، 44 سي أند سي، كان أيضاً في سيوانهاكا، لكن المرشد قال إن العائلة أبحرت فيه لتمضية النهار. أخبرنا أنه مركب جميل.

عند العودة إلى النادي، كانت هناك حفلة شواء على العشب لمناسبة يوم الأب، واقترحتُ على سوزان، بعيداً عن مسمع الولدين، "لماذا لا نصطحب والديك إلى هنا بدلاً من تناول العشاء في المنزل؟ هكذا، نستطيع بعدها أنا ووالدك تجربة قيادة المركب مورغان ومعرفة كيفية عمله".

ذكَرتني: "لا نريد أن نذكر الأمر أمامه".

"أظن أننا نستطيع أنا وهو إجراء محادثات مثمرة جداً من رجل إلى رجل في وسط ساوند".

لا بد أنها أساءت فهمي لأنها قالت: "جون، تهديدك بإغراق والدي في يوم الأب ليس لطيفاً".

"عمَّ تتحدثين؟". تساءلت إذا كان لا يزال سباحاً ماهراً.

جلسنا جميعاً على المصطبة الخلفية وشربنا بلادي ماري. سألتني سوزان: "إذاً، هل رأيت شيئاً أعجبك؟".

أجبتها: "إنها كلها مراكب رائعة. نحتاج إلى تحديد بعض التواريخ للإبحار فيها وتجربتها. وأريد أن أرى ذلك المركب سي أند سي الذي كان مبحراً".

قال إدوارد: "أحببتُ مورغان. إنه يذكرني بذلك الذي كنا نملكه".

وافقته كارولين: "إنه كبير كفاية لبابا وماما للإبحار إلى أوروبا".

هكذا، جلس آل ساتر على المصطبة، يشربون بلادي ماري، ويراقبون نور الشمس الساطع على الخليج، فيما المراكب الشراعية في مراسيها، ورؤوسها موجهة نحو الداخل، ورحنا نتحدث عن اليخت الذي أعجبنا أكثر من غيره. ما من شيء أفضل من ذلك، وهذا ما كان يفكر فيه ربما ركاب التايتانيك قبل أن يرتطموا بالجبل الجليدي.

قبل العودة إلى المنزل للاستعداد لاستقبال آل ستانهوب وأمي، توقفنا أمام مقبرة لوكوست فالي.

جاء كل من سوزان وإدوارد وكارولين إلى هنا لحضور دفن والدي، لكنهم لم يعودوا بعد ذلك، ولذلك تحققتُ في المكتب من موقع قبر جوزيف ساتر، فيما اشترت سوزان الأزهار من بائع فتح متجراً قرب البوابة.

مشينا في طريق محاطة بالأشجار، وعبرنا المقبرة الشبيهة بالحديقة العامة. لم تكن اللوحات الحجرية ترتفع إلى أكثر من مسافة قدم، ولم تكن مرئية جيداً بين كل النباتات، مما ولد الانطباع بأنها محمية طبيعية أو حديقة نباتات.

مقبرة ستانهوب في البعيد تم فصلها بواسطة شجيرات وبوابة حديدية، وكانت المقابر فيها أضخم طبعاً - إلا إذا كنت خادماً - ولا مجال لعدم الإدراك أنك تمشي بين الموتى. تشعر هنا أنك عدت إلى الطبيعة. أردت أن أكون هنا - على مسافة خمسمئة ياردة على الأقل من أقرب شخص من آل ستانهوب. يجدر بي التحدث مع سوزان بشأن كسر التقاليد العائلية - أو أننا سنحوّل جميعاً إلى مقبرة عامة على أي حال.

كان هناك عدد من الأشخاص في المقبرة في هذا اليوم المشمس من يوم الأب، ورأيت باقات الأزهار قد وُضعت على العديد من القبور، فضلاً عن أعلام

أميركية صغيرة مغروزة في الأرض قرب اللوحات الحجرية لقبور من كانوا جنوداً.

قالت سوزان: "علينا العودة إلى هنا في الأسبوع المقبل مع علم لقبر والدك".

تمنيت ألا نعود إلى هنا في الأسبوع المقبل إلى الأبد. يجدر بي التوقف ربما أمام مكتب المبيعات في حال حصل أمر ما.

عثرنا على قبر جوزيف ويتمان ساتر. مثل معظم القبور الأخرى، كانت هناك لوحة صغيرة من الغرانيت أبيض اللون، ارتفاعها قدم واحدة تقريباً، وباستثناء الأحرف المحفورة، بدا أشبه بمقعد منخفض أكثر مما هو قبر.

بالإضافة إلى كتابة اسمه وتاريخ ميلاده وفاته، كُتب أيضاً الزوج والوالد إضافة إلى كلمات في قلوبنا ستبقى حياً إلى الأبد.

على يمين قبر جوزيف ثمة مساحة فارغة. لا شك في أنها مخصصة لهارييت.

ثمة باقة من الأزهار موضوعة على قبر والدي، وافترضتُ أنها من أمي، بالرغم من رفضها لقطع الأزهار - أو أنها قد تكون من صديقة سرية. سيكون ذلك لطيفاً. سأسأل هارييت إذا جاءت إلى هنا اليوم.

فيما نظرتُ إلى قبر والدي، راودتني ذكريات مختلطة عن هذا الرجل. كان لطيفاً - لطيفاً جداً - وزوجاً محباً - على حافة الخنوع - ووالداً محترماً، وإن كان بعيداً نوعاً ما. في هذا الخصوص، كان منتجاً بين أبناء جيله وطبقته، ولذلك لا يلقى اللوم عليه - بالرغم من أنني كنت أرغب لو أظهر المزيد من العاطفة تجاه إميلي. وبالنسبة إليّ، عملنا معاً، كأب وابنه، ولم يكن الأمر سهلاً على كلينا. أردت ترك شركة بركينز، بركينز، ساتر ورينولدز، لكنه أرادني فعلاً أن أبقى وأحمل اسم العائلة في تلك المهنة القديمة. إذا كان ذلك يعني الاستمرارية بالنسبة إليه، أنا واثق من أن أمله قد خاب حين أجبرني الشركاء الآخرون على الخروج. كان شبه متقاعد حينها، لكن بعد أن تركت، عاد ليعمل بدوام كامل ومات ذات ليلة وهو جالس في مكتبه.

على أي حال، أصبحت مهنتي في الدفاع عن الجرائم خلفي - إلا إذا اتصلت بكارمين كابوتو أو جاك واينشتاين - وأصبحت كل حياة جوزيف ساتر خلفه. المهم أنها كانت حياة جيدة، لأنه عاش مع أمي زواجاً جيداً. لم يكن يجدر بهما إنجاب الأولاد، لكنهما أقاما علاقة قبل ابتكار حبوب منع الحمل وتحصل الأمور حين تشرب الكثير من الشراب. هكذا، ولد ربما نصف من هم في جيلي.

ذات مرة، كان جوزيف في مزاج ساذج على نحو غير اعتيادي، وقال لي: "أوشكت على الموت في فرنسا عشر مرات تقريباً، ولذلك أعتبر كل يوم أعيشه هو هدية لي". بالفعل، شعرت الشيء نفسه بعدما قضيت ثلاث سنوات في البحر.

وضعت سوزان ذراعها حول جسدي، ووقف إدوارد وكارولين جانباً، يحدقان بصمت إلى قبر جدهما.

وضعت باقة الأزهار قرب الباقة الأخرى، وقلت له: "لقد عدت بابا".

الفصل الثالث والستون

وصلت أمي أولاً، ولاحظت أنها هي وحفيديها مولعون فعلاً ببعضهم. من المؤسف جداً أن هارييت لا تملك المئة مليون.

جلسنا على المصطبة نحتسي شراب السنجري، وهو أقرب إلى مشروب عالم ثالث مثلما تقول هارييت. قلت لها: "لكل قنينة شراب فرنسي نشربها، يحصل مزارع أرز في بنغلادش على شراب اسكتلندي وصودا".

تصبح سوزان وهارييت على الموجة نفسها حين يتعلق الأمر بالطعام العضوي، ولذلك تناولنا أطباقاً من شيء ما، وثرثرنا.

بدأت أستلطف أمي، وهذا أمر سهل إذا نسيت كل ما حصل منذ ولادتي وحتى عشر دقائق خلت. لكنها في الواقع شخص حريص قبل كل شيء. إنها حريصة على الأشياء غير الصحيحة، أو على الأشياء الصحيحة بالطريقة غير الصحيحة، لكنها على الأقل منخرطة في الحياة.

في هذا الموضوع، تساءلتُ عما تحدثت به مع الأب هانينغس. وعلى من تحدثا؟ هارييت، مثل إيثيل، تبدو وكأنها تهتم أكثر في الأشخاص المقموعين من العالم، الذين لم تلتقِ بهم أبداً، والحيوانات والأشجار التي لم تعانقها أبداً، أكثر مما هي مهتمة في الأشخاص من حولها، مثل ابنتها وابنها. لكن يبدو هنا أن هارييت جديدة تظهر - واحدة تهتم بحفيديها، وتتحدث أيضاً عن رجل الدين بشأن ابتعادها عن ابنها. ماذا حصل لها؟ حسناً، قد يكون هذا موت إيثيل. أحست هارييت بدنو موعد موتها.

كانت هارييت تسأل كارولين وإدوارد عن مهنتيهما، وبدت مهتمة فعلاً بذلك، بالرغم من أنها تواجه مع كارولين بعض المشاكل في النظام القضائي الجرمي. وفي موضوع المجرمين، تساءلتُ إذا ما خرج أنطوني بيلاروزا من مخبئه ليكون مع عائلته في يوم الأب. على الأرجح لا، لكن إذا فعل، فسأعرف ذلك؛ لأنه حسب اقتراحي على فيليكس مانوسكو، سيراقب رجال الأف بي آي أو الشرطة مقبرة دار عبادة سانتا لوسيا في بروكلين حيث يرقد فرانك بيلاروزا.

ستكون آنا في المقبرة، وحسب آنا، سيكون هناك أيضاً ولدا فرانك الآخران، فرانكي وطومي، وربما ميغان وولداها. بالرغم من أن ميغان لم تعرف أبداً حماها، إلا أن من أحد شروط الزواج من عائلة إيطالية هو ضرورة زيارة قبور كل أفراد العائلة الذين ماتوا في القرن الماضي.

حسب مانوسكو، تتم مراقبة منزل الأم في بروكلين وعقارات الحمرا طوال اليوم. شخصياً، لا أظن أن أنطوني سيخرج من جحره، خصوصاً اليوم حين يعرف أن الأف بي آي تراقب منزله ومنزل أمه. لكن أنطوني قد يزور قبر والده. وإذا خطرت للعم سال الفكرة نفسها، قد يموت أنطوني في المقبرة قبل أن يتم اعتقاله.

على أي حال، تعبت هارييت وكارولين من موضوع البكالوريوس في الإنسانيات للقتلة، وسألتني هارييت: "لماذا يوجد حراس مسلحون عند البوابة؟".

شرحت لها: "يظن السيد نسيم أن رجالاً يريدون قتله". ختمت قائلاً: "ألوم حكومتنا على ذلك".

تعرفني هارييت حين أكون استفزازياً، ولا تحاول أبداً إثارة الموضوع. والأهم، حسب سوزان، هو أن هارييت لا تعرف أن أنطوني بيلاروزا يعيش في الجوار. إذا عرفت، ستصرّ على أن نخبر إدوارد وكارولين. حين كنا شباباً، كانت هارييت تقول لي ولإميلي أشياء مثل "يملك والدكما قلباً مريضاً، وقد يموت في أي وقت، ولذلك عليكما الاستعداد لذلك". أظن أنها حصلت على كتاب غريب جداً حول كيفية تربية الأولاد.

على أي حال، افترض إدوارد وكارولين وكل الآخرين أن الحراس المسلحين استأجرهم نسيم لأسبابه الخاصة. لا يعرف أحد حتى الآن أنه قد يكون هناك تبرير ثانٍ لوجود الحراس المسلحين.

إلا أنني بدّلت الموضوع وانتقلتُ إلى الحديث عن جنازة إيثيل ودفنها، مما قادني إلى إخبار هارييت: "ذهبنا جميعاً لزيارة قبر أبي اليوم".

نظرت أمي إليّ، لكنها لم تجب. حسناً، لا يزال هذا الموضوع يؤلمها. لم أحضر الدفن، ولن تتقبل أسبابي لذلك - كنت في البحر ولم أعرف أن أبي قد مات. برأيها هي، إنه مجرد مثل آخر على ابن لا يفوّت أي فرصة لتسبيب الألم والأذى لأمه.

سألتها: "هل ذهبتِ إلى هناك اليوم؟". قولي لا. أرجوك قولي لا.

أجابتني: "تركت باقة من الأزهار عند القبر. ألم ترَها؟".

"بلى. لكنني أعرف شعورك حيال الأزهار المقطوفة". لذا، ظننتُ أنه كان لأبي صديقة. "لذا، لم أكن واثقاً من أنكِ أنت".

"ومن سيترك أزهاراً على قبره؟".

ربما لولا، موظفة الاستقبال، أو جاكي، مديرة المكتب. أجبتها: "لا أعرف. أشير لك فقط إلى أنك لا توافقين على الأزهار المقطوفة".

"هذا ما كان معروضاً للبيع".

"صحيح. على أي حال، إنه موقع جميل جداً، وأنا آسف لأننا لم ننسق للذهاب معاً".

"حسناً، أنا مسرورة لأنك ذهبت".

تقصدين أنا متفاجئة لأنك أزعجت نفسك. ينشر بعض الأشخاص الحنان والدفء. هارييت تنشر الذنب. هل قلتُ إنني بدأت أستلطف أمي؟

في موضوع المقابر والجنازات، علقت كارولين على أنها شاهدت بضع دقائق من دفن غوتي على التلفزيون في المشرب حيث التقت بأصدقائها الليلة الماضية. قالت: "أفهم حضور العائلة والأصدقاء وما يعرف بشركاء العمل. لكن أولئك الأشخاص في الشارع - يلوحون ويهتفون، ويرسمون إشارة رمز ديني - كان ذلك... مقرفاً. ثم أجروا مقابلات مع بعض الأشخاص الذين قالوا إن غوتي كان بطلاً، رجلاً اهتم بهم، وأعطى الكثير للمجتمع - كما لو أنه روبين هود". سألت: "ما الخطب في هؤلاء الأشخاص؟".

تملك هارييت جواباً. "يشعر الناس بالنفور من الأشكال التقليدية للقوى الحكومية، ويبحثون عن أبطال...". وما إلى ذلك.

كارولين، التي تحولت مؤخراً إلى القانون والنظام، لم تفهم شرح جدتها لسبب منح سكان الكوينز، نيويورك، لقب البطل لجون غوتي.

على أي حال، كان هذا الموضوع قريباً من موضوع حياة فرانك بيلاروزا، وموته، ودفنه. خشيتُ أن تقول هارييت شيئاً مثل: "جون، ذهبتَ إلى دفن فرانك بيلاروزا بعدما قتلته سوزان. ألا تظن أن الأشخاص العاديين شعروا بأنهم فقدوا بطلاً؟". عليّ تحويل هذا السؤال إلى سوزان. أوه. صفعة.

سألت: "هل شاهد أحدكم مباراة اليانكي - ميتس البارحة؟".

حسناً، قبل أن نستطيع تحليل نتائج المباراة، وصل ويليام وشارلوت في تمام الساعة الرابعة، وأشعلا الحفلة. ركضت شارلوت تقريباً نحو إدوارد وكارولين وغمرتهما بالقبلات. وصرخ المجنون ويليام لكارولين: "تصبحين أكثر جمالاً في كل مرة أراك فيها أيتها الشابة!". ثم لاعب إدوارد وركلني وقال: "هاي، أيها الرجل الكبير! فلنفتح بعض قناني الشراب!".

حسناً، ليس تماماً. لكن ويليام تقبل أمنيات الجميع بيوم أب سعيد وبادلهم التحية بابتسامة مصطنعة. حتى إنه تمتم لي: "يوم أب سعيد".

رفض ويليام وشارلوت احتساء شراب السنجري، ورفضا عرضي بالشراب، لكن كلاً منهما أخذ كأساً من الشراب الفرنسي أبيض اللون، الذي يعتبر مثل ماء الحنفية بالنسبة إليهما. جلسنا حول الطاولة وتحدثنا قليلاً، وأخبرت شارلوت الجميع بما فعلته هي وويليام خلال الأيام القليلة الماضية. تفاجأتُ لأنها تذكرت، على أي حال لم يكترث أحد لكلامها. كان ويليام هادئاً، يفكر على الأرجح في مفاوضاتنا الماضية والمستقبلية.

كنت مسروراً فعلياً لوجود هارييت هنا، لأن هذا أجبر آل ستانهوب على التصرف مثل أشخاص طبيعيين.

راقبتُ ويليام عن كثب بحثاً عن أي علامات لتحول عطاسه إلى سعال. يجب توخي الحذر في مثل هذا العمر. لكنه بدا بخير - شاحباً قليلاً ربما. هل هذه بقعة شيخوخة على جبينه أم سرطان جلدي؟

فكرت أيضاً في اجتماع ويليام وشارلوت البارحة مع الأب هانينغس. أتمنى أن يكون الراعي الصالح قد نصحهما بالاهتمام بشؤونهما، وأن يكونا كريمين في

هدية الزفاف، ودفع ثمن حفلة الاستقبال، وزيادة نفقة سوزان، والشروع في رياضة التحليق في الهواء.

أو يكون ويليام قد أدخل بنجاح الأب هانينغس في الحزب المعارض لجون، وأقنع ويليام هانينغس بالتدخل، وتقديم النصح لسوزان لعدم الزواج برجل يسعى وراء المال، وهو بلا شك غير متوازن عقلياً وأحمق كبير. لا شك في أننا لم نهتم أنا وهانينغس ببعضنا البعض أبداً، ولم أتوصل معه إلى أي نتيجة الليلة الماضية، ولذلك سيكون هذا عملاً خيًّرا بالنسبة إليه - ثأر الأب هانينغس. حسناً، مثلما تزرع تحصد. يجدر بي التعلم ربما أن أكون أكثر لطافة مع الأشخاص الذين قد يلحقون الأذى بي. ربما لا.

علّمت سوزان صوفي الإعلان عن أن الغداء لن يتأخر أكثر من الساعة الرابعة والخمس والأربعين دقيقة - كم سنتحمل من ذلك؟ - فظهرت صوفي على المصطبة في الوقت المحدد وقالت: "الغداء جاهز".

هكذا، دخلنا إلى غرفة الطعام، وتولت سوزان ترتيب أماكن جلوسنا - الأبوان في مكانيّ الشرف في الطرفين المقابلين من الطاولة، مما أجبرنا على النظر إلى بعضنا. أجلست سوزان أمي إلى يساري، وجلست شارلوت إلى يمين ويليام. اتفقنا على أن يجلس الولدان استراتيجياً إلى يسار الجد، ومقابل الجدة شارلوت. جلست سوزان إلى يميني، وأعلنت: "الطبق الأول هو طبق بولندي اسمه سلطة الودائع". طبعاً، لم أقل ذلك. لكن لديّ مجموعة من المصطلحات المالية التي أستطيع استخدامها أثناء الغداء لجعل الولدين يقهقهان، مثل "الأشياء الخضراء"، و"الصلصة"، و"الخبز"، و"العجينة"، و"الأصول السائلة". حسناً، لا أعرف شيئاً عن هذه الأخيرة.

اقترحت سوزان شرب نخب أعظم الآباء في العالم، وظن ويليام نوعاً ما أن هذا يشمله وقال: "شكراً". قالت سوزان أيضاً: "ونخب جوزيف".

الأمر الذي جعل الدموع تتلألأ في عينيّ أمي. هذه هي السيدة التي نجحت في سحق كل الغرائز الأبوية التي كان يملكها جوزيف ساتر ربما. لكن مثلما قلت، أصبحت جدة جيدة، وأتمنى أن ينعكس هذا الحب على حفيديها في وصيتها. لا تحتاج الحيتان إلى المال.

انتهزتُ الفرصة للقول: "أنا آسف لأن بيتر لم يستطع الحضور". استفسرت من آل ستانهوب: "أين يعمل الآن؟".

أجاب ويليام: "إنه في ميامي، ويدير معظم أعمال العائلة من هناك".

لم أشأ أن أكون أنا الشخص الذي يشير إلى عدم وجود أعمال للعائلة - فقط مال قديم يتم الاهتمام به على أيدي اختصاصيين - لكنني أردت بعض هذا المال لزوجتي وولديّ، ولذلك قاومتُ القول: "بيتر هو إنسان أحمق لا يستطيع تحويل دولار واحد من دون استشارة خبير مالي". قلتُ بدلاً من ذلك: "أرجوك، أبلغه تحياتي". وأخبره أنني سأراه في المحكمة.

في موضوع ثروة ستانهوب، لو كان ويليام عمل لجني هذا المال، لما كنت أشتهيه. يستطيع الناس فعل ما يشاؤون بالمال الذي جنوه. لكنه مال موروث، تم اكتسابه فقط عبر قانون الوراثة، وليس عبر العمل أو الذكاء أو حتى الحظ. لذا، أعتقد أن الأحمق يريد توريثه إلى ذريته - حتى إلى بيتر الأحمق - تماماً مثلما ورثه ويليام عديم الجدوى نفسه. يجب ألا يستخدم هذا المال بمثابة سلاح أو مكافأة بافلوفية.

على أي حال، انتهت فترة تناولنا العشاء جيداً، ومثلما قلت، مع وجود هارييت هنا، لم يستطع آل ستانهوب أن يكونا أحمقين كاملين. لم يتطرقا مثلاً إلى موضوع زوج سوزان المتوفي، الذي كان أيضاً زوج أم ولديّ. لو أثارا اسمه أمام ولديّ، لكنت صرخت وقلت: "رأى إدوارد وكارولين أنه كان عجوزاً مضجراً، تماماً مثلكما"، وينتهي العشاء بعد ذلك.

إلا أن الحمقاء شارلوت قالت: "نتوق كثيراً إلى العودة إلى المنزل".

حسناً، نشعر جميعاً بالشيء نفسه، لكنني أجبتها: "أتشوق إلى رؤية منزلكما في هيلتون هيد".

وقالا... لا شيء. لكن ويليام نظر إليّ عبر الطاولة، ونفث دخان سيجارته من منخريه.

كانت سوزان تنعش المحادثة حين تتوقف، لكنني لم أكن راضياً حين قالت للولدين: "أخبرا جديكما عن..." أي شيء. أقصد، كان الكلام مصطنعاً قليلاً، بالرغم من أن الجد والجدة ستانهوب لم يهتما كثيراً لحفيديهما، وأحسستُ أنهما سيضعان إدوارد وكارولين في حال الانتظار إلى حين حلّ مسألة الماما والبابا.

طلبت مني سوزان أن أكون ودوداً وألا أتهور. تصرفتُ بشكل أفضل. أنا جيد جداً في الترحيب المسرحي (المشارف على السخرية)، وأطلقت العنان لذلك. قلت لويليام، مثلاً، "لن أستمتع بيوم أب سعيد إلا حين تسمح لي أنت وشارلوت بإعداد الشراب لكما". وفي إحدى المرات، قلت له "بابا" مما جعله يرتعش. الأفضل من ذلك أن حديثي المسهب جعلهما ينطويان على نفسيهما.

أظن أن هارييت لاحظت أن آل ستانهوب لا يحبان ابنها. هي لا تحبه أيضاً، لكنني أستطيع القول إن الأمر لا يعجبها حين يكون صادراً عنهما. أنا ابنها الأحمق، وليس ابنهما. إنها أمي.

كنت أحاول تقرير ما إذا كان يجدر بي غناء "أوه، بابا"، لكننا نستطيع فعل ذلك لاحقاً في غرفة الجلوس حيث يوجد بيانو - تجيد كل من سوزان وشارلوت العزف، وتستطيعان العزف معاً فيما نقف نحن الباقون ونشبك أذرعتنا ببعضنا ونغني.

حسناً، انتهى العشاء عند الساعة السادسة والنصف، مثلما خططت سوزان، وأنا واثق من أن أحداً لم يشعر كيف مرّ الوقت.

لكننا بحاجة إلى تناول جاتوه يوم الأب، ولذلك انسحبنا إلى غرفة الجلوس وجلسنا حول الطاولة الصغيرة. أحضرت صوفي العربة وقدّمت القهوة والشاي

وحلويات ما بعد الغداء.

أحضرت صوفي أيضاً قالب جاتوه كبيراً أعدته بنفسها وزينته بعبارة "يوم أب سعيد". لكنها أخطأت لسوء الحظ في الإملاء. ضحكنا، وقلت لويليام: "هذا قالبك، بابا".

لم يظن أن هذا مرح جداً.

أحضرت سوزان كيس هدية كبير، مع شعار مصمم عليه وقدّمته لوالدها. "يوم أب سعيد، بابا".

ابتسم ويليام، وهو مسرور باستعادة بعض أمواله. أخرج البطاقة، وفتحها وقرأها لنفسه من دون مشاركتنا الرسالة، أو حتى القول إن الهدية منا جميعاً. كم هو حقير.

أخرج ويليام من ثم علبة ربطة العنق من الكيس، وحاول معرفة كيفية فتحها. رفع إحدى أبشع ربطات العنق التي رأيتها في حياتي. إنها باللون الوردي اللامع، وتغيرت ألوانها مثل الحرباء فيما قلبها بين أصابعه.

بدا أنها أعجبته وقال: "شكراً لك سوزان".

قالت سوزان: "إنها منا جميعاً، بابا".

أردت القول: "حصلت على يخت"، لكن لكي أكون لطيفاً، قلت: "أتمنى لو أنني حصلت عليها".

وهذا ما دفع بهارييت إلى التساؤل: "ماذا أحضر لك الولدان، جون؟".

كنت حضرت جوابي وأجبت: "بطاقتيّ سفر إلى هيلتون هيد"، وابتسمتُ لآل ستانهوب اللذين ارتعشا مجدداً. اضطراب عصبي؟

حسناً، أوشكت الاحتفالات العائلية على نهايتها، إلا إذا طلبتُ من سوزان وشارلوت العزف على البيانو. أعلنت كارولين أنها تودّ اللحاق بقطار الساعة الثامنة والخمس وعشرين دقيقة كي تتمكن من الوصول إلى المنزل وإنجاز بعض الأعمال قبل محاكمة ستحضرها في الصباح الباكر. عرضت هارييت توصيل كارولين إلى المحطة، لكن كارولين خافت كثيراً في آخر رحلة لها مع الجدة، وقالت إن إدوارد سيصطحبها. سيذهب إدوارد بعدها إلى منزل صديق، ويغادر في الصباح إلى المطار، ولذلك عليه أن يودّع الآن جديه.

خرجنا جميعاً إلى المصطبة، وتعانق الجميع وتبادلنا القبلات وتمنينا لبعضنا رحلات آمنة. هنا، يكون آل ستانهوب وآل ساتر في أفضل حالاتهم - خلال الوداع.

قالت هارييت: "حسناً، يبدو أننا نلتقي فقط في حفلات الزفاف والجنازات". ثم أضافت: "وأتمنى أن تكون المناسبة التالية هي زفاف جون وسوزان".

تمنيت أن تكون المناسبة التالية دفن ويليام، لكنني قلت: "سنتزوج في سيوانهاكا قبل نهاية الصيف".

بدت هارييت سعيدة فعلاَ، وابتسمت لويليام وشارلوت اللذين بدوَا وكأنهما شمّا رائحة نتنة وسألتهما: "أليس هذا رائعاً؟".

حسناً، يمكنك سماع طقطقة أطقم أسنانهما. ممتاز هارييت - أنجزت عملاً عظيماً في النهاية. ولم يكن موجهاً ضدي.

على أي حال، عانقتُ كارولين وقبّلتها، وقلت لها: "لن أتصل بك من لندن بعد الآن".

"أحبك بابا".

ارتعش ويليام مجدداً. حسناً، إذا كان يملك الرجل قلباً، سيفهم هذا النوع من الحب العائلي، وسيأخذني جانباً ويقول: "أبارك زواجكما، جون"، ثم يقع ميتاً.

قادت هارييت سيارتها من دون قتل أحد، ثم لحق بها إدوارد وكارولين في سيارة اللكزس.

نظرتُ إلى ويليام وقررت أن الوقت قد حان. قلتُ له: "إذا لم تكن مستعجلاً، يمكننا تناول كأس في مكتبي".

ألقى نظرة سريعة على زوجته ثم قال لي: "حسناً".

عدنا إلى الداخل، وقالت سوزان إنها ستساعد هي وأمها صوفي على التنظيف، فيما يسترخي الرجلان، وهذا أسلوب قديم جداً وحلو جداً. إنه أيضاً هراء. لا تعرف شارلوت الفرق بين غسالة الصحون والمكنسة الكهربائية. أتمنى أن تستفيد سوزان من هذه الفرصة للعمل على ماما. وبالنسبة إلى استرخائي أنا وويليام مع كأس، ظننتُ أنه يجدر بي إحضار البندقية أولاً.

لكنني لم أفعل، وأدخلته إلى مكتبي وأغلقت الباب.

الفصل الرابع والستون

عرضت على ويليام شراباً، وكاد يقبل، لكنه رفض لسوء الحظ.

جلس ويليام على الأريكة، وجلست أنا على الكرسي الكبير.

لا أنوي أبداً البدء بالحديث، أو حتى المشاركة في حديث بسيط، ولذلك جلست هناك أنظر إلى ويليام كما لو أنه طلب مني التحدث إليه.

أخيراً، انزعج قليلاً وسألني: "هل أردت مناقشة أمر ما؟".

أجبته: "ظننتُ أنك أنتَ من يريد مناقشة أمر ما".

"حسناً... أفترض أنه علينا مناقشة ما... ناقشناه".

"حسناً".

نحنح حنجرته وقال: "أولاً، دعني أقول لك جون أننا - أنا وشارلوت - لا نكنّ لك أي ضغينة شخصية".

"أخبرتني أنت وشارلوت أنكما لا تهتمان بي".

"حسناً... ليست هذه المسألة. المسألة هي سوزان".

"إنها تحبني".

"تظن ذلك. لقد ناقشنا هذا، ولا يهم أبداً إذا كنت أستلطفك أو أنت تستلطفني. لذا، دعني أقول لك إننا أنا وشارلوت مقتنعان بأن الزواج بينك وبين سوزان سيفضي إلى تعاسة لكما معاً، وفي النهاية إلى طلاق آخر".

لم أجب.

تابع القول: "هكذا، لإنقاذنا جميعاً من ألم وتعاسة مستقبليين، جون، أريدك أن تعيد النظر في عرضك بالزواج".

"أفهم ذلك. أشرت أيضاً إلى أنك تظن أن نواياي ليست شريفة تماماً، وأن حبي لسوزان قد يكون مخلوطاً بحبي لمالها".

نحنح حنجرته وقال: "أعتقد أنني قلت إن هذا قد يكون أمراً باطنياً".

"حسناً، فكرت في ذلك، واستنتجت أنني أحبها فقط لشخصها. وأحب ولديّ، وأحب كوننا عائلة. هل لاحظتَ ذلك الليلة؟".

"أفترض... ذلك. لكن إدوارد وكارولين راشدان، ولا يعيشان هنا. لذا، أنا واثق من أنك تستطيع الحفاظ على علاقتك معهما من دون الزواج مجدداً من أمهما".

"نحن نفعل ذلك ويليام، لكن الأمر ليس مماثلاً".

بدا أنه لا يعرف عما يتحدث لاحقاً، فتوجه مباشرة إلى صلب الموضوع وقال: "أنا مستعد لأن أدفع لك مليون دولار، موزعة على عشرة أقساط سنوية، إذا

فسخت هذه الخطوبة وعدتَ إلى لندن - أو اتخذت لنفسك إقامة شرعية خارج البلاد".

نظرنا إلى بعضنا لبضع ثوان ثم قلت: "إذا كانت معارضتك الوحيدة لزواجنا سببها رغبتي في الحصول على مال سوزان - حصتها السنوية وأصولها الحالية وإرثها المستقبلي - يمكننا معالجة ذلك في اتفاق قبل الزواج".

لم يجب ولذلك تابعتُ بسؤاله: "على كم حصلتُ حين تطلقنا أنا وسوزان؟ أذكر أنني لم أحصل على أي شيء. يمكننا نسخ الاتفاق والتوقيع عليه مجدداً. أتمنى أن يثبت ذلك لك أن نواياي شريفة تماماً".

أدرك ويليام أنه علق في الشرك، وكان يفكر في وسيلة للخروج من ذلك. إنه غبي فعلاً، لكن حين يتعلق الأمر بماله، يشعل بقية خلايا دماغه. وأخيراً، قال لي: "المسألة ليست فقط مالاً، جون. مثلما قلت، المسألة هي سعادة سوزان. لا نريد أن نرى ابنتنا محطمة مثلما كانت... حسناً، في المرة الأخيرة".

هذا مثير. لم أعرف أبداً كيف شعرت سوزان بعدما غادرت. تخيلت أمرين - الأول أنها حزينة، وإنما انتفضت وعاودت حياتها، والثاني أنها محطمة ويائسة وتشعر بالذنب وتعتبر أن حياتها قد انتهت. أنا واثق من أنها شعرت بكل ذلك، ومنذ عودتنا لبعضنا، أحسّ كيف مرّت تلك السنوات عليها. والآن، لا يريد ويليام، والدها الحنون، أن يراها تتألم مجدَّدا. حسناً، لو لم يكن ويليام إنساناً منافقاً، ومراوغاً، ومحتالاً، لصدّقته، ولشعرتُ ببعض التعاطف معه كوالد. لكنني لن أمنحه أي مشاعر من الحب الأبوي، فقط لأنه يزعم امتلاكه لهذه المشاعر. إلا أنه يتحدث ربما نيابة عن شارلوت، التي بالرغم من سخافتها، ربما حزنت كثيراً لتعاسة ابنتها.

وأخيراً، أجبت: "قد تكون هذه صدمة بالنسبة إليك، ويليام، لكننا عشنا أنا وسوزان زواجاً رائعاً وحنوناً ولكان استمر بهذه الطريقة - لو لم أشأ فعلاً العودة إلى ذلك، لكن الوقت قد حان - لو لم تقم علاقة غرامية مع فرانك بيلاروزا، ومن ثم تقتله".

أخذ ويليام نفساً عميقاً، ثم نظر إليّ وقال: "ناقشنا أنا وشارلوت... ما حصل، ونستنتج فقط أن زواجكما لم يكن رائعاً مثلما تظن". أشار: "لو كان رائعاً، لما حصل ما حصل".

فكرت في الأمر نفسه أنا أيضاً، لكن عند النظر مجدداً إلى زواجنا، يمكن اعتباره زواجاً جيداً حتى من وجهة النظر الأكثر انتقادية. سوزان نفسها وافقت على ذلك. في أي مكان تحدث الحماقات. حسناً، لقد أقام تسعون بالمئة تقريباً من الأشخاص المتزوجين الذين عرفتهم علاقات غرامية خارج الزواج، وكانوا سعداء في منازلهم، وتابعوا حياتهم في منازلهم. لكن بين الحين والآخر، لسوء الحظ، يصبح الزوج أو الزوجة مهووساً بالعشيق ويظن خطأ أنه الحب. وهذه وصفة للكارثة العاطفية والزوجية. من دون ذكر قتل الأشخاص في بعض الأحيان.

لكن بدلاً من شرح كل ذلك لويليام، حتى لو كان ذلك يعنيه قليلاً، قلت له: "أخبرتني سوزان، وأنا واثق من أنها أخبرتك أنت وشارلوت في وقت ما من السنوات العشر الماضية، أنه لم يكن هناك أي خطب أساسي بيننا. ما حصل هو انحراف فقط، وليس دليلاً على مشكلة أكثر عمقاً". أضفت: "لقد أصبحت... مهووسة بذلك الرجل. وإذا افترضنا أنها تعلمت شيئاً من ذلك، فلن يحصل ذلك مجدداً".

بدا ويليام منزعجاً من فكرة تحول ابنته إلى مهووسة برجل. لقد فكر ربما في أنها لا تزال عذراء. رفض فكرة أن يرى من جديد صورة سوزان وفرانك معاً وقال لي: "أظن ربما أنكما تضللان نفسيكما وتحاولان إعادة كتابة جزء من التاريخ. أنت، جون، ولو كنت فظاً قليلاً، لطالما كنت زير نساء".

حسناً، اللعنة عليك، ويليام. صحيح، أنني أغازل - أو غازلت - النساء، ونعم، أحب النظر إلى السيدات، لكنني لم أقم أبداً أي علاقة غرامية (باستثناء تلك العلاقة العابرة مع جيني ألفاريز) خلال سنوات الزواج العشرين. لكن هذا ليس من شأنه، ولذلك قلت له لأنهي الموضوع: "لقد نضجنا نحن الاثنان كثيراً، وتعلمنا عدم اللعب بالنار".

ظننت أنه لن يفهم ذلك، لكنه فهم وأعطاه على ما يبدو فكرة أخرى لكسر هذا الاتفاق. قال: "أنا واثق من أنك تعرف أن سوزان تلقت عدداً من العرسان على مرّ السنوات".

هذه هي طريقة الطبقة الراقية، قديمة الطراز، لإخباري أن سوزان أقامت علاقة مع عددٍ من الرجال. أقصد، فعلاً، ويليام. هل ستجعل الآن ابنتك ساقطة كي لا أتزوج بها؟

حسناً، نعم. قال: "لست واثقاً من أنك قد تتقبل حقيقة إقامة سوزان عدة علاقات مع عدد من الرجال. سيفضي ذلك إلى عواقب سيئة - قد ينكشف الأمر أثناء محادثة، أو قد تتلقى رسالة أو اتصالاً هاتفياً من صديق سابق - ويحتمل أن يؤدي ذلك إلى نقاشات، وفي النهاية... حسناً، إلى المزيد من التعاسة. لكما معاً".

أنا واثق تماماً من أن معظم الآباء لا يخبرون صهرهم المستقبلي بإعادة التفكير في الزواج لأن ابنتهم لها تاريخ حميمي يملأ مكتبة صغيرة. لكن ويليام اعتبر هذا بمثابة طريقة سريعة وأكيدة لإثباط عزيمتي بالزواج بابنته. هكذا، يمكننا العودة إلى المال.

قلت له: "أقدّر لك قلقك وصراحتك. لكن عليك أن تفهم أنني أنا وسوزان نعرف تماماً أننا لم نكن صالحين خلال السنوات العشر الماضية. في الواقع، ويليام، كنت أتعرف إلى امرأة في كل مرفأ، وحتى في كل منطقة. من دون ذكر النساء اللواتي كنّ على متن المركب. لكن ماضيّ وماضيها لا يهمان أبداً مستقبلنا". إلا إذا اتصل بها أحد الحمقى من هيلتون هيد. "لذا، لا حاجة إلى متابعة ذلك". ثم أضفت: "أنا متفاجئ صراحة بأن تثير موضوع الحياة الحميمية لابنتك معي".

جعل ذلك وجهه يتورد، وارتعشت عيناه. نحنح حنجرته مجدداً وقال: "حسناً، أحاول فقط إقناعك بخلع نظارتك الوردية".

عبارات ويليام قديمة حين كان ولداً. أجبته: "أنظر دائماً قبل أن أقفز".

"أتمنى ذلك. لكنني أشعر أنك تخطط للمضي قدماً في هذا الزواج، بالرغم من معارضتي أنا وشارلوت".

أصبحت سخيفاً، وقلت: "أنوي، سيد ستانهوب، أن أطلب يد ابنتك للزواج، وأريد منك أنت والسيدة ستانهوب أن تباركا هذا الزواج".

تذكر هذا من آخر لقاء لنا معاً، وأحسّ كم هو غبي، وكان على وشك البكاء، وقال: "أنا فخورٌ في أن أناديك صهري المستقبلي".

في الواقع، شخر.

"سيدي؟".

"مباركة؟". شخر مجدداً. "لن نبارك أبداً هذا الزواج".

"أفترض إذاً أن الهدية الكبيرة خارجة عن السؤال".

"هدية؟ لا شك في أنك تمزح".

"حسناً... نعم".

فيما كنا نتناول موضوع المباركات وسرّ الزواج المقدس، قلت له: "أنا منزعج قليلاً منك، ويليام، لأنك ناقشت ذلك مع الأب هانينغس".

لم يكن متفاجئاً لأنني عرفت ذلك - هذا جزء من الصفقة حين تذهب إلى رجل دين وتتحدث إليه عن مشكلتك مع شخص آخر من الرعية، فيذهب رجل الدين إلى ذلك الشخص. هذا ما يحصل.

لا أظن أنني أريد أن أكون رجل دين - يبوح لك كل الأشخاص بهمومهم ويطلبون منك النصح أو الإرشاد، أو كما هي الحال مع ويليام، يحاولون الطلب منك التضرع بدلاً منهم لإنجاز بعض الأمور الصعبة بالنسبة إليهم.

على أي حال، فكر ويليام في جوابي وقال: "لا يفترض بذهابي إلى الأب هانينغس من أن يزعجك، جون. يجدر بك الترحيب بالمشورة الرعوية".

أجبته: "لا تريد أن نتزوج أنا وسوزان، فأي نوع من المشورة الرعوية تتحدث عنها؟".

شرح قائلاً: "النوع الذي يجعلك تفهم أن ما هو الأفضل لك قد لا يكون الأفضل لعروسك المستقبلية".

"أفهم. حسناً، أظن أنني سمعتُ هذا الرأي منك قبلاً. فلِمَ توريط الأب هانينغس إذاً في ذلك؟".

“أتمنى ألا أضطر إلى أن أشرح لك أنه في ديننا، تعتبر المشورة قبل الزواج شرطاً أساسياً للزواج في دار العبادة”.

“حسناً، هناك مشورة، ومن ثم هناك مشورة. لماذا أشعر أنك تحاول عرقلة المسألة؟”.

“هل تقترح أنني... أثرت في الأب هانينغس؟”.

“أظن أن إعطاءه حكماً مسبقاً هو تعبير أفضل. وعرضتَ عليه ربما حافزاً لنصح سوزان بعدم إتمام هذا الزواج”.

“هذا شيء مهين”.

“إلا أنني أصرّ عليه”.

“حسناً، عليّ نقل اتهامك إلى الأب هانينغس”.

“ستفعل إذا لم يكن هذا صحيحاً، لكنك لن تفعل إذا كان صحيحاً”.

بدا أن غضبه خرج عن السيطرة، وقال: “قد يكون هذا الأمر غير مهمّ من الناحية العملية إذا توصلنا إلى اتفاق بشأن هذا الزواج”. ثم ذكّرني: “قدمت لك عرضاً”.

“أرفضه”.

“حسناً...”. لن يستسلم ويليام ويرحل. لا يزال يحمل بعض الأوراق، ولم يستعملها بعد. لذا، أعاد خلط هذه الأوراق، وجرب مجدداً. قال: “أنا مستعد لزيادة عرضي لك. مئتا ألف دولار الآن، ومن ثم عشرة أقساط سنوية من فئة المئة ألف في كل مرة”.

حسناً، الدفعة الأولى ممتازة، وتفضي عادة إلى الجواب المرغوب. المال يتحدث. لكنني أحب التفاوض، ولذلك قلت: “أعتقد أن النفقة السنوية لسوزان تتخطى دفعتك الأولى لي. لذا، ما هو حافزي للعودة إلى لندن مع نسبة مئوية أقلّ مما أستطيع مشاركته مع سوزان لو بقيت هنا؟”.

حسناً، عليه الآن رمي ورقة الصولد، وشرح بعض حقائق الحياة للإجابة عن سؤالي. انحنى إلى الأمام ونظر إليّ، ثم قال ببطء، لكي أفهم: “جون، إذا تزوجتَ أنت وسوزان، أؤكد لك أن حصتها السنوية ستتوقف”.

لا مزاح؟ واو. سألته: “هل تعرّض ابنتك للدخول في مأزق مالي؟”.

ابتسم - ابتسامة شريرة - ثم سأل: “هل تقترح جون أن يكون زواجها بك مرادفاً لدخولها في مأزق مالي؟”.

جيد، ويليام. لكنني عرفت النتيجة، وقلت: “حسناً، ظننتُ أنه بعد زواجنا، أستطيع تحقيق حلم قديم بأن أكون راكب أمواج محترفاً... لكن... حسناً...”.

ظن ربما أنني أهزأ من ابنه، ولذلك كان يجدر بي القول ربما لاعب غولف محترف. لماذا قلت راكب أمواج؟ هفوة فرويدية؟ أو هل كنت أقصد فعلاً إغاظته؟

بدا منزعجاً فعلاً، لكنه لم يعلق في الشرك، مثلما يقولون، وقال لي: "أظن أنه عليك أن تعمل".

أملك بعض المعلومات لأقدّمها إليه، قلت: "لطالما عملت، إلا عندما كنت في البحر. وجنيت مالاً جيداً، ويليام، هنا وفي لندن. إلا أن وضعي المهني هنا تدهور لسوء الحظ نتيجة ما حصل خلال السنوات العشر الماضية. أتحمل تماماً مسؤولية أفعالي، لكنني أريد تذكيرك أن ابنتك كانت متواطئة في الأحداث التي أفضت إلى التخلي عن شركتي العائلية. لقد سامحتها، من دون شروط، وسامحتُ نفسي على ما فعلته، لكنني سأحتاج إلى بعض الوقت لأستعيد وضعي المهني هنا في نيويورك، وتحقيق بعض المدخول القادر بوساطته على منح ابنتك أسلوب العيش الذي اعتادت عليه". أضفت: "ودعني أذكرك، ويليام، أنك أنت وشارلوت أصررتما كي لا تعمل سوزان، وشجعتماها على عدم العمل من خلال منحها نفقة سنوية، وأنا آسف لأنني اعتدتُ على ذلك. ونتيجة تحكمكما بها طوال حياتها، لا تستطيع العمل في الوقت الحاضر في أي وظيفة مربحة - وأنت تتحمل جزءاً من اللوم على ذلك، ولذلك عليك تحمل بعض المسؤولية".

يبدو أن ويليام لم يشأ التأثر بالحقائق السلبية، فأجاب ببساطة: "أقول مجدداً إنه إذا تزوجتك، ستتوقف نفقتها السنوية".

"جيد. ناقشنا أنا وسوزان هذا الاحتمال، ولا يؤثر ذلك في قرارنا في الزواج".

ارتعش هذه المرة وقال: "قد ترغب سوزان في إعادة النظر في ذلك".

اللعنة عليك. قلت له: "قد ترغب أنت في إعادة النظر في تصرفك المراوغ والمنافق والمقيت".

"لا يمكنك التحدث إليّ بهذه الطريقة".

"ويليام، كل كلمة من هذا هي في موقعها".

بدا وكأنه على وشك جمع أوراقه والمغادرة، لكنه أراد رمي ورقة صولد أخرى، وقال: "إذا تزوجت، سأحرم سوزان من وصيتي أنا وشارلوت".

الآن، نتحدث عن مال حقيقي. أقصد، موتهما كلاهما وترك سوزان مع خمسين مليون دولار هما المكونات الرئيسية لزواج مبارك. خصوصاً موته هو. أبلغته: "إذا فعلتَ ذلك، سأنقل أملاكك إلى المحاكم لمدة عشر سنوات". أضفت: "قد يجد بيتر هذا الأمر غير ملائم".

أصبح غاضباً فعلاً الآن، واحمرّ وجهه مجدداً. ارتفاع في ضغط الدم؟

قال لي حماي المستقبلي: "هذا أسوأ شيء قلته في حياتك".

"لا ليس صحيحاً. هيا، فكر".

"أنت...". وقف، وانتظرته حتى يقع أرضاً، لكنه لم يفعل، ولذلك وقفت أنا أيضاً، وقلت: "لقد أهنتني بعرضك عليّ شراء عزوفي عن الزواج بابنتك. أنا لست للبيع. لا أكترث أبداً لمالك، وكذلك تفعل سوزان. وأنت لا تكترث أبداً

لابنتك. الأمر بيني وبينك، وليس سعادتها. أنت تعرف جيداً أننا سعيدان بعودتنا إلى بعضنا، وأن ولدينا سعيدان لأجلنا. أما أنت ويليام، فأنت غير سعيد لأنني دخلت مجدداً إلى حياتك، وتفضل خسارة ابنتك بدلاً من أن تكسب صهراً لا يتوافق مع تطلعاتك اللعينة. لذا، سيدي، لقد اتخذتَ قرارك، وأنا وسوزان اتخذنا قرارنا".

بدا أنه لم يأخذ كلامي على محمل الجدّ - بل وقف هناك ونظر إلى الفضاء. لكنه استدار بعد ذلك وقال لي: "سنرى ما هو قرار سوزان".

"بالفعل، سنرى. لكنك ستغادر أنت وزوجتك هذا المنزل الآن، وتحدّد موعداً للتحدث مع ابنتك في مرة لاحقة". ذهبتُ إلى الباب، وفتحته وقلت: "عمت مساء. يوم أب سعيد".

خرج مسرعاً من الباب، ثم توقف، واستدار، وقال بصوت هادئ: "فكرا أيضاً في ولديكما".

هذه هي ورقته الأخيرة، وقد رماها، ولذلك توجب عليّ الإجابة: "اطلب من محاميك الاتصال بي".

ذهب للعثور على شارلوت، التي لم تكن حتماً في المطبخ تحضّر الطعام.

أغلقتُ الباب، وبعد دقائق قليلة، سمعتُ سوزان وشارلوت وويليام يتحدثون بهدوء في الردهة. ثم فتح الباب الأساسي، وانغلق.

بعد ثوانٍ، فتح باب المكتب، ودخلت سوزان وقالت: "هل يجدر بي السؤال كيف جرت الأمور؟".

نظرتُ إليها، وأردتُ فعلاً إخبارها أن والدها هو بحق كل ما سبق وقلته عنه، وأكثر، لكن ليست هذه المسألة الآن. قلت لها: "حسناً، بعض الأخبار الجيدة وبعض الأخبار السيئة".

"ما هي الأخبار الجيدة؟".

"الخبر الجيد هو أن والدك عرض عليّ مئة مليون ومئتيّ ألف دولار مقابل عودتي إلى لندن".

"ماذا؟ ماذا فعل؟".

"أخبرتك للتو".

وقفت هناك، مذهولة، حسبما أعتقد. ثم نظرت إليّ وسألت: "ماذا قلتَ له...؟ حسناً، لا يجدر بي سؤال هذا".

"طبعاً لا. قلتُ له لا. أردت مليونين. وهذا هو الخبر السيئ. لن يدفع أكثر من مليون ومئتيّ ألف".

أدركت أنني أمزح، بالرغم من أنها لم تكن واثقة إذا كان هذا مسلياً.

جلست على الأريكة وحدقت إلى الفضاء، ثم قالت أخيراَ: "هذا مهين. هذا... مقرف".

"ظننت ذلك أيضاً. أقصد، أنت تساوين ربع مليون سنوياً - أوه، وهذا الخبر السيئ الآخر. إذا تزوجتِ بي، ستحرمين من هذا المبلغ".

نظرت إليّ وأومأت برأسها، وقالت: "لا أبالي".

"لا يهم إذا كنت تبالين أو لا تبالين. كنت فتاة سيئة، وستحرمين من حصتك. وكذلك من ميراثك".

أخيراً، بدأت تستوعب كل ذلك، وقالت لي: "ألم تستطع إقناعه؟".

"لا". سألتها: "هل تريدين كأساً؟".

"لا".

"حسناً، أنا أريد". سكبتُ لنفسي بعض الشراب، وبدّلت سوزان رأيها، فسكبتُ كأسين.

ما من شيء لنشرب نخبه، ولذلك اكتفينا بالشرب.

وأخيراً، قالت لي: "كانت أمي... حسناً، تشرح لي لماذا لا يجدر بي الزواج بك".

"هل من شيء جيد؟".

ادّعت الابتسام وقالت: "تظن أنك لست مؤهلاً لإبقائي في المستوى الذي اعتدتُ عليه".

"هل أخبرتها أنني رجل بكل ما للكلمة من معنى؟".

ابتسمت فعلاً هذه المرة وأجابت: "أخبرتها أننا عشنا دائماً حياة حميمية رائعة".

"هل تغار؟".

"ربما". كشفت سوزان أيضاً: "لمّحت إلى أنك تشرب كثيراً".

ضحكنا كلانا على ذلك. قلت: "أتمنى فقط لو أنني أستطيع مجاراتهما في ذلك".

جلستُ قرب سوزان على الأريكة، وأمسكنا بأيدينا ولم نتحدث لبرهة. ثم قالت: "بدا والدي غاضباً جداً".

"كنت ودوداً جداً معه، حتى بعدما أهانني بطرح عرض الشراء هذا. صدقيني سوزان".

"أصدقك".

"لكن في النهاية، توجب عليّ تهديده باللجوء إلى المحاكم إذا حرمك من الميراث. لقد توقف تقديم النفقة السنوية، وحتى لو كنت أملك نظرية قانونية

لمتابعة ذلك، لا أشعر أنني أتمكن أخلاقياً من إقامة الدعوى. وأتمنى أن توافقيني الرأي".

"أوافقك". ثم ذكّرتني: "أنا الآن حرة".

"صحيح. قد ترغبين في الاستغناء عن مدربك الشخصي".

"لا تسخر مني".

"آسف". عليّ أن أقرر الآن إذا كان يجدر بي ذكر الضربة القاضية لويليام - الولدين. لكنني تجاهلت ذلك. يجب أن تسمع سوزان ذلك من والدها. قلتُ لسوزان: "أعتقد أنه يريد التحدث إليك قريباً".

أومأت برأسها. "سنتحدث صباح غد. هنا. في طريقهما إلى المطار".

"جيد. سأختفي".

"شكراً". نظرت إليّ وسألتني: "هل ذكر الولدين؟".

"أعتقد أنه سيذكر الأمر لك غداً".

أومأت برأسها.

لا تبدو سوزان سعيدة بالنسبة إلى امرأة حصلت للتو على حريتها، ولكي أكون صريحاً، لا أستطيع لومها. الحرية مخيفة.

لذا، ولإنهاء الموضوع، قلت لها: "انظري، إذا توجب عليك الاختيار بين و...".

"جون، توقف عن هذا الهراء".

فاجأني ذلك تماماً. أين تعلمت هذه العبارات؟ بدا هذا مضحكاً وهي تتلفظ فيها بلكنتها؟ سألتها: "هل يمكنك توضيح ذلك؟".

"آسفة". ضحكت. ثم وضعت رأسها بين يديها وانهمرت الدموع على وجنتيها. قالت: "اللعنة".

وضعت ذراعي حول جسدها وضغطت عليها بقوة. قلت لها: "سنكون بخير، سوزان. كنا نعرف إلى أين سنصل".

مسحت وجهها بيديها وقالت: "أنتَ كنت تعرف. أنا لم أصدق".

أعطيتها محرمتي واقترحت عليها: "عليك أن تكوني صادقة مع نفسك. كنت تعرفين".

أومأت برأسها. "هذان... حاولت كثيراً معهما. كيف يمكن أن يكونا... عديميّ الشفقة؟".

لم أجبها.

تابعت: "ليست مسألة مال. فعلاً، ليست كذلك. لا أفهم فقط كيف يمكنهما أن يكونا... ألا يلاحظا كم نحن سعيدان معاً؟".

لم أشأ فعلاً التطفل على هذه اللحظة المهدئة، لكنني قلت: "هذا ما لا يحبانه". ذكّرتها: "لم يحبني والدك أبداً، ولكي أكون صريحاً، هذا الشعور متبادل. لكن على عكسي، شعوره نحوي هو بدافع الكره وليس الحب. ولا يسعنا فعل أي شيء حيال ذلك".

أومأت برأسها، ومسحت عينيها بمحرمتي، وأخذت نفساً عميقاً وقالت: "حسناً. سأتحدث إليه غداً. ولن أستسلم له. ما من شيء آخر يمكنه تهديدي به... إلا مال الولدين. لذا، علينا التحدث إلى الولدين".

"صحيح".

سألتني: "هل تظن أنه يجدر بي التحدث إلى بيتر؟".

"لا أنصحك بذلك. لكن هذا قرارك". سأجرّ ذلك الحقير إلى المحاكم إذا اضطررتُ لذلك.

"حسناً...". استدارت، ووضعت رأسها على ذراع الأريكة ووضعت قدميها في حرجي. خلعت حذاءها، وحركت أصابع قدميها. سألتني: "هل استمتعت بيوم الأب، باستثناء رفض صفقة بمئة مليون دولار؟".

"نعم. فعلاً. بدأت أستلطف أمي".

"جيد. إنها تحبك على طريقتها".

"لا شك في ذلك. يجدر بنا ربما إعادة النظر في شراء اليخت".

"أظن ذلك".

"ماذا عن قارب تجديف؟".

"لا أستطيع تحمل الكلفة". تمددت وتثاءبت وقالت: "كان يوماً مرهقاً. لكن هل تعرف شيئاً؟ أشعر وكأن أحدهم أزال ألف باوند عن كتفيّ".

"في الواقع، أنت تبدو أخف من دون ربع مليون دولار سنوياً".

بقيت صامتة لبرهة، ثم سألت: "هل تفاجأت... حين عرض عليك المال؟".

"لأخبرك الحقيقة كاملة، عرض عليّ ذلك في أول ليلة كنا فيها هنا".

"هل فعل ذلك؟ ولِمَ لم تخبرني؟".

"حسناً، لمَ إفساد كل الأسبوع؟".

"عليك أن تخبرني كل شيء في وقته".

"هل نستطيع تغيير الموضوع؟".

"ماذا عن الحميمية القصوى؟".

مع هذه المقدمة، كان يجدر بي إخبارها أن والدها حاول إنقاذي من امرأة ساقطة، صودف أنها ابنته. لكن هذه قوانين، ملفوظة وغير ملفوظة، وتتجاوز الخط الأحمر، ولا تفيد أي شيء باستثناء احتقار سوزان أكثر لوالدها. لكنني أكرهه كثيراً، ولذلك فكرت في إخبارها. لكن هذا سيطرح مسائل أخرى لا أريد أن تكون جزءاً من مستقبلنا.

"جون؟ مرحباً؟ علاقة حميمية قصوى؟".

"ألم نقم بذلك هذا الصباح؟".

"لا، أقمت ذلك مع زوجة بحار؟".

"صحيح".

وقفت، وأقفلت الباب ونزعت سترتي.

قالت سوزان: "أسرع قبل أن يعود أبي إلى المنزل".

الفصل الخامس والستون

كنا أنا وسوزان مستلقيين على الأريكة، واستيقظتُ على صوت رنين الهاتف. كان الظلام قد حلّ خارجاً، والضوء الوحيد في المكتب هو ضوء مصباح أرضيّ تم إشعاله حين كنا نتحدث أنا وويليام.

نهضت وتوجهت نحو مكتبي. لم يظهر كاشف الأرقام أي اتصال جديد، وأظهرت ساعة المكتب أنها الساعة التاسعة واثنين وثلاثين دقيقة بالرغم من أن الوقت بدا متأخراً أكثر.

رفعت السماعة وقلت: "ساتر".

قال السيد مانوسكو: "مساء الخير سيد ساتر".

استطعت سماع ضجيج عبر الهاتف، أصوات رجال ونساء يتحادثون، لكنني خمّنت أنه ليس في مكتبه أو منزله.

قال: "لديّ بعض الأخبار لك".

فكرت في أنهم ربما وجدوا أنطوني وهو يتناول المعكرونة في منزل أمه، وقلت: "أتمنى أن تكون أخباراً جيدة".

"أخبار".

ألقيت نظرة على سوزان، التي كانت تتململ. وقلت لمانوسكو: "دعني أنادي سوزان". وضعت الهاتف جانباً وقلت لها: "إنه مانوسكو".

جلست، ونقرت زر سماعة الهاتف، ثم قلت للسيد مانوسكو: "نحن جاهزان".

قال: "مساء الخير، سيدة ساتر".

وقفت قربي وأجابته: "مساء الخير".

بدأ الحديث: "أريد إبلاغكما أن أنطوني بيلاروزا لم يحضر إلى قبر والده، لكن زوجته وولديه فعلوا، وكذلك بقية العائلة، بما في ذلك شقيقا أنطوني وزوجتاهما وأولادهما. وتناولوا جميعاً العشاء في منزل آنا".

مسكينة ميغان. عرفت طبعاً من نبرة صوته أن هناك المزيد من الأخبار.

تابع مانوسكو: "عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة تقريباً من هذا المساء، كان سالفاتور داليسيو يتناول العشاء مع زوجته، ماري، وابنيه، اللذين جاءا من فلوريدا لمناسبة يوم الأب".

حسناً، عرفت إلى أين سيقودنا هذا الحديث. ألقيت نظرة على سوزان، وعرفت هي أيضاً بماذا سيخبرنا السيد مانوسكو.

تابع: "من عادة داليسيو، على ما يبدو، أن يتناول العشاء في مطعم جيوفاني في قسم ويليامسبورغ من بروكلين، قرب منزله. يذهب دائماً برفقة عائلته إلى هناك

في يوم الأب".

قلت: "ليست هذه عادة جيدة".

وافقني الرأي: "لا". لكنه أضاف: "إنه مطعم عائلي قديم. في الواقع، أنا موجود فيه الآن".

لم أسأله عن سبب وجوده هناك لأنني عرفت السبب، وكنت واثقاً تماماً من أنه لا يتناول العشاء مع داليسيو.

عاد السيد مانوسكو إلى موضوعه وقال: "إذاً، قرابة الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، فيما كان آل داليسيو يتناولون الحلويات، دخل رجلان إلى المطعم المزدحم وهما يرتديان معطفين، وتوجها مباشرة إلى حيث هي طاولة داليسيو. وحسب عدد من الشهود، رفع الرجلان بندقيتين كبيرتين من تحت معطفيهما، وقال أحدهم: يوم أب سعيد سالي، ثم أطلق طلقة واحدة على وجه سالفاتور داليسيو".

تراجعت سوزان خطوة إلى الخلف، كما لو أنها تلقت بنفسها الطلقة النارية، وجلست على الأريكة.

قلت:"لحظة". وضعت الهاتف جانباً وسألتها: "هل أنت بخير؟".

أومأت برأسها.

ارتديت سروالي الداخلي ثم سروالي الخارجي، وأطفأت زرّ الهاتف الصوتي وأمسكت بالسماعة وجلست في الكرسي. قلت لمانوسكو: "أنا وحيد الآن".

"حسناً... هذه هي الأخبار".

أخذت نفساً عميقاً، ثم قلت: "حسناً... أظن أنني أدين لك ببعض المال".

"لم أتجنب أبداً المراهنة على هذا، سيد ساتر".

"حسناً...". جلست هناك ونظرت مجدداً إلى سوزان، التي بدت أنها لم تلاحظ أنها لم تعد تسمع صوت مانوسكو. سألته: "هل أصيب أحد آخر؟".

"لا. كان العمل محترفاً. يمكنك الاطلاع على الخبر عبر التلفزيون".

سألته: "هل تستطيع إطلاعي سريعاً؟ أو أن تطلعني على أمر لن أطلع عليه عبر التلفزيون؟".

"حسناً...". شرح لي السيد مانوسكو رأيه المهني في الجريمة. "إذاً، إنه يوم الأحد. يوم الأب. وخرج سالفاتور داليسيو لتناول العشاء برفقة عائلته. وداليسيو تقليدي جداً، ويظن أنه لا تزال هناك بعض القواعد التي لا يمكن خرقها. لكنه ليس غبياً - حسناً، إنه في الواقع غبي، لكن على أي حال، كان داليسيو هو من حاول قتل فرانك بيلاروزا في مطعم جوليو أمام زوجته واثنين آخرين، ويدرك داليسيو بالتالي أنه خرق القواعد بنفسه. ويعرف أن أنطوني لا يتقيد بالكثير من القواعد على أي حال. لذا، اصطحب داليسيو معه حارساً واحداً كان ينتظره

خارج مطعم جيوفاني، وكان داليسيو يرتدي سترة واقية من الرصاص تحت بذلته الكبيرة، وكان يحمل أيضاً مسدس سميث ويسون بعيار 0.38، واصطحب معه عائلته كي لا يتوقع المشاكل، لكنه كان مستعداً لها".

علّقت: "حسناً، كان يجدر به التوقع والاستعداد بصورة أفضل".

"صحيح. الحارس، الذي عرّفت عنه ماري داليسيو بأنه سائقهما - وبالرغم من أنه دخل إلى المطعم - قام على ما يبدو بمشوار أبعد، واختفى. وبالنسبة إلى السترة الواقية من الرصاص، يبدو أن القاتلين عرفا أو استبقا ذلك، ولذلك كانت الطلقة الأولى موجهة إلى وجه داليسيو. كان فرانك بيلاروزا محظوظاً جداً تلك الليلة، لكن قتلة السيد داليسيو لن يكرروا خطأ قتلة السيد بيلاروزا".

وافقته الرأي: "لا، سيكون ذلك غباءً".

تابع السيد مانوسكو: "حسناً، تلك الطلقة على وجه داليسيو طرحته أرضاً، حيث تلقى طلقة أخرى في رأسه، بالرغم من أنه كان قد أصيب أساساً بطلقة أولى قاتلة مثلما أخبرني أحد الأطباء". ثم أضاف: "تلك الطلقة الثانية كانت... حسناً، رسالة شخصية. ما من حانوتي قادر على ترميم الرأس والوجه".

الكثير من المعلومات.

تابع السيد مانوسكو: "بعد إطلاق هاتين الطلقتين، وجه المجرم الثاني البندقية نحو رأس ماري داليسيو وصرخ "لا يتحرك أحدٌ منكم وإلا عرّض نفسه للموت"، فجلس الولدان هناك جامدين، بحسب الشهود، وراحت ماري تصرخ. ثم غادر الرجلان وركبا في سيارة كانت تنتظرهما. أما الوقت الفاصل بين دخول الرجلين وخروجهما فكان خمس عشرة ثانية. ماري، حين نظرت إلى زوجها، أغمي عليها. تقيأ أحد الولدين، وأصبح الولد الثاني هستيرياً". قال، كما لو أنه يتحدث إلى نفسه: "يوم أب سعيد".

أومأت برأسي. حسناً، لا شك في أن هذا يتطلب مني إعادة النظر في أحداث هذا اليوم المتوتر الذي أمضيته برفقة هارييت وآل ستانهوب.

حاولت تصوّر هذا المشهد: يوم الأب، مطعم يعجّ بالعائلات، يدخل رجلان من الباب، وقبل أن يدرك أحدهم الأمر، يطلق رجل النار على رأس سالفاتور داليسيو، بعد أن يتمنى له يوم أب سعيد. ماذا كانت عائلة داليسيو تفعل في الثواني القليلة التي سبقت تطاير رأس سال؟ يتحدثون؟ يضحكون؟ يتناولون الحلوى؟ هل عرف سالفاتور داليسيو، في تلك الثانية التي سبقت الطلقة، أن حياته قد انتهت؟

تذكرتُ الحادثة التي وقعت أمام مطعم جوليو - في الواقع، لم أدرك الأمر إلا بعد أن انتهى تقريباً. لم يفهم دماغي ما كانت تراه عيناي، نظراً لعدم حصول شيء مماثل قبلاً في حياتي. بالفعل، لم أستوعب كيف اختفى وجه فيني في سحابة من الدم والدماغ...

"سيد ساتر؟".

"نعم...".

"أقول إنك قد لا ترغب في أن تشاهد السيدة ساتر ذلك على شاشة التلفزيون".

رمقت سوزان بنظرة، كانت ملتفة على نفسها فوق الأريكة، تحدق إلى الفضاء. قلت: "صحيح".

"ويجدر بك ربما عدم إحضار أي صحف إلى المنزل غداً".

"صحيح... حسناً، أعتقد أن هذا يجيب عن سؤال ما إذا كان أنطوني بيلاروزا حياً أم لا".

"صحيح. أظن أنه علينا الافتراض أنه هو من أمر بالقتل". ثم أشار: "يبدو أنها الرسالة التي يريد إيصالها إلى زملاء عمه. أقصد، هذا ما حصل لأبي أمام أمي".

"صح... حسناً، لا أعطي أنطوني الكثير من العلامات على العمل الاستعراضي، أو التصرفات الرمزية، لكنه يملك ربما شيئاً من والده". لذا، قد يقدّر حقيقة تمزيقي للوحته، لأن والده كان ليقدّر ذلك.

بقي السيد مانوسكو صامتاً لبرهة، ثم قال: "تفاجأت أنا أيضاً حين حصلت الجريمة. توقعت شيئاً... أكثر هدوءاً. اختفاء، لعدم لفت انتباه القانون، أو الكثير من الانتباه. وإذا توجب أن يكون الأمر عنيفاً، لم أكن أعتقد أن أنطوني سيوضح جلياً أنه هو خلف المسألة". أضاف: "حتى إنه طلب من القاتل أن يقول "يوم أب سعيد، عم سال". يمكن لهذه الجريمة من أن تسبب له بعض المشاكل. وينقلنا ذلك إلى موضوع آخر". لم أجبه، فتابع: "يحتمل، مثلما ناقشنا قبلاً، أن يحوّل أنطوني انتباهه الآن إلى السيدة ساتر، وربما إليك".

نظرتُ مجدداً إلى سوزان التي كانت تنظر إليّ الآن. تحتاج إلى سماع ذلك، فنقرت زر سماعة الهاتف، وقلت للسيد مانوسكو: "لقد عادت سوزان".

قال لنا: "استناداً إلى خبرتنا، أنا واثق تماماً من أن أنطوني بيلاروزا كان، ولا يزال، خارج المدينة خلال الأسبوع الماضي، ويستطيع إثبات ذلك عند سؤاله عن مكان وجوده ليلة مقتل عمه. على أي حال، أينما كان، أعتقد أنه سيبقى مختبئاً لأسبوع تقريباً، أو حتى يتأكد على الأقل من أنه سيعود إلى المنزل بصفته السيد بلا منازع". ختم بالقول: "سينتظر ربما انتهاء دفن عمه، بالرغم من أنه قد يظهر لحضوره".

أشرت: "حسناً، يفترض به ذلك إذا كان هو المسبب للدفن".

سمح لنفسه بضحكة صغيرة، لكن سوزان لم تبتسم.

عاد إلى الموضوع المباشر وأبلغنا: "إلا أن غياب أنطوني لا يمنعه من الاهتمام بالقضايا هنا، مثلما تثبت حتماً جريمة قتل السيد داليسيو. في الواقع، إذا كان هناك المزيد من هذه الأعمال، ستنجز أثناء وجود أنطوني بيلاروزا خارج المدينة".

فكرت سوزان في ذلك ثم سألت: "ماذا تقترح علينا أن نفعل؟".

"أقترح توخي المزيد من الحذر، بما في ذلك استئجار حارس شخصي".

أشرت: "لم يساعد ذلك العم سال".

“لا، لم يفعل. لكنني أتمنى ألا يكون حارسك يعمل لصالح الفريق الآخر كما كانت الحال مع داليسيو. أنصحكما أيضاً بالبقاء في ستانهوب هال قدر الإمكان. في غضون ذلك، سأطلب من الشرطة المحلية إذا كان في وسعها توفير حماية لكما على مدار الساعة. سألت أيضاً إذا كان بوسع الأف بي آي تخصيص عميل أو عميلين لكما، لكن بصراحة لا نستطيع ذلك بعد أحداث 11 سبتمبر”.

نظرت إليّ سوزان ثم سألت مانوسكو: “وكم يفترض بنا الاستمرار في هذا الوضع؟”.

أجاب: “أتمنى لو أستطيع إخباركما”. حاول نقل بعض الأخبار الجيدة وقال: “سيظهر بيلاروزا سريعاً، وإلا سنجده. وحين يحصل ذلك، ستأخذه شرطة نيويورك للاستجواب في ما يتعلق بجريمة سالفاتور داليسيو، وستساعد الأف بي آي عند اللزوم. ستستجوبه الشرطة المحلية أيضاً عن التهديدات التي وجهها لكما. وإذا حالفنا الحظ، مثلما قلت، سنتمكن من اعتقاله. يمكننا التأكد على الأقل من أنه تحت المراقبة الدائمة”. ثم ذكّرنا: “المشكلة الآن هي أنه مختفٍ. والأشخاص المختفون، إذا لم يكونوا موتى، يكونون أكثر خطورة من الأشخاص الحاضرين”.

اعتقدت سوزان أنه من الجيد أن يكون أنطوني بيلاروزا مختفياً، لكنها بدأت تفهم الآن المشكلة في ذلك. سألت: “لماذا لا تستطيعون العثور عليه؟”.

أجاب السيد مانوسكو، الذي أجاب عن هذا السؤال مرات عدة قبلاً ربما: “إنه بلد كبير، وعالم كبير. وهو يملك الموارد للبقاء مختفياً إلى ما لانهاية”. ثم ذكّرنا: “هو ليس هارباً من العدالة، ولذلك نفترض أنه سيظهر حين يظن أن الوقت قد أصبح مناسباً للظهور”.

ما قاله فيليكس مانوسكو بدا منطقياً، طبعاً، ولو كنت في موقع أنطوني بيلاروزا، لقلقت على مصيري أكثر من التفكير في قتل المزيد من الأشخاص - خصوصاً الأشخاص الذين يعرف أنهم محميون من قبل الشرطة والأف بي آي. وبالرغم من ذلك... عرفت، في أعماقي، أن للأمر علاقة بالثأر وليس بالعمل، وأن القتل الثأري لسالفاتور داليسيو هو الأول بين اثنين. أو ربما ثلاثة.

خطرت في بالي فكرة، وقلت لمانوسكو: “لديّ عمل في لندن...”. نظرت إلى سوزان، التي أومأت برأسها، “ولذلك أفكر في أن الوقت ملائم ربما لي وللسيدة ساتر للسفر لمدة أسبوع تقريباً إلى لندن، ومن ثم السفر لمدة أسبوع أو أسبوعين إلى أوروبا. بمعنى آخر، يجدر بنا الاختفاء نحن أيضاً”.

أجاب من دون تردد: “تكون هذه فكرة ذكية في هذا الوقت - إلا إذا أصبح الوضع أكثر وضوحاً. إذا بقيتما على اتصال معنا، يمكننا إطلاعكما على آخر التطورات”.

“ستهمنا حتماً الأخبار هنا. وأرجوك ألا تتردد في الاتصال بنا لحظة يقتل أصدقاء سالي دادا أنطوني”.

لا يستجيب السيد مانوسكو أبداً كما يجب لملاحظاتي الإجرامية المتعلقة بأنطوني بيلاروزا - إنه محترف - لكنه قال: “نتمنى تحديد موقعه أولاً”.

"أتمنى أن يحدد أصدقاء العم سال موقعه أولاً".

تجاهل هذا وسألني: "متى تنويان السفر؟".

نظرت إلى سوزان وقالت: "لا مشكلة عندي في يوم الثلاثاء".

وافق مانوسكو: "سيكون ذلك جيداً". ثم ذكّرنا: "لا تخبرا أحداً بمكان سفركما".

"مفهوم".

"واستمتعا. أنتما بحاجة إلى إجازة".

بدا السيد مانوسكو سعيداً لأننا سنخرج من نطاق عمله. إنه يستلطفنا، وسيحزن شخصياً إذا قتلنا. وعلى الصعيد المهني، طبعاً، سيكون أكثر من حزين. سيكون في وضع محرج وجد نفسه فيه حين قتلت سوزان شاهده الملك. لا يحتاج طبعاً إلى مثل ذلك مجدداً.

طمأننا: "أنا واثق من أننا سنعرف بعض الأمور أثناء غيابكما، وسيكون أنطوني بيلاروزا في السجن، أو تحت المراقبة المشددة، أو مقتولاً على أيدي أشخاص آخرين، أو خائفاً ومختبئاً بصورة دائمة في فلوريدا أو فيغاس، حيث ينتهي العديد من زملائه حين يضطرون إلى التوقف عن العمل".

لست واثقاً من أن أنطوني قد تقاعد وانتقل إلى مكان آخر، لكنني أوافق فيليكس مانوسكو على أن مهنة أنطوني أصبحت أمام مفترق طرق. ليست مشكلتي، طالما أن هذه الطرق لا تؤدي إلى غرايس لاين.

فكرتُ أيضاً في أنطوني في مخبئه، أو منفاه، وتساءلتُ إذا ما كانت تنتابه المشاعر الإنسانية بالاشتياق إلى عائلته، وعدم معرفة متى أو إذا كان سيراها مجدداً. من جهة أخرى، هذه هي الحياة التي اختارها. ثم فكرت طبعاً في منفاي أنا. لم تكن تلك هي الحياة التي اخترتها - حسناً، ربما كانت كذلك - لكنه لم يكن خياري الأول.

على أي حال، لا يعرف أنطوني بيلاروزا حتى أين تقع لندن، ويظن أن باريس هي اسم فندق في فيغاس. لذا، إنها فكرة جيدة، وسنستمتع قليلاً فيما يحاول أنطوني معرفة إذا كان هو السيد أو أنه يواجه مشكلة ما.

قلت للسيد مانوسكو: "سنتصل بك يوم الثلاثاء من المطار".

"أرجوكما".

سألته: "باستثناء استدعائك إلى مسرح الجريمة، هل كان يوم الأب سعيداً بالنسبة إليك؟".

"نعم، شكراً. ماذا عنك؟".

"قضيت يوماً رائعاً برفقة ولديّ، وخطيبتي. حضرت أيضاً أمي، وأهل خطيبتي". أبلغته: "سيغادر الجميع صباح الغد".

"هذا جيد". ثم سألنا: "هل تتوخيان الحذر؟".

"نعم. لكننا ذهبنا أنا وسوزان إلى مطعم جوليو لارتشاف القهوة وتناول الحلويات يوم الخميس".

"حقاً؟ حسناً... هذا شيء جيد ربما".

"بالفعل، كان كذلك".

بقي صامتاً لبرهة، ثم قال لي، أو بالأحرى لنا: "لطالما تساءلت... كيف كانت ستختلف الأمور في حياتنا لو لم تمنعه من النزف حتى الموت".

"حسناً... يمكنك التأكد من أنني تساءلت عن ذلك أنا أيضاً بضع مرات". نظرت إلى سوزان، التي لم تكن تنظر إليّ، وقلت: "لكنني ما كنت لأسمح أبداً بالنزف حتى الموت".

"أعرف ذلك. ولا أنا. لكن أقصد، لو لم تستطع إنقاذ حياته، لكان مات حينها و... حسناً، لما كنا نجري الآن هذه المحادثة".

"لا". وما كانت سوزان لتقتل فرانك على مرأى من فيليكس مانوسكو، وما كنت لأطلقها، وأنفي نفسي بنفسي لمدة عشر سنوات، وما كان أنطوني ليهدد حياتنا الآن. لكن من يعرف لو حصل شيء أسوأ من ذلك في تلك السنوات العشر الماضية؟ مثل هروبي مع بيريل كارليسل. قلت لفيليكس مانوسكو، وكذلك لسوزان: "حسناً، إذا كنا نعتقد بالقدر، يمكننا القول إن النهاية ستكون أفضل مما لو خسر فرانك بيلاروزا دماً إضافياً على أرض مطعم جوليو".

بقي صامتاً لبرهة، ثم قال لنا: "فكرت في الشيء نفسه. أعتقد فعلاً... حسناً، أن هناك هدفاً لكل ذلك، وأن جزءاً من هذا الهدف هو اختبارنا، ومنحنا بعض الحكمة، وتقديم إثبات لنا عما هو مهم، ودفعنا نحو الأفضل".

قالت سوزان: "أعتقد ذلك. وأعتقد أنّ هناك دائماً مَن يحمينا".

حسناً، لمَ الذهاب إذاً إلى لندن؟ لكن لكي أكون على الموجة نفسها، قلت: "وأنا أيضاً".

قال السيد مانوسكو: "جاءني زائر يريد التحدث معي. استمتعا برحلتكما، ولا تترددا في الاتصال بي في أي وقت".

"شكراً، وطاب مساؤك".

"حسناً...".

"صحيح. استمتع بيوم جيد غداً".

"وأنت أيضاً".

قالت سوزان: "وشكراً".

أنهيت المكالمة ونظرنا إلى بعضنا.

وأخيراً، قالت سوزان: "أنا أتساءل أيضاً كيف كانت ستكون حياتنا لو لم...".

“توقفي. لن نناقش أبداَ - وأعني أبداَ - هذا الموضوع مجدداَ”.

أومأت سوزان برأسها. “حسناً. لكن ثمة هدفاً ربما لكل ما حصل”.

“ربما”. وأنا واثق من أننا لم نعرف بعد ما هو.

الفصل السادس والستون

اقترحتُ على سوزان أن نصعد إلى الغرفة العائلية، ونشاهد القليل من فيلم العراب، الجزء الرابع: أنطوني يقتل العم سال.

لم تظن أن هذا مضحك أو شيء تريد القيام به.

رفعت سوزان سماعة الهاتف وطلبت رقماً.

سألتها: "بمن تتصلين؟".

"بإدوارد".

"لماذا؟ أوه، حسناً". غريزة الأم في حماية أولادها هي أقوى بالطبع من غريزة الرجل في مشاهدة التلفزيون.

أجاب إدوارد عبر هاتفه الخلوي، وقالت له سوزان: "حبيبي، أريدك أن تعود إلى المنزل الآن".

قال شيئاً، ثم أجابت: "ستسافر في الصباح الباكر، حبيبي، ونريد أنا ووالدك تمضية بعض الوقت معك. نعم. شكراً".

أنهت المكالمة وقالت: "خمس عشرة دقيقة".

أومأت برأسي. حسناً، إذا تُرك إدوارد على هواه، يبقى ساهراً حتى الساعة الثالثة فجراً ونمضي كل الليل حاملين البنادق في انتظاره. قلت لسوزان: "سيبتعد من هنا على الأقل يوم غد، وسنكون في لندن يوم الثلاثاء".

سألتني: "جون، هل تظن أن هناك أي خطر قد يلحق بالولدين؟ لن أذهب إلى لندن إذا...".

"ليسا في خطر". فكرت في ضربة أنطوني النظيفة في مطعم جيوفاني، وتذكرت أيضاً ما قاله لي أنطوني نفسه على مصطبته الأمامية، وأكدت لها: "يحصل الأولاد والنساء على عفو... حسناً، الأولاد على أي حال". قلت لها أيضاً: "كارولين محامية، وقد يجعلها ذلك في منأى عن الخطر".

أومأت سوزان برأسها. "حسناً... أنا أتطلع إذاً إلى الذهاب إلى لندن".

"ومن ثم باريس".

"جيد. لم أخرج من البلاد منذ... منذ أن ذهبنا إلى روما".

صديق رخيص. أو ريفي. في غضون ذلك، كنت أنا خارج البلاد طوال عشر سنوات، وكنت أودّ البقاء هنا قليلاً - لكن عودة إلى لندن.

سألتني: "هل سأحب لندن وأنا برفقتك؟".

"أتمنى ذلك. أريد أن أريك متحف الحرب الإمبراطوري".

“لا أستطيع الانتظار. هل ستكون هناك سيدات ينادين ويطرقن على بابك في لندن؟”.

“سيدات؟ لا. طبعاً لا. لكن علينا النزول في فندق”.

ذكرتني: “لا نستطيع دفع التكاليف”.

حقيقة أخرى جديدة.

هكذا، جلسنا في المكتب وتحدثنا قليلاً عما قاله مانوسكو، وعن رأينا في هذا الوضع. كانت سوزان متفائلة، ورأيت، أنا أيضاً، أن لدى أنطوني بيلاروزا مشاكل أخرى مع زملائه أكثر مما لدينا نحن مشاكل معه. لكنني لن أخاطر بحياتي، أو حياتها.

سمعنا إدوارد يصل، وذهبت سوزان إلى الباب، وفتحت له قبل أن يقرع الجرس.

صعدنا نحن الثلاثة إلى الغرفة العائلية، وأحضرت لنا صوفي ما تبقى من الجاتوه، ثم تمنت لنا ليلة سعيدة.

تحدثنا عن أحداث النهار، وعن المراكب الشراعية، وعن زيارتي أنا وسوزان له في لوس أنجلوس، وربما اصطحاب الجدة هاربيت معنا. على أمل أن تحب لوس أنجلوس وتبقى هناك. أخبرناه أيضاً أننا سنسافر إلى لندن لبضعة أيام، ومن ثم إلى مكان آخر. لا حاجة إلى أن يعرف إدوارد المكان قبل أن نصل إليه، ولا حتى آنذاك. لا حاجة إلى أن يعرف أيضاً قصة جريمة المافيا في بروكلين. إذا سمع عن هذا الأمر أثناء وجوده في لوس أنجلوس، سيجمع على الأرجح اثنين مع اثنين، ويدرك سبب ذهابنا المفاجئ إلى أوروبا. أو ستتولى كارولين إجراء الحسابات له.

وبخصوص شيء ما كنا نناقشه، سأل إدوارد: “كيف جرت الأمور مع الجد والجدة بعدما غادرنا؟”.

تركت سوزان تجيب وقالت بصراحة: “ليست جيدة. لكننا سنتحدث إليهما مجدداً صباح غد”.

سأل: “لماذا لا يريدان أن تتزوجا؟”.

جاء دوري وقلت: “لا يحبانني”.

أشار: “لكنك لن تتزوج بهما”.

وافقته الرأي: “جيد. لكنهما ينظران إلى ذلك ضمن سياق أكبر”.

حسم إدوارد هذا الهراء وقال: “الأمر متعلق بمالهما”.

“لسوء الحظ. الأمر متعلق بمالهما. ولكن ليس بعد الآن”.

قالت سوزان لابنها: “قد نشهد بعض الخسارة المادية - جميعاً - نتيجة هذا الزواج”.

“أعرف ذلك”.

قلت له: “لا نقلق أنا وأمك على نفسينا، لكننا نقلق عليك أنت وكارولين”.

أبلغنا: “تحدثت مع كارولين عن الأمر. نحن لا نهتم أيضاً”.

نظرنا أنا وسوزان إلى بعضنا، ثم قالت لإدوارد: “لنرَ ماذا سيقولان غداً”. ثم ذكّرته: “رحلتك في وقت باكر”.

وقف وقال: “أراكما في الصباح”. ثم سأل: “كيف أصبحا هكذا؟”.

حسناً، أحمقان منذ الولادة، وليس الآن.

أجابت سوزان: “لا أعرف، ولكن أتمنى ألا يكون الأمر وراثياً”.

ضحكنا جميعاً، وتمنى لنا إدوارد ليلة سعيدة.

قالت لي سوزان: “لا أحب مناقشة ذلك مع الولدين”.

“ليسا ولدين”.

“إنهما ولدانا جون. ولا أحب أن يفسد والداي حياتيهما”.

إنها غريزة الأمومة مجدداً. إنها قلقة على ما سيصبح عليه إدوارد وكارولين إذا ما تم رميهما في العالم البارد والموحش، وطُلب منهما الدفاع عن نفسيهما، مثل تسعين بالمئة من البشر.

لا أشارك سوزان مخاوفها - إنهما بخير، ويعرفان أنهما بخير، وأعتقد أننا تمكنا من تربيتهما بشكل يسمح لهما الاعتناء بنفسيهما - لكنني أفهم ما تفكر فيه، وهو “لماذا يجدر بهما العيش من دون مال إذا كانت الملايين متوافرة لهما؟”.

في الواقع، ثمة خيار هنا لا يملكه معظم الأشخاص - ملايين أو دفعات شهرية؟

حسناً، أنا أختار الملايين، خصوصاً إذا حصلت على المال نتيجة موت ويليام ستانهوب - لكنني بالتأكيد لن أتوسل أحداً للحصول على المال. لكن حين يتعلق الأمر بالولدين، عليك التنازل قليلاً.

الخلاصة هنا هي أنني أقف بين ثلاثة من آل ستانهوب وبين ملايين ستانهوب.

لكن، نعم، سنرى ما الذي قد يحصل غداً. أعرف ما سيقوله ويليام لسوزان، لكنني لست واثقاً مما ستقوله سوزان لويليام - أو مما ستقوله لي بعد ذلك.

قالت سوزان: “سأذهب لأنام”.

“أنا لا”.

“لن تشاهد الأخبار، أليس كذلك؟”.

“بلى”.

“لماذا تريد رؤية ذلك، جون؟”.

"يستمتع الجميع برؤية مقتل سيد مافيا". في الواقع، لم أشاهد جريمة فعلية على شاشة التلفزيون منذ أن حاول سالي قتل فرانك، وكان لي دور داعم في ذلك.

أعلنت سوزان: "أنا ذاهبة إلى السرير".

"ليلة سعيدة".

أعطتني قبلة سريعة وغادرت.

إنها الساعة الحادية عشرة مساء، فأدرت التلفزيون، وعثرت على القناة المحلية التي تعمل فيها جيني ألفاريز.

وطبعاً، ها هي تقول: "قصتنا الأبرز الليلة هي الجريمة المروعة لسالفاتور داليسيو"- ظهرت صورة له على الشاشة – "أحد المشاهير في عائلات الجريمة المنظمة في نيويورك...".

تم استبدال صورة رجل الكهوف بالمنظر الخارجي لمطعم جيوفاني، وبدا المكان غير سيئ. لقد أحبّه مانوسكو على ما يبدو، ولذلك ربما يجدر بنا أنا وسوزان اصطحاب كارولين إلى هناك. لا شك في أن صاحب المطعم غاضب الآن لأن زبائنه قد شهدوا تطاير رأس رجل أثناء تناولهم العشاء، وغاضب أيضاً لأن الجميع غادروا قبل أن يدفعوا فواتيرهم. لكنه يعرف حتماً أنه سيعوّض ذلك في الأسابيع المقبلة. يحبّ أهل نيويورك الذهاب إلى مطعم قتل فيه سيد مافيا. انظروا إلى مطعم جوليو، مثلاً، أو سباركس، حيث قُتل بول كاستيلانو على يد غوتي. لا يزال المطعم جيداً. الإعلان المجاني أفضل من الإعلان المدفوع، من دون ذكر، طبعاً، حصول المطعم على صفة أسطورية، وحصوله على نجمة أو نجمتين إضافيتين في دليل المطاعم الإيطالية.

حسناً، أنا سخيف، ولذلك أعدت انتباهي إلى التلفزيون. هناك الكثير من رجال الشرطة خارجاً، وكان صوت جيني يقول: "... هنا في هذا المطعم الإيطالي في قسم ويليمسبورغ من بروكلين. كان سالفاتور داليسيو أحد الأسياد التابعين للشهير فرانك بيلاروزا، الذي قتل قبل عشر سنوات في قصره في لونغ آيلند على يد امرأة قيل إنها عشيقته".

قيل؟ لماذا لم تقل جيني اسم سوزان وتعرض صورتها على الشاشة؟ حسناً، تخاف ربما من مقاضاتها قانونياً. صحيح. كانت سوزان قاتلة فرانك بيلاروزا، وإنما يقال إنها عشيقته. قد أمثّل سوزان قانونياً إذا ذكرتها جيني بالاسم على أنها عشيقة فرانك أو صديقته. سيكون ذلك مثيراً - قضية ساتر ضد قناة الأخبار الثامنة، جيني ألفاريز. جون ساتر هو صاحب الدعوى. هل صحيح سيد ساتر أنك كنت تقيم علاقة مع الآنسة ألفاريز، وخذلتك؟ لا، سيدي، تصافحنا وافترقنا كصديقين.

أوه، كم نحيك الكثير من الشباك، ونعلق فيها، ثم نغادر.

على أي حال، كانت جيني تقول: "بيلاروزا نفسه كان هدف محاولة قتل، قبل عشر سنوات، ويعتقد بأن ضحية الليلة، سالفاتور داليسيو، كان وراء تلك المحاولة للقضاء على حياة بيلاروزا بالأمس. واليوم، قُتل سالفاتور داليسيو - المعروف في

عالم المافيا بسالي دادا - وتقول مصادر قريبة من التحقيق إن الرجل الذي كان وراء هذه الجريمة هو ابن فرانك بيلاروزا، طوني...".

"أنطوني! لا تقولي طوني".

يبدو أنه لا توجد صورة متوافرة لأنطوني، وتابعت جيني الكلام فيما تم عرض صور قديمة لفرانك بيلاروزا - فرانك على درج المحكمة يوم أخرجته من السجن بناء على كفالة - ولمحت في الواقع نفسي. ربطة عنق سيئة.

في تلك اللحظة، لسوء الحظ، دخلت سوزان إلى الغرفة، ونظرت إلى فرانك بيلاروزا على شاشة التلفزيون، وتجمدت مكانها، ثم استدارت وغادرت من دون كلمة.

حسناً، من المزعج قليلاً رؤية فرانك على شاشة التلفزيون، وهو يبدو وسيماً، وينفث دخان سيجار، ويمازح رجال الصحافة. لم يكن يتمتع بهذه الحيوية في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، داخل تابوته.

كان يجدر بي إطفاء التلفزيون والذهاب إلى السرير، لكن هذا مهم - من دون ذكر التسلية.

تابعت جيني تقول: "إذا كانت الإشاعات صحيحة، يبدو أنه بعد عشر سنوات، عادت بعض الدجاجات لتبيت بين عائلات الجريمة المنظمة في نيويورك".

ولا تنسي، يحصد المرء ما يزرعه.

تابعت: "حسب مصادرٍ موثوقة من رجال الدولة، اختفى طوني بيلاروزا من منزله، ومكان عمله، وتخلّى عن أعماله الاعتيادية منذ أسبوع تقريباً، ولم يحضر إلى جناز غوتي البارحة".

ثم تابعت الحديث عن صراع القوى الذي ينشأ نتيجة الفراغ الذي سببه موت السيد غوتي، وما إلى ذلك، مما أعادها مجدداً إلى أنطوني والعم سال، ومن ثم إلى والد أنطوني، فرانك، ومن ثم... ها أنا مجدداً أقف مع فرانك على درج المحكمة. تابعت جيني تقريرها أثناء عرض الفيلم، ولم يصدر الصوت الفعلي للفيلم، لكنني كنت أجيب عن سؤال طرحته عليّ جيني ألفاريز نفسها حين كانت أصغر سناً. لم أتقدم في العمر أبداً. في تلك المرحلة، لم نكن أنا وجيني صديقين - في الواقع، كانت مزعجة على درج المحكمة، ولم أستلطفها أبداً، وكذلك هي لم تستلطفني. ثم... حسناً، تحول الكره إلى عشق، مثلما يحصل غالباً.

عادت جيني إلى الشاشة، وكانت هذه فرصة أخرى لها لتذكرني بالاسم على أنني المحامي الوسيم والذكي لسيد المافيا الميت، الذي رأيناه توًّا على الشاشة. لكنها لم تشأ أن تذكر اسمي على الهواء - فقط بضع ثوانٍ من شريط أخبار قديم. إنها تتذكر حتماً تلك الليلة في البلازا. إلا أنها قالت بدلاً من ذلك: "ثمة جانب آخر مثير في هذه القصة وهو أن طوني بيلاروزا نسيب للضحية، سالفاتور داليسيو. فوالدة بيلاروزا وزوجة داليسيو - الآن أرملته - هما شقيقتان. وإذا صحت الإشاعات القائلة عن تورط طوني بيلاروزا في قتل رجل العصابات هذا، يعطينا ذلك لمحةً عن العالم عديمِ الشفقة...". وما إلى ذلك.

حسناً، لا أعرف شيئاً عن عدم الشفقة. وكي أكون صريحاً، الفرق الوحيد بيني وبين أنطوني في ما يتعلق بقتل نسيب مزعج هو أن أنطوني يعرف بمن يتصل لإنجاز الأمر فيما يكون خارج المدينة. أتمنى لو أنني أعرف بمن أتصل حين أكون في لندن.

أنهت جيني سرد تقريرها وعرض شريطها الوثائقي، ثم قالت للمذيع: "عودة إليك تشاك".

ظهر مذيع شاب على الشاشة، وفي ما يفترض أن يكون سؤالاً عفوياً لمراسلته، سأل: "جيني، ماذا تقول مصادرك عن الدافع وراء هذه الجريمة؟".

أجابت جيني، مثلما هو متفق عليه، "تقول المصادر إنه إذا كان طوني بيلاروزا وراء هذه الجريمة، فإن الدافع الجلي هو الثأر لما حصل قبل عشر سنوات عندما كان والده ووالدته وثنائي آخر...".

لا تزال مصرة على عدم الإشارة إليّ بالاسم. هل هي تحميني أم تعذبني؟

علّق تشاك بالقول إن عشر سنوات هي وقت طويل للانتظار والثأر، فيما شرحت جيني له ولمشاهديها عن أهمية عامل الصبر في عالم الإجرام، والذكريات الطويلة، والانتقام.

استفسر تشاك: "هل تظنين إذاً أن القتل سيفضي إلى المزيد من القتل؟".

أجابت جيني: "هذا محتمل".

أظن ذلك أيضاً.

حسناً، بدا لي أن أنطوني - المعروف قبلاً بطوني – قد أوقع نفسه في ورطة، أو بالأحرى في مأزق كبير. أقصد، هل يظن هذا المغفل أن أحداً لن يربط فعله بجريمة قتل عمه؟ حسناً، يبدو جلياً أن هذا ما ظن أنه يريده، كرسالة له إلى المجرمين بأنه نفذ ثأراً عائلياً - لكنني واثق من أنه لم يشأ إشعال نار الصحافة ورجال القانون والنظام. على العكس من والده، لا يتطلع أنطوني إلى البعيد. عبّرت آنا عن ذلك بأفضل ما يمكن: "أنت لا تفكر، طوني. عرف والدك كيف يفكر". الأم تعرف.

وبالحديث عن آنا، كيف سيشرح أنطوني لأمه ما فعله بالعم سال؟ حسناً، لن تصدق آنا الأكاذيب التي تلفقها الشرطة ووسائل الإعلام حول ابنها. لم تصدق حتى إن زوجها، الشهيد الصالح فرانك، كان متورطاً في الجريمة المنظمة. وينطبق الإنكار نفسه على صهرها، سال، وما إلى ذلك.

تعرف آنا طبعاً أن كل هذا صحيح، لكنها لا تستطيع الاعتراف أبداً بأي من هذا لنفسها، وإلا تخسر موقعها ومكانتها. بالرغم من ذلك، سيكون دفن سالفاتور داليسيو مسألة عائلية متوترة، خصوصاً إذا ظهر أنطوني، ولم تلعب ماري اللعبة التي اخترعها الصبيان قبل زمن بعيد.

أصبحت جيني تتحدث الآن عن أنطوني بيلاروزا، وبدا لي أنها تبالغ في ذلك. في الواقع، قالت: "لا يعرف الكثير عن ابن فرانك بيلاروزا، ويبدو أنه حافظ على

السرية بعد موت والده لكن الآن، مع موت عمه، وتورطه المزعوم...".

أطفأت التلفزيون وتناولت ما تبقى من جاتوه سوزان.

حسناً، أستطيع إعطاء جيني بعض المعلومات الإضافية عن طوني، بدءاً من تغييره لاسمه.

على أي حال، رأيت أن هذا أفضل لآل ساتر. لقد أثار الغبي أنطوني عاصفة إعلامية - عاصفة يوم الأب، وهذا جيد لي ولسوزان. كما أن تغطية الحدث تلفزيونياً ليست شيئاً مهماً مقارنة مع الصور الدامية التي ستنشر غداً في الصحف. أتمنى لو أنّ، قبل وصول الشرطة إلى مطعم جيوفاني، أحدهم قام بالتقاط بعض الصور لسالفاتور داليسيو مستلقياً على الأرض فيما كان رأسه متطايراً. تساوي تلك الصور الكثير من المال بالنسبة إلى بعض الأشخاص المحظوظين الذين حملوا معهم كاميراتهم إلى عشاء يوم الأب. وفي بعض الأحيان، تسرّب شرطة نيويورك بعض الصور المريعة للصحافة لتظهر للرأي العام أن المافيا ليست فعلاً منظمة أخوية إيطالية. سيكون ذلك نقطة جيدة في العلاقات العامة بالنسبة إلى جون غوتي كرجل محسن للناس. تخيلت بعض الصور لماري وهي ملطخة بدماء ودماغ وجمجمة زوجها. أعرف شعورها. ستكون هناك على الأقل بعض الصور الملونة في الصحف لمسرح الجريمة - الطاولة، الدم على الأرض، التقيؤ. لا، لا تقيؤ. لا بأس في الدم، ولكن لا تقيؤ أبداً. يمكن أن يراه الأولاد.

أنهيت التهام جاتوه سوزان، ثم نزلت إلى الأسفل، وتحققت مجدداً من الأبواب والنوافذ والإنارة الخارجية، ثم صعدت إلى الأعلى إلى غرفة النوم.

كانت سوزان لا تزال مستيقظة، تطالع.

قلت لها: "يجدر بك النوم قليلاً".

لم تجب. يبدو أنها غاضبة.

قلت لها: "اسمعي، سيكون هناك الكثير من التغطية التلفزيونية لهذا الحدث، لكنني أعدك بأنني لن أنظر إليها مجدداً، ولن نشتري أي صحف أميركية في لندن".

لم تجبني مجدداً.

قلت: "من الجيد أننا سنذهب إلى لندن".

أومأت برأسها ثم قالت: "هل تفهم لماذا ذهبت إلى هيلتون هيد؟".

حسناً، لا، لم أفهم، لكن للمصادقة على كلامها، قلت: "هل تفهمين لماذا أمضيت ثلاث سنوات مبحراً على متن مركبي؟".

لم تجبني على ذلك.

أخرجت البندقية الصغيرة والبندقية الكبيرة من خزانتي، ووضعت البندقية الكبيرة لجهتها من السرير فيما البندقية الصغيرة لجهتي.

وفيما بدأت أخلع ثيابي، قالت لي: "أنا آسفة لأنك رأيته على شاشة التلفزيون".

"لا تقلقي بشأن ذلك. دعينا لا نتحدث عن هذا".

لم تجبني.

لتغيير المزاج والوقت، قلت لها: "هل تذكرين آخر مرة ذهبنا فيها إلى باريس، وجلسنا في ذلك المقهى الصغير... أين كان ذلك؟".

"في جزيرة المدينة. وكنت تغازل النادلة".

"أوه، حسناً... هل تذكرين ذلك العشاء الذي تناولناه في لوماري، وكنت تغازلين النادل؟".

"أنت تخترع ذلك".

صعدت إلى السرير، وقبّلتها، وقلت: "كان هذا أفضل يوم أب عرفته منذ عشر سنوات". ليس جيداً كثيراً بالنسبة إلى العم سال، أو أي شخص آخر في مطعم جيوفاني، لكن...

"وأنا أيضاً".

"وشكراً على اليخت".

"سنشتري مركباً شراعياً". أطفأت مصباحها وقالت: "ليلة سعيدة".

أطفأت مصباحي، وقلت: "أحلاماً حلوة".

ثم استلقيت مستيقظاً، أفكر في هذا اليوم، وفي الغد، وفي يوم الثلاثاء في لندن. أتمنى حين نعود، أن يكون أنطوني بيلاروزا في السجن أو ميتاً، وإلا لن يمنعنا أي شيء من الإقامة في شقتي في لندن إلى أن يتوقف أنطوني عن تهديدنا. لكن أولاً، علينا الوصول بسلام إلى تلك الطائرة.

الفصل السابع والستون

صباح يوم الاثنين. إنه يوم ساطع وجميل.

نهضنا باكراً لوداع إدوارد، وحضّرت له سوزان فطوراً دسماً من اللحم والبيض - ساعدته في تناول طعامه – وعند السابعة والنصف صباحاً، وصلت السيارة والسائق لاصطحابه. كان بوسعي إيصاله إلى المطار، لكنه لا يريد الوداع في مطار جون كنيدي. أذكر وقتاً كانت فيه المطارات مثل محطات القطار أو مراسي السفن، بحيث يوصلك أصدقاؤك أو عائلتك إلى البوابة، ويستطيعون تقريباً الصعود معك إلى الطائرة، لكنهم يستطيعون حتماً الذهاب إلى الشرفة لرؤية إقلاع الطائرة وهم يتناولون المشروبات. لكن تلك الأيام مضت منذ زمن بعيد، ولا يذكر إدوارد ذلك الوقت الأكثر بساطة. خطر في بالي أن هناك جيلاً كاملاً اعتبر هذه الحرب التي هي من دون نهاية أمراً طبيعياً. في الواقع، أصبحت الآن طبيعية.

وقفنا أنا وسوزان وإدوارد على المصطبة الأمامية، ولاحظتُ أن إدوارد لم ينسَ حقيبته الصغيرة. سألت ابني بذكائي الفائق: "هل تملك المال؟".

"أعطتني الماما مالاً".

"جيد. وتذكرتك؟".

"معي".

"وبطاقة الهوية؟".

"معي".

"حسناً، أظن أنك تستطيع الذهاب".

قالت له سوزان: "اتصل بي أو أرسل لي بريداً إلكترونياً ما إن تصل".

"حسناً".

أذكر بعض الرحلات التي قمت بها فيما كنت لا أزال أعيش في المنزل مع أهلي، ولم تكن حفلات وداعي حزينة أو شديدة التدقيق مثل تلك التي نقيمها أنا وسوزان لولدينا. حسناً، ربما نحن نفرط في ذلك بقدر ما قصّر أهلنا في ذلك.

قالت سوزان: "سنتصل بك من لندن".

"نعم، جيد. متى تذهبان إلى لندن؟".

"غداً". مثلما أخبرناك الليلة الماضية.

"رائع. استمتعا برحلتكما".

ذكّرته: "لا تنسَ أن لديك بذلة بريوني ستصلك خلال ثمانية أسابيع تقريباً".

"نعم، شكراً".

ذكّرته سوزان: "اكتب رسائل عادية أو إلكترونية إلى أجدادك - جميعهم - وأخبرهم كم استمتعت برؤيتهم".

"حسناً".

جيد، يبدو أن المحاضرة قد انتهت، وكان السائق ينتظر، وبدا إدوارد تواقاً إلى الذهاب.

تعانقنا وتبادلنا القبلات، وقال مبتسماً: "تبدوان جيدين معاً".

لفتني ذلك التعليق، ولم أجب، لكن سوزان قالت: "شكراً. نراك في لوس أنجلوس في شهر يوليو، أو ربما أغسطس، ثم ننطلق من هناك للإبحار. وقد يكون حفل الزفاف في وقت ما في تلك الفترة من الزمن".

ابتسم: "رائع".

ثمة عناق وقبلة إضافيّان، وركب إدوارد في السيارة التي تحركت ببطء فوق ممرّ الحصى. فتح النافذة الخلفية ولوّح، ثم اختفت السيارة بين ظلال الممر المغطى بالأشجار.

كانت سوزان تمسح عينيها بمحرمة. من المحزن دائماً رؤية عزيز يغادر، لكن من المحزن أكثر حين لا نعرف متى - أو إذا - سنراه مجدداً.

ستبقى صوفي إلى أن يصل آل ستانهوب، وهذا محدد قرابة الساعة التاسعة والنصف، إلا إذا ذهبتُ إلى نادي الكريك، وعطّلت مكابح سيارتهما.

على أي حال، أرادت صوفي أن تعرف إذا كان يجدر بها الخروج لشراء الصحف. أردت فعلاً رؤية الصفحات الأمامية الملطخة بالدم، وقراءة التغطية العاطفية ليوم الأب... ماذا؟ جريمة؟ لا. فقط تم قتل سالي دادا. ليست هذه جريمة. ماذا عن حفلات يوم الأب؟

لكنني وعدت سوزان - وفيليكس مانوسكو - بألا تكون هناك صحف في المنزل. قد أخرج لاحقاً، بعدما يغادر آل ستانهوب، وأقرأ الدايلي نيوز والبوست في مقهى.

أجبت على عرض صوفي: "لا صحف اليوم". قلت لها: "قد نكون أنا والسيدة ساتر في الأخبار اليوم".

"حقاً؟ جميل".

"حسناً..."، قلت لها، "قد لا يكون جميلاً جداً. حسناً، سنسافر حتى... وقت ما من شهر يوليو. أو ربما أطول". سننظف الحمامات بنفسنا. "تملكين المفتاح، ولذلك مرّي من فضلك مرة كل أسبوع لتنظيف المنزل".

"حسناً. رحلة جميلة. إلى أين ستسافران؟".

"لتمضية شهر رومنسي في وارسو. هل نحضر لك شيئاً ما؟".

"نعم، سأعطيك لائحة طعام. شكراً".

"أهلاً بك".

ترددت، ثم قالت لي: "السيدة ساتر سعيدة الآن".

"شكراً".

"الأم والأب غير سعيدين".

إلامَ كانت تشير إشارتك الأولى؟ قلت لصوفي: "سيذهبان إلى منزلهما اليوم".

"نعم؟ جيد". استدارت وعادت لمتابعة ما كانت تفعله.

لذا، ولتفسير ما كنت أقوله لصوفي بشأن ذكر أسمائنا في الصحف، كنت واثقاً تماماً من أن بعض الأخبار المثيرة المصاحبة لهذه الجريمة، والتي لم يتم تغطيتها في التقرير التلفزيوني الفوري لجيني، ستظهر في الصحف المحلية خلال الأيام القليلة المقبلة. وتحديداً، سيكون هناك المزيد من الأخبار عن جريمة مقتل فرانك بيلاروزا قبل عشر سنوات، بما في ذلك اسم القاتل (سيدة المجتمع صاحبة الدم البارد، سوزان ستانهوب ساتر) فضلاً عن إدراج بعض الصور القديمة لها. ثمة أمر لافت آخر في تلك القضية هو زوج سوزان ساتر، جون ساتر - استخدموا صورة جميلة من فضلكم - الذي كان محامي سيد المافيا المغدور، وعاش آل ساتر في منزل رائع اسمه ستانهوب هال، المحاذي لقصر سيد المافيا، الحمرا. وسيكون هناك طبعاً الكثير من التخمينات حول علاقة السيدة ساتر بجارها سيد المافيا. حسناً، يمكن أن يكون الأمر أسوأ. يمكن أن تكون سوزان هي محامية فرانك، ويمكن أن أكون أنا عشيقه. هكذا، تعدّ هوليوود الأفلام.

سيتم نبش كل ذلك مجدداً، وخشيت أن يطّلع إدوارد وكارولين على كل هذا. شكراً لك أنطوني أيها الأحمق. أتمنى ألا نضطر إلى مصادفة وسائل الإعلام خارج البوابات مثلما حصل في المرة الماضية. أقصد، القصة ليست عني وعن سوزان، لكن لا تعرف أبداً كيف تتحول الأمور - خصوصاً عند وجود ثنائي غني ووسيم له علاقة نوعاً ما بما جرى. قد تظهر جيني، مثلما فعلت قبل عشرة أعوام - قبل أن نصبح قريبين - وتقف أمام البوابات ومنزل الحراسة من خلفها وتقول: "هنا، خلف هذه البوابات الحديدية وهذه الجدران المحظورة، يعيش جون وسوزان ساتر، اللذان كانا قبل عشر سنوات شخصين مغمورين...". وقعا في الفخ؟ أي كان. حسناً، إذا ظهرت، سأخرج وأعانقها وأقبلها وأصرخ في المذياع: "جيني! حبيبتي! اشتقت إليك".

هذا سخيف. لكن خطر في بالي أنه يجدر بي الاتصال بالسيد نسيم، وإطلاعه قليلاً على ما يجري قبل أن يقرأ شيئاً في الصحف يتحدث عن جون وسوزان ساتر في ستانهوب هال. حسناً، قد يضاعف قيمة عرضه لشراء المنزل.

من جهة أخرى، سنغادر أنا وسوزان غداً، فلمَ إزعاج نفسي بالاتصال بأي كان؟ فلسفتي أنا وسوزان هي: حين يأتي الخراب، يحين وقت الهروب.

حسناً، ثمة أمر إيجابي ربما وراء كل هذه التغطية الإعلامية - وهو أن أنطوني قد يجد صعوبة في استئجار قاتل يرغب في تولي مهمة ساتر. أقصد، القتلة هم عموماً رجال عاديون ولا يرغبون في قتل شخصيات مشهورة أو أشخاص هم محطّ أنظار في الأخبار. صح؟ هذه فكرة مشجّعة.

إنها الآن الساعة التاسعة صباحاً، وجلست سوزان أمام طاولة المصطبة، تحمل فنجان قهوتها وهاتفها الخلوي ودفتراً وقلماً، وطلبت رقم هاتف وكيل سفرها.

فيما رن الهاتف، سألتني: "هل تمانع السفر في الدرجة الاقتصادية؟".

"ما هذا؟".

قبل أن تخبرني، أجاب وكيل سفرها، وتحدثت سوزان معه لدقيقة، ثم حجزت سوزان مقعدين في الدرجة الاقتصادية إلى لندن على متن خطوط كونتيننتال الجوية، والانطلاق من مطار جون كنيدي في السابعة والنصف صباحاً. قالت لوكيل سفرها: "لا، لن نحتاج إلى فندق. يملك زوجي شقة في لندن".

متى تزوجت؟ هل أضعتُ يوماً في مكان ما؟

ثم حجزت لنا في قطار تشانل إلى باريس، وفي باريس، بذخت سوزان، وحجزت لنا أسبوعاً كاملاً في الريتز، حيث مكثنا في المرة الأخيرة. الدرجة الاقتصادية في الإير فرانس للعودة إلى نيويورك والوصول بعد ظهر يوم الأربعاء، الثالث من يوليو. هكذا، نعود في الوقت المناسب لحفلة الشواء في الرابع من يوليو في سيوانهاكا - إلا إذا قررنا العودة إلى لندن.

أنهت المكالمة وقالت لي: "أنا متحمسة فعلاً لهذه الرحلة".

"وأنا أيضاً".

"جون، متى نستطيع الزواج؟".

"في الواقع، لا نحتاج إلى ذلك. أستطيع فقط التقدم بطلب إلى محكمة الزواج لإبطال شهادة طلاقنا، فنصبح متزوجين تلقائياً من جديد".

"أنت مليء بالحقارة".

"صحيح. ماذا عن الرابع من يوليو في سيوانهاكا؟ سيكون كل الذين نعرفهم هناك على أي حال، ولن يكلفنا أي شيء، باستثناء ما ننفقه على أنفسنا".

لم تظن أن هذه فكرة جيدة - النساء غير عمليات - اتصلت بمدير النادي في سيوانهاكا. لحسن الحظ والحمد لله، لا يزال السبت الثاني من شهر أغسطس متوافراً، فحجزته سوزان لإقامة حفل زفاف في الخارج - ستتم مناقشة التفاصيل مطولاً خلال الشهرين المقبلين.

أنهت المكالمة وقالت لي: "هذا مثالي. نقضي ليلة زفافنا في غرفة الضيوف في النادي، ثم نبحر في اليوم التالي، نحن الأربعة، في يختنا الجديد في شهر عسل لمدة أسبوعين".

"هل سيأتي والداك معنا إلى شهر عسلنا؟".

"لا، جون. إدوارد وكارولين".

"أوه، حسناً"، ذكّرتها، "لم يذهبا معنا في شهر عسلنا الماضي".

تجاهلت ذلك، وقالت: "سنذهب إلى لوس أنجلوس في الأسبوع الذي يسبق حفل الزفاف، ونمضي بضعة أيام برفقة إدوارد، ثم نصطحبه معنا إلى الزفاف".

"خطة جيدة".

بدا ذلك وكأنه صيف رائع. وإذا تم حل الأمور هنا، سأعثر على وظيفة في شهر سبتمبر، ونعيش بسعادة إلى الأبد - في منزل أصغر، من دون استجداء الدفعات الشهرية لآل ستانهوب. في غضون ذلك، كل ما علينا فعله هو الانتباه لعدم التعرض للقتل.

كنت جالساً أمام الطاولة في مكتبي المنزلي فيما الباب مغلق، أكتب بريداً إلكترونياً لإليزابيت بشأن ذهابي أنا وسوزان إلى إسطنبول - قررنا القول إننا سنذهب إلى هذا المكان - وعودتنا خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع. في ذلك الوقت، نحسم أمر ممتلكات إيثيل.

ذكّرتها أيضاً بشأن الرسالة، وسألتها إذا كنا نستطيع أن نلتقي اليوم قبل أن أغادر باكراً في صباح اليوم التالي. اتصلت من ثم بمنزل الحراسة، وطلبت من رجال الأمن السماح لإليزابيت ألارد بالمرور.

وفيما أنهيت المكالمة، وصلت سيارة فورد توروس زرقاء اللون أمام المنزل، وخرج منها المختل عقلياً والسخيفة. كان يجدر بي الطلب من الحراس تقييدهما بالسلاسل، لكن يبدو أن سوزان سمحت لهما بالدخول.

راقبتهما عبر النافذة فيما هما يتوجهان إلى المنزل، وكانا يتحادثان كما لو أنهما يجريان تمرين الدقيقة الأخيرة. بدوَا متجهمين قليلاً، ولذلك من الأفضل ألا يقطعا المساعدات المالية عن عائلتهما، وإلا سيذهبان مباشرة إلى الجحيم.

رنّ جرس الباب، واستطعت سماع صوت صوفي ترحب بآل ستانهوب. تفاجأت لأن سوزان لم تفتح الباب بنفسها؛ في هذا العالم، لا يسمح للخادمة الترحيب بالعائلة أو الأصدقاء المقربين، إلا إذا كنت منزعجاً فعلاً. إذاً، ترسل لهما سوزان رسالة - أو أنها تشحذ سكين اللحم.

سمعت الباب يغلق وأصبح الهواء فجأة بارداً، وظهر الذباب أسود اللون في المكان، وبدأ الوحل الأخضر يخرج من الجدران. لقد وصل آل ستانهوب.

الفصل الثامن والستون

قررنا أنا وسوزان أن تلتقي هي بالرجل غير الصالح والمرأة الشريرة في غرفة الجلوس، فيما أبقى أنا وراء الأبواب في المكتب لتتمكن من استشارتي، أو الاتصال بي خلال المناقشة، إذا كان هذا ملائماً.

فاوضت على الكثير من تسويات الضرائب بهذه الطريقة، فضلاً عن بعض الشجارات العائلية بشأن الميراث؛ غرف مختلفة لأشخاص مختلفين كي لا يتصادم الفرقاء مع بعضهم. ينجح ذلك عادة.

تحققت من بريدي الإلكتروني، وكانت هناك رسائل من أصدقاء لي في لندن، يستفسرون عما سمعوه، إما من سامنتا أو من زملائي في العمل القانوني. حسناً، لا أستطيع الإجابة عن أي من هذه الرسائل الإلكترونية إلى أن يخرج القاضي من غرفة الجلوس مع الحكم. هكذا، لعبت البوكر على شاشة الكمبيوتر، وكنت على وشك الفوز - محظوظ في اللعب، تعيس في الحب؟

بعد خمس عشرة دقيقة تقريباً من وصول آل ستانهوب، سمعت طرقة على بابي، وقلت: "تفضل".

أطلت صوفي، وأبلغتني: "سأذهب الآن".

"حسناً، شكراً على كل ما فعلته".

لا يزال الباب مفتوحاً، واستطعت سماع أصوات في غرفة الجلوس، وكانت النبرة صارمة ورزينة.

أعطتني صوفي ورقة صغيرة، واعتقدت أنها ملاحظة من سوزان، أو فاتورة لصوفي، لكن نظرة سريعة عليها أظهرت لي أنها لائحة مكتوبة بالبولندية.

قالت: "أعطِها لمتجر طعام".

"هوه...؟ أوه، حسناً". خلال شهري الرومنسي في وارسو. لماذا يفترض بي أن أكون أحمقَ إلى هذا الحد؟ حسناً، أستطيع ربما شراء هذه الأغراض من غلين كوف أو بروكلين.

ترددت صوفي، ثم قالت: "السيدة حزينة. تذهب أنت ربما...". أشارت بإصبعها فوق كتفها.

أجبتها: "حسناً، شكراً. أنت سيدة لطيفة. سنراك حين نعود".

"نعم". غادرت وأغلقت الباب خلفها.

سمعتها تغادر عبر الباب الرئيسي، ورأيتها تركب في سيارتها وتنطلق بها.

حسناً، أفترض أنني أستطيع الدخول الآن وحل المسألة بخنق ويليام وإجباره على التوقيع على ورقة بيضاء اللون أملأها لاحقاً. ثمة أساس قانوني لذلك - الحاجة لا تعرف القانون.

لكنني وعدت سوزان بأن أجلس هنا، وألا أتدخل في هذا الشأن العائلي، ووعدتني بأن تتحدث معي قبل أن يغادرا.

لذا، ولتمضية الوقت، تصفحت بعض مصادر الأخبار على شبكة الإنترنت وقرأت عن العشاء الأخير لسالفاتور داليسيو. معظم التغطية كانت مجرد تقارير، من دون شيء جديد لم أعرفه أصلاً من جيني ألفاريز وفيليكس مانوسكو، رجلي في ساحة الجريمة. لكن ثمة قصة جاء فيها: "لا ردّ على الاتصالات بمقرّ بيلاروزا في لونغ آيلند، فيما الاتصالات بمقرّ عمل السيد بيلاروزا، شركة بيل للخدمات في أوزون بارك، الكوينز، يتم تحويلها إلى رسالة مسجلة".

حسناً، فكرت في أن هذه ليست طريقة عملية لإدارة الأعمال. ماذا لو احتاج أحدهم إلى سيارات الليموزين للدفن؟ مثل عائلة داليسيو؟

تابعت قراءة القصة: "مصادر قريبة من التحقيق تقول إن طوني بيلاروزا غادر على الأرجح البلاد".

أتمنى ألا يكون في لندن أو باريس. أقصد، لا أريد مصادفته في معرض تايت أو متحف اللوفر. يجدر بي حتماً تفادي متحف الشمع للسيدة توسو.

على أي حال، خطرت في بالي فكرة، ووجدت بطاقة أنطوني في محفظتي، وطلبت رقم هاتفه الخلوي. بعد ثلاث رنات، سمعت رسالة مسجلة جاء فيها: "تم فصل هذا الرقم بناء على طلب الزبون. ما من معلومات إضافية متوافرة".

لا يبدو ذلك وكأن أنطوني تعرض لحادث مفاجئ. يبدو وكأنه لا يريد أن يتعقب أحد أثره عبر إشارة هاتفه الخلوي.

على أي حال، لو استطعت العثور عليه، لكان الحديث سخيفاً - أنطوني، أين أنت؟ جون، أين أنت؟ أنا سألت أولاً، أنطوني.

أرسلت من ثم بريداً إلكترونياً إلى كارولين أخبرها فيه عن جريمة قتل السيد سالفاتور داليسيو، مواطن مقيم في ضاحية بروكلين، وأنا واثق من أنه كان معروفاً جداً بالنسبة إلى مكتب قضاء بروكلين. أنا واثق أيضاً من أن مكتب كارولين مهتم بهذه الجريمة وينشغل زملاؤها في العمل مع شرطة نيويورك والأف بي آي لتحضير أدلة تدين القاتلين، والحارس الهارب للعم سال - والأهم من ذلك هوية الشخص الذي موّل الجريمة. حسناً، لا يصعب التصور أن أنطوني بيلاروزا هو المشتبه الرئيسي في هذه القضية. لكن العثور عليه سيكون صعباً.

أبلغت كارولين، إذا لم تكن تعرف قبلاً، أن ماما وبابا قد يتم ذكر اسميهما في الأخبار. لم أقل لها "أتمنى ألا يسبب لك ذلك الإحراج"، لكنها تعرف ذلك. كما أنها تعرف الآن - أو أن أحداً في المكتب ذكر الأمر لها - أن أنطوني بيلاروزا قد يحاول تصفية الحساب مع ماما. لم أذكر ذلك لها، لكنني أخبرتها أننا سنغادر إلى أوروبا في صباح اليوم التالي، وسنتصل بها هاتفياً قبل أن نغادر. ستفهم حقيقة ذلك.

تذكرت أن أنطوني وكارولين التقيا ذات مرة، في الحمرا، وبالرغم من أنني لم أكن حاضراً، كنتِ واثقاً تماماً من أن كارولين لم تستلطف الجار الوسيم. في هذا

الصدد، تملك حكماً أفضل من أمها.

على أي حال، كارولين ساتر، محامية في بروكلين، قد يكون لديها معلومات أكثر مني، وأنا واثق من أنها ستشاركنا في معرفة تلك المعلومات عند اللزوم.

هكذا، بعد الانتهاء من أخبار وأعمال بيلاروزا، تصفحت الشبكة وعثرت على بعض المواقع الجيدة لباريس، رأيت في أحدها مطعمين يرحبان بالأميركيين.

قرابة الساعة العاشرة، فتحت سوزان الباب ودخلت. بدت شاحبة ومرتعدة، لكنها لم تكن تبكي. ساعدتها على الجلوس على الأريكة، ثم جلستُ قربها.

أخذت نفساً عميقاً وقالت: "حسناً، موقفهما واضح. إذا تزوجنا، ستتوقف نفقتي السنوية، ويتم حرماني من الميراث وكل شيء. وحتى لو لم نتزوج، ينطبق الشيء نفسه إلى أن تغادر البلاد".

أخذت يدها وقلت: "كنا نعرف ذلك".

"نعم... لكن...". أخذت نفساً عميقاً وتابعت: "قال والدي أيضاً إنه سيحرم الولدين من الميراث... ويوقف أموال ودائعهما... ويوقف أموال ودائع المسؤول عنهما إلى أن يبلغا عمر الخمسين". نظرت إليّ وسألت: "هل يمكنه فعل ذلك؟".

أجبتها: "مثلما قلت لك، يستطيع حرمانهما من الميراث في أي وقت يريد. وبالنسبة إلى أموال الودائع، أحتاج إلى الاطلاع على مستندات الودائع. لكنني رأيتها ذات مرة، وأعرف أن بيتر هو الوصيّ، ويستطيع والدك، عبر بيتر، وقف التوزيعات وحجز رأس المال كله إلى أن يبلغ إدوارد وكارولين عمر الخمسين".

أجرت بعض الحسابات، وقالت: "يكون هذا بعد خمس وعشرين سنة تقريباً من الآن".

حاولتُ أن أظهر لها الجانب الإيجابي في ذلك، وقلت: "في حال عدم توزيع الحصص، يفترض أن يتضاعف رأس المال أربع مرات حينها". إلا إذا أجرى القيمون على الودائع بعض خيارات الاستثمار السيئة.

قالت: "أنا قلقة بشأن الآن. وليس بعد خمس وعشرين سنة من الآن".

"أعرف". حاولتُ استيعاب ما تفكر فيه، وفهمتُ تقريباً ما يجري حين سحبت يدها من يدي.

هذه هي اللحظة التي عرفتُ أنها ستأتي، وقد قدّمت لها قبلاً حلاً للمشكلة، لكنها رفضته حين اقتصر الأمر على عرضي للمشكلة والحل. لكنها حصلت الآن على الكلمة الأخيرة من العزيز بابا - وأنا واثق من أنه لا يمزح - فجاء ذلك مثل القاضي الذي يصدر حكم إعدام.

سألتها، بدافع الفضول: "ماذا عن أمك؟".

هزّت رأسها، ثم أجابت: "قالت إن كل ما عليّ فعله هو الطلب منك المغادرة، ويعود كل شيء إلى حاله مجدداً".

ليس هذا صحيحاَ، لكنني لم أجب.

وأخيراً، سألتني: "ماذا يجدر بي أن أفعل، جون؟".

حسناً، إذا أردتِ السؤال، سوزان، تعرفين الجواب.

"جون؟".

أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت: "ما عليك فعله هو الحصول على محامٍ...".

"لماذا؟ أنت محامٍ...".

"اسمعيني. عليك التأكد من ألا يتكرر هذا النوع من الأمور ثانية. يجدر بوالدك تخصيص وديعة لك، ووديعتين جديدتين للولدين، تنقل إليكم أنتم الثلاثة حصتكم من أملاكه التي يفترض أن تستلميها أنت وولداك بمثابة ميراث. ويجب إعداد هذه الودائع بطريقة تحصلين فيها أنت والولدان على توزيعات سنوية، خارجة عن سيطرته، ومراوغته، وتختارين أنتِ بنفسك الوصي على الودائع، ولن يكون بيتر. هل تفهمين؟".

"أنا... لمَ يفعل ذلك؟".

"حسناً، لاعتبارات من جهتك. بمعنى آخر، مقابل شيء يريده منك".

"ماذا...؟ أوه...".

"تحتاجين أنت والولدان إلى ضمانات قانونية كي يتوقف عن السيطرة على حياتكم بواسطة أمواله، وفي المقابل، تعطينه أنت - وأنا - ما يريده خطياً".

"جون. لا...".

"بلى".

نظرت إليّ، واستدرت نحوها، والتقت نظراتنا. بقيت تحدق إليّ، ثم انهمرت الدموع على وجنتيها.

بصوت صارم قدر المستطاع، قلت لها: "هذه هي الطريقة الوحيدة سوزان التي نستطيع فيها - أنا وأنت - حماية ولدينا، وحماية مستقبلك أيضاً".

أشاحت بنظرها عني، ومسحت عينيها بيديها.

لإعادة الأمور إلى حقيقتها، وقفت وقلت: "عودي إلى هناك وأخبريه أنني مستعد للعودة إلى لندن - من دون الحصول على المليون دولار خاصته - ولكن ليس قبل أن أتحدث إليه عما يجب القيام به اتجاهك واتجاه إدوارد وكارولين قبل أن أغادر. سيفهم".

بقيت جالسة، وهي تهزّ رأسها، ثم قالت: "يقول الولدان إنهما لا يهتمان...".

"لا يهتمان. لكننا نحن نهتم". سألتها: "هل تريدين أن يكون بيتر المستفيد الوحيد من ثروة ستانهوب؟".

لم تجب، لكنها ليست مضطرة.

أمسكت بيدها ورفعتها إلى الأعلى. اقترحت عليها: "اذهبي إلى المطبخ، أو إلى مكان ما، وتماسكي نفسك، واغضبي، ثم ادخلي إلى هناك وأخبريه عن الصفقة".

لم تجب.

تابعت: "إذا انفجر غضباً، تكونين قد تحررت منه ومن ماله. لكن إذا أراد التحدث إليّ، سنتوصل إلى تدبير يرخي قبضته عن كيس المال".

هزّت رأسها مجدداً، ثم قالت بصوت بالكاد هو مسموع: "لا... جون... لن أدعك تذهب".

"أنت - نحن - لا نملك خياراً آخرَ. اسمعي، سوزان... ربما خلال سنة تقريباً، بعدما تتاح لنا فرصة التفكير في ذلك، ونتأكد من مشاعرنا...".

"لا!".

"حسناً، إذاً سأتحدث إليه الآن. أرسليه إلى هنا".

"لا".

"سأخرج إليه...".

"لا... لا... دعني... أحتاج فقط إلى دقيقة...". عادت لتجلس مجدداً، لكنني أمسكت بذراعها ودفعتها نحو الباب. قلت لها: "لا بأس. أنت شجاعة وتعرفين ما يجب عليك فعله".

"لا... لن أفعل...".

أصبحت صارماً جداً، وقلت: "لن نضحي بمستقبل ولدينا من أجل أنانيتنا...".

ابتعدت عني، وقالت: "لن أسمح لك بالمغادرة مجدداً".

أمسكتها بكتفيها وقلت لها: "أنا مغادر. ولكن ليس قبل أن أرتب الأمور هنا، للولدين، وهذا ما كان يجدر بي فعله قبل عشرة أو عشرين عاماً...".

"لا، جون. أرجوك...".

"لكنني أعدك سوزان... أعدك بأن نكون معاً مجدداً".

نظرت إليّ، وكانت الدموع لا تزال تنهمر على وجنتيها. بكت بقوة، ثم وضعت رأسها على كتفي، وسألت: "هل تعدني...؟".

"أعدك. حسناً...". دفعتها نحو الباب، وأخرجتها إلى الردهة. استدارت ونظرت إليّ. ابتسمتُ وقلت: "أخبري والدك أن محاميك يريد التحدث إليه".

لم تبتسم، لكنها أومأت برأسها، وعدت إلى المكتب، وأغلقت الباب.

وقفتُ هناك لدقيقة كاملة، ثم جلست أمام المكتب.

أخذت قلم رصاص، ودوّنت بعض الملاحظات التي أحتاج إلى مناقشتها مع ويليام. لكن عقلي وقلبي ليسا معي. مبدئياً، سأفاوض معه على صفقة تضمن عدم

رؤيتنا أنا وسوزان لبعضنا مجدداَ.

أفترض أنه من المحتمل أن يرفض ويليام فكرة تخليه عن السيطرة على ماله، وبالتالي على ابنته – فما هي حصته من هذه الصفقة؟ طبعاً ليس محبة سوزان وصحبتها، أو محبة حفيديه. كل ما سيحصل عليه من الصفقة هو ضمان عدم رؤية جون وسوزان ساتر لبعضهما مجدداً، وتساءلتُ إذا كان هذا كافياً له. حسناً، أعتقد أن الأمر يرتبط بمدى صدقه في دوافعه لإنهاء هذه الخطوبة. هل يعتقد هو وشارلوت فعلاً أن سوزان ترتكب خطأ فظيعاً؟ أو أن الدافع هو في الواقع كره ويليام لي؟

يدرك ويليام بلا شك أنه إذا قبل بالصفقة، لن يتخلص فقط مني، وإنما سيخسر أيضاً ابنته وحفيديه ما إن يصبحوا مستقلين مادياً. يمكن القول إنني قلبت الطاولة عليه وجعلته في وضع يستحيل فيه الفوز. وبالرغم من ذلك، قد يقبل بهذه إذا كان كرهه لي يطغى على حبه لسوزان وإدوارد وكارولين. أنا واثق أيضاً من أن بيتر سيضغط على والده لقبول الصفقة إذا كانت تعني أن بيتر سيحصل هو أيضاً على ميراثه الآن. بعدها، سيطلب بيتر من البابا الذهاب إلى الجحيم.

فُتح الباب، ودخلت سوزان إلى المكتب. وقفت وتواجهنا. قالت لي: "يرفض والدي تماماً اقتراحك".

"حسناً". يجيب ذلك عن سؤال واحد على الأقل.

رأيت أنها بدت منهكة، ولا أظن أنني رأيتها يوماً تائهة ومهزومة كما هي الآن.

أشاحت بنظرها عني، وقالت: "لكن... عرضه لك لا يزال سارياً إذا قبلتَ به الآن، وتسافر غداً إلى لندن... وحيداً".

"حسناً". انتظرتها حتى تقول شيئاً ما، لكنها لم تفعل، ولذلك حصلت حسبما أعتقد على جواب السؤال الآخر. في الحقيقة، إنني لا ألومها. الحب، لسوء الحظ، لا يقهر كل شيء. أو، كي أكون أكثر لطافة، حب سوزان لولديها - أو ولدينا - تغلب على حبها لي. وشعرت أنا أيضاً بالطريقة نفسها. من قال إن الأولاد هم رهينة الثروة فلدى كل مرء بلا شك حمٌ مماثل لويليام ستانهوب.

أردت إخبار سوزان أنه من دون ضمانات قانونية لها وللولدين، يستطيع والدها فعل ما يشاء بماله، بما في ذلك تحويل كل شيء إلى بيتر. لكن هذا سيبدو خدمة شخصية، كما لو أنني أحاول إقناعها بأن تخليها عني لن يضمن بالضرورة لها، أو للولدين، حياة مستقرة مالياً. إنه يضمن لها أن يستمر ويليام في السيطرة على حياتها، ويختار لها ربما زوجها التالي. يريدها ويليام ربما أن تتزوج بابن المرحوم دان، بوب.

حول هذا الموضوع، سألتها: "ماذا عرض عليك؟".

ترددت، ثم قالت بصدق: "زيادة كبيرة في نفقتي السنوية إذا بعتُ هذا المنزل، وانتقلت مجدداً إلى هيلتون هيد".

"أفهم". حسناَ، يستمر حكم ويليام الطاغي. مثلما قلت، لا ألوم سوزان، وأعتقد أنه لو كانت حياتنا نحن فقط على المحك، لرمت والديها خارج الباب. لا، ولن ألومها مستقبلاً على اتخاذها مثل هذا القرار الصعب. لقد اتخذت أنا قراراً مماثلاً قبلاً. قلت لها: "أخبريه أنني سأغادر غداً. وأخبريه أيضاً أنه يستطيع الاحتفاظ بماله لنفسه".

وقفت سوزان هناك، ثم أشاحت بنظرها بعيداً عني وقالت: "آسفة...".

"لا تكوني. هذا قرارنا، وليس فقط قرارك. والأفضل، أرسليه إلى هنا وسأخبره بنفسي".

هزّت رأسها. "لا يريد رؤيتك... يريد فقط جوابك".

"جوابي هو أنني سأغادر غداً إذا جاء إلى هذا المكتب الآن".

"أخبرته". نظرت إليّ وقالت: "أحبك".

"أعرف ذلك".

"هل تحبني؟".

"نعم". لكنني لا أستطيع.

أومأت برأسها مجدداً وقالت: "أمضينا هذا الوقت معاً... ولن أنسى أبداً هذا الأسبوع".

"ولا أنا". اقترحت عليها: "عليك السفر إلى مكان ما غداً والخروج من هنا حتى تهدأ الأمور".

"أعرف... يريدان أن أذهب إلى هيلتون هيد. لكن...". سألتني: "ماذا سأفعل من دونك؟".

"ستكونين بخير". ذكّرتها: "سأكون هنا في انتظار والدك".

تقدمت خطوة نحوي، لكنني قلت: "اهتمي بذلك".

بدت متألمة وبدت تائهة جداً. أردت أن أحضنها بين ذراعيّ، وسأفعل، لكن ليس قبل أن يرحلا.

وقفت من دون حراك، ثم أومأت برأسها، وغادرت.

حدّقت إلى الباب، على أمل أن تستدير، وتعود، وندخل معاً إلى غرفة الجلوس ونرمي آل ستانهوب خارج المنزل. منزلنا. تمنيتُ أيضاً ألا تتخذ هذا القرار.

شعرتُ... بالكثير من الأحاسيس. الغضب طبعاً. لكنني شعرت خصوصاً بتلك الخسارة التي تكبدتها قبل عشر سنوات. ذلك الإحساس بأن الأمر قد انتهى، وأسوأ من ذلك، أنه لا يجدر أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة – يجمعنا الكثير من الحب ولكن علينا التغاضي عنه من أجل أسباب قد لا تبدو كافية لتبرير القرار بالرحيل. وشعرتُ أيضاً أن هناك خطأ هنا... أن سوزان كانت محقة وأن القدر جمعنا مجدداً. ما الذِي يحصل إذاً؟

بقيت واقفاَ، أحدق إلى الباب.

ما يريحني الآن فقط هو أن سوزان وإدوارد وكارولين كانوا يعرفون ويليام على حقيقته - وستفيدهم هذه المعرفة أكثر مما قد يفيدهم ماله على مرّ السنوات. الشيء الآخر الذي يريحني هو وثوقي بأن ويليام يدرك بأنني أنتظره في الرواق، وبأنني سأعود للظهور مجدداً إذا لم يفِ بوعده. وسيسعد ذلك اللعين حتماً لسماع عدم رغبتي في الحصول على ماله. لكن في مكان ما من دماغه المتجهم، سيفهم أخيراً أنني لا أدين له بأي شيء، وأنني على مسافة رحلة بالطائرة تمتد لست ساعات فقط، وأستطيع العودة إذا تخلّى يوماً عن الاهتمام بولديّ.

فكرتُ في الغد - في الركوب على متن الطائرة، وحيداً، والعودة إلى لندن. أستطيع ربما متابعة عملي، إذا أردت ذلك، والعودة إلى سامنتا أيضاً، إذا أردتها. لكن ما أردت القيام به فعلاً هو العثور على صاحب يخت بحاجة إلى بحار خبير للقيام برحلة طويلة. أعرف، من المرة الأخيرة، أن هذا سيقضي على رغبتنا - أنا وسوزان - في اتخاذ قرار سيئ مستند على الحب.

سمعتُ هدير محرك سيارة تتوقف، ونظرت عبر النافذة. توقفت سيارة إليزابيت رباعية الدفع وترجلت منها.

ذهبتُ إلى الباب الأمامي، وفتحتُ لها الباب قبل أن ترنّ على الجرس.

ابتسمت وقالت: "صباح الخير".

"صباح الخير. ادخلي".

"لبرهة فقط". أبلغتني: "وصلني بريدك الإلكتروني".

دخلنا إلى المنزل، واصطحبتها إلى المكتب، وأغلقت الباب.

نظرت حولها، وانتبهت إلى لوحات سوزان الزيتية على الجدار، وعلّقت: "سوزان موهوبة جداً".

ألقيت نظرة على اللوحات، وعاد إليّ دفق من الذكريات - عشرون عاماً من العيش مع امرأة كانت مجنونة ورائعة، وأصبحت خلال السنوات العشر الماضية أقل جنوناً، ولكن ليس أقل روعة. والآن، سوزان التي خرجت للتو من هنا أصبحت... حسناً، مهزومة. وهذا ما جعل قلبي يتألم.

سألت إليزابيت: "جون؟ هل أنت بخير؟".

"نعم؟ كيف حالك؟".

"أوقات جيدة وأخرى سيئة". أضافت: "سأكون بخير".

"أعرف ذلك". سألتها: "هل تودين الجلوس؟".

"لا. لقد تأخرت عن اجتماع للموظفين في أحد متاجري".

"ألا يستطيعون البدء من دونك".

ابتسمت: "أخشى ذلك". فتحت حقيبتها، وأخرجت منها مغلفاً صغيراً. قالت لي: "إنه لك".

أخذت المغلف أبيض اللون الصغير وقرأت أنه موجه إلى "السيد جون ساتر"، مكتوب بخط يد إيثيل. قلتُ لإليزابيت: "شكراً". أخذته إلى المكتب، وأمسكتُ بفتاحة الرسائل، وقلت: "دعينا نقرأها".

"لا. اقرأها أنت. وجهتها أمي إليك".

"حسناً، أعرف، لكننا اتفقنا...".

"إذا كان هناك من شيء فيها تريد مشاركته معي، اتصل بي". أضافت: "أثق في حكمك على ذلك".

"حسناً... لكن...".

"لا تبدو بخير".

"تأثيرات الشرب يوم الأب".

ابتسمت وقالت: "كان يجدر بك رؤيتي صباح يوم الأحد".

"كان لقاء جميلاً".

"أودّ دعوتك أنت وسوزان إلى العشاء حين تعودان من رحلتكما".

"سيكون ذلك لطيفاً".

"أخبرها أنني مررت، وأبلغها تحياتي وتمنياتي برحلة موفقة".

"سأفعل".

"وتناول بعض الكافين وحبوب الأسبيرين".

"سأفعل، شكراً".

رافقتها إلى سيارتها، وسألتني: "هل هذه سيارة آل ستانهوب؟".

"نعم".

"أوه، أفهم الآن لماذا أنت متجهم".

ادّعيت الابتسام وقلت: "سيغادران إلى المطار قريباً".

"فلنحتفل. اسأل سوزان إذا كانت تريد المجيء الليلة لشرب شيء ما".

"شكراً، لكن علينا توضيب أغراضنا. رحلتنا باكرة".

"أبلغني إذا بدلت رأيك. لماذا تسافران إلى إسطنبول؟".

"للابتعاد قليلاً. أمضيت هناك أسبوعاً فيما كنت أبحر".

نظرت إليّ وقالت: "في يوم ما ربما، سيأتي رجل وسيم ويطلب مني الإبحار معه حول العالم".

ربما أسرع مما تظنين. قلت لها: "إذا أردت ذلك، سيحصل".

لم تجب.

قلت لها: "أبلغي ميتش تحياتي".

"من؟".

حسناً، يجيب ذلك عن السؤال.

قرصتني على وجنتي وقالت: "أرسل إليّ بطاقة بريدية".

"سأفعل. سنفعل".

"وداعاً". صعدت إلى سيارة البي أم دبليو وانطلقت.

عدت إلى المنزل، إلى المكتب، وأغلقت الباب.

حسناً... لديّ الكثير من الأمور في عقلي، والكثير من الهموم للتفكير في إليزابيت. والواقع أن قلبي لا يزال هنا.

جلستُ أمام المكتب ونظرت إلى المغلف الموضوع فوق الطاولة.

رنّ جرس الهاتف الداخلي ورفعت السماعة.

قالت سوزان: "أنا في المطبخ. لن يراك والدي في المكتب، لكنه سيتحدث إليك عبر الهاتف لاحقاً - أو بعدما تعود إلى لندن".

بدت متماسكة أكثر الآن - أو ربما مصدومة كثيراً. أجبتها: "حسناً".

"سيخرج إلى السيارة كي أختلي لوقت قصير مع أمي".

"جيد".

"أرجوك لا تخرج للتحدث إليه".

"لن أفعل. أراك بعدما يغادران". ثم أنهيت المكالمة.

سمعت الباب الرئيسي يفتح، ورأيت ويليام يتوجه إلى سيارته.

أخضع عادة لأحكام الوضع، وإلا أسيطر على الوضع. لكن ثمة أوقات - مثل هذه المرة - يكون فيها اللاشيء أفضل ما يمكن فعله. وفي الواقع ماذا سأقول لويليام ستانهوب؟ لا حاجة إلى أن أخبره رأيي فيه - لأنه يعرف ذلك أصلاً. ولن أطلب منه حتماً إعادة النظر في طلباته أو محاولة تليين قلبه. لذا، فإن الشيء الوحيد الإيجابي والجيد الذي أستطيع فعله الآن هو الخروج إلى هناك، وسحق رأسه على عجلة القيادة حتى يفتح كيس الهواء في السيارة. وكنت سأفعل ذلك لو أنني أصغر سناً.

وفوق كل ذلك، لا يزال أنطوني بيلاروزا في مكان ما، بالرغم من أنه بعد يوم غد، حين نرحل أنا وسوزان - في اتجاهين مختلفين - ستعلّق المشكلة، أو تحلّ في أحسن الأحوال.

حدّقت إلى ويليام الذي جلس في السيارة وأدار محركها، ليستمع ربما إلى الراديو. تساءلتُ عن كيفية تقبله للأمر هو وشارلوت حين يسمعان بجريمة قتل سالفاتور داليسيو، وأن أنطوني بيلاروزا المشتبه الرئيسي به ما زال مختبئاً، ويكتشفان أن اسم ابنتهما عاد إلى الأخبار مجدداً. حسناً، أنا واثق من أنهما سيصرّان على العودة إلى هيلتون هيد على الفور. أدركتُ أن أياً منا لن يعود للعيش هنا.

فتحت المغلف وأخرجت منه أربع أوراق مطوية، وألقيت نظرة على خط إيثيل الأنيق وإنما المبهم. قرأت:

عزيزي السيد ساتر،

أكتب إليك هذه الرسالة من حيث ما أعتقد بأنه سرير موتي، وأكتب إليك قبل عودتك من لندن لتسوية أمور ممتلكاتي. ستعطى لك هذه الرسالة بعد موتي من قبل ابنتي، إليزابيت كوربيت، شرط أن تكون عدتَ فعلاً من لندن لهذا الغرض، وأن نكون تحدثنا أنا وأنت، شخصياً، عند عودتك.

حسناً، أظن أنني لبّيت الشرطين - جئتُ من لندن، وزرتها في دار العجزة. ولبّت هي الشرط الأخير. ماتت.

الشيء الوحيد المؤكد هنا هو أنها كانت ستموت. أما رحلتي إلى نيويورك فلم تكن محسومة. في الواقع، كان يجدر بي البقاء في لندن، وتوفير الكثير من المشاكل والحزن على الجميع.

راقبتُ ويليام ستانهوب لبرهة، محاولاً تقرير ما إذا كان يجدر بي الخروج إلى هناك وإخباره، بهدوء وإنما بحزم، أنه لا يجدر به العبث بأموال أو ميراث حفيديه. أقصد، ماذا سيفعل إذا اتجهت نحو السيارة؟ الهروب إلى المطار وترك زوجته هنا؟

نظرت مجدداً إلى رسالة إيثيل وقرأت:

أنا متعبة ولا أشعر بأنني بخير فيما أكتب هذه السطور، ولذلك سأتطرق مباشرة إلى هدفي. أعرف أنك أنت وحماك لم تهتما أبداً لبعضكما، وأعرف أيضاً أن هذه الحالة سببت لزوجتك السابقة الكثير من الحزن، وولدت المشاكل بينك وبينها، وأعتقد أيضاً أن آل ستانهوب أثرا في قرار السيدة ساتر المتعلق ببيع منزلها والانضمام إليهما في هيلتون هيد.

حسناً، أفهم الآن إلى أين سيفضي ذلك - تؤدي إيثيل دور المُصلح في النهاية، مثلما فعلت حين زرتها. لكنني تساءلت لماذا تهتم بعودتي أنا وسوزان إلى بعضنا؟ حسناً، إنها تحب سوزان، وأنا واثق من أنهما تقربتا من بعضهما مجدداً بعد عودة سوزان، وتعرف إيثيل أن سوزان ترغب في العودة إليّ. لذا، أقحمت إيثيل نفسها لتسجيل ضربة أخيرة نيابة عن سوزان.

وضعت الرسالة جانباً لقراءتها لاحقاً. حسناً، إيثيل. لكنك نسيت أمر ويليام ستانهوب. في الواقع، لم تنسَ ولذلك ذكرته. لم تستلطف إيثيل أبداً ويليام، وهذه فرصتها لـ... ماذا؟

أخذت الرسالة مجدداً وتابعت القراءة:

ما سأكتبه الآن يصعب عليّ التعبير عنه بالكلمات. لذا، دعني أكون صريحة. ويليام ستانهوب هو رجل فاسد أخلاقياً ومنحط وشرير.

واو. جلست وانتقلت إلى الصفحة التالية.

بدأ سلوكه المخزي والمريع حين كان طالباً في الجامعة، واستمر على هذا النحو خلال خدمته العسكرية، وبعد، لم يتوقف حتى بعد زواجه. أجد صعوبة الآن، بعد مرور الكثير من السنوات، في استعادة ذكريات أحداث ذلك الوقت. لا أرغب في أن أتكلم صراحة عن سلوكه، لكنني سأخبرك أنه فرض نفسه على أصغر موظفة في ستانهوب هال وأكثرهن براءة...

توقفت عن القراءة وأخذتُ نفساً عميقاً. يا ربي. أعدت قراءة السطر الأخير ثم تابعت:

غازل الفتيات الأجنبيات، الأقل قدرة على مقاومته. قبل الحرب وخلالها، وقعت الفتيات الإيرلنديات ضحيته، وحاولت إحداهن، واسمها بريجيت بيهان، قتل نفسها بعدما تخلى عنها. وبعد الحرب، كان هناك عدد من الأشخاص المهجرين، ومعظمهم من فتيات ألمانيات وبولنديات بالكاد يتحدثن الإنكليزية، وخفن كثيراً من ترحيلهن، مما أجبرهن على الانصياع لرغباته. إحدى تلك الفتيات، كانت فتاة بولندية لم تتجاوز السادسة عشرة، أعجز عن تذكر اسمها، أصبحت حاملاً منه، تخلّى عنها وخدعها وأعادها إلى بلادها.

لا أستطيع أن أخبرك هنا كل ما حصل في تلك السنوات، لكنني أستطيع أن أخبرك أن سلوكه السيئ استمر، من دون شك، حتى رحل هو والسيدة ستانهوب إلى هيلتون هيد.

والآن، سيد ساتر، قد تقول لنفسك لماذا انتظرتُ حتى هذه اللحظة للكشف عن ذلك؟ أولاً، عليّ أن أقول لك إنني أنا، وآخرين في ستانهوب هال، حاولنا لفت انتباه أوغسطس ستانهوب إلى هذه المسألة حين كان لا يزال على قيد الحياة، لكنه لم يكن ليسمع شكوانا. والمؤسف أنني لم أضغط أنا عليه في هذه المسألة. والمؤسف أن زوجي جورج لم ينقل هذه المسألة إلى أوغسطس ستانهوب، وطلب مني التزام الصمت. عليك أن تفهم أنه في تلك الأيام، كان من المستبعد أن تتقدم تلك الفتيات بشكاوٍ ضد السلطات، وإذا فعلن، هل سيتم الأخذ برأيهن على حساب ويليام ستانهوب؟ أعرف، أيضاً، أن تلك الفتيات تعرضن للتهديد بصرفهن من العمل أو ترحيلهن، وتم دفع المال لهنّ لالتزام الصمت. لا أستطيع أن أخبرك عن عدد الفتيات اللواتي وقعن ضحية ويليام ستانهوب، لكنني أعرف أنه لم تمرّ سنة واحدة من دون أن يلفت انتباهي حادث أو شكوى معينة. وعليّ أن أقول هنا إن بعض تلك الفتيات، وأكثر مما أعرف ربما، كنّ راغبات طوعاً في هذه العلاقات غير الشرعية، لا بل إن بعضهن بعن أنفسهن للمال. لكن هناك العديد من النساء اللواتي لم يرحبن بمبادراته، لكنهن استسلمن في النهاية نتيجة ضغطه المستمر واعتدائه الجسدي عليهن.

أدرك، فيما أكتب هذه السطور، أنني لا أملك دليلاً على ما أقوله، باستثناء سيدة راقية تعرف تفاصيل هذه الأحداث مثلي أنا تماماً، واسمها جيني كوتر، اسم قد تتذكره أنت والسيدة ساتر من السنوات التي أمضتها في عملها كرئيسة للخدم في ستانهوب هال. السيدة كوتر لا تزال على قيد الحياة فيما أكتب هذه السطور، وهي موجودة في دار عجزة هاربور فيو في غلين كوف. إنها تستطيع، وترغب، في أن تمنحك المزيد من التفاصيل إذا احتجت أو أردت المزيد مما كتبته هنا.

وأيضاً، سيد ساتر، رسالتي لك هي بمثابة اعتراف بقدر ما هي اعتذار على بقائي صامتة كل تلك السنوات. افهم أرجوك أن الهدف الوحيد من صمتي، باستثناء إصرار زوجي على ذلك، هو عدم رغبتي في تسبيب أي ألم أو إهانة للآنسة سوزان - التي أصبحت لاحقاً السيدة ساتر (وسيدة ستانهوب في هذا الخصوص). لكنني الآن على وشك القيام برحلتي الأخيرة، وأعرف أنه عليّ إراحة ضميري من ذلك، وأعرف في صميم قلبي أنك الشخص الوحيد الذي كان يجدر بي مصارحته بهذه المسألة قبل أعوام عدة. وكنت سأفعل لولا السيدة ساتر، لكن الأمر أصبح الآن بين يديك، ويمكنك أن تقرر أنت إذا ما كان يجب أن تعرف سوزان بهذه الأمور. أصلّي أن تقرأ هذه الرسالة، وأصلّي أن تواجه السيد ستانهوب بهذه الرسالة، وبشهادة السيدة كوتر كدليل على اعتداءاته على تلك الفتيات. أعرف أن الله سيسامحني على صمتي وسيسامحه الله إذا أجبر نفسه على مراجعة نفسه والاعتراف بخطاياه وطلب الرحمة من الله.

بكل إخلاص،
إيثيل ألارد

نظرت إلى الصفحات الأربع الموضوعة بين يديّ، ثم نظرت خارج النافذة إلى ويليام ستانهوب، الجالس بتململ في سيارته، منتظراً زوجته وابنته لإنهاء حديثهما.

فتحتُ دليل هاتف سوزان، وطلبت رقم الهاتف الخلوي الخاص بويليام.

رأيته يتناول هاتفه من جيب سترته، وينظر إلى الرقم ويجيب "نعم؟".

قلت له: "ويليام، هذا صهرك المستقبلي. تعال إلى هنا. أريد التحدث إليك".

الفصل التاسع والستون

قالت سوزان: "ما زلت لا أفهم. كيف أقنعته بتغيير رأيه".

أجبتها: "أستطيع أن أكون مقنعاً جداً".

إنها تسألني عن ذلك منذ أن غادر أهلها قبل ساعة، لكنها كانت سعيدة ومرتاحة لأن الأمور انتهت جيداً. قالت إن هذه أعجوبة، وهي ربما كذلك. شكراً لك إيثيل، واطلبي مني مشروباً آخر. على حسابي.

كنا نجلس في الظل على المصطبة، نحتفل باحتساء بعض شراب الشعير، وسألتني سوزان: "ماذا أحضّر لك على الغداء؟ أي شيء تريده".

"كنت أفكر في اللبن. لكن بيتزا بالببيروني لن تكون سيئة".

من دون تعليق، تناولت هاتفها الخلوي وطلبت رقم هاتف مركز المعلومات، حولها إلى مطعم محلي للبيتزا. عليها حفظ هذا الرقم.

بدت البروتوكولات في طلب البيتزا غامضة بالنسبة إلى سوزان ستانهوب - رقيقة أو سميكة؟ - لكنها كانت تحرز تقدماً جيداً. قالت لرجل البيتزا: "لحظة"، ثم قالت لي: "يريد أن يعرف إذا كنت تريد شيئاً آخر عليها؟".

"حسناً، ماذا عن النقانق وكرات اللحم؟".

أضافت ذلك إلى الطبقة العلوية، واستمعت إلى سؤال آخر عن البيتزا ثم سألتني: "هل تريدها مقطعة إلى ثماني قطع أو اثنتي عشرة قطعة؟".

تذكرت نكتة أخبرني إياها فرانك ذات مرة وأجبتها: "اثنتي عشرة. أنا جائع".

ابتسمت، ثم أعلمته برقم هاتفنا وعنواننا - ستانهوب هال، غرايس لاين، لاتينغتاون - لا، لا يوجد رقم للمنزل. ابحث فقط عن منزل الحراسة - ثم اتصلت بمنزل الحراسة للسماح بدخول رجل البيتزا.

جلست ووضعت قدمي العاريتين على الطاولة واحتسيت شراب الشعير.

عادت سوزان إلى موضوع استسلام ويليام لمفاوضاتنا، وقالت لي: "أعرف والدي، وأعرف أن هذه المفاوضات ستكون قاسية".

"أنا مفاوض جيد". خصوصاً حين أملك في يدي أدلة ضد الرجل الآخر، وأضغط عليها بقوة. أو هل يجدر بي فتلها؟

"جون... هل تظن أنه كان... غير صادق؟ أم أنه سينكث بعهده؟".

"لن يفعل مثل هذا الأمر".

"لكن... لا أفهم".

"سوزان، أعتقد أن والدك... حسناً، شهد ظهوراً ما. أعتقد أنه حين كان يجلس وحيداً في سيارته، أدرك أنه كان مخطئاً. أنا لم أصدق أيضاً حين رأيته من النافذة، يترجل من السيارة يرسم تلك النظرة الجذلة على وجهه، ومن ثم يدخل إلى مكتبي ويقول: "جون، أودّ التحدث إليك".

في الواقع، قال: "كيف تجرّأت على الإصرار على أن آتي إلى مكتبك؟".

حسناً، اعتذرت منه طبعاً - أو هل طلبت منه الجلوس، والصمت، وقراءة الرسالة؟ على أي حال، فيما قرأ الرسالة، تحول لونه من الوردي إلى الشاحب، وكان الأمر مثيراً لي لرؤية لون بشرة شخص ما يتغير بهذه السرعة. تمنيت لو أنني أملك كاميرا فيديو. ارتعشت أيضاً يداه. بعد ذلك، كانت المفاوضات سهلة نوعاً ما. انفجر غضباً بين الحين والآخر، وقال أشياء مثل: "لن يصدق أحد هذه الخرافات الصادرة عن امرأة عجوز تتناول الأدوية"، وما إلى ذلك. لذا، اقترحت عليه أن نعرض الرسالة على ابنته وزوجته والأخذ برأيهما، ومن ثم زيارة السيدة كوتر في دار العجزة لمعرفة إذا ما كانت تستطيع توضيح ذلك. جعله ذلك يخرس طبعاً، لكنه لفظ كلمة "ابتزاز".

أعرف أن هذا ابتزاز، وأنا محام، وهذا منافٍ لكل المبادئ والأعراف. لكن ما فعله ويليام - أو ما يقال إنه فعله - ليس فقط حقيراً، وإنما أيضاً جريمة، بالرغم من أن القوانين لم تعد تنطبق على جرمه الذي حصل قبل أعوام عدة. فإذا توجب عليه دفع ثمن هذه الجرائم، سيكون ذلك بطريقة أخرى. قد يكون لنقابة المحامين والمحاكم رأياً مغايراً في ذلك، لكن إيثيل تستطيع على الأقل الدفاع عني حين أقف في المحكمة النهائية.

قالت لي سوزان: "بدا... شاحباً. مرتعداً".

"حقاً؟ لم أنتبه".

"وبدت أمي مرتبكة لأنه تبدل بهذه الطريقة المفاجئة".

"حسناً، لم تشاركه تجربته تلك".

"جون...؟".

"نعم؟".

"هل... هددته بشيء ما؟".

"وبماذا أستطيع تهديده؟".

"لا أعرف... لكن...".

"هل نستطيع تغيير الموضوع؟ دور من الآن في إحضار شراب الشعير؟".

وقفت وذهبت إلى المطبخ.

أنهيت احتساء شراب الشعير وفكرتُ في رسالة إيثيل. لقد اعترفت لي وهي على فراش الموت، لكن حسب الأب هانينغس، تحدثت إيثيل معه أيضاً بشأن

محتويات هذه الرسالة - ونصحها الأب هانينغس بألا تعطيني هذه الرسالة، كما أنه فرض بعض الضغط على إليزابيت لتحجب عني الرسالة. لماذا؟ لحماية ذكرى إيثيل، مثلما قال؟ أم أنه أراد الاحتفاظ بالرسالة لنفسه، ومن ثم إعطائها لويليام مقابل... ماذا؟ تقاعد مريح؟

عادت سوزان مع شراب الشعير وقالت: "جون، أظن أنك متواضع كثيراً. أظن أن تبديل رأي والدي هو بسبب شيء قلته، وليس بسبب شيء آخر".

أجبتها بتواضع: "حسناً... فعلت ما بوسعي، وكنت مقنعاً، لكنني أعتقد فعلاً أنني تلقيت مساعدة من مصدر أعلى".

ذكرتني: "طلبت منك أن تعتقد بأن هذا قدرنا، وأن هناك مَن يحمينا".

"هكذا يبدو". ثم شربت جرعة من شراب الشعير.

انتقلت إلى موضوع آخر وسألتني: "هل تظن أنه يجدر بنا الزواج في دار عبادة القديس مرقص؟".

"ولمَ لا؟ يعطينا الأب هانينغس حسماً في المرة الثانية".

ضحكت، ثم ذكّرتني: "أنت لا تحبه، وأنا لا أظن أنه مولع بك".

"حقاً؟ حسناً، سأتحدث إليه وأسوّي المسألة". وأذكر له أنني قرأت رسالة إيثيل، وأسأله ربما إذا كان يعرف أي شيء عن محتوياتها - باستثناء السياق الإجمالي.

قالت سوزان: "سأحب ذلك. أودّ الزواج هناك مجدداً".

"لا مشكلة. وسأجعل حتى الأب هانينغس يتخلى عن فكرة المشورة قبل الزواج".

ابتسمت وقالت: "أظن أنك تعتدّ بنفسك بعد نجاحك مع والدي".

وافقتها الرأي: "الحظ حليفي". وفيما كنت أقولب عالماً يلائمني، أكدت لها: "لن يبارك والداك زواجنا فقط، وإنما سيدفعان أيضاً تكاليفه".

"كل ما أريده هو مباركتهما".

"أنا أريد إعطاءهما الفاتورة. ولا تنسي أن ترسلي بريداً إلكترونياً إليهما مع التشديد على تذكر التاريخ. يريدان أن يصلا أبكر للمساعدة في الترتيبات - ومناقشة مهرك".

تجاهلت اقتراحاتي، وسألتني: "جون، هل تقبل في المسامحة والنسيان؟ أقصد، بشأن والديّ".

فكرت في ذلك، وأجبتها: "ليس من طبيعتي الاحتفاظ بضغينة".

رأت سوزان أن هذا مضحك لسبب ما، واقترحت: "لا، إنه جوهر كيانك".

أجبتها جدياً: "تعرفينني جيداً. لا أستطيع أبداً أن أسامح أو أنسى ما فعلاه بنا خلال زواجنا، وفي الآونة الأخيرة، لكن...". قد أغالي في النصر، ولذلك تابعت:

"سأقول هذا: إذا كان والدك - ووالدتك أيضاً - يريدان العفو وإجراء الإصلاحات، أنا منفتح على ذلك، وأنا واثق من أن والدك سيسامحني لأنني ناديته أحمق من دون مبادئ وما إلى ذلك. لكن سؤالي لك هو: ما هو شعورك أنتِ حيالهما؟".

أخذت نفساً عميقاً، وأجابت: "أنا غاضبة. ولقد رأيت الجانب الكريه فيهما. لكنهما والداي، وأحبهما، وسأسامحهما. نريد ذلك من ولدينا".

"حسناً، نريد، لكننا لا نحتاج إلى مسامحتهما على أي شيء".

بقيت صامتة للحظات قليلة، ثم اعترفت: "أنا بلى. على ما فعلته. وقد سامحاني، من دون شروط. مثلك أنت".

أومأت برأسي وقلت: "الحياة قصيرة".

أستطيع ربما في النهاية مسامحة شارلوت وويليام على ما فعلاه بعائلة ساتر - فأفضل ثأر هو العيش جيداً. لكنني لن أسامح أبداً ويليام على ما فعله بتلك الفتيات الشابات، وسيبقى ذلك معي، ومعه، إلى يوم موتنا.

جلسنا في الظل على المصطبة ونظرنا إلى حديقة الورود المشمسة فيما احتسينا شراب الشعير البارد. إنه يوم جميل فعلاً، وكانت الطبيعة متفتحة، والهواء مشبعاً برائحة الورود والعسل. راقبتُ فراشة ملكية كبيرة تحاول أن تقرر أين تهبط.

قطعت سوزان تفكيري الصامت، وقالت: "علينا إرسال بريد إلكتروني إلى الولدين لإخبارهما بهذه الأخبار الجيدة، وإعطائهما بعض التفاصيل الجديدة في التواريخ، و... حسناً، ربما الإشارة إليهما أنهما قد يقرأان شيئاً ما يتعلق بنا في الصحف".

"يجدر بك إرسال بريد إلكتروني إلى كارولين حول الأخبار الجيدة. لقد أخبرتها قبلاً عن إمكانية ذكر أسمائنا في الأخبار السيئة".

أومأت سوزان برأسها وقالت: "أنا آسفة".

"الموضوع مغلق".

"حسناً. سأرسل إذاً بريداً إلكترونياً إلى إدوارد...".

"وسنخبره حتماً أن الجد بارك زواجنا وأعطاه حصته من الاعتمادات. لكن لا تتحدثي كثيراً عن ظهورنا المحتمل في الأخبار".

"حسناً، لكنك تعرف أنه سيناقش هذا الأمر هو وكارولين".

"جيد. وسنجيب عن الأسئلة بصراحة، لكن مع القليل من التحريف. اتصلي بوالديك وحددي لهما موعداً لزيارة إدوارد في لوس أنجلوس. عليهما التعرف إلى وريثهما بصورة أفضل".

ابتسمت، ثم قالت: "ليست هذه فكرة سيئة".

جلسنا مجدداً بصمت، نستمتع باللحظة معاً. لا يوجد الكثير من هذه الساعات المثالية، خصوصاً في يوم بدأ بهذا الشكل السيئ، مما جعل هذه اللحظة استثنائية

فعلاً.

...

لذا، لقتل الشك قبل أن يقتلنا، قلت لسوزان: "ما فعلناه كان بدافع الحب".

لم تجب، ولذلك تابعتُ القول: "لم أشك أبداً في حبك لي، وأعرف أن قلبك كان يتحطم".

لا جواب مجدداً، ولذلك ختمت بالقول: "وإذا توجب علينا القيام بذلك مجدداً، سنفعل الشيء نفسه".

جلست هناك لوقت طويل، ثم قالت: "لم ترغب حتى في أن تأخذ ماله. وأنا... أنا أشعر بالكثير من الفساد".

"لا. تذكري لماذا فعلنا ما فعلناه. لم يكن من أجلنا". كان لتحطيم ويليام وبيتر. وطبعاً، للتأكد من حصول إدوارد وكارولين على حصة كل منهما المستقبلية من ثروة العائلة.

"جون، قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إليك، لكنني لست واثقة من موقفي".

"لا تشكي في حوافزك. سبب والدك معضلة مستحيلة".

"أعرف... لكن، الله، شعرت أنني كنت أبيع نفسي وأخونك وأسلّم حبنا لـ...".

"سوزان، أنا لا أشعر بهذه الطريقة، ولا يجدر بك أنت".

"حسناً... أنت رجل محب جداً وحكيم جداً".

"أنا كذلك. تناولي المزيد من شراب الشعير".

ادّعت الابتسام، ثم قالت: "أتمنى ألا يحصل ذلك لنا مجدداً".

قلت لها: "إذا راجعنا ما حصل قبل عشر سنوات، لا يعتبر هذا شيئاً".

"أحبك".

"لهذا السبب أنا هنا. أين هو رجل البيتزا؟".

"لا أعرف. لم أطلب أبداً بيتزا في حياتي".

"حسناً، سنسوّي ذلك في السنوات العشرين المقبلة".

جلسنا وتحدثنا عن لندن، وباريس، مع رحلة إضافية ربما إلى وادي لوار، مثلما فعلنا قبل سنوات عدة.

رنّ الهاتف الخلوي الخاص بسوزان، وكان الاتصال من حارس منزل الحراسة يعلن عن وصول رجل البيتزا.

نهضت، وعبرت المنزل، وانتظرته خارج الباب الأمامي. لكنني حين وقفت هناك، أدركت أنه في مثل هذه اللحظات، حين لا نتوقع الأمر أبداً، يحتمل أن ينفجر عالمك فجأة - مثلما حصل مع سالفاتور داليسيو.

رأيت عربة مقفلة صغيرة تجتاز الممر. عدتُ مسرعاً إلى المنزل، وصعدت السلالم، وحملت البندقية الصغيرة، ثم نزلت إلى مكتبي ونظرت خارج النافذة. توقفت العربة المقفلة، وخرج منها رجل إسباني المظهر، وسحب علبة البيتزا من القسم الخلفي من العربة، ثم توجه نحو الباب الأمامي. لم أكن أظن أن رجل توصيل البيتزا يمكن أن يكون قاتلاً، لكن مجرد وقوفي خارجاً، من دون شخص آخر بجانبي، ووجود عقارات الحمرا على مسافة خمسمئة ياردة فقط عبر الأشجار، جعلاني أشعر بالخوف لبرهة. حسناً، كان هذا جيداً. كان العم سال يضع الكانولي في فمه، أو يفعل شيئاً آخر غير مراقبة الباب، والشيء التالي الذي عرفه هو أنه كان ينظر إلى بندقية موجهة إليه. ثم، بوم، وأصبح في الجحيم.

رنّ جرس الباب، وذهبتُ إلى الباب الأمامي. وضعت البندقية الصغيرة في حاملة المظلات وفتحت الباب.

نظرت وراء رجل البيتزا فيما كنا نتبادل علبة البيتزا والمال، مع بقشيش جيد، ثم أقفلت الباب.

أستطيع حمل علبة البيتزا على إصبع واحد، لكنني استخدمت يدي كلها، ونقلت العلبة مع البندقية إلى المصطبة.

لاحظت سوزان البندقية وسألت: "هل نحتاج فعلاً إلى هذه هنا؟".

"أتمنى ألا نفعل".

فتحت العلبة الموضوعة على الطاولة وانسابت الرائحة إلى أنفي وأشبعت روحي.

جلست خارجاً، ودخلت سوزان إلى المنزل ثم عادت تحمل أطباقاً ومحارمَ وسكاكينَ وشوكاً. شرحتُ لها أن المحارم اختيارية، فيما بقية الأغراض غير ضرورية.

أعرف أن الليدي ستانهوب تناولت قبلاً البيتزا - رأيتها - لكنها تحب دائماً تناول الطعام ببعض التكلف، وربما القليل من الازدراء.

علمتها كيف نطوي الطرف الخلفي لقطعة البيتزا، ثم نقضمها، ثم نطوي الشريحة كلها لتثبيتها. قلت لها: "هذه مبادئ أساسية".

جلسنا هناك نحتسي شراب الشعير، ونتناول البيتزا، ونحتمي بالبندقية، كان غداءً لذيذاً.

اعترفت سوزان: "طعمها لذيذ فعلاً".

"وهي مفيدة لك".

"لا أظن ذلك، لكننا نستطيع تناولها بين الحين والآخر".

قلت لها: "نستطيع شراء كل ما في مطعم البيتزا".

ضحكت، ثم قالت: "حسناَ، جون، لقد أنقذت عمرنا اليوم، وأظن أنك تدين لي بشيء ما". سألتني: "غير اليخت، والطعام غير الصحي، ماذا تريد؟".

"فقط أنت حبيبتي".

"أنت تملكني أصلاً".

"وهذا كل ما أريده".

"ماذا عن سيارة رياضية؟".

"لا بأس".

تناولتُ نصف البيتزا - ست شرائح - وتناولت سوزان قطعة ثانية، ثم وضبنا الباقي لفطوري.

ذهبنا من ثم إلى غرفة النوم لحرق البيتزا - نوع من الاحتفال بالنصر - ووضبنا الأغراض المتعلقة برحلتنا. لديّ مجموعة كاملة من الثياب في لندن، ولذلك وضعت القليل من الثياب في حقيبتي، ورأت سوزان أن هذه فرصة لكي توضب المزيد من ثيابها في حقيبتي. قالت: "لديّ بعض الأشياء الجميلة في الطابق السفلي التي لم تسنح لي بعد فرصة إخراجها من علبها".

حسناً، قد نغيب لأكثر من ثلاثة أسابيع، ولذلك لم أعارض.

بعد أن وضبنا حقائبنا، أخذنا قيلولة، ثم قرابة الخامسة عصراً نهضتُ، وقلتُ لسوزان: "سأذهب إلى لوكوست فالي لإحضار بعض الأشياء. هل تودين مرافقتي؟".

"لا. هناك الكثير من الأمور الواجب إنجازها هنا، لكنني سأعطيك لائحة بما أحتاج إليه".

ارتديتُ ثيابي وقلت لها: "اتركي الأبواب مغلقة، ولا تخرجي أبداً".

لم تجبني.

نصحتها أيضاً: "دعي البندقية الصغيرة أو الكبيرة قربك. سأضع البندقية الصغيرة في حاملة المظلات قرب الباب الأمامي".

"جون...".

"سوزان، نملك تقريباً"- نظرتُ إلى ساعتي – "أقل من خمس عشرة ساعة قبل أن نهرب. فلنحافظ على أمننا".

هزّت كتفها، ثم سألتني: "في أي وقت تريد أن تأتي السيارة لاصطحابنا في رحلة السابعة والنصف صباحاً؟".

علينا أن نغادر إلى المطار قرابة الخامسة فجراً، في الظلام، ولذلك أجبتها: "سأقود سيارتي المستأجرة، بحيث آخذ البندقية الصغيرة معنا، ونركن السيارة في المرأب المخصص لركن السيارات إلى فترات طويلة".

“من الأفضل أخذ سيارة أجرة، ونتفادى هذه الجلبة”.

“وأنا أيضاً. لكن علينا أخذ هذا التدبير الاحتياطي الأخير”.

لم تبدُ سعيدة من ذلك، وقالت: “جون، نحن ذاهبان في عطلة، ولسنا ذاهبين إلى معركة”.

“لا تناقشيني، وإلا أتصل بوالدك وأطلب منه تغيير رأيه”.

ابتسمت وقالت: “ستصبح شخصاً لا يطاق”.

“نعم”.

قبّلتها، وقالت لي: “لا تتأخر كثيراً. هل تريد أن تحمل معك هاتفي الخلوي؟”.

“نعم”. أعطتني هاتفها الخلوي، وودعتها، وأخذت البندقية الصغيرة ونزلت إلى الأسفل. وضعت البندقية في حاملة المظلات، ثم خرجت عبر الباب الأمامي وأقفلته.

أحمل معي مفاتيح السيارتين، وقررتُ أخذ سيارة التوروس لأنه يسهل ركنها في وسط المدينة.

ركبت في السيارة وانطلقت عبر الممر. حين وصلت إلى منزل الحراسة، استعملت آلة التحكم عن بعد، وفتحت البوابات إلى الداخل. خطرت في بالي فكرة، ضغطت على الزمور، ثم ترجلت من السيارة.

فُتح باب منزل الحراسة، وخرج منه حارس شاب لا أعرفه.

قلت له: “أنا السيد ساتر، وأعيش في منزل الضيوف”.

“نعم سيدي”.

“هل أنت وحيد”.

“نعم حتى الساعة الثامنة مساء، ثم يأتي رجل آخر للمناوبة”.

“جيد... حسناً، ما أريده منك هو أن تذهب بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة إلى منزل الضيوف، وتتجوّل حوله للتأكد من أن كل شيء على ما يرام”.

“حسناً... ولكن لا يفترض بي ترك عملي”.

“هذا جزء من عملك الليلة”. أعطيته عشرين دولاراً، وقلت له: “السيدة ساتر في المنزل، ولا نتوقع زواراً، لذا لا تسمح لأحد بالدخول إلا إذا اتصل بنا وحصل على إذننا. سأعود خلال نصف ساعة”. في الواقع، قد أغيب ساعة كاملة، لكن لا حاجة لأن يعرف ذلك.

بدا سعيداً بالبقشيش، وقال: “لا مشكلة”، مهما كان يقصد بذلك.

ركبت في السيارة وقدتها نحو لوكوست فالي.

عدا عن لائحة أغراض سوزان الموجودة في جيبي، هناك رسالة إيثيل التي أريد نسخها. في الواقع، سأطبع عشرين نسخة، وأرسل واحدة إلى ويليام كل شهر، وفي يوم الأب، وذكرى الميلاد، وذكرى ميلاده.

حين وصلت إلى آخر البلدة، اتصلتُ بسوزان، وأجابت. قلت لها: "زحمة السير خانقة، وسيصعب عليّ ركن السيارة. لذا، لا أعرف كم سيستغرق ذلك".

"خذ وقتك".

"هل تريدين بصلاً؟".

"لا بصل، حبيبي".

"حسناً. طلبتُ من الحارس عند البوابة أن يتحقق من المنزل بعد خمس عشرة دقيقة. ذكّرتها بأن البندقية في حاملة المظلات في حال أردت النزول إلى الأسفل. اتركي البندقية الكبيرة في غرفة النوم. سأتصل بك لاحقاً".

كانت شوارع البلدة مزدحمة بالسيارات التي تبحث عن مكان للركن. ألقيت نظرة على الساعة المثبتة في لوحة القيادة. إنها الخامسة وتسع وثلاثون دقيقة. حسناً، يفترض بي أن أعود خلال ساعة إذا كنت محظوظاً.

ماذا يمكن أن يحصل خلال ساعة؟

الفصل السبعون

اشتريتُ كل ما هو مدوّن على لائحة التسوق لرحلتنا، وصورت عشر نسخ عن رسالة إيثيل في متجر محلي في حال احتاج ويليام إلى تذكيره شهرياً بسبب تفاوضنا على اتفاق مالي عائلي. ثم بدأت رحلة العودة إلى ستانهوب هال التي تستغرق خمس عشرة دقيقة. إنها الساعة السادسة وثلاث وعشرون دقيقة الآن كما هو واضح في لوحة القيادة.

استخدمت الهاتف الخلوي الخاص بسوزان للاتصال بالمنزل، لكنها لم تجب، ولذلك تركت رسالة. "سأكون في المنزل بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة. اتصلي بي حين تتلقين هذه الرسالة".

إنها ربما في الحمام، أو بالرغم من نصيحتي لها بالبقاء في الداخل، تجلس ربما على المصطبة من دون أن تحمل معها هاتفها المنزلي المحمول. ثمة احتمال آخر وهو أنها في الطابق السفلي، تبحث عن ملابس لتوضيبها، ولا يوجد هاتف في الأسفل.

حين أصبحت على مسافة دقائق قليلة من غرايس لاين، اتصلتُ بمنزل الحراسة لأطلب منهم فتح البوابات، لكن أحداً لم يجب. يتكلم الحارس ربما على الخط الآخر، أو أنه في الخارج، أو في الحمام.

استدرت نحو غرايس لاين، وضغطت على دواسة السرعة. بعد ثلاث دقائق، أصبحت أمام البوابات، واستخدمت جهاز التحكم عن بعد لفتحها.

عبرت البوابات، وألقيت نظرة على منزل الحراسة فيما مررت أمامه. لم يخرج أحد من الباب، وتابعت على نحو أسرع من المعتاد عبور الممر المرصوف بالحصى المؤدي إلى منزل الضيوف. لم أكن قلقاً، ولكنني لم أكن أيضاً مرتاح البال تماماً.

لاحظتُ أن سيارة اللكزس الخاصة بسوزان غير موجودة، وتنفست الصعداء. في الوقت نفسه، غضبتُ منها لأنها لم تتصل بي لإبلاغي عن خروجها، وغضبت منها أيضاً لأنها خرجت أساساً، من دون أن تحمل معها هاتفها الخلوي. المرأة لا تسمع الكلام.

ركنت سيارة التوروس، وأخرجت أكياس التسوق، وفتحت الباب الأمامي، ودخلت إلى المنزل.

أدركت حينها أن هذا غير منطقي. تخيلتها وهي تركب في سيارتها للقيام بجولة، لكنني لم أتخيل أنه لم يخطر في بالها الاتصال بي. أخرجتُ هاتفها الخلوي من جيبي لأرى إذا كانت قد اتصلت بي قبلاً، لكن لا يوجد شيء على شاشة العرض باستثناء الإشارة إلى الساعة السادسة واثنين وأربعين دقيقة.

ألقيت نظرة على حاملة المظلات ولاحظت أن البندقية الصغيرة غير موجودة.

شممتُ من ثم رائحة دخان سيجارة.

تجمّدت في مكاني، وبدأ قلبي يخفق بسرعة. أوقعت أكياس التسوق أرضاً، ثم تراجعتُ خطوة إلى الوراء نحو الباب الرئيسي، وبدأت أطلب الرقم 911 عبر الهاتف الخلوي.

خرج أنطوني بيلاروزا من مكتبي وقال: "اترك هذا الهاتف اللعين".

حدقت إليه. كان يرتدي البذلة زرقاء اللون الخاصة برجال شركة الأمن الموثوقة، ويحمل بندقيتي الصغيرة بين يديه يوجهها صوبي.

"اترك ذلك الهاتف اللعين وإلا ستموت".

لم أصدق أنه يقف هناك. قال مانوسكو إنه خارج المدينة، وقال مانوسكو أيضاً إن أنطوني لن يفعل ذلك بنفسه. وصدقتُ ذلك... لكنني صدقتُ أيضاً أن الأمر شخصي، وأن أنطوني يملك أكثر من الجريمة في عقله.

"اترك ذلك الهاتف اللعين".

أطلق النار.

سمعتُ صوت الرصاصة تمرّ قرب أذني اليسرى وتستقرّ في باب السنديان السميك خلفي.

قال لي: "لو أردتُ قتلك، لكنت ميتاً الآن. مثل عمي. لكن لا تدفعني إلى قتلك". وجه البندقية نحو صدري وقال: "اتركه".

تركت الهاتف.

ثبّت البندقية في ذراعه اليمنى، وقال: "نعم، رصاصات جيدة، ولكن لا توجد طرائد كثيرة اليوم، جون".

"أين سوزان؟".

"إنها بخير. تركتها حتى تعود إلى المنزل".

"أنطوني...".

"اخرس. هل تحمل سلاحاً؟".

هززتُ رأسي.

"انزع سترتك".

نزعتُ سترتي وقال: "ضعها أرضاً".

وضعتها أرضاً، وقال: "حسناً، اخلع كل ثيابك لنرى علامَ سنحصل".

لم أتحرك، وقال: "اخلع ثيابك اللعينة، وإلا أقسم أن أفجر ركبتيك".

"أين سوزان؟".

ابتسم وقال: "إنها...، مثلما ستكون أنت. مثلما سنصبح جميعاً. هيا".

مجدداً لم أتحرك. كان أنطوني على مسافة خمس عشرة قدماً تقريباً مني، ولا أستطيع تغطية هذه المسافة قبل أن يطلق النار.

وجه البندقية نحو ساقيّ، ثم أطلق طلقتين. لم أشعر بأي شيء، ثم أدركت أنه وجه الطلقتين نحو أحد أكياس التسوق، ورشحت السوائل على الأرض.

"كان هذا إنذارك الأخير. اخلع ثيابك الآن. ببطء".

خلعت ثيابي، ووضعتها على الأرض.

"استدر".

استدرت.

"حسناً، أيها الشاطر. لا أسلحة، لا أسلاك. أنت حقير تماماً. استدر".

استدرتُ لأواجهه. كان قلبي يخفق، وبدأ فمي يجف. حاولت التفكير. ماذا يريد؟ لماذا لم أمت؟ هل سوزان بخير؟ حسناً، أعرف الأجوبة عن كل ذلك.

كان يحمل مسدساً في قرابه، وأخرج زوجاً من الأغلال اليدوية من حزامه، وفتحها وقال: "خذ"، ثم رماها لي، لكنني تركتها ترتطم بصدري وتقع على الأرض.

"ضع الأغلال اليدوية أيها الأحمق وإلا سأفجر ساقيك تحتك". وجّه البندقية نحو ساقيّ مجدداً. "هيا، جون. لا أملك الليل كله. هل تريد رؤية سوزان؟ ضع الأغلال، وسنذهب لرؤية سوزان. أريدك أن تراها".

انحنيت وأمسكت بالأغلال اليدوية. كان بوسعي ربما الوثب من هذه الوضعية والوصول إليه، لكنه عرف ذلك، ولذلك تراجع خطوة إلى الخلف فيما وضع البندقية على كتفه ووجهها نحوي. "الآن!".

أمسكتُ بالأغلال ووضعتها بطريقة رخوة في يديّ.

"حسناً، ستصعد إلى الأعلى على يديك وركبتيك. انخفض".

ركعت على الأرض، وبدأت أزحف في اتجاه الدرج. تحرك أنطوني خلفي واستطعت سماع صوت الباب الأمامي وهو يغلق.

صعدت الدرج أدبدب على يديّ وركبتيّ، وحافظ أنطوني على مسافة مني ولحق بي، ثم قال: "أوجه البندقية نحوك، وإصبعي يضغط على الزناد".

درست خياراتي، لكن ما من شيء لدرسه. أردت فقط أن أرى سوزان على قيد الحياة - ثم أفكر في ما يجب فعله.

قال لي أنطوني أيضاً: "أخذ طوني سيارة اللكزس الخاصة بزوجتك. أتمنى ألا تمانع. لذا، أنت تقول لنفسك: كيف وصل هذا المجرم الأحمق إليّ؟ صح؟ هل هذا ما تفكر فيه أيها الذكي؟".

خطرت هذه الفكرة في بالي، وغضبتُ من نفسي لأنني كنت غبياَ جداَ. لكن المهاجم يملك دائماً الأفضلية. يوافق عمه المرحوم على ذلك.

"أنت وزوجتك ذكيان جداً. أو ربما أنت وزوجتك الغبية ظننتما أنني لن ألاحقكما وستتمكنان من الهرب".

وصلت إلى أعلى السلالم، وقال لي: "ابقَ على يديك وركبتيك وتحرك نحو غرفة نومك".

تجاوزني أنطوني بسرعة، وأبقى البندقية موجهة نحوي فيما تقدم نحو باب غرفة النوم. توقف وراقبني فيما زحفت في الممر نحوه.

قال لي: "نعم، تلقت زوجتك الغبية اتصالاً من منزل الحراسة، لكن طوني كان هو المتصل وقال: لديّ طرد لك سيدة ساتر. سأحضره لك بعدما أتحقق من محيط المنزل، مثلما طلب مني زوجك. لذا، انتبه جون إلى من تتكلم. رجل الأمن الذي تكلمت إليه يعمل لصالحي ربما، أليس كذلك؟ هاي، قل شيئاً".

"اللعنة عليك".

"ليس هذا ذكياً جداً. لا أصدق أنني كنت سأوظفك. انظر إلى نفسك - تزحف على يديك وركبتيك، مع أغلال في يديك، وأنت تزحف مثلما أطلب منك أنا أن تفعل. لستَ إذاً رجلاً ذكياً جداً. ولست أنا غبياً مثلما كنت تظن - حسناً، توقف هنا".

توقفتُ على مسافة عشر أقدام تقريباً من باب غرفة النوم.

تابع القول: "نعم، هكذا ضغط طوني على الجرس، ونظرت هي عبر العين السحرية ورأت رجلاً يرتدي بذلة رجال الأمن ففتحت الباب. ما رأيك في هذا؟ كان يجدر بك التواجد هنا، جون، حين دفعها طوني داخل المنزل، ودخلتُ أنا خلفه. وقفت تحدق إلي وعرفت فوراً من أكون. ثم تذكرت طوني حين كانت تقيم علاقة مع والدي. وقلت لها: لقد قتلتِ والدي أيتها الساقطة. وظننتُ أنها ستبوّل في سروالها. حاولت حينها الوصول إلى البندقية الموضوعة في حاملة المظلات لكنني ضربتها".

"أنت رجل حقيقي".

"اخرس أيها الحقير. تضع إذاً البندقية قرب الباب. هل تتوقع المشاكل؟". ضحك. "هل تعرف تلك الساقطة الغنية كيف تستخدم سلاحاً؟". أدرك حينها أن سؤاله هذا كان سؤالاً غبياً وقال: "هذه الساقطة قتلت والدي من دون سبب...".

"أخبرتك السبب".

"أنت أحمق كاذب، لكنني سأحصل على الحقيقة منك ومنها الليلة". فتح الباب ودخل إلى الغرفة وقال: "تعال وانظر إلى زوجتك".

هممت في الوقوف، لكنه صرخ: "على يديك وركبتيك أيها الأحمق!".

زحفت عبر باب غرفة النوم.

"على ركبتيك".

ركعتُ على ركبتيّ.

كانت سوزان مستلقية على السرير...، واحتجتُ إلى برهة لأدرك أن معصميها وكاحليها مربوطة بأعمدة السرير. لاحظتُ من ثم شريطاً أبيض اللون كمّم فمها.

التفتت نحوي، ورأيت الخوف في عينيها. لكنها على قيد الحياة.

أغلق أنطوني الباب خلفي، وقال: "ها هي جون. أردتَ أن تراها، ويمكننا الآن أنا وأنت رؤيتها بشكل جيد. وأرى أنها صهباء حقيقية".

بقيتُ أحدق إلى سوزان، التي كانت تنظر إليّ والدموع تنهمر على وجنتيها.

وقفتُ وتقدمتُ خطوة نحوها، ثم شعرت بضربة في وسط ظهري ووقعتُ على الأرض. استلقيت هناك، وأنا أقل ذهولاً مما تظاهرت، لكنني حاولتُ الحكم على المسافة التي تفصله عني.

قال: "انهض".

لاحظتُ أنه ابتعد عني، فبقيتُ من دون حراك، على أمل أن يقترب مني كفاية لضربي مجدداً بكعب البندقية.

لكنه بدلاً من ذلك أطلق النار على الأرض قرب وجهي، مما جعلني أقفز. صرخ: "انهض وإلا تكون الطلقة التالية في جسدك!".

رفعتُ نفسي مجدداً على ركبتيّ، وأخذت نفساً عميقاً، ونظرت إلى سوزان. كانت تشدّ على قيودها، ولاحظتُ أنها حبال من النايلون، وكانت تبكي وتحاول الصراخ. رأيتُ أيضاً أن هناك علامات حمراء على وجهها، حيث ضربها على ما يبدو، ورأيت حزاماً جلدياً - أحد أحزمتي - موضوعاً على السرير.

قال أنطوني: "سأغتصب زوجتك، وستجلس أنت في الصف الأمامي".

"أنت حقير مقرف".

"لا. أنا رجل لطيف. أخبرتك أن النساء والأولاد يحصلون على عفو. لذا، لن أقتلها، لكن حين أنتهي منها، ستتمنيان أنتَ وهي لو أنكما كنتما ميتين".

لم أقل شيئاً، لكنني عرفتُ أنه عليّ القيام بخطوة، حتى لو كانت خطوة سيئة. أين هي البندقية الكبيرة؟ لم تكن حيث تركتها قرب منضدة النوم. إنها ربما في الخزانة.

تحرك أنطوني إلى الطرف الآخر من السرير، ووضع فوهة البندقية الصغيرة على رأس سوزان، وقال لي: "ازحف إلى ذلك المشعاع. هيا أيها الأحمق. تحرك".

عرفت أنه إذا ذهبتُ إلى المشعاع، سيتم تكبيلي بالأنابيب وسينهي ذلك أي فرصة لي بالتحرك.

تناول أنطوني الحزام الجلدي عن السرير، وتراجع إلى الخلف، وربطه بقوة حول فخذيّ سوزان. تقوّس جسمها، واستطعتُ سماع صراخها عبر الشريط.

تناول الحزام مجدداً، وصرختُ: "لا!". تحركتُ على يديّ وركبتيّ نحو المشعاع تحت النافذة. نظرتُ حول الغرفة فيما زحفتُ إلى المشعاع ورأيت فستان سوزان على الأرض، ورأيت أيضاً الحقيبتين مفرغتين من محتوياتهما والثياب مبعثرة حول السجادة. أين هي البندقية؟

"اركع قرب الأنبوب، ودر ظهرك إلى الحائط. أريدك أن تحصل على رؤية جيدة".

ركعتُ قرب المشعاع. أخرج زوجاً آخر من الأغلال اليدوية من حزامه، ورماها لي فأصابتني في وجهي.

"كبّل نفسك بالمشعاع".

ترددتُ، فقال: "أنت تثير غضبي جون. لا أريد قتلك. أريدك أن تشاهد. لا تغضبني ولا تغضب نفسك".

كبّلت معصمي الأيسر بأنبوب المشعاع وركعت، أحدّق إليه.

قال: "حسناً، فليبدأ المرح".

مشى إلى أسفل السرير ونظر إلى سوزان. "حسناً، أفهم الآن لماذا أحب أبي إقامة علاقة معك...".

يملك أنطوني خيالاً حميمياً كبيراً، وعرفتُ رأيه في ذلك. وأملتُ أيضاً ألا ينوي فعلاً ارتكاب جريمة مزدوجة.

أشعل سيجارة وقال لي: "كنتما ذاهبين إلى لندن. ما الأمر؟ ألا تحبان المكان هنا؟ هل من شيء يخيفكما؟".

أخذ نفساً عميقاً من دخان سيجارته وقال: "سأبلغك فقط بما تتطلع إليه جون؛ ستشاهدها وهي تقيم علاقة معي. سأؤدي عملي بقوة كبيرة بحيث لن تبقى صالحة لك بعد الآن".

حين لم أجبه، قال: "والأفضل لك أن تراقب أيها الأحمق. وحين ينتهي كل ذلك، ستغلقان أنتما الاثنان فمكما، وستشكران الله لأنكما ما زلتما على قيد الحياة. لكن إذا ذهبتما إلى الشرطة، أقسم على قبر أبي أنني سأقتلها وسأقتل ولديك. لا عفو عليهما إذا ذهبت إلى الشرطة. هل تفهم؟".

أومأت برأسي.

"حسناً. أنت تفهم القواعد. يجب ألاّ يموت أحد. ستعيشان مع ذكريات هذه اللحظات كلما أردت الاقتراب من زوجتك، ستفكران أنتما الاثنان فيّ. صح؟".

أومأت برأسي مجدداً.

“جيد. وأنت لا تهتم على أي حال. فقد سبقني أبي، وسأسير على خطاه، وربما سنطلب من طوني الأمر عينه لاحقاً. صح؟”. نظر إليّ وقال: “لا أسمع الكثير من الأصوات الصادرة من فمك الآن، أيها المستشار”.

نزع الشريط عن فم سوزان. “ماذا تريدين أن تقولي أيتها الساقطة؟”.

أخذت نفساً عميقاً متقطعاً بين بكائها وقالت: “أرجوك. افعل فقط ما تريده ثم اتركنا بمفردنا”.

ضحك. “نعم. سأفعل ما أريده على الفور”.

رمى سيجارته على السجادة، وسحقها بكعبه. سألني: “لماذا مزقت لوحتي، جون؟”.

لم أجبه، فقال لسوزان: “كنت أحب تلك اللوحة، وأفسدها زوجك. لذا، سترسمين لي لوحة أخرى. وحين تنتهين، ستأتيان أنتِ وجون إلى المنزل لتقديمها إليّ وإلى ميغان. صح؟”.

أومأت سوزان برأسها. “حسناً”.

ابتسم، ثم نظر إليّ. “موافق، جون؟ ستأتيان أنتَ وزوجتك لارتشاف القهوة. مثل الأيام القديمة. وتجلس هناك، مثلما فعلت قبل عشر سنوات حين كنت تعرف أن والدي يفعل هذا الأمر مع زوجتك، لكن هذه المرة أنا من يفعل الأمر. ولن تقول شيئاً عن ذلك”.

أومأت برأسي. فكرتُ أنه إذا خرجنا من هذه الحادثة على قيد الحياة، وإذا كنت قريباً كفاية من أنطوني بيلاروزا لارتشاف القهوة بصحبته، سأكون قريباً كفاية لغرز السكين في قلبه.

قال: “وستكونان لطيفين مع زوجتي، وتحضران معكما قنينة شراب فرنسي وتقولان هذا منزل جميل جداً، سيدة بيلاروزا. وشكراً على دعوتنا سيدة بيلاروزا.

هذا خيال الانتقام عند أنطوني، وقد فكّر فيه جلياً لوقت طويل، وسيعبّر عنه علناً لإذلالنا، وفعل كل ما في وسعه للتأكد من أن ذكريات هذا اليوم سترافقنا لوقت يتعدى خروجه من الباب.

ثم فكرتُ في اللوحة في مكتبه - اغتصاب نساء قبيلة سابين. وفهمتُ الآن - أو لطالما فهمت - سبب وجودها هناك، وسبب وجود لوحة سوزان أيضاً في مكتبه.

أدركتُ أيضاً أن هذا الحقير كان واثقاً من نفسه بحيث ظن أنه يستطيع اغتصاب سوزان الآن والسخرية بنا في كل مرة يرانا فيها. ولم أشأ أن أجعله يفكّر في طريقة مختلفة. قلت: “لا تؤلمها”.

ابتسم لي، وقال: “سأجعلها تشعر بالرضى. مثلما فعل والدي”.

قالت له سوزان: “أرجوك. انهِ الأمر وغادر. لن نقول أي شيء”.

"احرصي على ألا تقولي أي شيء".

رأيت أنطوني ينظر إلى ساعته، وتساءلت إذا كان على موعد، أو أنه ينتظر عودة طوني.

أشعل سيجارة أخرى، وقال لي: "حين أنتهي، سأتصل بطوني، وحين يصل إلى هنا، يستطيع اللهو قليلاً".

لم أجبه.

"نعم. ستكون ليلة طويلة جداً. لكنها أفضل من الموت". نظر إلى سوزان، وقال: "حسناً، حبيبتي. انتظرتِ طويلاً كفاية. هل أنت متحمسة؟".

لم تجب سوزان.

"هيا، قولي لي إنك متحمسة".

"أنا متحمسة".

ضحك، ثم ذهب إلى مكتب سوزان، وتناول الكاميرا التي وضعتها هناك لتوضيبها.

سحق سيجارته على المكتب، ثم تفحص الكاميرا. التقط ثلاث صور لسوزان وهي على السرير، ومن ثم صورة لي. رمى بعدها الكاميرا على السرير، وقال: "حسناً، سنستخدم هذه الكاميرا الليلة حين يصل طوني إلى هنا. هاي، لن تمانع إذا احتفظتُ بالفيلم؟ سأرسل لك نسخاً منه". نظر إليّ وقال: "إذا عشت. ويعتمد ذلك على مدى تجاوبها معي. وأريدكما معاً على تلك الطائرة غداً. مفهوم؟ أريدكما بعيداً عن هنا. أنتما بحاجة إلى إجازة لطيفة بعد الليلة". فكّ حزام مسدسه مجدداً ورماه على المكتب. خلع حذاءه، ورماه على الأرض.

فيما مشى نحو السرير قال لسوزان: "كيف يبدو لك هذا، حبيبتي؟ هل تظنين أنك قادرة على كل ذلك؟".

أومأت برأسها.

لاحظتُ أنه يحمل سكيناً صغيرة في يده. فتح السكين وقطع حبل النايلون حول المعصم الأيسر من يد سوزان ثم تحرك حول السرير وقطع الحبال الثلاثة الأخرى.

"حسناً، أيتها الساقطة، انهضي عن السرير". أمسك بشعرها، وشدّها عن السرير، ثم طرحها على الأرض. "تركعين هنا ليتمكن زوجك من رؤيتك".

ركعت سوزان قرب السرير، وتبادلنا النظرات. أومأت برأسي وقلت لها: "لا بأس".

ابتسم لي وقال: "حقاً؟ لا بأس؟ جيد. لا بأس عندي أيضاً".

وضع السكين تحت ذقنها وقال لها: "لا تحاولي القيام بأي شيء وإلا قتلتكما معاً. مفهوم؟".

أومأت برأسها.

"حسناً...". تقدم خطوة نحوها، وقال: "من الأفضل أن تشاهد ذلك وإلا سأجلدها بهذا الحزام".

أومأت برأسي.

... فجأة، أطلق صرخة وأفلت السكين، وقفز إلى الخلف.

وقعت سوزان على وجهها أولاً، واختبأت تحت السرير. كان أنطوني يتلوى من الألم، ثم سقط على الأرض، وأقحم رأسه تحت السرير، وأمسك بها.

صرختُ به: "أنطوني، أيها الحقير! أيها الخسيس!". أمسكتُ بالمشعاع ورججته بقوة، في محاولة لفكّ الرابط بين المشعاع والأنبوب، لكن لا جدوى. اللعنة. "أنطوني!".

فيما نظرتُ إلى الأعلى، كان يقف ويتحرك بسرعة إلى الطرف الآخر من السرير ويصرخ: "أيتها الساقطة اللعينة. أنتِ ميتة، أيتها الساقطة اللعينة".

رأيتُ رأس سوزان وكتفيها فوق السرير، ثم تقدّم أنطوني نحوها فوقفت ورفعت البندقية ببطء إلى كتفها. كان يبعد عنها مسافة أقل من ثلاث أقدام حين تجمد في أرضه وقال: "ما...؟".

سمعت صوتاً مدوياً ورأيت الكتف اليمنى لسوزان ترتدّ إلى الخلف.

ارتدّ جسم أنطوني إلى الخلف، ثم ضاع توازنه وسقط أرضاً.

رأيت سوزان تنتقل إلى الأسطوانة الثانية فيما تقدمت خطوة نحوه. رفعت البندقية إلى كتفها مجدداً ووجهت الأسطوانتين إلى وجهه.

"سوزان!".

نظرت إليّ.

"لا. لا تفعلي".

نظرت مجدداً إلى أنطوني، الذي لاحظتُ أنه لا يزال يتحرك، ورفع ذراعه اليمنى في إيماءة وقائية.

"سوزان، اعثري على مفاتيح هذه الأغلال. بسرعة!".

نظرت مجدداً إلى أنطوني، ثم رمت البندقية على السرير، وعثرت على المفاتيح في جيب سروال أنطوني.

ركعت قربي، وبصمت فكّت الأغلال. وقفت بسرعة وتوجهتُ إلى الباب وأقفلته. نظرتُ إلى أنطوني مجدداً، الذي كان لا يزال على قيد الحياة، ويداه فوق صدره، وجسمه يتأرجح من جانب إلى آخر.

أخذتُ سوزان بين ذراعيّ. كانت ترتجف، وقلت لها: "اجلسي هنا...". دفعتها نحو كرسي وأجلستها. "هل أنت على ما يرام؟".

أومأت برأسها، وحدّقت إلى أنطوني.

مشيت على الأرض في اتجاه أنطوني وحدقت إليه. التقت نظراتنا. ثم التفتُّ إلى حيث كان يضع يديه فوق الجرح في الجهة اليمنى من صدره، ورأيت الدم ينزف من بين أصابعه. توقعت أن أجد صدره مثقوباً برصاصة ضخمة؛ لكن سوزان استخدمت الأسطوانة المشتملة على رصاص الأيل. نظرتُ إلى الحائط خلف المكان الذي كان يقف فيه ورأيت ثقب الرصاصة في ورق الجدران أزرق اللون الباهب.

نظرت مجدداً إلى أنطوني والتقت نظراتنا. فقلت له: "أنت سببتَ ذلك لنفسك".

تحركت شفتاه وخرج صوت خفيف من فمه. سمعته يهمس "اللعنة عليك".

"لا. اللعنة عليك".

لاحظتُ الآن أن الدم النازف من بين أصابعه أصبح ممزوجاً برغوة حمراء، مما يعني أنه جرح في الرئة. ليس هذا جيداً، لكنه قد يبقى على قيد الحياة... إذا ذهب إلى مستشفى. لاحظتُ أيضاً أن هناك دماً مكان العضة، وهذه أقل مشكلاته.

عدتُ إلى سوزان، التي كانت لا تزال جالسة تحدق إلى أنطوني. "هل أنت بخير؟".

أومأت برأسها من دون أن تبعد عينيها عن أنطوني.

تناولت فستانها وسروالها الداخلي عن الأرض وأعطيتهما لها. قلت لها: "سأتصل بالشرطة".

أمسكت بذراعي: "لا".

"سوزان. يحتاج إلى سيارة إسعاف".

"لا! ليس هذه المرة".

نظرت إليها ثم قلت: "حسناً... ارتدي فستانك".

ساعدتها على النهوض، وارتدت فستانها ثم اتجهت نحو خزانتها. في طريقها، توقفت ونظرت إلى أنطوني.

سمعته يحاول قول شيء ما، ثم ركعت سوزان قربه وأصغت إليه. هزّت رأسها وقالت له: "لا سيارة إسعاف. ستموت".

أمسك بها، فأبعدت ذراعه عنها، ووقفت وذهبت إلى الخزانة.

توجهتُ إلى خزانتي، وسحبتُ سروال جينز وقميصاً، ثم عدتُ إلى أنطوني وركعتُ قربه. أصبح تنفسه أكثر صعوبة واستطعت سماع صوت صفير يخرج من الثقب في صدره. كما أن الدم النازف من جرحه قد خبّب السجادة من حوله، وبدأ الدم داكن اللون يخرج من فمه، وليست هذه إشارة جيدة؛ على الأقل بالنسبة إليه.

لمعالجة جرح صدر عميق، عليك ختم ثقبيّ الدخول والخروج لمنع الهواء من الخروج من الرئتين، ومن ثم لفّ جرح الصدر بإحكام لإبطاء النزف. لكن هل أريد فعل ذلك؟

خرجت سوزان من غرفة الملابس وهي ترتدي سروال جينز وقميصاً قطنياً. ألقت نظرة على أنطوني، ولاحظت أنه لا يزال يتنفس.

أخرجتُ الفيلم من الكاميرا، ثم جمعتُ البندقية الصغيرة والبندقية الكبيرة وحزام أنطوني مع القراب والمسدس. فتحت الباب وجعلتها تخرج من الغرفة وتنزل على الدرج.

ذهبنا إلى المكتب، ورميت الأسلحة على الأريكة، ثم جعلتها تجلس في الكرسي الكبير. ذهبت إلى المشرب، وسكبت كأسين من الشراب لكل منا.

احتست كمية كبيرة، مثلما فعلتُ أنا، ثم جلستُ أمام المكتب ورفعتُ سمّاعة الهاتف.

"جون، لا تفعل".

تجاهلتها، وطلبتُ الرقم 911. أجابت امرأة على الهاتف، وقلت لها: "أريد الإبلاغ عن تعدٍّ في منزلي، ومحاولة اغتصاب، وقتل".

أعطيت المرأة موقع المنزل، ثم أعطيتها بعض تفاصيل الحادث فيما تم توجيه سيارات الشرطة والطوارئ.

قالت عاملة الهاتف: "خمس دقائق تقريباً".

أخبرتها أن البوابات الحديدية قد تحتاج إلى من يفتحها، وسألتني: "هل تظن أن هناك معتدين آخرين في المكان؟".

أجبتها: "كان يوجد، لكنني أظن أنه ذهب وينتظر اتصالاً من المعتدي".

"حسناً، سيدي، انتظر هناك مع زوجتك وتأكد من جهوزية كل الأسلحة النارية".

شكرتها وأنهيت المكالمة. قلتُ لسوزان: "سيكونون هنا خلال خمس دقائق".

نظرت إليّ وسألتني: "هل سيموت؟".

"لا أعرف".

"وجهت الضربة على قلبه. لكنه تحرك".

لم أعلّق على ذلك، وإنما قلت: "أنت شجاعة جداً، وذكية جداً".

احتست المزيد من الشراب، وقالت: "لم أكن ذكية كثيراً عندما فتحتُ الباب".

"كنت سأفعل الشيء نفسه ربما".

لم تجب، لكنني رأيتها تنظر إلى البندقية على الأريكة.

قالت لي: "علينا التحقق منه. قبل أن تصل الشرطة".

فكرتُ، طبعاً، في فرانك بيلاروزا مستلقياً على الأرض في مطعم جوليو، والشريان السباتي يقذف الدم. أوقف النزف. هذا ما تقوله القاعدة الأولى في الإسعافات الأولية. لذا، أوقفتُ النزف. بقي حياً، وها نحن الآن، بعد عشر سنوات، نتحمل النتائج.

وقفت سوزان، واتجهت مجدداً إلى البندقية الموضوعة على الأريكة.

"سوزان".

نظرت إليّ وقالت: "قبل أن تصل إلى هنا... قال لي - تظنان أنتِ وزوجك أنكما ذكيان، وأهم...".

"أعرف ما قاله".

"قويان وقادران جداً... حسناً، قال، حين أنتهي منكِ، لن تكوني نفسك أبداً مجدداً... ولن ينظر إليك زوجك بالطريقة نفسها مجدداً... ويمكنك العيش مع هذا، أيتها الساقطة، مثلما أعيش أنا كلما فكرتُ كيف قتلتِ والدي...". حملت البندقية وقالت: "وأخبرني أن الأمر قد يعجبني كثيراً، وقد أرغب في تكرار ذلك مجدداً معه".

وقفت بينها وبين الباب. قلت لها: "لا يمكنك فعل ذلك. لن أسمح لك".

حدّقت إلي، والبندقية مثبتة في ذراعها، ثم قالت: "أنا آسفة، جون، على كل ما حصل لنا".

"الموضوع مغلق".

"هل أنت آسف لأنك أنقذتَ حياة فرانك؟".

نعم ولا. قلت لها: "فعلتُ الشيء المناسب".

"كان الشيء الخطأ".

نظرتُ إليها وسألتها: "هل كان هذا رأيك آنذاك؟".

لم تجب لبضع ثوانٍ ثم قالت: "لا، لكن بعد ذلك... تمنيتُ لو أنك تركته يموت. والآن، لن نرتكب الخطأ نفسه مجدداً".

رفعت يدي وقلت لها: "أعطيني البندقية".

دفعت البندقية نحوي وقالت: "هدد ولدينا. لذا، اهتم بالأمر".

ترددتُ، ثم أخذت منها البندقية. تبادلنا النظرات ثم قالت: "افعل ذلك من أجل إدوارد وكارولين".

فكرتُ في قتل أنطوني، وكنتُ سأفعل ذلك من دون تردد حين كان يشكل خطراً علينا. لكن قتل رجل مجروح بدم بارد ليس الشيء نفسه. وبالرغم من ذلك... إذا بقي على قيد الحياة... سيكون هناك تحقيق، ومحاكمة علنية، وشهادات عما

حصل هنا... وسيبقى دائماً ذلك الخطر محدقاً بنا... لكن إذا مات... حسناً، الميت ميت. الموت بسيط.

أخذتُ نفساً عميقاً وقلت: "سأتحقق منه".

حملتُ البندقية وتوجهت إلى الردهة، وصعوداً على الدرج، ثم توقفتُ أمام باب غرفة نومنا. تأكدت من أن مفتاح البندقية مضبوط على الأسطوانة اليسرى - تلك التي تحتوي على الرصاص القاتل للأيل الكبير، ثم فتحتُ الباب.

رأيته ممدَّدا على الأرض، وكان قلبه لا يزال يخفق.

اقتربتُ منه أكثر، ثم ركعتُ قربه.

أصبحت ذراعاه على جانبيه الآن، بينما الدم النازف من جرحه تباطأ ولم يعد ممزوجاً بالهواء.

نظرتُ إلى وجهه، الذي كان شاحباً جداً لدرجة أن لحيته القصيرة على وجنتيه بدت مثل طلاء أسود اللون. تحسستُ نبضه، ومن ثم قلبه، الذي أصبح يخفق الآن بسرعة كبيرة للتعويض عن الانخفاض في ضغط الدم.

انحنيتُ قربه، وقلت له: "أنطوني".

حرّك جفناه.

"أنطوني!". صفعت وجهه، ففتح عينيه.

تبادلنا النظرات. تحركت شفتاه، لكنني لم أسمع أي شيء سوى صوت غرغرة.

قلت له: "حين تذهب إلى الجحيم، وترى والدك، أخبره كيف وصلتَ إلى هناك، وأخبره من قتلك. اسأل والدك عن حقيقة عزمه على التخلي عن عائلته من أجل سوزان. أنطوني؟". صفعته مجدداً وقلت: "هل تستطيع سماعي؟".

لا تزال عيناه تكشفان عن بعض الحياة فيهما، لكنني لا أعرف إذا كان باستطاعته سماعي بسبب صوت الصخب في أذنيه، وهذا ما يحصل حين يحاول القلب ضخ آخر ما تبقى لديه من الدم عبر الأوردة والشرايين.

قلت بصوت عال: "واشكر والدك على إسدائه لي آخر خدمة".

حرّك جفناه مجدداً، وعرفتُ أنه سمعني.

بقيت أحدق إليه. أصبحت عيناه مفتوحتين تماماً الآن، وتلاحقان كل تحركاتي، وفكرتُ في أنه قد يعيش.

جاءت سوزان إلى الغرفة، ونظرت إليّ، ثم إليه، لكنها لم تقل شيئاً.

استطعتُ سماع أصوات صفارات سيارات الشرطة في الخارج، وقلتُ لها: "اذهبي وافتحي لهم الباب. بسرعة".

"جون، عليك فعل ذلك، وإلا سأفعله بنفسي".

"اذهبي. سأهتم بذلِك".

نظرت إليّ مجدداَ، ومن ثم إلى أنطوني، ثم استدارت وغادرت.

حدقتُ إلى أنطوني الذي كان لا يزال يكشف عن الكثير من علامات الحياة... لقد تأخر الوقت الآن على إطلاق النار من البندقية مع وجود الشرطة خارجاً.

لاحظتُ أن دمه قد تخثر فوق جرحه، وكان يرشح بدلاً من أن يتدفق بقوة. أوقف النزف... ابدأ النزف.

ركعتُ على صدره، فتح عينيه مذعوراً. أقحمتُ سبابتي في جرحه، وأدخلتها قدر ما استطعت في تجويف صدره، وحين سحبتُ إصبعي، عاد الدم ليتدفق مجدداً بقوة.

أبقيتُ كل وزني على صدره، الذي خفق بقوة، ثم توقف.

وقفتُ، وذهبت إلى الحمام، وغسلتُ يديّ، ثم رميتُ البندقية مجدداً على السرير.

حين نزلتُ إلى الأسفل، كانت سوزان تقف قرب الباب المفتوح. وعلى المصطبة الأمامية، ثمة سيارتان للشرطة مع شرطيين في بذلاتهم يتحركون بسرعة في اتجاه المنزل.

أحطت جسدها بين ذراعيّ وقلت: "انتهى الأمر".

الفصل الواحد والسبعون

فتشت الشرطة المنزل، والمكان المحيط به، وتأكدت من عدم وجود معتدين آخرين.

رجال الإسعاف، الذين نقلوا حمالة إلى الأعلى، لم ينزلوها إلى الأسفل، وقال لي رجل الشرطة: "لقد مات". الطبيب الشرعي، حين يصل، سيعلن ذلك رسمياً.

وضعت الشرطة لصائق على الأسلحة بمثابة أدلة، وبدأ المحققون في مسرح الجريمة العملية البطيئة والصعبة لتحويل ساحة اعتداء شخصي عنيف إلى مشروع علمي دقيق.

في هذه الأثناء، دخل تحرٍّ متخصص في جرائم القتل اسمه ستيف جونز إلى مكتبنا المنزلي لإجراء مقابلة معي فيما أخذ رجال الإسعاف سوزان إلى قسم الاعتداء في مستشفى نورث شور الجامعي.

لم أسرّ لأنه لم يُسمح لي بمرافقة سوزان إلى المستشفى، لكن التحري جونز شرح لي أن هذا الأمر هو إجراء اعتيادي. في القضايا المنطوية على جنايات خطيرة، يتم فصل الشهود. حسناً، لا ينطبق القياس الواحد على الجميع، وبالرغم من أننا شاهدان، وبالرغم من أن سوزان قتلت المعتدي، فإننا أيضاً ضحيتا جريمة، ولذلك قلتُ للتحري جونز: "ستتعاون طبعاً كما يجب، لكنني أصرّ على أن أكون موجوداً حين تقابل السيدة ساتر". شرحتُ أيضاً: "أنا محام، وأنا أيضاً محاميها". اقترحت عليه: "من الجيد ربما الاتصال بالتحري ناًستاسي في المقاطعة الثانية، الذي استلم شكوانا الأساسية بشأن المخاطر التي ألحقها بنا المعتدي".

أخذ التحري جونز كل ذلك في الاعتبار، ثم غادر المكتب لاستشارة مديره في قسم الجنايات ومحامية من النيابة العامة في قسم الجنايات، اللذين كانا قد وصلا قبل قليل. إنها بلا شك قضية مهمة جداً، ولذلك فإن التحري جونز، الذي يجري عادة التحقيق بنفسه، سيشارك مهامه الآن مع زملائه الأعلى منه شأناً، والذين أصبحوا في غرفة الجلوس.

الخلاصة في ذلك، حين تقتل سيدة مجتمع رجل مافيا - في منزلها أو منزله - تتخذ القضية بعداً آخر، ويرغب الجميع في المشاركة فيها. تذكرتُ أن هذا ما حدث يوم مقتل والد أنطوني.

عاد التحري جونز وأبلغني: "التحري ناستاسي في طريقه إلى هنا". وجواباً على طلبي الآخر، قال: "لا نعارض وجودك حين نحدّد موعد لقائنا بالسيدة ساتر".

"شكراً".

ثم أضاف: "بصفتك محامياً، تعرف أنك شاهد في جريمة قتل وربما أكثر من شاهد. لذا، قبل أن آخذ إفادتك، أحتاج إلى قراءة حقوقك عليك". أضاف: "كإجراء

روتيني".

لم أتفاجأ كثيراً من ذلك، لكنني بدأت أنزعج. من جهة أخرى، هناك جثة في غرفة نومي، ويريد التحري جونز التأكد من أنه بصدد التحقيق في جريمة قتل مبررة. في الواقع، ليس كذلك؛ أقصد أن قتل سوزان لأنطوني فعل مبرر نوعاً ما، لكن تدخلي في تسريع موته يعتبر جريمة. قلت له: "دعني أوفر عليك العناء". ثم قرأت على نفسي حقوقي.

بدا التحري جونز راضياً عن ذلك ولم يسألني إذا ما كنت قد فهمتُ ما قلته للتو لنفسي.

قبل أن أبدأ إفادتي، أخبرت التحري جونز من أن المعتدي الميت، واسمه أنطوني بيلاروزا، قد تحدث أيضاً عن شريكه طوني روسيني، رجل قلتُ قبلاً إنني أعرفه.

نقل التحري جونز هذه المعلومة إلى تحرٍّ آخر، ثم أبلغني: "كنت أحد التحريين الذين حققوا في جريمة قتل البيلاروزا الآخر قبل عشر سنوات".

لم أعرف بالضبط لمَ ذكر ذلك، لكنني لا أزال منزعجاً من انفصالنا أنا وسوزان، فأجبته: "هل مضت عشر سنوات بين جريمتيّ بيلاروزا؟".

تجاهل سخريتي، وبدأت إفادتي. دوّن التحري جونز كل كلمة قلتها بيده على ورق مخطط، بالرغم من أنه كان بوسعي طبعاً طباعتها على الكمبيوتر أو كتابتها بنفسي. لكن هذه هي الطريقة التي تجري فيها الأمور، فلمَ إدخال تكنولوجيا جديدة؟

لم أذكر في إفادتي أنني ركعتُ على صدر المعتدي، وأعدتُ فتح جرحه للتأكد من موته قبل وصول رجال الإسعاف. لم يسألني التحري جونز، فلمَ أتطوع للكلام؟

استغرق كل ذلك ساعة تقريباً، وبعدما قرأتُ إفادتي، وقعتها، مثلما فعل التحري جونز من بعد توقيعي وتحرٍّ آخر شهد أيضاً على توقيعي.

رأيت سيارة شرطة تتوقف أمام المنزل ورافق رجل شرطة سوزان إلى الباب الأمامي. ذهب التحري جونز إلى الباب ورافق سوزان إلى المكتب.

تعانقنا، وقالت لي: "أنا بخير. أعطوني بعض المسكنات والمهدئات، وطلبوا مني العودة غداً للمتابعة - لكنني أظن أنني سأراجع طبيبي الخاص بدلاً من ذلك".

انضم إلينا في المكتب المشرف على التحري جونز، الملازم كينيدي، إضافة إلى محامية من النيابة العامة، شابة اسمها كريستين دونيلي، ذكرتني بكارولين. لمساعدة الجميع على استيعاب هذه المرحلة الحاسمة من التحقيق، قلت: "ابنتنا كارولين محامية في بروكلين".

ابتسمت الآنسة دونيلي وقالت: "ليس سهلاً العمل مع جو هاينز، لكنها ستتعلم الكثير".

أعرف أن هناك أخوة كبيرة تنشأ بين رجال القانون، وعليك ألا تفوّت أي فرصة لتخبر شرطياً أو شخصاً من النيابة العامة أن عمك المفضل شرطي في جنوب البرونكس - أو في مكان ما - وأن ابنتك، أو ابنة أختك أو ابن أخيك يعمل في مكان ما في مكتب مدعي عام؛ حتى لو توجب عليك تلفيق ذلك.

على أي حال، إنها قضية التحري جونز - أي أنه المسؤول عن زمام الأمور مثلما يقولون - وبدأ الاستفسار عمّا إذا كانت سوزان تشعر أنها بخير وما إلى ذلك.

ثم قرأ عليها حقوقها وطلب منها أن تدلي بإفادتها بشأن ما حصل هذا المساء. وفيما بدأت، راح التحري جونز يدوّن كل شيء على ورقه المخطط.

فهمتُ أنه من الأفضل ألا أقول أي شيء، بالرغم من أنه كان بوسعي طبعاً تقديم النصح لزبونتي إذا رأيتُ أنها تدلي بإفادة لغير صالحها، مثل "طلبتُ من جون الصعود إلى الأعلى، والاهتمام به". وقد يسأل التحري جونز حينها: "ماذا تقصدين بالاهتمام به؟".

طبعاً، لسنا مشتبهين في جريمة قتل، لكن شخصاً قد مات، ولذلك علينا أنا وسوزان أن ننتبه إلى ما سنقوله.

أخبرت سوزان قبلاً، قبل أن يصل أول تحرٍّ، أن تقول صراحة إن حياتنا كانت فعلاً في خطر ولهذا السبب أطلقت النار على رجل لم يكن مسلحاً في تلك اللحظة. نصحتها أيضاً، بصفتي محاميها، أن تقول إن المعتدي تجاهل أمرها بالتوقف ورفع يديه عنها.

ليس هذا تفصيلاً تقنياً صغيراً لسوء الحظ، ولم أشأ إثارة شكوك القضاة. الحقيقة طبعاً هي أن سوزان وجهت البندقية إلى قلبه، وأرادت من ثم إنهاء حياة أنطوني بتوجيه طلقة أخرى إلى وجهه. أنا أفهم تماماً رغبتها في القيام بذلك، لكنني لستُ واثقاً من أن الشرطة أو النيابة العامة ستفهمان ذلك؛ خصوصاً وأنها قتلت والد المعتدي قبلاً من دون أي مبرر.

الخلاصة هنا أن سوزان ستانهوب، بالرغم من كونها سيدة لطيفة، تملك جانباً آخر في شخصيتها، أظهرته قبل عشر سنوات وأتمنى ألا تظهره مجدداً في وقت قريب.

فيما أخبرت سوزان القصة، دوّنت الآنسة دونيلي بعض الملاحظات وكذلك فعل المشرف على قسم الجنايات، الملازم كينيدي، لكنهما تركا سوزان تتكلم بحرية.

وصلت سوزان في روايتها إلى المرحلة التي جرّها فيها أنطوني بيلاروزا وطوني روسيني عبر الدرج إلى غرفة النوم، ونزعا عن جسدها ثيابها وكبّلاها بأعمدة السرير.

لاحظتُ أن الآنسة دونيلي، الشابة جداً لسماع مثل هذه القصص عن الفساد البشري، انزعجت بوضوح. فكرتُ في كارولين وتساءلتُ ماذا ستفعل بها بعض السنوات الإضافية في مكتب المدعي العام في بروكلين.

أصبحت سوزان هي الأخرى منزعجة في هذه المرحلة من الرواية، لكنها أخذت نفساً عميقاً وتابعت. قالت: "ربطني بيلاروزا بالسرير ووجهي إلى الأسفل، ثم استخدم حزاماً - أظنه حزام جون - لضربي على...".

وقفتُ وقلت: "لم أسمع هذا، ولا أحتاج إلى ذلك. أبلغوني من فضلكم حين تصل السيدة ساتر إلى مرحلة دخولي إلى غرفة النوم".

تركت المكتب، وخرجت لتنشق بعض الهواء. هناك الآن ست سيارات للشرطة متوقفة في الفناء الأمامي مع عدد من سيارات تقصي مسرح الجريمة، لكن سيارة الإسعاف كانت قد ذهبت، وافترضتُ أنهم أخذوا جثة أنطوني إلى المشرحة. حسناً، فكرتُ أنهم إذا لم يستغرقوا وقتاً طويلاً في تشريح الجثة، يمكن وضع أنطوني والعم سال معاً في دار الجنازة، في الدار نفسها ربما في بروكلين حيث رقد فرانك قبلاً. ومن ثم - إذا لم تعارض أسقفية بروكلين - تقام جنازة مشتركة لهما مع دفن مزدوج في المقبرة. ألن يكون ذلك مثيراً للسخرية؟ أو على الأقل ملائماً للعائلة والأصدقاء. على أي حال، سأفوّت حضور هاتين الجنازتين.

عثر عليّ شرطي يرتدي بذلة، ورافقني مجدداً إلى المكتب.

تابعت سوزان قصتها بالقول: "تمنيتُ أن يتصوّر جون وجود خطب ما ويتصل بالشرطة... لكنني سمعتُ من ثم صوت أنطوني في القاعة مع صوت آخر، وحين أدركت أنه جون، غرق قلبي حزناً...".

جلست وأصغيت إلى سوزان وهي تصف من وجهة نظرها ما حصل في غرفة النوم. اختلفت قصتها عن قصتي فقط لناحية ما كانت تظنه. قالت مثلاً: "مثلما قلت قبلاً، أخبرني بيلاروزا أن أول شيء سيدفعني للقيام به حين يصل جون إلى هنا هو إجباري على الركوع أرضاً و... لذا، عرفتُ أنني أستطيع عضه، وجعله يتألم كثيراً بحيث أتمكن من الدخول تحت السرير، وسحب البندقية التي خبأتها هناك". ثم أبلغت الجميع: "أجبر جون على تكبيل نفسه بالمشعاع، لكنه لم يظن أنني سأكون خطراً عليه".

حسناً، أراهن أن أنطوني أعاد النظر في ذلك حين أطلقت سوزان النار على صدره.

أنهت سوزان إفادتها بالقول: "قال إنه سيقتلنا، وتأكدت من أن حياتنا في خطر. لذا، حين سحبتُ البندقية، وطلبت منه التوقف ورفع يديه إلى الأعلى، صرخ في وجهي "ستموتين أيتها الساقطة" ثم قفز نحوي وأمسك بأسطوانة البندقية". تذكرت أن تضيف: "لم يعد أمامي من خيار سوى الضغط على الزناد".

نظر التحري جونز والملازم كينيدي والآنسة دونيلي إلى بعضهم، ثم قال التحري جونز لسوزان: "شكراً". طلب منها أن تقرأ إفادتها، ففعلت ذلك ثم وقّعت عليها مع التحري جونز والملازم كينيدي. اعتذر الملازم كينيدي والآنسة دونيلي بعد ذلك، لكنني بقيت مع سوزان والتحري جونز الذي طرح بعض الأسئلة على سوزان.

فيما أجابت سوزان على الأسئلة، اتصلتُ بوكيل سفرها وتركت له رسالة لإلغاء رحلتنا. لن نتمكن أيضاً من البقاء في المنزل، الذي أصبح مسرح جريمة، فضلاً عن أنه قد أصبح مكاناً فيه الكثير من الذكريات السيئة، ولذلك اتصلتُ بنادي الكريك، وحجزت لنا غرفة مع وصول متأخر.

اعتذر التحري جونز بعد ذلك وتركنا وحيدين في المكتب. سألت سوزان: "كيف حالك؟".

هزّت كتفها وأجابت: "متعبة ومنهكة... أشعر بالخفة التي تلي الصدمة، والتي قالت الممرضة في المستشفى إنني قد أشعر بها".

"أفهم". فهمتُ أيضاً أن هذا الشعور بالخفة سيزول، وأن أوقاتاً عصيبة تنتظرنا نحن الاثنين. لكن ضرورة التعاون مع التحقيق لتوضيح ما حصل شغل عقولنا قليلاً عما حصل.

وصل التحري أ.ج. ناستاسي إلى المكتب، وتبادلنا التحيات. عبّر لنا عن أسفه، ثم قال لنا: "كلفت مساعدة قسم الجنايات في هذه القضية".

أومأت برأسي. لكنني لاحظت كيف انتقلت هذه القضية بسرعة من: تقدمنا بشكوى ضد تهديدات أنطوني بيلاروزا إلى جريمة حقيقية. لكن إذا فكرنا ملياً في الأمر، نجد أن المسألة كانت ستنتهي حتماً بموت أحدهم - بالرغم من أنني لم أكن واثقاً من هوية الميت.

قال التحري ناستاسي: "لديّ بعض المعلومات التي قد تهمكما، إذا رغبتما في السماع".

أومأنا برأسينا.

أبلغنا: "حارس الأمن الذي كان هنا اختفى، ولذلك نظن أنه كان يعمل بدوام جزئي مع شركة بيل للأمن". أضاف: "أعطى هذا الحارس ربما البذلتين لبيلاروزا وروسيني، وأبقى بيلاروزا - أو شخصاً آخر - على اطلاع بتحركاتكما".

أومأت برأسي. عرفتُ أنها مؤامرة داخلية.

تابع التحري ناستاسي: "افترض الجميع أن بيلاروزا خارج المدينة، لكننا عثرنا على مفتاح في محفظته يعود إلى غرفة في فندق صغير في الكوينز، وتحققت منها شرطة نيويورك، وتبيّن لها من أنه مكث هناك طوال الأسبوع الماضي تحت اسم مستعار. عثرنا على سيارة شيفي كابري مركونة قرب منزله - واحدة من عشرين سيارة تقريباً تؤجرها شركة بيل للاستثمارات - ونعتقد أنها السيارة التي استخدمها هذا الأسبوع".

أومأت برأسي مجدداً. أفضل مكان للاختباء هو أمام أنوف الجميع. أنطوني بيلاروزا، مثلما قلت، ليس أذكى رجل على الأرض، لكنه مثل كل المعتدين، يستطيع بسهولة تكييف مهاراته لإرباك الأشخاص الذين يطاردونه. ثم فجأة عاد وأصبح هو الشخص المطارِد.

أبلغنا التحري ناستاسي أيضاَ: "يبدو أيضاَ أن حارس شركة بيل للأمن في عقارات الحمرا أبلغ بيلاروزا أنه لا يوجد رجال شرطة حول المنزل، فذهب أنطوني إلى عقارات الحمرا، وركن سياراته على مسافة مئات الياردات من منزله، ثم نظن أنه مشى عبر مساحات عقاره، برفقة طوني روسيني على الأرجح، واستمر في المشي حتى الوصول إلى هنا".

تذكرت المشهد الجوي للمكان الذي رأيته على موقع الويب. لطالما عرفت أن هذا احتمال ممكن، بالرغم من أنني أملتُ في أن يكون جهاز الأمن الشامل لستانهوب هال قيد العمل عند عودتنا من أوروبا. إلا أن أنطوني بيلاروزا كان سيجد طريقه إلى سوزان، في وقت ما، في مكان ما.

قال التحري ناستاسي: "بالنسبة إلى طوني روسيني، عثرنا عليه في منزل بيلاروزا - يبدو أنه يملك غرفة هناك في الطابق السفلي - وقال إنه ينتظر اتصالاً من مديره لإحضاره. هذا كل ما يعرفه". أضاف ناستاسي: "في الوقت الحاضر، تم احتجازه كمشارك في عدد من الجنايات". ثم قال لسوزان: "في صباح الغد، عليك التعرف إليه بين مجموعة من الأشخاص بصفته الرجل الذي رافق أنطوني بيلاروزا. نستطيع بعدها اتهامه".

أومأت سوزان برأسها.

أبلغنا التحري ناستاسي: "بما أن المعتدي نفسه قد مات، سيصبح التحقيق أكثر سهولة، والحكم في هذه القضية أسرع، وأكثر بساطة مما لو بقي على قيد الحياة".

صحيح. فالأموات لا يقصّون القصص، ولا يستطيعون الإدلاء بإفادات، أمام الصحافة أو الشرطة، تناقض الإفادات التي أفاد بها الضحايا. الأهم من ذلك أن أنطوني بيلاروزا لن يعود.

سألنا ناستاسي: "هل تملكان أي أسئلة في ما يتعلق بما يجري أو سيجري في هذه القضية؟".

سألته سوزان: "لكم من الوقت ستحتاجون إلينا؟".

أجاب: "لشهر أو شهرين، بالرغم من أن هذا ليس قراري".

أبلغته سوزان: "سنتزوج في السبت الثاني من شهر أغسطس، ثم نذهب بعدها في شهر عسل".

أومأ برأسه وقال: "تهانينا". ثم أضاف: "يفترض ألا تكون هذه مشكلة".

"لا، لن تكون". ثم استفسرت الليدي ستانهوب: "أين هي سيارتي؟".

أجاب: "لم نعثر عليها بعد، لكنني أظن أن روسيني يعرف مكانها. وحين نجدها، نحتاج إلى حجزها حتى ينتهي منها فريق تقصي الجريمة".

أومأت سوزان برأسها ثم سألت: "متى نستطيع العودة إلى منزلنا؟".

"خلال يوم تقريباً".

لا أظن أن سوزان تريد العودة بهذه السرعة، لكن إذا فعلنا، نعرف كلانا أن هذا سيكون مؤقتاً. بعدما ننتهي من الإعصار الإعلامي والتحقيق الإجرامي، سنبيع منزل الضيوف إلى أمير نسيم ونذهب إلى مكان آخر. لا أعرف إلى أين؛ قد نرمي نرداً على خريطة العالم.

قطع التحري ناستاسي أفكاري، وقال لسوزان: "أعتقد أن هيئة المحلفين ستتوصل إلى مبررات مقنعة للقتل. لذا، لا تقلقي بشأن ذلك". ثم اقترح: "اعثرا على مكان تمكثان فيه الليلة، وابقيا على اتصال بنا، وسنرتب كل شيء في الغد". ثم ختم بالقول: "يقول التحري جونز إنه لم يعد بحاجة إليكما هنا".

شكرناه وتصافحنا، ورافقنا تحرٍّ آخر إلى غرفة نومنا، التي كانت تعجّ بمحققي مسرح الجريمة. ثمة مصور يلتقط الصور للسجادة المخضبة بالدم وللمخطط المرسوم بالطبشور لجثة أنطوني فوقها.

وضبنا بعض الأغراض في حقائب صغيرة، ثم نزلنا إلى الأسفل.

تفاجأت لرؤية العميل الخاص في الأف بي آي فيليكس مانوسكو ينتظرنا في الردهة، وكانت لحظة غريبة. استفسر أولاً عن حال سوزان، وأجابته: "أنا بخير".

ثم قال لنا صراحة: "حسناً، أشعر وكأنني ضللتكما في ما يتعلق بمكان وجود أنطوني بيلاروزا ونواياه". أضاف: "لم أظن يوماً أنه سيفعل ذلك بنفسه".

أجبته: "لا تقلق بشأن ذلك، سيد مانوسكو. أجرينا جميعاً حسابات غريبة، وكانت بعضها غير صحيحة. نقدر لك ما فعلته، واهتمامك الشخصي بهذه المسألة".

"هذا لطف منك". لكنني لاحظتُ أنه لا يزال منزعجاً واعترف: "لم أكن أفهم أنطوني بيلاروزا... لم أفهم كم كان مدفوعاً بالحقد... وبالمفهوم القديم القائل الدم بالدم. لم نعد نرى الكثير من ذلك في مجتمعنا الجميل والمتحضر، لكنني أراه الآن في مهنتي الجديدة".

كان بوسعي إخبار فيليكس مانوسكو أن المظهر الخادع للحضارة رقيق جداً، وهو يعرف ذلك، لكنه، مثلنا جميعاً، يتفاجأ دائماً حين يخرج الوحش القديم رأسه البشع مجدداً. قلت له: "سنمكث في نادي سوزان الليلة، ونحن مرهقان".

"أفهم ذلك. سأرافقكما إلى الخارج".

خرجنا إلى الفناء الأمامي. كانت الليلة صافية ومنعشة، وهناك ملايين من النجوم فوق رؤوسنا في السماء.

قال السيد مانوسكو لسوزان: "سمعتُ من التحري جونز أنكِ كنت ذكية جداً، وشجاعة جداً".

نسيت سوزان أو تجاهلت ما أخبرتها به عن جريمة القتل المبررة، فقالت: "كنت غبية جداً. لم يكن ليقتلنا. كرر ذلك ست مرات تقريباً. ليس هذا الدم بالدم. أراد إذلالنا وجعل حياتنا مثل الجحيم". أخذت نفساً عميقاً وقالت له، وإنما في

الواقع لي أنا: "كان بوسعي السماح له باغتصابي، وكان الأمر سينتهي. لكنني خاطرت بحياتي، وحياة جون، لقتله".

هذه إفادة ضدها، مثلما نعرف أنا والسيد مانوسكو، لكنه استلطفنا وشعر ببعض المسؤولية عما حصل، ولذلك قال: "أنا واثق من أنك كنت تعرفين أن حياتك في خطر، سيدة ساتر، ولذلك فعلت الشيء الصحيح بإطلاق النار عليه".

سوزان، التي أرادت إنزال العبء عن صدرها، قالت: "لو أراد قتلي بسبب ما فعلته بوالده، لكنت فهمت ذلك... العين بالعين... لكنه... أراد قتل أرواحنا، ولم أكن سأسمح له بذلك".

فكّر السيد مانوسكو في ذلك وقال: "أفهم، لكن... حسناً... ربما كنت سأفعل الشيء نفسه".

رافقنا إلى سيارة التوروس وقال: "بالمناسبة، قال الطبيب الشرعي إن بيلاروزا كان لا يزال على قيد الحياة حين وصل رجال الإسعاف، لكنه مات قبل أن يتمكنوا من تقديم أي إسعافات أولية له".

مارستُ حقي بالبقاء صامتاً حول هذا الموضوع.

تابع السيد مانوسكو: "يبدو... حسناً، يقول الطبيب الشرعي إن الجرح بدا وكأنه تخثر، لكن... تمزق التخثر في صدره وعاد للنزف مجدداً. نزيف حتى الموت". نظر إليّ وسألني: "لذا... كنت أتساءل إذا حاولتَ إعطاءه أي إسعافات أولية - مثلما فعلت مع فرانك بيلاروزا - وإذا سببت النزف الجديد عن غير قصد؟".

أفترض أن السيد مانوسكو كان يلمّح لي أنه ستطرح لاحقاً بعض الأسئلة حول تقرير الطبيب الشرعي بشأن سبب الوفاة. شكرته في عقلي على ذلك وأجبته: "فعلتُ ما كان يجدر بي فعله". أوضحت ذلك وقلت: "اتصلت بالرقم 911".

تركنا الموضوع هنا، وإذا ظن السيد مانوسكو أنني تدخلت لتسريع موت أنطوني بيلاروزا، لم يذكر ذلك. إلا أنني أملتُ في أن يكون قد فهم هذا.

يبدو أنه لم يعد هناك من شيء لقوله حول هذه الموضوعات، ولذلك تصافحنا، وركبت وسوزان في السيارة، وتقدمنا في الممر الطويل والمظلم.

كان منزل الحراسة مضاءً، وهناك سيارات شرطة توقفت خارج الباب، وعربات الإعلاميين منتشرة في الشارع. والبوابات مفتوحة، وخرجت عبرها، خارج ستانهوب هال، نحو غرايس لاين.

لم نعد إلى ستانهوب هال، وإنما أمضينا أسبوعاً في نادي الكريك، نتحدث إلى الأصدقاء والعائلة عبر الهاتف، من دون اللقاء بأي كان. على اتصال دائم بالتحري جونز للإجابة عن بعض الأسئلة. لم تواجه سوزان أي مشكلة في التعرف إلى طوني روسيني، الذي عرفته قبل عشر سنوات، وتمت إدانته بمجموعة من الجنايات من الفئة الأولى، بما في ذلك الخطف، مما يضعه في السجن لفترة زمنية طويلة.

سألني التحري جونز عن تقرير الطبيب الشرعي - تحديداً، إذا كنت أعرف شيئاً عن احتمال وجود شخص أعاد فتح جرح أنطوني بيلاروزا، بعدما ختم بصورة جيدة، وترك قطعاً من الدم المتجمد حول الجرح وقطعاً أخرى في أعماق الجرح. قال: "كما لو أن أحداً أدخل شيئاً ما في الجرح".

وجدتُ أنه يصعب تصديق ذلك، أو حتى فهمه، ولذلك أجبت: "لا أملك أي تدريب طبي - باستثناء الإسعافات الأولية التي تعلمتها في الجيش - ولذلك لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال".

لم يكن راضياً تماماً من جوابي، لكنه قال: "أظن أن القضاة سيصدرون حكماً مبرراً للقتل".

أجبته: "وماذا يستطيعون أن يقولوا غير ذلك؟".

بعد أسبوع في نادي الكريك، حجزنا غرفة في غورني إين في مونتوك.

في ليلتنا الأولى هناك، مشينا على الشاطئ، شرقاً في اتجاه منارة مونتوك التي تبدو لنا في البعيد. لم يكن هناك الكثير من الأشخاص على الشاطئ في منتصف الليل، وإنما قام مجموعة من الشبان بإشعال نار على رمال الشاطئ، وكان بعض الصيادين يصطادون السمك في البعيد.

كان القمر في السماء باتجاه الجنوب الغربي، فيما أضاء نوره المحيط، وألقى بوهج فضي على الشاطئ. ثمة نسيم عليل يعبر فوق الماء، مشبّع برائحة الهواء المالح، وصوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ.

شبكنا أيدينا ومشينا حفاة على الرمل أبيض اللون، من دون قول شيء أو الشعور بشيء، سوى الإصغاء فقط إلى صوت البحر.

تسلقنا هضبة رملية صغيرة، وجلسنا أمام المحيط. في الأفق البعيد، رأيت أنوار سفن الشحن والسفن الكبيرة، التي بدت مثل مدن صغيرة تطفو فوق الماء.

جلسنا هناك لوقت طويل، ثم سألتني سوزان: "هل سنتزوج؟".

"هل سأحصل على يختي؟".

ابتسمت وقالت: "طبعاً. بعد زواجنا، سنبحر إلى إنكلترا وسنصطحب معنا الولدين، ونرتب شقتك. بعدها... يغادر إدوارد وكارولين بالطائرة".

"ثم ماذا؟".

"هل نستطيع الإبحار حول العالم معاً؟".

"نعم".

"هل هذا خطير؟".

"وهل هذا مهم؟".

"لا، ليس مهماً".

قلت لها: "إنها تجربة تحولية".

"جيد. أعتقد أنني بحاجة إلى التحول". وضعت ذراعها حولي وسألتني: "أين تريدنا أن نعيش لبقية حياتنا؟".

"أظن أننا سنعرف المكان حين نراه".

"ستحب هيلتون هيد".

ابتسمت وأجبت: "ربما". دع أصدقاءك قريبين، وأعداءك أقرب. سألتها: "هل ستشتاقين إلى نيويورك؟ إلى ستانهوب هال؟".

"أفترض ذلك - إنها جزء مني. وما زلنا نحتفظ بذكريات جيدة عن المكان الذي ترعرعنا فيه، وتبادلنا الحب، وتزوجنا، وربينا ولدينا... وأمضينا حياتنا معاً. وحين نأتي إلى هنا للزيارة، نستطيع اعتبار أنفسنا كمسافرين عبر الزمن عادا إلى مرحلة رائعة ومكان رائع من حياتهما، وسنقول إننا عدنا إلى شبابنا مجدداً وإننا نملك حياة طويلة أمامنا".

"حسناً، نحن شابان، ونملك فعلاً حياة طويلة أمامنا".

شدّتني بقوة، وقالت: "من الرائع أنك عدت مجدداً".

نظرتُ إلى منارة مونتوك، وتذكرت يوم أبحرتُ من هنا قبل عشر سنوات. لم أكن أعرف إلى أين سأذهب، أو إذا كنت سأعود. ولم يكن ذلك مهماً، لأنه برأيي وفي قلبي، كانت سوزان برفقتي كل يوم في البحر. تحدثتُ إليها غالباً، وأعتقد أنها كانت تعرف أيضاً أنني أفكّر فيها غالباً.

كنت أجول معها العالم، في خيالي، شاهدنا النجوم معاً، وعشنا العواصف السيئة معاً، وأبحرنا إلى شواطئ الأمان معاً - حتى إننا تجولنا في شوارع لندن معاً. لم تتركني أبداً خلال السنوات العشر الماضية، ولذلك هذا ليس لقاءً، لأننا لم نفترق أبداً. وستكون هذه الرحلة هي الثانية التي نقوم بها معاً.

إذا قرر القدر قبلاً أننا لن نعود من البحر، لا بأس في ذلك. فلكل رحلة نهاية، ويطلق دائماً على نهاية الرحلة اسم الوطن.

أبحر الآن أيها المسافر للبحث والمعرفة.

والت ويتمان.